



وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الجزائر 2 "أبو القاسم سعد الله"

كلية العلوم الإنسانية

قسم: الفلسفة

تخصص: فلسفة

النقد التصحيحي للحضارة الغربية عند "جان جاك روسو"

Corrective criticism of Western civilization according to Jean-
Jacques Rousseau

أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه علوم في الفلسفة

إشراف: الأستاذ . الدكتور : رياض طاهير

إعداد الطالب: جمال برقاي

لجنة المناقشة

الرقم	اسم ولقب الأستاذ	الرتبة	مؤسسة الإنتماء	الصفة
01	أ.خديجة هني	أستاذة تعليم عالي	جامعة الجزائر-02-	رئيساً
02	د.رياض طاهير	أستاذ محاضر	جامعة قاصدي مرباح ورقلة	مشرفاً ومقرراً
03	أ.نوال بورحلة	أستاذة تعليم عالي	جامعة الجزائر-02-	مناقشاً
04	د.نادية سعدي	أستاذة محاضرة	جامعة الجزائر-02-	مناقشاً
05	د.جودي عمران	أستاذ محاضر	جامعة باجي مختار عنابة	مناقشاً
06	د.أحمد باجي	أستاذ محاضر	جامعة مولود معمري تيزي وزو	مناقشاً

السنة الجامعية : 2023/2022

Ministry of Higher Education and Scientific Research

University of Algiers 2 "Abu Al-kacem Saadallah"

Faculty of Humanities

Department of philosophy

Corrective criticism of Western civilization according to Jean-Jacques Rousseau

A thesis submitted for the degree of Doctor of Science in Philosophy

Prepared by the student: Djamel Berkai

Supervision of Prof . Doctor: Riadh Tahir

Discussion Committee Members

Number	Name and surname of the Professor	Degrée	University Institution	The Adjective
01	Pr .Khadîdja .Henni	Professor of Higher Education	University of Algiers2	President
02	Dr .Riadh . Tahir	Lecturer Class A	University of Kasdi Merbah Ouargla	Supervisor And Rapporteur
03	Pr .Nawel Bourahla	Professor of Higher Education	University of Algiers2	Member
04	Dr. Nadia Saadi	Lecturer Class A	University of Algiers2	Member
05	Dr. djoudi Amrane	Lecturer Class A	University of Badji Mokhtar Annaba	Member
06	Dr . Ahmed Badji	Lecturer Class A	University of Mouloud Maameri Tizi Ouzou	Member

University year: 2022/2023

كلمة شكر

"بعد بسم الله الرحمن الرحيم": "الحمد لله على نعمه التي لا تعد ولا تحصى اللهم اجعلنا من الشاكرين لنعمك".

أتقدم في هذا المقام بشكري الخالص إلى أستاذنا: -الفاضل و الكريم:-

"الأستاذ طاهر رياض" الذي لم يهزل علينا بنصائح القيمة ولم يتردد في

قبوله الإشراف على هذه الأطروحة وهذا العمل المتواضع كما أفادني

بتوجيهاته القيمة، وكان لي سندا متينا طيلة أطوار هذا العمل.

ألف شكر أستاذنا الفاضل.

كما أشكر اللجنة الموقرة التي قبلت بدراسة وتحليل وتقييم بحثنا هذا

المتواضع.

الطالب: برقاي جمال

الإهداء:

أهدي ثمرة عملي هذا المتواضع إلى: الأبوين الكريمين أطال الله في عمرهما
وإلى: أخي سمير وأختي خالية وعائلتها، وإلى أبناء عمي: - سعيد ويحيى،
وسميرة، وظريفة، وأعمر، وإلى أعمامي وعماتي وكامل عائلتي. وإلى روح
عمتي و جدتي وخالي أحسن المتوفى في نهاية العام الماضي رحمهم الله
وأسكنهم فسيح جنانه. و إلى روح الصديق زوبير.

وإلى كاهنة إبنة خالي المتميزة، و إيدير، سمير، إيدير، حكيم، إسماعيل، وهلال،
و رزيق ومحمد، وأحمد، والحسن... وإلى كامل الأصدقاء.

وإلى الأستاذ المشرف: طاهر رياض.

وإلى كل من ساعدني من قريب أو من بعيد في إنجاز هذا العمل المتواضع.

وإلى طلبة وعمال وأساتذة قسم الفلسفة: - بجامعة الجزائر 2 .

وإلى الزملاء الأساتذة المتعاقدين بجامعة "أكلي محند أولحاج بالبويرة" وفي
كل أنحاء جامعات الوطن.

وإلى كل من يبحث عن الحقيقة.

وفي الأخير: - وفقنا الله إلى ما يرغبه ويرضاه.

"والحمد لله رب العالمين." على إتمام عملنا هذا المتواضع.

الطالب: - برقاي جمال

فهرس المحتويات:

9	-المقدمة:
17	الفصل التمهيدي:
18	-المبحث الأول:-الفكر الأوروبي قبل القرن الثامن عشر:
24	-المبحث الثاني: فلسفة التنوير في فرنسا:
33	أ-البدايات الصعبة للحدائثة الفرنسية:
39	-المبحث الثالث: روسو وعصر الأنوار :
77	الفصل الأول - فلسفة جون جاك روسو:
78	المبحث الأول: فلسفة روسو التنويرية:
78	أولاً: إتجاهات فلسفة روسو:
78	الاتجاه الأول: مبادئ الانسان
79	الاتجاه الثاني : معرفة الانسان
79	الاتجاه الثالث: إختيار المشاكل التي تطرح بين الناس
80	ثانياً:-منهج روسو: أو المنهاج الفلسفي:
81	I. -المسائل والقضايا التي حلها روسو في مؤلفاته:
82	II. أهم العناصر التي تضمنها مقال التفاوت بين الناس
82	(1) -مصدر عدم المساواة:
86	(2) -طبيعة الإنسان المفطورة:
91	(3) -بداية الزراعة والتعدين وظهور الملكية الفردية :
92	(4) الاختلال الناشئ من الملكية :
94	(5) -مصدر المجتمع والقوانين :
95	(6) -إقامة الحكم المطلق:
98	III. -تفسير نظرية روسو السياسية.

1	199	1	مشروعية طيبة الإنسان:.....
2	102	2	-الحالة الطبيعية أو الحالة ما قبل اجتماعية وسياسية عند روسو:.....
3	102	3	-التقدم عند روسو:.....
4	107	4	-مسألة الملكية والتملك:.....
5	109	5	-العقد الاجتماعي:.....
	110		المبحث الثاني:- النزعة الرومانسية لدى روسو
1	110	1	-الحركة الرومانسية _:.....
2	113	2	-ملامح الرومانسية :
	119		<u>الفصل الثاني: - الحالة الطبيعية</u> :.....
	120		-المبحث الأول: الحالة الطبيعية.....
1	124	1	- الحالة الطبيعية في الفترة القديمة :
1	126	1	-الرواقيين والحالة الطبيعية:.....
2	129	2	-القديس" توما الاكويني" والحالة الطبيعية: (1225م.1274):.....
3	131	3	- "جان بودان" والحالة الطبيعية:.....
4	133	4	- "هوجو جروتوس" والحالة الطبيعية:.....
5	140	5	- "توماس هوبز" والحالة الطبيعية:.....
6	155	6	- "جون لوك" والحالة الطبيعية:.....
7	162	7	-الحالة الطبيعية عند جان جاك روسو:.....
	167		-المبحث الثاني: أصل التفاوت بين الناس
1	169	1	في أصل التفاوت بين الناس:
2	173	2	-الانسان الطبيعي:
	185		-المبحث الثالث:- ظهور الملكية والإنسان التاريخي والتفاوت الاصطناعي:.....
1	185	1	-ظهور الملكية.....
2	186	2	-الإنسان التاريخي عند روسو.....

193	(3) -التقدم وتطور سلوك الانسان:
202	(4) -ظهور الصناعة والزراعة:
208	(5) -بداية ظهور التفاوت الاصطناعي:
214	-المبحث الرابع:-ظهور المجتمع السياسي الفاسد وتأسيس الدولة:
256	<u>الفصل الثالث - العقد الاجتماعي وتصحيح الحضارة</u> :
257	-المبحث الأول: تعريف الحضارة وخصائصها:
262	(1) -العقل ومكانه في تاريخ الحضارة:
266	(2) -الإنسان و خصائصه:
268	(3) -البيئة الجغرافية والإنسان والحضارة:
293	(4) -جان جاك روسو وآراؤه في الحضارة والمجتمع والتاريخ: 1712-1887
300	-المبحث الثاني -العقد الاجتماعي:
300	(1) ضبط المفاهيم:
303	(2) -العقد الإجماعي عند روسو:
305	(3) -في المجتمعات البدائية الأولى:
310	(4) -السلطة المطلقة و في حق الأقوى:
312	(5) -في العبودية والاستعباد:
322	(6) - إلزامية الرجوع إلى اتفاقية أو معاهدة أولى:
324	(7) -في العقد الاجتماعي:
331	المبحث الثالث: الإرادة العامة والسيادة:
331	(1) -في صاحب السيادة:
337	(2) -في الحالة السياسية والمدنية:
339	(3) -في الملكية العينية والعمومية:
346	(4) -في أن السيادة غير قابلة للتنازل عنها:
348	(5) -في أن السيادة غير قابلة للتجزئة:
352	(6) - إمكانية وقوع الارادة العامة في الزلل والخطأ:
354	(7) - قيود السلطة السيادية:

363	(8) - الإرادة العامة غير قابلة للفناء:
368	المبحث الرابع: تصحيح الحضارة:
369	(1) -في القانون:
378	(2) -المشرع (القانون):
386	(3) -في الشعب:
397	(4) -في مختلف طرق التشريع:
402	(5) -في تقسيم القوانين:
405	(6) -تقسيم الحكومات:
408	I. -الشكل الديمقراطي:
413	II. -الشكل الأرستقراطي:
417	III. -الشكل الملكي:
429	(7) في علامات الحكومة الصالحة:
432	-المبحث الخامس: المواطن الصالح :
435	(1) المرحلة الأولى: الطفولة وما تقتضيه من عناية.
439	(2) المرحلة الثانية: التربية الأخلاقية:
443	(3) -المرحلة الثالثة: التربية الذهنية:
449	(4) -المرحلة الرابعة: المراهقة والتعليم الديني.
452	أ-التكوين الفلسفي والديني:
455	ب-إقرار إيمان الخوري السافوي:
456	ج-الإعداد للحياة:
458	د-إميل في المجتمع:
460	(5) -المرحلة الخامسة:صوفيا أو المرأة:
464	- الخاتمة
476	قائمة المصادر والمراجع:
494-493	ملخص الدراسة: (باللغة العربية والفرنسية والانجليزية)

مقدمة

مقدمة:

جاءت فلسفة "جان جاك روسو Jean Jacques Rousseau " كمشروع

سياسي يحمل في طياته مبادئ أخلاقية مثل الفضيلة والشرعية والحرية لتحليل المجتمع التاريخي باستعماله المنهج الأنثروبولوجي والتاريخي للبحث في تاريخ الانسان الطبيعي الأول وفي الحالة الطبيعية الأولى التي سبقت وجود الدولة والمجتمع المدني والسياسي أو الجهاز الاصطناعي كما يسميه " توماس هوبز Thomas Hobbes"، لنقد ولتجاوز الحضارة والمجتمع السياسي الفاسد، وهذا ما تجلّى من خلال مؤلفاته:-مقال في أصل العلوم والفنون، و رسالة في أصل التفاوت بين الناس، و في العقد الاجتماعي، وإميل أو في التربية.

وإن السياق التاريخي الذي جاءت فيه فلسفة روسو تتمثل في: أنها جاءت في مرحلة تاريخية سبقت الثورة الفرنسية ومهدت لي وقوعها، حيث كانت فيها أوروبا وفرنسا تعيش تحت طائلة الأنظمة الملكية الطاغية والمستبدة والفاسدة، والأنظمة الإقطاعية التي سلبت الناس اقتصادهم وأموالهم وأراضيهم ، وكان الناس يعيشون في استبداد سياسي واستغلال اقتصادي وفساد أخلاقي وفقدوا حريتهم وأصبحوا يعيشون في اغتراب وضياح حيث فقد الانسان السعادة وجوهر وجوده وهو الحرية فكان هناك استبداد وطغيان و استعباد واستغلال اقتصادي فاحش. وكانت فيها أوروبا في هذه الفترة تعيش في حالة تأزم وغلbian وعدم استقرار سياسي واقتصادي وفي فساد أخلاقي. وإن روسو تأثر "بديوجين Diogène من خلال رفضه للمدنية المفرطة وميله إلى الحياة البسيطة والطبيعية، وتأثر أيضا " بأوفيد Ovide "حيث يشير إليه روسو في كتابه رسالة في العلوم والفنون، وتأثر أيضا بفلاسفة العقد الاجتماعي الذين سبقوه مثل هوبز ولوك ويتجلى هذا من خلال قوله بوجود الحالة الطبيعية التي سبقت وجود الدولة والمؤسسات السياسية، ويتجلى ذلك أيضا في فكرة العقد الاجتماعي، وإن نظريات العقد الاجتماعي لم تأت لكي تبحث عن نشأة الدولة وإنما لكي تبرر وضعها سياسيا قائما أو البحث في تغيير هذا الوضع "توماس هوبز" Thomas

HOBBS أراد أن يبرر الحكم المطلق و "جون لوك" أراد أن يبرر الحكم البرلماني. وإن روسو أيضا ينتمي إلى فلسفة العقد الاجتماعي، وأتى بنظرية ذات أهمية في ميدان الفلسفة السياسية والاجتماعية: حيث قام بدراسة نقدية على المجتمع الأوربي في القرن الثامن عشر (18م) حيث أراد أن يعطي الحل للفساد وللاستغلال والتفاوت الاصطناعي الذي كان آنذاك وللفساد الأخلاقي الذي كانت تعيشه فرنسا خاصة وأوروبا عامة و أن يقوم بعملية نقد وتحليل للحضارة الأوروبية وللمجتمع الأوروبي، وللتقدم والتطور الحاصل آنذاك حيث أفقد الإنسان إنسانيته وحرية وطيبته، وأصبح الإنسان يعيش في عبودية وفي أغلال مصطنعة وفي إغتراب، وإستغلال كرسته الملكية الفردية، والتفاوت الاصطناعي المبني على القوة والاحتكار بلا حدود وعلى الأنانية والتسلط والسيطرة على الآخرين وقهرهم.

والإشكالية الرئيسية التي أردنا أن نعالجها في بحثنا هذا هي كالآتي :

كيف أسس روسو لمفهوم جديد للحضارة؟ وبصيغة أخرى: هل يمكن القول أن تأسيس المدنية بمفهومها الحضاري هي تجاوز لمآسي الإنسان؟ ما الهدف من المشروع الفكري الروسي؟ وهل الحضارة الغربية في القرن الثامن عشر، حققت السعادة للإنسان؟ وهل هذا التطور العلمي والصناعي أدى إلى تحقيق السعادة؟ وهل التطور العلمي يقابله تطور أخلاقي في المجتمع أم أن هناك انحطاط وفساد أخلاقي؟

فهل وفق روسو في نقده وتحليله للحضارة الغربية؟ وما هو المفهوم البديل

والجديد للحضارة الغربية الذي أتى به روسو في مشروعه هذا؟

تفرعت عن هذه الإشكالية الرئيسية مجموعة من التساؤلات الفرعية يمكن حصرها

فيما يلي:

- ما طبيعة العقد الاجتماعي عند "روسو"؟

- ما الهدف من العقد الاجتماعي عند "روسو" ؟

- هل "روسو" يعتبر أن الحضارة الغربية مفسدة بطبيعتها ؟ أم أن الإنسان لم يختر

المسار الصحيح لهذه الحضارة ومن ثم يكمن الحل في تصحيح مسار الحضارة الغربية؟

- هل فعلا التقدم العلمي الذي حصل في أوروبا - هل حقق السعادة وهل جعل

البشر سعداء أم رغم هذا التطور الهائل وزيادة التحكم في الطبيعة والتقنية لم يحقق السعادة؟

وهل نجح روسو في نقده للحضارة الغربية ؟

ولتحليل الإشكالية السابقة الذكر، والتساؤلات الفرعية، حاولنا في بحثنا هذا استخدام

عدة مناهج، بداية بالمنهج التاريخي، ويظهر ذلك بجلاء في البحث عن واقع الحضارة وأوربا

عمومًا قبل القرن الثامن عشر، في حين استخدمنا في درجة ثانية المنهج التحليل، وذلك

بمحاولة منا تحليل النصوص الفلسفية الروسية، واعتمدنا في درجة ثالثة على المنهج

النقدي، وذلك من خلال نقد أفكار روسو سواءً كان نقدًا موضوعيًا أو بفلسفة آخرين. كما

أن الدراسة الفلسفية دائمًا ما تستند إلى المنهج النقدي، نتيجة لطبيعة الموضوع المراد تحليله.

ولتحليل موضوعنا إستهلنا بحثنا **بفصل تمهيدي** حيث تطرقنا فيه إلى عصر التنوير

وخصائصه، المتمثلة في أنه عصر العقل وعصر الحرية وعصر حرية التفكير بلا قيود ولا

حدود، وإن روسو ينتمي إلى هذا العصر ويعتبر من بين أهم رواده:-الذين ساهموا

بمؤلفاتهم في تحريك هذا العصر وبعث الروح فيه والتأسيس للثورة الفرنسية على قواعد

فلسفية وفكرية ثورية، والتي سوف تحدث فيما بعد.- ومن ثمة تحرير الإنسان الأوروبي

عامة و الإنسان الفرنسي خاصة من قيود السلطة الكنسية ، واستبدادها وتجبرها وقهرها

للشعوب والسيطرة على حريات الأفراد وسلب حقوقهم الأساسية ، عن طريق الملوك الذين

يحكمون بيد من حديد وبمباركة من الكنيسة ، عن طريق نظرية التفويض الإلهي التي جاء

بها روبرت فيلمير ورجال الدين الآخرون حيث سيطرت على الاقتصاد بالنظام الإقطاعي ومن ثمة سيطرت بها على أملاك الدولة .

ففي الفصل الأول: تحدثنا عن فلسفة روسو التنويرية والتي فيها يمجّد فيها العقل وقدراته على التطور والكمال وإحداث الطفرة النوعية إلى التقدم نحو الأمام وإلى التقدم العلمي والتكنولوجي ، كما تحدثنا أيضا عن فلسفته الرومانسية التي تدعوا إلى العودة إلى الطبيعة والثورة على العقل والارتقاء في أحضان الطبيعة والعاطفة والخيال.

أما في الفصل الثاني : تحدثنا عن الحالة الطبيعية عند "روسو" والتي كان فيها الإنسان يعيش حالة طبيعية هنيئة يتمتع فيها بالحقوق الطبيعية وكانت لديه الحرية الطبيعية حيث كان هذا الإنسان يعيش حياة الرغد والحرية ، وكان يعيش حياة فطرية يتساوى فيها جميع الأفراد لا يعرف فيها إلا الغذاء والنوم والأنتى ، وكان يتغذى مما تمنحه إياه الطبيعة حيث يأكل من ثمار الأشجار ، وكان يشرب من أول جدول يلقاه أمامه وكان ينام تحت هذه الأشجار التي يتغذى منها ، وكان لدى الإنسان غريزة الرأفة مع أقرانه من البشر والشر الذي كان يخافه هو الجوع والمرض والألم، وكانت لديه غريزة المحافظة على بقائه ووجوده وكانت لديه مخيلة والقدرة على الكمال ، حيث يرى روسو أن الإنسان الطبيعي خير بطبعه لا يحب أن يرى أقرانه يتألمون حيث كان رؤوفا بأقرانه، ولا يمكن له الاعتداء عليهم كما كان يرى ذلك هوبز ، والذي كان يرى أن الحالة الطبيعية عنده هي حالة حرب الكل ضد الكل و أن الإنسان كان يعيش في صراع وقلق وخوف مستمر من أجل الحفاظ على حياته لأنه كان يعيش في صراع دائم مع أقرانه ، وأن القوة هي المبدأ الذي تركز عليه الحياة في هذا الطور فلن رغبات الإنسان والأنانية هي التي أدت إلى ذلك حسب هوبز، حيث كان يرى هوبز أن الإنسان ذئب للإنسان، وأن روسو لم يكن يرى بلن الإنسان كان بحاجة إلى أقرانه من البشر لأنه كان يكفي نفسه بنفسه ، وأن الطبيعة كانت تمدّه بالخيرات التي يحتاجها وكان يعيش في وئام وانسجام مع الطبيعة ، وأن الملكية كانت مشاعة في الحالة الطبيعية. لكن هذه الحالة لا تستمر حسب روسو وإنما الأوضاع سوف تتغير بصفة راديكالية وبطريقة

عنيفة وبطريقة فجائية، وأن الإنسان سوف يفقد حقوقه الطبيعية وحرية الطبيعية ، وهذا مع ظهور الملكية الفردية والإنسان التاريخي الذي قام بتأسيس الملكية الفردية ، ومن بعد التأسيس للمجتمع السياسي الفاسد: حيث كان فيه هذا الإنسان مستغل اقتصاديا وفاسد أخلاقيا ، ومكبل ومقهور سياسيا فالملكية الفردية هي التي ستؤسس للتفاوت بين الناس ، وتخلق تفاوت اصطناعي ويظهر هناك الفقراء والأغنياء ، وتخلق الأنانية والصراع بين البشر لمن يكسب أكثر ومن ثمة يسيطر على أقرانه ومن هنا بدأت الحروب والصراعات وأصبح العالم مسرحا لصراع دموي أدى بحياة البشر ، وفقد الإنسان الحرية الطبيعية والطمأنينة ، والوثام الذي كان يعيش فيه ومع إكتشاف النار والحديد بدأت المجتمعات في التشكل ، وظهرت الصناعة وبدأت البشرية في التقدم أكثر والدخول في الحضارة ، وأصبح الإنسان بحاجة إلى العمل للحصول على قوت عيشه وأصبح ملزما بإقامة علاقات مع الآخرين ، بينما كانت علاقته في السابق مع الطبيعة والأشياء. ولكي يحمي الأغنياء أملاكهم من الفقراء لكي يستعيدوا أملاكهم، ويستمرروا في الملكية بدت إلى ذهنهم فكرة جهنمية و خبيثة هي تأسيس الدولة أو (الجهاز الاصطناعي كما يسميه هوبز)، وإستخدام الفقراء لحماية أملاك الأغنياء من الفقراء الآخرين كحراس وجنود للدولة بحجة إستتباب الأمن، والقضاء على الفوضى التي تتجم من هذا الصراع الدائر حول الملكية.

ومن ثم تم تأسيس لظلم مدسّتر **une injustice institutionnalisée** وتأسيس قوانين تحمي الأغنياء والأقوياء، وممتلكاتهم بحجة الحصول على الأمن والهروب من الفوضى التي وقعوا فيها: حيث أوهموهم بأن هذه الدولة سوف تقضي على كل مآسيهم ومشاكلهم لكن الهدف الأساسي كان حماية أملاك الأغنياء. لكن هذا ما لم يحصل مع تأسيس المجتمع السياسي الفاسد، والتي ساهمت الحضارة والتقدم العلمي في زيادة من الشرور التي تعرض لها الإنسان من استغلال واستعباد من طرف أقرانه من البشر، وإن كل تقدم حدث بعد ذلك يعتبر سقوط وانهار وانحطاط وتراجع للجنس وللنوع للبشري ، حيث فقد كل حقوقه الطبيعية وفقد حريته وحتى إنسانيته، وأصبح يعيش في إغتراب: في هذا المجتمع

السياسي الفاسد القائم على الرياء، والأنانية والنفاق الاجتماعي المصطنع والتفاوت الاصطناعي، حيث أنتج لنا هذا التقدم إنسان فاسد وحضارة فاسدة.

و في الفصل الثالث : تحدثنا عن كيفية تصحيح مسار الحضارة الفاسدة ولتصحيح

هذه الحضارة لابد من إعادة بناء هذه الحضارة على أسس جديدة ، وممتينة مبنية على الأخلاق والفضيلة لا على الفساد والريزية ، وهذا ما يبشر به روسو في كتابه العقد الاجتماعي والذي سيؤسس لمجتمع سياسي جديد مبني على العقد الاجتماعي ، وعلى التراضي والترخيص والموافقة للتنازل على الحقوق الطبيعية لصالح الإرادة العامة ، والتي بموجبها سوف يتم تأسيس المجتمع السياسي القائم على الشرعية والموافقة ، لا على القوة والإخضاع كما يرى ذلك **توماس هوبز** . فالإرادة العامة هي التي تنظم الدولة وتوجه سيادة الدولة وهذا سوف يكون مبني على القوانين لأن القانون وحده هو الذي يمنع الحاكم من الطغيان والاستبداد ومن الأنظمة الحاكمة الغاشمة، والسيطرة بقوة بيد من حديد على الشعب ، فهذا القانون يكون نابع من الإرادة العامة ، والإرادة العامة نابعة من الشعب والذي هو مصدرها الأساسي.

وهذا لن يتأتى إلا بواسطة التربية الطبيعية ، والتي سيعطي لنا روسو الطريقة المثلى لبناء وتربية المواطن الصالح من خلال كتابه **إميل أو في التربية** ، حيث يخضع إميل إلى طرق التربية الطبيعية وهذا لمرحلة عدة سوف يمر بها إميل ، لكي يصل إلى الهدف المنشود وهو بناء إنسان ومواطن صالح ، وتصحيح الحضارة من الشوائب التي وقعت فيها: من خلال مسارها الذي أوصلها إلى هذا المآل ، والذي هو الشرور والمآسي التي لحقت بالإنسان من خلال الحروب ، والافتتال والصراعات الدامية التي حدثت من أجل من يملك أكثر والتفوق والسيطرة على الآخرين و إستغلالهم وحتى إستعبادهم. وإن الشر الذي تحدث عنه روسو هو التفاوت والاستغلال والشقاء ، والاستعباد والحروب التي حدثت بفعل ظهور الملكية الفردية ، والنتائج السلبية التي نجمت منها بفعل الصراعات على من يملك أكثر ، ويستحوذ على كل شيء ومن ثمة يسيطر على الآخرين فأصبح العالم مسرحا لاقتتال مروع

وعنيف لا نهاية له، وإن الشر الذي يتحدث عنه ليس الشر الميتافيزيقي الذي نتحدث عنه الكنيسة والمتمثل في الخطيئة ، إذن هذا الشر هو شيء عرضي أصاب الحضارة والإنسان ومن ثمة يمكن تصحيحه ، وأنه ليس لصيق بالإنسان و أن الإنسان غير محكوم عليه ب أن يعيش في الفوضى والحروب والاستغلال إلى الأبد ، إذن ما هي الآليات والحلول والبدائل التي وضعها روسو لتصحيح الحضارة والمجتمع السياسي الفاسد والمؤسسات الفاسدة، التي نجمت عنها؟

هذه هي الإشكالية الرئيسية الكبرى التي عالجها روسو من خلال مؤلفاته: - مقالة في العلوم والفنون - ومقال في أصل التفاوت بين الناس - والعقد الاجتماعي - وإميل أو في التربية. وكانت لهذه المؤلفات صدى واسع وتأثير واضح في الشعوب الأوروبية عامة ، وفي المساهمة وفي تفجير الثورة الفرنسية ، والتي أدت إلى تحرير الشعوب الأوروبية فيما بعد من طغيان وتسلط وقهر وسيطرة الكنيسة والأنظمة الملكية المستبدة والطاغية.

وإن البحث في موضوع فلسفة روسو وموضوع نقده للحضارة، ليس بالأمر السهل لذا حاولنا قدر المستطاع أن نتجاوز الصعوبات التي واجهتنا أثناء البحث. ومن الصعوبات التي واجهتنا أثناء قيامنا ببحثنا هذا: هو نقص المراجع والدراسات باللغة الفرنسية والعربية، حول فلسفة روسو، وحول الموضوع الذي نحن بصدد دراسته، وصعوبة الترجمة من المصادر الأساسية من اللغة الفرنسية إلى العربية، وكذلك نقص الوقت واتساع الموضوع، وبعد المسافة من الجامعة (جامعة الجزائر 2)، وصعوبة التوفيق بين الحياة العملية والبحث العلمي نظرا لضيق الوقت، وجائحة كورونا التي حلت بالبلاد والعباد والتي عطلت مسار بحثنا هذا طيلة ما يقارب أربع سنوات من التأخر. ورغم ذلك تمكنا في الأخير بفضل الله وبمساعدة الأستاذ المشرف الأستاذ الدكتور طاهير رياض من تجاوز هذه الصعوبات، وإنهاء هذا البحث في صورته الآتية.

الفصل التمهيدي: عصر التنوير في أوروبا.

المبحث الأول:-الفكر الأوروبي قبل القرن
الثامن عشر.

المبحث الثاني:- فلسفة التنوير في فرنسا.
المبحث الثالث:-روسو وعصر الأنوار.

1) -الفكر الأوروبي قبل القرن الثامن عشر :

يرى مؤرخو العلم والفلسفة، "بأن الوعي الأوروبي (أو المسيحي) وقع في تناقض مع نفسه منذ عام 1685، أو حتى قبل ذلك بقليل وكل هذا بسبب رؤية جديدة للعالم تنافس الرؤية المسيحية التي كانت مهيمنة على الأذهان، والعقول طيلة ألف سنة على الأقل أي طيلة العصور الوسطى. ولم يكن من السهل أن تقبل بظهور رؤية منافسة أو بديلة، ولم يكن من السهل على الناس أن يغيروا عقولهم فجأة لكي يتبنوا التصور الجديد".¹ حيث سيطر الفكر الأرسطي على قرون من الزمن ابتداء من العصور القديمة مرورا بالعصور الوسطى وصولا إلى عصر النهضة حيث كبل المنطق الأرسطي وقياساته العقل البشري حيث أصبح المنطق الأرسطي مقياسا للعلم وحجة الحجج، وإن المنطق والفكر الأرسطي القديم سيطر على مدة طويلة من الزمن فأصبح هو مقياس العلوم آنذاك وأصبح مألوا آنذاك، "فالتصور القديم يكون عادة راسخا في النفس ومحبا إليهم بحكم العادة والألفة والزمن المتطاوّل أو المتوارث أبا عن جد. - وليس من السهل أن تتفصل عن نفسك أو عن تصوراتك السابقة: أي عن كل ما شكلك منذ نعومة أظفارك عندما كنت لا تزال غضا طريا بعمر الورد".²، من ثمة لم يكن من السهل على الفكر البشري إقامة القطيعة مع الفكر الأرسطي، والمنطق الأرسطي وتجاوزه واستحداث آليات وعقلانية جديدة. زد على ذلك أن هذه العقلانية المطبقة هذه العقلانية التي تسترجع التعاليم التي قدمها الواقع لكي تترجمها إلى برنامج تنفيذي تتمتع بامتياز جديد حقا، فتعتبر أيضا بمثابة عقلانية مستقبلية استكشافية.³

¹ - هاشم صالح ، مدخل التنوير الأوروبي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ط1، 2005، ص 129

² - المرجع نفسه، الصفحة نفسها

³ - غاستون باشلار ، فلسفة الرّفص مبحث فلسفي: في العقل العلمي الجديد ، تر: خليل أحمد خليل، ط1، دار الحداثة للطباعة والنشر بيروت، لبنان، 1985، ص9

وإن استعمال المنظومات الفلسفية في المجالات البعيدة عن أصلها الروحي يكون على الدوام عملية دقيقة ويكون في الغالب عملية مخيبة للآمال. فالمنظومات الفلسفية المرحلة على هذا النحو تغدو عقيمة أو خادعة.¹، وإن تاريخ ومسار العلم تخللته أزمات وعوائق وعقبات وصراعات وكان لا بد من ثورات علمية لتجاوزها، وهكذا كان محتما أن ينشب الصراع ويشند أوجه طيلة عدة قرون، في الواقع إن الرؤية العلمية للعالم كانت قد تشكلت قبل عام 1675 بوقت طويل، ذلك أنه يمكننا نعود بها إلى اللحظة الغاليلية وإن كانت قد توجت على يد إسحاق نيوتن*² حوالي 1685-1687 تاريخ صدور كتابه الشهير: المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية.³

وكانت الثورة الكبرى للعلم الحديث قد ابتدأت فعلا حوالي عام 1620 على يد غاليليو وكيبيلر "وديكارت وبلغت ذروتها سنة 1686 على يد لايبنتز و نيوتن⁴ *". وهي أكبر ثورة

¹- غاستون باشلار، فلسفة الرافض مبحث فلسفي: في العقل العلمي الجديد، مرجع سابق، ص5.

- ² * (إسحاق نيوتن) بالإنجليزية Isaac Newton : 25 ديسمبر 20 - 1642 مارس 1727 عالم إنجليزي يعد من أبرز العلماء مساهمة في الفيزياء والرياضيات عبر العصور وأحد رموز الثورة العلمية. شغل نيوتن منصب رئيس الجمعية الملكية، كما كان عضواً في البرلمان الإنجليزي، إضافة إلى توليه رئاسة دار سك العملة الملكية، وزمالاته لأكاديمية العلوم في كامبريدج وهو ثاني أستاذ لوكاسي للرياضيات في جامعة كامبريدج أسس كتابه الأصول الرياضية للفلسفة الطبيعية الذي نشر لأول مرة عام 1687، لمعظم مبادئ الميكانيكا الكلاسيكية.

³- هاشم صالح، مدخل إلى التنوير الأوروبي، مرجع سابق، ص 129

* ⁴- كما قدم نيوتن أيضاً مساهمات هامة في مجال البصريات، وشارك غوتفريد لايبنتز في وضع أسس التفاضل والتكامل. صاغ نيوتن قوانين الحركة وقانون الجذب العام التي سيطرت على رؤية العلماء للكون المادي للقرون الثلاثة التالية. كما أثبت أن حركة الأجسام على الأرض والأجسام السماوية يمكن وصفها وفق نفس مبادئ الحركة والجاذبية. وعن طريق اشتقاق قوانين كبلر من وصفه الرياضي للجاذبية، أزال نيوتن آخر الشكوك حول صلاحية نظرية مركزية الشمس كنموذج للكون. صنع نيوتن أول مقراب عاكس عملي، ووضع نظرية عن الألوان مستنداً إلى ملاحظاته التي توصل إليها باستخدام تحليل موشور مشتت للضوء الأبيض إلى ألوان الطيف المرئي، كما صاغ قانوناً عملياً للتبريد ودرس سرعة الصوت. بالإضافة إلى تأسيسه لحساب التفاضل والتكامل، وساهم نيوتن أيضاً في دراسة متسلسلات القوى ونظرية ذات الحدين، ووضع طريقة نيوتن لتقريب جذور الدوال. كان نيوتن مسيحياً متديناً، [لكن بصورة غير تقليدية، فقد رفض أن يأخذ بالتعاليم المقدسة للأنجليكانية، ربما لأنه رفضاً لإيمان بمذهب الثالوث.

علمية وروحية في تاريخ البشرية. وعنها صدرت الثورات العلمية التالية في القرن التاسع عشر والقرن العشرين.¹

وبدأت القطيعة مع المنطق الأرسطي ومع العلم التقليدي والعقلية الكلاسيكية مع "فرانسيس بيكون" عندما كتب كتابه الشهير "الأورغانون الجديد" الذي ينتقد فيه المنطق الأرسطي والأورغانون القديم حيث تكلم عن المنهج التجريبي في كتابه هذا وعندما قام "غاليليو غاليلي" أيضا بقياس الجاذبية الأرضية بدأ العلم في التطور تطورا هائلا: وهكذا سيرجع بنا البحث دائما إلى المحور الفلسفي حيث تتأسس في الوقت نفسه الخبرة المتبصرة والإختراع العقلي وباختصار إلى المنطقة التي يشتغل فيها العلم المعاصر.²

وإن غاليلي يعتبر مؤسس العلم الحديث ومؤسس الفيزياء الحديثة أو الكلاسيكية أو الرياضية، "ويصل الحد بمفكر" كجورج غوسدروف " إلى حد القول إن "غاليليو" هو الذي دمر نهائيا الصورة الأسطورية أو التصور الأسطوري عن الكون. وأحل محلها الصورة العلمية أي صورة الكون الفيزيائي الموحد الخاضع للقوانين الصارمة للفيزياء الرياضية، وراحت هذه الفيزياء الرياضية تفسر جميع الظواهر سواء في مجال العلوم الطبيعية أم في مجال العلوم الإنسانية".³، وسميت هذه الفيزياء، بالفيزياء الرياضية أو الكلاسيكية: لأنها كانت تعتمد على الرياضيات في تفسيرها للظواهر الفيزيائية. وكانت تأخذ دائما بالجانب النظري في مقابل الجانب التطبيقي إذا حدث هناك تناقض بين هذين الجانبين، للمحافظة على التناسق الداخلي للنظرية. "ويمكن بأن تدمير غاليليو لصورة الكون الموروثة عن

¹-هاشم صالح، مدخل إلى التنوير الأوروبي، مرجع سابق، ص 129

²-غاستون باشلار، العقلانية المطبقة، ترجمة د. بسام الهاشم، الطبعة الاولى، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، بيروت،

لبنان، 1984، ص 39

³- هاشم صالح، مدخل إلى التنوير الأوروبي، مرجع سابق، ص 130

القرون الوسطى وعن أرسطو و بوطلايموس¹* كان أكبر حدث في تاريخ الفكر الغربي. ذلك لأن كل الثورات **الإبستمولوجية** أو العلمية التي حدثت خرجت من رحمه أي ثورة نيوتن في ذات القرن وثورة **اينشتاين** في بدايات القرن العشرين.²

ويعتبر غاليلي مؤسس الفيزياء الحديثة والكلاسيكية، وسميت بالفيزياء الكلاسيكية لأنها تعتمد على الجانب النظري والرياضيات في تفسيرها للكون و للظواهر الفيزيائية، ومن هنا يعتبر غاليلي مؤسس العلم الحديث بالمعنى التجريبي لأنه المجرب الأول حيث قام بقياس الجاذبية الأرضية قياساً رياضياً و وضع ما يسمى بقانون الجاذبية الأرضية. "وليس عبثاً أن الفلاسفات البدائية كانت تختار في هذا الاتجاه اختياراً حاسماً إذ ربطت بمبادئها الشكلية واحداً من العناصر الأساسية التي غدت هكذا أمزجة فلسفية".³

وإن القطيعة الإبستمولوجية هنا هي قطيعة مع الرأي ومع التفكير الأرسطي ومع العلم القديم والقياس الأرسطي، "فهذه القطيعة الإبستمولوجية لديها أهمية وتتمثل في القطيعة التي حصلت في لحظة "كيبلر" و **غاليليو** والتي نظر إليها ديكارت فلسفياً. أما **كوبرنيكوس** الذي ينتمي إلى القرن السادس عشر فهو متضمن داخل الثورة الغاليلية بالطبع. إذن فإن "ديكارت" هو الذي إستخلص على المستوى الفلسفي النتائج العميقة لحدث علمي كبير كهذا".⁴

*1- **كلوديوس بطليموس** و بطليموس عاش حوالي 100م - حوالي 170 هو رياضي وعالم فلك وجغرافي ومنجم وشاعر. أما في الأنثولوجيا الإغريقية. من أهل القرن الثاني للميلاد. وُلِدَ نحو سنة 87 م وتوفي قُرْبَ الإسكندرية نحو 150 م. وهو صاحب كتاب **المجسطي**. يقوم نظامه الفلكي على أساس أن الأرض ثابتة، وأنَّ الأفلاك تدور حولها.

²- هاشم صالح ، مدخل إلى التنوير الأوروبي، مرجع سابق، ص 130.

³- غاستون باشلار، الماء والأحلام، دراسة عن الخيال والمادة ، تر: علي نجيب إبراهيم، تقديم أدونيس، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2007، ص 16

⁴- هاشم صالح، مدخل إلى التنوير الأوروبي، مرجع سابق، ص 130

وبما أن العلم غير مكتمل على الدوام فإن فلسفة العلماء تظل دائما شبه إنتقائية أي مفتوحة ومتجددة¹، وسوف نجد فيما بعد أن "كانط" هو الذي عرف كيف يستخلص الدرس الفلسفي الكبير من اكتشافات "نيوتن" ولذا انتشرت العبارة القائلة: "لولا نيوتن لما كان كانط". وهذا دليل على مدى ارتباط الفلسفة بتقدم العلم في الغرب.²

وتأثر "كانط" تأثرا بالغا بالثورة العلمية التي آتى بها نيوتن في ميدان الفيزياء الكلاسيكية أو النظرية باعتبار أن نيوتن يرى أن هذا العالم يسيطر عليه مبدأ الحتمية، وبأن نفس الأسباب دائما تؤدي إلى نفس النتائج وبأن الجسم يكون دائما في حركة فلن يتوقف إلا إذا كانت قوة مساوية لتلك الحركة لكي توقفه. "بل إنك لا تستطيع أن تتفلسف إلا بعد أن تطلع على آخر الاكتشافات العلمية في عصرك. ولا يعني ذلك أن الفيلسوف ينبغي أن يكون عالما بشكل كامل، - وإنما أن يكون قادرا على فهم المغزى العميق لما يحصل في ساحة العلم في عصره. نقول ذلك على الرغم من أنه قد يوجد فلاسفة كبار غير مطلعين على العلم بالمعنى الدقيق للكلمة. ولمنهم يتمتعون بحدس داخلي خارق على سبر أغوار التاريخ. نضرب عليهم مثلا "جان جاك روسو Jean jacques rousseau"³ في القرن الثامن عشر. فهناك حدثان يثيران التفلسف إما حدث علمي كبير وإما حدث روحي أو تاريخي مثلا لولا الثورة الفرنسية لما كان "هيجل" HEGEL".⁴

¹- غاستون باشلار، فلسفة الرفض، مرجع سابق، ص 6.

²- هاشم صالح، مدخل إلى التنوير الأوروبي، مرجع سابق، ص 130.

³- * "جان جاك روسو" (بالفرنسية Jean-Jacques Rousseau) ولد في جنيف، 28 يونيو 1712 وتوفي في إيرمينونفيل، 2 يوليو 1778 (عن عمر ناهز 66 عاماً)، هو كاتب وأديب وفيلسوف ومؤلف موسيقي، يعد من أهم كتاب وفلاسفة عصر التنوير، وهي فترة من التاريخ الأوروبي، امتدت من أواخر القرن السابع عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر الميلاديين. ساعدت فلسفة روسو في تشكيل الأحداث السياسية، التي أدت إلى قيام الثورة الفرنسية. حيث أثرت أعماله في التعليم والأدب والسياسة.

⁴- هاشم صالح، مدخل إلى التنوير الأوروبي، مرجع سابق، ص 130

وإنه هناك تأثير بليغ بين المعتقدات الاجتماعية والمعارف الموضوعية . حيث يقول باشلار في هذا الصدد: "لذلك ينبغي الكشف عن عمل القيم اللاشعورية في الأساس نفسه الذي تستند إليه المعرفة التجريبية العلمية. لذلك ينبغي الكشف عن هذا الضوء المتبادل الذي ما ينفك يتردد جيئة وذهابا بين المعارف الموضوعية والاجتماعية والمعارف الذاتية والفردية، كما ينبغي الكشف عن آثار خبرة الطفولة في الخبرة العلمية، وسوف نستند إلى هذا الكشف عند كلامنا على لا شعور الروح العلمية، وعلى الخصائص المتباينة لبعض البدايات، ثم نرى كيف تلتقي أشد المعتقدات تنوعا على درس ظاهرة بعينها." ¹

إن تاريخ العلم حافل بأزمات داخلية في مساره، "ومهما يكن من أمر فإن مسألة القطيعة الاستيمولوجية كانت قد أثارت الكثير من المناقشات الحامية في أوروبا في الفكر الأوروبي بل والغربي عموما، منذ أن كان "غاستون باشلار" قد نظر لها في الثلاثينات من القرن الماضي ثم أخذها عنه المفكرون الآخرون خاصة "ميشال فوكو" ² و"التوسير" أما الأول فقد بنى عليها كتابه الشهير **الكلمات والأشياء**. عندما ميز بين قطيعتين أساسيتين قطيعة تتمحور في لحظة "ديكارت" النصف الأول من القرن السابع عشر، وقطيعة تتموضع في لحظة كانط النصف الثاني من القرن الثامن عشر. ولكنه بلور مفهوم القطيعة من خلال دراسته للنصوص الفلسفية والعلوم الإنسانية وليس من خلال دراسة العلوم الدقيقة. "الفيزيائية - الكيميائية - الرياضية". فهو لم يكن مختصا بها" ³.

¹- غاستون باشلار، النار في التحليل النفسي، ترجمة نهاد خياطة، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 1984، ص 13.

²- * ميشال فوكو (1926 - 1984) فيلسوف فرنسي، يعتبر من أهم فلاسفة النصف الأخير من القرن العشرين، من أهم الفلاسفة البنيويين ودرس وحلل تاريخ الجنون في كتابه "تاريخ الجنون"، وعالج مواضيع مثل الإجرام والعقوبات والممارسات الاجتماعية في السجون. ابتكر مصطلح "أركيولوجية المعرفة".

³- هاشم صالح، مدخل إلى التنوير الأوروبي، مرجع سابق، ص 131

وتسمى فلسفة باشلار بفلسفة الرفض أو "فلسفة اللا" "la philosophie du non"

حيث يرى باشلار في ميدان فلسفة العلم: أن هناك قطائع على المستوى الاليتيسمولوجي وقطائع على المستوى المنهج وعلى مستوى الوسائل وحتى على مستوى اللغة، حيث يجب استحداث مفاهيم جديدة وعقلانية جديدة وعقلانية مادية مطبقة في الفيزياء وفي العلم المعاصر. حيث يقول باشلار: "يبدوا بكل وضوح أننا كنا نفتقر إلى فلسفة العلوم التي من شأنها أن تظهر لنا في أية شروط ذاتية وموضوعية معا، توصل الأسس العامة إلى نتائج خاصة، وإلى التقلبات المختلفة وكذلك في أية شروط توحى النتائج الخاصة التعميمات التي تكملها والجدليات التي تولد الأسس الجديدة".¹، "أما "لويس التوسير" فقد حاول تطبيق مفهوم القطيعة الاليتيسمولوجية ليس على العصور المختلفة. وإنما على نتاج مفكر واحد هو "ماركس" فهناك ماركس الشاب والإيديولوجي وهناك ماركس الناضج والعلمي".²

- 2- فلسفة التنوير في فرنسا:

إن الأنوار: "تعني استقلال الإنسان من القصور الذي هو نفسه مسؤول عليه والقصور يعني عجز الإنسان عن استخدام فهمه من دون توجيه من غيره لأن السبب لا يكمن في خلل الفهم بل في غياب الشجاعة على استخدامه من دون توجيه من الغير، لتكن لك الشجاعة على استخدام عقلك ذلكم هو شعار الأنوار. والعمل التنويري لا يمكن أن يتم من غير الحرية حرية الاستعمال العمومي للعقل في كل المجالات وذلك ما قام به "التنويريون" بالفعل".³

وإن القرن الثامن عشر هو قرن الفلاسفة (مونتيسكيو، فولتير، جان جاك روسو، ديدرو ودالامبير)، والذين يركزون جميعهم على نفس الموضوع: وهو التشكيك في

¹- غاستون باشلار، فلسفة الرفض، مرجع سابق، ص8.

²- هاشم صالح، مدخل إلى التنوير الأوروبي، مرجع سابق، الصفحة 131

³- خديجة. هني، من إنسان الطبيعة إلى إنسان المجتمع: إشكالية الوحدة في فلسفة روسو، (اطروحة دكتوراه إشراف الاستاذ عبد الرحمان بوقاف)، الجزائر، بوزريعة، الجزائر: قسم الفلسفة، جامعة الجزائر 2، (2003)، ص61.

الهيكل السياسية وأنظمة القيم ال تقليدي مثل (الدين، ملكية مطلقة، تعليم، عل وم، إلخ...). وإنهم يبالون بالحرية الفردية والمساواة في الحقوق وحرية الفكر و الاعتقاد.¹

ويرى الباحث البلجيكي البروفيسور "رولان مورتيه" *² "أن القرن الثامن عشر هو قرن العقل وأنه يشعر بذاتيته و كيانيته ووحده كما يشعر بأنه مكلف بتأدية رسالة مهمة للبشرية هي التنوير" *³. وأنه أول عصر يبلور لنفسه برنامج عمل واضح المعالم من خلال كتابات الفلاسفة ومعاركهم الفكرية . ومصطلح التنوير يعود إلى هذا العصر بالذات. ولكي نفهمه يجب علينا أن نقارن الأنوار بالظلمات أو الواضح بالغامض. ولكن المصطلح يحتوي على معنى أخلاقي وإبتيسمولوجي (أي معرفي) ".⁴

الأنوار عند كانط: يعرف كانط الأنوار : "بأنها خروج الانسان من القصور الذي هو مسؤول عنه ، والذي يعني عجزه عن استعمال عقله دون إرشاد الغير ، و إن المرء نفسه هو المسؤول عن حالة القصور هذه عندما يكون السبب في ذلك ليس نقصا في العقل، بل نقصا في الحزم والشجاعة في استعماله دون إرشاد الغير. تجرأ أن تعرف saper Aude كن جريئاً في استعمال عقلك أنت. ذلك شعار الأنوار".⁵

¹ – école . s . premier degré : article sur le 18 siècles : siècles des lumières, paris, page 2 ;s.d.e.

² – رولان مورتيه ، المولود في غنت في 21 ديسمبر 1920 وتوفي في 31 مارس 2015 (94 سنة) في بروكسل هو روماني بلجيكي كان أستاذا في الجامعة الحرة في بروكسل.

³ – عصر التنوير كما يُعرف باسم عصر الأنوار : بالإيطالية L'illuminismo : هي حركة سياسية واجتماعية وثقافية وفلسفية واسعة، وتطورت بشكل ملحوظ خلال القرن الثامن عشر في أوروبا، نشأت في إنجلترا ولكن التطور الحقيقي كان في فرنسا، وتحول مفهوم التنوير ليشمل بشكل عام أي شكل من أشكال الفكر الذي يزيد تنوير العقول من الظلام والجهل.

⁴ – هاشم صالح ، مدخل إلى التنوير الأوروبي، مرجع سابق، ص 137

⁵ – إيمانويل كانط، ثلاثة نصوص: - تأملات في التربية، - ما الأنوار؟ - ما التوجيه الفكري ؟، تعريب وتعليق محمد بن جماعة، دار محمد علي للنشر، الطبعة الاولى ، 2005 ، صفاقس ، تونس ، ص 85

وإن المعنى الأخلاقي يتجلى على مستوى نظريات القيم، والفلسفات الأخلاقية والنظريات السياسية: التي آتى بها القرن الثامن عشر أما على المستوى الاستيمولوجي فتتجلى في التقدم العلمي، والنظريات العلمية والمفاهيم العلمية في هذا القرن آنذاك. فيستخدم الفلاسفة هذه الاستعارة للتمييز بين عصر الظلمات (العصور الوسطى)، وعصر النور وبالتالي فهو مرحلة تطور الإنسانية وهذا يوضح إدراك القرن الثامن عشر لنفسه: ومفهومه لفلسفة التاريخ والتطور والتقدم المستمر للأفكار وللروح البشرية دائما نحو المزيد من الأنوار.¹، "فالتضاد الكائن بين الأنوار والظلمات يشبه الذي نجده بين الخير والشر. أو بين الحقيقة والخطأ، أو المعرفة والجهل. ويبدو أن المصطلح كان في البداية ديني المنشأ قبل أن يتعلم على يد الفلاسفة في عصر العقل أي في القرن الثامن عشر بالذات." ²،

ففي سفر التكوين نجد القول "الأتي وجد الله أن النور حسن. وفصل بين النور والظلمات". بما ان الله هو خالق النور فانه وجد فيه أنبل صفاته . ولذلك يدعوا نفسه في التوراة بالنور الأبدي. ووجه يضيء السماء أو يلمع وكلامه مصباح أو نور. ثم جاء الإنجيل ليستعيد نفس الصورة عندما قال المسيح عن نفسه " أنا نور العالم ومن يتبعني لن يمشي أبدا في الظلمات وإنما سيكون له نور الحياة " . ³

ونرى هنا أن هذا المصطلح اخذ طابعا دينيا وعقائديا مع الإنجيليين المسيحيين والذين أضفوا على مصطلح الأنوار صبغة دينية ولاهوتية بحثة تتماشى مع معتقداتهم وطقوسهم

¹-Ragna Mariuzza :siècle des lumières comme termes désignant le 18 siècle dans son évolution historique, Université Claude Bernard de Lyon 1. 1992,Lyon -p2

²- هاشم صالح : مدخل إلى التنوير الأوروبي، مرجع سابق، ص 137

³- المرجع نفسه:ص138

الدينية وعقائدهم .وتتجلى فكرة الأنوار في أنها ظاهرة إرادة الإنقطاع بصفة راديكالية مع الماضي ومع فكر العصور الوسطى المظلمة.¹

ثم يقول الباحث البلجيكي البروفيسور " رولان مورتيه " : "مردفا ثم إستمر هذا المفهوم الديني طيلة العصور الوسطى في كتابات اللاهوتيين المسيحيين والصوفيين وأصحاب التقى والورع وهو يدل على الوحي المنير ، أو الاشرافي الذي ينير للإنسان طبيعته. وغاياته في هذه الحياة الدنيا ثم الآخرة أيضا. وكذلك الواجبات المترتبة عليه وراح اللاهوتيون يتحدثون عن "النور الإلهي " أو "نور الإيمان " الذي يتجلى لبعض الشخصيات الاستثنائية في التاريخ كالأنبياء والرسل. ولكن قد يدل على التراث الديني للكنيسة المسيحية. ولذلك قال بعضهم "إن أنوار الإيمان والإنجيل بددت ظلمات الجنس البشري ".²، والآن نطرح هذا السؤال كيف إنتقل هذا المصطلح الشهير من المعجم الديني القديم إلى المعجم الفلسفي الحديث ؟ بمعنى آخر:- كيف تعلمن وتعقلن ؟ يبدو أن "روني ديكارت" *³ René- Descartes " 1596-1650 كان أول من استخدم مصطلح التنوير أو النور بالمعنى الحديث المفصول عن المعنى الديني أو الإنجيلي. فهو يتحدث مثلا عن النور الطبيعي الذي يقصد به ما يلي

¹ -BENOIT COTE ,Philosophie des les lumières , Université Sherbrooke faculté des lettres et sciences humaines, département de philosophie et d'éthique appliquée,2018 ,sherbrooke,p1.

² - هاشم صالح : مدخل إلى التنوير الأوروبي ، مرجع سابق، ص138

*³ -*رينيه ديكارت 31 مارس 1596 - 11 فبراير 1650)، فيلسوف، ورياضي، وفيزيائي فرنسي، يلقب بـ"أبو الفلسفة الحديثة"، وكثير من الأطروحات الفلسفية الغربية التي جاءت بعده، هي انعكاسات لأطروحاته، والتي ما زالت تدرس حتى اليوم، خصوصا كتاب تأملات في الفلسفة الأولى 1641-م الذي ما زال يشكل النص القياسي لمعظم كليات الفلسفة كما أن لديكارت تأثير واضح في علم الرياضيات، فقد اخترع نظاما رياضيا سمي باسمه وهو نظام الإحداثيات الديكارتية، الذي شكل النواة الأولى لـ الهندسة التحليلية، فكان بذلك من الشخصيات الرئيسية في تاريخ الثورة العلمية. وديكارت هو الشخصية الرئيسية لمذهب العقلانية في القرن 17 م، كما كان ضليعا في علم الرياضيات، فضلا عن الفلسفة، وأسهم إسهاما كبيرا في هذه العلوم، وديكارت هو صاحب المقولة الشهيرة أنا أفكر، إذا أنا موجود ."

محمل الحقائق التي يتوصل إليها الإنسان عن طريق استخدام العقل فقط " ¹. حيث يقول ديكارت في هذا الصدد: "بأن العقل هو أعدل الأشياء توزعا بين الناس بالتساوي إذ يعتقد كل فرد أنه أوتي منه الكفاية، وإن الحقيقة التي تسمى بالعقل أو النطق تتساوى بين كل الناس بالفطرة." ²

وإن ديكارت يعتبر من الفلاسفة العقلانيين وينتمي إلى التيار والمذهب الفلسفي القائل بالأفكار القبلية الفطرية الموجودة في العقل. "ولكن " ديكارت " لا يستخدم هذا المصطلح كسلاح ضد الدين أو بالأحرى ضد رجال الدين كما سيفعل فيما بعد "فولتير" "ديدرو" و "روسو". - وإنما يستخدمه في سياق الاحترام الكامل للقيم الدينية. حيث يقول مثلا في كتابه مبادئ الفلسفة " أن ملكة المعرفة التي وهبنا الله إياها والتي ندعوها بالنور الطبيعي لا تلاحظ أبدا أي شيء إلا وهو صحيح فيما تلاحظه. وجاء فيما بعد "لايبنتز" 1646-1716 " لكي يستعيد نفس الفكرة ويقول: إن العقل هو سلسلة الحقائق التي نعرفها بواسطة النور الطبيعي أو الضوء الطبيعي الذي وهبنا الله إياه." ³

لكن من بين جميع تلامذة "ديكارت" نجد أن "مالبرانش" * ⁴ - Malebranche "1638-1715" هو الذي استخدم المصطلح وأحبه إلى أقصى درجة فهو يتكرر لديه بكثرة هائلة إلى حد أنه يزاحم مصطلح الطبيعة أو العقل ". ⁵

¹ - هاشم صالح، مدخل إلى التنوير الأوروبي، مرجع سابق، ص 139

² - روني ديكارت، مقالة في المنهج، تر: محمود الخضيرى، مراجعة وتقديم: محمد مصطفى حلمي، الهيئة المصرية للكتاب، الطبعة الثالثة، 1985، ص 161.

³ - هاشم صالح، مدخل إلى التنوير الأوروبي، مرجع سابق، الصفحة 139

⁴ * - * نيكولا مالبرانش بالفرنسية Nicolas Malebranche : عاش ما بين 6 أغسطس - 1638 و 13 أكتوبر 1715 كان خطابي وفيلسوف عقلاني فرنسي. في أعماله، سعى إلى تجميع أفكار القديس أوغستين وديكارت؛ بهدف إظهار الدور الفعال لله في كل جانب من العالم. اشتهر مالبرانش لمذاهبه الخاصة بإدراك الله والعرضية.

⁵ - هاشم صالح، المرجع نفسه، ص 140

ويعتبر مالبرانش على هذا النحو في قوله بالتجلي الإلهي بصفة خاصة من أوائل فلاسفة الإشراف الإلهي المسيحيين في العصر الحديث.¹ والشيء المدهش لدى رجل دين كبير مثل "مالبرانش" هو أن المصطلح يتفوق لديه على مصطلحي العدالة والخطيئة. وهذا ما يتجلى في قوله من خلال كتابه "البحث عن الحقيقة" ما يلي حيث يقول "ينبغي على الإنسان أن يحاكم كل شيء طبقاً للأنوار الداخلية بدون الانصياع إلى الشهادة الخاطئة والمختلطة لأحاسيسه وخيالاته. ثم يقول أيضاً "نحن ندعو الروح عقلاً عندما تعمل بذاتها - أو عندما يفعل الله فيها عن طريق النور الأبدي الذي يضيئها. ثم يقول أيضاً "إن نوره مشع وساطع بقدر ما هو صاف ونقي. - ولكن أهواءنا تبقينا دائماً عمياناً وعن طريق ظلماتها. فإنها تمنعنا من أن نكون مستنيرين بنوره. والأمثلة كثيرة جداً".²

ولكن هنا نرى أن النور الطبيعي للعقل البشري يضل معتمداً على النور الإلهي أو مرتبطاً به بشكل لا ينفصل والسبب واضح هو أن "مالبرانش"، "يجمع في شخصيته بين العقلانية الديكارتية الصارمة والإيمان الديني الذي لا يتزعزع. ينتج عن ذلك بالطبع: أنه يخفض من قيمة الحدس أو الخيال أو العواطف لكي يركز فقط على العقل. ولذلك تدعى عقلانيته بالجافة أو الناشفة على الرغم من أهمية الرجل وكل الديكارتيين في تاريخ الفكر البشري".³

ثم يجيء المفكر البروتستانتي "بيير بايل **pierre bale**"⁴ "1647 - 1706" لكي يغلب لأول مرة في تاريخ الفكر. النور الطبيعي على النور فوق الطبيعي من دون أن

1

2 - هاشم صالح ، مدخل إلى التنوير الأوروبي ، مرجع سابق ، ص 140

3- المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

⁴ - * بيير بايل (1706 - 1647) بالإنجليزية (Pierre Bayle) : هو شخصية عامة وفيلسوف الشك وممثل حركة التنوير الفرنسية ، كان أستاذاً للفلسفة بكلية سيدان وجامعة روتردام ، دخل في نزاع مع الكاثوليكية وبعد ذلك تولى

ينكر الثاني. وهذا العمل يعتبر خطوة جديدة إلى الأمام في اتجاه التحرر من اللاهوت الديني والتوصل إلى العقلنة الكاملة لاحقاً. وملخص "بايل" هو أن الله نفسه لا يمكن أن توصل إلى فهمه أو الإيمان به إلا إذا كننا نمتلك مسبقاً النور الطبيعي للعقل: وبالتالي فالعقل هو الأول.¹ -ولكن "بايل" لم يتجرأ على الذهاب إلى أبعد من ذلك لكي يفصل كلياً بين النور الفوقي، ونور العقل لأن ذلك سيشكل له ما نسميه بالمستحيل التفكير فيه بالنسبة لزمناه. وتميز بايل بطابع الأخلاق التسامحية والنزعة الشكية في تفكيره، وه ذا يعني أنه ليس الاقتناع الأخلاقي هو الذي له آثار متشككة على بايل، ولكن شكوكه هي التي تحدد الطابع المطلق لضرورة التسامح. وبالتالي، فإن أخلاق التسامح لا علاقة لها بمعتقدات بايل المحتملة على أساس مطلق قائم على العقل، والذي من شأنه أن يفلت من الشك، ولا نعرف من تأثير أي فضيلة.²

ولكنه سيصبح ممكن التفكير في زمن "فولتير" و"ديدرو" و"روسو" أي بعد أقل من مائة سنة. هكذا نجد أن العقل يتقدم بشكل بسيط. ولكنه يتقدم. فالعقل البشري لم يتحرر من اللاهوت الديني المسيحي دفعة واحدة وإنما على دفعات. وتشهد على ذلك بشكل ساطع، تجربة الفكر الأوروبي التي نستعرضها هنا.³ ، "والواقع أن كلمات الأنوار بالجمع راحت

عن الدين ودعا إلى التسامح الديني، كان بايل أول من قام بدراسة نقدية للعقيدة المسيحية، وبسبب ذلك، بالرغم من أنه لم يكن ملحداً على الإطلاق، إلا أنه جعل من الآخرين ملاحدة كما وصفه فولتير، وقامت حججه على الشكية التي صدرت عن المبدأ الديكارتي في الشك، والذي قوض كل إيمان بالميتافيزيقا واللاهوت كما رأى ماركس. وقد ذكر بايل أن المشكلات الأخلاقية يجب دراستها من وجهة نظر العقل الطبيعي، بدل تحديدها بواسطة الدين، قال أنه من الممكن لمجتمع ما أن يتألف بكامله من الملاحدة، وقد مهدت كتاباته وخاصةً «**القاموس التاريخي والنقدي**» الطريق للمادية الفرنسية في القرن الثامن عشر.

¹ - هاشم صالح ، مدخل إلى التنوير الأوروبي، مرجع سابق، ص140

² - Louis Guibaults, Tolérance et consciences chez pierre bayle , Université du Québec Montréal, canada. avril 2010 ,p 12.

³ - هاشم صالح ، المرجع نفسه، الصفحة نفسها .

تتزامن كلمة النور بالمفرد بل وتحل محلها في أحيان كثيرة، وهكذا أصبحوا يتحدثون عن عصر الأنوار أو فلسفة الأنوار الطبيعية للعقل.¹

وإن عصر الأنوار يدعو إلى تحرير العقل البشري من الحدود، ومن الأغلال التي كبل فيها، ومن الأخطاء التي وقع فيها سابقا، وكان يدعو إلى إعطاء العقل الحرية المطلقة في التفكير دون حدود، ودون قيود، ولا شروط، ولا أغلال، وفي شتى مجالات المعرفة. "ومن أهم خصائص الأنوار الإيمان بالتقدم المستمر نحو الفاعلية الأصلية للإنسانية وجعل العقل حكما مطلقا في كل شيء." ² ويرى مؤرخو العلم والفلسفة أن مصطلح الأنوار يعني قرن الفلسفة أو عصر العقل وكانت تستعمل في القرن الثامن عشر.³

مهما يكن من أمر فإن مصطلح التنوير راح يتخلص تدريجيا من الهالة الدينية المسيحية لكي يدل على عصره: هو عصر التحرر العقلي والفكري في القرن الثامن عشر. "وعندئذ راح يتخذ شكل المشروع الفكري، والنضالي الذي يريد تخليص البشرية الأوروبية والغير أوروبية من ظلمات العصور الوسطى وهيمنة رجال الكنيسة. بالطبع فإن المشروع كان ضمنيا لا علني، بسبب خوف الفلاسفة من السلطة، والكنيسة المرتبطة بها عضويا ولم يتبلور المشروع بوضوح إلا على يد "كوندورسي" Condorcet*⁴ في كتابه الشهير: - مخطط بيان تاريخي لتقدم روح البشرية أو العقل البشري 1794. - ولكي نوضح المسافة

¹ المرجع نفسه، ص 141

² -أميرة حلمي مطر، عن القيم والعقل في الفلسفة والحضارة، كلية الآداب جامعة القاهرة، الطبعة الأولى، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 2006، ص94.

³ - Ragna Mariuzza :siècle des lumières comme termes désignant le 18 siècle dans son évolution historique, P5.

⁴ -*المركيز دو كوندورسيه (1743 - 1794 م) هو رياضي وفيلسوف فرنسي. هو ماري جان أنطوان نيقولا كاريوتا، المركيز دي كوندورسيه يُعتبر أحد أشهر دعاة الإصلاح التربوي في عصره. لعب دوراً كبيراً في الثورة الفرنسية . لاحقاً اليعاقة عام 1793 م فاختفى عن الأنظار لمدة تسعة أشهر، حتى إذا اعتقلوه تجرّع السمّ ومات .

المقطوعة بين مفكري التنوير الأوائل أو الذين مهدوا للتنوير. وبين المفكرين التنويريين الحقيقيين. يكفي أن نقارن بين بايل في قاموسه التاريخي والنقدي تبني التصور العقلاني للدين وانتقد هيبة رجال الدين، وتسلطهم على العقول.¹، حيث يرى كوندورسييه: أن العقل البشري تقدم ببطء شديد خلال العصر الوسيط بفعل التقدم الطبيعي للحضارة وذلك لاستيلاء الخرافة والأساطير عليه من ناحية ولسيادة حكم الطغيان الذي شل العقول بسبب الخوف والبؤس من ناحية أخرى ولكن عصر النهضة مهد لانتشار العلوم الإنسانية ذلك الانتشار الذي ما لبث أن بعث العقول من رقودها، وأحدث تقدما في الفكر بما يشبه الثورة، وانتقل هذا التقدم من بلد إلى آخر بشكل يضمن لنا، إنه لا بد أن يعم في وقت قريب الجنس البشري في مجموعه.² -"صحيح أنه دعا إلى التفحص للكتابات المقدسة، وطالب بالحرية الفكرية والعقائدية في وقت كانت فيه فرنسا تعيش أبشع لحظات التعصب الديني وتضطهد المفكرين بطريقة مرعبة بمن فيهم بايل نفسه".³

ومع ظهور ما يسمى بمحاكم التفتيش التي تراقب المفكرين والعلماء وتحد من حرية تفكيرهم وتطعن في نتائج أبحاثهم وتقوم حتى بتكفيرهم خاصة ما حدث **لغاليلي**⁴ * وتعرض العلماء إلى الاضطهاد والقمع والسجن وإلى محاكمات تعسفية.

¹- هاشم صالح ، مدخل إلى التنوير الأوروبي، مرجع سابق، ص 141

²- محمد بدوي، المخطط التاريخي لتقدم العقل البشري لكوندورسييه، مهرجان القراءة للجميع، مكتبة الأسرة، تراث الإنسانية، وزارة الثقافة، الهيئة المصرية للكتاب، 1995، ص 41.

³- هاشم صالح ، ، مدخل إلى التنوير الأوروبي، مرجع سابق، الصرخة نفسها.

⁴*- **غاليليو غاليلي** (15 فبراير 1564 - 8 يناير 1642 ،)بالإنجليزية Galileo :

Galilée عالم فلكي وفيلسوف وفيزيائي إيطالي، ولد في بيزا في إيطاليا . أبوه هو "فينسينزو جاليلي" وأمه هي "جوليا دي كوزيمو أماناتي" وأنجب من "مارينا جامبا" ثلاثة أطفال دون زواج هم فيرجينا (لقبت بعد ذلك بالأخت ماريا) ولدت عام 1600 وماتت عام 1634 ، فينسنزو ولد عام 1606 ومات عام 1646 ، ليفيا (ولقبت بعد ذلك بالأخت أركنجيلا) ولدت عام 1601 وماتت عام 1649. نشر نظرية كوبرنيكوس ودافع عنها بقوة على أسس فيزيائية، فقام أولاً بإثبات خطأ نظرية أرسطو حول الحركة، وقام بذلك عن طريق الملاحظة والتجربة.

وهكذا نرى أنه بعد أن هامت البشرية على وجهها في متاهات الجهل أحقابا طويلة وبعد أن تحيرت العقول في نظريات ناقصة وغامضة توصل المفكرون في النهاية إلى الحقوق الطبيعية والأساسية للإنسان¹، "ولكنه لم يتجراً في البداية على تلك القفزة التي تحرر العقل كلياً من هيمنة اللاهوت الكنسي. وقد ظل أسير النظرة التشاؤمية والمسيحية للتاريخ والإنسان. وكان يشتبه في العقل البشري ويخشى أن يتجاوز الحدود التي وضعها الله له. فالعقل البشري بدون مساعدة العقل الإلهي يضل ويضيع وبذهب في متاهات لانهاية لها. ولكن يبقى السؤال مطروحا :- ألم يتطرف التنوير الأوروبي في الاتجاه المعاكس كرد فعل على العقلية الظلامية ومحاكم التفتيش؟ ثم ألا ينبغي أن نعود إلى تنوير أكثر توازنا:- أقصد التنوير الذي يجمع في وحدة واحدة بين نور العقل ونور الإيمان." ²

أ-البدايات الصعبة للحدثة الفرنسية :

"والآن نطرح السؤال التالي:- كيف حدث التنوير في فرنسا ؟ كيف انتقلت فرنسا رويدا، رويدا ، من عصر الأصولية الكاثوليكية المطلقة إلى عصر الإيمان المستنير والفكر العقلاني؟ يرى كبار المؤرخين المعاصرين أن فونتيل* ³ 1657-

¹-محمد بدوي، المخطط التاريخي لتقدم العقل البشري لكوناندورسيه، مرجع سابق، ص42

²-هاشم صالح ، مدخل إلى التنوير الأوروبي، مرجع سابق، ص 141

- ³*-فونتيلBernard Le Bovier de Fontenelle: ولد برنار لو بوفير دي فونتيل في 11 فبراير 1657 في روان وتوفي في 9 يناير 1757 في باريس. هو فيلسوف وشاعر فرنسي ، أعلن عن روح التنوير من خلال نشر نظريات علمية جديدة ، عاش قرابة قرن من الزمان ، ولادته تلامس وفاة ديكارت و 11 فبراير 1650 ووفاته في تلامس الشهرة الكبيرة لفولتير هذه المائة عام التي عاشها، حياته استمرت فونتيل عاش نصفها في القرن السابع عشر والنصف الآخر في التقسيم الاصطناعي للقرن الثامن عشر ولكنه يمثل بدقة إلى حد ما هذه الروح ، التي لا تزال كلاسيكية وحديثة بالفعل ، ويعتبر المحور الرئيسي لتحول الفكر الذي كان يحدث في ذلك الوقت.

Bernard Le Bovier de Fontenelle 1757 كان أول من احتفل بموضوع

عصر التنوير*¹.²

وإن الفكر التنويري لا يحرر تصور الانسان عن الطبيعة، فهذا قام به العلم الحديث. بل ليحرر تصور الانسان عن نفسه هنا ينشأ إشكال العلم الجديد، علم الطبيعة البشرية أو علم الانسان³، "وكانت ثقة فونتونيل بالجنس البشري ومستقبله تعود إلى التقدم الذي حققه العلم في عصره. خاصة العلم الرياضي والفيزيائي وعلى الرغم من حذره ورزاقته إلا أنه عبر عن فرحته الغامرة بالتحويلات التي طرأت على الحياة الثقافية الفرنسية. يقول مثلاً: "منذ فترة قصيرة انتشرت في بلادنا روح فلسفية جديدة كلياً تقريباً".⁴

وهذه الفلسفة هي: فلسفة الأنوار والتي تعطي للعقل حرية مطلقة في التفكير من دون حدود ولا قيود وتفتح له أبواب وأفاق جديدة وتخرجه من القصور الذي يحد من تفكيره. وإن فلسفة الأنوار قاموا بالتأسيس لمبادئ أساسية جديدة للفلسفة وللأفكار الطبيعية، والتبولوجيا والتاريخ وفلسفة الأخلاق، والتربية، السياسة.⁵ ، ويقول فونتيل أيضاً: "إنها عبارة

¹*-عصر التنوير كما يُعرف باسم عصر الأنوار بالإيطالية L'illuminismo: هي حركة سياسية واجتماعية وثقافية وفلسفية واسعة، وتطورت بشكل ملحوظ خلال القرن الثامن عشر في أوروبا، نشأت في إنجلترا ولكن التطور الحقيقي كان في فرنسا، وتحول مفهوم التنوير ليشمل بشكل عام أي شكل من أشكال الفكر الذي يزيد تنوير العقول من الظلام والجهل والخرافة، مستفيداً من نقد العقل ومساهمة للعلوم.

²- هاشم صالح، مدخل إلى التنوير الأوروبي، ص 141

³- خديجة هني، من إنسان الطبيعة إلى إنسان المجتمع: إشكالية الوحدة في فلسفة روسو، (طروحة دكتوراه)، الجزائر، بوزريعة، الجزائر: قسم الفلسفة، جامعة الجزائر، (2003)، ص6

⁴- هاشم صالح، مدخل إلى التنوير الأوروبي، مرجع سابق، الصفحة نفسها

⁵ - BENOIT COTE , Philosophie des les lumières , Université Sherbrooke faculté des lettres et sciences humaines, département de philosophie et d'éthique appliquée, 2018, Sherbrooke, canada, p1.

عن نور لم يتح لأسلافنا أن يستضيئوا به، وكان من حضنا ذلك".¹ ، وفي مكان آخر يقول أيضا: "نحن مستضيئون بأنوار الدين الحقيقي. وأعتقد ببعض أشعة الفلسفة الحقيقية. نحن الآن أكثر إستتارة بألف مرة من أناس العصور السابقة الذين اخترعوا الخرافات والخزعبلات. هكذا نلاحظ أن: "فونتتيل" كان يشعر بأنه يعيش في عصر مستتير، على الأقل في مجال الفلسفة وخاصة بعد ديكارت. ثم في مجال العلوم والنقد التاريخي. ولكن حتى لحظة "فونتتيل" فإن مفهوم التنوير لم يكن ينطوي على أي نقد: صريح على الأقل للفكر الديني. والواقع أن "فونتتيل" عاش وكتب بشكل أساسي في النصف الأول من القرن الثامن عشر. ونحن نعلم أن المعركة بين العقلانيين والمتدينين لم تتدلح فعليا إلا في النصف الثاني منه، وبخاصة عام 1760 عندما أخذت تصدر كتب "روسو" الأساسية وكذلك كتب "ديدرو" و"فولتير".²

وإن القوة حسب روسو لا تخلق الحق . وإن كان روسو أول فيلسوف نادى بحرية الانسان التي سلبت منه مع الزمن، فإنه أول من تعالت صرخته اتجاه الحرية رافضا لشتي أنواع الاسترقاق والاستعباد، وقد رفض كل تلك الآراء التي تؤكد سيطرة بعض البشر على الآخرين، وأن البعض منهم عبيد والبعض منهم سادة. فلا يوجد في خطاب روسو عبيد بالطبيعة أو بالقانون الطبيعي، وفي المقابل لا يوجد هناك أسياد بالطبيعة.³

فهؤلاء الفلاسفة هم من فجروا الثورة الفرنسية بأفكارهم التحررية ومؤلفاتهم التنويرية، والثورية وفتحوا الطريق أمام الحرية كما يقول **فيكتور هيغو***⁴ حرروا الحرية والحرية سوف

¹ -هاشم صالح، مدخل إلى التنوير الأوروبي ، مرجع سابق، ص 141

² -هاشم صالح ، مدخل إلى التنوير الأوروبي ، ص 142

³ - بوضوار نجمة ، الثقافة ومشكلة الطبيعة الانسانية في الفلسفة: جون جاك روسو، وسيغموند فرويد نموذجان . (أطروحة

دكتوراه). (كلية العلوم الاجتماعية ، قسم الفلسفة،، المحرر) وهران، الجزائر: جامعة وهران 2، ص(2017)، ص 102

⁴ * - **فيكتور ماري هيغو** (بالفرنسية) (Victor Marie Hugo: مولد 26 فبراير 1802 ، وفاة 22 مايو 1885)

كان أدبيا وشاعرا وروائيا فرنسيا، يُعتبر من أبرز أدباء فرنسا في الحقبة الرومانسية، وترجمت أعماله إلى أغلب اللغات

المنطوقة. وهو مشهور في فرنسا باعتباره شاعرا في المقام الأول ثم راو، وقد ألف العديد من الدواوين لعل أشهرها

ديوان تأملات *Les Contemplations* وديوان أسطورة العصور *La Légende des siècles*. أما خارج

تعمل العمل الباقي أو ما تبقى من العمل. "صحيح أن مفهوم القرن المستتير أو عصر الأنوار كان موجودا في النصف الأول من القرن 18. ولكنه لم يتحول إلى شيء يشبه القاعدة، أو إلى شعار إلا بعد نصفه الثاني".¹ ، "ويبدو أن سبب ذلك لا يعود إلى بعض الأحداث السياسية والاجتماعية التي حصلت آنذاك. - وإنما إلى حدث فكري هو صدور الأنسيكلوبيديا الشهيرة أي الموسوعة التي أشرف عليها "ديدرو Diderot*² - 1713- 1784" فهذا المشروع الفكري الكبير هو الذي جمع التنويريين حوله من شتى المشارب والتخصصات".³

ويتفق الدارسون على أن روسو دخل عالم الشهرة بعمله الأول مقالة حول العلوم والفنون 1750 وهو عمل يصنف ضمن الأعمال النقدية حيث يواجه فيلسوفنا المجتمع التاريخي الذي إتصف بالظلم والفساد.⁴ ، "إن أهمية المؤلف الثاني والذي هو مقال في أصل التفاوت بين الناس يركز على رؤية روسو المتقدمة في مسألة اللامساواة والتي برزت بصورة محددة واضحة عبر تحليله الهام في كتابه هذا. ومدى التطور والتغير الذي حصل

فرنسا، فهو مشهور لكونه كاتب وراو أكثر من كونه شاعر، وأبرز أعماله الروائية هي رواية *البؤساء* وأحَدَب نوتردام . كما اشتهر في حِقْبَتِهِ بكونه ناشطاً اجتماعي حيث كان يدعو لإلغاء حُكْم الإعدام. في كتابه الشهير *Le dernier jour d'un condamné* كما كان مؤيداً لنظام الجمهورية في الحكم، وأعماله تَمَس القضايا الاجتماعية والسياسية في وقته.

¹-هاشم صالح ، مدخل إلى التنوير الأوروبي، مرجع سابق، ص142

²*- **دينيس ديدرو** بالفرنسية (*Denis Diderot*) :ولد في 5 أكتوبر 1713 بلانجر، وتوفي في 31 يوليو 1784 بباريس.^{[1][2][3]} وهو فيلسوف، وكاتب فرنسي، وموسوعي فرنسي، وهو أيضا كاتب مسرحي وكاتب مقالة وفني. من أب حرفي، برز بإشرافه على إصدار "موسوعة الفنون والعلوم والحرف" وتحرير العديد من فصوله. من قادة حركة التنوير. رئيس تحرير أول موسوعة حديثة، إنسيكلوبيدي.. Encyclopédie .

³ - هاشم صالح، مدخل إلى التنوير الأوروبي، مرجع سابق، الصفحة نفسها.

⁴ - خديجة. هني ، من إنسان الطبيعة إلى إنسان المجتمع: إشكالية الوحدة في فلسفة روسو، (اطروحة دكتوراه).

الجزائر، بوزريعة، الجزائر: قسم الفلسفة، جامعة الجزائر 2، (2003)، ص70.

في ما بعد في هذه المسألة اليوم كما ناقشها روسو، وما ظل ماثلا منها بعد قرون من مشروع التنوير في أوروبا والعالم¹.

إن محور تفكير روسو التنويري يركز على الإنسان ومع الإنسان حيث يبحث عن خلاص الانسان من الفساد الأخلاقي ومن الاستغلال الاقتصادي والاضطهاد السياسي الذي كان يعيشه في المجتمع السياسي الفاسد و إن الخروج من هذه الأزمة سيكون بواسطة الأنوار التي يمتلكها الانسان . ومعلوم أن البيان التمهيدي للموسوعة والذي كان "ديدرو" قد كتبه صدر عام 1750 وأما الخطاب الافتتاحي فقد صدر بخط "دالمبير" d'Alembert والموسوعة بكل أجزائها ليست إلا تجميعا لمنجزات التنوير التي كانت قد حصلت طيلة نصف القرن 18 إنها محصلة ختامية لجميع المعارف والعلوم التي كانت متوفرة في ذلك العصر.²

وإن الأزمة كما شخصها وفهمها روسو تتمثل في افتقار الانسان في عصره إبان القرن الثامن عشر وربما في العصور اللاحقة للنظرة الفلسفية التاريخية العميقة التي تجعله أي الانسان في مساواة وتواصل وانسجام وسلام دائم مع جميع إخوانه من بني البشر لقد أراد بهذه النظرة التنويرية أن يؤكد بعدا أساسيا في وقته وفي وقتنا، إذ يمكننا إذا ما عملنا على التواصل، لا يكون محوره الأساسي مصير دولة من الدول وإنما مصير البشرية ككل.³

وفي الخطاب الافتتاحي الذي يستحق دراسة خاصة يرى "دالمبير" 1818-1873 " إن عصر النهضة كان العصر التنويري الأول الذي مهد للقرن الثامن عشر وبالتالي فنحن مدينون له. ثم جاءت محاكم التفتيش في القرن السابع عشر وكذلك التيار الكاثوليكي

¹ - عقيل يوسف عيدان، التنوير في الإنسان شهادة جان جاك روسو، (الإصدار دون طبعة)، الجزائر، شارع حسبية بن بوعلي، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، (2009)، ص18

² - هاشم صالح، مدخل إلى التنوير الأوروبي، مرجع سابق، ص142

³ - عقيل يوسف عيدان، التنوير في الإنسان شهادة جان جاك روسو، مرجع سابق، ص15

المتعصب والمضاد للإصلاح الديني، ولكنهما لم ينجحا في تقويض وخنق هذا النور أو التنوير الذي كان قد لمع في عصر النهضة. فشعلة التنوير ظلت متقدمة على الرغم من كل المحاولات التي قاموا بها المتمزمتون الغلاة من أجل إطفائها والقضاء عليها.¹

" نلاحظ أن كلمة الأنوار وردت كثيرا في الموسوعة الشهيرة. ففي إحدى مقالاتها يقيم ديدرو تضادا بين العصر المستنير وعصر الظلمات والجهل. وفي مكان آخر يرد على أولئك الذين يخشون أن تنتكس البشرية الأوروبية وتسقط في الظلمات مرة أخرى ويقول " لا داعي لهذا الخوف . فظلمات الجهل لم تتحصر في أي عصر كما حصل في عصرنا والفلسفة تتقدم بخطوات عملاقة. والتنوير يصاحبها ويتلوها ".²، وفي مقام آخر يقول "ديدرو" : "إن الفلسفة الصحيحة التي ينتشر نورها ويشع في كل مكان أخذت تدخل أكثر فأكثر إلى الأديرة والكنائس المسيحية "³

" فكلمة الأنوار: lumières – aufklarung – enlightenment: هذه فإن الاستعارة موجودة في كل اللغات ومواضيع العلوم والطبيعة والسعادة والفضيلة والحقيقة تتداخل مع موضوع العقل .وهناك نصان مميزان من بين عدة تعاريف للعقل ".⁴

"التعريف الوارد في الكاتشيم الكوني لسان لامبير saint Lambert : حيث يقول بأن العقل هو معرفة الحقائق النافعة الموصلة إلى السعادة. ثم تعريف القانون الوارد في الأنسيكلوبيديا القانون عموما هو العقل البشري بمقدار ما يحكم كل شعوب الأرض والقوانين السياسية والمدنية. لكل ما هي إلا مختلف الحالات التي يطبق عليها هذا العقل البشري. هنا تبرز فكرة العقل الكوني الذي يتيح الوصول إلى الحقيقة وإلى السعادة بأن واحد بصورة

¹ - هاشم صالح ، مدخل إلى التنوير الأوروبي ، مرجع سابق، ص 142

² - هاشم صالح ، مدخل إلى التنوير الأوروبي ، مرجع سابق، ص 142

³ - هاشم صالح ، المرجع نفسه ، الصفحة نفسها

⁴ -جان توشار ، (بمعاونة) : لويس بودان، بيار جانين، جان سيريلي ، تاريخ الفكر السياسي ، ترجمة الدكتور علي مقد،

الطبعة 2، الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1983.ص305

ودونما انقسام: إن التقدم المادي يسير بمحاذاة التقدم الفكري وهذا يتماشى مع التقدم الأخلاقي وقد عارض روسو هذا التصور المادي البورجوازي للعقل وبإسم العقل بالذات.¹

3-روسو و عصر الأنوار :

ينتمي روسو: أولاً إلى تيار الديمقراطيين والمساواتيون في أوروبا حيث: "رحب الفيزيوقراطيون بفجر المجتمع الجديد: للمجتمع الرأسمالي. فقد كانوا ينظرون إلى المستقبل بكثير من التفاؤل. عاكسين بذلك العقلية السائدة في صفوف البرجوازية الصاعدة. وقد رأوا في توسع العلاقات الاجتماعية البرجوازية وانتشارها دليلاً على تقدم البشرية، وألقوا غشاوة على الوجه الآخر من الصورة على دماء المشاهير ودموعها، على إضطهادها، وإستلابها وإفتقارها، وإفنائها جسدياً، أي على الثمن الذي دفعته كي ما تتحقق الرأسمالية نجاحاتها".²

وإن الطبقة البورجوازية هي الطبقة المتحكمة في رؤوس الأموال والأراضي وهذا طبقاً لتعريف كارل ماركس، أما معناها في الثقافة الفرنسية وأصلها "فهي مشتقة من كلمة bourgeoisie أي تعني المدينة والسكان الذين يتمتعون بالحقوق المدنية ولهم حق العيش داخل المدن وهم أعلى شريحة في الطبقة المتوسطة ومنهم الموظف ومنهم التجار، والبورجوازية هي طبقة اجتماعية من ضمن طبقات كثيرة مثل طبقات النبلاء وطبقة الارستقراطيين".³، "فقد كان التقدم البرجوازي بالنسبة لشرائح البرجوازية الصغيرة الدنيا، وإلى فلاحى الأرياف الفقراء بقوة مدمرة لتتعالى ملكياتهم وحكمت على الحرفيين المستقلين بالانحطاط إلى مستوى الأجراء وعلى المزارعين، بالتحول إلى خدم مزارع، قوة مدمرة

¹ - جان توشار ، (بمعاونة) : لويس بودان، بيار جانين، جان سيريلي، تاريخ الفكر السياسي . الصفحة 305
² - ف فولغين ، فلسفة الأنوار ، ترجمة هنرييت عبودي ، مرجعة جورج طرابيشي ، دار الطليعة للطباعة ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 2006 ، ص 209.

³ - Larousse, Le petit Larousse compact, édition entièrement nouvelle ,21 rue de Montparnasse 75283 paris cedex 06 ; France, 1998, p150.

جردت كبار المالكين، الغيورين على استقلالهم الوهمي، من أرباحهم وحرمتهم من مكاسبهم لعجزهم على التصدي لمزاحمة الاستثمارات الكبرى واستغلال التجار المحتكرين.¹ ، "وقد حفزت العقلية السائدة في صفوف هذه الشرائح الاجتماعية، والبعيدة كل البعد عن تفاؤل الفيزيوقراطيين على ظهور تيار من الكتاب النافذي التأثير بما فيه الكفاية في فرنسا في القرن الثامن عشر، هو تيار أنصار المساواة أو المساواتيين. ما كان ممثلوا هذا التيار يتعاطفون إطلاقاً مع النظام الإقطاعي، بل كانوا يوجهون إليه نقداً أشد وضوحاً وصراحة من نقد كتاب المدرسة الفيزيوقراطية فقد كان في مستطاع البرجوازية الكبيرة أن تحلم بتسوية النظام الإقطاعي القديم. أما البرجوازية الصغيرة، الفلاحون على الأخص".²

ونجد من بين هؤلاء المفكرين والفلاسفة والكتاب: **جان جاك روسو** الذي كان يكن كرهاً عميقاً للنظام الإقطاعي وللملكية الفردية أيضاً والذي حسبته هي أساس التفاوت الاصطناعي بين الناس وأساس الشر. فكانت الحرية السمة الأساسية التي تحرك عصر الأنوار: "وانطلاقاً من هذا كانت إرادة فلاسفة الأنوار تتجه نحو تنوير كل ما كان يسوده الظلام في عقول البشرية والكشف عن الأفتنة المزيفة التي كان يرتديها رجال الدين".³ ، ويلبسونه للناس من أجل سيطرة على جميع ميادين الحياة البشرية، لذلك فإن فكرة التقدم في عصر الأنوار تتجه نحو تحرير الناس من كل ما كان يستعبدهم بإسم الكنيسة والنظر بعين العقل والمنطق.⁴ ، "فكانت ترى في السيد الإقطاعي مصاص دماؤها ومستغلاً للطبقة الشاغلة، لم يخف كرهها له من جراء ظهور مستغل جديد إلى جانبه: الرأسمالي.

¹ - ف فولغين ، فلسفة الأنوار ، مرجع سابق ، 209

² - ف فولغين ، فلسفة الأنوار ، مرجع سابق ، ص 210

³ - بوصوار نجمة. الثقافة ومشكلة الطبيعة الإنسانية في الفلسفة: جون جاك روسو ، وسيغموند فرويد نموذجان ، ص 93

⁴ - ف فولغين ، فلسفة الأنوار ، الصفحة 210.

ولم يكن في مقدور إيديولوجي البرجوازية الصغيرة أيضا أن يصادقوا على الصورة المؤمثلة للرأسمالية التي رسمها الفيزيوقراطيون. لذلك القرن وإنقده ملل النظام الإقطاعي والبيروقراطي بنقد العلاقات الرأسمالية التي كانت تنمو بلطراد. نقد معتدل، لا ريب، ومفتقر إلى الترابط وتماسك المنطق. فقد خلص كتاب هذا الاتجاه إلى القول بعد انكبابهم على دراسة شرط الجماهير البائس، بلبن السيطرة اللامحدودة للملكية الخاصة هي المسؤولية عن بؤس الجماهير. وهذا ما جعل منهم الخصوم الأشداء لمذهب "دعه يعمل" وأنصار الحد من الحرية البرجوازية".¹

ويعتبر آدم سميث من رواد المدرسة الكلاسيكية الليبرالية التي تقول بهذا المبدأ (دعه يعمل أتركه يمر)، وترتكز على حرية العمل وحرية الملكية وملكية الأراضي ووسائل الإنتاج.

يرى روسو في القسم الثاني من كتابه في أصل التفاوت بين الناس: إن أول إنسان قام بتسوير وتحديد قطعة أرضية، وقال إن هذه القطعة الأرضية ملك لي ووجد ناسا سذج يصدقونه هو المؤسس الحقيقي للمجتمع المدني الفاسد، حيث يقول روسو في هذا الصدد: "إن أول من سور أرضا، وسمح لنفسه أن يقول هذا لي، فوجد أناسا لهم من السذاجة ما يكفي لكي يصدقوه. كان المؤسس الحقيقي للمجتمع المدني."² ، "ألا كم من الجرائم كم من الحروب والقتل، وكم من الشقاوات والفظائع، كان لإنسان أن يكفي الجنس البشري شرها لو هب واقتلع الأوتاد، أو ردم الحفر وصاح بأشباهه من البشر قائلا حذار أن تصغوا هذا الدجال، فإنكم لا هالكون إن أنتم نسيتم أن الثمار للجميع وأن الأرض

¹ - ف فولغين ، فلسفة الأنوار ، مرجع سابق ، الصفحة نفسها

² - Jean Jacques Rousseau, discours sur l'origine et les fondements de l'inégalité parmi les hommes, édition électronique v1.0 les échos du maquis, Paris, 2011, p44

ليست ملكا لأحد"¹، "وقد ذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك، فارتأى أن أصل الشر يكمن في الملكية الفردية عينها، غير أنه عجز أن يستخلص من موقفه النظري الجذري الاستنتاج المنطقي بصدد ضرورة إلغاء هذه الملكية ولواقع أن المالك الصغير الذي يرى رفايته مهددة جراء النمو الرأسمالي، ووضعه كمنتج مستقل عرضة للاهتزاز والانهيار، لن يتوانى عن التهجم بعنف على الملكية باعتبارها مصدرا لإثراء والاستغلال بيد أنه لا يحلم أبدا بالقضاء على الملكية الخاصة، بل فقط بنظام تشذب فيه الملكية من مظاهرها السلبية، وتعزز وتدعم لخدمة مصلحته الخاصة كمالك صغير. وتتخلص الاقتراحات العملية للأيديولوجيين البرجوازيين الصغار في دعوة مكافحة اللامساواة المتنامية، بواسطة إجراءات وتدابير مساواتية تتسم بقدر أو بآخر من الشدة والصرامة. فهؤلاء الإيديولوجيين هم دعاة المساواة، لا دعاة اشتراكية"².

يعتبر روسو من الفلاسفة الأوائل الذين مهدوا لظهور الاشتراكية والملكية الجماعية، "إن المساواتيين كانوا يدعون إلى المساواة بين الأفراد لا إلى الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج والأراضي، لكن الاشتراكيون كانوا يرون عكس ذلك حيث كانوا يؤمنون بمشاعية الملكية للأراضي ولوسائل الإنتاج. فقد طالب الجذريون والراديكاليون بتقسيم عام جديد للأراضي إلى قطع صغيرة لا يجوز التصرف بها. أما المعتدلون منهم فاحتفوا بالمطالبة بقوانين تنهض البذخ والترف وبإخضاع الإرث لضابط القانون، وهلم جرا. وكان نقدهم اللامساواة البرجوازية نقدا طوباويا: إذ سعوا إلى إيقاف نمو العلاقة البرجوازية، وإلى جعل عجلة التاريخ تدور إلى الوراء. والحق أنهم قنعوا، وهم الذين أخذوا على عاتقهم نقد

¹ – Jean Jacques Rousseau, discours sur l'origine et les fondements de l'inégalité parmi les hommes, op .cit, p44.

² – ف فولغين ، فلسفة الأنوار ، مرجع سابق، ص 210

المساواة الإقطاعية ، بتمهيد الطريق أمام الرأسمالية".¹ لأن الأراضي كانت في البداية وفي الحالة الطبيعية ملكية مشاعة وملكية للجميع وأن الأرض ليست ملكا لأحد.²

"ولد جان - جاك روسو (1712-1778): أبرز ممثلي هذا الاتجاه من أسرة بروجوازية صغيرة بروتستانتية في جنيف. وقد انخرط روسو، الأبى، الحالم، المنطوي على ذاته، إنخرط في سن مبكرة في مدرسة الحياة القاسية. كان لا يزال في الثالثة عشر عندما عمل أجيرا لدى رب عمل قاس وفظ، فليختبر السوط، والجوع، والإهانة والإذلال وعندما بلغ السادسة عشرة لاذ بالفرار. وكان عليه أن يعيش سنوات من التيه والضياع والبحث اليأس عن العمل قبل أن يبدأ حياته الأدبية. قد مر خلال تلك السنوات بظروف حياتية بالغة التنوع والتقلب. فقد بدل دينه، والتحق بمدرسة اكليركية كاثوليكية، وتعلم الموسيقى ودرس الفن، ثم توظف في أحد المكاتب قبل أن يصبح خادما في بيت أحد النبلاء. كانت خبرته بالحياة واسعة إذن ومرة عندما طرق باب عالم الأدب. بيد أن الحياة لم تحطم روسو. كلما هنالك أنها أرضعته حقدا عميقا على العلاقات الاجتماعية القائمة، وزودته بحساسية مفرطة مرضية، إزاء آلام الجماهير المضطهدة المستعبدة. وقد ولج عالم الأدب كتمثل طبيعي لهذه الجماهير وكمدافع عن مصالحها. لكنه كان يرى إلى آلام هذه الجماهير من منظور رؤيته البرجوازية الصغيرة للعالم، ويبحث عن الخلاص من خلال تعزيز العلاقات البرجوازية الصغيرة وتدعيمها".³

وإن الحياة القاسية التي عاشها روسو كانت لها تأثير على تفكيره وفلسفته وجعلته يزدري حياة ونمط معيشة الأغنياء وجعلته يتضامن ويدافع عن الضعفاء والفقراء وهذا ما تجلى في المقالة الثانية : في أصل التفاوت بين الناس.، إ ن كتاب روسو " مقال اللامساواة

¹ - ف فولغين ، فلسفة الأنوار ، الصفحة 210

² - Jean Jacques Rousseau, discours sur l'origine et les fondements de l'inégalité parmi les hommes, op.cit , p44

³ - ف فولغين ، فلسفة الأنوار ، مرجع سابق، ص 211

بين البشر" هو في الواقع مفتاحنا الأساسي لفهم نظريته السياسية والاجتماعية. ينطلق روسو في فلسفته السياسية والاجتماعية من أطروحته للحالة الطبيعية، السابقة على ظهور القوانين والدولة¹. "وكان الإنسان الأول هائلاً، سعيداً لم يعرف القيود، ولا الحواجز ولم يعيش متصنعاً في تلك الحالة حيث لم يكن يصطنع الرياء. وكان يتصرف بتلقائية وحرية"².

وإن كتاب مقالة في أصل التفاوت بين الناس: ينتمي الى المرحلة التي يحل فيها

روسو الحالة الطبيعية، ويقول بأنها مرحلة سبقت ظهور الدولة والمجتمع السياسي الفاسد ومؤسسات الدولة، وكانت فيها الملكية جماعية، وكان يعيش فيها الإنسان سعيداً وحياة هنيئة، وسعيدة يعيش في تناغم وإنسجام مع الطبيعة، وكان يتمتع بالحرية الطبيعية، " ويعلن روسو في مستهل المقال في اللامساواة، أنه يحق لنا أن نشك في أن تكون الحالة الطبيعية قد وجدت فعلاً، وأن وصفها قد لا يعبر عن حقيقة تاريخية بل يشكل فرضية ضرورية لتوضيح طبيعة الأمور، أو بتعبير آخر لتقييم الوضع الذي نحن فيه اليوم تقييماً صحيحاً. وهذا الإعلان صريح، وواضح بما فيه الكفاية. لكن روسو يستشهد بعد ذلك مباشرة بالكتاب المقدس الذي لم يأت على ذكر الحالة الطبيعية وهذا الاستشهاد يلقي ضللاً من الشك حول صدق روسو "يتضح لنا من قراءة الكتاب المقدس أن الإنسان الأول، الذي تلقى على النور من الله العلم والأخلاق لم يعرف تلك الحالة إطلاقاً"³.

إستعمل هنا روسو الحالة الطبيعية على أنها فرضية منهجية لكي ينتقد الحضارة والتقدم والتطور البشري الذي لم يحقق السعادة للإنسان في نظريته في العقد الاجتماعي. ويرى أن هذا الانسان فقد حريته الطبيعية، وأصبح مكبلاً في أغلال اصطناعية صنعها

¹ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها

² - جان جاك روسو ، في أصل التفاوت بين الناس ، (الإصدار دون طبعة) ، (العالم العربي، المحرر، و عادل زعيتير،

المترجمون) القاهرة، مصر: اللجنة الدولية لترجمة الروائع ، (2011)، ص38

³ - ف فولغين، فلسفة الأنوار، مرجع سابق، ص 211

بنفسه. ومع تطور الحياة وتقدم المدنية ظهرت المساوى وبذلك قضي على السعادة الكامنة في حالة الفطرة الاولى.¹ " وإذا ما صدقنا كتابات موسى، وهذا الأمر واجب على كل فيلسوف مسيحي. تحتم علينا أن نفي أن يكون البشر قد وجدوا أنفسهم في الحالة الطبيعية الخالصة حتى قبل الطوفان... أن الدين يأمرنا بالإيمان بأن الله هو الذي أخرج البشر من الحالة الطبيعية بعد الخلق مباشرة، فإذا ما جاؤوا غير متساوين فلأنه شاء ذلك، لكنه لا يمنعنا من إطلاق التخمينات، المستوحاة من طبيعة الإنسان والكائنات التي تحيط به، حول ما كان سيؤول إليه الجنس البشري فيما لو ترك أمره لنفسه." ²: غير أن الدين لا يمنعنا اليوم من وضع افتراضات مستتبطة من طبيعة الإنسان والموجودات المحاطة به فقط.³

إن كل تقدم حدث للإنسان الطبيعي فيما بعد ظهور الملكية هو سقوط وتفقر للجنس البشري وللنوع الإنساني نظرا لفقدانه طبيئته وخيريته." وإن حل مسألة أصل المساواة يقتضي كشرط مسبق، على حد تأكيد روسو معرفة الإنسان الطبيعي: أي الإنسان كما كونه الطبيعية. ولبلوغ هذه المعرفة لا بد أن نميز في الإنسان ما كان ملازما له منذ البداية عن جميع التغيرات التي أحدثتها تعاقب الأزمان، في طبيعة الإنسان في جلبته الأصلية. ومن المؤكدان الفصل بينما هو فطري، وما هو مصطنع في طبيعة الإنسان الراهنة ليس بالأمر السهل فقد غير التقدم، وتراكم الأخطاء والمعارف الجديدة، وصدمة الأهواء المدمرة، غيرت جميعها النفس البشرية حتى بات صعب أن تعرفها. ومع ذلك فإن البحث عن طبيعة الإنسان الحق أمر واجب لا غنى عنه، إن لم نكشف عن حقيقة الإنسان الطبيعي، الإنسان

¹ - مهدي محفوظ، إتجاهات الفكر السياسي الغربي الحديث، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر والتوزيع، الطبعة الاولى، بيروت لبنان، 1990. ص144

² - ف فولغين ، فلسفة الأنوار ، مرجع سابق، الصفحة 211.

³ -جان جاك روسو، في أصل التفاوت بين الناس، ص33

في الحالة الطبيعية، إستحال علينا أن نفهم القانون الطبيعي الأكثر ملاءمة لتكوينه، والأسس التي قام عليها المجتمع البشري وتنظيمه السياسي، وأسباب ظهور اللامساواة.¹

فأصبح الإنسان أناني لا يحب إلا ذاته، ويحب أن يمتلك أكثر مما يلزم عليه وكان ينبغي السيطرة على الآخرين لكي يستغلهم شر استغلال، وفقدت النفس البشرية طبيعتها وخيريتها. "ولكن يظهر جليا أن الأشياء قد بلغت قبائذ نقطة لم يسعها فيه أن تدوم على ما كانت عليها."²، "ولا يفرض القانون الطبيعي وجوده على الإنسان إلا بقدر ما أن هذا الأخير كائن عاقل وحر. فهو يخاطب الإنسان بصوت الطبيعة بالذات. وروسو، لم ينطلق من هذه الأطروحة البديهية فينظره، يدعوا لتتحية الكتب جانبا للتأمل بأول أفعال النفس البشرية وأبسطها: "إذا ما جردنا (الكائن البشري) من سائر المواهب الخارقة للطبيعة التي استطاع الظفر بها ومن جميع الملكات التي يتمكن من اكتسابها إلا بعد طول ترقق."³.

ولقد علمت الطبيعة الإنسان كل ما يريد هأو يمتلكه أو يحتاجه أو يستخدمه.⁴، "وباختصار، إذا ما نظرنا إليه كما خرج من بين يدي الطبيعة لوجدنا فيه حيوانا أقل بأسا وقوة من بعض الحيوانات الأخرى، وأقل رشاقة وخفة من بعضها الآخر، وإنما أفضل الحيوانات تنظيما في التحليل الأخير: إني لأراه يأكل حتى الشبع تحت سندية، ويشرب حتى الارتواء من أول جدول يصادفه، ويفرش الأرض عند جذع الشجرة التي أمنت له طعامه، وهكذا تكون حاجته قدا شبعث ثمة مبدآن يسبقان ظهور العقل عند الإنسان الطبيعي: غريزة البقاء والرأفة."⁵.

¹ - ف. فولغين، فلسفة الأنوار، ص 212

² - جان جاك روسو، في أصل التفاوت بين الناس، (ترجمة: بولس غانم)، الطبعة: 1، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2009، ص 117

³ - ف. فولغين، فلسفة الأنوار، مرجع سابق، ص 212

⁴ - جان جاك روسو، في أصل التفاوت بين الناس، ص 38

⁵ - ف. فولغين، فلسفة الأنوار، ص 212

إن الإنسان الطبيعي كان يعيش حياة طبيعية هنيئة. وكان يعيش في انسجام وتناغم ووثام مع الطبيعة، وكان يتمتع بحريته الطبيعية، وكان يعيش حياة بهيمية: لا يعرف فيها إلا الأكل والشرب والنوم والأنثى، كان يشرب من أول جدول مياه يقابله وكان ينام تحت شجرة البلوط التي يأكل منها، وكان لا يخاف إلا الأمراض التي تصيبه وكان يتمتع بغريزة الرأفة على أقرانه من البشر. كان لا يعرف التعاسة والشقاء والقلق الذي يعيشه الإنسان المدني حيث كان سعيدا وهنيئا. "وليس له إلا العواطف والمدارك التي تتطلبها هذه الحالة؛ ولا ينظر إلا إلى ما يظنه مفيدا له." ¹، "وتحتم غريزة البقاء على الإنسان أن يهتم برفاهيته ورغد عيشه، في حين تجعله الرأفة ينظر بعين الاستفظاع إلى آلام وموت كل كائن حي، وعلى الأخص أقرانه من البشر. من هذين المبدأين الأساسيين تتحدر قوانين الحق الطبيعي كافة. فأناية الإنسان الطبيعية، التي يوجهه العقل وتلطفها وتخفف من غلوها الرأفة، تجعله صالحا وفاضلا. وإن النزعة إلى الحياة الاجتماعية غريبة عن الإنسان الطبيعي. فالمتوحشون يعيشون في حالة من العزلة ولتساورهم الحاجة إلى أمثالهم. وهم لا يجيدون النطق ولا يحسون بحاجة إليه. يعيشون شتاتا في الغابات، بين الحيوانات، بلا حرفة أو عمل، ويقتاتون من خيرات الأرض بخصوبتها الطبيعية." ²

وكانت الحياة بسيطة وهنيئة وكان الإنسان يعيش في انسجام و في إتساق ووثام مع الطبيعة ويعيش مما تقدمه له الطبيعة وكان يقتات من ثمار الأشجار، وينام تحتها ويشرب من مياه الجداول والأنهار وكانت حاجياته بيولوجية بحتة ولم يكن بحاجة إلى إقامة علاقات مع الآخرين وكان كائنا طبيبا و وبريئا خيرا بطبعه، متعايشا مع الطبيعة مكتفيا بذاته. ³،

¹ - اندري كريسون ، روسو حياته فلسفته منتخبات ، (الإصدار طبعة 4)، (دار النشر عويدات، المحرر، و نبيه صقر، المترجمون) بيروت، لبنان، (1988)، ص 80

² - ف فولغين ، فلسفة الأنوار ، مرجع سابق، ص 213

³ -حورية مجاهد ، الفكر السياسي من أفلاطون إلى محمد عبده ، جامعة القاهرة، الطبعة السابعة، مكتبة 485، القاهرة، مصر، 2019 ، ص 451

"وتتبقى رغباتهم كافة عن حاجتهم الجسدية: الطعام الأنثى، والراحة. ولما كانت تلبية هذه الحاجات أمرا ميسورا، فإن الإنسان البدائي يجهل البصيرة والفضول. إن مشاريعه المحدودة كروية الحسيرة، لا تتجاوز نهاية النهار. فهو يمقت كل العمل الذي يتطلب دأب أو إستمرارا. ومخيلته لا تصور له شيئا، وقلبه لا يطالبه بأمر، والحق أن الوظائف النفسية للإنسان البدائي هي في مستوى وظائف الحيوانات: إن الابتغاء، وعدم الابتغاء، الرغبة والخشية، هي الأفعال الأولى، وربما الوحيدة التي تصدر عن نفسه. فأهواؤنا تحددها أما نزوات الطبيعة وأما معارفنا فنحن لا نرغب في الأشياء أو نتوجس منها خيفة إلا بحكم الأفكار التي تكونت لدينا عنها. وبما أن الإنسان المتوحش محروم من كل معرفة، فإنه لا تساوره إلا أهواء بدائية، متوالدة عن نزوات طبيعية. فمن يعيش في الحالة الطبيعية، فلن يحتاج إلى أكثر من الغريزة".¹

وإن الطبيعة كانت تمتد للإنسان كل ما يحتاجه حيث لم يكن مستقرا وثابتا في مكان واحد: حيث كانت كل الطبيعة منزلا له وكان ينام تحت الأشجار، كانت الأرض فراشا له والسماء سقفا له، وكان يعيش حياة بسيطة وطبيعية وهنيئة، وكان يعيش سائرا وحيدا في الطبيعة وكان حر حرية طبيعية. "ولم يكن له مسكن واحد ثابت، ولا لغة؛ كانت صرخاته الغريزية تغنيه عن الألفاظ والكلمات".²

وليس للإنسان المتوحش من أسرة: فالعلاقات بين الجنسين عابرة ومؤقتة، والأطفال ينفصلون عن أمهاتهم حال اقتدارهم على تأمين قوتهم بأنفسهم. ويردف "روسو" قائلا: إن البشر في الحالة الطبيعية ليسوا صالحين ولا طالحين، إذ لا تجمع بينهم أية علاقة أخلاقية ولو واجبات مشتركة. لكنه يضيف أنه لا يوافق هوبز على قوله بل أن الإنسان البدائي هو بطبيعته الخالصة شرير لأنه لا يمتلك أي فكرة من الخير وأنه فاسد و فاجر لأنه لا يعرف

¹ - ف فولغين ، فلسفة الأنوار ، مرجع سابق، ص 213

² -جان جاك روسو، في أصل التفاوت بين الناس، ص38

الفضيلة. فيما أن أهواء الإنسان البدائي محدودة، كما يقول روسو، فإن عددها ضئيل ونشاطها ضعيف.¹

وإن روسو يعارض هوبز في كون الحالة الطبيعية كانت حالة سلبية، وبأنها حالة حرب وقتال، حيث يرى روسو أن هذه الحالة هي حالة وئام، وبأنها حالة إيجابية وبأن الإنسان ليس شريراً كما يرى ذلك هوبز. وليس هو عرضة إلا القليل من الشهوات ، إنه يكفي نفسه بنفسه.²، " وإن هذه الغرائز علاوة على ذلك تجد ما يلجمها في الرأفة، ذلك الشعور المشترك بين الكائن البشري والحيوانات، فالآفة، التي سبق ظهورها محاولات التفكير الأولى كافة، تلعب في الحالة الطبيعية دور القوانين، والأخلاق والفضيلة. وهي إذ تختلف من حدة النزوات الأنانية. تسهم في المحافظة على الجنس البشري برمته. فالمشاجرات بصدد إرضاء أنثى، نادرة للغاية عند المتوحشين: فهم يعيشون في منعزل بعضهم البعض، والأرض من حولهم شاسعة تزيد عن حاجتهم إليها، والحب بالنسبة إليهم لا يتخطى حدود الحاجيات البيولوجية. ثم أنهم يجهلون التفاخر والخيلاء، ولا يميزون بينما هو خاصتهم وما هو خاصة الآخرين، ولا تصلبهم خلافاتهم إلى حد سفك الدماء إلا فيما ندر. ولا يسعنا أن نتكلم، فيما يتعلق بالحالة الطبيعية، لاعن تربية، ولا عن تقدم: كانت الأجيال تتعاقب، لكن كان كل شيء يبقى على كما في الماضي، إذا كان على كل واحد أن ينطلق من جديد من نقطة الصفر".³ .

وكان الانسان الطبيعي يعيش حياة هنيئة منعزلة لا تربطه علاقات مع الآخرين، ولا يحتاج إلى أقرانه من البشر، ولم يكن في أي أدنى حاجة إلى إقامة علاقة مع أقرانه من البشر، ولا إلى مساعدتهم لأن الطبيعة أغنته بكل ما يحتاج في هذه الحياة الطبيعية الهنيئة.

¹ - ف. فولغين، فلسفة الأنوار ، الصفحة 213

² - أندري كريسون، روسو حياته فلسفته منتخبات، ص 80

³ - ف فولغين، فلسفة الأنوار، مرجع سابق، ص 214

"حتى انه لم يكن بحاجة إلى معرفة أحد منهم شخصيا.¹، "وقد تصرمت القرون تلو القرون، في جلافة العصور الأولى وحتى أن شاخ النوع، كان الإنسان لا يزال طفلا. عاش البشر طيلة قرون على هذا المنوال وهم على جهل بالحياة في المجتمع، وبالملكية، وبالأسرة. ويكاد التباين بين البشر أن يكون معدوما في الحالة الطبيعية، كذلك التفاوت واللامساواة. وقد تميزت هذه الحالة بالاستقرار والاستمرار، إذ أن الطبيعة، على حد إدعاء روسو، لا تهتم كثيرا بتهيئة البشر للحياة الاجتماعية، وبتقريب الشقة فيما بينهم بواسطة حاجات مشتركة، وبمساعدهم على ابتكار لغة أنفسهم. فحتى لو سلمنا بوجود حاجة إلى التآزر لدى البشر البدائيين، لصعب علينا أن نتصور كيف كانوا يلبن هذه الحاجة بدون وساطة اللغة. وما كان لغير الزمن، كما يقول روسو، أن يحمل البشر البدائيين التطلع إلى الخروج من حالتهم الأصلية التي كانوا يمضون في ظلها أيامهم في طمأنينة وبراءة".²

إن الإنسان الطبيعي ليس اجتماعي بالطبع حسب روسو. فالحياة الطبيعية كانت حياة طمأنينة وحياة براءة، وكان الإنسان فيه يعيش حياة بهيمية سهلة وبسيطة هنيئة وفي سعادة، ليس لديه أي دافع لكي يقيم علاقات مع الآخرين، أو التعرف عليهم والتعاون معهم لكن كان لدى الإنسان ملكة المخيلة، والقدرة على التطور، وكان مهيبا للتقدم والتطور، وتأسيس الحضارة والمجتمع السياسي الفاسد، الذي عكر حياته الهنيئة وأصبح مكبل يعيش في أغلال اصطناعية، وكانت هناك ظروف ساهمت على حدوث ذلك. فإن العقل وقابلية الانسان للتطور والاجتماع هي التي أدت الى ذلك.³ "ما كان هذا الانعطاف في حياة البشرية لیتم لو لم يكن الإنسان بطبيعته أهلا للتقدم في مدارج الرقي. إن قدرة الكائن البشري هذه، التي تكاد أن تكون غير محدودة، هي الشرط الذي لا غنى عنه لتطور البشرية اللاحق، لنمو معارفها وأخطائها وفضائلها ورذائلها. بيد أن الملكات الفكرية التي أعطيت

¹- أندري كريسون، المرجع نفسه، الصفحة 80

²- ف فولغين، فلسفة الأنوار، مرجع سابق، ص 214

³- مهدي محفوظ، إتجاهات الفكر السياسي الغربي الحديث والمعاصر، مرجع سابق، ص 146

للإنسان في الحالة الطبيعية، ما كان لها أن تنمو وتترقى من تلقاء نفسها. بل كانت تحتاج، كما يقول روسو، إلى تضافر عدد من العلل الخارجية التي كان الإنسان سيبقى لولاها إلى أبد الآبدين أسيرا شرطه البدائي".¹

و كانت الصناعة المعدنية، والزراعة ذلك الفنين اللذين أدى اختراعهما إلى تأسيس هذه الحضارة والثورة الكبيرة.² ، "إن الإنسان كان مهيناً للتقدم لأنه كان يمتلك القدرة على المخيلة، والتي ساعدته على التطور والتقدم فيما بعد إما لخيره أو لشره والتأسيس للحضارة والتقدم والمجتمع السياسي الفاسد. "فتمو الإدراك البشري مرتبط ارتباطاً وثيقاً بأهوائنا. فبفضل نشاطها يكتمل عقلنا، والأهواء منوطة بدورها بحاجتنا، وهذه الحاجات يوقظها ويستثيرها الوسط المحيط والظروف الخارجية. ويصعب تصور المسافة الفاصلة بين الأحاسيس الخالصة والمعارف الأولية: ومن المستحيل أن تتصور كيف كان سيأتي الإنسان أن يجتاز بقواه الخاصة وحدها، وبدون مساعفة اتصاله بغيره من أقرانه، مثل هذه المسافة الهائلة ؟، كان روسو يشارك الكثيرين من منظري القرن الثامن عشر إعتقادهم بلأن النمو السكاني حافز للبشرية للتقدم. فالجوع كان في رأيه الحافز الأول للإنسان إلى العمل وقد أثر الجفاف، وسوء المحاصيل، وطبيعة الأرض والمناخ في طابع هذا العمل".³

وهذا لأن العمل كان يلبي للإنسان حاجياته البيولوجية مثل الغذاء، والذي كان في البداية يحصل عليه من الطبيعة دون جهد، ولا عمل، ولأن الطبيعة كانت ملكية مشاعة، وملكية للجميع لا أحد يملكها⁴. ، " وكلما تزايد البشر كابدوا أكثر فأكثر من الصعاب التي تعترض سبيل حصولهم على طعامهم. وقد ألجأتهم هذه الصعاب إلى البحث عن وسائل جديدة لتلبية حاجتهم تلك فالمقيمون منهم على الشواطئ إبتدعوا صناعة الصيد وغدوا صيادي

¹ - ف فولغين ، الرجع نفسه ، الصفحة نفسها

²-Jean Jacques Rousseau, de l inégalité parmi les hommes, collection: folio essai, édition Gallimard, Paris, 1989.p49.

³ - ف فولغين، فلسفة الأنوار، مرجع سابق، ص 215

⁴-محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، ص291

أسماك، أما المقيمون في الغابات فصنعوا الأقواس والسهام، وتحولوا إلى صيادي حيوانات برية. وقد استعانوا بجلود الحيوانات التي قتلوها، ليدفعوا عن أجسامهم غائلة القر في البلدان الباردة، وهدتهم مصادفة ميمونة إلى النار.¹

وتسارعت الأحداث وبدأ التقدم والتحضر يتسرب تدريجياً إلى الإنسان وأقرانه من البشر مع ظهور الاجتماع واللامساواة.² "وساهمت هذه الخطوات الأولى عن طريق التحضر في شحذ حس الملاحظة عند الإنسان، فطفت الأفكار والبصيرة تتكون تدريجياً. وهكذا أخذ يدرك أن غيره من بني الإنسان يتضافرون ويتعاضدون على تحقيق هدفهم حدد، ثم بدأت تتكون رويداً، رويداً ، روابط وتجمعات دائمة (العشائر)." ³ حيث يقول روسو: "وإذ بلغت الأمور هذا المبلغ، فمن السهل أن نتخيل البقية. لن أتولى وصف ما تعاقب من اختراعات لفنون أخرى، ولا وصف طراً على اللغات من تقدم."⁴

إن كل تقدم وتطور حدث بعد ذلك هو عبارة عن انحطاط وسقوط للجنس البشري في الاغتراب وفقدانه حريته وحقوقه الطبيعية، "وإكتسب البشر، من حيث لا يدرون فكرة - وإن كانت إبتدائية - عن التزاماتهم المشتركة وعن فائدة الإيفاء بها. وأسفر هذا التقارب بين الناس عن ظهور اللغة ويسر خطى التقدم. فكلما إستتار عقل الإنسان ، تحسن نشاطه الاقتصادي وازداد اكتمالاً. وقد صنع البشر في تلك الحقبة من تطوره الفأس الحجرية، وبنوا مساكنهم الأولى، وألفوا الحياة الحضرية. يومئذ فقط ظهرت الأسرة المستقرة، وعناصر الملكية الأولى. وكانت كل أسرة تشكل مجتمعا صغيرا، حرا، ومتلاحما بقوة، بالنتيجة، وتمخضت

¹ - ف فولغين، فلسفة الأنوار ، مرجع سابق، الصفحة نفسها

² - مهدي محفوظ، إتجاهات الفكر السياسي الغربي الحديث والمعاصر ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،

الطبعة الاولى، بيروت، لبنان، 1990، ص146

³ - ف.فولغين، فلسفة الأنوار ، الصفحة215

⁴ - جان جاك روسو، في أصل التفاوت بين الناس، ص131

العلاقات بين الجنسين عن أواصر أمتن، وأكثر ديمومة. وقد أنمى تكوين الأسرة، والانتقال إلى الحياة الحضرية نزوع الإنسان إلى الحياة الاجتماعية".¹

ولأن الأسرة كانت البنية الأولى لتكون المجتمعات البشرية، وهذه التجمعات كانت لابد أن تتعاون فيما بينها وتتشئ آلات للإنتاج وأدى ذلك إلى التقدم وإلى التمدن والحياة الحضرية، ومن ثمة إلى إقامة علاقات دائمة بين أفراد البشر.² "وفي النهاية تكون الأسرة والانتقال إلى الحياة الحضرية نزوع الإنسان إلى الحياة الاجتماعية. وفي النهاية، تكون في كل صقع شعب خاص تشد أواصره وحدة العادات والتقاليد."³

ولما كانت حاجات الإنسان في تلك المرحلة تتسم بالاعتدال، فقد جاء اختراع الأدوات الجديدة، التي تخفف عبء العمل البشري، ليوفر للمرة الأولى في تاريخ البشرية قدرا من وقت الفراغ. "فكان أن إبتدع البشر حاجات مصطنعة، أورثوا الأجيال اللاحقة وزره الثقيل. وظهرت أشكال الفنون الأولى: الغناء والرقص. وأدت الفروق الجسمية والفكرية بين البشر محسوسة ومنظورة أكثر فأكثر، فكانت بمثابة خطوتهم عقابا لخارجين على الأصول الأولى للمعايير الاجتماعية."⁴ وهكذا تغيرت الأمور للأسوأ، في إختبار وإستخدام للمواهب، وأدى هذا إلى التفاوت في الحظوظ، وإلى السيطرة والانتفاع بالثروات أو الشطط فيها.⁵

يعتبر روسو الفترة الزمنية الممتدة بين ركود حالة الطبيعة، ونشوء القوانين والدولة أطول الفترات وأسعدها، وسماها بفترة الشباب للإنسانية حيث كانت أفضل الفترات التي عاشتها الإنسانية. "فلئن مثلت حالة الطبيعة طفولة الإنسانية، فلئن الفترة المشار إليها

¹ - ف فولغين ، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

² - مهدي محفوظ، إتجاهات الفكر السياسي الغربي الحديث والمعاصر ، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر

والتوزيع، الطبعة الاولى ،بيروت، لبنان، 1990، ص 144

³ - ف فولغين، فلسفة الأنوار، مرجع سابق، ص 215

⁴ - ف فولغين، فلسفة الأنوار ، الصفحة 215

⁵ -جان جاك روسو، في أصل التفاوت بين الناس، مصدر سابق، ص 131

تمثل شبابها. ذلك أن أوجه التقدم الأحق، التي بدت في ظاهرها وكأنها خطوات على طريق كمال الفرد، لم تكن في الواقع إلا خطوات على طريق كمال الفرد، لم تكن في الواقع إلا خطوات على طريق انحطاط النوع.¹

ويقصد روسو بالنوع هو النوع الإنساني والجنس البشري الذي انحط أخلاقيا حيث فقد إنسانيته وحرية وأصبح في أغلال ومستغلا اقتصاديا مع ظهور الإنسان التاريخي ودخوله في معترك التاريخ. إن النفس البشرية الشبيهة بتمثال غلوكوس الذي كان الزمن والبحر والعواصف قد شوهوه كثيرا بحيث يشبه الإله أقل ما يشبه حيوانا متوحشا، والتي فسدت في وسط المجتمع السياسي الفاسد بألف سبب متجدد باستمرار، وذلك من خلال إكتساب كثرة من المعارف والأخطاء، ومن خلال التغييرات التي حصلت في تكوين الأجسام ومن خلال الصدمة المستمرة للشهوات، وإن هذه النفس البشرية إذا صح القول في مظهرها، تغيرت لحد أنها أصبحت غير معروفة.²

إن الحالة الطبيعية هي الحالة التي سبقت ظهور المجتمع والجهاز الاصطناعي (أي الدولة) والمجتمع السياسي الفاسد، " ويؤكد روسو أن المجتمع طبيعي، بمعنى من المعاني، بالنسبة إلى الجنس البشري، مثل ما الشيوخوخة بالنسبة للفرد. فالشعوب كما يقول: تحتاج إلى الفنون، والقوانين، والحكومات حاجة الطاعنين في السن للعكاز. وبناء النظام الاجتماعي ينتج عن طبيعة الجنس البشري، وتحت مهما كان من الممكن أن تقوم و ألا تقوم ، أو على أية حال أن تنشأ في زمن أبكر أ و متأخر، فتسرع على هذا النحو أو تبطئ شيخوخة البشرية".³، و"يقول روسو: لقد عاش البشر أحرارا وأصحاء، وصالحين وسعداء طالما قنعوا

¹ - ف فولغين، فلسفة الأنوار، مرجع سابق، ص216

² - جان جاك شفالبييه ، تاريخ الفكر السياسي: من المدينة الدولة الى الدولة القومية ، الكتاب: 2، ترجمة محمد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة: 1، بيروت، 1985، ص478

³ - ف فولغين ، فلسفة الأنوار ، الصفحة 216

بكوخهم البسيط، واكتفوا بلبس الجلود ثيابا، وبالريش والأصداف زينة، وانصرفوا إلى تجويد أقواسهم ونبالهم، وإلى تشذيب الأشجار بالأحجار القاطعة لصنع زوارق الصيد: أي طالما لم ينشغلوا إلا بأعمال في مقدور فرد واحد أن يقوم بها، وبفنون لا تستوجب مشاركة كثرة من الأيدي.¹

ثم اضطرتهم الفيضانات والزلازل إلى الاجتماع بصفة مستديمة، فإخترعت اللغة، وتغير السلوك، وبرز الحسد، ونشبت الخصومة.² " لكن ما أن راودت الإنسان حاجة إلى أن يؤازره آخر، وما أن أدرك الفرد الواحد فوائد جمع المؤن الاثنين، حتى اختلفت المساواة وظهرت الملكية، وغدا العمل ضروريا، وتحولت الغابات الشاسعة إلى حقول البؤس جنباً إلى جنب من المحاصيل الزراعية.³ ومن زراعة الأرض بالضرورة اتبعت تقسيمها، ومن الملكية إعترفت ذات مرة بقواعد العدل الأولى: لكي يرد كل فرد على ملكه، ومن ثمة يجب أن يكون كل فرد قادراً على الحصول على شيء.⁴

وتطورت الأحداث بشكل مفاجئ حيث لا يمكن التنبؤ إلى ما ستؤول إليه الأمور في ما بعد إلى وضع أكثر تعقيدا وراديكالية وخطورة نحو التناحر والصراع والاقنتال. "و مع ظهور الملكية العقارية خطأ الجنس البشري خطوته الأولى نحو الانحطاط كما يقول روسو. إن أول من سيج أرضا وقال هذا ملك لي، وجد أناس سذج بما فيه الكفاية ليصدقوا قوله هذا، هو المؤسس الحقيقي للمجتمع المدني. وكم من جرائم، وحروب، واغتيالات، ومصائب، وفظائع كان سيوفرها على الجنس البشري ذاك الذي سيقدم على نزع الأوتاد أروم الهوة الفاصلة بين أرض وأخرى، صار خاف وجه أقرانه بقوله: حذار من الإصغاء إلى هذا

¹ - ف فولغين، فلسفة الأنوار، مرجع سابق، الصفحة نفسها

² - يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، 2012، ص213.

³ - ف فولغين : فلسفة الأنوار ، الصفحة 216

⁴ -Jean-Jacques Rousseau, Discours sur l'origine de l'inégalité parmi les hommes, op.cit, p48.

المحتال فلسوف يكون مآلكم إلى الهلاك إن نسيتم أن الثمار للجميع وأن الأرض ليست لأحد.¹

ويعتبر روسو أن مؤسس الملكية الفردية: هو المؤسس الرئيسي للمجتمع السياسي الفاسد، لأنه مع ظهور الملكية الفردية بدأ التفاوت بين البشر، وبدأ التنافس بين البشر لمن يملك أكثر ومن ثمة يسيطر على الآخرين ومنه بدأ الصراع والتقاتل بين الناس لمن يحوز على ملكية أكثر، ولحماية أملاكهم من الآخرين أسس الأقوياء الدولة الفاسدة والمجتمع السياسي الفاسد. "ويضيف روسو قائلاً: لم تتكون فكرة ملكية هذه دفعة واحدة في العقل البشري، فقد إحتاج الإنسان إلى الكثير من التقدم، وإلى اكتساب لا بأس فيهم من المهارات العلمية لتحصيل المعارف. حتى يصل إلى هذه النهاية الأخيرة للحالة الطبيعية."².

فرأى الناس مثلاً أن إجتماعهم على هيئة عائلات ينفعهم فكانت فكرة العائلة طليعة التملك أو الملكية.³ " وهذه الثورة تدين بوجودها لاكتشاف الزراعة، ولابتكار صناعة استخراج المعادن ويمكن اعتبار التقدم الذي تم إحرازه في هذين الفرعين الاقتصاديين الأساسيين تقدماً واحداً، فأرجح الظن أن البشر إبتدعوا الزراعة لما زرعوا الخضار من حول أكواخهم: إذ كانت تعوزهم في أول الأمر الأدوات اللازمة لزراعة القمح الذي كانوا على كل حال يجهلون حاجتهم اليه."⁴.

إن اكتشاف المعادن ساهم بمساهمة كبيرة في تطوير الزراعة والتطوير في وسائل الإنتاج التي يستخدمها الانسان في ميدان الزراعة والفلاحة، وفي ميادين أخرى كالصناعة.. "وكان لابد من أن تؤدي زراعة الأراضي إلى تقاسمها، كما يقول روسو فاعمل في الأرض خول في البدء الحق في غلتها، من ثم الحق في الأرض نفسها، قبل أن تعطي

¹ - ف فولغين ، فلسفة الأنوار ، ص217

² - ف فولغين، المرجع نفسه ، ص 217

³ - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي ، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، مصر، (1993)، ص294.

⁴ - ف فولغين، فلسفة الأنوار ، الصفحة نفسها

ثمارها. وقد تحول هذا الحق، عاما بعد عام، إلى حق الملكية العقارية لم يكن روسو كما نرى يرمي إلا إلى إضفاء طابع الحق الطبيعي على الملكية. بل كانت الملكية في نظره مؤسسة تاريخية، وكان يعدها عاملا سلبيا في تاريخ البشرية. بل كانت الملكية في اللامساواة، وصراع المصالح، والعبودية والشقاء. و ما أن ترسي أسسها حتى يغدوا تقدم البشرية تقدم اللامساواة في آن واحد.¹

إن الملكية عند روسو شيء عرضي تاريخي حدث مع تطور الأحداث وأنه شيء سلبي في تاريخ الإنسانية، وأنها ليست حق طبيعي وإنما شيء اصطناعي من صنع الإنسان حيث بدأ التفاوت يظهر مع ظهور الملكية الفردية ومع ظهور فكرة التملك بدأت الصراعات، والحروب بين أفراد البشرية لمن يملك أكثر ومن ثمة السيطرة على الأرض وعلى الآخرين. "وأدت هذه الحالة البائسة ، إلى تعريض جيرانه لرعب الموقف . والذي جعلهم جميعاً ، يتسلحون ضد بعضهم البعض".²، "ويميز روسو بين اللامساواة الطبيعية، الناجمة عن تباين الأفراد بالولادة، وبين اللامساواة الاجتماعية التي أقامها البشر أنفسهم. وكما أسلفنا القول لم يكن روسو يعلق أهمية تذكر على الفروق بين البشر في الحالة الطبيعية، إذ كان يعتبرها تافهة وغير ذات شأن.³

إن اللامساواة الاجتماعية غير طبيعية تماما وتعسفية، وهي اصطناعية من صنع البشر وتزداد مع التطور وتقدم الذهن البشري، ولقيام الملكية الفردية وهي عامل أساسي في تحقيق ذلك،⁴ حيث أنه يقول روسو في هذا الصدد: "(من السهل أن نرى

¹ - ف فولغين، فلسفة الأنوار، مرجع سابق، ص 218

² -Jean-Jacques Rousseau (1754), Discours sur l'origine de l'inégalité parmi les hommes, op.cit, p57.

³ - ف فولغين ، فلسفة الأنوار ، الصفحة نفسها

⁴ - مهدي محفوظ، إتجاهات الفكر السياسي الغربي الحديث والمعاصر، ص144

أن بعض الفوارق التي تميز بين الناس، والتي يقال أنها طبيعية، هي في الواقع من صنع العادة و مختلف أنماط الحياة التي يتبناها البشر في المجتمع، ومن صنعها فقط).¹ ويأخذ روسو على عاتقه أن يثبت كيف أن اللامساواة، التي لا تكاد تكون محسوسة في الحالة الطبيعية، تزداد حدة مع الارتقاء المتعاقبة للذهن البشري. "ولقد كان قيام الملكية العقارية هو المرحلة الأساسية، بل المرحلة الحاسمة على هذا الطريق. وكان من الممكن الحفاظ على المساواة في ضل هذا الوضع المستجد فيما لو تعادلت مواهب البشر وتماثلت حاجاتهم. لكن الأقوى، كما يقول روسو، كان ينجز القسم الأكبر من العمل، كما كان الأحقق يجني من عمله فائدة أكبر. وهكذا جاءت المكاسب المجتناة من وراء إنفاق قدر متماثل من العمل شديد التفاوت وقد ازدادت اللامساواة حدة مع الأيام، و تفاقمت الفوارق بين البشر.²

وإن هذا التفاوت إزداد مع العمل للحصول المقابل لسد الحاجيات الأولية للإنسان كالغذاء والملبس والمأوى، ومن ثمة بدأت العلاقات مع أقرانه من البشر تتطور شيئاً فشيئاً. "ومن السهل أن نتصور ما حصل فيما بعد، فقد نجح بعضهم في الاستيلاء على مساحات شاسعة من الأراضي بحيث غدت الأرض كلها في نهاية المطاف وقفا موقفا عليهم، في حين آلا الذين حال ضعفهم، أو طيشهم دون تملكهم ولو شبرا واحدا منها إلى حالة من الفقر والعوز، مع أنهم لم يخسروا شيئاً في ظاهر الأمر. وقد اضطرتهم الظروف إلى أن يتلقوا كلما يحتاجون إليه من أيدي الأغنياء، أو إلى أن ينهبوهم. فكانت ولادة العلاقات التي لا تزال قائمة إلى الآن بين البشر، من جهة السيطرة والاستبعاد، من جهة أخرى العنف والنهب، وقد تذرعو باحتهم ليدعوا لأنفسهم حقا في أملاك غيرهم يعادل حق الملكية. وقد دار صراع لا هوادة فيه بين حق الأقوى وحق شاغل الأرض

¹ - ف. فولغين، المرجع نفسه، الصرحة نفسها

² - ف. فولغين، فلسفة الأنوار، مرجع سابق، ص 218

الأول، وغدا المجتمع الوليد مسرحا لحرب ضارية.¹، لم يجد أحد أمنه سواء في الفقر أو في الثروة.²

وإن ملكية الأرض كانت مهددة وغير مضمونة بما يكفي وكان لا بد من إستحداث آليات ووسائل ومؤسسات جديدة لحمايتها وهي الدولة ومن ثمة تم تأسيس الجهاز الاصطناعي كما يسميه هوبز. "لم تكن ملكية الأرض مضمونة بما فيه الكفاية وكان لابد من تدبر وسائل جديدة لحمايتها. وقد جاء الأغنياء وهما، وللمتضررين من هذه الحرب، إلى الحيلة للإيقاع بالفقراء. وقد ابتكروا كما يقول روسو، أذكى خطة إقتدار العقل البشري على ابتداعها قط. عندما قالوا للفقراء: لننحد كي نحمي الضعفاء من الظلم والجور، ونضمن لكل فرد حقه فيما يملك، و نضع قوانين العدل والسلم، وبدلا من أن نستنفذ قوانا في الاقتتال، لنوحد أنفسنا في سلطة عليا تحكمنا وفق الشرائع الحكيمة، وتتولى حماية أفراد المجتمع كافة والدفاع عنهم، وتتصدى للأعداء المشتركين وتبقينا في وئام دائم."³.

إن هذا الهدف هو الذي كان الخدعة الكبرى التي صنعها الأغنياء لإقناع الفقراء بتأسيس الجهاز الاصطناعي أو الدولة لحماية الأغنياء وأملاكهم. "وما كان لصورة جذابة كهذه إلا أن تخدع الفقراء وتغريهم، ومن شيم الإنسان التضحية بسعادة فعلية على المذبح في سبيل سلام وهمي. وهكذا قاد تأسيس ملكية الأرض البشر إلى الميثاق الاجتماعي، وإلى إنشاء سلطة عامة وقوانين. وقد انحصرت مهمة هذه الأخيرة في امتداد الأغنياء بقوى جديدة، إذ أضفت صفة القدسية على الملكية، ورفعت الاغتصاب إلى مستوى الحق النهائي الذي لا رجوع عنه، وأخضعت الجنس البشري منذ

¹ - ف فولغين، المرجع نفسه، ص 218

² -Jean-Jacques Rousseau (1754), Discours sur l'origine de l'inégalité parmi les hommes, op.cit , p59

³ - ف فولغين، فلسفة الأنوار، مرجع سابق، الصفحة نفسها.

ذلك اليوم للعمل وللعبودية والشقاء.¹ وإنه ليس من الممكن أن الناس لم يفكروا أخيرًا في مثل هذا الوضع البائس، وفي المصائب التي غمروا بها ووصلوا إليها.²

وإن الإنسان التاريخي هو المؤسس للملكية الفردية، بعد دخوله معترك التاريخ وهو المؤسس الشرعي للمجتمع السياسي الفاسد القائم على مؤسسات قانونية وسياسية فاسدة وغير شرعية، هي ذاتها قائمة على القوة والسطو والاحتكار والقهر والتسلط على الآخرين، والسيطرة عليهم فأصبح الظلم مدسّتر. ويعتبر هذا الإنسان أول مجرم عرفته الإنسانية. "حيث كان النظام السياسي البدائي مشوبا بالنواقص، يشكو من عدم الاستقرار، إذ كان من صنع المصادفة وحدها بالأحرى، ولم تترد السلطة أشكالا أكثر استقرارا، وأكثر صلابة في آن معا، إلا تدريجيا وعلى كر الأيام."³

كان المجتمع السياسي في حالته البدائية يحتوي على عدة نقائص وسلبيات وكانت الدولة غير مستقرة وهشة ومتآكلة من داخلها نتيجة عدم الشرعية والفساد الذي يحدث في مؤسساتها الغير ثابتة والظالمة والغير شرعية والغير عادلة، " كانت القوانين في البداية، على حد قول روسو، تقتصر على بعض الضوابط والمعايير العامة الملزمة للأفراد، وكان المجتمع بأسره يضمن احترامها والتقيّد بها، لكن سرعان ما أوحى ضعف شكل الحكم هذا بفكرة تفويض أفراد معينين على الوديعة الخطيرة ، السلطة العامة. وهكذا ظهر الولاة المنتخبون. بما أن الشعب وحد إرادته جمعاء في مشيئة واحدة، فيما يتصل بالعلاقات الاجتماعية، فإن كل ما وقع موضوعا لهذه المشيئة صار للحال قانونا أساسيا ملزما لجميع أعضاء الدولة دونما استثناء، قانون يلزم الولاة بدورهم إذن ."⁴، هكذا كان، أو يجب أن يكون، أصل المجتمع

¹ - ف فولغين، فلسفة الأنوار ، ص 218

² - Jean-Jacques Rousseau (1754), Discours sur l'origine de l'inégalité parmi les hommes, op.cit , p 60

³ - ف فولغين، فلسفة الأنوار ، مرجع سابق، ص 219

⁴ - ف فولغين، المرجع نفسه، الصفحة نفسها

والقوانين ، التي أعطت أغلأاً جديدة للضعيف وقوى جديدة للأثرياء، مما أدى إلى تدمير الحرية الطبيعية بشكل لا رجعة فيه.¹

ينتقل روسو إلى فكرة العقد الاجتماعي التي سوف تؤسس للمجتمع السياسي الجديد والذي سوف تسيره الإرادة العامة، والذي سيقوم على أسس جديدة كالحرية المدنية والرضا والترخيص بين أفراد المجتمع. " وهكذا نجد أن العقد الاجتماعي لا يتمخض، من منظور روسو، عن تكوين المجتمع كتتظيم سياسي فحسب، بل يحدد أيضا العلاقات المتبادلة بين الشعب وبين الذين انتخبهم كي يحكموه، لكن مادام العقد الاجتماعي قابلا لأن ينقض في كل لحظة، إن من قبل الشعب وإن قبل حكامه، الأمر الذي من شأنه أن يؤدي حتما إلى انتشار الخلافات والفوضى، لذا يتعين تأمين قاعدة أكثر صلابة من عقولنا بالذات لترسيخ حكم المجتمعات البشرية، أي يتعين إقحام الإرادة الإلهية لتضفي على السلطة العليا طابع الحصانة، والحرمة التي لا يجوز انتهاكها، وهذه الأطروحة، التي ساقها روسو عابرا في المقال في اللامساواة، تؤكد على ضرورة مصادقة الدين من أجل تأمين استقرار السلطة العامة، وقد اعتبرها مرحلة أساسية في تكوين نظريته السياسية. وسوف نرى كيف أنه أولاها إهتماما عظيما في العقد الاجتماعي.²

وإن روسو يعطي الإرادة العامة أولية هامة في نظريته في العقد الاجتماعي لأنها هي التي ستسير السلطة فيما بعد ومنها ستتبع القوانين التي ستسير الدولة فيما بعد من إرادة الشعب والتي ستقوم على أسس شرعية وعلى أساس الرضا والترخيص لا على أساس

¹ - Jean-Jacques Rousseau (1754), Discours sur l'origine de l'inégalité parmi les hommes, op.cit , p 61

² - ف فولغين، فلسفة الأنوار، مرجع سابق، الصفحة 219

القهر السلطوي والقوة والطغيان والتعسف." وكان روسو يرى أن الإرادة العامة للهيئة السياسية هي التي تستطيع دون غيرها أن تقود الدولة طبقاً لمبدأ الخير المشترك والمنفعة العامة.¹

"إن شكل الحكم القائم منوط بصورة أساسية بتوزيع الثروات بين المواطنين، وبتفاوت عدد ذوي السلطان والنفوذ في الدولة، فحيثما يبرز فرد واحد بثروته وبنفوذه، تصبح الدولة ملكية، وإن كانت الغلبة لفئة محدودة من الأشخاص، قام حكم أرستقراطي، وبالمقابل يقوم حكم ديمقراطي حيثما تكون المواهب والثروات ، موزعة بين الجميع بقدر أو بآخر من التساوي، وتكون السلطة في أول الأمر منتخبة، لكن الانتخابات مصدر متاعب جمة، فبين المواطنين تحاك المكائد والدسائس، وتتولد عن التكتلات الفئوية أحزاب سياسية تخوض فيما بينها صراعاً ضارياً لا هوادة فيه، إلى أن تنفجر الحروب الأهلية في نهاية المطاف".²

يحذر روسو من الرجوع إلى حالة الحرب التي وصفها هوبز: بأنها حالة سلبية بآتم معنى الكلمة، حيث كان الإنسان يعيش حالة قلق وصراع مستمر يصوب سلاحه تجاه الآخرين للدفاع عن حياته وعن ممتلكاته وأن القوة هي العنصر الأساسي في هذه الحالة التي تمكنه من ذلك حيث لم تكن هناك لا زراعة، لا صناعة، لا ملاحه، لا فلاحة كلما كان هناك : هو "حالة حرب الكل ضد الكل". و أن الإنسان كان ذنباً للإنسان: حيث كان في صراع مستمر مع أقرانه من البشر، يصوب دائماً سلاحه نحو الآخرين، وقلبه مفعم بالخوف: فيحذرنا روسو من الرجوع إلى هذه الحالة التي تتسم بالفوضى العارمة، والتي نادى بها هوبز والتي هي حالة حرب شاملة "حرب الكل ضد الكل"، و التي ستؤدي إلى الفوضى وإلى حالة القلق وصراع مستمر فيكون فيها الإنسان في صراع مع أقرانه من البشر،"في حالة كهذه لا مكان للعمل لأن ثماره لا تكون مضمونة لا زراعة لا ملاحه ولا استخدام للسلع

¹ -د. عبد الرضا حسين الطعان، مدخل إلى الفكر السياسي الغربي الحديث والمعاصر، الجزء الأول، بغداد،

العراق، د.ت.ن. د.ط، ص 107

² - ف. فولغين، فلسفة الأنوار، ص 219.

التي قد تستورد بالبحر.¹ " ، " ويستغل ذوو الطموح من الحكام هذه الأوضاع الشاذة ليستأثروا بالحكم، وليجعلوه حكرا لأسرتهم، ويوافق الشعب، العاجز أساسا عن تحطيم قيوده، على الانغماس في العبودية أكثر فأكثر، متوهما إنه يضمن بذلك طمأنينته واستقراره، وهكذا يغدو الحكم وراثيا، ومن خلال صيرورة نمو السلطة وتعزيزها، تتبدل العلاقة بين الحكام ورعاياهم، إذ يعتاد الحكام على اعتبار أنفسهم مالكيين للدولة وأندادا للآلهة، وعلى النظر على مواطنيهم وكأنهم رقيق.²

وإن المساواة لديها أهمية بالغة في فلسفة روسو السياسية والاجتماعية، حيث يرى "أن سيرورة اللامساواة (التي ينظر إليها روسو من زاوية سياسية خاصة) ، تمر إذن بمحطات ثلاث: إقرار القانون وحق الملكية، تأسيس الولاية، وتحول الحكم الشرعي التعاقدي الأصل ، إلى حكم تعسفي، وليس من الحكمة، كما يكتب روسو.³

ومن بين هذه الارتباكات والثورات رفع الاستبداد رأسه الفظيع بالتدريج، وافترس كل ما وجده صالحا صحيحا في جميع أقسام الدولة، فانتهى أخيرا الى دوس القوانين وعلى مؤسسات الدولة والشعب وإلى القيام على أنقاض الجمهورية.⁴ ، "و أن يضع البشر، لدى إبرامهم العقد الاجتماعي، كامل ممتلكاتهم بين يدي شخص واحد هم بحاجة إلى مساعدته للدفاع عنها، فأسوأ ما يمكن أن يقع للإنسان، كما يقول روسو، أن يجد نفسه تحت إمرة سواه، ومن نا قل القول "إن الشعوب قد نصبت عليها قادة ليدافعوا عن حريتها، لا ليستعبدها. فالاستبداد تحريف للعقد الاجتماعي، وأسبابه واضحة وسهلة الإدراك، فالميثاق لا

¹ - توماس هوبز، الليفيانثان (التنين): الأصول الطبيعية والسياسة لسلطة الدولة، (الإصدار الطبعة الاولى)، (دينا حبيب حرب، بشرى صعب، المترجمون) أبوضبي، الامارت العربية المتحدة، ابوضبي: هيئة أبو ضبي للثقافة والتراث: كلمة، (2011) ، ص 134

² - ف فولغين ، فلسفة الأنوار ، ص 220

³ - ف فولغين، فلسفة الأنوار، مرجع سابق، الصفحة نفسها

⁴ -جان جاك روسو، في أصل التفاوت بين الناس، مصدر سابق، ص 92

يستأصل كافة العيوب التي حتمت إبرامه ، والتي لا يضع إبرامه حدا لمفعولها الضار ،
فالقوانين أضعف من الشهوات، وهي لا تغير البشر ، كلما هنالك إنها تحاول كبج جموح
غرائزهم.¹

لا يمكن للإنسان أن يخضع إلى أقرانه من البشر، وإنما الشيء الذي يجب أن
يخضع له هو الإرادة العامة والتي منها سوف ينجم القانون المدني، ومن هنا يصبح الشعب
هو الذي يشرع لنفسه، ومن ثمة يصبح ملزما، وواجب عليه طاعة هذه القوانين التي سنها
هو لنفسه. ولا يوجد إلا عقدا واحد وميثاق واحد وهو ميثاق الجميع مع الجميع واستسلام
الإرادة الفردية لإرادة عامة واحدة، والقانون هو التعبير عن هذه الإرادة العامة.²، وفي
المجتمع تنمو جميع قدرات البشر إلى أعلى درجة، وفيه تتطلق العلوم والفنون والتجارة
والصناعة، ومعها تتعاضد مصائب الجنس البشري، فالإنسان سيدفع ثمنا باهظا للطبيعة
نظرا لإهماله مبادئها: "عندما نتأمل من جهة أولى في الإنجازات الجبارة التي حققها البشر،
وفي العلوم التي قطعوا شوطا بعيدا في مضاميرها، وفي ضروب الفنون التي ابتكروها، وفي
الطاقات التي يبدونها، وفي الهوة التي ردموها، والجبال التي دكوها، والأنهار التي روضوها
وجعلوها صالحة للملاحة، والأراضي التي استصلحوها، والمستنقعات التي جففوها، والمباني
الضخمة التي رفعوها، وعندما نمعن النظر من جهة أخرى في الفائدة الحقيقية ، التي عاد بها
كله على سعادة الجنس البشري، يأخذنا الدهول ، إزاء التفاوت الهائل بين ضخامة الإنجازات
وضحالة الفائدة المجتناة منها".³.

وإن الدولة الناشئة عن الانتقال من مرحلة المجتمع الطبيعي الى المجتمع السياسي
ليست سوى شرا أوجدته الظروف الخاصة في التطور وأهم شروطها ظهور عدم المساواة بين

¹ - ف فولغين ، فلسفة الأنوار ، ص 220

² - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 300.

³ - ف فولغين، فلسفة الأنوار، مرجع سابق، الصفحة 220

الأفراد.¹، " فالإنسان الذي كان حرا فيما مضى غدا اليوم تابعا لأقرانه، حتى ولو كان سيدهم: فالغني يحتاج إلى خدمات الفقير إلى مساعدة الفقير. لقد أفسد التقدم الطبيعة البشرية شر إفساد. أفلا نلمس في المجتمع سيادة الجشع، والطموح، والمنافسة، وصراع المصالح، والحق، وجميعها عواقب محتومة للملكية ولظلمة الأمين: اللامساواة؟ فأجدى لنا أن ننزل الضرر بقريننا من أن نساعد، وتقترب اللامبالاة إزاء الخير والشر بميل إلى الخطب الأخلاقية الرنانة فيغدو كل شيء مزيفا، مصطنعا: الشرف، الفضيلة، الصداقة، بل وحتى الرذيلة: "ما كل هذه الفلسفة، والإنسانية، والتهذيب، والحكم السامية إلا المظهر الخادع والمزيف لشرف بلا فضيلة، ولعقل بلا حكمة، ولمتعة بلا سعادة".²

وإن الشر الذي يتحدث عنه روسو هنا خاصة هو الشر المتجلي في الفساد والاستغلال والتفاوت والاضطهاد الذي تعاني منه البشرية جمعاء، و الإنسان الأوروبي وليس الشر الميتافيزيقي الذي تتحدث عنه الكنيسة والمتمثل في الخطيئة الأولى. وثبت قانون التملك والتفاوت الى الأبد، وحولا إغتصاب لبقا إلى حق لا ينقض وسخر الجنس البشري للعمل والعبودية والبؤس نفعا لبعض ذوي الطموح.³، " إن الطريق التي قطعها الإنسان بدءا من الحالة الطبيعية ، ووصولاً على الوضع الراهن لأطول من أن تقاس في الحقيقة، ولا غرور ، كما يقول روسو، إن كان الأوروبيون الذين يبذلون قصارا هم منذ سنوات ليلفتوا المتوحشين نمط حياتهم ، قد عجزوا حتى الآن عن التغلب على نفورهم الجامح من عاداتنا وطر از حياتنا. وكثيرا ما نرى أوروبيين يستذكرون، وقد غمرهم

¹-مهدي محفوظ، إتجاهات الفكر السياسي الغربي الحديث والمعاصر، مرجع سابق، ص146

²- ف فولغين ، فلسفة الأنوار، ص 221

³- جان جاك روسو ، في أصل التفاوت بين الناس ، (الإصدار دون طبعة) ، (العالم العربي، المحرر، و عادل زعيتير، المترجمون) اللجنة الدولية لترجمة الروائع، القاهرة، مصر، (2011)، ص80.

الشعور بالحنين، الأيام الهنيئة والبريئة التي أمضوها بين المتوحشين، بل إن بعضهم اختار بملء طوعه أن يقضي باقي أيامه بين ظهرائهم ¹.
وإن الإنسان ولد حراً، وفي كل مكان تراه في أغلال ²، عندما دخل معترك التاريخ فأصبح يعيش في المجتمع السياسي الفاسد أخلاقياً والمكبل سياسياً والمستغل اقتصادياً. " ولقد بلغت اللامساواة حداً أضحى معه بعضهم يقضي نحبه جوعاً، وبعضهم الآخر يقضيه تخمة، وما العمل المنهك الذي فرض على فريق من الناس، وحالة التبطر التي يرتع فيها فريق آخر، وما الإعياء الجسدي والخواء العقلي، والهموم والأحزان والمشاق التي لا تقع تحت حصر التي يكابد منها الإنسان المتحضر، ما كل ذلك، كما يقول روسو، إلا العاقبة المؤسسية لتخلينا عن طريقة الحياة البسيطة، الرتيبة، المتوحدة التي كانت الطبيعة قد عينتها لنا، لقد ظهرت مهن من غير صحة، بل قاتلة ³."

إن خروج الإنسان عن الحالة الطبيعية فرض عليه ظروف جديدة، وبذل مجهودات جديدة وجبارة للحصول على قوت عيشه، وعلى مشربه، بينما كان يحصل عليها بطرق طبيعية، وسهلة تمده إياه الطبيعة، حيث: كان يتغذى من ثمار الأشجار وينام تحتها ويرتوي من مياه الجداول والأنهار حيث كان يعيش حياة سعيدة، وهنيئة لا يعرف فيها الشقاء، وهذا التغير الجذري الذي حدث أدخله في تعاسة، وشقاء لم يكن يعيشه من ذي قبل. وإن الإنسان بإمكانه الاختراع إما لخير أو لشره، لأن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يستطيع تطوير وسائل الأذى، من هذا الإمكان ينتج تقدمنا المشؤم مصدر جميع بلايانا، والحضارة التي أنتجها الإنسان بايجابيتها وسلبياتها، وإن حالة الإنسان الطبيعية، هي أسعد حالاته

¹ - ف فولغين، فلسفة الأنوار، مرجع سابق، ص 221

² - جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، ص 79

³ - ف فولغين، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

جميعاً.¹ "وساعدت اللامساواة على تطور فنون غير مفيدة، بل مؤذية، كما تولدت عن علوم باطلة أفكار مسبقة سخيفة، إن الأرباح التي تجني من الحرف والمهن تتناسب عكسا مع فائدها، لهذا السبب أهملت الزراعة كلياً، مع أنها أكثر أنواع الأعمال ضرورة، فمع تقدم الصناعة راح الفلاحون، المحكوم عليهم بالكدح والجوع في قراهم والنازحون تحت عبء الضرائب اللازمة لتغطية نفقات البذخ والترف، راحوا يهجرون حقولهم ليطلبوا في المدن لقمة عيشهم، وهكذا تكدست في المدن ألوف مؤلفة من المتضررين جوعاً، المكابدين من أحوال معيشية لا تحتل.²

إن التفاوت الاصطناعي هو الذي يؤدي إلى اللامساواة، وإلى ظهور الطبقة وإلى الصراع الطبقي على من يمتلك أكثر في المجتمع السياسي الفاسد الذي تسوده القوة، والسطو على الأراضي والاضطهاد والسيطرة على الآخرين وحتى استعبادهم.³ "وإن شغل الحكام الشاغل، في المجتمعات التي تسودها اللامساواة، تشجيع كل ما من شأنه إضعاف المواطنين بشق صفوفهم، وكل ما هو لئيم بزرع بذور الفرقة بينهم، وكل ما يساعد على خلق أجواء من الريبة والحقد المتبادل بين مختلف الطبقات، وذلك بغية تعزيز السلطة القائمة المضطهدة، والاستبداد، الذي يرفع رأسه القبيح رويداً رويداً، يفترس كل ما هو صالح وسليم في الدولة، ويدوس بقدميه القوانين والشعب، وفي النهاية، يأتي الوحش على كل شيء، ولا يبقى للشعوب إلا قادة ولا قوانين، وإنما طغاة فحسب، ذلك هو الحد النهائي للامساواة،³ كما يردف روسو قائلاً، النقطة القصوى التي تغلق الدائرة وتعيدنا إلى حيث بدأنا، إلى شريعة الأقوى. "فالحكم الاستبدادي يفسخ العقد الاجتماعي، ولكن لهذا السبب لا يحكم الطاغية إلا ما دام هو القوي: فالثورة على حكمه، لا تقل شريعة عن السلطان الذي

¹ - اندري كريسون، روسو حياته فلسفته منتخبات، مرجع نفسه، ص 82 .

² - ف فولغين، فلسفة الأنوار، مرجع سابق، ص 221

³ - ف فولغين، فلسفة الأنوار، مرجع سابق، ص 222

ادعاه لنفسه، فهو يحكم بالقوة فحسب، والقوة وحدها كفيلة بالإطاحة به، وهكذا يتم كل شيء وفق النظام الطبيعي.¹

إن القوة لا تصنع الحق ، وأننا لسنا ملزمين إلا بطاعة القوى المشروعة والسلطة الشرعية المنبثقة من العقد الاجتماعي²، إن اللامساواة والاستغلال اللذان سيؤسسان للمجتمع السياسي الفاسد، والمؤسس بدوره على القوة والقهر والاضطهاد، لا يمكن أن يكون شرعيا لأنه سيدوس على القوانين وعلى الشعب وهذا ما سيؤسس للحكم الطاغي وهذا ما سيدخل المجتمع في متاهات وصراعات، وتعيد بالإنسان إلى البداية وإلى الحالة الأولى التي نادى إليها هوبز، والتي هي حالة حرب والتي كانت حرب الكل ضد الكل، كما يقول هوبز فيحدث هناك تناحر وصراع و اقتتال وحروب دامية فتكون هذه الحالة فوضى عارمة، ويكون الانسان ذئب للإنسان..، "و لم تكن الصيغ التقليدية لنظرية الحق الطبيعي، المميّزة للمذاهب الاجتماعية والسياسية في القرن الثامن عشر، مجهولة إذن من روسو، فنحن نجد عنده، كما عند معاصريه كافة، "الإنسان الطبيعي" و"الحالة الطبيعية" و"القوانين الطبيعية"، وكان ميالا على إحاطة "المتوحش الطيب" بهالة من المثالية، وكان من دعاة القانون الطبيعي: فبقدر ما يكون التشريع قريبا منه، تكون المصلحة العامة مضمونة على نحو أفضل، ولم يبرأ فكر روسو أيضا من آثار النزعة العقلانية السائدة في الفكر الاجتماعي لعصره، فهو يعرف الحالة الطبيعية من منظور عقلائي خالص، مستتبطا إياها من مفهومه عن الملكات السياسية الملازمة لطبيعة الإنسان . ونظريته في ظهور الدولة والعقد الاجتماعي، مبنية على العقلانية.³، إن هذا يعني القول بأن النزعة الطبيعية هي بالنسبة لروسو ،حلم أيضا، حلم جميل للفلاسفة.⁴

¹ - ف فولغين، فلسفة الأنوار، مرجع سابق، ص 222.

² -جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر نفسه، ص84

³ - ف فولغين، فلسفة الأنوار، مرجع سابق، ص 222

⁴ - جان جاك شفالبييه ، تاريخ الفكر السياسي: من المدينة الدولة الى الدولة القومية، 1985.ص479

إن نظرية العقد الاجتماعي عند روسو هي نظرية عقلانية نقدية، إنما هو نموذج نظري سالب إيبستيمي خالص ، أراد بها روسو نقد التفاوت الاجتماعي والأنظمة السياسية الفاسدة التي كانت سائدة آنذاك في العصر الحديث، وأراد التأسيس لنظام سياسي جديد يقوم على الرضا والحرية ويكون مبنيا على الشرعية وتسييره الإرادة العامة للشعب والقوانين، لا لإرادة الأفراد والملوك والطغاة وأهوائهم. "لكن ليست هذه المميزات العامة لفلسفة القرن الثامن عشر الاجتماعية هي التي تعين مكانة روسو في تاريخ تطور الفلسفة السياسية والاجتماعية و علم الاجتماع، فهو في تأمله حول هذا المجتمع والتفاوت الاجتماعي ، يتقدم بطائفة من الأطروحات الفذة التي تميزه على نحو جلي وقاطع عن بقية مفكري عصره البورجوازيين، وهذه الأطروحات المبتكرة هي التي سمحت بإعتباره مؤسس تيار خاص في الفلسفة السياسية والاجتماعية و الفكر الاجتماعي، وساهمت إلى حد كبير في تطوير هذا الأخير وفي إخصابه.¹

ولقد قرر "كول" أن كتاب العقد الاجتماعي لروسو لا يزال أهم مرجع في الفلسفة السياسية والاجتماعية، ثم يستطرد قائلاً أن تأثير روسو السياسي إزداد يوما بعد يوم بعد مماته.² "يخترى روسو بصورة شبه دائمة تأويله لنظرية الحق الطبيعي بعنصر جديد، مبتكر، وقد خص تعريف الحالة الطبيعية ، بحيز كبير في المقال في اللامساواة، وتماشيا مع العقلية السائدة لدى شرائح الشعب الديمقراطية، والبورجوازية الصغيرة، وهناك من يرى أن روسو بالغ إلى حد ما، في تصوره الفردي النزعة ، للإنسان الطبيعي، فقد عزل البشر البدائيين عن بعضهم بعضا حتى على صعيد المكان، ولم يعترف لهم ، ولو بميل بعض الحيوانات البدائي إلى الحياة الاجتماعية. وقد قال، بعد أن تبني الاتجاهات الأكثر جذرية للإيديولوجية البورجوازية التي كانت قيد التكوين، بأطروحة المساواة الأولية بين البدائيين من البشر، وحاول أن يثبت أن معظم الفوارق الظاهرية بين الناس ، قد ترسخت في مجرى

¹ - ف فولغين، المرجع نفسه، الصفحة نفسها

² - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 309

التطور الاجتماعي".¹، إن المجتمع السياسي الفاسد هو الذي أفسد الإنسان، حسب روسو، وأن الدولة شر أوجده التطور الاقتصادي ومن أبرز شروطها ظهور عدم المساواة بين الأفراد.²

ويرى روسو أن الإنسان الطبيعي كان يعيش منعزلاً عن أقرانه من البشر، وليست لديه أي علاقة تربطه بهم حيث كان يعيش حياة بيولوجية طبيعية كان يعيش في وئام وفي إنسجام مع الطبيعة، حيث كانت الطبيعة تكفي حاجياته البيولوجية، وكانت تغنيه عن إقامة علاقات مع الآخرين ولم يكن في حاجة إلى إقامة علاقة معهم، ولا في حاجة إلى مساعدتهم. و" إن البشرية في حالتها الطبيعية تبدو إذن، في نظرية روسو، كمجموعة من الأفراد المتساوين والمنعزلين، وهذه صورة قابلة للنقد، وقد انتقدها فعلا العديد من الكتاب، على ضوء المعطيات الإثنوغرافية العينة ومن منظور قيمتها كمثال أعلى اجتماعي، لكن لا يسعنا أن نقيم تصور روسو تقييماً تاريخياً صحيحاً، ما لم نأخذ بعين الاعتبار توضيحين أساسيين له في هذا المضمار، طالما غفل عنهما نقاده، فقد أشار روسو غير مرة على الطابع الافتراضي لتعريفه للحالة الطبيعية".³

إن حالة الطبيعة عند روسو لم تكن حالة اجتماعية كما أو حالة حرب كما وصفها هوبز، وإنما كانت حالة انسجام ووثام مع الطبيعة⁴، "و التي لا يعلق عليها من أهمية إلا باعتبارها نقطة لتأملاته حول اللامساواة، ونفى نفياً قاطعاً التأويل الذي قدمه العديد من معاصريه، ومن تلامذته للحالة الطبيعية التي أرادوا أن يروا فيها التجسيد التاريخي لمعايير الحق الطبيعي المثلى، نحن نعلم، على العكس، أن أسعد عهود البشرية، في رأي روسو،

¹ - ف فولغين، فلسفة الأنوار، مرجع سابق، ص 223

² - موسى إبراهيم، الفكر السياسي الحديث والمعاصر، دار المنهل اللبناني للدراسات، التوزيع: مكتبة رأس النبع، الطبعة: 1، بيروت، 2011، ص 152

³ - ف فولغين، المرجع نفسه، ص 223

⁴ - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 291

يتمثل بمرحلة لاحقة من تطویرها، مرحلة شهدت قيام الأسرة والأو
الأولى".¹.

و يتحدث روسو عن مرحلة تلت الحالة الطبيعية والتي يسميها روسو بأنها العصر
الذهبي للبشرية لو بقيت فيها على تلك الحال — لكنها كانت حالة غير مستقرة لأن بذور
الصراع كانت موجودة، لذلك فهذه الحالة لم تدم طويلاً. "و لم يركز مؤلف المقال في
اللامساواة، إهتمامه البتة على فكرة "الحق الطبيعي". "، باعتباره معياره معياراً يتجاوب
والطبيعة المجردة للإنسان، وبالتالي ملزماً له وللمجتمعات البشرية بغض النظر عن الشروط
التاريخية، فروسو ينحي جانباً مفهوم الإنسان الطبيعي، الطليق من مكتسباته التاريخية كافة،
ويتبنى بدلاً منه مفهوم الإنسان التاريخي الذي يحمل السمات النوعية للعصر الذي خلقه،
ويخلي مبدأ القانون الطبيعي كنظام من القيم القابلة للتطبيق في كل مكان وزمان مكانه،
عنده، لصالح مبدأ النسبية التاريخية، فالطبيعة البشرية، بحسب وصف روسو لها، تتغير
وتتبدل، حتى ليعز تعرف قسماتها الأولى، في مجرى تطور الجنس البشري".²، "فما قد يكون
ممتازاً في عصر من العصور، قد يغدو غير مناسب في عصر آخر، وعلى الرغم من
التقاليد العقلانية التي يظل أسيرها، "فإن مذهب روسو يتسم، في التحليل الأخير، ببعض
مميزات التصور الجدلي للسيرورة التاريخية، وهي مميزات كان نوه بها إنجيلز في كتابه ضد
دوهرينغ".³.

نجد أن روسو يعتبر العقل نتيجة لتطور الحياة الاقتصادية والصناعية في المجتمع
السياسي الفاسد ويعتبر تطوره وبالأعلى البشرية حيث قضى على سعادة الإنسان.⁴، "ولقد

¹ - ف فولغين، فلسفة الأنوار، مرجع سابق، الصفحة 223

² - ف فولغين، المرجع نفسه، ص 224

³ - ف فولغين، فلسفة الأنوار، مرجع سابق، الصفحة نفسها.

⁴ - إبراهيم موسى، الفكر السياسي الحديث والمعاصر، دار المنهل اللبناني للدراسات، التوزيع : مكتبة رأس النبع،

الطبعة: 1، بيروت، 2011، ص 152

أدرك روسو، ولو على نحو غامض بعض الشيء، الطابع التناقضي للتقدم، حيث تتراكم فتوحات الحضارة مع لامساواة متنامية، وتفتقر النجاحات التي يحرزها بعض الأفراد بلنحطاط الجنس البشري، ومن جهات النظر الديالكتيكية عينها هذه ينظر إلى مختلف مراحل تطور المجتمع ، وإلى شتى المؤسسات الاجتماعية، محاولا في كل مرة جلاء التناقضات الملازمة للظواهر الاجتماعية ، والكشف عن النتائج مع الأهداف التي تؤدي إليها، ويميل روسو أشد الميل إلى التوكيد على عدم تساوق النتائج مع الأهداف الأولية التي كان المجتمع يسعى وراء تحقيقها في كل حالة من الحالات، ويستشهد ، تمثيلا على ذلك، بضرورة تدعيم السلطة التي توجد بها الشعوب، كما يقول، لضمان حريتها ، "وأمنها والتي تتحول، بفعل ضرورة داخلية، إلى قوة مضطهدة للمجتمع".¹ ، وإن الإلزام السياسي والخضوع للسلطة لا يمكن أن يكون أساسهما القوة وإن تأسيس السلطة على حق الفتح والغزو يعني إنكار فكرة الحق ككل.²

إن الملكية الفردية هي التي تؤسس اللامساواة، وإن اللامساواة هي التي تؤدي إلى صراعات بين أفراد المجتمع للحصول على ملكية أكثر، ونفوذ أكثر وهذا لا يحدث إلا بالقوة وأن هذا الصراع اللامتناهي هو الذي أفضى على الأغنياء لتأسيس المجتمع السياسي الفاسد، لحماية أملاكهم من الفقراء، والسيطرة على الفقراء واضطهادهم واستعبادهم. " وهناك من يرى أن ميل روسو الأكيد إلى المخططات الافتراضية المتسمة بجذلية سطحية ، يقوده أحيانا إلى استنتاجات هي أشبه ما تكون بالمفارقات، كقوله على سبيل المثال إن الشطط في اللامساواة يعيد البشر إلى حالة من المساواة، ولكن في ظل العبودية. كثيرا ما يتوصل روسو إلى الإرهاص، على نحو عبثي فعلا، بالسيرورات الفعلية للتطور الاجتماعي ."³ بهذه النظرة حاول روسو إزالة التعارض بين نظريته في الدفاع عن الفرد وحقوقه الأساسية،

¹ - ف فولغين، المرجع نفسه، ص224.

² - إبراهيم موسى، الفكر السياسي الحديث والمعاصر، مرجع سابق، ص252

³ - ف فولغين، فلسفة الأنوار، مرجع سابق، ص224

ونظريته في الاعتراف للجماعة وإرادتها بسلطات لا حدود لها. ونتيجة لهذا التعارض انقسم قراء روسو الى تيارين :-تيار إعتبر روسو من أصحاب المبادئ الحرة والحقوق الفردية، وتيار اعتبره روسو من أنصار السلطان المطلق للدولة معتمدين في ذلك على أفكاره في الإرادة العامة والسيادة .¹ ، "ويفلح على الرغم من الشكل العقلاني لحججه، في الكشف عن العلاقات الداخلية الحقيقية بين الظواهر الاجتماعية، وتتسم أحكام روسو حول القوى التي تدمر الحالة الطبيعية ، وتدفع بالإنسان إلى الأمام على طريق التقدم الاجتماعي بأهمية فائقة."²

وإن العامل الأول الذي أسس للمجتمع السياسي الفاسد هو ظهور الملكية الفردية حيث يقول روسو في كتابه في أصل التفاوت بين الناس أن أول إنسان سور قطعة أرض وقال هذا لي، ووجد أناس سذج يؤمنونه هو المؤسس الأول للمجتمع المدني وللمجتمع السياسي الفاسد،³ وللإنسان التاريخي الفاسد أخلاقيا، والمستغل اقتصاديا والمكبّل سياسيا أينما تنظر تراه مكبّل في أغلال. ، "وإن تأملاته في هذا الخصوص تبيح لنا أن نرى فيه المفكر، الذي عبر بأكبر قدر من السطوع في القرن الثامن عشر عن النزاعات المادية ، التي لم تتجل إلا على نحو مبهم للغاية عند بعض معاصريه **كتورغو** على سبيل المثال، أو **هلفسيوس** الذي يدين بالكثير لروسو، يؤكد روسو أن البشر ما كانوا يعانون، إلى فترة محدودة من تاريخ البشرية، من عبء إشباع حاجاتهم المادية، نظرا إلى ضآلة عددهم طفاقة هذه الحاجات، لكن طردا مع تكاثر الجنس البشري، يرغم الصراع من أجل الوجود، الذي يزداد شراسة وضرورة، البشر على ابتكار أدوات عمل جديدة ، وطرائق إنتاج جديدة".⁴

¹ - إبراهيم موسى، الفكر السياسي الحديث والمعاصر، مرجع سابق، الصفحة نفسها.

² - ف. فولغين، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

³ - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، ص 293

⁴ - ف. فولغين، فلسفة الأنوار، مرجع سابق، ص 224

إن ازدياد عدد سكان المجتمع أدى إلى استحداث طرق جديدة، ووسائل جديدة للحفاظ على البقاء، ووسائل جديدة للعمل وطرق جديدة للإنتاج، والزيادة في القدرة الإنتاجية لإشباع حاجيات المجتمع المتزايدة . وعند تحرك التقدم الاقتصادي وعند قيام التنظيمات الاجتماعية، وعندما زادت العلاقات بين الناس وظهرت أفكار المنافسة والتفضيل والتفوق: فذاعت الشرور وإنعدام التسامح بين الناس.¹ ، "والحال أن كل خطوة في هذا الطريق ترفع الإنسان إلى درجة أعلى في جميع مضامير الحياة، وعلى هذا النحو أفضى الصيد والقنص إلى ولادة الأسرة، ودفعاً بالبشر إلى الاستقرار والإقامة في مساكن ثابتة، كما أدى ظهور الزراعة وصناعة استخراج المعادن ، إلى ولادة مجتمع تطورت فيه الملكية الخاصة للأرض، واللامساواة، وسلطة الدولة، والحق أن جميع عناصر الحياة الاجتماعية تشكل، في نظر روسو، وحدة معينة في كل عصر من العصور، والتاريخ تجري عجلته ، وكأنه سيرورة واحدة وحيدة محكومة بقوانين، والأشكال الاجتماعية تتعاقب فيه بحكم الضرورة الطبيعية." ² .

وهذا يعني أن الحاجة والضرورة الطبيعية هي التي تتحكم في كل مرحلة من هذه المراحل، وأن هناك قوانين تتحكم في تعاقب هذه المراحل، التي مر بها المجتمع البشري في تطوره عبر التاريخ. فيظهر الزراعة والتعدين أصبح كل فرد في حاجة إلى عون الآخر وأوضح التعاون بين الناس أن بينهم تفاوتاً في المهارة والقوة فحضي الأقوى منهم بكمية أكبر من العمل وأنتج المهرة منهم إنتاج أكثر، فظهر الغني والفقير، وهما أصل كل أشكال اللامساواة.³ ، " تتميز النتيجة العامة التي يصل إليها روسو في تحليله لتاريخ ظهور المجتمع البشري وتطوره بتشاورهما العميق، فالبشرية تمر بأطوار ثلاثة، شأن الأفراد: الطفولة، الشباب، والشيخوخة، وقد انقضى عهد شباب البشرية السعيد إلى غير ما رجعة، ويستحيل علينا أن نعود أدرجنا إلى هذا العهد مثلما يستحيل على الشيخ أن يعود شاباً من جديد، ولا

¹- محمد علي عبد المعطي ، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 294

²- ف فولغين ، فلسفة الأتوار، ص 224

³- محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 295

تعود الحالة الطبيعية تمثل، بالنسبة إلى البشرية المتحضرة الداخلية في طور التحلل والانحطاط، حالة مثلى.¹

وإن هذه المراحل التي مرت بها البشرية، تشبه المراحل التي يمر بها الأفراد كمرحلة الطفولة، ثم مرحلة الشباب ثم مرحلة الشيخوخة ويرى روسو أنه يستحيل الرجوع إلى الوراء إلى المرحلة السعيدة والتي عاشت فيها البشرية مرحلة شبابها. ، "و الحل الوحيد الذي يبقى أمامنا هو أن نعطل سيرورة الانحطاط المدمرة هذه، وأن نخفف قدر المستطاع من حدة الداء المنتشر بين البشر، ومن هنا قل القول إن روسو يقترح للمجتمعات المختلفة مشاريع إصلاح تتباين بتباين "عمرها"، أي مدى ابتعادها عن الحالة الطبيعية، وقد قدم روسو أوسع عرض لخطة الإصلاحات الاجتماعية التي وضعها لمجتمع عصره، أي لمجتمع تقدم في السن، في مقاله "الاقتصاد السياسي" الذي نشره في موسوعة ديدرو و دالمبير.²

ويتجلى دور روسو في عصر الأنوار في أنه: من رواد الفلاسفة الذين دافعوا عن الحرية وعن الحقوق الطبيعية والأساسية للفرد والمجتمع ودافع عن الديمقراطية والأنظمة السياسية الحرة والشرعية ورفض العبودية والاستعباد والاسترقاق. ودافع عن الفقراء والمساكين وعن الإنسان العامي وناضل من أجل العدالة الاجتماعية في ظل مجتمعه المتمسم بالتفاوت الطبقي والاستغلال. وناضل من أجل الملكية الجماعية وكان من المنظرين الأوائل للملكية المشاعة. "واستوحت أفكاره ضربا من الشيوعية"³. وكانت أفكار روسو أيضا بمثابة دستور للثورة الفرنسية. وأثر أيضا في فلسفة كانط واشتراكية ماركس وألهم الحركة الرومانسية والثورة

¹ - ف فولغين، فلسفة الأنوار، مرجع سابق، ص 225

² - ف فولغين، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

³ - جان توشار، تاريخ الأفكار السياسية من عصر النهضة إلى عصر الأنوار، ترجمة: الدكتور ناجي الدراوشة،

الطبعة: 1، دار التكوين للتأليف والترجمة للنشر، دمشق، 2011. ص 565

الفرنسية،¹ وسنحاول بالخلاصة أن نذكر مديحا لكانط الذي قال أن روسو وضعني على الطريق الصحيح في الفلسفة لأنه وضع الأخلاق فوق العلم، وهناك مديح لفيلسوف ألماني كبير آخر هو: "غوته Goethe" الذي أتى ويوسع مديح كانط : ويقول غوته: أن العالم القديم ينتهي مع فولتير، أما مع روسو فإن عالما جديدا هو الذي يبدأ.²

¹-ويل وايرل ديورانت، قصة الحضارة روسو والثورة، ترجمة: فؤاد أندوراس، مراجعة: علي أدهم، الجزء الأول من المجلد العاشر، دة،ن، بيروت ، لبنان، ص9

²-جان جاك شفالبييه، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، ص525

الفصل الأول: فلسفة جان جاك
روسو.

المبحث الأول: فلسفة روسو
التتويرية.

المبحث الثاني: النزعة
الرومانسية لدى روسو

1- فلسفة روسو التنويرية:

إتجاهات فلسفة روسو: لكل فيلسوف له إتجاهات فلسفية خاصة به يرجع إليها دائما فكأنها:- أسس عقيدية يوحى إليها قسما من هذه الإتجاهات مزاجه الفطري والقسم الآخر تربيته، بالنسبة إلى وسطه المادي، والذهني والأخلاقي. تلعب هذه الإتجاهات الخاصة دورا هاما ورئيسيا في انتقاء الحقائق الثابتة، والمناهج المتبعة، قد تطبق هذه الملاحظة على **جان جاك روسو** أكثر مما تطبق على غيره لذلك سنحاول لكي نفهم روسو أن نستخرج حالا حقائقه الأولى.¹

حيث يقال أن الفلسفة هي روح العصر وإن الفيلسوف هو ابن عصره وإن روسو هو وليد عصره وابن مجتمعه والأزمات التي عاشها مجتمعه آنذاك في القرن 18:- هي التي أثرت فيه وأملت عليه البحث عن حلول ناجعة لهذا الوضع المتأزم، الذي كانت تعيشه فرنسا خاصة وأوروبا عامة. ويعتبر روسو من الفلاسفة الذين ملأوا عصرهم بأفكارهم التنويرية والثورية. "كان روسو ثوريا أكثر منه مصلحا فقد حاول في أشهر كتبه أن يضع برنامجا واقعيا لتحسين أوضاع مجتمعه، لكنه لم يضع مميزات مجتمع مثالي، و"روسو" الفيلسوف لا يخرج عن تأثيرات بيئته، وتربيته ووسطه المادي كل هذه الإتجاهات الخاصة، تلعب دورا أساسيا في منهاجه فما هي هذه الإتجاهات؟

- أولا إتجاهات روسو: 1- الإتجاه الأول: مبادئ الإنسان: ليس هناك مبادئ يجب المحافظة عليها طوال الحياة. لنذكر هذه العبارة الشهيرة التي أعلنها: (أفضل أن أكون رجلا متناقضا على أن أكون رجلا متعصبا منقادا). يعني هذا أن روسو لن يهتم إطلاقا للرأي الذي يأخذ به سواد الناس ويزعمون أنه الرأي الصحيح والأصح، فالشيء الوحيد الذي يهتم

¹-موريس شربيل ميشال أبو فاضل، روسو، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1978، ص158.

بِهـ هو الحقيقة، والحقيقة فقط.¹، حيث يقول روسو في هذا الصدد: "العدل والحقيقة هما أولى واجبات الإنسان"²، "فلن طابقت الحقيقة مع رأي الأغلبية فهذا هو الأحسن ، وإلا فلن روسو سيجهر بها أمام الملأ ، ولو أدى به هذا الجهر إلى إغضاب أولئك الذين يعتبرون أنفسهم فلاسفة، بهذا تتجلى جرأته وشجاعته.

2- الاتجاه الثاني : معرفة الانسان: لا يستطيع الإنسان أن يعرف سوى القليل مما يمكنه أن يعرفه، رغم أن هناك مواضيع عديدة لا يمكننا أن نعرف عنها شيئاً مهما حاولنا بمنطقنا البشري. إذن ليس الفيلسوف من يدعي معرفة شاملة، بل هو ذلك الذي يستطيع أن يعرف حدود معرفته الممكنة، "إن عدم المعرفة لم يقترب شراً أبداً، والإنسان لا يضيع بما لا يعرفه، ولكن بما يظن أنه يعرفه"³.

لنبحث عن المصدر الأول للاضطرابات في المجتمع ، "سنجد أن كل شرور الناس تأتي إليهم من الخطأ أكثر بكثير من الجهل ، وأن ما لا نعرفه يضر بنا أقل بكثير مما نعتقد أننا نعرفه. .. الآن ، وما هي الطريقة الأضمن لانتقال من الخطأ إلى الخطأ هو الاعتقاد بأننا نعرف كل شيء"⁴.

وقد يكون العلم معصوماً عن الخطأ ؛ لكن الانسان الذي أوجده يخطئ غالباً.⁵

3- الاتجاه الثالث: إختيار المشاكل التي تطرح بين الناس: علينا أن نحسن اختيار

المشاكل التي تطرح بين الناس، وتثير جدلاً حاداً، فهناك مشاكل ليس لها أهمية في حياتنا

¹ -موريس شربيل ميشال ابو فاضل ، روسو ، مرجع سابق، ص158

² -JEAN JACQUES ROUSSEAU, LETTRES A MR , D 'ALLEMBERT SUR LES SPECTACLE, GENEVE, vol6 ,1948.p3.

³ -موريس شربيل ميشال ابو فاضل، المرجع نفسه، الصفحة نفسها

⁴ Jean-Jacques Rousseau (1754), Discours sur l'origine de l'inégalité parmi les hommes –suivi de réponse a voltaire .p79

⁵ -JEAN JACQUES ROUSSEAU, LES ECRITS DE LA MONTAGNE, Ed :Flammarion ,PARIS,S.D.E.p9.

على الأرض، ولا جدوى في البحث فيها: فالأسئلة القائلة مثلاً هل الكون متناه أم لا ؟ هل هو مركب من ذرات ثابتة أم من عناصر قابلة للانقسام إلى ما لا حد له، هي أحاج لا فائدة لنا منها لأن لا حل لها لدينا. فكل ما يهمنا هو تنظيم حياتنا، كيف يجب أن ننظر إلى المعتقدات الدينية؟ أية مبادئ سلوك يجب أن نسلك ولماذا؟ -كيف يجب أن ننظم المجتمع والدولة؟ - كيف يجب أن نربي أولادنا ؟ -تلك هي الأسئلة والمسائل التي نرغب في أن نتعمق في بحثها ولنترك الأحاجي جانباً، للعقل البشري حدود، وعلينا أن نبذل جهدنا في هذا المضمار.

ثانياً: - منهج روسو: ومن هنا نحصل إلى منهاج فلسفي متكامل، بتحديث الأبحاث الأساسية واستخراج النتائج المنطقية، والصعوبات التي تعترض طريقنا للوصول إلى الأهداف¹.

يعتقد روسو أننا إذا انطلقنا من هذه الحقائق نستطيع أن نصل إلى شتى النتائج الحتمية، فإذا أردنا أن نجيب فرداً على "الكوجيتو الديكارتي" أنا أفكر إذن أنا موجود. يقول روسو "هل يمكنني أن أزعم أنني لست موجوداً ؟ إن الحاسة الطبيعية هي في مثل هذا السؤال أصدق من حك الأدمغة، والتفلسف الفارغ، فالمنهج الذي يأخذ الحقائق الواضحة من طبيعتها هو الذي يجب أن نتبعه لكي نجعل من هذه الحقائق نقطة انطلاقنا الأساسية."²

وإذا عرفنا أن للهواء وزناً، استطعنا أن نعرف ما يحدث للبارومتر عند نقله إلى مكان أعلى ومرتفع، أو إذا تأكدنا من صحة خطة سلوك معينة، استطعنا أن نعرف ماذا يجب أن نضع في ظروف معينة باستخراج النتائج المنطقية، هو مبدأ مسلم به، وهو أحد العناصر الأساسية من المنهاج. أما إذا حدث التوصل إلى نتائج متناقضة، علينا ألا نضطرب لأن العقل البشري لا يستطيع أن يكشف كل الظلمات، وهنا علينا أن نعترف بجهل ما لا نستطيع

¹ -موريس شربيل، ميشال أبو فاضل، روسو، مرجع سابق، ص158

² -المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

أن نفهمه، والفيلسوف الحكيم يتبع نصيحة بوسويه فيمسك بطرفي السلسلة ولو لم يكن يرى وسطها. هذا هو المنهج الذي اتبعه روسو والذي أعلنه على لسان النائب الأسقي السافوي.¹

ومن يشعر بالحقيقة لا يستطيع أن يمتنع عن عبادتها.²، ومن يظل بارداً فلأنه لم يراها. فالعقل الإنساني يمكن أن يقع في أخطاء. يقول روسو: "حسب هذا المنهج آخذ على عاتقي فحص ما يهمني معرفته مصمماً على التسليم بالحقائق التي تبدوا واضحة لوجداني العميق، ثم أسلم بالحقائق التي لها علاقة حتمية مع الأولى، ثم أترك كل ما تبقى في ظلام الشك فلا أرفضه، ولا أؤكد له لأن البحث فيه ليس منه جدوى.

1. - المسائل والقضايا التي حلها روسو في مؤلفاته:

ومن هنا نستخرج المشاكل، والمسائل التي تهمة وهي : المشكلة الدينية والمشكلة الأخلاقية، والمشكلة السياسية والاجتماعية والمشكلة التربوية، ومن ثمة يعترف روسو بأن فلسفته لا تحل كل الصعوبات، وبأنه أقرب إلى الصدق من الفلسفات الأخرى ولذلك يدعو الناس إلى تصديقها واعتبارها الأفضل. حيث انطلقت مواقف روسو من المشكلات الحياتية، والاجتماعية التي عاشها، فكانت نظريته في الدين والأخلاق، والمجتمع والسياسة متألفة ومتناسقة تصب كلها في تيار الدين الطبيعي، والمبادئ الطبيعية التي نادى بها روسو.³

يحتل العقد الاجتماعي 1792 م المركز الوسط في مؤلفات "روسو" ولكنه من الظلال الظن بأنه نوع من التجميع، ركز فيه "روسو" كل أفكاره السياسية. لذا فمن المهم تأويله في ضوء مؤلفات التي سبقتة ولحقته بالمؤلفات التي أثارت الاستكار : خطاب حول العلوم

¹ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

² - JEAN JACQUES ROUSSEAU: LES ECRITS DE LA MONTAGNE, éd : Flammarion ,PARIS,2018.p6.

³ - موريس شربيل ميشال أبو فاضل، روسو، مرجع سابق، ص159

الفنون 1749. "خطاب حول التفاوت بين الناس" 1758، وكون روسو في هذه التأليف ضد التقدم وضد الملكية وضد الفنون والمسرح " ¹.

تنقسم مؤلفات روسو إلى قسمين فهناك مؤلفات تهييمية مثل : مقال في العلوم والفنون و مقال في أصل التفاوت بين الناس فإنها تهدم الأسس التي بنيت عليها الحضارة، والفساد والذي بناهما المجتمع السياسي الفاسد أما المؤلفات الأخرى مثل العقد الاجتماعي، وإميل فهي: مؤلفات بنائية تعيد بناء المجتمع التاريخي والسياسي الفاسد على أسس جديدة مثل العدالة والحرية والفضيلة. "وإن روسو يدعونا إلى العودة إلى الطبيعة فلقد أوضح روسو في كتابه إميل أو في التربية أن الرجوع إلى الطبيعة هو الحكمة ذاتها." ²، "المؤلفات المعاصرة للعقد الاجتماعي والتي تبدو وكأنها امتداد له، إلا أن جامعة "ديجون" كانت تترصده. فعرض عليه هذا السؤال: -ما هو مصدر التفاوت بين الناس؟ وهل يقره القانون الطبيعي؟ وكان جواب "روسو": أن مصدر التفاوت هو الملكية وبأن القانون الطبيعي لا يقر التفاوت بين الناس.

II. -أهم العناصر التي تضمنها مؤلف التفاوت بين الناس:

1- مصدر عدم المساواة: هو الملكية التي أوجدتها واستبقتها الحياة الاجتماعية.

- عدم المساواة يستتكره القانون الطبيعي. لأن الناس في حالة الطبيعة سواسية، منفردون وطيون وأن المجتمع السياسي الفاسد هو الذي أفسدهم، ويقسم المقال إلى قسمين: يصور في أولهما الإنسان الطبيعي والحالة التي كان عليها قبل مختلف التطورات ولدها المجتمع. ³

ويري في ثانيهما قصة تقدم الإنسانية الذي هو في رأيه تدهور مشؤوم، خلق الحالة المدنية الحالية، حالة التفاوت والعبودية، التي تتعارض رأساً مع الحالة الطبيعية. "وعند هذه

¹-موريس شربيل ميشال أبو فاضل، المرجع نفسه، الصفحة نفسها

²-محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص295

³-نجيب المستكاوي : روسو : حياته مؤلفاته غرامياته دار الشرق. ط 1. بيروت. 1979. ص151

المرحلة كان الانسان قد طور جميع قواه ويجعل من نفسه بائسا وأعظم تغيير حدث في طبيعته هو أنه كان يعيش من قبل من أجل نفسه تماما أما الآن فإنه يعيش للآخرين.¹ ، حيث يقول "روسو" في القسم الأول: من مقاله الأول عام 1750: " يروق للمرء أن يتذكر صورة بساطة الأزمان الأولى إنها شاطيء جميل تزينه يد الطبيعة وحدها، ونحن لا نكف عن التطلع إليه. ونشعر نادمين بأننا ننأى عنه".² .

وهو يعود فيتناول هذه الفكرة ويشرحها بإسهاب، فالإنسان بدأ بحالة الهمجية، وكان قوي البدن، لا يعرف الكلل، مزودا بحواس دقيقة. وكان أفضل الحيوانات تكوينا، وواثقا من التغلب على الوحش بمهارته وقوته. فكان في غنى عن كل هذه المخترعات العميقة التي نعتقد اليوم أنها لازمة.³ وإن الانقلاب الأكبر في حياة البشرية قد نجم عن انتشار الزراعة واكتشاف التعدين.⁴

وكان لا يحتاج إلى كل هذا التقدم التكنولوجي العلمي، لأن الطبيعة أغنته عما يحتاجه في حياته من غذاء، ومشرب حيث كان يتغذى من ثمار الأشجار وينام تحتها، ويشرب من أول جدول يقابله كان يعيش حياة هنيئة في تناغم مع الطبيعة لا يعرف القلق، كلما كان يحتاج إليه توفره له الطبيعة، وليست له علاقة مع أقرانه من البشر. "وسرعان ما أكسبته الحياة البسيطة الخشنة مناعة، ووقته شر الأمراض، وإن مأتاها ترفنا ورذائلنا. نحن نجلب لأنفسنا من الأدوية أكثر مما يستطيع الطب، أن يزودنا به من دواء".⁵ ، فالتفاوت الفاحش في طريقة العيش، فرط البطالة لدى البعض، وفرط العمل لدى البعض الآخر، وسهولة

1- ليو شتراوس ، جوزيف كرويسي، تاريخ الفلسفة السياسية : من جون لوك إلى هيدجر، الجزء: 2، ترجمة محمود سيد أحمد، مرجعة إمام عبد الفتاح المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة: 1، القاهرة، 2005. ص 146.

2- نجيب المستكاوي، روسو : حياته مؤلفاته غرامياته، مرجع سابق، ص 157

3-المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

4-محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 295.

5- نجيب المستكاوي، روسو : حياته مؤلفاته غرامياته، مرجع سابق، ص 153

استثارة وإشباع شهوتنا وبهيميتنا‘ وأطعمة الأغنياء الدسمة، والمنمقة التي تغذيهم بالعصارات المثيرة فتؤدي بهم إلى عسر الهضم، وسوء تغذية الفقراء الذين كثيرا ما لا يجدون الغذاء، والسهر، والإفراط من كل نوع، والتعب و كلال الذهن، والأحزان والآلام التي لا تحصى والتي نحسها في كل الطبقات‘ والتي تنهش النفوس على الدوام:-ها هي ذي الضمانات على أنها على أن معظم شرورنا هي من صنعنا، وعلى أننا نتفادها كلها تقريبا لو احتفظنا بطريقة الحياة البسيطة‘ الموحدة المنفردة التي فرضتها عليها الطبيعة." ¹.

ويرى روسو أن مصدر شرور الانسان هو خروجه عن الطبيعة، وعن الحياة الطبيعية البسيطة، التي كان يعيشها في المرحلة الطبيعية، وحتى النمط الغذائي الذي ابتكره والذي يحتوي على تعقيدات كيميائية تضره أكثر مما تنفعه، فتجلب له الأمراض والمعانات النفسية والقلق. "ولقد أصبحت نفسه مستعبدة للآخرين، وهذه هي رابطة أكثر من حاجاته إليهم، لكي يساعده في أن يشبع رغباته، إنه يبحث عن المال والشهرة ، بدلا من أن يفكر في تلبية رغباته الحقيقية." ²

1- "وينتساءل "روسو" كيف يأتي للإنسان أن يتقدم إلى هذا الحد ؟

2-يجيب "روسو" :- "بالكلام" . - كيف اخترع الإنسان الكلام ؟

3-بعد فحص طويل لما يكتنف مصدر اللغة من مشاكل، يعلن أنه ارتاع لهذه المسائل‘ وإقتنع باستحالة اللغات بوسائل بشرية محضة‘ وهنا يأتي "روسو" بتأملات يجمع النقاد على أنها رائعة. ويستطرد "روسو" قائلا أنه: " لم يكن الإنسان يعرف غير الغريزة ‘ فلم يخالجه رغبة سوى احتياجاته العضوية‘ ولم يتصور في الكون خيرا غير الغذاء‘ والأنثى والراحة، ولم يتصور فيها شرا إلا الألم والجوع وكان سعيدا:

¹ - نجيب المستكاوي، روسو : حياته مؤلفاته غرامياته، مرجع سابق، ص 153

² - ليو شتراوس ، جوزيف كرويسي، تاريخ الفلسفة السياسية : من جون لوك إلى هيدجر، مرجع سابق، ص 146

"ويقول أيضا في هذا الصدد: " وإني أرجو أن يشرحوا لي أي ضرب من التعاسة يمكن أن يصيب مخلوقا حرا قلبه في سلام، وبدنه في سلام. إني أسألك أيهما أكثر عرضة لأن تكون قاسية على من يتمتعون بها، الحياة المدنية أم الطبيعية؟" ¹ .

إن الاجتماع والتمدن شر وينبوع الشر حسب روسو فالأنانية والفوضى والحرب والرق والرذيلة لا وجود لها في الناس إلا إذا كانوا فقط كائنات تميل إلى الاجتماع. ² ، " فما نرى من حولنا إلا أناسا يشكون من الوجود، وإني أسألك ما إذا سمع أحد عن إنسان الطبيعة، يعيش في حرية يكون قد فكر مرة في الشكوى من حياته، أو في الانتحار. فلنحكم إذن متناسين الزهو، في أي صف توجد التعاسة الحقيقية" ³ .

وكان الانسان الطبيعي يعيش حياة هنيئة وسعيدة لا يعرف فيها الشقاء والتعاسة والخوف، والقلق، فيتغذى مما تعطيه الطبيعة، ويرتوي من أول جدول يلقاه أمامه، وينام تحت الشجر.

وكان يخاف فقط من المرض والألم والجوع وكان يتألم عندما يرى أقرانه يمرضون. وكان في غنى عن الآخرين. " لم يكن بين الناس في الحالة البدائية، أي نوع من العلاقات الأخلاقية أو الواجبات المشتركة، ولذا فلم يكن ممكنا أن يكونوا خيارا أو أشرارا، ولم يكن عندهم فضيلة ولا رذيلة. ويرى "روسو" أننا قبلما نقدر هذه الحالة ينبغي أن نستبعد معتقداتنا الباطلة، وأن نفحص بميزان العدالة ما إذا كانت فضائل المتحضرين أكثر من رذائلهم، وما إذا كان في فضائلهم من الفائدة أكثر مما في رذائلهم من الشؤم والضرر، وما إذا كان في

¹ - نجيب المستكاوي، روسو : حياته مؤلفاته غرامياته، مرجع سابق، ص 153

² - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 295.

³ - نجيب المستكاوي، روسو : حياته مؤلفاته غرامياته، مرجع سابق، ص 154.

تقدم معارفهم ما يعوض الشرور التي يصيبون بعضهم بعضا، كلما تعلموا الخير الذي يجب أن يفعلوه.¹

2-طبيعة الإنسان المفطورة :

ينتقد "روسو" نظرية "هوبز" الذي يزعم أن الإنسان مفطور على الخبث، وأنه شرير بطبعه، وأنه كان يعيش في صراع مع أقرانه، وكان يعيش حياة قلق مستمر، وفي حالة حرب مع أقرانه من البشر، وكانت هذه الحالة حالة الحرب ضد الكل وأن الانسان كان ذنباً للإنسان، فيؤكد العكس، ويؤكد أنه مفطور على الطيبة: حيث يقول: " أن كون الإنسان خالي الذهن عن الطيبة لا يستفاد منه إنه مفطور على الخبث كما يرى "هوبز" إن روسو يرى أن الانسان طيب بطبعه، وإنما المجتمع السياسي الفاسد هو الذي أفسده، فالإنسان خرج من بين أيدي الطبيعة طيباً وبرئاً. " فقد كانت عنده فضيلة طبيعية هي الشفقة. وهذه الفضيلة طبيعية وشاملة حتى أنها تسبق استعماله للتفكير. وحتى أن الحيوان نفسه يبدي منها إمارات محسوسة. فبصرف النظر عن حنان الأمهات حيال الصغار، نلاحظ كل يوم نفور الخيل من أن تدهم جسما حيا. ويختتم قائلاً أن هذا هو الشعور الطبيعي الخالص، السابق على كل تفكير. - وأنه لمن هذه الميزة تصدر كل الفضائل الاجتماعية.²

وكان الأفراد في الحالة الطبيعية يتصرفون تحت تأثير مجموعة من المشاعر الفطرية ومن الحوافز المصلحة الفردية التي تحقق لهم السعادة.³، فلم تكن لدى الإنسان الطبيعي أي حاجة لأقرانه ولم تكن لديه أي رغبة في إيذائهم فبينه وبينهم لا يوجد أي نوع من العلاقة الأخلاقية أو الواجبات المشتركة. لقد علمت الطبيعة الإنسان كل ما يريد أن

¹ - نجيب المستكاوي، روسو : حياته مؤلفاته غرامياته ، ص 154

² - نجيب المستكاوي، روسو : حياته مؤلفاته غرامياته ، مرجع سابق، ص 157

³ - إبراهيم موسى، الفكر السياسي الحديث والمعاصر، مرجع سابق، ص 151

يتعلمه.¹ ، " ويضيف روسو " قائلا : " إن الشفقة في حالة الطبيعة هي التي تقوم مقام القانون، والأخلاق، والفضيلة مع هذه الميزة وهي أنه ما من أحد يحاول أن يخالف صوتها الرقيق. هي التي تمنع كل همجي قوي من أن يسلب طفلا ضعيفا، أو شيئا عاجز القوت الذي كسبه بمشقة، وفكرة طيبة الإنسان المفطورة هذه هي أساس نظرية روسو كلها التي يمكن أن تلخص فيما يلي: " إن الطبيعة خلقت الإنسان طيبا وسعيدا. وأن المجتمع يفسده ويشقيه، "وكل تأليف إن هو إلا شرح لهذا المبدأ - وإن بدا غير معقول - يتفق و رأي الكثيرين من كبار المفكرين في عصره." ².

إن روسو يرى أن الانسان الطبيعي خير بطبعه، وأنه كان يعيش حياة طبيعية وبهيمية، وكان يعيش منسجما مع الطبيعة، وكان يتألم عندما يرى أقرانه يتألمون، وكان يملك ملكة القدرة على التخيل والتطور، وهذه الطاقة الكامنة فيه هي التي انفجرت فيما بعد، ومكنته من التقدم والتطور فيما بعد، وإنشاء علم وتقدم وحضارة فاسدة رغم أن هذه الحضارة لم تجلب السعادة للإنسان. وكانت نتيجتها في النهاية أنه حصد غلال العبودية والبؤس والشقاء.³

1. " أما في القسم الثاني : في كتابه أصل التفاوت بين الناس.

يبدأ "روسو "القسم الثاني بهذه الفقرة المشهورة العميقة، الأثر التي شغلت الخواطر والقلوب والعقول: "إن أول من سور قطعة أرض وقال "هذه لي" ووجد أناسا وقوما يصدقونه، كان هو المؤسس الحقيقي للمجتمع المدني. كم من جرائم وحروب، وأموات كم من فضائع، وتعسات كانت توفر على للجنس البشري لو أن أحدا إنتزع الأوتاد، أو ردم الخنادق وصاح في أترابه: -حذار أن تصغوا إلى هذا النصاب، لتضيعون لو نسيتم أن الثمار ملك للجميع،

¹ - نجيب المستكاوي، روسو : حياته مؤلفاته غرامياته ، ص152

² -نجيب المستكاوي، المرجع نفسه ، الصفحة نفسها

³ -مهدي محفوظ، اتجاهات الفكر السياسي الحديث والمعاصر، مرجع سابق، ص146

وأن الأرض ليست ملكاً لأحد.¹ . إعتبر روسو أن ظهور الملكية الخاصة التي هي قبر للمساواة الطبيعية، وليست إلا الحد الأخير لحالة الطبيعة، والخطوة الأولى في تقدم اللامساواة في الحالة الاجتماعية.²

إن مؤسس الملكية الفردية هو أول مجرم عرفته الإنسانية، وهو المؤسس للمجتمع المدني الفاسد حسب روسو . - وإنه كم من حروب وصراعات كان سيجنبها على البشرية لو لم يقيم بعمله هذا، ولو أن أحداً من الناس قد نزع تلك الأوتاد، وقال لأقرانه لا تسمعوا لهذا المحتال فإن الأرض هي ملك للجميع، "وإستطرد معترفاً بأن نشأة الملكية تفترض السلسلة من تقدمات سابقة تولدت ببطء وعلى التوالي، منتقلة من عصر إلى عصر آخر : صناعة الأسئلة البدائية والملابس الفرائية واختراع النار، وإن كل تقدم تعقبه تعاسة" فالناس بعدما اخترعوا من أدوات تهيأ لهم فراغ كبير استعملوه في الحصول على مختلف وسائل الراحة، مما لم يعرفه أبائهم: "كان ذلك أول نير فرضوه على أنفسهم دون أن يدور بخلداهم، وأول مصدر للشروع التي أعدها لأعقابهم لأن وسائل الراحة هذه أصبحت احتياجات حقيقية" فأضحى الحرمان منها من عذوبة حيازتها أضحى الإنسان تعيساً لفقدانها: - دون أن يكون سعيداً لامتلاكها.³ ، وإنه مع توسع الجنس البشري، تضاعفت الآلام مع ال ناس. فأجبرهم الاختلاف في التضاريس والمناخات والفصول على وضع البعض في أسلوب حياة جديد.⁴

وبعد ذلك بدأ الناس يتقاربون، ونشئو يجتمعون أمام الكهوف، وأصبح الغناء والرقص مشغوليتهم المفضلة، إلا أنه لم يكن تقدماً للأخلاق. "أصبح أبرع الناس في الغناء أو الرقص أو أجملهم، أو أقواهم و أمهرهم، أو أبلغهم، أكبرهم اعتباراً ومكانة، وكانت أول

¹ - نجيب المستكاوي، روسو : حياته مؤلفاته غرامياته، مرجع سابق، ص 157

² - جان جاك شفالبيه، تاريخ الفكر السياسي: من المدينة الدولة الى الدولة القومية، مرجع سابق، ص 481.

³ - نجيب المستكاوي، روسو : حياته مؤلفاته غرامياته، مرجع سابق، ص 157

⁴ - Jean-Jacques Rousseau (1754), Discours sur l'origine de l'inégalité parmi les hommes, op.cit , p88.

خطوة نحو التفاوت ونحو الرذيلة في الوقت نفسه، فمن هذه التفضيلات الأولى نشأ الزهو والاحتقار من جهة، والخجل والحسد من جهة أخرى ومن الاختمار الذي سببته هذه العجائن الجديدة، تولدت مركبات كانت شؤماً على السعادة والبراءة.¹

إن الغناء والرقص كان أول خطوة نحو التفاوت، ونحو الانحطاط والرذيلة، ومن هذه التمييزات نشأ الزهو والاحتقار والخجل والحسد وتسبب حدوث اختلاطها في فقدان البشرية لسعادتها. "وأخيراً يصل "روسو" إلى مرحلة التقدم البشري التي كان يود لو وقفت عندها البشرية: المرحلة التي تسبق نشأة الملكية الفردية. كان الإنسان قد خرج من غفلته البدائية و لم يحقق بعد تقدمات جد مشؤومة. كان هذا العهد شباب الدنيا بحق. لا بد أنه كان أسعد أوقاتها وزهرة عمرها: "كلما فكرنا في ذلك وجدنا أن تلك الحالة كانت أقل الحالات تعرضاً للإنقلاب، وأنسبها للإنسان وما كان ليخرج منها إلى بصدفة مشؤومة."²

يرى روسو أنه قد سبقت مرحلة التقدم مرحلة يسميها بمرحلة الشباب يود روسو أن تكون البشرية بقيت في تلك المرحلة السعيدة لكان أحسن لها. - لكن للأسف فإن التقدم المشؤوم حدث، وغير هذه الحالة إلى إنقلاب مشؤوم. وضعت هذه الإنجازات الأولى الإنسان أخيراً في متناول اليد لصنع إنجازات أسرع. كلما ازدادت استتارة العقل، زادت الصناعة من إتقان نفسها. سرعان ما توقف الإنسان عن النوم تحت الشجرة الأولى.³

"تلك الحالة التي يعينها هي الحالة الاجتماعية الأولى العصر الذهبي للإنسانية، العهد الذي كان يجب أن تستقر فيه لو أدركت الإنسانية مصالحها الحقيقية. هي إذن ليست حالة الهمجية. ففيها تظهر الحقوق والواجبات، والأخلاق بمعنى أنه ينبغي أن لا يسلب أحد صيد

¹ - نجيب المستكاوي، المرجع نفسه، الصفحة نفسها..

² - نجيب المستكاوي، روسو : حياته مؤلفاته، مرجع سابق، ص 157.

³ - Jean-Jacques Rousseau (1754), Discours sur l'origine de l'inégalité parmi les hommes, op.cit , p89.

غيره. وألا يعتدي على رفيقه في القبيلة أو يضره .. إنها حالة الطبيعة التي يقصدها روسو كلما تحدث عن الهمج.¹ .

وهكذا كانت الحالة الطبيعية الأولى عند روسو: حيث كان يعيش حياة هنيئة في تناغم وانسجام مع الطبيعة التي تمدّه كل ما يحتاج من غذاء و مشرب، وكان يعيش حياة بهيمية لا يعرف فيها إلا الأكل والشرب و النوم والأنثى، وكان يعيش في تناغم وانسجام مع الطبيعة، وكان يتمتع بالحرية الطبيعية، وكان كائنا طيبا لا يعتدي على الآخرين وكان يتألم عندما يرى أقرانه يتألمون وكان رؤوفا بأقرانه، و الشيء الوحيد الذي كان يخافه هو الألم والمرض والجوع وكانت يتمتع بالقدرة على التخيل.، " ثم تأتي هناك الحالة الأولى التي كان فيها الإنسان حيوان ذكي ' يعيش بريئا في الحالة العائلية. وهناك الحالة الثانية الرجل يتطور من حيوان إلى همجي ' أعني يعيش في قبائل معيشة أخلاقية، وهذه الحالة الثانية التي هي الحالة الاجتماعية الأولى ' أفضل حالة وجدت.² "

يعني هذا أن الانسان كان يعيش حياة عائلية في المرحلة الاولى أما في المرحلة الثانية خرج من الطور الطبيعي وبدأ يعيش في القبائل معيشة أخلاقية.، "إنها بمثابة بلوغ أو شباب الإنسانية، وكما أن في حياة الإنسان عمرا يتمنى له أن يمكث فيه أبدا، كذلك في حياة الإنسانية عمر كان يرجى لها، أن تمكث فيه أبدا.³ "

و كانت حياة الناس الحياة بسيطة منفردة واحتياجاتهم محدودة جدا وأدوات اخترعوها لقضاء هذه الحاجات.⁴

¹ - نجيب المستكاوي، روسو : حياته مؤلفاته غرامياته ، الصفحة 157.

² - نجيب المستكاوي، روسو : حياته مؤلفاته، مرجع سابق، ص 161

³ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها

⁴ - روسو جان جاك ، في أصل التفاوت بين الناس ، المترجمون عادل زعيتر ، (الإصدار د.ط) ، اللجنة الدولية لترجمة الروائع اليونيسكو دار العالم العربي، القاهرة، 2011.ص31

3- بداية الزراعة والتعدين :و- ظهور الملكية الفردية:

طالما اكتفى الناس بالريفية‘ وعاشوا على محصود الصيد والقنص، وطالما اقتصروا على الاشتغال بالأعمال التي يستطيع ألا يؤديها فرد واحد. ولا تحتاج إلى إشراك عدة أفراد‘ عاشوا أحرار وسعداء.¹ لكن لا بد من الإشارة إلى أن المجتمع بدأ والعلاقات القائمة بالفعل بين الرجال تتطلب فيهم صفات مختلفة عن تلك التي كانوا يملكونها من دستورهم البدائي. وأن الأخلاق بدأت تتسلل إلى أفعال الإنسان.²

وكانت هذه المرحلة هي أسعد مراحل التي مرت بها المجتمعات البشرية وتمنى روسو لو بقيت فيها البشرية ولم تنتقل الى مرحلة لاحقة: " وهذه المرحلة تسمى بمرحلة الشباب في المراحل التي مر بها المجتمع البشري، وهي أسعدها حسب "روسو" وأكثرها هناء و استقرارا. لكن منذ أن اشتغل منذ اللحظة التي إحتاج فيها الرجل إلى معونة آخر. منذ أن رأى الناس أنه من المفيد لشخص واحد أن يحصل على مؤونة شخصيين اختفت المساواة‘ وأدخلت الملكية‘ وأصبح العمل ضروريا‘ واستحالت الغابات الواسعة إلى حقول باسمه لا بد من زرعها بعرق الناس‘ وسرعان ما رؤيت العبودية والتعاسة تنبت فيها وتتكاثر مع المحاصيل."³. وكان التعدين والزراعة ذلك الفنين اللذان أدى اكتشافهما الى هذا الانقلاب الكبير، وعند الشاعر كان الذهب والفضة، وعند الفيلسوف أن الحديد والقمح هما اللذان مدنا الناس وأهلكا النوع البشري.⁴

إن الحرية الطبيعية هو الشيء الأهم الذي فقده الإنسان الطبيعي من إنتقاله من الحالة الطبيعية الى المجتمع السياسي الفاسد، مع ظهور الملكية الفردية ومنه بدأت الصراعات والنزاعات بين الأفراد على من يملك أكثر، وسيطر على الآخرين.. وإن التعدين

¹ - نجيب المستكاوي، روسو : حياته مؤلفاته غرامياته، ص 162

² - Jean-Jacques Rousseau (1754), *Discours sur l'origine de l'inégalité parmi les hommes*, op.cit., p91.

³ - نجيب المستكاوي، روسو : حياته مؤلفاته غرامياته، مرجع سابق، ص 162

⁴ -جان جاك روسو، في أصل التفاوت بين الناس، مصدر سابق، ص63

والزراعة هما الفنان اللذان نشأ من اختراعهما هذا التغيير والانقلاب الكبير :هكذا يرى روسو أن " الزراعة هي ذلك الفن الذي تغنى به الشعراء كأساس الحياة الإنسانية ' هي أداة انحلال البشر ، وهو يضيف إليها التعدين، ملاحظا كفيلسوف ' أنه ليس الذهب والفضة بل "الحديد والقمح هما اللذان مدنا الناس وضيعا الجنس البشري".¹

4-الاختلال الناشئ من الملكية:

من فلاحه الأرض نشأ تقسيمها وبالتالي نشأت الملكية، مصدر كل الشر . فالملكية تولد عدم المساواة والتفاوت، ذلك أنه حتى لو فرضنا أن الأرض كانت مقسمة بالتساوي فإن إذ الناس يتكاثرون، سرعان ما يوجد منهم من لا يجد أرضا، فيضطرون لكي يكسبوا قوتهم إلى العمل لدى من يملكون أرضا، فتختفي المساواة. فالملكية تولد المزاحمة والمنافسة، وبالتالي تؤدي الى ظهور الأغنياء والفقراء. ويصبح القتال مروعا.²، وبما أن الأمور انتهت على هذه المرحلة فإنه يسهل تمثل البقية.³

إن الملكية الفردية هي سبب الصراعات والنزاعات، والقتال بين الأفراد على من يملك أراضي شاسعة، ويتسلط على الآخرين، ويتعسف عليهم ويستغلهم شر استغلال اقتصاديا والسيطرة عليهم سياسيا. وليس من الممكن إلا أن يكون الناس قد قاموا في نهاية الأمر بتأملات حول وضع بالغ هذا البؤس، وحول البلى التي أصيبوا بها.⁴ ، "وتختفي الأخلاق، فإن الغنى الفاحش يفسد الإنسان' والبؤس يفسده أيضا، لأن تعود الناس النظر إلى فريق منهم على أنه نوع أخط، يخلق فيهم الزهو والقحة' والخبث والقسوة' كذلك فإن رؤية فريق من الناس يستأثرون بكل الأملاك' دون أن أدرك المرء السبب في ذلك حينما يكون هو في غمرة

¹ - نجيب المستكاوي، روسو : حياته مؤلفاته غرامياته ، الصفحة 162

² - نجيب المستكاوي، روسو : حياته مؤلفاته غرامياته ، مرجع سابق، ص 162

³ - جان جاك روسو ، في أصل التفاوت بين الناس، مصدر سابق، ص 65.

⁴ المصدر نفسه، ص 67

البؤس، تثير في نفسه الحسد، والحقد والخبث والقسوة، لأن التفاوت يفسد الكبار والصغار على السواء. مثلما يفسد حتما كل ما يخالف الطبيعة"¹.

ولم يكد الأغنياء يتذوقون متعة السيادة والسيطرة حتى أصبحوا هم، وأولا دهم لهم إلا استعباد جيرانهم : "مثل الذئب الجائعة التي تذوق مرة لحم البشر. فتعرض عن أي غذاء آخر، ولا تريد بعدها إلا إلتهايم البشر. وكذلك فإن أعظم الناس أو أفقرهم جعلوا من قوتهم أو من حاجاتهم ضربا من الحق في مال الغير، مشابهها فيما يرون لحق الملكية، فانقطعت المساواة وأعقبها اختلال مروع. و هكذا فإن إغتصاب الغني وانتهاك الفقير، وشهوات الجميع الجامعة خنقت الشفقة الطبيعية، وكتمت صوت العدالة الذي كان لا يزال ضعيفا.² ولكن ينبغي أن نلاحظ أن المجتمع وقد تم له البدء، والعلاقات قد أرسيت بين البشر، فلقد إقتضى ذلك من البشر صفات تختلف عن تلك التي جاءتهم من تكونهم البدائي.³ وكل هذا الاختلال و اللامساواة والتفاوت سيؤدي إلى تضارب في المصالح و إلى صراع واقتتال فيما بعد لحيازة الأرض وتملكها بين الأغنياء والفقراء.

إن هذه الظروف القبلية وتسارع الأحداث بسرعة هائلة وبصفة راديكالية، "جعلت الناس أولى بخل، وطمع، وخبث، ونشب بين حق الأقوى. وحق الحائز الأول خلاف دائم لا ينتهي إلا بالعراك والقتل. لقد فتح المجتمع الناشئ مجالا لأفزع حالة حرب: أن الجنس البشري وقد تدهور ويئس ولم يستطع أن يتراجع الى الوراء ولا أن يتنازل عن كسبه المؤسف، وأصبح لا يعمل إلا على خجله، إذ يسيء استعمال المقدرات التي تشرفه، قد أشرف على ذلك بصنع يده على شفا خرابه."⁴

¹ - نجيب المستكاوي، روسو : حياته مؤلفاته غرامياته، الصفحة 162

² - المرجع نفسه، الصفحة نفسها

³ - Rousseau Jean Jacques, de l inégalité parmi les hommes, collection: folio essai, édition Gallimard, Paris, 1989.p55.

⁴ - نجيب المستكاوي، روسو : حياته مؤلفاته غرامياته، مرجع سابق، ص 162

5- مصدر المجتمع والقوانين :

وعلاجاً للانشقاقات والحروب التي يثيرها التفاوت المطرد، تفتقت مخيلة الغني عن

أمر مشروع خطر على الذهن البشري، والإنساني ذلك أن يستغل لمصلحته قوات مهاجميه، وأن يجعل من خصومه مدافعيه. فبحجة حماية الضعفاء من العنف والظلم، عرض على جيرانه السذج إقامة حكومة تضمن له ملكية أمواله، تزودها بقوة القانون.¹

ومن هنا تم التأسيس للمجتمع السياسي الفاسد، فأصبحت الدولة تحمي حقوق الأغنياء وأصبح الفقراء مقهورين سياسياً ومستغلين اقتصادياً وأصبح هنا الظلم مدسّتر، وظهر أبشع وجوه الاستغلال للأفراد فيما بينهم، وأصبح بعضهم يتسلط ويسيطر على البعض الآخر، "ذلك كان مصدر المجتمع والقوانين، والتي ولدت قيوداً جديدة للضعيف، وقوات جديدة للغني وقضت على الحرية الطبيعية قضاء مبرماً وثبتت قانون الملكية والتفاوت إلى الأبد، وجعلت من الاغتصاب الحاذق حقاً لا ينقض، وأرغمت الجنس البشري بأسره على العمل والعبودية، والشقاء لمصلحة بعض الطموحين".²

ولقد جرى هذا التحول طبقاً لتحول تاريخي يذكر روسو خطوطه الكبرى: "إننا نرى أولاً وضع قانون وحق الملكية الفردية، ونرى ثانياً إقامة المحاكم، ونرى ثالثاً وأخيراً تحويل السلطة الشرعية إلى سلطة استبدادية، فالمرحلة الأولى خلقت الفقراء والأغنياء، والمرحلة الثانية خلقت الضعفاء والأقوياء".³

"إن مثل هذه الفقرة لقنبلة شديدة الانفجار ضد الأنظمة الاجتماعية. وبقية المقال (في أصل التفاوت بين الناس) لا تقل عن ذلك شأنًا وشدة".⁴

¹ - نجيب المستكاوي، روسو: حياته مؤلفاته غرامياته، ص 163

² - نجيب المستكاوي: روسو: حياته مؤلفاته غرامياته، مرجع سابق، ص 163

³ - أندري كريسون، روسو حياته فلسفته منتخبات، مرجع سابق، ص 83

⁴ - نجيب المستكاوي، روسو: حياته مؤلفاته غرامياته، المرجع نفسه، الصفحة نفسها

6- إقامة الحكم المطلق:

ويتحدث روسو عن أشكال الحكومات، منكرًا القول بأن الشعوب قد ألفت بنفسها بين يدي سيد مطلق، بلا قيد ولا رجعة قائلاً لا مرأى في أن الشعوب قد إختارت لها رؤساء للذود عن حريتها لا استعبادها، مفنداً ما يزعمه البعض. في سفسطة من أن الناس يحدوهم ميل طبيعي إلى العبودية.¹، وإن العبودية هو شيء غير طبيعي وغير منطقي، وأن وجد على مر التاريخ فهو شيء عرضي لا يقبله لا العقل ولا المنطق، ولا الدين كما يدعي ذلك روبرت فيلمر. "كذلك شأن الرجل الهمجي الذي مازال يتمتع بحريته" وفي سبيلها يضحى براحته ومتعته بل بحياته ذاتها. في حين أن الآخرين الذين فقدوا ذوق الحرية لطول ما تعودوا العيش في أسار العبودية لا يكفون عن مدح السكينة، والراحة اللتين يتمتعون بهما في أغلالهم². إن العبودية هي الاغتراب الذي حدث للإنسان عندما دخل في معتك التاريخ مع ظهور المجتمع السياسي الفاسد والمؤسسات الفاسدة ففقد حريته وذاتيته وغاية وجوده وجوهره. وينتقد "روسو" نظرية "بوفندورف" قائلاً أنه لا يمكن أن يتخلى الإنسان عن حريته لصالح غيره بمقتضى اتفاق.³ ويقر بأن القوة لا تصنع الحق، وأننا لسنا ملزمين إلا بطاعة القوى المشروعة.⁴ لأن القوة هي شيء نسبي ومتغير باستمرار وبتغير الظروف التي تحيط بالإنسان التاريخي.

يرى روسو أن الحرية هي من الحقوق الطبيعية وهي من الحقوق الأساسية للفرد وأنه لا يمكن أن يتنازل عنها تحت أي ظرف من الظروف أو أي سبب من الأسباب، "يمكن أن يستغني عن مال يملكه: لكن ليس كذلك الأمر فيما يخص منح الطبيعة الأساسية مثل الحياة

¹ - نجيب المستكاوي، روسو: حياته مؤلفاته غرامياته، ص 164

² - المرجع نفسه، مرجع سابق، ص 164

³ - نجيب المستكاوي، المرجع نفسه، مرجع سابق، الصفرحة نفسها

⁴ - جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، (الإصدار الطبعة الاولى)، (عبد العزيز لبيب، المترجمون)، دار المعارف.

بيروت، لبنان (2011)، ص 84

والحرية، اللتين سمحت لكل إمرئ أن يتمتع بهما لكن لا يحق له أن يتخلى عنهما فإن هو حرم نفسه تلك قضى عليه، وبما أنه ما من خير زمني يعوض هاته أو تلك، فإن التنازل عنهما لقاء أي ثمن هو إهانة للطبيعة وللعقل في وقت واحد وإن الحرية هبة يستمدها الأطفال من الطبيعة بصفتهم بشر، فليس لأبائهم أي حق في تجريدهم منها".¹

وسوف يعود روسو إلى هذه الفكرة في العقد الاجتماعي، وسوف يقربها إذ يقول: "إن تنازل الإنسان عن حريته لهو تنازل عن صفته الإنسانية" وعن حقوق الإنسانية" بل حتى عن واجباته. إن مثل هذا التنازل لا يتفق مع وطبيعة الإنسان. وإن "روسو" يرى إذن أن الحكومات محال أن تكون قد بدأت بالسلطة المطلقة. وما السلطة المطلقة أولا حكومة فاسدة. وهذه السلطة هي بطبيعتها غير مشروعة ولا يمكن أن تكون إتخذت أساسا لقوانين المجتمع.²

فالمطلوب هو الاهتداء إلى سلطة شرعية حيث يكون شكل من الاجتماع من شأنه يدافع عن شخص كل شريك فيه وعن أملاكه و أن يحميها بكل من يتوفر من قوة مشتركة ، وإذ يتحد بمقتضاه كل واحد مع الجميع فإنه مع ذلك ، لا يطيع إلا نفسه ، ويظل حرا كما كان قبلئذ، هذا هو المشكل الأساسي الذي تكفل **العقد الاجتماعي** بحله.³

إن روسو هنا يفند قول هوبز بالحكم المطلق للحاكم، فروسو يعطي السيادة المطلقة للشعب، والذي سوف يؤسس بالعقد الاجتماعي الدولة، التي ستتأسس عن طريق الرضا والترخيص، لا عن طريق القوة، وهذا المجتمع السياسي الجديد سوف تسيره الإرادة العامة". كذلك يرتب روسو خطوات عدم المساواة: - فإن أول خطوة هي نشأة القانون وحق الملكية، والثانية نشأة نظام الولاية. والثالثة والأخيرة تحول الحكم الشرعي إلى حكم مطلق، بحيث أن

¹ - نجيب المستكاوي ، روسو : حياته مؤلفاته غرامياته ، الصفحة 164

² - المرجع نفسه، ص 166

³ - جان جاك روسو ، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 93

حالة الغني والفقير أجيّزت في العهد الأول، وحالة القوي والضعيف أجيّزت في العهد الثاني. وحالة السيد والعبد في العهد الثاني وحالة السيد والعبد في العهد الثالث، وهذه الحالة هي أحط درجات التفاوت.¹

إن التفاوت هنا هو تفاوت اصطناعي وعرضي، وليس طبيعي وإن الملكية الفردية هي التي أسست هذا التفاوت والشر الذي يتحدث عنه روسو. "ويختتم "روسو" مقاله بسطور أقوى وأعنف. فيقول عن الأغنياء: "إذا رأينا حفنة من العظماء والأغنياء في ذروة العظمة والثروة في حين أن الشعب يزحف في الظلام والتعاسة، فلذلك أن الأولين لا يقدرّون الأشياء التي يتمتعون بها. إلا بقدر ما يحرمها الآخرون حتى أنهم يفقدون سعادتهم دون أن تتغير حالتهم لو أن الشعب خرج من تعاسته".²

وإن المرحلة الأخيرة خلقت العبيد والأسياد. وهي أقصى درجات عدم المساواة، التي تنتهي إليها المظالم. من هنا نبعت الشهوات الضارية، كشهوة التسلط والحسد، وحب الذات الجامح والأنانية القصوى.³

ويقول عن الطغاة: "أنه لمن حماة هذا الاختلال، وهذه الانقلابات أن الطغيان وقد رفع تدريجياً رأسه البشع، وإلتهم وأكل كل ما هو رآه طيباً وسليماً في كل أركان الدولة. - وقد أفلح آخر في أن يطأ بالأقدام القوانين والشعب وأن يتوطد على أطلال الجمهورية. وهذا المقال لم يتوجه للمجتمع " وهذا مفهوم ومع ذلك فلا مرأى في أنه المؤلف الذي رسخ مجد "روسو" نهائياً، حتى قال كبار النقاد في هذا المقام " في خطوتين لحق "روسو" ب"فولتير"⁴.

¹ - نجيب المستكاوي، روسو: حياته مؤلفاته غرامياته، ص 166

² - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

³ - أندري كريسون، روسو حياته فلسفته منتخبات، مصدر سابق، ص 83

⁴ - نجيب المستكاوي، روسو حياته فلسفته منتخبات، مرجع سابق، ص 167

II. -تفسير نظرية روسو السياسية : على ضوء كتابه:- في أصل التفاوت بين الناس:

تقوم نظرية "روسو" على مواجهة الطبيعة التي هي في رأيه الخير، بالمجتمع الذي في رأيه الشر. خلقت الطبيعة الإنسان خيرا وجعله المجتمع شريرا، خلقت الطبيعة الإنسان سعيدا وجعله المجتمع تعيسا، خلقت الطبيعة الإنسان حرا وجعله المجتمع عبدا. ثلاث مقولات مرتبطة هي تعبيرات مختطفة واحدة: إن المجتمع بالمقياس إلى الطبيعة هو بمثابة الشر بالمقياس إلى الخير.¹

لم يقدم روسو إلا فرضية أو حلم، وإذا كان الانسان تعيسا فلأسباب اجتماعية لا علاقة لها في طبيعة الأشياء من الممكن وضع أسس جديدة هو موضوع العقد الاجتماعي.²

إن روسو يرى أن الانسان ليس اجتماعيا بالطبع، كما يرى ذلك أرسطو:- فالإنسان في الحالة الطبيعية عند روسو كان طيبا بطبعه، وكان يعيش حياة طبيعية في الطبيعة. وكانت الطبيعة تمدّه بكل ما يحتاج من غذاء، و كان يشرب من الجداول والأنهار، وكان يعيش حياة بهيمية لا يحتاج لإقامة علاقة مع أقرانه من البشر، وكان يتألم عندما كان يراهم يتألمون، ولم يكن في حاجة الى أقرانه من البشر.³ ، "إن الرذيلة الأساسية في المجتمع لهي التفاوت أي هي عدم المساواة. والتفاوت الاجتماعي يخلق الامتيازات. فهو يقول لقلة" ستملك كل شيء دون أن تفعل شيئا، "ويقول للكثرة "اشتغل لا لك إنما لهم". إنه يخلق ظلمة أشداء وعبدا أرقاء، يخلق أشرارا بؤساء".⁴

¹ - نجيب المستكاوي، روسو حياته فلسفته منتخبات ، ص 168

² - توشار جان، (بمعاونة): لويس بودان، بيار جانين، جان سيريلي ، تاريخ الفكر السياسي، ترجمة الدكتور علي مقلد، الطبعة 2، الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1983، ص334

³ - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع نفسه، ص291

⁴ - نجيب المستكاوي ، روسو : حياته مؤلفاته غرامياته، مرجع نفسه، ص 168

ومصدر الشر الاجتماعي هو الملكية' محور المجتمع، الثروات' الطبقات الألقاب' كل مرجعه تفاوت الأموال: الملكية. كذلك يمكن أن يفسر الشر الاجتماعي، بالخلاف بين الغني والفقير: هكذا كيف عرض روسو لنا المشكلة الأساسية في المقال من عدم المساواة.¹

(1)-مشروعية طيبة الإنسان:

يمكن إذن أن نسأل أولا "روسو" بأي حق يؤكد طيبة الإنسان الأصلية في حالة الطبيعة؟ وهو يجيب بأنه طيب وفاضل وظاهر، ويحس تماما إن الحياة الاجتماعية أفسدته. فالإنسان الطبيعي إذن هو "طيب بطبعه. الطيب بفضل الطبيعة والتعس بفضل رذائل المجتمع."²

يرى روسو أن الانسان خير بطبعه، وأن المجتمع السياسي الفاسد هو الذي أفسده أينما تنظر تراه مكبل في أغلال اصطناعية مستغل إقتصاديا، وفاسد أخلاقيا ومكبل سياسيا، يعيش في حالة إغتراب وإضطهاد من طرف الحضارة التي أسسها. إن الحالة الطبيعية ليست حالة حربا عامة ولا حياة تآلف بل حياة تشتت وعزلة، فإن الانسان طيب فيها.³ ، " وإننا نرى أن "روسو" يؤمن بالله إيماننا عميقا . والله طيب أما أن يكون إلها شريرا فخرافة و حشية أن راقت بعض الفلاسفة فهي لا تخطر ببال روسو مطلقا. وإذا كان سبحانه الله وتعالى طيبا فانه إنسانا طيبا على شاكلته. كان طيبا عندما خرج من يده. إذن خلق الإنسان طيبا كيف أصبح خبيثا؟ يقول فلنبحث ونرجع إلى المصادر الأولى، فيروي لنا قصة الإنسانية' مبينا أن التقدمات التي حققتها كانت كلها شؤما على سعادته ذلك هو لب المقال (أصل التفاوت بين الناس)."⁴، وحول هذا الموضوع وضع روسو خطابه الثاني الذي قال عنه في إعتراقاته لقد

¹ - نجيب المستكاوي، روسو حياته فلسفته منتخبات ، ص 169

² -، المرجع نفسه ، الصفرحة نفسها

³ - توشار جان، (بمعونة) : لويس بودان، بيار جانين، جان سيريلي: تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، ص235

⁴ - نجيب المستكاوي، روسو : حياته مؤلفاته غرامياته ، مرجع سابق، الصفرحة نفسها

اجترأت وأنا أقارن إنسان الآن مع الانسان الطبيعي على أن أكشف لهم في كمالهم المزعوم عن المنبع الحقيقي لشقائنا.¹

وهناك من يرى أن فكر روسو هو تعبير لفكرة "السقوط" اللاهوتية الموجودة في المسيحية. كان الإنسان البدائي طيبا وسعيدا. ولكن يمكن للمرء أن يزعم وهو جاد أن الإنسان البدائي ذلك الحيوان الأبله الهمجي، كان في غمار بلاهته أفضل وأسعد من الإنسان المتمدن؟- مهما يكن من غرابة هذا الرأي، فإن عددا كبيرا من قادة الفكر يشاركون روسو هذا الرأي. فمنذ عهد بعيد، منذ "مونتاني" كانت تتردد في الأذهان فكرة غريبة تواجه الإنسان الهمجي بالإنسان المتحضر وتقر للأول بالتفوق في العقل والفضيلة.²

إن الانسان الطبيعي كان سعيدا وكان حر حرية طبيعية، وكان بريئا وطيبا يعيش حياة طبيعية هنيئة وسعيدة لا يعرف فيها إلا الأكل والنوم والأنثى، وكان يتمتع بحقوقه الطبيعية وكان حرا حرية طبيعية، وعندما دخل معترك التاريخ فقد حريته وتناغمه مع الطبيعة وأصبح مكبل في أغلال اصطناعية، فهو مكبل سياسيا ومستغل اقتصاديا وفاسد أخلاقيا، فحدث له تغيير جذري وراديكالي وفقد حريته وسعادته، وخرج من حالة الوئام التي كان يعيشها في الطور الطبيعي، وأصبح يعيش حالة تعاسة وبؤس، وخوف وقلق في المجتمع السياسي الفاسد، "وكان "بيفون" يعتقد أن الإنسان الطبيعي فيه من الفضيلة أكثر مما في الرجل المتحضر. وإن الرذيلة لم تتولد إلا في المجتمع. وكان "ديدرو" يمدح الطبيعة معلنا أنها لم تفسد الإنسان وإنما يفسد الإنسان نفسه بنفسه على الرغم منها. بيد أن هناك بونا شاسعا بين طبيعة ديدرو و طبيعة روسو.³ وإن لإنسان في الحالة الطبيعية لا يكون له صلة إلا بالأشياء وحدها ويتقوّل بقالب ثباتها وبقائها، وصحيح أنه تبقى متاحة له على

¹- إيجيل برييه، تاريخ الفلسفة الحديثة، الجزء الخامس، ترجمة جورج طرابشي، دار الطليعة للطباعة النشر، بيروت، الطبعة الثانية، 1993، ص 194

²- نجيب المستكاوي، روسو : حياته مؤلفاته غرامياته، ص 170

³- نجيب المستكاوي، روسو : حياته مؤلفاته غرامياته، مرجع سابق، ص 171

الدوام إمكانية الخروج من هذا القالب لأنه عامل حر وقادر على التناهي بنفسه عن الغريزة وقاعدة الطبيعة، ولكن ما كان له أن يخرج من دون مساعدة عرضية من جانب عدة علل خارجية التي، ما كان من الممكن لها أن ترى النور.¹

وأخيرا فولتير نفسه كان يؤيد في تناقض غريب رأي روسو في طيبة الإنسان المفطورة، فهو يقول في القاموس الفلسفي: باب "الأشرار: لم يولد الإنسان شريرا إنه يصبح شريرا كما يصبح مريضا .. أجمعوا كل أطفال الكون، فلن ترو فيهم إلا البراءة والوداعة والخشية. ولو كانوا أشرار وقساء، لأبدو بعض الإشارات كصغار الأفاعي التي تحاول أن تلدغ وأن صغار النمر التي تحاول أن تفترس.²

فالإنسان الطبيعي حسب روسو بريء وخير بطبعه، لا ينبغي إيذاء أقرانه من البشر وكان رؤوفا بهم، وكان يتألم لما يصيبهم من أمراض لأنه كانت لديه ملكة الرأفة والشفقة. على عكس هوبز الذي يرى أن الانسان الطبيعي شرير بطبعه، وأنه كان في صراع وقتال مستمر مع أقرانه من البشر، وأنه كان ذنباً لأخيه الانسان.، "إذن لم يولد الإنسان خبيثا. ترى لماذا يصاب الكثيرون بعدوى داء الخبث هذا ؟ ذلك أن أولئك الذين يتراأسونهم مصابون بهذا المرض فهم ينقلونه إلى الباقيين. مثلهم مثل المرء بالداء الذي جلبه "كريستوفر كولمبس" من أمريكا فانتشر هذا السم في جمع أنحاء أوروبا.³، وإن روسو في كتابه أصل التفاوت بين الناس يعرض حلا لمسألة الشر، إن البشر أشرار غير أن الإنسان طيب بطبيعته فما الذي أمكن أن يفسده الى هذا الحد إلا أن يكون تلك التغيرات الطارئة في جبلته، وذلك التقدم الذي أحرزه وتلك المعارف التي حازها.⁴ وهذا الانحطاط راجع إلى أسباب عرضية يمكن

¹ - إميل برييه، تاريخ الفلسفة الحديثة، مرجع سابق، ص194

² - نجيب المستكاوي، روسو : حياته مؤلفاته غرامياته ، مرجع سابق، ص172

³ - نجيب المستكاوي، روسو : حياته مؤلفاته غرامياته ، مرجع سابق، ص172

⁴ - إميل برييه، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص198

تجاوزها عن طريق إعادة بناء الحضارة والمجتمع على أسس صحيحة عن طريق العقد الاجتماعي.

(2) - الحالة الطبيعية أو الحالة ما قبل اجتماعية وسياسية عند روسو:

عندما يحذرنا روسو من أخطار المدنية. ويقترح علينا العودة إلى الطبيعة. فهو لا يعني أن يعرض لنا كمثال للحياة المنعزلة النسخة البدائية للإنسان. - إنما يقف كما قلنا عند الحياة الرعائية، عند العهد الذهبي لدى الكلاسيكية. وهذه ليست بالحالة الهمجية كما نفهمها.¹ والواقع أن تفكيره يمكن تلخيصه فيما يلي:

إن الاجتماع شر وينبوع الشر، فالأنانية والفوضى والحرب والرق لم تكن موجودة في الحالة الطبيعية²، "وإن الإنسان اجتماعي أكثر مما ينبغي، يجب على الأقل أن نقلص الحياة الاجتماعية إلى حدها الأصغر، ونعود إن لم يكن إلى الأسرة فعلى الأقل إلى القبيلة، إلى المجتمع الصغير كذلك تتضاءل جسامة التفاوت بين الناس" كذلك نخفف الاحتياجات المختلفة من مجد وترف، وحياة دنيوية، ومتع فنية، وكذلك نعيد الإنسان إلى شبه حياة حيوانية لكن ذكية وعلى الأخص سليمة وساكنة ومستريحة عاطفية، هي حالته الطبيعية، وهي على كل حال الحالة التي فيها سعادته."³

3-التقدم عند روسو:

إن "روسو" لا يؤمن بالتقدم ويعد فكرة التقدم غلطة من غلطات الإنسانية، وما فكرة التقدم إلا الرغبة في التغيير، ومع التقدم ذاعت الشرور وانعدم التسامح بين الناس⁴. "وأن

¹ - نجيب المستكاوي، روسو : حياته مؤلفاته غرامياته، ص172

² - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، ص295

³ -نجيب المستكاوي، روسو : حياته مؤلفاته غرامياته، مرجع سابق، ص 173

⁴ -محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص294

الإنسان ليبلغ من الحماسة بحيث يرى كل تغيير تقدما. و"روسو" في هذا على صواب تماما. ومع ذلك فهو يعرف جيدا أن شعور التقدم لصيق بالإنسان سواء كان اعتقادا باطلا، أو لم يكن هو فكرة ملتزمة بالإنسان، يحملها منذ ولادته ويضع فيها كل شرفه ومتعته، وأن الإنسانية تسير أو تظن أنها تسير نحو مستقبل أفضل، معتقدة أنها تستطيع أن تبلغه مهما طال الأجل.¹

حيث يرى روسو في كتابه مقال حول العلوم والفنون، أن العلوم والفنون لم تساهم في تهذيب الأخلاق لدى الإنسانية وإنما ساهمت في فسادها وفي سقوط وإنهيار الحضارات، ولم تحقق السعادة للإنسانية، حيث يقول في هذا الصدد: "حيث لا يوجد معلول، لا جدوى من البحث عن العلة، بيد أن المعلول هنا ثابت، والتفسخ حقيقي، وأنفسنا إزدادت فسادا بقدر ما إزدادت علومنا وفنوننا كمالا." ² ، ويضيف روسو قائلا: "ويقول بعضهم إنها نكبة خاصة بعصرنا ؟ كلا يا سادتي فالشرور الناجمة عن فضولنا الباطل، إنما هي قديمة قدم العالم أن الارتفاع اليومي لمياه البحر وانخفاضها، لا يرتبطان بدوران الفلك الذي يضيئنا في الليل ارتباطا أشد ارتباط مصير الأخلاق والنزاهة بتقدم العلوم، فكما سطع نورهما في الأفق، شوهد أقول الفضيلة، ونفس الظاهرة تكررت في كل زمان وكل مكان." ³

ويعطي لنا روسو أمثلة عن الحضارات التي انهارت وسقطت واندثرت عندما بدأت تهتم كثيرا بالعلوم والآداب والفنون وأهملوا الفضيلة، وإرتمو في أحضان الرذيلة: حيث يقول في هذا الصدد: "أنظروا إلى اليونان، إذ كان يسكنها في القديم أبطال انتصروا على آسيا مرتين، الأولى أمام طروادة، والثانية في عقر ديارهم. فالآداب الناشئة لم تدخل الفساد بعد في قلوب أهاليها، غير أنه سرعان ما تتابع فيها عن قرب تقدم الفنون، وانحلال الأخلاق،

¹ -نجيب المستكاوي، روسو : حياته مؤلفاته غرامياته، مرجع سابق، ص 174

² -جان جاك روسو ، مقالات في العلوم والفنون .في الاقتصاد السياسي.في أصل اللغات. ،(جلال الدين سعيد.محمد

محجوب، المترجمون)، مؤمنون بلا حدود للنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان، (2017) ص.22.

³ -جان جاك روسو، مقالات : (حول العلوم والفنون، في الاقتصاد السياسي، في أصل اللغات)، مصدر سابق، ص23

والخضوع لنير المقدوني (الإسكندر الأكبر) *¹. تواصل العلم فيها، و إستمرت شهواتها وطالت عبوديتها فلم تعد ثوراتها أكثر من تغيير لأسيادها. ولم تفلح أبد فصاحة "ديمستين" في إنعاش جسم أوهنته الفنون وأضعفه الترف.²، لا العلوم ولا الفنون اليونانية منعت الإسكندر الأكبر من السيطرة على اليونان، وعلى الإمبراطورية الفارسية أيضا.

ويقول أيضا في هذا الشأن: "لكن لما البحث في غابر الزمن عن دلائل حقيقية ما تزال إمارتها أمام أعيننا. ففي آسيا يوجد قطر شاسع حيث تحظى الآداب بشرف عظيم، وتقود إلى أعلى المناصب في الدولة. فلو كانت العلوم تهذب الأخلاق، وتحض الناس على التضحية بدمائهم في سبيل الوطن، لو كانت تؤجج الشعور بالشجاعة، لكانت شعوب الصين شعوبا حكيمة حرة لا تهزم. لكن لما لم يكن ثمة من رذيلة إلا وهي فيهم، ولما كانت الجرائم عندهم مألوفة، كما لم يقدر علم الوزراء، ولا حكمة الشرائع المزعومة، ولا حشود المتأسكنين في تلك الربوع الشاسعة، على درع يحمي من نير التتاري (جينجيس خان) *³ الغليظ الجاهل.

¹ * - الإسكندر الأكبر: هو الإسكندر الثالث المقدوني، المعروف بأسماء عديدة أخرى أبرزها: الإسكندر الأكبر، والإسكندر الكبير، و الإسكندر المقدوني، و الإسكندر ذو القرنين (باليونانية Ἀλέξανδρος ὁ Μέγας؛ نقرأه: ألكساندروس أوميغاس)، هو أحد ملوك مقدونيا الإغريق، ومن أشهر القادة العسكريين والفاتحين عبر التاريخ. وُلد الإسكندر في مدينة بيلقراطية سنة 356 ق.م، وتتلذذ على يد الفيلسوف والعالم الشهير أرسطو حتى بلغ ربيعته السادس عشر. وبحلول عامه الثلاثين، كان قد أسس إحدى أكبر وأعظم الإمبراطوريات التي عرفها العالم القديم، والتي امتدت من سواحل البحر الأيوني غرباً وصولاً إلى سلسلة جبال الهيمالايا شرقاً. يُعد أحد أنجح القادة العسكريين في مسيرتهم، إذ لم يحصل أن هُزم في أي معركة خاضها على الإطلاق.

² - جان جاك روسو، مقالات: (حول العلوم والفنون، في الاقتصاد السياسي، في أصل اللغات)، مصدر سابق، ص 23

³ * جينجيس خان: (جِنْكِيْزُ خَانُ) بالمنغولية (Чингис Хаан: 1165 - 1227) م: هو مؤسس وإمبراطور الإمبراطورية المغولية والتي اعتبرت أضخم إمبراطورية في التاريخ ككتلة واحدة بعد وفاته. برز بعد توحيدة عدة قبائل رحل لشمال شرق آسيا. فبعد إنشائه إمبراطورية المغول وتسميته «بجنگيز خان» بدأ بحملاته العسكرية فهاجم خانات قراخيطان والقوقاز والدولة الخوارزمية وزيا الغربية وإمبراطورية جين. وفي نهاية حياته كانت إمبراطوريته قد احتلت جزءاً ضخماً من أواسط آسيا والصين.

فبماذا أفادت تلك الإمبراطورية من علمائها؟ وأي ثمرة جنتها مما أغدقت عليهم من الأمجاد؟ أهو كانت موطناً للأشرار والعبيد؟".¹، ومنه نرى إذن أن الفنون جلبت الفساد والرذيلة إلى الحضارات القديمة، ومن بعدها أسقطتها واندثرت بلا رجعة.

وإنه توجد في الإنسان طاقة كامنة فيه تتمثل في قابليته للتطور، و في قدرته على التخيل وهي التي انفجرت فيما بعد وأنتجت لنا هذا التقدم والتطور والحضارة الفاسدة وهذا المجتمع السياسي الفاسد. وما هو أكثر قسوة هو أن كل تقدم للجنس البشري يبعده باستمرار عن حالته البدائية، وأفقده حريته وطيبته، وكلما تراكمت لدينا معرفة جديدة، كلما أزلنا وسائلنا لاكتساب الأهم من ذلك كله، وهذا بمعنى ما. من خلال دراسة الإنسان جعلنا من المستحيل علينا التعرف عليه.²

وإن حياة الحالة الطبيعية هي الأفضل عند روسو، فالحياة البسيطة هي الحياة التي تبتعد ما أمكن عن المدنية المفسدة، غلطة الإنسان الكبرى، لأنها تفسد أخلاق البشر وتخلق الضمائر ونبل المشاعر، وتخلق التفاوت الذي يجعل من الإنسان تعيساً وعبداً فما الحضارة غير سباق جنوني وراء حالة خادعة وغير محققة، لا تخلف ورائها إلا الشرور والأحزان.³

ولأنها حالة غير مستقرة دائماً فالإنسان يعيش فيها تعيساً وفي قلق مستمر يبحث عن ملك أكثر أن يمتلكه من أراضي فبذلك يدخل في صراع مع الآخرين وفي حرب معهم، "وواجبنا أن نكف عن هذا السباق ونعود تقهقرا إلى الوراء حتى نسترجع الحالة البدائية إذ ذاك ستقدر الإنسانية، بما اكتسبت من خبرة، بساطتها الأولى التي تزديها اليوم، وستعرف

¹ - جان جاك روسو، مقالات: (حول العلوم والفنون، في الاقتصاد السياسي، في أصل اللغات)، مصدر سابق، ص 24

² - Jean-Jacques Rousseau (1754), Discours sur l'origine des fondements de l'inégalité parmi les hommes, op. cit, p, 106.

³ - نجيب المستكاوي، روسو : حياته مؤلفاته غرامياته، مرجع سابق، ص 175

قيمة النعم النفسية التي فقدتها والتي تستوجبها: البساطة ومعناها احتقار الزهو ' الجهل ومعناه ازدياء المعرفة ' البراءة معناها الفضيلة.".. هذه الرجعة سوف تكون تقدما. " ¹

إن روسو تحدث عن الحالة الطبيعية كحالة منهجية لنقده للحضارة، والبحث عن إصلاح هذه الحضارة التي أعطت لنا الانسان التاريخي الذي دخل معترك التاريخ فهو إنسان فاسد أخلاقيا ومكبل سياسيا، ومستغل اقتصاديا. فروسو يريد إرجاع الحضارة الى مسارها الصحيح وتصحيح هذه الحضارة، وهذا المجتمع السياسي الفاسد عن طريق العقد الاجتماعي والتربية الصالحة، كل شيء يخرج بخير من يد خالق الأشياء، كل شيء ينحط في يد الإنسان ². إنها تجبر أرضاً على تغذية انتاجات أخرى، والشجرة لتحمل ثمار أخرى ؛ يمزج ويخلط بين المناخات والعناصر والفصول. يشوه كلبه، حصانه، عبده. يزجج كل شيء، يشوه كل شيء، يحب التشوه، الوحوش ؛ لا يريد شيئاً كما صنعتها الطبيعة، ولا حتى الإنسان ؛ يجب أن يتم تدريبه له، مثل حصان دائري ؛ لا بد من الالتفاف حولها على طريقتها ، كشجرة في حديقته. ³، "هكذا فإن "روسو" وإن بدا موليا ظهره لعصره. يتماشى مع عصره أكثر من أي شخص آخر غيره. لأن تفهقه هو تقدم ' بل أنه أكبر تقدم يمكن أن تحرزه الإنسانية، وهو يعتقد أنها قادرة على إحرازه. إنه يؤمن بأن الإنسان الساقط قادر على النهوض وهذا يعني الإيمان بقابليته للإصلاح والكمال." ⁴

ويرى "روسو" بأن الحضارة غير مفسدة بالضرورة : نظرا لأن هذه الحضارة والتقدم بنيت على أسس غير أخلاقية وعلى الرذيلة، ولأن الفضيلة والأخلاق غيببت في هذه العصور وتم تأسيس هذه الحضارة على القوة والاضطهاد ، فأصبح الشر لصيقا بالإنسان

¹ - نجيب المستكاوي، روسو : حياته مؤلفاته غرامياته ، ص 176

² - Jean-Jacques Rousseau (1762), Émile ou de l'éducation : livres I, II et III Édition complétée. le 30 mars 2002 à Chicoutimi, Québec. Canada. p107.

³ - Jean-Jacques Rousseau (1762), Émile ou de l'éducation, op.cit, p107.

⁴ - نجيب المستكاوي، روسو : حياته مؤلفاته غرامياته، مرجع سابق، ص 176

التاريخي الذي أسس للملكية الفردية، والذي أسس فيما بعد التفاوت الاصطناعي والمجتمع السياسي الفاسد، ويقول في كتابه مقالة في العلوم والفنون : "لكن إذا كان تقدم العلوم والفنون لم يضيف شيئاً الى سعادتنا الحقيقية وإذا كان قد أفسد أخلاقنا وطال الفساد سلامة ذوقنا. فأمثال "فيرو لا م" 1626-1561 vérulam و"ديكارت" 1650-1596 René Descartes و"نيوتن" 1727-1642 Isaac newton هم من رفعوا راية الفكر الإنساني. فالنفس تتناسب تدريجياً مع الموضوعات التي تشغلها والمناسبات الكبرى هي تخلق الرجال الكبار. وعلى الملوك إذن: أن يساهموا لما يحظون به من ثقة واعتبار، في إسعاد الشعوب بتلقيها مبادئ الحكمة: آنذاك فقط ستظهر قدرة الفضيلة والعلم والسلطة، إذ تحركها جميعاً روح المنافسة الشريفة ، وتشتغل كلها معاً في سبيل تحقيق السعادة بني الانسان. فيجب أن تتحد القوة والأنوار لتحقيق ذلك".¹

4- مسألة الملكية والتملك:

إن المشكلة الاجتماعية التي يعرضها "روسو" لنا هنا هي : الترف والحرمان، الغنى والبؤس، التمتع الأناني والعمل لحساب الغير تتفرع من واقع عام هو: الملكية. فهي عنده الرذيلة الاجتماعية الإنسانية. ترى ما فكره في هذه النقطة على التحقيق؟ هل يميل إلى إلغاء الملكية إلغاء تاماً، أو لا يحتفظ بأي قيد؟ يؤمن "روسو" بالاشتراكية إيماناً عميقاً بمعنى أنه ينفر من الترف، وينفر من الغنى، ينفر من الملكية، ويرجو أن تقوم بين الناس مساواة حقيقية. فإن تلك المساواة المزعومة في الحقوق ليست إلا طمعاً".²

وإن فكرة الاشتراكية هي التي طورها فيما بعد كارل ماركس، وتحدث عن الشيوعية والتي هي أقصى حدود الاشتراكية. فروسو يعتبر من المنظرين الأولين الذين وضعوا

¹ - جان جاك روسو، مقالات في العلوم والفنون، في الاقتصاد السياسي، في أصل اللغات، مصدر سابق، ص44.

² - نجيب المستكاوي، روسو : حياته مؤلفاته غرامياته، مرجع سابق، ص 176

إرهاصات الفلسفة الاشتراكية والملكية الجماعية. إن روسو يمجّد الحياة البسيطة الهنيئة وينفر من الحياة المتمدنة المملوءة بالتعقيدات، وحياة الغنى والبذخ والترف التي تشكل للإنسان قلقاً مستمراً وتعاسة، والإنسان الطبيعي كان يعيش حياتاً هنيئة مستقرة، عكس الإنسان التاريخي الذي يعيش حياتاً غير مستقرة وفي قلق مستمر وفي حالة صراع مع أقرانه من البشر. "ونفوره من الترف يرجع إلى أخلاقه وإلى أفكاره العامة عن الحياة البسيطة للشعوب البدائية. وهو بتسلسل طبيعي ينفر من الغنى أولاً في ذاته، ثم لأنه يتيح لرجل أن يبتاع رجلاً آخر، أن يملك رجلاً آخر، لأن هذا غني وهذا فقير".¹ هذه هي الطريقة الفظيعة التي يمكن بها للناس السيطرة على الآخرين، واكتساب أفكار دنيئة عن الارتباطات المتبادلة والتي أدت إلى الاستغلال والاستعباد.² "إنه لمناقض كل التناقض مع القانون الطبيعي، أيّا كان تفسيره، أن يأمر طفلاً شيخاً، أن يقود أبله حكيماً. وإن تتوافر لدى حفنة من الناس الكماليات، في حين أن الكافة الجائعين الناس تعوزهم الضروريات".³

وإن هذا هو الذي سيؤدي إلى الصراع بين الناس والاقتتال، وإلى حروب طاحنة على من يملك الأراضي الشاسعة، ووسائل الإنتاج كما يسميها ماركس ويسيطر على الآخرين: ويستغلهم شر استغلال ويسطوا على أملاكهم، "لكن لا نخطئ في مرمى هذا الكلام، فإن روسو لا يؤيد إلغاء الملكية فهو على النقيض يؤكد في كل فرصة أن الملكية هي الأساس الحقيقي للمجتمع المدني. ويعلم بصوت جمهوري أن الملكية هو أقدم حقوق المواطنين وأنه ينبغي أن نحميه".⁴ لم يفكر روسو إطلاقاً في إلغاء الملكية ولا في رفض

¹ - نجيب المستكاوي، روسو : حياته مؤلفاته غرامياته ، مرجع سابق ص176

² - Jean-Jacques Rousseau (1754), Discours sur l'origine de l'inégalité parmi les hommes, op.cit ,p109.

³ - نجيب المستكاوي، روسو : حياته مؤلفاته غرامياته ، مرجع سابق، الصفحة نفسها

⁴ - المرجع نفسه ،الصفحة نفسها

التقدم والحضارة كتب يقول المجتمع الطبيعي طبيعي للجنس البشري . وليست المسألة العودة الى الغابة للعيش مع الدبة وحرقت المكتبات، إنه لم يقدم إلا فرضية حلم.¹

ويرى روسو أنه يجب أن لا تلغى الوراثة. لأن هناك سببا قويا في صالح الأطفال: ذلك أن حق الملكية يكون غير عادي ذي فائدة لهم إذ لم يخلف لهم الأب شيئا، ثم أنهم كثيرا ما يشاركون بعملهم في تكوين ثروة الأب وإنمائها، وبذلك يكونون شركاء في حقه.²

إن التغييرات المستمرة في الطبقة والثروة هي الشيء المشؤوم الذي تخاف منه عامة الجمهور لأنها تؤدي الى البلبلة والتي تحدث ثورات وتغييرات عميقة فيها، وتؤدي الى فوضى عارمة. ويضيف قائلا: " ما من شيء اشد شؤما على أخلاق الجمهورية من التغييرات المستمرة بين المواطنين في الطبقة والثروة " تلك التغييرات التي هي مصدر البلبلة والتي تقلب الأمور رأسا على عقب.³

5-العقد الاجتماعي :

يعتبر العقد الاجتماعي من أهم مؤلفات "روسو" السياسية. وكان "روسو" دائما مشغولا بمسائل الدولة والحكومة وبالمسائل السياسية والاجتماعية والأخلاقية. " ويبدأ روسو كعادته بجملة قوية ذات تأثير وفعالية "ولد الإنسان حرا ولكنه في كل مكان مكبل بأغلال"⁴.

يريد أن يقول أنه لا توجد أسباب طبيعية، لأن يخضع الإنسان لإنسان مثله، ولا أن يخضع شعب لإرادة أمير واحد وقوانينه. ومع ذلك فإن هذا هو المشهد الذي يطالعنا في

¹-جان توشار، تاريخ الفكر السياسي ، مرجع سابق، ص334

²- نجيب المستكاوي، روسو : حياته مؤلفاته غرامياته ، مرجع سابق، ص176

³- نجيب المستكاوي، روسو : حياته مؤلفاته غرامياته ، مرجع سابق، ص176

⁴- Jean. Jacques Rousseau, *Du contrat social* : Enag. Alger, Reghaia, Algerie ,(2012),p3.

الكون بأسره.¹ "وهو يعترف بأن النظام الاجتماعي حق مقدس، ينهض كأساس للحقوق الأخرى كافة. ومع ذلك فإن هذا الحق لا ينبثق من الطبيعة. وإذن فهو يقوم على اتفاقيات فما هي هذه الاتفاقيات إذن؟" ثم ينتقل إلى فكرة حق الأبوة: ويستعرض لنا السلطة الأبوية التي يتمتع بها الأب على أسرته حيث يرى روسو: "أن الأسرة هي النموذج الأول للمجتمعات السياسية." فالرئيس بمثابة الأب والشعب بمثابة الأولاد، إلا أن الأولاد لا يضلون مرتبطين بالأب إلا بقدر احتياجاتهم إليه لاستباق وجودهم، فبمجرد أن تنتهي هذه الحاجة تتحل الرابطة الطبيعية.²

ومع ذلك فإن "روسو" لا يقف طويلا عند هذه الموازنة الملك والأب، ويكتفي بأن يسخر على هذا النحو: "الفارق هو أن حب الأب لأولاده في الأسرة يعوضه عما يشملهم به من رعاية، أما في الدولة فإن لذة الحكم تحل محل هذا الحب الذي لا يملكه الملك للشعب".³، واستوحى روسو العقد الاجتماعي من الرغبة في الوحدة وحدة الجسم الاجتماعي، ومن تبعية المصالح الخاصة للإرادة العامة، السيادة المنفصلة عن الإرادة العامة وسيادة الفضيلة في أمة من المواطنين.⁴ وإن فكرة العقد الاجتماعي قال بها فلاسفة سابقون عن روسو وهم ينتمون أيضا إلى فلاسفة العقد الاجتماعي ونجد من بينهم هوبز ولوك.

1. النزعة الرومانسية في فلسفة روسو:

(1) الحركة الرومانسية :

إن "روسو" تغذى أيضا فكريا من تيار الحركة الرومانسية التي تمرت على العقل واستخدمت العاطفة. وهناك من يرى أن "روسو" يصنف ضمن التيار الرجعي المحافظ والذي يحن ويحب البساطة والتخلف ومنه فـ "روسو" يصبح عدوا للحضارة، لأن الحضارة

¹ - نجيب المستكاوي، روسو : حياته مؤلفاته غرامياته، ص299

² - نجيب المستكاوي، روسو : حياته مؤلفاته غرامياته، مرجع سابق، ص299

³ - نجيب المستكاوي، روسو : حياته مؤلفاته غرامياته، مرجع سابق، ص176

⁴ - جان توشار، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، ص335

تنتج لنا الشر و الفساد ومن ثمة تصبح الحضارة شر . حيث يقول في أحد مقالاته في أصل التفاوت بين الناس " أيها الحمقى الذين لا تكفون عن هم الشكوى عن الطبيعة إعلموا أن مصائبكم مردها إليكم. حيث ميز الرومانسيون، من جانبهم، المظاهر الشعرية لمؤلفاته،

وَقَرُّوْا بِشَكْلِ خَاصٍ «أَحْلَامُ الْمُتَنَزِّهِ الْمُنْعَزَل» LES REVERIES DU

SOLITAIRE « PROMMENEUR » حيث استوقفهم شعور الطبيعة وغنائية

أسلوبه، وكذلك فلسفته، وإيمانه بطبيعة الإنسان الطبيعية التي أفسدتها الحضارة. وأخيراً «الاعترافات» التي أعطت المثال على بوح السيرة الذاتية التي سيستسلم إليه الرومانسيون في بداية العصر هذه.¹ وهذا من خلال قول روسو في كتابه الاعترافات: إنني مقدم على مشروع لم يسبقه مثيل ولن يكون له نظير، إذ أنني أبغي أن أعرض على أقراني من البشر إنساناً في أصدق صور طبيعته وهو أنا. أنا وحدي فلني أعرف مشاعر قلبي.² وهذا ما تجلّى من خلال كتابة روسو لسيرته الذاتية في كتاب الاعترافات حيث وصف لنا حياته وتجربته في الحياة بطريقة لم يسبقه إليه أحد وكان صادقا في سرده للوقائع التي عاشها.

ويعتبر المفكر والفيلسوف والأديب الفرنسي جان جاك روسو 1712 - 1788م أبرز الرومانسيين في التاريخ ومن أبرز المفكرين والأدباء الذين اعتنقوا الرومانسية:- ويعد رائد الرومانسية الحديثة.³ ومن الفلاسفة الذين أثروا تأثيراً بليغاً في المدرسة الرومانسية والتيار الرومانسي والأدبي الفرنسي والعالمي- إن الطبيعة و حياة روسو كانت ملهما كبيرا لمؤلفات روسو الأدبية الرومانسية و المتمثلة في "جولي أو هيلوييزا الجديدة" أحلام جوال " وكان لحياة روسو أثر كبير على منحاه الرومانس ي، ساهم في تعزيز هذا المنحى اضطراب حياته وعدم استقرارها وتكرر المجتمع له، وإذا كان لأحداث فترة الشباب أثر مهم على الشخصية فإن لسنوات الطفولة أثراً أهم لأن فيها تتكون الشخصية وتبدأ سماتها الأساسية بالظهور.⁴ وهذا ما أدلى به روسو في كتابه الاعترافات من خلال قوله : وقد أدى هذا

¹-موريس شربيل، ميشال أبي فاضل، روسو، مرجع سابق، ص172

²-جان جاك روسو، الاعترافات، ترجمة حلمي مراد، دار البشير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1998، ص9

³- موريس شربيل، ميشال أبي فاضل، المرجع نفسه، ص172

⁴- المرجع نفسه، الصفحة نفسها

الاطلاع المشوق والمحادثات التي يثيرها بيني وبين أبي إلى تولد روح الحرية في نفسي تلك الروح الأبية المنيرة التي لا تطيق العبودية والاسترقاق والتي عذبتني طوال حياتي، في مواقف كانت بعيدة عن أن تتيح لها مجالا، وهكذا أصبحت أفكاري في شغل لا ينقطع بروما وأثينا.¹

ولعل وفاة والده روسو، وإبعاده عن والده، ووضعه في مدرسة داخلية، وغيرها من الأحداث القاهرة الأخرى أدى به إلى اضطراب عاطفي، رماه في خضم حياة مرتجحة يسيطر عليها الانفعال والتأثر، وقد دفعه هذا الانفعال إلى حياة غير سوية فاتته فيها عطف الأم ورعاية الأب، وتفهم المعلم وهناءة العيش العائلي فكان من الطبيعي أن يسعى إلى التعويض من أجل إقامة توازن يحفظ له سلامة الاستمرار في الحياة.²، إن روسو عاش حياة متقلبة ومتغيرة وفي ظروف صعبة منذ الميلاد وهذا ما أثر في تفكيره الفلسفي والأدبي. "وهذا ما صرح به روسو في كتاب الاعترافات من خلال قوله: وقد كبدت أمتي حياتها، وكان مولدي أول ما حاق بي من نحس وتعاسة."³

ودفع هذا الحرمان بروسو إلى التطلع إلى ناحية الذات، فاصطبغت كتاباته بطابع غنائي ذاتي تجلى مباشرة في "الاعترافات" و "أحلام متنزه منفرد" ورسائله. وظهرت من وراء الستار في رائعته القصصية في " هيلوييزا الجديدة".⁴، لكن روسو الم لفتت إلى ذاته والباحث عن كينونتها وإبعادها ومدى تأثرها بالكون، توصل عن طريق التأمل إلى رحاب الفلسفة فدخل هيكل الفكر عن طريق معرفة الذات.

وقد دفعت به رياح عصره المتأثر بالفلسفة العقلية إلى مزيد من التوغل في دنيا الفكر، لكنه لم ينس الطريق التي سلكها وبذلك استطاع أن يربط آراؤه الفلسفية بطابع ذاتي فريد، فوازن بين الأفكار والعواطف بين العقل والقلب، فكان هذا برأينا هو السبب المهم الذي

¹ - جان جاك روسو، الاعترافات، مصدر سابق، ص12.

² - موريس شربيل، ميشال أبي فاضل، روسو، مرجع سابق، ص172

³ - جان جاك روسو، الاعترافات، مصدر سابق، ص10

⁴ - موريس شربيل، ميشال أبي فاضل، المرجع نفسه، الصفحة نفسها

منعه من الانسياق كلياً في خطه الرومانس ي الجديد. ونتساءل هنا ما تراه يكون أثر روسو في المدرسة الرومانسية ؟ ، إننا حين ندرك نواحي رومانسيته، يسهل علينا بالتالي إدراك مدى تأثيرها على من جاء بعده، ندرك الملامح الأولية لمدرسة أدبية، كان لها شأن كبير على أدباء القرن التاسع عشر والعشرين.¹

(2)- ملامح الرومانسية :

تبرز الرومانسية في " هيلويزا الجديدة"، و"الاعترافات" و"الحوارات"، والرسائل، ولا سيما إلى السيد مالارب و"أحلام متنزه منفرد"، وتتجلى في النواحي التالية: المغامرة، العزلة، والتأمل والذكرى، التأثير بالطبيعة، الحب، الألم والهم، تقلبات الطباع.²، وكانت أحلام يقظة جوال منفرد آخر ما كتب روسو في حياته تتصل اتصالاً وثيقاً وتبين عن نواحي نفسية الكاتب الكبير بما فيها من قوة وضعف، وبساطة وتناقض هي خلاصة خمسة وستين سنة قضاها بين مد وجزر يتأرجح بين الشقاء والسعادة. يتذوق حلاوة الاستقرار حيناً ويتشرد ضارب في الأرض أحياناً كثيرة.³

1- المغامرة: يعترف روسو بأنه مغامر من الدرجة الأولى ، إن في نفسه نزعة من التشرد وإذعاناً إلى الهتاف الجديد ، لا يأبه لصعوبة المسالك والاستسلام إلى الحب العابر الممتع. من يقرأ الاعترافات يرى فيها مغامرات عديدة ، ومتنوعة تمتاز أكثرها برحلات طويلة ، وبتغيير طرق كسب العيش ، وبصداقات آنية سريعة.

2- العزلة والتأمل والذكرى: العزلة طريق إلى التأمل وفي التأمل استعادة لماضي مؤثر، وقد عاش روسو الحالات الثلاث وكأنها خط واحد. ففي وقت كانت العزلة مدخلاً إلى

¹ - موريس شربيل، ميشال أبي فاضل، روسو ، الصفحة 172.

² - موريس شربيل، ميشال أبي فاضل، المرجع نفسه، ص 183

³ - جان جاك روسو، أحلام يقظة جوال منفرد ، ترجمة وتعليق ثريا توفيق، مراجعة صالح جودت، إشراف جابر عصفور، المشرف على السلسلة طلعت شايب، المركز القومي للترجمة، ميراث الترجمة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، الطبعة الثانية، 2009، القاهرة، مصر، ص 12.

فلسفته رأى فيها راحة لنفسه ، و ومنطلقا للخيال ومكانا ملائما للانفراد ، وهي طريق الفضيلة ، فالإنسان بريء في طبيعته لكن المجتمع أفسده.¹

وكانت حياة روسو في الريف داعية لاستسلامه للطبيعة والأحلام وحب النباتات الى جانب سعيه في ميدان الموسيقى والعناية بدراساتها، ولعل الصفحات التي كتبها عنها هي من أبدع ما سطر خياله وقلبه معا فهي جنته التي عاشها على الأرض.²

وإن التأمل ذاتي عند روسو إنه انطواء على الذات ، وعيش في عالم يختلف عن عالمنا. إنه عالم رغائب خيالية تقود إلى التخشع والرغبة ، فهو يقترب من الزهد والتصوف. وكثيرا ما ذاب روسو في جو الوحدة حتى أنه اعتبرها طريق إلى الله. وفي جو الوحدة والتأمل تعود بروسو الذكرى إلى أيام خوال ، فينعم خياليا بلحظات سعادة انقضت فطوت صفحة جميلة الملامح مصفاة الرؤية.³ "حيث يقول روسو: "ها أنا ، إذن ، وحدي على الأرض ، لم يعد لي أخ ، جار ، صديق ، مجتمع مدني".⁴

-التأثر بالطبيعة: وأدب روسو -كذلك فكره مفعم بمحبة الطبيعة حتى إننا نرى بعض مقاطعه وكأنها وضعت كنشيد للطبيعة ، وكأنما يبيثها روسو أسرارها ويرى فيها الجمال ، والبهاء والإنس والصفاء. ويبدو تأثره بالطبيعة الريفية ، واضحا في الاعترافات و هيلوبيزا الجديدة بالذات.حيث يقول روسو:"أريد أن أعرض لأقراني الإنسان في كامل حقيقة الطبيعة والذي سيكون أنا".⁵ ، فالطبيعة عنده روح تتسامى وأم تتاجي فيأنس الإبن لصفائها وصمتها وبلاغتها: وإذ هي طريق الله. والطبيعة سريرة ومسرح أحلامه ، فيها عاش طفولته ، واليها لجأ

¹ - موريس شربيل، ميشال أبي فاضل ، روسو، مرجع سابق، ص 183

² -جان جاك روسو، أحلام يقظة جوال منفرد، مصدر سابق، ص 17

³ - موريس شربيل، ميشال أبي فاضل، المرجع نفسه، الصفحة 183

⁴ - JEAN JACQUES ROUSSEAU, LES REVERIES DU PROMMENEUR SOLITAIRE, Ed :Flammarion , PARIS,1933.p4.

⁵ - JEAN JACQUES ROUSSEAU: LES CONFESSIONS, _Ed :Flammarion, PARIS ,1963.p4.

أيام شبابه، و بها تغنى في شيخوخته. فكان عشقه لها فاتحة عشق شاعري مستلهم لمن جاء بعده من الأدباء.¹

وقد شغلته الطبيعة في أوقات متعددة في الصيف والشتاء ، في الخريف والربيع ، وأحبها نهارا وسط الألوان الضاحكة ، وليلا في حضن الظلام والسكينة ، في الصباح والمساء ، في الظهر والمساء ، في ضوء القمر في عتمات الليالي. عرفه متنزها على قدميه وراكبا مع الآخرين. جاءها فرحا كما جاءها شاكيا. ولذلك يمكننا القول أنه عرفها في شتى حالاتها.² ، ويرى روسو أنه عندما يكون في الريف والطبيعة، يقول تجيء اللحظات السعيدة الهادئة التي تجعلني أقول أنني حبيب، إيه أيتها اللحظات الثمينة المأسوف عليها ألا عودي فيعود معك الهناء إنسابي في ذاكرتي إن إستطعت أكثر ببطء مما كنت في سرعة مرورك.³

4-الحب : بحث روسو طيلة حياته عن الحب، واستولى عليه شبحه حيثما حل فكان محور نتاجه كله، فيبدي لباسا عقليا إنسانيا شاملا في بعض كتبه، وتدثر بالعاطفة الذاتية في بعض الكتب الأخرى، فكان غنائيا حالما مؤثرا، وروسو يعترف بأثره في أدبه ومدى تعطشه للارتواء من مناهله، فقد كشف بنفسه عن تشوقه للعيش في أجواء الحب، والعالم بأجواء هيلوبيزا الجديدة، مثلا يعرف كيف أخفى روسو في هذه القصة أسماء أبطالها الحقيقيين، والمعاناة التي عاشها البطلان الأساسيان وما هي الجوامع المشتركة بين سانبرو وروسو.⁴ وإن هيلوبيزا الجديدة فهي ذاتها عبارة عن حلم يقظة طويل..رائع قوامه الحب العذري والطبيعة رسم روسو فيها الأحاسيس والمشاعر بدقة وحرارة فائقين فهي إعراف وحلم وتعبير عن حياته الداخلية.⁵

5- الألم والهم: إنتابت روسو ألأم كثيرة في حياته كان بعضها جسديا، عان منه لفترات طويلة في حياته. وبعضها الآخر نفسي، أرقه معظم مراحل حياته. ونحن نتناول هنا ذلك

¹ - مورييس شربيل ، ميشال أبي فاضل ، روسو، مرجع سابق، ص185

² - المرجع نفسه، ص185

³ - جان جاك روسو، أحلام يقظة جوال منفرد، مصدر سابق، ص17

⁴ - مورييس شربيل، ميشال أبي فاضل، روسو، مرجع سابق، ص185

⁵ - جان جاك روسو، أحلام يقظة جوال منفرد، ص23.

الألم النفسي، الذي لم يظهر مباشرة في أي مؤلفاته كما ظهر في شخصية سانبرو. فقد قاسى سانبرو آلام الابتعاد عن الحبيبة كما آسى مشكلة تسليم قلب حبيبته إلى إنسان آخر، و هو في النهاية تنازل عن الجسد ولم يتنازل عن الحب.¹ وسيطر الألم على روسو وصحته منذ أن رأى النور، و أيقض مضجعه في ساعات محب متجلبب بشبح خياله وأجسام من كانوا حوله. وقد ترك طابع الحزن الوجودي في كتاباته. وطابع البؤس النفسي في روحه، فكان للرومانسية نصيب من صراع إنعكس على أجيال ما بعد الثورة الفرنسية.²

6-تقلب الطباع: غالبا ما إنفكأ روسو على ذاته تحت تأثير انفعالاته، فبدل مواقفه دون أن يستقر على حال أحيانا مترددا خائفا، وتارة مقدما متهورا، وكثيرا ما رأيناه ينتقل من موقف إلى آخر مدفوعا بقوة انفعالاته منقادا إلى عفويته وبراءته.³ ،حقا فإن روسو المسكين الذي كتب عليه التشرد والملاحقة وعدم الاستقرار، صدر ضده من مجلس جمهورية برن مرسوم طرده من تلك الجزيرة الساحرة التي ود لوترك فيها بقية العمر.⁴

ب- أثره الرومانسي: صحيح أن روسو لم يكتب بيان المدرسة الرومانسية، إلا أنه إعتبر في نظر الكثيرين ذلك الصوت الصارخ الذي يمهد السبيل أمام مدرسة جديدة، دخلها معظم أدباء فرنسا وأوروبا في القرن التاسع عشر.⁵ ، حيث أن هيلويزا الجديدة يعتبر حلما من أحلامه الرائعة.⁶ ، "ومن أقوال النقاد الذين يعترفون لروسو بحمل مشعل الرومانسية نستشهد بالبارون ساليار وفيليب فان تيغم ، فقد إعتبر الأول قصة هيلويزا الجديدة بداية العهد الرومانسي واعتبر رسالة روسو إلى مالارب مصدرا مهما من مصادر الجمالية الرومانسية، واعتبر الثاني القصة نفسها صفحة تجمع بشائر الرومانسية، بتقليد كورنالياني للواجب الأخلاقي".⁷ ، ولأن الانسان الخيالي الحالم يتحمس دائما الى أشياء جديدة ولعل ذلك كان

¹ - مورييس شربيل، ميشال أبي فاضل، روسو، المرجع نفسه، ص185

² - مورييس شربيل، ميشال أبي فاضل، المرجع نفسه، ص185

³ - مورييس شربيل ، ميشال أبي فاضل ،روسو، مرجع سابق، ص185

⁴ - جان جاك روسو، أحلام يقظة جوال منفرد، مصدر سابق، ص27

⁵ - مورييس شربيل، ميشال أبي فاضل، روسو، المرجع نفسه، الصفحة 185

⁶ -جان جاك روسو، أحلام منفرد جوال، مصدر سابق، ص31

⁷ - مورييس شربيل، ميشال أبي فاضل، المرجع نفسه، ص186

الدافع لروسو إلى تعليم الموسيقى باستعمال طريقة رقمية.¹ ، "ومن أقوال أدباء القرن التاسع عشر، المتأثرين برومانسية روسو نورد إعراف شاتوبريا ولامرت في هيلويزا الجديدة، نشوة دام مفعولها نصف قرن. وقد إعتبر كثير من متذوقي أدب روسو أن سانبرو هو نموذج البطل الرومانسي لما يتمتع به من روح تعال و إحساس ومزاج متجههم، وحب لعزلة، وشعور وجودي بالموت."²

و إعتبر كثيرون أن هيلويزا الجديدة هي انطواء على الذات، وهرب من دنيا الواقع، وتعلق بالطبيعة وعيش في جو العزلة، كما إعتبرت إنطلاقا نحو عالم صوفي إلهي. واعتبر آخرون الاعترافات كتاب عواطف وأفكار وكتاب تعرية للذات وتحليل صادق لها وأجمعوا على نسبته إلى المدرسة الرومانسية. وإذا كانت الإعرافات لم تهدئ أعصاب روسو الرومانسي فقد كان عليه أن يلجأ إلى الحوارات الذي كتب تحت وطأة انفعال مرضي شبيه بحالة التوبة العصبية. وكأنما روسو كان بحاجة من جديد الى كتابة هواجسه.. والتي تمتاز بطابع أكثر هدوءا.³ ، "وكان هذا الإنتاج الرومانسي أن يؤثر على الرومانسيين، ومن هؤلاء نذكر برنار دين دو سان بيير في روايته "بول وفيرجيني" **Paul et virginie** "وغوته في ألام فتر و شاتو بريان في رينه. وقد مهدت الاعترافات لسلسلة من الشخصيات مثل دلفين و كورين لمدام دوستايل و وأدولف لبنجمان كونستان ، والملاذات لسانت بوف. كما أثرت أجواء روسو المتأثرة بالطبيعة على اوبرمان لسانكور و على زنبقة الوادي لبلازك و دومينيك لفرومنتان، وهناك من أقام علاقة رومانسية حميمة ترى نوعا من التشابه بين بحيرة روسو في هيلويزا الجديدة، وبحيرة روسو في ديوانه التأملات."⁴ ، ولقد كانت من أهم الميزات التي كتبت الخلود للاعترافات أنها كانت أول عمل أدبي يكشف صاحبه عن نفسه فيظهر على حقيقتها الكاملة دون أي زيف أو تستر فقد سجل روسو في هذا الكتاب أدق أحداث في حياته خيرها وشرها

¹ - جان جاك روسو، أحلام منفرد جوال، الصفحة 186

² - موريس شربيل، ميشال أبي فاضل، المرجع نفسه، ص 187

³ - موريس شربيل، ميشال أبي فاضل، روسو، مرجع سابق، ص 187

⁴ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها

وطيبتها وخبثها دون أن يجفل من مواجهة الحقيقة وكأنه مؤمن صادق التوبة يصارح به إلهه بأخطائه برهانا على صدق توبته وإلتماسا لصفحه.¹

ويمكننا القول أن روسو إعتبر أبا للرومانسية لأنه كان رومانسيا في حياته، وذوقه ومفاهيمه الأدبية وعبادته لذاته. لقد أراد التحرر من كل القواعد ومن كل الأنظمة وكل التقاليد وأفردت المجال الأول للإحساس والتصور إن روسو وإن غلبت عليه الشهرة الرومانسية، فقد اعتبره البعض رائدا من رواد الفن الواقعي كما اعتبره آخرون ذلك الرائد الواقف على كل المفارقات الأدبية التي تؤدي إلى عصرنا الحاضر.²

¹-جان جاك روسو، الاعترافات، مصدر سابق، ص5

²-موريس شربيل، ميشال أبي فاضل، روسو، مرجع سابق، ص187

الفصل الثاني: الحالة الطبيعية عند " جان جاك روسو "

-المبحث الأول:الحالة الطبيعية

-المبحث الثاني: أصل التفاوت بين الناس.

المبحث الثالث:- ظهور الملكية والإنسان التاريخي

والتفاوت الاصطناعي

المبحث الرابع:-ظهور المجتمع السياسي الفاسد

1- الحالة الطبيعية:

ذهب " جان جاك روسو " * « JEAN JACQUES ROUSSEAU » إلى أن حالة الطبيعة الأولى كانت هائلة سعيدة سادها الخير والطمأنينة وانتشرت فيها الفضيلة وأن الإنسان كان مساويا لكل إنسان آخر ، إذ لم يكن هناك أدنى تمييز بين الإنسان وأخيه الإنسان، ولم يكن هناك حاكم ولا محكوم. ولا متعلم ولا جاهل ، ولا غني ولا فقير ، حيث كان كل إنسان مساوي تماما لكل إنسان آخر ، ولبقية أقرانه من الناس.¹

ولم يكن الإنسان الأول في حاجة إلى ممارسة الكذب أو النفاق أو الرياء ، إذ لماذا يمارس هذه الخصال مادام لا يوجد أي تفاوت أو تمايز بين الناس. حيث كان الإنسان الأول طاهرا شريفا ، وكانت حاجياته محدودة وموجودة في الطبيعة ، وما يكفي حاجياته ويزيد عن ذلك.² حيث يقول "روسو" في هذا الصدد: "أن الإنسان كان مطابقا في كل زمن عليه الآن: يمشي على رجلين ، ويستعمل يديه كما نستعمل نحن أيدينا اليوم. مجيلا أنظاره في جميع أنحاء الطبيعة. رافعا عيناه إلى العلاء يقيس بهما سعة السماء الممتدة الأطراف".³

ويقول "روسو" أيضا في هذا الصدد: "وإذا نظرنا إليه كما خرج من يدي الطبيعة ، رأيناه حيوانا أقل قوة من بعض الحيوانات، وأقل خفة من بعضها الآخر ، ولكن إذا أخذنا بجميع ما فيه، وجدناه أفضل وأنفع تكوينا منها كلها: ها إني أراه قاعدا تحت شجرة بلوط؛⁴ ساقيا

¹ -محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 291

² - المرجع نفسه، مرجع سابق، الصفحة نفسها

³ - جان جاك روسو، أصل التفاوت بين الناس، - ترجمة بولس غانم، أنيس للنشر، 1991 ، ص 38.

* **جان جاك روسو** (Jean-Jacques Rousseau) : ولد في جنيف، 28 يونيو 1712 وتوفي في إيرمينونفيليليو 1778 (عن عمر ناهز 66 عاما)، هو كاتب وأديب وفيلسوف وعالم نبات جنيفي، يعد من أهم كتاب عصر التنوير، وهي فترة من التاريخ الأوروبي، امتدت من أواخر القرن السابع عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر الميلادي. ساعدت فلسفة روسو في تشكيل الأحداث السياسية، التي أدت إلى قيام الثورة الفرنسية .حيث أثرت أعماله في التعليم والأدب والسياسة

⁴ - جان جاك روسو، أصل التفاوت بين الناس، مصدر سابق، ص 39

عطشه من أول جدول ماء، واجدا سريرا لنومه عند جذع أول شجرة أمدته بوجبة طعام ، وهكذا تكون : -جميع حاجاته قد قضيت¹، "وكان الإنسان الأول هائئاً ، سعيداً لم يعرف القيود ولا الحواجز ولم يصطنع الرياء ، كان يتصرف بتلقائية وحرية؛ ولم يكن له مسكن واحد ثابت ولا لغة؛ كانت صرخاته الغريزية تغنيه عن الألفاظ والكلمات. ولقد علمت الطبيعة الإنسان كل ما يريد أو يمتلكه أو يستخدمه."²

ولم يكن الإنسان الأول محتاجاً إلى معونة الآخرين ، ولم يكن جباناً يهرب كل قوة حوله كما ذهب "مونتيسكيو" « MONTESQIEU *³ » ولم يكن وحشاً أنانياً يحارب الجميع كما ذهب إلى ذلك "هوبز" « THOMAS HOBBS **⁴ ». حيث يرى "روسو": أن الخوف والحرب والقتال والأنانية ، لم تظهر إلا في حالة المجتمع المدني ، وذلك لأن الحياة البسيطة والمنعزلة والغريزية: التلقائية للإنسان الأول لا يمكن تتضمن هذه الشرور.⁵

وأشاد "روسو" بإنسان الحالة الطبيعية ، قائلاً إنه كان رؤوفاً بالناس لا يمكن أن يؤدي أي إنسان آخر. بل ولا يمكن أن يؤدي أي كائن أي ما كان حيواناً أو نباتاً ، "كان الإنسان الأول يتمتع بجسد قوي مرن وبحركة سريعة تمكنه من الإفلات من مخالب الحيوان المفترسة، وكان لا يحتاج إلى علاج ولا طبيب؛ لأن الإنسان ليس أسوأ من الحيوانات الأخرى من هذه الناحية."⁶

ويقول "روسو" في هذا الصدد: "أن الناس قد اعتادوا منذ الطفولة أن يتحملوا تقلبات الهواء، وقسوة الفصول وتروضوا على التعب؛ أما وهم مضطرون إلى الدفاع عن أنفسهم

¹ -محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 291

² -جان جاك روسو، في أصل التفاوت بين الناس ، مصدر سابق، ص 39.

³ * مونتيسكيو: فيلسوف فرنسي عاش في القرن 18. صاحب كتاب روح القوانين.

⁴ ** هوبز: فيلسوف إنجليزي عاش في القرن 15 صاحب كتاب: التتين.

⁵ -جان جاك روسو، في أصل التفاوت بين الناس ، مصدر سابق، ص 39.

⁶ -المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

وعن طراديهم من الوحوش الأخرى الضارية ، أو الإفلات منها بسبقها في الجري فلذلك اكتسبوا بنيات قوية لا يكاد يؤثر فيها مؤثر.¹

وإن الطبيعة أعطت الانسان الطبيعي حصانة ومناعة طبيعية وجسد قوي. حيث يقول أيضا : "روسو" في هذا الصدد: " فالأولاد يخرجون إلى الدنيا حاملين سمات أبائهم الشديدة ثم إنهم: إذ يقومون بتقويتها بالتمريعات أنفسها التي جعلتهم أشداء؛ يكتسبون هكذا كل النشاط الذي يستطيع الجنس البشري بلوغه ، ومن الواضح أن الطبيعة تصنع بهم ما كان يصنعه قانون أسبارطة مع أنباء المواطنين:- تجعل ذوي البنية الحسنة أقوياء أشداء وتهلك الآخرين.² "

وإن الطبيعة أحسنت صنعها وأعطت الانسان الطبيعي بنية جسدية قوية ومناعة قوية، وأمدته بكل ما يحتاجه من غذاء وشرب، " ويصف لنا روسو الإنسان الطبيعي بأنه سائرا في الطبيعة والغابات، لا صناعة له ولا نطق ولا مسكن ولا حروب ولا حاجة إلى أ بناء جنسه ولا رغبة في أذية أي منهم؛ حتى ولا معرفة أحد منهم شخصا؛ وليس هو عرضة إلا القليل من الشهوات؛ إنه يكفي نفسه بنفسه؛ وليس له إلا العواطف والمدارك التي تتطلبها هذه الحالة؛ ولا ينظر إلا إلى ما يظنه مفيدا له وقد عزا إليه "روسو" غريزتين أساسيتين: - الغريزة الأولى:- تدفعه إلى المحافظة على وجوده، وإن الخيرات التي يعرفها في العالم هي:- الطعام والأنثى والنوم والراحة. أما الشرور الوحيدة التي يخشاها فهي الجوع والألم.³ و كان الإنسان الطبيعي يعيش حياتا بهيمية ، لا يعرف فيها إلا الأكل والنوم والأنثى ، وكان يتغذى مما تمده له الطبيعة كان ينام تحت الشجرة ويشرب من أول جدول يلقاه أمامه ، وكان حر حرية طبيعية.

¹ - جان جاك روسو، في أصل التفاوت بين الناس ، مصدر سابق، ص 39.

² - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

³ - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

- والغريزة الثانية هي استعداد للرحمة: "وكره فطري لرؤية أبناء جنسه يتألمون ، وكان له مبدأ السخاء والسماح والإنسانية والرعاية ، حيث يتبع رجل الطبيعة إذن المثل القائل: إعمل صالحك بأقل ضرر ممكن تسببه للغير"؛ وحينما يأكل، ويشبع الإنسان الطبيعي: "فهو في سلام مع الطبيعة كلها؛ وصديق لجميع أبناء جنسه و إنه صالح من طبيعته. شيئان فقط يميزانه إذن: عن الحيوانات التي يعيش فيما بينها: - أ- أن له إرادة حرة بدلا من أن يكون أسيرا لغرائزه، و إن هذه الإرادة هي التي تميزه من الحيوانات أكثر ما يميزه منها الفهم.¹

لكن ليس "روسو" وحده هو الذي تكلم فقط عن الحالة الطبيعية ، بل هناك فلاسفة سابقين عليه تكلموا عن الحالة الطبيعية ، و القانون الطبيعي مثل: -الريواقيين، توما الايكويني - بودان و غروتئوس " هوبز" و "لوك". ولما كانت الحالة الطبيعية ، والقانون الطبيعي هما موضوعنا سوف نتطرق إلى تعريفه الاصطلاحي: * والذي هو نظام عام صادر من الله يسود العالم يشتمل على مجموعة من المبادئ الأساسية للعدالة. يتضمن توجيهات عامة يفسرها المشرع ويقرر الجزاءات الكفيلة لحمايتها.

* هو نسق من المبادئ يقدمها العقل الكلي يفسره العقل البشري ، لكي يجعل الحياة آمنة مطمئنة يدعو إلى التعاون والإخاء. وينبذ كل ما يعكر صفو الحياة.²

* هو المعبر عن إرادة الله : تفسره السنة الطبيعية محفور في قلوب المخلوقات.³

منذ أن بدأ الخلق ، والإنسان يسطر قصة كفاحه الدائب ونضاله المستمر مع البيئة ، سعيا لفهمها. والتعرف على أسرارها واستهدافا لإخضاعها لخدمته ، ورفاهيته وهذا يتطلب التدارك العقلي الواعي.

¹ - JEAN JACQUES ROUSSEAU, - DE LINNEGALITE PARMi LES HOMMES,ED :FLAMMARION, PARIS, 2000. P3

² هارولا لاسكي، - مدخل علم السياسة، ترجمة: عز الدين حسين ،القاهرة، 1985، ص 19. نقلا عن محمد إسماعيل فضل الله، نظرية القانون الطبيعي في الفكر السياسي الغربي، الإسكندرية، 2006، ص21

³ - محمد علي محمد، السياسة بين النظرية والتطبيق، الإسكندرية، 1997، ص 126.

(أ) - الحالة الطبيعية في الفترة القديمة :

"وإن إنسان الطبيعة لم يكن يوماً يتبادل العداء مع الطبيعة؛ بل تعود منذ طفولته على تقلبات الجو. إلا أنه استطاع أن يقهر ظروفه بنفسه:- هذه هي الطبيعة التي تمنح الجنس البشري نقاء القلوب، وتمنع تلك الوحوش في داخلنا من ارتكاب ما يخالف حقوق الطبيعة".¹

فالقانون الطبيعي هو ناموس وقانون أخلاقي غرز في قلب الانسان، يهتدي إليه عن طريق العقل والقلب فلا يسمح له بأذى الآخرين، والاعتداء عليهم. وأن الناس بطبيعتهم أخيار وليسوا أشرار. وأن نظام الطبيعة كان قائماً على السعادة. وكان الانسان في الحالة الطبيعية حسب روسو هائناً سعيداً لم يعرف القيود ولا الحواجز ولم يصطنع الرياء²، وأن الإنسان كان محكوماً بقانون الطبيعة الذي عرفه من خلال العقل.³

وعلى هذا النحو: يوجد مجتمع طبيعي يعيش الأفراد في ظله على نحو. وهو أسبق وجوداً من المجتمع المدني أو السياسي:- ويوجد كذلك قانون طبيعي أسبق وجوداً من القانون المدني الوضعي، فليست حالة الفطرة إذن حالة حرب أو صراع دائم تقودها الأنانية كما يقول هوبز، ولكنها حالة صالحة يتمتع الأفراد في ظلها بالحرية والمساواة.⁴

-ولكن حالة الطبيعة لم تكن حالة حرب الكل ضد الكل، كما يرى ذلك هوبز بل كانت حالة طمأنينة و حالة هناء، كان فيه الانسان يعيش في وئام وانسجام مع الطبيعة. وبذلك فإن حالة الطبيعة الأولى: - كان يسودها الخير والفضيلة والسعادة؛ وأن الشرور والكذب

¹ J.J. Rousseau : a dissertation of origin of foundation of Mankind inequality of Mankind, Cham bridge 1980 . Sect. 5.22 نقلاً عن :محمد إسماعيل فضل الله:-نظرية القانون الطبيعي. ص 22.

²-محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 219
³-نقلاً Daree Goriven : John Locke . treatises of government Cham bridge. 1980 . P13

المرجع نفسه ، ص 22

⁴ المرجع نفسه ، ص 22.

والرياء ما هي إلا من سمات المجتمع المتحضر¹. وأن الفضيلة تميز حالة الطبيعة الأولى وهي مطبوعة في كل القلوب. وإن إمتهان الفضيلة لم يكن موجودا في حالة الطبيعة الأولى ، وإنما ظهر بظهور المجتمع المدني² ، : حيث كان الإنسان يرى العنف عنفا، حتى ما إذا تعرض إليه ضده وتعرض إليه ضده ، وإذا ما لحق به الضرر سارع بإصلاحه. لا يفكر في الإنتقام، بل كان المبدأ السائد هو مبدأ التسامح. فالإنسان الطبيعي لم يكن عدوانيا ولا عنيفا فالعنف هي سمات المجتمع المتمدن والمتحضر³ ، والمجتمع السياسي الفاسد الذي أصبح فيه الظلم والاستغلال مدسّتر.

إلا أنه وفي حالة مضايقته يقوم بتفريغ طاقته كالكلب الذي يعض حجرا ألقي به. فصراعه غير دموي لأنه لا يريد بالآخرين الأذى ، حتى لو إعتدي عليه فهو بسيط متسامح بطبعه"⁴

كان يقتات مما تعطيه إياه الطبيعة ويشرب من أول جدول يلاقيه، كان لا يعرف إلا الأكل والنوم والأنثى، وكان يتألم عندما يرى أقرانه يتألمون: وكان لبساطته ونقاؤه سريره وإبداع تكوينه. يروي ظمأه عند أول منبع ماء. ويشبع جوعه عند أول شجرة يلتقط ثمارها؛ ويجد راحته في المكان الذي ظله"⁵ .

¹ -محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص292

² -Dunning : A history of political Theories : book.11 London. 1973.p 73 نقلا عن محمد

إسماعيل فضل الله، نظرية القانون الطبيعي، ص23.

³ -محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 235

⁴ -Rousseau JJ. : discours sur les inégalités parmi les homes sect. 2.p 10 . 23 - نقلا عن محمد إسماعيل فضل الله، المرجع نفسه ص ،

⁵ - نقلا عن محمد إسماعيل فضل الله: المرجع نفسه ص23 ، .

هذا هو القانون الطبيعي الذي ارتبط بسلوكيات الجنس البشري. إذ هم رجعوا إليه؛ وأنهم جميعا متساوون ومستقلون. فلا ينبغي لأحد أن يضر الآخر في حياته وحرية وممتلكاته " ¹.

ولم تكن الحالة الطبيعية حالة حرب الكل ضد الكل وحالة قتال وصراع مستمر كما وصفها هوبز، وإنما كانت حالة هنيئة وحالة وئام يسيرها القانون الطبيعي ²، " كما كان لدى الإنسان القدرة على محاسبة من يرتكب جرما ضد القوانين الطبيعية. فليست الحالة الأولى حالة توحش يسود فيها قانون الأقوى أو تحكمها القوة الغاشمة ، إنما حالة صالحة تجرى على أصول القانون الطبيعي ، وهي عبارة عن مجموع قواعد وأصول إتفق عليها الناس وهم في حالتهم الطبيعية " ³.

1- الرواقين والحالة الطبيعية:

يعتبر الرواقين الفضيلة علما شأنهم في ذلك شأن سقراط فإن الخير الحقيقي كان يتلخص عندهم في أن يعيش الإنسان وفقا للعقل أو الطبيعة ⁴، " و يؤمن الرواقين الذي يمثلهم "زنيون الأكتيومي" * (333 ق.م. 262 ق.م) بحكم الطبيعة وقوانينها: ويرون أن الحالة الطبيعية يسيرها القانون الطبيعي وهو محدد غير قابل للمس والتغيير: وأنه يتلاءم مع العقل الإنساني؛ ويحيا فوق الطبيعة والعقل الإنساني:- ولهذا استمدوا آرائهم الخاصة عن العلاقات الإجتماعية من الطبيعة: فهم يرون أن الإنسان الذي ينشد حياة أفضل يجب عليه أن يندمج إندماجا كليا مع الطبيعة؛ لأن معرفة الطبيعة من أهم أسس الحياة الفاضلة؛ وعندهم أنه لا داعي للحياة السياسية ، مادام غرض الفرد هو أن يعيش وفقا للقانون الطبيعي. وهو كاف لتنظيم العالم ، وترتيب حياته دون حاجته إلى إرشاد أو توجيه من الأفراد ، وعلى

¹ - عبد الفتاح غنيمه، -نحو فلسفة السياسة، ص 162. نقلا عن القانون الطبيعي ص23

² - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص292

³ عن :-المرجع نفسه ص23 -نقلا. E. Barker : social contract : NEW.york.1962. p71.

⁴ -مصطفى لبيب عبد الغني، في فلسفة الطبيعة عند الرواقين، كلية الآداب، جامعة القاهرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع،

ذلك يرى الريواقيين: أن الأخلاق وحدها دون سياسة هي القوة المحركة للأفراد.¹، لأن الأخلاق هي التي تحد من عنفوان الأفراد ويهتدون إلى القانون الطبيعي بالعقل، وأن هذا القانون الطبيعي مبدأ راسخ في فؤاد وقلب الانسان. ويرى الريواقيين أن الأخلاق هي الغاية التي يتنهياً الوصول إليها على أساس أحكام المعرفة الطبيعية.²

ويتعرف الإنسان على قانون الطبيعة بالرجوع إلى ميوله الأساسي ، وقد وضعت فيه الطبيعة هذه الميول لتدله على إرادته فيه ، فالميل الأول هو حب البقاء ، الذي يهديه إلى التميز بين ما يوافقه ويحفظ كيانه ، مما يضاده ويلاقيه.³ حيث يمنع القانون الطبيعي أن يأذي نفسه أو يأذي إنسان آخر أو الآخرين وأقرانه من البشر . ، فقد نادى الرواقية بالعالمية وضرورة التمسك بالأخلاق وأوضحت مكانة القانون الطبيعي من الوجهة الفلسفية الأمر الذي تبناه الرومان فيما بعد من الوجهة القانونية، والفلسفة الرواقية تهدف لبلوغ السعادة.⁴

وهذا القانون ينبثق من واقع العناية الإلهية للعالم كله: يتداركه العقل البشري كما يجعل الجنس البشري أقرب ما يكون إلى الله. وهذا الدستور واحد في كل زمان ومكان ويلزم الناس بأحكامه. وكل تشريع يخالف أحكام هذا الدستور لا يستحق أن يكون قانوناً.⁵

وفي ضوء هذا القانون يتمتع الناس بقدر من الكرامة والاحترام ، بوصفهم بشرا يملكون العقل والطبيعة الاجتماعية "⁶. و لا يعمر القانون الطبيعي إلا بالسلوك ، ولا يقوم على اللفظ وحده مهما بلغت صيغته من الكمال والتشدد في إخضاع المعاملات ، والأفراد لصيغ جامدة.¹

¹ بطرس غالي، محمود خيرى عيسى، مدخل إلى علم السياسة، ص 186. - نقلا عن القانون الطبيعي ص 24

² - مصطفى لبيب عبد الغني، في فلسفة الطبيعة عند الريواقيين، مرجع سابق، ص 12

³ إبراهيم بيومي مذكور يوسف كرم: دروس في تاريخ الفلسفة. القاهرة. لجنة التأليف والترجمة والنشر. 1958. ص 41. -نقلا عن المرجع نفسه ص 24

⁴ -حورية توفيق مجاهد، الفكر السياسي من أفلاطون إلى محمد عبده، مرجع سابق، ص 138

⁵ -إبراهيم دسوقي إباضة، عبد العزيز غنام، تاريخ الفكر السياسي، ص 81. نقلا عن المرجع نفسه ص 25

⁶ علي عبد المعطي، السياسة أصولها وتطورها في الفكر العربي، ص 119. - نقلا عن القانون الطبيعي ص 25

" وقد نظرت الرواقية إلى مفهوم العدالة بأنها أمر طبيعي؛ ولذلك فهي ثابتة لا تتغير .
وأن الحياة المثالية هي تلك تعبر بتوفيق وحنكة عن هذه العدالة المقررة بمقتضى ذلك القانون
" ²، حيث فصل الرواقيون بين الأخلاق والسياسة ، وكانوا يرون أن الدولة ليست هي الوسيلة
الوحيدة التي بها يظهر الرجل الفاضل ، و أن الإنسان في مقدوره أن يصل إلى الكمال عن
طريق إتباع القانون الطبيعي. ويرون أن الانسان ينتمي لمجتمع أكبر هو الإنسانية ككل.
والفرد يمكن أن يصل إلى الكمال عن طريق القانون الطبيعي. وعلى هذا فقد أطلقوا على
الفرد المواطن العالمي. ³ ، " وأوجد الرواقيين المساواة التامة لخضوع الأفراد لقانون واحد هو
القانون الطبيعي. ويرى الرواقيين أن القانون الطبيعي يعمل على إتحاد جميع الأفراد في
مدينة العالم؛ وفي ظل هذه العائلة الكبيرة يصبح جميع الأفراد إخوة متساويين ، ويحاول كل
فرد تنسيق حياته الخاصة بما يتماشى مع القانون الطبيعي ، لأن حياته وسعادته تتمثلان
فيه" ⁴، فالأفراد يخضعون لقانون طبيعي واحد ويتمتعون بالمساواة من حيث أن كل منهم
يتمتع بالعقل والحكمة وجميعهم ينتمي الى جماعة عالمية طبيعية واحدة فقد دعوا إلى جماعة
إنسانية عالمية. ⁵، وإن المدرسة الرواقية أثرت في المدرسة الرومانية في القانون ⁶، وأخذوا
عنهم مناهجهم ومبادئهم وتعاليم القانون وأثرت أيضا على المسيحية. " وكان للرواقيين الفضل
الأسبق في أن المشرقيين الرومان اقتسموا مبادئ القانون الطبيعي. ومبادئ العدالة العامة.
كما إقتبس المسيحيون فكرة الإخاء العالمي من المدرسة الرواقية ، والتي تعاقبتها العصور
الحديثة.

¹ علي حافظ، أساس العدالة في القانون الروماني، القاهرة 1951. ص 109. نقلا عن المرجع نفسه ص 25

² Davidson : Trestori .London. 1959.p 73 نقلا عن المرجع نفسه ص 25.

³ - حورية توفيق مجاهد، الفكر السياسي من أفلاطون إلى محمد عبده، مرجع سابق، ص 139

⁴ بطرس غالي. محمود خيرى عيسى، المدخل في علم السياسة. ص 51. نقلا عن المرجع نفسه ص 26

⁵ - حورية توفيق مجاهد، الفكر السياسي من أفلاطون إلى محمد عبده، مرجع سابق، ص 140

⁶ -أميرة حلمي مطر ، الفلسفة اليونانية تاريخها ومشكلاتها ، كلية الآداب جامع القاهرة، دار قباء للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، 1997، ص 385.

2- القديس "توما الاكويني" والحالة الطبيعية: (1225م.1274):

يرى توما الايكويني أن القانون الطبيعي هو المنظم الأساسي للأخلاقيات، فيما تغرسه الطبيعة من خير ، وتجنب الشر في سائر الكائنات الناطقة ، وغير الناطقة فهو هبة من الله للبشر؛ يحمل المساواة والعدالة. تعاليمه إليها العقل عن طريق التفكير¹، ويرى توما الاكويني أيضا أن القانون الطبيعي هو المرشد للإنسان في هذه الحياة ويوجهه إلى الخير ويجعله يتجنب الشر والشرور. فالقانون الطبيعي عند سانت توما يحتوي المبادئ التي يتفهمها العقل و إنعكاس للحكمة الإلهية على الخليقة ويظهر في نزوع الأفراد إلى الخير مع التكيف مع الظروف المحيطة والميل للعيش في جماعات والبحث عن الحقيقة والسعي إلى المدنية.²

فقد جمع الإنسان بين العقل والقلب؛ أي بين الدين والفلسفة؛ فالدين يدعون إلى الإيمان بأن الله بين بذاته؛ و أنه منبع سعادة الإنسان؛ وأنه الموجود الأعظم وأن العقل جزء من العقل الكلي. ولما كان الناس يتفاوتون في الإدراك حتى في العواطف فقدرته الإدراكية تختلف من شخص إلى آخر³. إن القدرات في الإدراك والفوارق العقلية، تختلف من إنسان إلى آخر. " ويرى "الأكويني" أن المسيحية في أرجاء المعمورة لها أثر على الفلسفة السياسية في وضع القوانين ، وعلاقة الحاكم بالمحكوم وتوجيه الحاكم على حب رعاياه، وإدانة المحكومين له بالولاء. فكانت التعاليم السياسية للحاكم؛ أن يقوم النظام القانوني على أساس

¹ جورج سبائين: تطور الفكر السياسي : الكتاب الثاني ترجمة: فتح الله الخطيب. القاهرة. دار المعارف. 1969. ص

118. . نقلا عن القانون الطبيعي، ص 26

² - حورية توفيق مجاهد، الفكر السياسي من أفلاطون إلى محمد عبده، مرجع سابق، ص 179

³ جان بول ، الفكر السياسي الغربي ، ترجمة محمد رشاد الخميس ، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب. 1985. ص

215. ، نقلا عن القانون الطبيعي، ص 26

من العدل والمساواة ، وأن يكون الفرد آمناً على حياته وسلامته: وكذلك محاسبة الخارجين على تعاليم الدين".¹.

ويرى توما "الايكويني" : أن الهدف الأسمى للحكومة هو إحراز رضا الله. ويتحتم خضوع السلطة الزمنية للسلطة الروحية: لأنها تصبوا لخلاص النفوس من الشر: لأن العقوبة الروحية أشد من العقوبة "الدنياوية": وأن على الإنسان طاعة الحاكم إلا عندما يتدخل في تعاليم الكنيسة بالتعديل أو الإلغاء وجب على الشعب مخالفته². هنا يفرق توما الاكويني بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية، ويجب أن تخضع الأولى للثانية لأن هدفها الأسمى هو خلاص النفوس من الشر والشرور. فهو يؤكد على أهمية النظام و تراتب بالنسبة للكون حيث ينساب كل شيء من الإله، كما يؤدي كل فرد دوره في تحقيق الكمال.³

كما أشار توما إلى أن الغرض من وجود مجتمع هو تحقيق الخدمات المتبادلة؛ أي أن لكل فرد داخل المجتمع دوره في تشكيل الرأي الجمعي ، متأثراً بقول أرسطو: "أن الفرد الذي لا يشارك في بناء مجتمعه يعتبر عضواً غير نافع". كما تأثر توما "الايكويني": بالقول الروماني بأن الإنسان له حقوق وعليه واجبات: وعلى الحاكم والمحكوم أن يلتزم بدوره في البناء الاجتماعي.⁴، وأن القانون الإنساني مشتق من القانون الطبيعي؛ وهو واجب الطاعة طالما كان عادلاً، وإذا كان خلافاً على ذلك وجب الخروج عليه.

ولما كانت الحياة الاجتماعية تبنى على الفرد في تشكيل الرأي الجمعي؛ و أن الفروق الفردية أمر طبيعي بين الأفراد في المعرفة فمن الخطأ أن نتجاهل هذا السمو لصالح الجميع

¹ أحمد سويلم العمري، أصول النظم السياسية المقارنة، ص 51. . نقلا عن القانون الطبيعي ص 26

² فؤاد شبل، الفكر السياسي دراسة مقارنة للمذاهب السياسية و الاجتماعية ، ج 1. القاهرة. الهيئة المصرية العامة للكتاب

1974. ص 189. نقلا عن المرجع نفسه ص 27

³ - حورية توفيق مجاهد، الفكر السياسي من أفلاطون إلى محمد عبده، مرجع سابق، ص 180

⁴ بطرس غالي. محمود خيرى عيسى، المدخل في علم السياسة. ص 73. نقلا عن المرجع نفسه ص 27

"¹. ويرى توما الاكوينى أن القانون الوضعى يجب أن يكون مستمدا من القانون الطبيعى، وأن ينسجم معه فإذا تعارض القانون الوضعى مع القانون الطبيعى، لا يمكن طاعته والخضوع له. ولكي يحقق الحاكم مهمته على أفضل وجه وأكمّله وفقا للهدف المنشود فعليه أن يلتزم بحدود سلطته فالحكومة تقوم لتحقيق هدف أخلاقي ولذلك يجب عليها تحقيق ذلك الهدف أما عن العلاقة بين السلطتين الزمنية والدينية فإن لكل منهما مجالها لكن الدولة في رأيه تكون خاضعة للكنيسة بقدر خضوع الغاية الزمنية للغاية الأبدية.²

ويخلص "توما الاكوينى" بأن السياسة تستمد قوتها بمقدار اقترابها وتمسكها من القانون الطبيعى. وعلى القانون الوضعى الواجب الأكبر في تفسير القانون الطبيعى مثل : تحديد العقوبة؛ ومقدارها: بالنسبة للجرائم التي يحرّمها القانون الطبيعى. "³، ويجب على السياسة أن تأخذ قوتها من القانون الطبيعى، وعلى القانون الوضعى أن ينسجم مع القانون الطبيعى، لأن القانون الطبيعى هو المرجعية فيما يخص تحديد العقوبات، ومقدارها بالنسبة للجرائم المحرمة من طرف القانون الطبيعى. " وإن هذا المضمون مبني على علاقة الإنسان بالله. فالإنسان مدفوع لأن يكون صورة لله في سلوكه. "⁴

3- "جان بودان" والحالة الطبيعية:

تناول "جان بودان" (1530-1596): الجوانب التالية في فلسفته السياسية:

1 - الدولة: -أرجع تكوينها إلى التجمع البشري والذي يتكون من جماعات متألّفة تحكم بواسطة القوى العظمى (السيادة) وبالعقل؛ بينهما مصالح مشتركة؛ والملك هو ظلّ الله في

¹ -William EBEN : Great Political Thinkers From Plato to Present. USA.1969. p 219.

نقلا عن القانون الطبيعى ص28

² -حوريّ توفيق مجاهد، الفكر السياسى من أفلاطون الى محمد عبده، مرجع سابق، ص181.

³ إبراهيم إياضة، عبد العزيز الغنام، تاريخ الفكر السياسى. ص 123. نقلا عن المرجع نفسه ص 28

⁴ يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط، القاهرة، 1965. ص.128. نقلا عن المرجع نفسه ص 51

الأرض. وأن مصدر كل سلطة الأرض هو الله الذي يفوض من يختاره من بني البشر في هذه السلطة، كما يحكم هذا التجمع قانون. هذا القانون: يحكم العامة والخاصة أمامه سواء؛ وأن من يحاول الخروج على هذا القانون لا يمكن أن يتهرب من القوة الإلهية.¹ يرى بودان أن المواطنين يتساوون أمام السلطة العليا، والقانون الطبيعي هو المصدر الأول للسلطة العليا في الدولة. " وقد أشار إلى أن المواطنين قد لا يختلفون في الحقوق والامتيازات والمرتبات. ولكنهم متساوون أمام السلطة العليا والقانون الطبيعي. كما أن على الحاكم أن يراعي تعهداته مع غيره من مساعديه وكذلك رعاياه لأنه المصدر الأول للسلطة العليا في الدولة وضمان سلامة كيانه السياسي ".²، لم يضع بودان نظرية واضحة في الغاية من الدولة، إلا أنه أرجع نشأتها إلى العائلة التي يعتبرها الخلية السياسية الأولى وهذا يظهر في تعريفه للدولة بما يلي: إن الجمهورية هي الحكم المستقيم لعدة أسر، ولما هو مشترك لديها شرط أن يتوفر لها قوة سيادة، والجمهورية يعني بها الجماعة السياسية أي الدولة.³

كما أوضح "بودان" أنه ليس من الضروري أن يتفق شكل الدولة مع شكل الحكومة (الحكومة علاقتها بالدولة جزء بكل) المنظمة لعلاقتها والقانون الحاكم ، فالدولة تجدها عناصر السيادة الموجودة فيها (الحكومة)؛ ومن ثم تتشكل على ثلاثة أنواع هي: الموناركية، الارستقراطية، و الديمقراطية: وكل شكل من هذه الأشكال قد تكون له حكومة من شكل مختلف. الدولة الديمقراطية قد يكون لها حكومة موناركية كما في إنجلترا مثلا تتمثل في الملك أو الملكة، كما أن حكومة الجمهورية قد تكون السيادة في يد شخص واحد هو رئيس الدولة، والدولة الارستقراطية تكون السيادة في يد أفراد قبائل. أما حينما تكون السيادة في يد الأغلبية أو في يد كل المواطنين فإن الدولة تكون ديمقراطية. إلا أن بودان فضل حكومة

¹ -محمد علي محمد، - السياسة بين النظرية والتطبيق، مرجع سابق، ص 117.

² -عبد الكريم.أحمد: أسس النظم السياسية: ص 48. نقلا عن المرجع نفسه ص52

³ -موسى إبراهيم ، الفكر السياسي الحديث والمعاصر، مرجع سابق، ص59

الفرد الواحد " ¹ وصياغة فلسفة "بودان" تدعو إلى دولة قومية ، فلقد دافع كثيرا عن الحكم الملكي والمطلق منه بصورة خاصة وتبرير ذلك في نظره هو تركيز السيادة في شخص الملك، لأن ذلك يقضي على المصالح الطبقية وتضاربها. ، إن فلسفة بودان السياسية تركز أساسا على نظريته في السيادة فلقد عرف العالم بودان من خلال هذه النظرية .ويوجد في المجتمع سلطات كثيرة إلا أن السلطة ذات السيادة هي التي تميز الدولة عن سائر التجمعات في الدولة. وعرف السيادة بأنها السلطة العليا التي يخضع لها المواطنون والرعايا، ولا يحد منها القانون. ² ، " كما يساعد على إستقرار النظام السياسي في الدول الواسعة؛ فهو ينشد دولة قومية بلا عدوان وملكية بلا تحكم؛ متسامحا دينيا، ومتماسكا أخلاقيا فقد أخرج نسقا فلسفيا قائما على المعرفة العلمية خلص السلطة السياسية من اللاهوت " ³.

وناقش بودان دور البيئة الطبيعية الهام في تشكيل السلوك الإنساني: والتاريخ ما هو إلا إنعكاس عقلي لحضارات وثقافات ونظم إنسانية. وأن السيادة هي السلطة العليا المنظمة لشؤون المجتمع والخاضعة لقانون عام ، والجميع أمامه سواء. كما أوصى الحاكم بضرورة الالتزام بتعهدات وموathيق مع الشعب ، ومع مساعدته: بذلك فإن قواعد القانون الطبيعي لها أثر في فكره السياسي. ⁴

4- "هوجو جروتوس" والحالة الطبيعية:

إن إسهام غروسيوس في الموضوع الخاص بالقانون المتعلق بالقانون الدولي يتجاوز حدود النظرية السياسية . وتكمن أهميته إلى هذا الأخير في المبادئ الفلسفية التي كان يقيم موضوعه الخاص، وعرضه بوجه خاص في المقدمة التي مهد بها لمؤلفه الكبير . وكان من

¹ - محمد علي عبد المعطي، السياسة أصولها وتطورها في الفكر الغربي، ص 215. . نقلا عن القانون الطبيعي ص53

² - إبراهيم موسى، الفكر السياسي الحديث والمعاصر، مرجع سابق، ص 61.

³ إبراهيم درويش، - الدولة، د. ط. د ت ن: ص 281. . نقلا عن المرجع نفسه ص 53

⁴ - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 210

النتائج التي لابد منها في القرن السابع عشر. أنه يجب أن يستشهد بالفكرة التي كان موضع التسليم بها عموماً وهي فكرة وجود قانون أساسي أو قانون للطبيعة يقع خارج القانون المدني لأي شعب وملزم لجميع الشعوب ولجميع الرعايا والحكام على حد سواء، بسبب ما ينطوي عليه من عدل في حد ذاته.¹، وإن القانون الطبيعي في نظر غروسيوس هو ما يمليه علينا العقل السليم و يتفق مع مبادئ الأخلاق، وإن هذا العقل هو ما يجعلنا نعرف عملاً ما إذا كان أخلاقياً، نزيهاً أو غير نزيه تبعاً لتوافقه أو عدم توافقه الضروري مع الطبيعة العاقلة والاجتماعية.²

كتب "جروتيوس" (1583م-1645م) كتاباً عن الحرب والسلام سنة 1625م: قدم

فيه شرحاً لفكرة القانون الطبيعي: بوصفه مجموعة من المبادئ التي يدركها العقل والملزمة للمواطنين والحكام. كما تناول في كتابه بأن سلطات الحاكم التي كانت في البداية في حوزة الشعب؛ ولكن الشعب يتنازل عنها للحاكم. وبمقتضى التنازل يكون للحاكم الحق في عمل ما يراه لخير الأمة، وطاعة واجباته لأنه مفوض من الله. " ³ . هنا يتلاقى جروتيوس مع روبرت فيلمر في نظرية التفويض الإلهي، التي تقول بأن الملوك أو الحكام مفوضين من الله لكي يحكموا الناس. " وكتب أيضاً كتاب حقيقة الدين المسيحي سنة 1627م يعرض فيه أساس هذه المسيحية المشتركة (كاثوليك و بروتستانت). وأشار في كتابه إلى أن التقوى القائمة على ما هو مشترك في التأمّلات المذهبية المختلفة تعدّ أساساً كافياً للتوفيق بين الكاثوليك والبروتستانت".⁴، فالقانون الطبيعي عند غروسيوس يمليه العقل السليم، الذي يبين

¹ -جورج سبايين، تطور الفكر السياسي، ترجمة رشيد البراوي، الجزء الثالث، تقديم أحمد سويلم العمري، ص 139

² - إبراهيم موسى، الفكر السياسي الحديث والمعاصر، مرجع سابق، ص 89.

³ دليل ببرنز: - المثل السياسية: ترجمة لويس إسكندر، القاهرة. مؤسسة سجل العرب 1964. ص 179. . نقلا عن

القانون الطبيعي ص 54

⁴ أميرة حلمي مطر، في فلسفة السياسة، ص 91. نقلا عن المرجع نفسه ص 54

أن في فعل ما، إذا كان لديه صفة الانحطاط الأخلاقي أو الضرورة الأخلاقية طبقا لما إذا كان متماشيا مع الطبيعة العاقلة أم لا.¹

ودرس "جروتوس" ظاهرتين هما:

أ- الملكية: أشار بأن الأشياء في الأصل مشاعة بين الأفراد في العصر الطبيعي؛ حيث كان الأفراد على جانب كبير من الطهارة والسذاجة، ولكن لما تضاعف الجنس البشري وإرتقى إستشعر حاجيات ورغبات جديدة فأصبح البعض انتهازيا يقتتص الفرص للحصول على ما يضمن له البقاء ومن هنا نشأت ظاهرة الملكية². و ربما ترجع هذه الظاهرة إلى قول أفلاطون: "إن ظاهرة الملكية أمر يرجع إلى أن الناس يختلفون في المواهب والأمزجة لمبدأ الفروق الفردية ومن ثم يؤدون بعض الأعمال بدرجة متفاوتة فيما بينهم؛ و أن المهارة تكتسب فقط عندما يكرس الناس جهودهم في أداء عمل معين، يتفق مع استعدادهم الطبيعي. و أن جميع الخدمات والسلع يزداد إنتاجها، و جودتها حين يقوم الفرد بأداء العمل أو الوظيفة هيئة الطبيعة لها"³. وإن الطبيعة أعطت الفوارق بين البشر و أنها رشحت الناس لممارسة وظائفهم في المجتمع فهناك من هو مؤهل لكي يكون حرافيا وآخر لكي يكون جنديا وآخر لكي يكون حاكما، يرى أفلاطون أن البشر مختلفين من حيث القدرات، وتحدث في كتابه الجمهورية عن العدالة التوزيعية، وعن كيفية توزيع المهام والثروات في المجتمع. وأن الدولة تنشأ عن عجز الفرد بالاكتماء بذاته⁴. " والملكية الفردية حق طبيعي سابق على قيام أي تنظيم؛ فهو مرتبط برقي التنظيم الذي تنتوع فيه الحاجات؛ لذلك يلزم التنظيم عند مباشرته

¹ -جورج سباين، تطور الفكر السياسي، مرجع سابق، ص 141

² عبد الفتاح غنيم، نحو فلسفة للسياسة، ص 176. . نقلا عن القانون الطبيعي ص 54

³ أفلاطون، الجمهورية، ص 310. نقلا عن المرجع نفسه ص 55

⁴ -أفلاطون، الجمهورية، تقديم جيلالي اليابس، تحت إشراف علي الكنز، أنيس للنشر، 1990، الرغاية، الجزائر،

لمبدأ السيادة بالمحافظة على الملكيات الفردية" ¹، "ولما كان القانون الطبيعي قوامه العدالة ، والعدالة تعني عدم التعدي على حقوق الآخرين كما تحددها قوانين الدولة التي يعيش فيها الإنسان والمواطن؛ فالإنسان الذي يريد تطبيق العدالة بطريقة تخدم مصالحه وتحافظ على ملكيته يحترم القوانين الوضعية؛ لأن قواعد القانون مقيدة. أما قانون الطبيعة فلا مفر منه." ²

إن القانون الطبيعي هو أساس العدالة، والعدالة تعني عدم التعدي على حقوق الآخرين، والقانون الطبيعي هو مرجعية المشرع والقانون الوضعي.، فأوامر العقل السليم هي ما نعني به الطبيعة البشرية وطبيعة الأشياء. وإنه يجب أن يكون كذلك على هذا النحو، فالإرادة تدخل في الموقف باعتبارها عاملاً، ولكن مثل هذه الإرادة أو هذا الأمر من جانب الله أو الإنسان لا تخلق طبيعة القانون الإلزامية. ³

ولما كانت مجموعة القواعد الأزلية الثابتة هي التي تضمن مفاهيم العدالة والمساواة ، و يعترف بها الناس كمبادئ طبيعية للتعايش الإجتماعي هي التي تخلق الفرص لكل ما يضمن حق ملكية الإنسان حياة وتملك واستقرار. ⁴

وإن القوانين الأزلية هي التي تضمن مفاهيم العدالة والمساواة وهي التي تضمن الاستقرار، والوثام الاجتماعي وهي التي تضمن أيضاً الاستقرار وحماية الحياة والملكية للأفراد في المجتمع ⁵، "ولقد وجدت نظرية الملكية طريقها الطبيعي في العصر الطبيعي لأن الأفراد قبل انضمامهم تحت نظام مجتمع سياسي: كانوا يعيشون في مجتمع ساذج يحكمه قانون الطبيعة؛ ولأفراده حقوق طبيعية ثم قضى تكوين المجتمع السياسي (العقد) على هذه الفضائل (مثل السذاجة وعدم الاكتراث وحب التملك دون مراعاة الآخرين) ، وظهرت ظاهرة

¹ - أبو اليزيد الميت، النظم السياسية والحريات العامة، ص 32. نقلا عن المرجع نفسه ص 55

نقلا عن القانون الطبيعي ص 55. Bydir.F : The History of Natural law. IBID. p78 ²

³ - جورج سباين، تطور الفكر السياسي، مرجع سابق، ص 141.

⁴ - إبراهيم موسى، الفكر السياسي الحديث والمعاصر، مرجع سابق، ص 90.

⁵ - إبراهيم موسى، المرجع نفسه، مرجع سابق، ص 90.

التملك لكي يسير الإنسان في غابة الوحوش".¹ يرى جروتشوس مثل روسو أن الطبيعة في البداية كانت ملكية مشاعة بين الناس وأن الملكية الفردية ظهرت فيما بعد، ويلتقي روسو مع ماركس في فكرة ملكية مشاعة الأراضي. ويرى غروسويس مثل فلاسفة العقد الاجتماعي أن القانون الطبيعي هو الذي يسير الحالة الطبيعية، "ونتيجة لهذا فإن نظرية سياسية مبنية على القانون الطبيعي كانت تشتمل على عنصرين ضروريين العقد الذي به ظهر مجتمع أو حكومة كلاهما إلى عالم الوجود وحالة الطبيعة القائمة بصورة مستقلة عن العقد وكانت الأخيرة تنطبق على حالتين مهمتين: العلاقات بين الأفراد بصفاتهم الخاصة، والعلاقات بين الدول ذوات السيادة".²

(2) - ظاهرة الرق:

ذهب "جروتشوس" إلى أن الخدمة الصحيحة أن يضطر الفرد إلى العمل طوال حياته ليعيش ويحصل على كل ما هو ضروري لحياته. وإن لهذه الظاهرة سببين لوجودها: الأول:- تعاقد حر بين السيد ورفيقه.

الثاني: حق الانتصار في الحرب فالمنتصرون لهم حق قتل الأعداء ، و أن يجعلوهم أرقاء لهم ويتركوهم أحياء. بمعنى أن من حق المنتصر أن يترك لهؤلاء (حق الحياة) في نظير الإستثار بحقهم في (الحرية المدنية) .³ نرى هنا أن غروسويس يرى أن ظاهرة الرق طبيعية. فهذا أمر مناف للمنطق وللعقل أو الشرائع، فلا العقل ولا الدين يبرران وجود العبودية كما يقول جون لوك فهذه الظاهرة إن وجدت في التاريخ البشري فهي ظاهرة عرضية. وإن اهتمام روسو بالحرية جعله يتناول العبودية، وهو لم يقرها بل هاجمها بشدة كان سباقا على عصره في هذا المجال حيث رأى أن الفرد الذي يصبح عبدا لا يرجع هذا

¹ - بطرس غالي. محمود خير عيسى، - المدخل في علم السياسة؛ ص 101. نقلا عن القانون الطبيعي ص 55

² - جورج سباين، تطور الفكر السياسي، مرجع سابق، ص 147.

³ - عبد الفتاح غنيم، نحو فلسفة السياسة، ص 176. نقلا عن القانون الطبيعي ص 55

بسبب طبيعته بل بسبب طبيعة المجتمع نفسه. فالعبودية مفروضة على الشخص الذي فرض عليه المجتمع نمط حياة العبيد¹. " فالعبودية مرفوضة ليست فقط لأنها غير شرعية لكنها أيضا غير منطقية ولا تعني أي شيء"²

"وقد ذكر "أرسطو" أن أية جماعة تتألف من أنواع مختلفة من الناس: يؤدي كل منهم عمله ويقوم بوظيفته في المجتمع ، كأن يكون راعيا أو صانعا أو تاجرا أو مستشارا في الرأي هذا فضلا عن إختلافهم في الغنى والفقير فإن بعضهم أغنياء وأكثرهم فقراء؛ وأن الناس بعضهم أحرار بطبيعتهم. و بعضهم أرقاء بطبيعتهم وأن الرق حق على هؤلاء وهم أهل له. والرق في العالم منذ القدم؛ وهو جزء من نظام الطبيعة. وأشار "الايكويني" إلى أنه نظام معقول"³.

إن أرسطو كان يملك نظرة استقصائية وغير إنسانية حيث كان يرى أن العبيد ليسوا بمثابة بشر وأنهم عبارة عن آلة، وظيفتها تسيير الآلة الاقتصادية في المجتمع اليوناني الطبقي آنذاك..، "وعن ظاهرة الرق أجاب روسو "جروتويس" قائلا إن العبودية منطق مرفوض ودليله أن الشعب الذي يهب نفسه لملك أو السيد لابد أن يكون شعبا قبل هذه الخطوة ، لأن الهبة نفسها عمل سياسي. فالشعب الذي يختار ملكه يسبق الملك في التكوين. كما أنه لا يمكن للملوك أن يجبر غيره حتى أولاده على هذا المسلك"⁴. ، فالعبودية شيء مصطنع وليس طبيعيا وليس لإنسان سلطان طبيعي على آخر.⁵ وإن الإنسان حر حرية طبيعية وكان

¹-حورية مجاهد توفيق، الفكر السياسي من أفلاطون الى محمد عبده، مرجع سابق، ص454

² - jean. jacques rousseau, du contrat social , enag. alger, reghaia, algerie,(2012). P10

³ محمد فتحي عبد الله. ميلاد زكي ، - أرسطو والمدارس المتأخرة ، الإسكندرية، منشأ المعارف. د.ت.ن.

ص156. نقلا عن القانون الطبيعي، ص 56

⁴ -لوك هبوم روسو ، العقد الإجتماعي، ترجمة الدكتور عبد الكريم أحمد: القاهرة. الدار القومية للنشر. د.ت.ن.

ص 89. نقلا عن المرجع نفسه ص 56

⁵- حورية مجاهد توفيق، الفكر السياسي من أفلاطون الى محمد عبده، مرجع سابق، ص455

يتمتع به منذ البداية في حالة الفطرة أو الحالة الطبيعية، ولا يمكن أن يهب نفسه أو ذاته لأحد كما يرى ذلك لوك وروسو، وأن العبودية هي شيء منافي للطبيعة والعقل والدين.

وكانت المنفعة العملية لنظرية القانون الطبيعي تعتمد إلى حد بعيد على حقيقة أنها أدخلت عنصرا معياريا في القانون والسياسة أي أدخلت مجموعة من قيم رفيعة كالعقل والوفاء والتعامل المنصف يمكن بها الحكم على أداء القانون الوضعي وبناء على ذلك كانت سابقة على جميع ما بذل من جهود فيما بعد من أجل تأويل القانون تأويلا أخلاقيا.¹

"وأشار جروتشوس" بأن هناك نظاما شاملا يتماشى مع مقتضيات العدالة؛ معتبرا أن العدالة هي حلقة الاتصال بين الحقيقة وسلامة القانون ، ولذا فقد أشار بأن المجتمع الذي يسوده النظام والاستقرار مؤثر على سلامة قوانينه ، لأن القانون المدني وليد الأحاسيس الطبيعية التي تقود الناس إلى إيجاد الحلول الأكثر تماشيا مع سعادتهم ومصلحة المجتمع.²

"كما ذكر بأن محور سيادة كل دولة:- في إقليمها على أساس المساواة الكاملة بين الدول جميعا؛ فليس لدولة أن تصنع قوانين تسري على دولة أخرى؛ وكل دولة هي الفصيل النهائي بمقتضى سيادتها ، فيما يتصل بمصالحها. وأنه رغم هذه الخاصية السيادية التي تتمتع بها الدول فإنها مع ذلك خاضعة للإلتزام بالأخلاق بمقتضى القانون الطبيعي".³ ويناشد جروتشوس "الإصلاح الذي يؤدي إلى الاستقرار.

فقد كانت آراء "جروتشوس" إلى إقرار الفضيلة؛ وأن الحاكم مسؤول أمام شعبه يرضى مصالحهم ويحافظ عليهم. أما من ناحية الملكية التي أرجعها إلى الاختلاف في أمزجة الناس

¹ -جورج سبائين، تطور الفكر السياسي، مرجع سابق، ص 145

² أبو زيد الميث ،-النظم السياسية والحريات العامة، ص 157. نقلا عن المرجع نفسه ص 56

³ عبد الكريم أحمد، -أسس النظم السياسية، ص 95. نقلا عن القانون الطبيعي ص 56

وتتنوع إتجاهاتهم فهو أمر طبيعي أن يمتلك الإنسان.¹ أما ظاهرة الرق فهو أمر لا يقبله العقل؛ لأنه قبل أن يكون حاكما لأبد من شعب إختياره. فكيف يختارون من يفقد إرادته ويبيع نفسه.-أما ما قصده أن يعمل الإنسان من أجل كرامته وفي خدمة غيره أمر مقبول.

5- "توماس هوبز" والحالة الطبيعية:

يرى " هوبز " (1588م-1679م) أن الحرية الحقيقية يجب أن تتقيد بالقانون الذي يقوم على العقل، وأن تخرج عن تلقائيتها الهوجاء . وأن تتقيد أيضا بالقانون الطبيعي الصادر عن العقل.² حيث كتب كتابا في: مبادئ القانون الطبيعي والسياسي ودونه عام 1640 م ، وقسمه إلى ثلاثة أقسام - القسم الأول:- في الطبيعة الإنسانية أو المبادئ الأساسية للسياسة.-القسم الثاني:- في الخدمة الاجتماعية.

- القسم الثالث:- في المواطن." وقد بين في كتابه:-أن الطبيعة البشرية تشتمل على العقل إلى جانب الهوى: والذي يحمل الإنسان على الاجتماع والتعاون ، والشعور الذاتي:- بأن الإنسان ذئب لأخيه الإنسان والكل في حرب ضد الكل"³ . ، حيث كان يعيش في حالة حرب وكان في صراع وقتال مستمر مع أقرانه البشر لكي يدافع على حياته وملكيته، لقد تميزت علاقات الانسان بالإنسان بالريبة والشك وتوقع الحرب في كل وقت.⁴ ، وكان يعيش في حالة قلق، وخوف مستمر: حيث لم يكن هناك في هذه الحالة لا فلاحه، ولا زراعة ولا ملاحه، وكلما كان أفراد متناثرين متناحرين وفي اقتتال مستمر. وما دام كل إنسان عدو كل إنسان آخر لا ينبغي إلا مصلحته الخاصة ومنفعته الشخصية وحسب ولقد امتازت حياة

¹ - إبراهيم موسى، الفكر السياسي الحديث والمعاصر، مرجع سابق، ص 92.

² - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي ، مرجع سابق، ص 227

³ -يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، الطبعة الخامسة. القاهرة دار المعارف. 1969. ص 51.

⁴ -محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 227

الإنسان أيضا في الحالة الطبيعية بأنها كانت منعزلة وقذرة ووحشية وقصيرة فأصبح الانسان ذئب للإنسان.¹

* وله أيضا كتاب:- المواطن الذي ألفه عام 1642م. ويحتوي هذا الكتاب على أن الصراع يرجع إلى ثلاثة أساليب: أ- المنافسة .ب- عدم الثقة بالآخرين .ج- التطلع إلى المجد لتحقيق الشهرة.

لذا يحاول الناس التزود بالقوة للانتصار على الصراعات " ². ولقد تميزت علاقات الإنسان بالإنسان بالريبة والشك وتوقع الحرب في كل وقت، ويقول هوبز حينما يقوم الانسان برحلة يقوم بتسليح نفسه ويطلب حسن المصاحبة.³

"* وكتب كتاب "التتين" سنة 1651 المعروف بإسم الحكم الاستبدادي أو الدولة ذات النظام الديكتاتوري أو الحكم المطلق. وقد تضمن كتابه نظرة تحقير واستهانة للطبيعة البشرية. وكان من آرائه أنه خير للإنسانية أن تعيش في ظل حكم طاغية مستبدة؛ على أن تعيش في بلد يتعرض فيه القانون والنظام للزوال. " ⁴ ، كان هوبز يرى أن الانسان الطبيعي الذي كان في حالة الطبيعة أو في حالة الحرب، التي سبقت وجود الدولة ومؤسساتها أو الجهاز الاصطناعي كما يسميه هوبز، هو كائن أناني وشرير، ويعيش في صراع واقتتال مع أقرانه من البشر وكان ذئبا لأخيه الإنسان ⁵، وأن هذه الحالة هي حالة سلبية بآتم معنى الكلمة.

وقد تضمن كتاب "التتين" « the Léviathan » أن الدولة وجدت نتيجة احتياج اجتماعي بين الأفراد، للمحافظة على حياتهم و ممتلكاتهم؛ و أن للحاكم السلطة المطلقة في حكم الرغبة؛ ولا يحق لأحد معارضته، ولا محاسبته، وترتكز السلطة ومقاليد الحكم بين يديه،

¹ -محمد علي عبد المعطي، المرجع نفسه، ص226

² -موسوعة العلوم السياسية، ص 387. نقلا عن القانون الطبيعي ص 57

³ -محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص227

⁴ عبد الفتاح غنيمه، نحو فلسفة السياسة، ص 180. نقلا عن المرجع نفسه ص 58

⁵ -د.الإمام عبد الفتاح إمام، توماس هوبز فيلسوف العقلانية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1985، ص21

ويكون مسيطرا على السلطات بما يراه هو نافع للدولة وللمجتمع السياسي . فقد نال هذا الكتاب شهرة واسعة ، وإعتبر من أعظم أعمال "هوبز" ¹، ويعتبر هوبز من بين المنظرين الأوائل والمدافعين عن الحكم المطلق بواسطة العقل والمنطق . ويستنتج من تعريف القوة أن كل فرد يجاهد في تحقيق رغباته، وأن هذه الرغبات تختلف من فرد لآخر طبقا للتكوين البدني والمستوى الثقافي والخبرة ومن ثم فإن الناس يتساوون من حيث إقدامهم على إشباع رغباتهم.²

" كما كتب "هوبز" رسائل موجزة في السياسة أشار فيها إلى أن سلطة الملك واحدة لا تقبل التجزئة. وأن هذه السلطة تتضمن حق الملك المطلق في إعلان الحرب؛ وإقرار السلام وفرض الضرائب".³ ، وتخضع لإرادة الحاكم كل السلطة الاجتماعية وجميع القوانين والأخلاق في الدولة وسلطته غير محدودة، ولا تحد منه إلا قدرته، أوضح أيضا أن السيادة لا تقبل الانقسام ولا يمكن التنازل عنها.⁴

إن سلطة الحاكم هنا مطلقة نظرا لأنه لم يكن طرفا في العقد الاجتماعي ⁵، وأن له كل الحرية التصرف في السلطة بيد من حديد، وأن يفعل ما يشاء وأن عليه شرط واحد يجب أن يلبيه وهو حماية حياة المواطنين ، وتحقيق السلم والأمن الداخلي والخارجي للدولة . ويتمثل تفكير "هوبز" السياسي: في أن الدولة تأتي إلى الوجود نتيجة التعاقد بين الأفراد والحاكم.

نقلا عن 1 A.C. Gkayling , Philosophy of Further Thought oxford U.p.v , 1998.p 381.

القانون الطبيعي ص 58

² - محمد على عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 225

³ محمد على أبو ريان ، - تاريخ الفكر الفلسفي: الفلسفة الحديثة ، ط1. الإسكندرية، دار المعارف الجامعية ، 1969. ص 50. نقلا عن المرجع نفسه ص 58

⁴ - إبراهيم موسى، الفكر السياسي الحديث والمعاصر، مرجع سابق، ص 108

⁵ - فضل الله محمد إسماعيل، رواد الفكر السياسي الغربي الحديث، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، مكتبة بستان للمعرفة للطباعة للنشر وتوزيع الكتب، الطبعة الأولى، 2006، ص 24

فهي تبغي الأمن والطمأنينة أي أن الباعث الاجتماعي هو أساس تكوين الدولة¹، و يلجأ "هوبز" إلى تبرير سيادة القوة إلى فكرة العقد الاجتماعي: بأن الناس يتنازلون عن حقوقهم الطبيعية لشخص أو هيئة؛ وكلاهما ليس عضوا في العقد؛ ويكون الحاكم ليس ملزما بشيء كما أنه يحتفظ بحقوقه وحرياته. ومن هنا فله أن يفعل ما يشاء؛ وعلى الناس الطاعة و ينفهم الخيار إما أن يعيشوا في أمان معترفين بسلطان الحاكم ، و إما أن يرددوا إلى الفوضى وما يترتب عليها.²، إعتبر هوبز أن السلطة يجب أن تكون مطلقة فليس هناك من خيار إلا بين السلطة المطلقة والفوضى الكاملة. ويجب أن تتركز في الحاكم كل السلطة السياسية.³

2 - أشكال الحكومة: عند "هوبز"

إعتبر "هوبز" الحكومة عنده بمثابة الدولة وأرجعها إلى الأشكال التالية:

- 1 الشكل الموناركي: تركز السلطة في يد فرد واحد.
 - 2 الشكل الارستقراطي: تتركز السلطة في يد هيئة حاكمة.
 - 3 الشكل الديمقراطي: حينما تكون السلطة في يد الأغلبية.
- وليس ثمة شكل رابع. وفي كل شكل تتركز السيادة في يد السلطة المطلقة ولكن الفارق بين شكل وآخر؛ إنما يقوم في مدى كفاءة هذا أو ذاك في تحقيق السلم والأمن. "إلا أنه غلب الشكل الموناركي. لأنه رأى أن الإنسان بطبيعته أناني ينزع إلى تحقيق رغباته ومصالحه. فإن كانت السلطة في يد شخص واحد قل الشر ، وإذا كانت في يد هيئة كثرت الشرور. وإذا كانت في يد الأغلبية ازدادت الشرور أكثر فأكثر؛ وعن الهيئات المنظمة للدولة (قضائية تنفيذية وتشريعية) ، فإنها تستمد سلطتها من إرادة الحاكم.⁴ إن هوبز هنا يفضل أن

¹- محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 229.

² -محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 232.

³ - إبراهيم موسى، الفكر السياسي الحديث والمعاصر، مرجع سابق، ص 108

⁴ -محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، الصفحة 238 .

تكون السلطة في يد شخص واحد، وهو يفضل النظام الملكي على بقية الأنظمة الأخرى، لأن هذه الأنظمة لها مساوئ وشروء أكثر عن النظام الملكي حسبه.

3- الحالة الطبيعية أو حالة الحرب state of war عند "هوبز":

يرى "هوبز" أن الحالة الطبيعية أو حالة الحرب "state of war" كانت حالة نزاع وقتال وقلق مستمر بين أفراد متصارعين ، للحفاظ على أملاكهم وعلى حياتهم وكانت الحياة فيها قصيرة جدا وشحيحة وقذرة: حيث كان قلب الإنسان مليء بالخوف والقلق يصوب سلاحه دائما تجاه الآخرين ، رغبة في الدفاع عن نفسه وعن حياته ، ويرى "هوبز" أن الإنسان ليس كائن اجتماعي بطبعه، كما يرى "أرسطو" وإنما الإنسان كائن فردي بطبعه ، فلم تكن هناك فلاحه ولا ملاحه ولا زراعة ، وكل ما هناك إلا صراع وقتال، والعناصر الثابتة والوحيدة في هذه الحالة هي القوة والقتال ، والصراع المستمر من أجل البقاء،¹ نظرا لوجود غريزة حب البقاء في الإنسان، والتي هي متأصلة ووجودها أصيل في الإنسان ، وبأن الأفراد فيها كانوا عبارة عن ذرات متناثرة متناحرة ، ومتصارعة في تنافس وقتال مستمر .

ومن هنا يتضح أنه في الوقت الذي يعيش فيه الإنسان دون سلطة مشتركة تقيهم جميعا في الرهبة ، يكونون في الحالة التي تسمى حربا، وهي: "حرب بين كل إنسان وكل إنسان آخر". فلن الحرب ليست المعركة فقط ، أو فعل القتال ، بل هي فترة من الزمن تكون فيها إرادة التنازع معلومة بما فيه الكفاية²:- وبالتالي فلن فكرة الزمن يجب أخذها بعين

¹- محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، الصفحة 227

²-توماس هوبز ، الليفيثان (التتين) الأصول الطبيعية والسياسية لسلطة الدولة ، ترجمة ديانا حبيب حرب -وشرى صعب ط. 1. أبو ضبي ،هيئة أبو ضبي للثقافة والتراث، كلمة، 2011، ص135.

الإعتبار في طبيعة الحرب ، كما في طبيعة الجو . فكما أن طبيعة الجو السيئ لا تكمن في هطول الأمطار مرة أو مرتين ، بل في ميل إلى هطول المطر لعدة أيام متواصلة.¹

" كذلك فإن طبيعة الحرب لا تقوم على القتال الفعلي وحده ، بل أيضا على الاستعداد المعلوم لهذا القتال، طالما أنه لا يوجد ما يؤكد العكس. وكل زمن ماعدا ذلك هو زمن السلم. بالتالي فلن كل ما ينتج عن زمن الحرب ، فهو حرب، حيث أن كل إنسان عدو لكل إنسان "². فهي إذن حالة حرب الكل ضد الكل، فهي حالة صراع و اقتتال مستمر من أجل المحافظة على الملكية والحياة، وأن الانسان كان يصوب سلاحه دائما نحو الآخرين، والخوف هو الذي يدفعه الى ذلك ³. "وينتج أيضا عن الزمن الذي يعيش فيه البشر دون أمان ، غير ما تؤمنه لهم قوتهم الخاصة وقدرتهم الخاصة على الابتكار . في حالة كهذه لا مكان للعمل، لأن ثماره لا تكون مضمونة ، وبنتيجة ذلك لا زراعة للأرض ، لا ملاحه ولا استخدام للسلع التي قد تستورد بالبحر، ولا بناء ضخما ، والمعرفة لسطح الأرض ، ولا حساب للزمن ، ولا آداب، ولا مجتمع، و الأسوأ من هذا كله ، وجود خوف متواصل ، وخطر موت عنيف ، وكون حياة الإنسان وحيدة بائسة بغیضة قاسية وقصيرة. " ⁴

قد يبدو غريبا لمن يفكر ويزن جيدا هذه الأمور ، " أن الطبيعة تفرق بين البشر. وتجعلهم قادرين على إجتياح وتدمير بعضهم البعض. وقد يرغب بالتالي في ذلك، لأنه لا يثق بهذا الاستنتاج الذي ينطلق من الأهواء ، في أن يتأكد من الأمر بالتجربة. "⁵ - فلندعه يتأمل نفسه: حين يقوم برحلة ، فلفه يتسلح، ويبحث عن الصحبة الجيدة ، وحين يخلد إلى النوم فلفه يقلل أبوابه. وحتى عندما يكون في بيته ف إنه يغلق خزائنه. وهذا مع معرفته أن

¹ - توماس هوبز ، الليفيثان (التنين)، مرجع سابق، ص135

² - توماس هوبز ، الليفيثان (التنين)، مرجع سابق، ص135

³ - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص227

⁴ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

⁵ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

هناك قانونا، وموظفين عامين مسلحين لينتقموا لأي أذى قد يلحق به ، ما هي إذن نظرته إلى أمثاله والآخرين حين يسافر مسلحا ، وإلى مواطنيه حين يقفل أبوابه ، وإلى أطفاله وخدمه حين يغلق خزائنه ؟ ألا يتهم بأفعاله هذه الجنس البشري ، بقدر ما أتهمه أنا بكلماتي؟ لكن أيا منا لا يتهم بذلك الطبيعة البشرية. إن رغبات الإنسان وأهوائه الأخرى ليست في حد ذاتها خطايا، كذلك الأمر بالنسبة للأفعال التي تنتج عن تلك الأهواء ، إلى أن يعرف قانونا يمنعها ، وهذا ما لن يحصل قبل أن تسن القوانين ، ولا يمكن أن يسن أي قانون إلى أن يتم الاتفاق على الشخص الذي سيسنه.¹

" وقد يعتقد بعضهم أنه لم يكن ثمة وجود لزمن أو لحالة حرب كهذه ، وألأعتقد أن هذه الحالة لم تكن قط معممة في جميع أنحاء العالم ، ولكن هناك أماكن عديدة حيث يعيش الناس هكذا الآن، و هكذا فإن الشعوب الوحشية في أماكن عديدة ، من أمريكا لا يملكون أي حكومة، باستثناء حكم العائلات الصغيرة ، التي يعتمد الوفاق فيها على الشهوة الطبيعية ، وهم يعيشون إلى اليوم بالطريقة الوحشية. ومهما يكن الأمر ، يمكن إدراك طريقة الحياة حيث لا وجود لقوة مشتركة ، يخشاها الجميع من خلال طريقة الحياة التي يؤول إليها الذين كانوا يعيشون في ضل حكومة مسالمة ، حين يقعون في الحرب الأهلية.²

إن هوبز يرى أن الدولة هي التي تحد من مساوئ حالة الحرب، وتقضي عليها وهي التي ستضمن السلم والأمن الغير موجود في حالة الحرب، وستضمن لهم بقائهم في هذه الحياة. "ولكن حتى لو لم يكن هناك زمن كان فيه الأفراد في حالة حرب بعضهم مع بعضهم الآخر، غير أن الملوك وأصحاب السلطة السيادية في كل الأزمنة ، بسبب استقلاليتهم، يغار بعضهم على البعض باستمرار ، ويكونون في حالة وفي وضعية المتصارعين ، حيث يصوب أحدهم سلاحه باتجاه الآخر ، و يحدجه بعينييه أي:- أنهم يضعون حصونهم وحاميتهم

¹ - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 231

² -توماس هوبز، الليفياتان (التنين)، مرجع سابق، ص 136

ومدافعهم على حدود ممالكهم ، ويرسلون على الدوام الجواسيس إلى جيرانهم وهي وضعية حرب. ولكن بما أنهم بذلك يحمون رعاياهم ، لا ينشأ من جراء ذلك البؤس الذي يرافق حرية الأفراد.¹

وينتج أيضا عن حرب كل إنسان ضد كل إنسان آخر و حرب الكل ضد الكل، أن لاشيء يمكن أن يكون ظالما. وإن أفكار الصواب والخطأ، العدل والظلم، لا مكان لها هنا، حيث: لا سلطة مشتركة، و لا وجود للقانون، و حيث لا قانون، لا ظلم. إن القوة والغش هما في الحرب الفضيلتان الرئيسيتان.²، ولم يكن ثمة تمييز بين الصواب والخطأ لقد كان الانسان مدفوعا برغباته وشهواته ونزواته الكامنة فيه، ولم يكن في الإمكان أن نقيس بمعيار ما أخلاقية الفعل أو عدم أخلاقيته، لأن ذلك المعيار لم يكن قد وجد بعد³، "وليس العدل والظلم من ملكات الجسد أو الفكر، ولو كانا كذلك لتوجدا في إنسان وحيد في العام :-تم اما كحواسه وأهوائه، وأنها صفات ترتبط بالبشر في مجتمع، وليس وحدهم. وينتج عن الحالة الطبيعية:- أنه لا ملكية ولا سلطة، ولا تمييز بين ما هو لي، وما هو لك، بل إن ملك كل إنسان هو فقط ما يستطيع الحصول عليه، طالما أنه قادر على الاحتفاظ به. هذا بالنسبة إلى الحالة السيئة التي وضع الإنسان فيها بمحض طبيعته، مع أن لديه إمكانية للخروج منها، وهي تكمن في جزء: منها في أهوائه والجزء الآخر في عقله.⁴

ولم يكن ثمة تمييز بين ما هو عادل وبين ما هو ظالم، فما دام القانون لم يوجد بعد فلا يمكن أن توجد العدالة هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ليست العدالة وليس الظلم من

¹ - توماس هوبز، الليفيثان (التتين)، مرجع سابق، ص 136

² - توماس هوبز، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

³ - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 227

⁴ - المرجع نفسه، ص 137

قدرات الانسان وملكاته مثل الإحساس والانفعال ، ومن ثم فليس ثمة عدالة طبيعية توجد في الفرد، وإنما توجد العدالة متى ارتبط الانسان بالآخرين عن طريق الدولة المشرعة للقانون.¹

"إن الأهواء التي تجعل الإنسان يميل إلى السلام هي:- الخوف من الموت ، والرغبة في الأشياء الضرورية لحياة مريحة ، والأمل بأن يحصل عليها بعمله. ويطرح العقل بنودا مناسبة للسلام قد يتوافق الناس عليها ، هذه البنود هي ما يسمى أيضا بالقوانين الطبيعية"².

4 العقد الاجتماعي: عند "هوبز":

فرض "هوبز" ثمة غالبا على الشعب والأفراد ، لتأمين وحماية حياتهم وممتلكاتهم وحياة الفرد والمحافظة على سلامة حياته وأمنه، لأنه في رأيه يواجه خياران لا ثالث لهما إما الرضا بالحكم المطلق ، بكل ما يترتب عليه من تجاوزات؛ وإما يتحمل تبعات الفوضى الكاملة. ويتمثل هذا الموقف مقولته ذات الجذور المسيحية والإسلامية. أن يعيش الشعب تحت لواء حاكم ظالم خير له ، من أن يبيت ليلة واحدة بدون حاكم (ابن تيمية) حاكم ظلم خير من فتنة تدوم . حيث يقول "هوبز" : "إننا نقرر أن قيام الدولة يتم حيث توافق وتتعاقد الأغلبية أو كل فرد مع كل فرد آخر على أن يتنازلوا عن حقوقهم لشخص يمثلهم أو لهيئة في مقابل منحهم السلام والطمأنينة والحماية ، وإن المشاعر التي تنزل الرجال إلى السلام هي الخوف من الموت، والرغبة في الأشياء الضرورية لعيش مريح، والأمل في الحصول عليها من خلال نشاطهم. والعقل يوحى ببنود سلام مناسبة، يمكن جعل الرجال يتفقون عليها. هذه البنود هي ما يسمى بطريقة أخرى بقوانين الطبيعة."³ . وإن الناس سئما حالة الاقتتال

¹ -محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص227

² -توماس هوبز، الليفيثان (التنين)، مرجع سابق، ص137.

³ - Thomas Hobbes: Léviathan: Traité de la matière, de la forme et du pouvoir de la république ecclésiastique et civile, traduit de l'anglais par Philippe Foliot, Édition réalisée le 3 janvier 2004 , revue et corrigée le 12 juin 2012 à Chicoutimi, Québec canada. P120.

وأدركوا أن الحرب أسوء الشرور ، فاجتمعوا واتفقوا على التنازل عن حقوقهم كافة ، وتعاقدوا على أن يجعلوا السلطان الاجتماعي في يد شخص واحد يملك كل الحقوق ، ولا يترتب عليه إلا واجب واحد هو صيانة الأمن وبذلك غدت الحياة في المجتمع خيرا.¹

وهنا يقول كل فرد لكل فرد آخر: "لقد أعطيت السلطة وتنازلت عن حقي في حكم نفسي إلى ذلك الشخص ، أو لتلك الهيئة على شريطة: أن تعطيه أنت نفس الحق الذي يخصصك ، و السلطة في كل فعل يقوم به ، من الواضح أن الرجال الذين يتمتعون بالحرية المطلقة يمكنهم ، إذا رغبوا في ذلك ، إعطاء السلطة لرجل واحد لتمثيل كل واحد منهم ، وكذلك إعطاء هذه السلطة لتجمع من الناس ، أيا كان . وبالتالي يمكنهم إخضاع أنفسهم ، إذا رأوا ذلك مناسباً ، إلى ملك مثلهم مثل أي ممثل آخر."² .

ويجب أن يكون هناك إتفاق الجميع على التنازل عن حقوقهم التي كانت السبب في إحداث حالات القتل والقتال . ولهذا الاتفاق والتنازل وهما جوهر العقد: - أنه لشخص مصطنع يستطيع أن يتصرف بالإنانية ، عن كل فرد شارك في إقامته ، وهذه المشاركة توجد الوحدة بين جميع الأفراد . إنها أكثر من مجرد موافقة أو معاهدة: إنها وحدة حقيقية للجميع في شخص واحد ونفس الشخص ، تتحقق بإتفاق كل منهم مع كل منهم ، بحيث يبدو الأمر كما لو كان على كل منهم أن يقول لكل منهم: أنا أصرح لذلك . الشخص ، أو لهذه المجموعة من الأشخاص ، وأتنازل عن حقي في أن يحكمني هذا الشخص ، أو هذه المجموعة ، بشرط أن تتنازل عن حقك له ، وتفوض كل أفعالك بنفس الطريقة . وبهذا ، فإن الجمهور متحدًا في شخص واحد يسمى جمهورية ، في اللاتينية سيفيتاس . هذا هو تكوين ذلك الإله الفاني الليفياتان ، أو بالأحرى ، التحدث بإحترام أكبر عن ذلك الإله الفاني.³

¹ - محمد علي عبد المعطي ، الفكر السياسي الغربي ، مرجع سابق ، الصفحة 229

² - Thomas Hobbes : Léviathan: Traité de la matière, de la forme et du pouvoir de la république ecclésiastique et civile, du chapitres 17a 31.p25

³ - Thomas Hobbes , Leviathan , op.cit,p12.

" ولكي تضمن لهذا الشخص المصطنع ، لابد أن يكون التنازل أبديا لا رجعة فيه فهو يحد من حريات الأشرار. والذي يتوفر فيه كل هذه المقومات هو الدولة التي يسميها "هوبز" بالعملاق أو التتين: وعليه لا يحق للرعايا الثورة ضده، ولا يحق لهم تغيير شكل الحكم. وفي مقابل هذا لا يستطيع صاحب السيادة أن يتخلى عن سيادته".¹

يرى هوبز أن السيادة مطلقة لا تحدّها حدود أو قيود، إذ أن الأفراد تنازلوا بمقتضى العقد الاجتماعي عما كان لهم من حريات وحقوق في حال الطبيعة، وهو تنازل لا يمكن أن يتصوره إلا كاملا وغير مشروط، وإلا أتيح للفوضى الفطرية، أن تعود من جديد. ومعنى هذا أن الانسان لا يستطيع أن يسترد ما أعطاه للحاكم²، "إلا أنه تراجع مشيرا أن للإنسان الحق الكامل في المقاومة ، حين تصبح حياته في خطر، لأن الإنسان من طبيعته أن يختار أقل الشرور ، التي قد تحدث من المقاومة أكثر من الموت الذي ينتج عن عدم المقاومة".³ وأن الحاكم غير ملزم قبل الانسان بشيء، لأنه لم يكن طرفا في العقد ، اللهم إلا توفير الأمن لهم. وبما أن الحاكم لم يكن طرفا في العقد فإنه من ثمة لم يتنازل عن حقوقه الطبيعية. وضع "هوبز" الفرد في عقد أبدي مع الحاكم ، وأن الإنسان أمام خيارين:- إما طاعة الحاكم بلا جدال أو الدخول في فوضى عارمة لا بداية ولا نهاية لها، وهي حالة حرب الكل ضد الكل .يرى هوبز بما أنه تنازل نهائي فإنه في هذه الحالة ليس للفرد العودة عما تنازل عنه حيث أن العقد نتيجة لتصرف جماعي، قائم على تصرف فردي متبادل ولا يجوز عن طريق تنازل فردي إنهاؤه.⁴

¹ عبد الرحمن خليفة ، - مقالات سياسية، الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية. 1985. ص 208. نقلا عن : القانون الطبيعي ص 60

² محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، 231

³ عبد الرحمن خليفة، - مقالات سياسية، ص 213. نقلا عن المرجع نفسه ص 60

⁴ -حورية توفيق مجاهد، الفكر السياسي من أفلاطون الى محمد عبده ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، مكتبة 485 ، ص 408.

- التفكير السياسي عند "هوبز" وعلاقته بالقانون الطبيعي:

إعتمد فكره السياسي على التحليل العقلي للأمور ، فانعكس ذلك على مذهبه السياسي ونظريته الأخلاقية (أن الدولة تقوم على عنصر الخوف "خوف الجميع من قوة شخصية الحاكم؛ وكذلك خوف الجميع من بعضهم البعض) ، بحيث يمكن رد كل نظرية إلى سوابقها وبحيث يعتمد اللاحق على السابق ، دون أدنى خروجها عن محتويات النسق: - كما صور حالة الطبيعة الأولى أو "حالة الحرب": بأنها تتميز بالريبة والشك وتوقع الحروب في كل وقت، وأن الإنسان منبع كل الشرور والآثام، وكانت عيونه لا تفارق الآخرين.¹

وكانت العلاقات في حالة الطبيعة بين كل إنسان، وإنسان آخر قائمة على أساس المنافسة أو الريبة أو حب المجد وأن هذا سيؤدي حتما إلى حالة حرب الكل ضد الكل، ما دام كل إنسان عدو إنسان آخر لا يبغي إلا مصلحته الخاصة، ومنفعته الشخصية فحسب. وكانت فيها حياة الانسان قصيرة شحيحة وفقيرة ووحيدة وبائسة ولم تكن هناك لا صناعة ولا تجارة ولا أمن². وسبب هذا أساسا هو عدم قدرة الأفراد من الحد من إندفاع كل منهم للحصول على القوة أما السبب الثاني فهو تساوي الجميع في الحقوق الطبيعية.³ ، "و أن حياة الإنسان تنطلق من منطلق واحد ، هو التنافس الذي يقوم على الخوف؛ مما ينتج عنه من صراع وحرب : « حرب الكل ضد الكل »؛ والتي خلت من كافة القواعد الخلقية والعرفية. اللهم إلا المصلحة الشخصية التي يسعى الإنسان إليها بكل ما لديه من قوة ، ومتعة وقدرة على الخداع والإحتيال ، أي أن الحق الطبيعي يسبق كل أساس ولو كان طبيعيا.⁴

¹-محمد علي عبد المعطي، - الفكر السياسي الغربي، ص 225. نقلا عن : القانون الطبيعي ، ص 60

²- محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، الصفحة 226

³- حورية توفيق مجاهد، الفكر السياسي من أفلاطون إلى محمد عبده، مرجع سابق، ص 408.

⁴ -عبد الرحمن خليفة، - مقالات سياسية: ص 215. نقلا عن: القانون الطبيعي، ص 60

وذكر أن القانون الطبيعي في مجال السياسة ، ما هو إلا وصف الظواهر كما هي في مجال الواقع، فهو وصف العلاقة بين العلة والمعلول أو بين السبب والنتيجة؛ ولا يشتمل هذا القانون على قواعد أخلاقية؛ كما أنه ليست له أي قدسية ولا يعتبر قيда على سيادة الحاكم. كما فرق بين القانون المدني وقانون الطبيعة ، فالقانون المدني: هو الذي تسهر عليه السلطة لتنفيذه؛ بينما قانون الطبيعة هو مجموع القواعد التي يملئها عقل الإنسان؛ ولا يكتسب الشرعية إلا إذا أمر الحاكم بتنفيذه.¹ يرى هوبز أن كل القوانين تحتاج الى تأويلات وشروحات معمقة خصوصا القانون الطبيعي الغير مكتوب، ويرى أن هذا الأخير يصير قانونا صحيحا، إذا تأسس في شكل أوامر صادرة عن الحاكم أو السلطة الحاكمة.²

فالسمة الأساسية للقانون عند "هوبز" هي ارتباط القانون بالسيادة، ذلك أن القانون لا يصبح قانونا إلا لأنه أثبت صلاحيته أو معقوليته، ولكنه لأنه نابع عن إرادة السيادة. ويرى هوبز أن قانون الطبيعة ليس قانونا على الحقيقة ولكنه عبارة عن إستنتاجات أو نظريات تساعدنا على الدفاع عن أنفسنا أما القانون الحقيقي فهو كلمة يضعها الحاكم تتيح له الحق في أن يأمر الجميع.³

كما دافع "هوبز" عن الاستبداد كنمط للحكم بغض النظر عن يشغل سلطة السيادة أو أسلوب وصولهم إليها. وأن سلطة الحاكم معفاة من أي مراجعة ، أو نقد من أية جهة أخرى. فكل تصرفات السيادة مشروعة ، وغير قابلة للمساءلة أو الإلتزام أو توقيع الجزاء من جانب المحكومين.⁴ " أما بالنسبة للعقيدة والتعليم والفكر ، فإن سلطة السيادة هي وحدها المتحدثة

¹ موسوعة العلوم السياسية: ص 380. نقلا عن: القانون الطبيعي ص 61

² -محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 237

³ -محمد علي عبد المعطي، المرجع نفسه، مرجع سابق، ص 237.

⁴ -محمد علي عبد المعطي، المرجع نفسه، مرجع سابق، ص 234

باسم الدولة والكنيسة والفرد؛ بل وحتى تحديد كيفية تفسير الكتاب المقدس ، أي أنها تشمل الصلاحيات المطلقة لسلطة السيادة، وكافة مجالات التشريع والتنفيذ والقضاء.¹

وعلى النقيض من مكيافيللي ذهب هوبز إلى البحث عن أسباب وجود الدولة وانتقال الانسان من حالته البدائية الأولى الى حالته الاجتماعية وخضوعه لسلطة عليا.²، ولقد ألقى "هوبز" الضوء على القانون الطبيعي والقانون الوضعي.- فالقانون الطبيعي: استنتاجات بينما القانون الوضعي هو كلمة يضعها الحاكم تتيح له الحق في أن يأمر الجميع، والقانون المتحضر يتكون من التعبير عن إرادة السيادة أو الحاكم ، الذي لا يخضع هو لهذا القانون.³

ويرى هوبز أن كل القوانين تحتاج إلى تفسيرات خصوصا قانون الطبيعة. فهو غير مكتوب: ولا يصبح قانونا صحيحا ، إلا إذا تجسد في شكل أوامر نابعة عن الحاكم أو السيادة. ويتساءل "هوبز" إذا كان ثمة تعارض بين الأمر الإلهي وبين أمر الحاكم فأمر الله؟ "يجيب" هوبز "بأن الأمر الإلهي يجب أن يسود بكل سلطة؛ ولكن هذا الأمر الإلهي لا يمكن أن يفهم إلا بواسطة العقل الإنساني؛ ومن جهة أخرى فإن الأمر الإلهي إذا كان موجها لكل إنسان فيجب طاعته؛ أما إذا ادعى إنسان أو هيئة أن تلقي أمرا إلهيا؛ فكيف يقتنع الآخرون أن أمرا قد حدث."⁴

ويرى "هوبز" أن القانون الطبيعي يكاد يكون عديم الجدوى ، لأن قواعده تتحكم في تصرفات الناس؛ وذلك لأنه يتضارب مع الغرائز والعواطف الطبيعية.⁵ ، لأنه يرى أن القانون غير مجد في هذه الحالة، لأن الغرائز والعواطف الطبيعية للإنسان الطبيعي

¹ - موسوعة العلوم السياسية: ص 350. نقلا عن : القانون الطبيعي : ص 61

² -إبراهيم موسى، الفكر السياسي الغربي الحديث والمعاصر، مرجع سابق، ص99.

³ - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص237

نقلا عن : A.P.O Enine : Natural law an introduction to legal Philosophy. IBID. P151. ⁴

القانون الطبيعي، ص 61

⁵ -موسوعة العلوم السياسية، ص 389. نقلا عن : القانون الطبيعي، ص 61

المعروف بالأنانية سوف تفرض عليه الاعتداء على هذا القانون، وعندما لا تكون سلطة سياسية تفرض عليه طاعة القانون، سوف تكون هناك فوضى وصراع بينه وبين أقرانه من البشر. فالإنسان الطبيعي يكون إنساناً أنانياً وهمجياً وشريراً عندما يعيش خارج مؤسسات الدولة حسب هوبز¹. ويجب أن تكون هناك سلطة تفرض طاعة القانون بحد السيف كما يرى ذلك هوبز. ويشدد هوبز على أن هذا الليفياتان هو نتاج الفن الإنساني والحيلة الإنسانية التي تقوم على إدراك الفرد لمصالحه. وإن وجود حكومة قوية قادرة هي وحدها التي تستطيع أن تلزم جميع أفراد المجتمع باحترام وتنفيذ العقد الذي يبرم فيما بينهم.²

كما تعرض "هوبز" للعلاقة بين الدين والأخلاق والدولة: أشار إلى أن الأساس الأخلاقي للدولة. يقاس بمدى القدرة على إشباع الغرائز والمحافظة على الناس وحمايتهم من الموت. أما الدين عند "هوبز" فنقاس قيمته بما يحققه من نفع؛ ويعتبر مفيداً متى زاد من قوة، ورفض المبدأ الديني الذي يجيز عصيان الأوامر المخالفة للقانون الإلهي ، وعليه فإن العصيان المدني مرفوض ولا يمكن تبريره.³

يتبين من فكرة "هوبز" السياسي وعلاقته بالقانون الطبيعي: أنه صور حالة الطبيعة كلها مليئة بالشور. والأحقاد و أنه على الإنسان دائماً أن يكون في تأهب دائم اتجاه أخيه الإنسان، وأن حياتهم يشغلها الصراع الدائم. وأن القوة هي أساس الأمن والأمان؛ وأن حاكماً بلا سلطة تدعمها القوة فهي حكومة شكلية. والناس بين خيارين إما الاستكانة للحاكم ، أو العيش في فوضى دون تركيز لمطالب إعاشتهم ، لذلك كان الحاكم في نظره أنه رب نعمة هذا الشعب وعليهم الطاعة وعدم الجدل ، وتتعد المحاسبة وأن القانون الطبيعي لا جدوى من وراءه طالما لا يقره الحاكم. لأنه ليس ذا بال من وراء تنفيذه لأن أوامره قد تتعارض مع متطلبات وحياة الشعب. أما ما يقره الحاكم ويضع قواعده ويسهر عليه فهو جدير بالاحترام

¹-موسى إبراهيم، الفكر السياسي الغربي الحديث والمعاصر، مرجع سابق، ص 103

²- موسى إبراهيم، المرجع نفسه، الصفحة نفسها

³-قباري إسماعيل، علم الاجتماع السياسي، الإسكندرية، 1980. ص 62. نقلاً عن : القانون الطبيعي :ص 62

والتقدير والالتزام. "و إجمالاً فإن فلسفة "هوبز" السياسية لا تحترم العهود والمواثيق. فهو يرى أن العهود بغير السيف ليست سوى ألفاظ، إذا لم تجد القوة القادرة على القمع".¹

إن السيادة عند هوبز مطلقة ولا يجوز الاعتراض عليها أو سحب الثقة منها أو عدم إطاعتها من قبل أي فرد وهي تدعم ذاتها بقوة رهيبة وبوسائل متفاوتة تؤهلها بالقيام بواجباتها وتحقيق أهدافها في السلم والأمان.²، " لذلك قيل أن نظريته تخلو من الإيمان: لأن نظريته نظرية نفعية، تقاس بما تحققه من فائدة لا يهتم الرجوع إلى المصدر. نظر إلى الكنيسة كأية مؤسسة أخرى فإتهم بالإلحاد".³، ولأن الكنيسة هي رمز الشريعة لها قدسيتها واحترام قوانينها؛ ولما نظر إليها "هوبز" على أنها مؤسسة تؤدي وظيفة ليس إلا؛ فقد خلع عنها لباس الوقار واحترام قدسية الدين. فهو بذلك قد همش القوانين السماوية ورمزها الكنسي .

6- "جون لوك" والحالة الطبيعية:

صور "جون لوك" (1632 - 1704) حالة الطبيعة على أنها حالة أمان وتعاون ، وأن الناس كانوا يعيشون أحرار متساوين في الحياة والحرية ، يحكمهم قواعد القانون الطبيعي.⁴، وإن العقد الاجتماعي هو الذي سيضمن حماية هذه الحقوق في ظل المجتمع المدني.⁵ كما أشار إلى أن حالة الطبيعة لم تكن فوضى أو حالة صراع؛ لأن قانون الطبيعة ينظم العلاقة بين الناس: الأمر الذي دعا أن يكون كل إنسان هو الضابط لأفعاله ومنظّمها.⁶؛ كما أن إنسان الطبيعة هو من يمتلك ما يرد به عدوان

¹ قباري إسماعيل ، علم الاجتماع السياسي، الإسكندرية، منشأ المعارف. 1980. ص83 نقلا عن المرجع نفسه ص 62

² -محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 233

³ عبد الرحمن خليفة، مقالات سياسية، الجزء الأول، ص 211. نقلا عن المرجع نفسه ص 62

⁴ Dunning : A History of Political Theories : Book.II.P347.

⁵ -إميل برييه، تاريخ الفلسفة، الجزء الرابع، القرن السابع عشر ، ترجمة: جورج طرابشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1993، ص327.

⁶ -مهدي محفوظ، إتجاهات الفكر السياسي الغربي الحديث والمعاصر، مرجع سابق، ص 91

الآخرين عليه. ويرى "لوك" أن حالة الطبيعة الأولى على أنها حالة سلام وطمأنينة وأمن، يسود فيها حسن النية والمعونة المتبادلة والمحافظة المتبادلة على الذات. وكان الناس يعيشون أحرار متساوين لا يحكمهم إلا القانون الطبيعي الفطري. فالحالة الطبيعية سبقت العقد الاجتماعي. كما أنها تختلف على الحالة الطبيعية لدى: - "هوبز" فلم يرى "لوك" فيها : "حرب الجميع ضد الجميع" بل على العكس رأى أن هذه الحالة كانت تتميز بحرية تامة توجه العقل الإنساني ، وتساعد على حفظ الحياة والممتلكات؛ كما كانت تتميز بالمساواة التي تشير إلى أن كافة الناس سواسية في الحقوق الطبيعية ، وليس لفرد أن يتميز بقدر منها أكبر من الآخرين.

ولم تكن حالة الطبيعة الأولى حالة غير اجتماعية ، إنما كانت فقط حالة غير سياسية: وسبب كونها حالة اجتماعية أن الناس فيها كانوا يتعاملون ، ويتعاونون على أساس القانون الطبيعي الفطري ، الذي يتيح للجميع حالة من الحرية والمساواة واحترام حقوق وحرريات وممتلكات الآخرين. ورأى أن الناس ماداموا متساوين منذ الولادة ، فإنهم ولا بد متساوون في الحقوق الطبيعية أيضا. حيث يقول: راييت: لم يكن في حالة الفطرة الطبيعية سلطة موجهة أو منفذة؛ كان الناس يتصرفون على أن واجبهم هو حماية أنفسهم بقدر استطاعتهم ومعاقبة المعتدين.¹

وكان على "جون لوك" أن يبرر: تحطيم الحكم المطلق بطريقة فلسفية ودينية ورد على "هوبز" وعلى "روبرت فيلمير": في كتابه السياسي الشهير: "مقالتان في الحكم المدني": - وفيه إفتراض إفتراضا رئيسيا: - يتمثل في: الحالة الطبيعية: حيث رأى "لوك": "أن المجتمع المدني هو نتيجة لتلك الطبيعة (المرحلة الفطرية): ولهذا نجد "لوك" يستهل حديثه في المقال الثاني من كتابه: - "في الحكم المدني": بقوله: "لكي ندرك طبيعة السلطة السياسية إدراكا صحيحا.

¹ Wright , Political Theories, Book., II. P 347.

ونستنبطها من مصدرها الأصلي ينبغي لنا أن نفحص عن الوضع. الطبيعي الذي نجد
البشر عليه.¹

"و إن الحالة الطبيعية عند "لوك" تميزت بميزتين أساسيتين هما: - الحرية التامة والمساواة
بين الناس".²، وإن "لوك" يتفق مع "هوك" : "في أن المساواة بين البشر من الأمور البديهية
التي لا يعترىها الشك ، فالمساواة هي التي تجعل المحبة قائمة بين الناس (البشرية): ومنها
أيضا تستنبط قواعد العدالة ويقول "لوك": في هذا الصدد: "وهي فريضة تبنى عليها واجبات
الواحد منهم نحو الآخر؛ ويستنبط منها قواعد العدالة والمحبة الكبرى؛ ومثل هذا الحافز
الطبيعي جعل البشر يدركون أن الواجب الذي يقضي عليهم بمحبة أقرانهم لا يقل شأنًا على
الواجب القاضي بمحبة ذواتهم".³

ومن هنا يتفق "لوك" مع "هوبز" و"روسو" حيث يقول هذا الأخير: "ولما جميعهم
مولودين متساوين و أحرار" ⁴ . أما "هوبز" فحالة الطبيعة عنده هي كلها حالة حرب وقتال:
وتعد كذلك لأن حسبه الحرية والمساواة المطلقة تؤديان بالناس إلى حالة القتال وحرب الجميع
ضد الجميع؛ بينما "لوك" فقد جعلها مرحلة سلام وطمأنينة: ذلك لأنه حتى لو كانت حالة
الطبيعة: "حالة حرية" إلا أنها ليست حالة إباحة بمعنى أن تلك الحرية ليست مطلقة؛ لأن
هناك قانون طبيعي يخضع له الجميع كما يحتكمون إلى العقل.

¹ - جون لوك، في الحكم المدني، ترجمة ماجد فخري، اللجنة الدولية لترجمة الروائع، بيروت 1959، ص 139.

² Michel-Terechenko , les grand courants de la philosophie politique , Memo
.S.D.E.,p2.

³ جون لوك، - في الحكم المدني، مرجع سابق، ص 140.

⁴ جان جاك روسو، - في العقد الاجتماعي، ترجمة: دوقان قرقوط، دار القلم، بيروت، الطبعة الاولى، 1985، ص

- حيث يقول: "لوك" في هذا الصدد: "إن الإنسان في هذا الطور يتمتع بحرية التصرف بشخصيته وممتلكاته ، إلا أنه لا يتمتع بحرية القضاء على حياته بل حتى على حياة المخلوقات التي يملكها".¹

كما أن "لوك": - يرفض رفضا قاطعا وصريحا وجود العبودية بالطبيعة ، ويظهر ذلك من خلال قوله: "تعني حرية الإنسان الفردية استقلاله عن أي سلطة عليا على الأرض وعدم خضوعه لإرادة بشرية قط".²

ويرى "لوك" أنها حتى إن وجدت في تاريخ البشرية ، فهي شيء مصطنع وتعسفي مناف لسنة الطبيعة. ويعتقد "لوك": أن الحالة الطبيعية هي حالة اجتماعية؛ وإنما ليست سياسية والدليل على ذلك؛- "أن الناس كانوا فيها يتعاونون ويتعاملون على أساس القانون الطبيعي".³

ولم تتميز الحالة الطبيعية بأنها حالة فوضى ، وحرب كلية كما صورها: "هوبز" ذلك لأن حالة الحرب يمكن أن تكون علامة المجتمع المدني أكثر. ولا تميز فقط حالة "الطور الطبيعي الأول" وهذا ما نلاحظه فعلا في الواقع. ، وأن الحالة الطبيعية "تميزت باحترام الحقوق الطبيعية؛ وأهمها:- حق الحياة - حق الملكية - حق الحرية وأخيرا الاقتصاص. كما تميزت بوجود القانون الطبيعي الفطري. وأن "لوك" جعل الإنسان كائنا عاقلا وأخلاقيا فبواسطة خاصية العقل ، يستطيع المرء تجاوز وتجنب مختلف الأضرار التي قد تقع له مع بني جنسه. وأن هذه الحالة:- حسب "لوك" تحمل في طياتها إيجابيات ومزايا ، كما ذكرنا ذلك سابقا وخاصيتها الأساسية:- وجود الحقوق الطبيعية التي كان يتمتع بها الإنسان في هذه الحالة.

¹ - جون لوك، في الحكم المدني ، الصفحة 140.

² - محمد علي عبد المعطي، اتجاهات الفلسفة الحديثة. الإسكندرية، دار المعارف الجامعية، د.ط، 1993.

³ - جون لوك، في الحكم المدني، مرجع سابق، الصفحة 140.

1- الحقوق الطبيعية: تتمثل الحقوق الطبيعية عند "لوك" أساساً في حق الحياة - وحق الحرية - حق وحق الملكية - وحق الاقتصاص؛ " ويتمثل دورها في حماية الفرد من تجاوزات السلطة".¹ وأنه لكل إنسان حقوقه الطبيعية²، لا فضل فيها لإنسان على آخر، وأن هذه الحقوق هي بعيدة كل البعد عن الزوال بمجرد نشأة السيادة والمجتمع المدني: -
العقد السياسي:- حيث تظل هذه الحقوق رغم ذلك كأصل الحريات ودعامة لها إضافة إلى أن المجتمع المدني لا يخلق الحق ، وإنما هذا الأخير حسب "لوك" وجد بالطبيعة فلا يمكن بأي حال من الأحوال أن تغصبه السلطة؛ وتتمثل هذه الحقوق الطبيعية في:

أ- حق الحياة:

لم يختلف "لوك" عن "هوبز" في تحديد هذا المفهوم ، وجعله أهم باعث في الأفعال الإنسانية حيث يرى "لوك" أن كل الناس يخافون من موت مفاجئ ، و أنهم كلهم مفطورين على حب البقاء ، وعلى الاستمرار في الحياة قدر الإمكان و بهم تقتضى ذلك يسعى الناس إلى الحفاظ على حياتهم بالعمل ، وتملك ضروريات الحياة: ويقول "لوك" في هذا الصدد: "فكل إمريء مجبر على المحافظة على الذات".³

فلا يحق لأي شخص أن يلحق أذى بحياة شخص آخر. ولا أن يسيء إلى حرياته أو إلى صحته أو جسده أو أملاكه ، إلا في إطار الاقتصاص من المجرم.

كما أن سنة العقل: تؤكد على ضرورة الحفاظ على الحياة؛ و أن بقاء الإنسان واستمراره واجب: وحتى الحرية التي كان يتمتع بها في المرحلة الطبيعية ، لا تخول له حق القضاء على حياته وعلى حياة الآخرين؛ ولهذا يقول "لوك" "أن الغاية من قيام المجتمع السياسي

¹ -جون لوك، الحكم المدني، المرجع نفسه، ص 141.

² -ستيفان دي تانسي، علم السياسة: الأسس، ترجمة راشل جمال، مراجعة: جمال عبد الرحيم، الطبعة الأولى، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، 2012، ص116.

³ - جون لوك، في الحكم المدني، مرجع سابق ،،الصفحة نفسها.

المتحضر هي حماية و حفظ ما يمتلكه الأفراد من حياة ، وحرية وملكية ضد الأخطار الداخلية والخارجية.¹

ب- حق الملكية: هو من أهم الحقوق التي كان يتمتع بها الناس في الحالة الطبيعية: و لقد اعتبره "لوك" كحق مقدس: والدليل على ذلك أنه خصص له فصلا كاملا في المقالة الثانية من كتابه "في الحكم المدني. ومنذ البداية: يؤكد أن دليل العقل ودليل الوحي يؤيدان حق الإنسان في تملك ، وإمتلاك خيرات الطبيعة: وفي هذا الصدد: يقول "لوك" : " فالأرض وكل ما عليها من المخلوقات الدنيا ملك مشترك بين الناس(البشر)."²

فالله أعطى للبشر تلك الأرض وزودهم بالعقل لكي ينتفعوا بها خير انتفاع ، لأنها أعطيت من أجل رفاهيتهم، وبقائهم فكل فرد الحق في أن يحصل أسباب عيشه فيما تقدمه الطبيعة له. إن موارد الطبيعة هي حق للجميع على حد سواء؛ إلا أن الإنسان هو: صاحب أمره وسيد أفعاله، ومالك لذاته وجهده في الحصول على الثروة الطبيعية ، وبالتالي كلما بذل الفرد جهده في الحصول على الثروة الطبيعية " أضفى على الثروة الطبيعية شيئا متفردا صادرا عن شخصه وبذلك حولها من ملكية شائعة إلى ملكية خاصة."³

و بالتالي كلما اختلط به جهد الفرد و أضاف إليه شيئا من ذاته فهو إذن ملك له ، بمعنى أن نتائج عمله يمكن إسناده إليه وحده . حيث يقول "لوك": " فكلما استطاع المرء أن يفلحه ويزرعه و يصلحه ويحصده و ينتفع بثماره فهو ملك له."⁴

¹ -جون لوك، في الحكم المدني، المرجع نفسه، ص 213.

² -جون لوك، في الحكم المدني ، ص 193.

³ -عبد المعز نصر ، - في النظريات و النظم السياسية ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، 1981، د.ط، ص 79.

⁴ -جون لوك، في الحكم المدني، مرجع سابق، ص 156.

فالأساس الذي تقوم الملكية هو العمل فالتملك يؤسس شغل الإنسان وتحدده الطاقة الإستهلاكية؛ لأن السنة الطبيعية التي تكسبنا حق التملك؛ تقيد في نفس الوقت هذا التملك (الحق): - فلا يجوز لشخص معين أن يملك ما فاض أو زاد عن حاجياته؛ فإله لم يخلق شيئاً لكي يفسده الإنسان ، ولا يحق له إلحاق الضرر بالآخرين من جراء التملك لأنه إن تجاوزت ملكيته حدود ضرورياته ، "فيكون عندها قد أساء إلى قانون الطبيعة العام ، و إستحق العقاب".¹

ج- حق الحرية:

إختلف "لوك" عن "هوبز" فيما يتعلق بمفهوم الحرية حيث "لوك" - يرى " أن الحرية ليست تحرير الفرد من المعوقات الخارجية بل من كل قاعدة عدى قانون الطبيعة".²

وعلى هذا يحاول "لوك" أن يوضح معنى الحق في الحرية ، على أنه حق الإنسان في أن يفعل ما يشاء؛ طالما أن ذلك لا يتعارض مع الحقوق الطبيعية للغير؛ فالإنسان حر. لكن لا يعني ذلك إلحاقه الضرر بالغير فحرية محدودة بحرية الآخرين وغيره.

إن الحرية كحق تشترط على الإنسان أن يتصرف وفق عقله الذي وهبه الله له؛ فإذا انحرف عن هذه السنة؛ أصبحت تلك الحرية فوضى وبالتالي يصير الإنسان حيواناً يجلب الضرر للمجتمع، وهذا ما يحيل إلى أن الحرية لا تعني أبداً التحرر من القيود و القوانين. بل بالعكس إذا انعدمت القوانين تنعدم الحرية لأنها عبارة عن تحرر من تعسف الآخرين و عدوانهم والحرية ليست كما يذهب " روبرت فيلمر " في تعريفه لها بأنها: " حرية امرئ أن يفعل ما يشاء".³

¹ - جون لوك ، في الحكم المدني ، ص 159.

² - محمد علي محمد ، - السياسة بين النظرية والتطبيق ، مرجع سابق، ص 140.

³ - جون لوك، في الحكم المدني، مرجع سابق، ص 140.

و أن للفرد حرية في الإستقلال بذاته وممتلكاته ، ضمن القوانين التي وضعت من أجله؛ أي يخضع لإرادته وحده هو ، وليس لإرادة شخص آخر مجبرا إنطلاقا من هنا يرفض "لوك" "العبودية"، التي يزعم "فيلمر" أننا نفتح أعيننا أمامها وعلى الحياة معا. حيث يرى "لوك": "أن العبودية ليست لائقة بالإنسان لأنها ليست شيئا طبيعيا ، و إنما خطأ يرتكبه الإنسان ولهذا فهي ليست وراثية: - فأبناء العبيد يولدون مثل سائر الناس أحرار: فكل فرد يولد ومعه الحرية الكاملة كحق ، يجعله مستقلا عن إرادة أي فرد آخر و سلطته ، وهذا يتساوى فيه جميع الأفراد وليس لأحد سلطة على غيره.¹

د- حق الاقتصاص: إن الأفراد في الحالة الطبيعية ليسوا بلا قيود ، و إنما على العكس يقوم القانون الطبيعي بتحديد تصرفاتهم؛ ولكي يرتدع كل امرئ عن التعدي على حقوق الآخرين أو إلحاق الضرر بهم وتحترم السنة الطبيعية التي ترمي إلى إقرار السلام وبقاء النوع البشري، ولهذا فقد ترك أمر تنفيذ السنة الطبيعية هذه إبان ذلك الطور لكل امرئ بمفرده فكان له الحق بمعاقبة الخارجين عن القانون الطبيعي ، وتلك السنة إلى حد يحول دون خرقها. و يقول "لوك": في هذا الصدد: " إن هلو لم يكن ثمة من يقوم على تنفيذ السنة الطبيعية بحماية الأبرياء وردع المعتدين عليها ، لكانت تلك السنة عبثا مثل سائر السنن التي تسير شؤون البشر في العالم؛ و إذا كان لأي كان في الطور الطبيعي أن يعاقب مقترف الأذى فلكل امرئ مثل هذا الحق".²

7- الحالة الطبيعية عند جان جاك روسو:

الحالة الطبيعية أو الطور الطبيعي عند روسو إنما هو نموذج ن ظري سالب " إيبستيمي خالص" يستخدمه "إستخداما إفتراضيا شرطيا ، " لتفسير الطور المدني وإستخدامه كمنهج رياضي فلسفي لتبرير نظرية العقد الاجتماعي . فإنسان الحالة الطبيعية لم يعد

¹ - جون لوك، في الحكم المدني ، ص 141.

² - جون لوك، في الحكم المدني ، مرجع سابق، الصفحة 141.

يمكننا معرفته تاريخيا ، لأنه تحول وتلاشى منذ ما قبل التاريخ ، ولكن التفكير يخول لنا تصور الخطوط العريضة ، والكبرى لما كان عليها ، يصفه لنا روسو عاريا سادرا في الطبيعة و الغابات لا صناعة له ولا نطق ولا مسكن ولا حروب ، ولا حاجة إلى أبناء جنسه ولا رغبة في السيطرة و أذي أي منهم ، حتى ولا معرفة أي أحد منهم شخصيا. ليس هو عرضة إلا لقليل من الشهوات ، لا يحتاج إلا لتلبية حاجياته البيولوجية والتي تضمن له بقاؤه والمتمثلة في الغذاء والنوم والأنثى، وكان يتمتع بالحرية الطبيعية وأنه يكفي نفسه بنفسه "1. "لم يكن يعرف القيود ولا الحواجز" 2. وكان يتمتع بالحقوق الطبيعية والأساسية التي وهبها الله له، وكان يعيش في وئام و إنسجام مع الطبيعة، " وليس له إلا العواطف والمدارك التي تتطلبها هذه الحالة. ولا ينظر إلا إلى ما كان يظنه مفيدا له. وقد أعطى له روسو غريزتين أساسيتين:-1- الغريزة الأولى :- تدفعه إلى المحافظة على وجوده وحياته. و إن الخيرات التي يعرفها في العالم هي: الطعام و الأنثى والراحة. أما الشرور التي يخشاها فهي الجوع والمرض. "3، حيث كانت حاجياته بيولوجية محضة كان يحصل عليها من الطبيعة. كانت حاجاته محدودة، "وفي الطبيعة ما يكفي حاجاته ويزيد. "4

2- والغريزة الثانية :-هي "استعداد للرحمة" وكره فطري لرؤية بني جنسه يتألمون ، وهذا ينجم عنه مبدأ السخاء ، والتسامح والإنسانية والرعاية والتضامن والصدقة.

ويتبع رجل الطبيعة مبدأ " إعمل صالحك بأقل ضرر ممكن تسببه للغير " ، فحينما يأكل ويشبع فهو في سلام مع الطبيعة كلها جمعاء ، وصديق جميع بني جنسه. إنه صالح بطبيعته وخير بطبعه، شيئا فقط يميزانه عن الحيوانات التي يعيش معها:

¹-أندري كريسون ، روسو حياته فلسفته منتخبات، ترجمة نبيه صقر بيروت لبنان ط 4 ، 1988، ص 80

²- محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 291 .

³-أندري كريسون ، روسو حياته فلسفته منتخبات، مرجع سابق، ص 81

⁴-محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، الصفحة نفسها

1- هي: أن له إرادة حرة بدلا من أن يكون أسيرا لغرائزه، وإن هذه الإرادة الحرة هي ما تميزه من الحيوانات أكثر مما يميزه منها هو الوعي و الفهم.¹

2- أنه قابل للاكتمال .تدور الحيوانات في ذات الدائرة.- أما الإنسان فيإمكانه الاختراع إما لخيرهِ أو لشرهِ من هذا الإمكان ينتج تقدمنا المشؤوم مصدر جميع بلايانا.

إن حالة الإنسان الطبيعية "هي أسعد حالاته جميعا".² ، ولأن الإنسان كانت لديه قدرة على التفوق على الحيوانات الأخرى بامتلاكه قدرة الاختراع، **la capacité imaginative** والابتكار ولديه مخيلة الاختراع وقابلية للتطور و الاكتمال، وهذه القدرة مكنته من التطور والتقدم و إنشاء اختراعات علمية متطورة ومن ثمة تأسيس الحضارة فيما بعد.

ويقول "أصحاب دائرة المعارف" أن حالة الإنسان الطبيعة هي حالة شقاء.- أما روسو فيقول أود أن يقولوا لي ما معنى الشقاء الذي يقصدونه هنا، وينسبونه إلى إنسان حالة الطبيعة وأي شقاء يمكن أن ينتاب كائنا حرا مطمئن القلب ، و سليم الجسم غير أن هذه الحالة الطبيعية هذه مطمئنة والسليمة ، قد تلاشت تحت ظروف يحللها روسو على هواه. وتلاشت معها حرية الأفراد والمساواة المعنوية التي كانت سائدة فيما بينهم.³ وإن الشقاء الأكبر للإنسان هو فقدانه حقوقه الطبيعية، وحرية الطبيعة عند انتقاله إلى المجتمع السياسي الفاسد، والذي أسسته الملكية الفردية والقوة والقهر و التسلط والاستغلال. وإن الاجتماع شر وينبوع الشر فالأنانية والفوضى والحرب والرق والرذيلة هي سمة المجتمع السياسي الفاسد.⁴

¹ - أندري كريسون، روسو حياته فلسفته منتخبات، المرجع نفسه ، ص 82

² - المرجع نفسه، ص 82

³ - أندري كريسون ، روسو حياته فلسفته منتخبات ، مرجع سابق، ص 82

⁴ - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 295

لقد جرى هذا التحول طبقا لتحول تاريخي يذكر روسو خطوطه الكبرى: "إننا نرى أولا وضع قانون وحق الملكية الفردية ، ونرى ثانيا إقامة المحاكم ، ونرى ثالثا وأخيرا تحويل السلطة الشرعية إلى سلطة استبدادية. فالمرحلة الأولى خلقت الفقراء والأغنياء والمرحلة الثانية خلقت الضعفاء والأقوياء.¹ ، فأصبح هنا الظلم مدسّتر ومقنن بقوانين ساهمت في حدوث مرحلة لاحقة بوضع الانسان في أغلال مصطنعة." والمرحلة الثالثة خلقت العبيد و الأسياد، وهي أقصى درجات عدم المساواة التي تنتهي إليها المظالم. من هنا نبعت الشهوات الضارية شهوة التسلط ، والحسد وحب الذات الجامح والأناية القصوى الذي يؤدي بالناس إلى حب "الظهور" ، ويتمثل بجميع أشكال البذخ والاحتيال وبجميع النقائص التي ترافقه. -ولا - ولم يسهم البذخ ولا الأدب ولا الفنون في سعادة البشرية، بل في إحراجها وإفسادها.²

ومن هنا بدأت تظهر الأناية القصوى للإنسان بأقصى أشكالها، حيث أراد الإنسان أن يسيطر ويتسلط على أقرانه من البشر ويستغلهم أشدّ إستغلال، وجعلهم حتى كعبيد بالنسبة له. ويرى روسو في كتابه العقد الاجتماعي أن معنى هذا ليس هدم المجتمع المتحضر ولكنه بالضبط تلمس الطبيعة وقوانينها في ثنايا المجتمع.³ ، "ويعلم "روسو" أن بعث حالة الإنسان الطبيعي أمر مستحيل ، ولكن ليس من المستحيل الوقوف على فوائدها الأساسية بالسير طبقا لما يلائمها سياسيا وتربويا.

- ما هي إذن أهم الفوائد حالة الإنسان الطبيعية؟ يجيب بأنها 1- حرية العمل.
- 2 المساواة المعنوية. - يولد الإنسان أينما تنتظر تراه مكبل في أغلال. ويولد الناس متساوين في الكرامة، ولكننا لا نرى أية مساواة في أي مكان بينهم، ومن هنا تنبئت هذه

¹ - أندري كريسون ، روسو : حياته فلسفته منتخبات ، ص 83

² - أندري كريسون ، روسو : حياته فلسفته منتخبات، مرجع سابق، ص 83

³ - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 296

المشكلة: -كيف السبيل إلى إقامة حالة اجتماعية يتحقق فيها أولاً - حماية متساوية لجميع المواطنين - وثانياً: حرية مضمونة لكل فرد: (حيث كان الانسان الطبيعي يتصرف بتلقائية وحرية.¹) " ².

ويعتقد روسو أن هناك حل لهذا الوضع وهذه المشكلة. وقد بحث عن هذا الحل في كتابه "العقد الاجتماعي"، حيث يوجد حل وطريقة تتيح لكل واحد، ولكل إنسان أن يشعر بأنه حر في مجتمعه. وبأن حقوقه محترمة. وذلك ببناء هذا المجتمع على عقد أو ميثاق اجتماعي، أي على التزام شرعي، يتضمن تنازل الفرد عن شخصيته وعن جميع حقوقه لمجتمعه.³، حيث يكون العقد الاجتماعي مبني على عامل الرضا، لا عامل القوة كما والإخضاع كما يرى ذلك " توماس هوبز"، (فكأن العقد الاجتماعي هو الذي ينهي الحالة الطبيعية)⁴، ويكون العقد لاجتماعي عند روسو كعملية تصحيحية للمجتمع السياسي الفاسد الذي انبثق مع ظهور الإنسان التاريخي، ومن ظهور الملكية الفردية ومن التفاوت البشري والاستغلال. " - و يجب على كل من يريد أن يكون مواطناً في مجتمع، أن يرضى بوضع شخصه وكل سلطته تحت تصرف إدارة الإرادة العامة. فإن لم يفعل. توجب عليه أن يبحث على جو آخر يلائم رغباته." ⁵، فالإرادة العامة هي التي تدير العقد الاجتماعي وتوجهه، وتوجه السلطة إلى تحقيق الخير العام في المجتمع وحماية حقوق المواطنين في الدولة، لأن سيادة السلطة السياسية تنجم عن الإرادة العامة. ولأن القانون هو تعبير عن الإرادة العامة للشعب.⁶

¹ - أندري كريسون ، روسو : حياته فلسفته منتخبات ، ص 291

² - المرجع نفسه، الصرحة نفسها

³ - أندري كريسون ، روسو : حياته فلسفته منتخبات، مرجع سابق، ص 83.

⁴ - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 297

⁵ - أ . كريسون، المرجع نفسه، ص 84 .

⁶ - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، ص 302.

" أما الذين يقبلون بهذا التدبير الاجتماعي فإنهم لا يلبثون أن ينعموا بفوائده، إنهم قبل كل شيء وبالرغم من طاعتهم وخضوعهم للشرائع، يضلون أحرارا: لأن الإرادة العامة هي التي تسن هذه القوانين والشرائع، ولأن المواطنين جميعا قرروا بملء إرادتهم أن ينظروا إلى الشريعة نظرهم إلى صادر عن إرادتهم. فإن هم خضعوا فإنهم يخضعون لأنفسهم. " ¹

2- أصل التفاوت بين الناس:

"كان "روسو" في رسالته عن تأثير العلوم والفنون في الأخلاق، قد أقام الدليل على أنهما أفسدا الأخلاق وأوجبا شقاء البشر والإنسان مدعيا أن الترف والحضارة من نتائجهما قائلا بالرجوع إلى الحالة الطبيعية، ومما ذهب إليه في هذه الرسالة كون الثقافة أقرب إلى الشر ² * منها إلى الخير وكون التفكير مناقضا لطبيعة الإنسان، وكون الفضيلة والأمانة والصدق لا أثر لها في غير الحال الطبيعية، حيث لا علوم لا فنون. " ³ ، حيث يقول في خطابه في العلوم والفنون **discours sur les sciences et les arts** إن النفوس والأخلاق سوف تفسد مع التقدم، ومع تطور العلوم والفنون بتطورها التدريجي باتجاه الكمال. ويعطي لنا على سبيل المثال، سقوط الإمبراطوريات بسبب إهتمامها بالعلوم والفنون مثل الحضارة المصرية القديمة، واليونان القدامى والرومان ⁴. وإن العصور الفاسدة خرجت فيما بعد من رحم الفنون الأثينية ⁵. حيث يقول في هذا الصدد: "أيتها الشعوب إعلموا أن الطبيعة في

¹ - أ. أندري كريسون ، روسو : حياته فلسفته منتخبات ، الصفحة 183.

* ² - * الشر هنا يقصد به روسو التفاوت والاستغلال الموجود في المجتمع السياسي الفاسد ولا يقصد الشر الميتافيزيقي .

³ -جان جاك روسو ، في أصل التفاوت بين الناس، ترجمة عادل زعيتر، اللجنة الدولية لترجمة الروائع ، دار العالم العربي القاهرة، 2011، ص1 .

⁴ - Jean jacques rousseau discours sur les sciences et les arts édition les classique de la philosophie « introduction et préface » jacques berchtold. p33.

⁵ - Jean jacques rousseau : ESSAIS SUR L'ORIGINE DES LANGUES SUIVI DU DISCOURS SUR LES SCIENCES, TUNIS ,1995.P40.

المرّة التي أرادت أن تحميكم من العلوم ، فهي مثل الأم التي تنتزع من بين أيدي إبنها (طفلها) سلاح فتاك وخطير"¹. ويقول أيضا :إذا كانت العلوم غير مجدية بالمواضيع التي تطرحها علينا فإنها أكثر خطورة بالنتائج التي تصدر منها. "².

ويرى روسو أن الشر ينجم من الملكية الفردية، ومن المجتمع السياسي الفاسد حيث تبدأ الصراعات على من يكسب أكثر لكي يسيطر على الآخرين، ويستعبدهم فيما بعد. "حيث كتب "روسو" رسالته تلك بقلم حار وعاطفة جارفة. فجاءت مبتكرة في مجتمع بلغ الغاية من المدنية، مخالفا لما عليه الجمهور ويعد روسو في رسالته تلك كالمحامي الذي يلتزم طرفا واحدا في المرافعات. فيصعب تصديق جديته في تمثيل دوره. ولذلك لا تتجلى أهمية رسالته تلك في اشتغالها على مذهب إيجابي، بل في كونها مفتاحا لنشوء روسو الذهني وفي كونها مرحلة مؤدية إلى " أصل التفاوت بين الناس" ثم إلى "العقد الاجتماعي".³

وتعتبر المؤلفات الأولى لروسو مثل:- مقال في أصل العلوم والفنون ، ومقال في أصل التفاوت بين الناس أنها مؤلفات تهديمية أكثر منها بناءة لأنه ينتقد المجتمع السياسي الفاسد، ويبين سلبياته أما كتابيه في العقد الاجتماعي وإميل فينتميان إلى مرحلة البناء ومن ثمة تشييد مجتمع سياسي جديد. "نشر روسو كتاب "أصل التفاوت بين الناس" في سنة 1755مقدما إلى جمهورية جنيف، وتدل كلمة الطبيعة هنا على نقد وتحليل للمجتمع التاريخي وللحضارة وللمجتمع السياسي الفاسد، وأنها في تطور كبير. فلا يعارض روسو بها شرور المجتمع معرضة فارغة، بل تنطوي على أمور إيجابية. "فنرى نصف " أصل

¹ - Jean jacques rousseau discours sur les sciences et les arts :p49

² - JEAN JACQUES ROUSSEAU: ESSAIS SUR L'ORIGINE DES LANGUES SUIVI DU DISCOURS SUR LES SCIENCES, TUNIS ,1995.:p54.

³-جان جاك روسو، في أصل التفاوت بين الناس، مصدر سابق، ص 1

التفاوت، يشتمل وصف خيالي لحال الطبيعة التي يكون الإنسان محصوراً ضمن أضيق مجال، مع قليل احتياج إلى أمثاله وقليل اكتراث لما وراء احتياجات الساعة الأخيرة.¹

وفي هذا الكتاب صرح "روسو" بأنه لا يفترض وجود الحالة الطبيعية فعلاً، وإنما يستحسن حالاً من الهمجية متوسطة بين الحالة الطبيعية و الحالة الاجتماعية، يحافظ الناس فيها على البساطة و منافع الطبيعة. ويظهر من تعليقات "روسو" على متن الكتاب أنه لا يريد رجوع المجتمع السياسي الفاسد الحاضر إلى الطبيعة. و إنما يعد المجتمع أمراً لا مفر منه مع فساده، وهو يعلل هذا الفساد بالتفاوت بين أفراد المجتمع في المعاملات والحقوق فيتغنّى بالإنسان الطبيعي الطاهر. ويقول بتلك الحالة المتوسطة حيث تسود المساواة.²

1- في أصل التفاوت بين الناس:

يقول روسو عن اللامساواة والتفاوت بين البشر في هذا الصدد: "أتكلم عن الإنسان وأعلم أن المسألة التي أبحث فيها أنني أكلم الناس، وذلك أن المسائل التي هي من هذا النوع، لم يسأل عنها من قبل من يخافون تكريم الحقيقة. ولهذا فإنني أدافع مطمئناً عن قضية الإنسانية أمام حكماء، يدعونني لأصنع هذا. ولأكون غير راضي عن نفسي إذا ما جعلت نفسي أهلاً لموضوعي، خليقاً بقضاتي".³ لأن التفاوت يعد من أهم المواضيع، التي لم يعالجها الكثير من الفلاسفة السياسيين نظراً لصعوبتها ونظراً لانعكاساتها، ولأنها مواضيع

¹ – jean jacques rousseau discours sur l'origine et les fondement de inégalité parmi les hommes 1754 édition électronique v.1.0 les échos du maquis 2011. p2

² – جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، ص31.

³ – JEAN JACQUE ROUSSEAU –: – DE LINNEGALITE PARMI LES HOMMES, Ed : Flammarion, PARIS, 2000. P5.

حساسة و صعبة التحليل ولأنها مواضيع شائكة." ويقول روسو أيضا: "وأتصور وجود نوعين من التفاوت في الجنس البشري. فالنوع الأول هو ما أدعوه الطبيعي أو الفيزيائي لأنه من وضع الطبيعة، ويقوم على إختلاف الأفراد الأعمار والصحة وقوى البدن، وصفات النفس أو الروح. والنوع الثاني هو ما يمكن أن أدعوه التفاوت الأدبي أو السياسي. لتوقفه على ضرب من العهد أو الاتفاق ولقيامه ' للإذن على الأقل " .¹

ويكون بتراضي الناس ويتألف هذا النوع من مختلف الامتيازات التي يتمتع بها بعضهم إجحافا بالآخرين، كأن يكون أكثر من هؤلاء ثراء أو إكراما أو قوة. أو أن يكون فيه في وضع ينتزع فيه الطاعة، ومن العبث أن يسأل عن مصدر التفاوت الطبيعي لوجود الجواب في تعريف الكلمة البسيط. وأقل من ذلك إمكان البحث عن وجود إرتباط جوهري بين التفاوتين، وذلك لأن هذا يعني فقط أن يسأل بكلمات أخرى عن القابضين على زمام القيادة، أفضل ممن يطيعون بحكم الضرورة. وعن وجود قوة البدن أو الروح، و عن وجود الحكمة أو الفضيلة في الأفراد أنفسهم دائما. وعلى نسبة قوتهم و ثرائهم ' وقد يكون من الخير إثارة هذا السؤال بين العبيد على مسمع سادتهم ' ولكن مع عدم ملاءمته لأناس من العقلاء والأحرار الذين يبحثون عن الحقيقة.²

وهذا لأن القوة هي التي كانت تسيّر هذا الوضع، ولأن الأقوياء هم الذين أملوا شروطهم وقوانينهم على الضعفاء بالسيطرة عليهم، وعلى أملاكهم ومن ثمة إستعبادهم وإستغلالهم وإضطهادهم. حيث يقول روسو في هذا الصدد: " وما يكون موضوع هذه الرسالة بالضبط إذن؟ يقوم موضوعها على ملاحظتنا في نشوء الأشياء ذلك الوقت، الذي يعقب

¹ – JEAN JACQUE ROUSSEAU –: – DISCOURS SUR LES FONDEMENT DE LINNEGALITE PARMI LES HOMMES, :Flammarion, PARIS, 1996.P5.

² –جان جاك روسو ، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، ص32

الحق في العنف، وتخضع الطبيعة فيه للقانون، وعلى إيضاحنا سياق الخوارق الذي أزعج به القوي أن يخدم الضعيف، وأن يشتري الشعب راحة خيالية بسعادة حقيقية.¹

إن العودة في البحث في الحالة الطبيعية، هي ضرورة منهجية أملت لها الضرورة للبحث في أسس الحضارة وفي أصل المجتمع السياسي والمدني الفاسد، حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وقد شعر الفلاسفة الذين بحثوا في أسس المجتمع بضرورة العودة إلى الحالة الطبيعية، ولكن أحدا منهم لم ينتهي إليها."²

ولم يتردد بعضهم في عزوهم إلى الإنسان في هذه الحال فكرة العادل، وغير العادل من غير أن يكثرثوا لإثبات كونه قد أخذ بهذه الفكرة، وكونها نافعة له أيضا. - وقد تكلم آخرون عن الحقوق الطبيعية، فيما لكل واحد أن يحفظ ما يخصه من غير أن يوضحوا ما يقصدون بكلمة "يخصه"، وأعطى آخرون في البداية سلطانا للأكثر قوة على الأكثر ضعفا، فأوجبوا ولادة الحكومة حالا من غير أن يفكروا في الوقت الذي يجب انقضاؤه.³

إن كلمة السلطة والحكومة لم تكونا موجودتان آنذاك، وإن الحاجة والضغط والرغبة هي التي أملت لها على إكتسابها، ونقلها إلى هذه الحالة. وإن الاجتماع شر وينبوع الشر⁴. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "قبل إمكان وجود معنى كلمتي للسلطان، والحكومة بين الناس وأخير تكلم الجميع بلا انقطاع عن الاحتياج والطمع والضغط والرغبة والزهو، فنقلوا إلى الحالة الطبيعية أفكارا اكتسبوها في المجتمع، فتحدثوا عن الإنسان الوحشي، ووصفوه بصفات

¹ - JEAN JACQUE ROUSSEAU -:- DISCOURS SUR L'ORIGINE ET LES FONDEMENTS DE L'INEGALITE PARMIS LES HOMMES, Ed : Gallimard, PARIS, 1965. P6.

² - op.cit, p 6

³ - جان جاك روسو ، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، ص 32

⁴ - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، ص 295

الإنسان المدني، حتى إن لم يرد خاطر معظم كتابنا أن يضمنوا وجود الحالة الطبيعية، لما يظهر من مطالعة الكتب المقدسة كون الإنسان الأول أخذ الله معارف وتعاليم من فوره فلم يكن في هذه الحالة أبدا.¹

وإنه إذا ما إعتد أسفار موسى التي يعد كل فيلسوف نصراني مدينا لها، وجب إنكار وجود الناس في الحالة الطبيعية المحض حتى قبل الطوفان، ما لم يكونوا قد وقعوا فيها ثانية بفضل بعض الحوادث العجيبة. فهذا الرأي الغريب مما يورث الدفاع عنه ارتباكاً و يتعذر إثباته تماماً.²

" لنبدأ إذن بإزاحة جميع الوقائع التي فهي لا تمت البتة بصلة للمسألة. وأنه لا يجب أن نأخذ البحوث التي نخوض فيها بصدد موضوعنا في الحقائق التاريخية، بل من البراهين الافتراضية الشرطية الصالحة لإلقاء نور على طبيعة الأشياء، والأمور أكثر من صلاحها لإثبات أصلها الحقيقي والمشابهة للبراهين التي يأتيها كل يوم طبيعيون حول تكوين العالم ويأمرنا الدين أن نعتقد. بأن الله إذ أخرج الناس من الحالة الطبيعية، فور الخلقة فإنهم يكونون متفاوتين لأنه أراد أن يكونوا هكذا."³

إن روسو يرى أن الدين لا يمنعنا من أن نضع فرضيات مستنتجة من طبيعة الإنسان والكائنات، التي تحيطه وتعيش معه و عن الحالة التي يمكن أن يكون عليها الجنس البشري لو ترك لنفسه، وهذه هي الإشكالية التي يعرضها روسو هنا، حيث يقول في هذا الصدد: "غير أن الدين لا يمنعنا اليوم من وضع إفتراضات مستتبطة من طبيعة الإنسان،

¹ – JEAN JACQUES ROUSSEAU: DISCOURS SUR L'ORIGINE ET LES FONDEMENTS DE L'INEGALITE PARMIS LES HOMMES, Ed : Gallimard, PARIS,1996.p6.

² –جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"،المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

³ – جان جاك روسو ، في أصل التفاوت بين الناس، مصدر سابق، ص32

والموجودات المحيطة به فقط. وذلك حول ما كان ما يمكن أن يكونه الجنس البشري، لو بقي متروكا لنفسه. وهذه هي المسألة المعروضة علي".¹

وإن الحالة الطبيعية عند روسو هي حالة بدأ منها روسو فلسفته السياسة لكي يعطي لنا البديل للمجتمع السياسي الفاسد، والمبني على التفاوت الاصطناعي والاستغلال والاستعباد: والسابقة لوجود القوانين والدولة.² حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وهذا ما أرى درسه في هذه الرسالة، وبما أن موضوعي يهم الإنسان على العموم فإنني سأحاول انتحال لهجة تلائم جميع الأمم".³

2-الانسان الطبيعي:

إن روسو هنا يخاطب الانسان والإنسانية جمعاء، ويريد أن يسرد له حقيقته كما حدثت، لا كما يصفها المؤرخون وكتاباتهم المزيفة والخاطئة، حيث يقول: "وإن شئت فقل بما أنني أنسى الأزمنة، والأمكنة لكي لا أفكر في غير الناس الذين أحاط بهم. فإنني أفترض نفسي في مدرسة أثينا مكررا دروس أساتذتي متخذا أمثال أفلاطون و اكرينوقراط قضاة. والنوع البشري مستمعا. فيا أيها الإنسان من أي بلد شئت. ولتكن آراؤك كما أردت. وإستمع:- فهذا هو تاريخك كما قرأته. لا في كتب أمثالك، الذين هم أمثالك الذين هم كاذبون. - بل في الطبيعة التي لا تكذب إطلاقا، وكل ما يأتي من الطبيعة يكون صادقا".⁴

¹ - جان جاك روسو، في أصل التفاوت بين الناس ، ص33

² -مهدي محفوظ، إتجاهات الفكر السياسي الغربي الحديث والمعاصر ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، الجامعة اللبنانية، ط1، 1990، ص144

³ - جان جاك روسو، المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

⁴ - جان جاك روسو، في أصل التفاوت بين الناس ، "مصدر سابق، ص33

حيث يخاطب روسو هنا الإنسان دون النظر في انتمائه: إلى أي بلد من البلدان ينتمي، و دون النظر في إنتمائه الفكري، ليعرض عليه تاريخ البشرية كما حدث، لا كما ترويه الكتب التاريخية الكاذبة والمزيفة،¹ وأن هذا التاريخ موجود في الطبيعة التي لا تكذب أبدا حسب روسو. ويقول أيضا في هذا الصدد: "ولن تجد ما هو كاذب غير ما أضعه عندي بلا قصد. والأزمة التي أتكلم عنها بعيدة إلى الغاية، وما أكثر ما غيرت ما كنت عليه، ولذلك فإن حياة نوعك هي التي أصفها لك وفق الصفات التي نلتها، والتي استطاعت تربيتك وعاداتك إفسادها. -ولكن من غير أن تقدر على محوها. ويوجد كما أحس جيل يرغب الفرد أن يقف عنده. وأنت تبحث عن الجيل الذي تود وقوف نوعك عنده. وبما أنك ساخط على حالك الحاضرة لأسباب تنذر عاقبك التعيس بأعظم كدر، فإنك تريد القدرة على العودة إلى الوراء على ما يحتمل. فيجب أن يكون هذا الشعور ثناء على أجدادك الأولين، وانتقادا لمعاصريك وهؤلاء لمن يكتب لهم شقاء الحياة بعدك".²

يقول روسو في القسم الأول من كتابه "في أصل التفاوت بين الناس":

" لا أتبع نظام حال الإنسان الطبيعية من خلال نشوئها المتعاقب، مهما كان من المهم أن ينظر إليها منذ أصلها. أي في الجنين الأول وذلك للحكم جيدا في تلك الحال، ولا أقف عند حد البحث في النظام الحيواني عما يمكن أن يكونه هذا النظام في البداية، ليصبح ما هو عليه في آخر الأمر. فلا أسأل كما يرى "أرسطو: - هل كانت أظافره الطويلة عقفا في أول الأمر، وهل كان أشعر كالدب، أو كان وهو يمشي على أربع أرجل لا يلاحظ بأنظاره المتجهة نحو الأرض. والمقصورة على أفق بضع الخطوات. "طبيعة أفكاره و حدودها معا ولا أستطيع أن أكون حول هذا الموضوع غير إفتراضات مبهمة خيالية تقريبا، ولم يتفق علم

¹-جان جاك شفالبييه، تاريخ الفكر السياسي، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص 478

²-جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، المصدر نفسه، ص 37.

التشريح المقارن غير تقدم قليل. ولا تزال ملاحظات الطبيعيين غير ثابتة. فلا يمكن إنتقاء على مثل هذه الأسس قاعدة استدلال متين.¹

ويريد روسو أن يقول لنا بأنه كان هناك حالة طبيعية، سبقت المجتمع المدني وأن في هذه الحالة، كان يتمتع الإنسان بحقوقه الطبيعية وبحقه في الحرية، وكان يعيش حياة سعيدة وفي طمأنينة و في وئام وتناغم و تتاسق مع الطبيعة، وكان يعيش حياة هنيئة سادها الخير.²، "وهكذا من غير رجوع إلى المعارف الخارقة للطبيعة التي هي لدينا حول هذه النقطة، ومن غير نظر إلى التحولات التي لا بد من حدوثها في تكوين الإنسان داخلا وخارجا، ما طبق أعضاءه على منافع جديدة. وتغذى بأطعمة جديدة أفترض هذا التكوين في كل زمان، كما هو عليه اليوم. وذلك أنه: سار في كل وقت على رجلين واستعمل يديه كما، نصنع بأرجلنا وأيدينا. وأنه وجه أنظاره إلى جميع الطبيعة، وقاس السماء الواسعة بعينه.³"

ويصف لنا روسو الإنسان الطبيعي كما خرج من بين أيدي الطبيعة حيث كان نقيًا وصفيًا يعيش حياة طبيعية وهنيئة، وكان كائنا خيرا و بريئا ورع وفا مع بني جنسه، والشيء الوحيد الذي كان يخافه هو المرض. حيث يقول روسو في هذا الصدد: " وإذا ما جرد هذا الكائن الذي كون هكذا من جميع المواهب الخارقة للعادة التي استطاع نيلها، ومن جميع الخصائص المصنوعة التي لم يقدر على اكتسابها، -إلا بنشوء طويل والخلاصة أنه إذا ما نظر إليه كما وجب أن يكون حين خروجه من يدي الطبيعة، رأيت حيوانا أقل قوة من بعضهم، وأقل نشاطا من الآخرين. - ولكن كونه أحسن من الجميع نظاما. إذا ما نظر إليه

¹ - جان جاك روسو، في أصل التفاوت بين الناس، مصدر سابق، الصفحة 37

² - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 291

³ - جان جاك روسو، في أصل التفاوت بين الناس" مصدر سابق، ص 37

من كل وجه. فأراه يشبع تحت بلوطة، ويرتوي من أول جدول ويجد فراشه تحت ذات الشجرة التي أمدته بطعامه. وهكذا تكون حاجاته قد قضيت.¹

وإن هذه الحاجيات: كان يحصل عليها الإنسان الطبيعي من دون مقابل، وكان الإنسان طاهرا شريفا،² وليس هناك من فضل لإنسان على آخر حيث كان يحصل عليها من الطبيعة، وكان يتغذى من ثمار الأشجار وينام تحتها أيضا، ويرتوي من مياه الأنهار و الجداول الجارية." و في كل خطوة تقدم الأرض المتروكة لخصبها الطبيعي. والمستورة بغابات واسعة لم تقطعها القدم أبدا. مستودعات وملاجئ للحيوانات من كل نوع، و يلاحظ الناس المفرقون بينها صنعها ويقتبسونه ويبلغون حتى غريزة الحيوانات. وذلك مع النفع القائل بأنه إذ لم يكن لكل نوع غير غريزته الخاصة. بأنه إذ لم يكن للإنسان غريزة خاصة على ما يحتمل.³

إن الإنسان في هذه الحالة كان يعيش حياة هنيئة وحياة بهيمية، يتغذى من الطبيعة ومما تمده من أغذية حيث كان يحصل عليها بطريقة سهلة، كان لا يعرف فيه إلا الأكل والنوم والأثني وكان يعيش في إنسجام مع الطبيعة. حيث يقول في هذا الصدد: " فإن الإنسان يختص بالغرائر كلها فيتغذى على السواء بمعظم الأغذية التي تقتسمها الحيوانات الأخرى. ويجد قوته بأسهل طريقة وما يستطيعه واحد منا. وإذا ما تعود الناس منذ صباهم عدم إعتدال الفصول وشدتها، وإذ تمرنوا على التعب واضطروا إلى الدفاع عن حياتهم، وصيدهم عراة عزلا. وذلك ضد الضواري والكواسر أو فرارا من غاراتها فإنهم يكتسبون جبلة قوية ثابتة تقريبا. فيجلب الأولاد إلى العالم بنية آبائهم الرائعة، ويقوونها بذات التمرينات التي أدت إليها. وهكذا ينالون كل ما يستطيعه النوع البشري من متانة. وهكذا تعاملهم الطبيعة كما قانون

¹ - جان جاك روسو ، في أصل التفاوت بين الناس، مصدر سابق ، ، الصفحة 37.

² - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، ص 291

³ - جان جاك روسو، المصدر نفسه ، ص 38

إسبارطة يعامل أولاد المواطنين. فتجعل منهم حسنوا البنية أقوياء أشداء وتهلك جميع الآخرين. وهي في ذلك على خلاف مجتمعاتنا التي تجعل فيها الدولة عبئا على الإباء فتقتلهم قبل ولادتهم بلا تمييز.¹

وكان الإنسان يتمتع بجسد قوي من،² وإن الطبيعة جعلت منه كائنا لا يكون أقل قوة من الحيوانات الأخرى لأن الطبيعة أحسنت صنعها، فأعطته جسدا قويا يقاوم الظروف الطبيعية الصعبة به، والمخاطر من باقي الحيوانات المفترسة الأخرى. "وبما أن بدن الإنسان الوحشي هو الآلة التي يعرفها فإنه يستعملها لأغراض مختلفة تعجز عنها أغراضنا لعدم الممارسة. وصناعتنا هي التي تحرمنا البأس اللذين تكره الضرورة الإنسان على اكتسابهما. ولو كانت لديه فأس فهل كان زنده يقطع غصون قوية جدا؟"³ ولو كان لديه مقلاع فهل كان يرمي بيده حجرا بشدة بالغة؟ ولو كانت لديه سلم فهل كان ينمل في شجرة بمثل تلك الخفة؟ ولو كان عنده حصان فهل كان يركض بمثل تلك السرعة؟"⁴

إن روسو يقر أيضا بتفوق البنية الجسدية والبيولوجية للإنسان الطبيعي على الإنسان المتمدن، وإن الإنسان الطبيعي لديه مناعة طبيعية أكثر من الإنسان المتمدن، حيث يقول روسو في هذا الشأن: "دعوا للإنسان المتمدن من الوقت ما يجمع فيه جميع هذه الآلات حوله فانه يقهر الرجل الوحشي بسهولة لا ريب في ذلك. فهناك لا تلبثون أن تعرفون فائدة

¹ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، الصفحة 38.

² - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 292

³ - ROUSSEAU - JEAN JACQUE : DISCOURS SUR L'ORIGINE DES FONDAMENTS DE L'INEGALITE PARMI LES HOMMES : ED : FLAMMARION, PARIS, 1996. p7

⁴ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، ص 38

تصرف الإنسان في جميع قواه بلا انقطاع، وفائدة إستعداده لكل حادث على الدوام، أي كافيا نفسه نحو واحد في كل حين.¹

ويرى هوبز أن الإنسان في الحالة الطبيعية الأولى أي حالة الحرب كان إنسانا متوحشا يعيش في حالة صراع وقتال مستمر مع أقرانه من البشر وكانت هذه الحالة بحالة حرب الكل ضد الكل، يمكت خائفا من هجوم الآخرين عليه²، وكان الإنسان ذئب للإنسان وكانت القوة: هي العنصر الوحيد الذي يسير هذه الحالة، وكانت حالة سلبية لم تكن فيها لا زراعة، ولا ملاحه ولا صناعة فالإنسان كان يدافع على حياته وأملاكه بما أتى من قوة، وبكل الوسائل كان دائما يصوب سلاحه تجاه الآخرين. "هوبز" جسور بحكم الطبيعة" فهو لا يحاول غير الهجوم والقتال" والعكس ما يراه مشهورا آخر، وذلك "كونبرلاند" و "بوفندورف" كونه لا شيء. أخوف من الإنسان في الحال الطبيعية" فهو يرتجف ويستعد للفرار عند أقل صوت يقرعه، وأقل حركة يشعر بها. وقد يكون هذا اتجاه الأشياء التي لا يعرفها.³

هنا يكمن الاختلاف بين هوبز وروسو حيث يرى هوبز أن الإنسان الطبيعي كان في حالة صراع مع أقرانه من البشر، وفي حالة حرب وحالة قتال مستمر، وكانت هذه الحالة حالة حرب الكل ضد الكل، وكان الإنسان ذئب للإنسان. - أما روسو فيرى أن الإنسان الطبيعي خير وطيب بطبعه، لم يكن في صراع مع أقرانه لكنه لا يقيم معهم أي تجارة⁴، كان يتمتع بحقوقه الطبيعية ولم يكن بحاجة إليهم ولا الى معونتهم .

¹ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، ص38

² - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، ص226

³ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، الصفحة نفسها.

⁴ - موسى إبراهيم، الفكر السياسي الحديث والمعاصر، مرجع سابق، ص151

يضيف روسو قائلاً في هذا الشأن: "ولا أشك مطلقاً في خوفه من جميع المناظر الجديدة التي تعرض له في كل مرة، لا يستطيع أن يفرق بين الخير والشر اللذين يجب أن ينتظرهما منها، ولا أن يقابل بين قواه والأخطار التي تلاقيه، وهذه الأحوال نادرة في الحالة الطبيعية."¹

كان الإنسان الطبيعي يخضع إلى صرامة نمطية ونسقية طبيعية وإلى استقرار نفسي، وكان يخشى كل تغيير وكل التحولات المفاجئة، والتقلبات التي ستحصل له، وكانت حاجياته محدودة. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "حيث يسير كل شيء ببالغ النمطية، وحيث لا يكون وجه الأرض خاضعاً مطلقاً لتلك التحولات المفاجئة الدائمة، التي توجبها هنالك أهواء الشعوب المتحدة وتقلبها، ولكن بما أن الإنسان الوحشي يعيش متفرقاً بين الحيوانات ويجد نفسه باكراً في حال يقيس نفسه بها."²

"لم يلبث أن أقام هذه الموازنة، حتى إذا انس من نفسه أنه يفوق الحيوانات لباقية وسعة جبلة، وأن يكون دونها جبلة، وأن يكون دونها قوة، تعلم ألا يعود إلى سابق خوفه منها: ضعوا وجهاً لوجه دبا أو ذئباً وإنساناً متوحشاً خفيف الحركة شجاعاً ككل المتوحشين. وسلحوه بحجارة أو بعضاً صلبة، تروا أن الخطر سيكون متساوياً بينهما على الأقل وأن تلك الوحوش الضارية وهي التي تميل بعضها إلى مهاجمة بعض، لن تهاجم الإنسان عن الطيب الخطر وذلك لتحققها، بعد عدة تجارب متشابهة، إنه مساوي لها في الضراوة تماماً."³

فإن الحيوانات الأخرى تحققت من ضراوة الإنسان الطبيعي وقوته لذلك أصبحت هي الأخرى تخشاه، وهذا حدث بعد عدة تجارب من الصراع والنزاع والقتال معه، لذلك أصبحت تبتعد عنه وتخشاه هي الأخرى. أما موقف الإنسان من الحيوانات التي لها من القوة ما يفوق

¹ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، ص 39

² - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، ترجمة عادل زعيتير، ص 39

³ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، ص 39

ما له من براعة، فهو عين الموقف الذي تكون فيه سائر الحيوانات الأخرى ضعفا، والتي تضل مع ذلك قادرة على حفظ بقائها. "ثم أن للإنسان من المزايا ما ليس لتلك الأنواع، إذن هو لا يقلعنها سرعة في العدو، إذ له فوق الأشجار ملجأ أمين، كان بزمومه قبول المقابلة ورفضها، خيار الكر والفر. زد على ذلك أنه ليس من طبع الحيوان أيضا، أن يعامله بمشاعر النفور العنيفة تلك التي كأنها تتبئ بأن نوعا من الحيوان، قد قضت الطبيعة بأن يكون طعاما للآخر.¹"

إننا نرى أن هذه الأسباب والظروف هي جعلت الإنسان الطبيعي تكون لديه بنية جسدية ومناعة قوية، "وهذه هي بلا شك الأسباب التي لأجلها لا يكثر الزوج ولا المتوحشون للحيوانات المفترسة التي يصادفونها في الغابات. يعيش سكان "الكارايب" في فنزويلا، على وجه خاص، في مأمن تام منها ودون أقل محذور. يخبرنا "فرانسوا كوريال" في هذا الصدد قائلا: "إن هؤلاء المتوحشين لا يترددون في المخاطرة بأنفسهم عراة وسط الغابات، لا يحملون من السلاح إلا قوسا وسهاما، ومع ذلك لم نسمع قط أن أحدهم قد افترسته تلك الوحوش."² عند الصيد يخاطر هؤلاء المتوحشين بأنفسهم حفاة عراة دون أن يذكر أي خسائر أو أن أحدا قد إفتكت به تلك الوحوش. "غير أن للإنسان أعداء أشد هولاً من تلك الوحوش، ولكن ليست له ذات الوسائل لحماية نفسه منها. وهي العاهات الطبيعية كالطفولة و الشيخوخة، والأمراض على إختلاف أنواعها، وفيها أدلة محزنة عن ضعفنا: أما الأولى والثانية فتشترك فيهما جميع الحيوانات، في حين أن الثالثة حكر على الإنسان الذي يحي في المجتمع على وجه رئيسي، بل إنني ألاحظ في الطفولة، أن الأم إذ تحمل وليدها معها إلى كل مكان، يسهل عليها أن تغذيه أكثر مما تفعل إناث الحيوانات التي تضطر إلى السير

¹ -جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس، ترجمة غانم بولس، ص75

² -جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، ص75.

ذهابا وإيابا بلا انقطاع، وبمزيد من المشقة إلى مكان ما لتلتمس أقاتها، ثم إلى آخر لتطعم صغارها أو ترضعها.¹

إن الأشياء التي يهابها الإنسان الطبيعي بالفطرة هي الأمراض، والآلام والشيخوخة والجوع²، والكبر في السن التي تعيقه من الحركة، والتنقل بكل حرية للحصول على قوته و مشربه وأغذيته وتحد من تصرفاته وسلوكه الطبيعي. "صحيح أنه إذا هلك المرأة تعرض الطفل إلى الهلاك معها" ولكن هذا الخطر مشترك بين كثرة كثيرة من الأنواع الأخرى، التي لا تقوى صغارها على التماس أقاتها قبل زمن طويل، وإذا كان عهد الطفولة أطول بيننا نحن البشر فعمرنا أيضا أطول، وهكذا تظل جميع الأمور متكافئة تقريبا في هذه النقطة"³.

وإن الحياة الطبيعية تبعد عن الإنسان الطبيعي الكثير من الأمراض، وتقيه من شرها حيث يكون جسده قد اكتسب مناعة طبيعية تقيه من العدوى والأمراض الخطيرة، التي يتعرض لها في حياته. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "والحال أن هناك قواعد أخرى حول ديمومة الطور الأول من العمر وعدد الأولاد. مما لا يدخل في صلب موضوعي هذا، أما المسنون منهم ممن يقل عملهم وعرقهم فتتقص حاجاتهم إلى الطعام، وتضعف مقدرتهم على الحصول عليه. لكن والحال أن حياتهم المتوحشة تبعد عنهم النقرس والروماتزم، وإن الشيخوخة هي أقل المكاره جميعا قابلية للتخفيف عنها بالعلاجات الإنسانية، فإن المسنين يأفلون في آخر أمرهم من دون أن يفتن أحد إلى أنهم كفوا عن الوجود، ومن دون أن يفتنوا هم أنفسهم إلى ذلك."⁴، ويضيف روسو قائلا في هذا الشأن: "وأما من حيث الأمراض فلن أكرر الأقوال الخاطئة التي لا طائل من ورائها، مما يريده الأصحاء من

¹ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، ص76

² - جان جاك شفالبيه، "تاريخ الفكر السياسي"، مرجع سابق، ص479

³ - جان جاك روسو، "المصدر نفسه"، ص77

⁴ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، ص77

الناس ضد الطب، ولكنني أسأل إن كان هناك من شاهد قويا، يجيز لنا أن نستنتج متوسط عمر الإنسان يكون أقصر في البلاد التي تهمل الطب إهمالا تاما منه في البلاد التي تعتني به جد العناية؟".¹

وإن المواد الكيميائية السامة التي صنعها الإنسان المتمدن هي التي تؤدي إلى الأمراض، وإلى العاهات التي يستعصي على الطب معالجتها والقضاء عليها، حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وكيف يمكن لهذا الأمر أن يكون، إذا نحن جلبنا على أنفسنا من الآفات أكثر مما يستطيع الطب أن يوفره لنا من أدوية؟ إن التوازن الغذائي هو الذي يمكن من تجنب الأمراض والآفات التي تصيب جسد وجسم الإنسان لأن الإفراط في الأغذية الدسمة مثلا يؤدي الى نتائج وخيمة وإلى أمراض مستعصية الدواء. وإن انقطاع المساواة سيؤدي لأفضع فوضى وخصوصا لارتباطه بتكاثر الحاجات لدى الإنسان الاصطناعي".²

هناك تفاوت فاحش يؤدي ببعض الناس الى التخمة والبدانة والبعض الآخر يؤدي به الحال الى الأمراض والأسقام التي تنجر من الإسراف في الأطعمة. حيث يقول روسو: "فأقصى التفاوت في طريقة العيش، والإفراط في الدعة والسكون، عند بعض البشر أو الإفراط في العمل عند الآخرين، واليسر الذي به تستشار اشتهاؤنا وتشوقنا للملذات الحسية. وإشباعها، وشره الأغنياء إلى أطعمة منتقاة ببالغ العناية، تغذيمهم بعصارات باعثة للحرارة ومسببة لعسر الهضم، وسوء غذاء الفقراء بل وطول حرمانهم القوت أو ارتماؤهم عليه عند سnoch الفرص يحشون به معدتهم حشوا بمزيد من الشراهة، وتنوع ضروب الشطط، وفورات الأهواء العارمة، وإنهاك الروح واستنفاد قواه، والأحزان والهموم التي لا عداد لها".³

¹ - جان جاك روسو، في أصل التفاوت بين الناس، ص 77

² - جان جاك شفليليه، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، ص 481

³ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، ص 78

وإن الاتزان الغذائي يقي الانسان من الأمراض التي قد تسببه له الحمية الدسمة وحتى القلق النفسي، والحزن أيضا يؤثر في الجسد الإنساني وينهك قواه ويفتك به ويجعله عرضة للأمراض والأسقام. ويقول روسو في هذا الصدد: "والتي يحسها البشر في جميع الأحوال فتحز في النفوس حزا دائما، إنما كل ذلك دليل شؤم على أن الآفات التي تحل بنا من صنع أيدينا، وأنه من إستطاعتنا أن نجتنبها كلها تقريبا، لو أننا حافظنا بطريقة في العيش بسيطة، ومنظمة بحالة من التوحد، تلك التي توجبها الطبيعة أن نكون معافين من العلل، فإني أكاد أجتري على القول أن حالة التفكير تضاد الطبيعة، وأن الإنسان الذي يتأمل بعقله حيوان فاسد".¹ يهاجم هنا روسو التقدم والتطور الذي أدى بالإنسان إلى الهلاك، حيث أصبح الإنسان يعيش في اغتراب نظرا للاضطهاد الذي يمارس عليه من طرف الحضارة والتقدم، الذي أنشأه وصنعه هو بيده وب عقله. تلك هي الصدمة المشؤومة التي أخرجت الجنس البشري من الحالة السعيدة للمجتمع المبتدئ.²

وإن بعض الأدوية حسب روسو تؤدي الى أمراض خطيرة ومستعصية العلاج، نظرا للمواد الكيميائية السامة والخطيرة الموجودة فيها، والتي تؤدي إلى هلاك الانسان الذي يتداوى بها. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "أن أفلاطون يرى أن بعض الأدوية التي إستعملها بودالير و"ماكون" أو وافقا عليها في حصار طروادة، قد هيجت شتى الأمراض التي لم يكن قد عرفها البشر من قبل. ومما نقله إلينا "سيليس" أن الحمية وهي التي صارت محتومة في أيامنا، لم يخترعها إلا "إيبوقراط" » Hippocrate. «، فالطبيعة وفرت للإنسان ما يحتاجه من غذاء وحتى نوعية هذا الغذاء كانت أحسن من الحالة التي تلتها فيما بعد".³

¹ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، الصفحة 78

² - جان جاك شفالبييه، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، ص 481

³ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، ص 79

وإن الإنسان الطبيعي لم يكن أكثر سوءا في البنية ومن القوة الجسدية من الإنسان المتمدن، حيث كانت له بنية جسدية أقوى، ولم تكن الأمراض التي وجدت مع التقدم والحضارة قد وجدت آنذاك. وإن التمدن هو الذي أفسد الإنسان¹، حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وإذا قلت منابع العلل التي تلحق بالإنسان و هو في حالة الطبيعة الأولى، لم تكن حاجة للأدوية تقريبا وأقل من ذلك حاجة للأطباء، أما النوع الإنساني فليس، من هذه الجهة، في حال أسوء من حال جميع الأنواع الأخرى. ومن الميسور أن نعرف من الصيادين هل رأوا في جولاتهم الكثير من الحيوانات السقيمة." ²

ولم يكن الإنسان الطبيعي بحاجة الى الأدوية لأن الطبيعة هي التي كانت تتكفل بعلاجه وكانت تعطي له جسد قوي و مناعة قوية، تدافع عن الأمراض التي كان يتعرض لها. "فإن كثيرا منهم يعثرون على حيوانات أصيبت بجروح كاملة، فاندملت جراحها على أكمل وجه، وأخرى أصيبت بكسور في العظام، بل في الأعضاء كذلك ثم التحمت تلك الكسور ولا جراح لها سوى الوقت، ومن غير حماية سوى بالتزامها طريقة معيشتها العادية." ³

إن الطبيعة والوقت هما العلاج الوحيد والسبيل الوحيد والكفيل بعلاج الكائنات التي تجرح وتصاب بكسور في جسدها وبدنها. لأن علاجها ترك للطبيعة ولمناعة جسدها القوي والمتين، حيث يقول روسو في هذا الشأن: "ومع ذلك فقد شفيت شفاء تاما لأنها لم تعذب ولا سممت بعقار، ولا أنهكت قواها بصيام. وأخيرا مهما بلغت عندنا فائدة الطب لما يكون تصريحه حسنا، فيقينا أن المتوحش المريض والمتروك وحيدا لنفسه. - وإن كان ليأمل في

¹-موسى إبراهيم، الفكر السياسي الحديث والمعاصر، مرجع سابق، ص 253

²- جان جاك روسو، " في أصل التفاوت بين الناس، مصدر سابق، ص 79

³- المصدر نفسه ، الصفحة نفسها

خير إلا ما أتاه من الطبيعة. فهو بالمقابل ' لا يخشى بأسا إلا ما أتاه منها كذلك، و هذا ما يجعل حاله مفضلة على حالنا.¹

فالطبيعة عند روسو هي العلاج الكفيل والوحيد والأنجع للأمراض التي يعيشها الإنسان الطبيعي، لأنها تمدّه بخيراتها وبغذائها ولا يخاف الإنسان الطبيعي إلا ما يأتيه من هذه الطبيعة أيضا، حيث كان جسد الإنسان الطبيعي يتمتع بمناعة قوية تذهب عنه شتى الأسقام. وأن همه الوحيد هو تقريبا هو أن يحفظ ذاته. ويكون قلبه في حالة سلام وجسده بصحة جيدة.² ، " فلنحذر إذن أن نخلط بين الإنسان المتوحش والبشر الذين نشاهدهم اليوم. إن الطبيعة تعالج جميع الحيوانات المتروكة بإيثار عطوف، كأننا به يدل على مدى غيرتها على هذا الحق، فالحصان والقط والثور وحتى الحمار أكثرهن أطول قامات، وجميعهن أمتن بنيات و أوفر نشاطا وقوة وشجاعة في الغابات منهن في البيوت، وإنهن يفقدنا هذه الصفات إذ هنا أصبحنا دواجن، و كأن ما نبذله لهن من عناية في المعاملة والتغذية."³.

يرى روسو هنا أن الحياة الوحشية هي أيضا أفضل للحيوانات الآلفة، التي ألفها الإنسان و أصبحت تعيش معه، و أصبح هو يعتني بها كثيرا فهذه العناية أفقدت هذه الحيوانات المناعة البيولوجية التي حصلت عليها من الطبيعة.

3- ظهور الملكية والإنسان التاريخي (إنسان الإنسان أو الإنسان الإصطناعي) والتفاوت الإصطناعي:

1.3- ظهور الملكية:

يرى روسو في القسم الثاني من كتابه في أصل التفاوت بين الناس: أن أول إنسان قام بتسوير و تحديد قطعة أرضية، وقال إن هذه القطعة الأرضية ملك لي ووجد ناسا سذج

¹ - جان جاك روسو، في أصل التفاوت بين الناس "، ص 81

² - جان جاك شفالبيه، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، ص 479

³ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، الصفحة نفسها

يصدقونه هو المؤسس الحقيقي للمجتمع المدني، حيث يقول روسو في هذا الصدد: " إن أول من سور أرضاً وعن له أن يقول هذا لي، فوجد أناساً لهم من السذاجة ما يكفي لكي يصدقوه. كان المؤسس الحقيقي للمجتمع المدني. ألا كم من الجرائم كم من الحروب والقتل، وكم من الشقاوات و الفظائع، كان لإنسان أن يكفي الجنس البشري شرها لو هب واقتلع الأوتاد أو ردم الحفر وصاح بأشباهه من البشر قائلاً حذار أن تصغوا هذا الدجال، فإنكم لا هالكون إن أنتم نسيتم أن الثمار للجميع و أن الأرض ليست ملكاً لأحد." ¹

وإن هذا الإنسان يعتبر المجرم الأول الذي عرفته الإنسانية، وهو أصل الشرور لأنه مؤسس الملكية الفردية و بالتالي فهو مؤسس المجتمع السياسي الفاسد، وأصل كل الصراعات والنزاعات والحروب التي تتجم فيما بعد بين البشرية جمعاء. وإن الملكية الخاصة هي قبر اللامساواة. ²، حيث قامت العلاقة بين كل منهم وجيرانه على المنافسة المتولدة من الغيرة والحسد. ³ -ولكن يظهر جلياً أن الأشياء قد بلغت قبلئذ نقطة لم يسعها فيه أن تدوم على ما كانت عليها، فإذا أن فكرة التملك هذه تابعة لأفكار سابقة لم تولد إلا بالتتابع فإنها لم تتكون في ذهن الإنسان دفعة واحدة. ⁴

2.3- الإنسان التاريخي عند روسو :

إن الإنسان التاريخي عند روسو: هو إنسان الإنسان كما يسميه روسو أو الإنسان الاصطناعي، وهو المقابل للإنسان الطبيعي. والإنسان التاريخي هو الإنسان الذي دخل معترك التاريخ: حيث أصبح فاسداً أخلاقياً، ومستغل اقتصادياً، ومكبّل سياسياً وهو مؤسس الملكية الفردية، ويعتبره روسو أول مجرم عرفته الإنسانية: حيث فقد حرّيته الطبيعية،

¹ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، ص 117.

² - جان جاك شفالبييه، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، ص 481

³ - محمد مفيد الشباشي، الفلسفة السياسية، دار الكشاف للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، د، ت، ن،

ص 80

⁴ - جان جاك روسو، المصدر نفسه، الصفحة نفسها .

وبالتالي هو مؤسس المجتمع السياسي الفاسد المبني على الاستغلال والقوة والقمع والاستعباد والتسلط، وهو مؤسس الملكية الفردية. وهذه الملكية الفردية هي التي أسست للتفاوت الاصطناعي، واللامساواة وما نتج عنها من فروقات اقتصادية واجتماعية وسياسية، فيما بعد وكل ما ينجم عن ذلك من تناحر وصراع وقتال، فأصبحت الأرض مسرحا لاقتتال عنيف ودموي بين البشر من أجل تملك أكثر نصيب من الأراضي، فدفعت البشرية ثمنا باهظا بسبب الملكية والتملك بلا حدود للأراضي، ومن ثمة السيطرة على الآخرين واستغلالهم واستعبادهم فيما بعد.

" كان لابد من تناقل ذلك وإنمائه من جيل إلى جيل، قبل بلوغ هذا الحد الأخير من الحالة الطبيعية، فلنعد إذن لتناول هذه الأمور من أولها ولنستجمع، طي منظور واحد، هذا التتابع البطيء للأحداث والمعارف على ما يجري بها نظامها الطبيعي الأشد".¹

إن الشعور الأول بالألم بالنسبة للإنسان كان شعوره بوجوده، وكان يهتم بحفظ بقائه، وكانت منتجات الأرض تعطي له المعنويات الضرورية التي يبتغيها، ويشتهيها والغريزة كانت تدفعه إلى الإفادة منها. ومنحته الطبيعة كل ما يريد أن يمتلكه أو يستخدمه.² حيث يقول روسو في هذا الصدد: "أول شعور ألم بالإنسان كان شعوره بوجوده، هول إنهمام له، إنهمامه بحفظ بقائه، وكانت منتجات الأرض توفر له كل المعنويات الضرورية، والغريزة تدفعه إلى الإفادة منها. إذ الجوع و اشتهايات أخرى جعلته، المرة تلو الأخرى، يمتحن من الوجود شتى طرقه من بينها واحدة تدفعه إلى استئانة نوعه، وهذا الميل الأعمى كان فيه مجردا من أي شعور وجداني، فلم ينتج إلا عملا حيوانيا صرفا، فلما نقضت اللبان عادات الجنس لا يتعارفان، وحتى المولود عاد لا يعني شيئا في عين أمه حالما أمكنه الاستغناء عنها".³

¹ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، ص 118

² - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 292

³ - جان جاك روسو، المصدر نفسه، الصفحة نفسها

وهذه هي حالة الإنسان في هذه الحالة الطبيعية، حيث كان رؤوفا بغيره من البشر وكان رحيمًا بهم لا يعتدي عليهم، حيث كان كائنًا خيرا بطبعه وكان حرا يتمتع بحقوقه الطبيعية. وكان لم يتبادر إلى ذهنه أن تنتزع منه هذه الحقوق، ويدخل في دوامة من النزاعات والصراعات، كان في غنى عنها. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "ذلك شرط الإنسان لما كان ناشئًا، و تلك حياة حيوان لما كان باديئ ذي بدء، حبيس الإحساسات المحضة، حيوان لا يكاد يستفيد من الهبات التي كانت الطبيعة تعرضها عليه. فما كان ليخطر على باله أن ينتزع منها شيئًا".¹

فالإنسان الطبيعي عند روسو هو إنسان بهيمي، لا يعرف إلا الحاجيات الأولية البيولوجية كالغذاء والشرب والنوم والأنثى، ولم يكن كائنًا اجتماعيًا كما يرى ذلك أرسطو ولم يكن كائنًا أنانيًا يحارب الجميع كما يرى ذلك هوبز. -بل كان خيرا وطيبا كان يتميز بالرفقة مع بني جنسه ولا يعتدي عليهم. "ولم يكن لديه أي رغبة في ايذائهم.² -ولكن المصاعب لم تعتم أن بدت فلزم أن يتعلم التغلب عليها، من ذلك أن علو الأشجار الذي يعوقه من الوصول إلى الثمار، ومنافسة الحيوانات التي تسعى لتقنات بها، و وضراوة الوحوش التي تهدد حياته، كل هذا ألزمه بأن يعمل على ممارسة رياضة الجسد، فكان عليه أن يكون خفيف الحركة، سريعًا في العدو، شديد البأس في القتال، ولم يلبث أن أصبحت الأسلحة الطبيعية، من أعواد أشجار وحجارة بين يديه، وعرف كيف يتغلب على عقبات الطبيعة، وكيف يقاتل الحيوانات الأخرى إذا إضطره الحال، و كيف ينازع الآخرين من أمثاله القوت والغذاء، أو يستعيز عما يجب أن يتنازل عنه الأقوى".³

¹ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، 118

² - جان جاك شفالبييه، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، ص 479

³ - جان جاك روسو، المصدر نفسه، ص 119

وأصبح الجنس كلما ازداد عددا وانتشارا، زادت المتاعب وإن تعدد المناخات واختلاف الأراضي أدى بهم الى تبديل طريقة عيشهم، وتغيير أعمالهم والبحث عن إستحداث طرق جديدة للعيش والعمل. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وكان الجنس البشري كلما ازداد انتشارا، إزدادت المتاعب مع تزايد البشر، فاختلاف الأراضي والمناخات والفصول إضطرتهم إلى تبديل طريقة عيشهم، ورب سنين مجدبة وفصول شتاء قاسية، وفصول صيف محرقة أتت على الأخضر واليابس، فألجأتهم إلى التماس ضرب من العمل الجديد، فعلى شواطئ البحر والأنهار اخترعوا الشص والصنارة، و أصبحوا صيادين وأكلة أسماك." ¹

فكان الإنسان يتأقلم مع الطبيعة التي كان يعيش فيها فصنع أدوات ليصطاد بها فرائسه ليتغذى منها، وإستخدم جلودها لكي تحميه من شر البرد القارس ومن الأمطار، وفي الغابات صنعوا لأنفسهم أقواسا ونبالا، وأصبحوا قناصين وصيادين ومحاربين. وفي الأقاليم الباردة غطوا أجسامهم بجلود الوحوش التي كانوا يقتلونهم، والرعد أو أحد البراكين أو إحدى المصادفات الموفقة كشفت لهم عن النار، ذلك المد الجديد لمجابهة قرس الشتاء، وهكذا تعلموا كيف يحتفظون بهذا العنصر، وكيف يعيدون إنتاجه ثم كيف يطهونه به ما كانوا يلتهمونه قبل ذلك نيئا من اللحم." ²

إن الإنسان تأقلم مع الأوضاع الجديدة التي حدثت، فصنع لنفسه وسائل الصيد وألبسة تقيه من البرد القارس، واكتشف النار بالصدفة من البراكين والرعد والبرق، ومن ثم إكتشف عملية طهي الغذاء بعدما يأكله نيئا ³. "أما الأنوار الجديدة التي إستحصلها الإنسان من هذا النمو، فزادت في تفوقه على سائر الحيوانات الأخرى، إذ كشفت له عن هذا التفوق. وتمرن على نصب الفخاخ للحيوانات، التي كانت تفوقه قوة في القتال أو سرعة في العدو،

¹ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، ص119

² - جان جاك روسو، المصدر نفسه، ص119

³ - جان جاك شفالبييه، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، ص480

فإنه صار، على مر الزمن سيدا على منها وآفة على البعض الآخر.¹، إنها إساءة استعمال الجنس البشري للملكات التي تشرفه.²

وبدأت تدخل إلى نفسية الإنسان صفات الكبرياء والتفوق والتعالي على الآخرين، و كان يصنف نفسه في المرتبة العليا، بين الموجودات بفضل نوعه الإنساني. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وهكذا بعثت في الإنسان أول نظرة ألقاها على نفسه أول حركة من حركات الكبرياء، وهكذا أيضا فإن الإنسان، في حين أنه لا يكاد يميز بعد بين مراتب الموجودات، وفي حين أنه يتأمل نفسه في المرتبة الأولى بفضل نوعه الإنساني، كان يعد نفسه منذ زمن بعيد، لادعاء هذه المرتبة بنفسه بفضل كونه فردا.³ " ولا توجد أي علاقة بين الإنسان و الآخرين: إذ ليس هناك أي علاقة إتصال بين الإنسان الطبيعي، وأقرانه من البشر في الحالة الطبيعية. و لا تعدوا هذه العلاقة مثل علاقاته بالحيوانات الأخرى.⁴، حيث يقول روسو في هذا الصدد: "ومع إن أشباهه من البشر ليسوا بالنسبة إليه ما هم بالنسبة إلينا نحن، لم يكن له بهم إتصال أكثر مما له مع سائر الحيوانات، فما كان ليغفل عنهم في ملاحظته. أن ما علمه إياه الزمن من مطابقات بينهم، أو بينه هو بالذات وبين أنثاه. مكنه من إعتبار تلك التي لا تتركها مشاهدته، وإذا رأى أشباهه أجمعين يتدبرون أمورهم على نحو ما كان فعل في ظروف كظروفهم تلك. استنتج أن طريقة تفكيرهم و إحساسهم مطابقة لطريقته، إذ رسخت هذه الحقيقة الخطيرة في ذهنه، جعلته بفضل ما له من فراسة أوكد وأفطن، من فن الجدل، ويهتدي بأفضل قواعد السلوك خليق به أن يرهاها معهم بغية مصلحته وأمنه."⁵.

¹- جان جاك روسو، في أصل التفاوت بين الناس، مصدر سابق، الصفحة 119

²-جان جاك شفالبييه، المرجع نفسه، ص482

³- جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس، مصدر سابق، ص120

⁴-محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص292

⁵- جان جاك روسو، " في أصل التفاوت بين الناس، مصدر سابق، ص120

وإن هذا الأمن سيصبح في خطر فيما بعد مع ظهور المنافسة والصراع والتناحر والاقتتال على من يملك أكثر. حيث يقول روسو أيضا في هذا الشأن: "إذ علمت التجربة الإنسان أن حب طيب العيش هو الدافع الوحيد للأفعال البشرية، صار قادرا على التمييز بين مناسبات نادرة، وفيها تملي عليه المصلحة المشتركة، أن يعتمد على معونة أشباهه، وبين مناسبات أندر من سابقتها، وفيه يملي عليه التنافس أن يحذر منهم." ¹

في الحالة الأولى كان إتحاد الإنسان بأقرانه من البشر لم يكن إلا بمقتضى الحرية الشخصية للفرد، وأن هذا الاتحاد كان ضربا من التشارك، وأن الحاجة هي التي أملت عليهم ذلك الاتحاد، أما في الحالة الثانية فكان كل واحد من الأفراد يسعى إلى الحصول على مغانمه إما بالقوة المكشوفة، إذا ظن أنه قادر على ذلك، أو بالحيلة إذا أدرك أنه ضعيف على تحقيق ذلك ². حيث يقول روسو في هذا الصدد: " فأما في هذه الحالة فكان يتحد معهم إتحاد القطيع، أو بمقتضى ضرب من التشارك الحر الذي لا يلزم أحدا، فلا يدوم الاتحاد إلا بدوام الحاجة العابرة التي كونته، وأما في الحالة الثانية، فكان كل واحد من البشر يسعى إلى نيل مغانمه إما بالقوة المكشوفة إذا ظن القدرة على ذلك، أو بالكياسة والفتنة، إذا شعر بأنه هو الأضعف." ³

إكتسب الإنسان سلوكا جديدا لم يكن موجودا من ذي قبل، حيث أضحي قابلا للقبول بالتعهدات المتبادلة مع أقرانه، من أجل المصلحة المشتركة بينهم الآنية والقريبة في تلك الفترة الزمنية. وحاول الكثيرون تقدير الغير. ⁴، حيث يقول روسو في هذا الصدد: " هكذا استطاع البشر أن يكتسبوا من دون دراية منهم، ما يشبه الفكرة السالفة عن التعهدات

¹ - جان جاك روسو، في أصل التفاوت بين الناس، " الصفحة 120.

² - جان جاك روسو، في أصل التفاوت بين الناس، مصدر سابق، ص 121

³ - جان جاك روسو، المصدر نفسه، مصدر سابق، الصفحة نفسها

⁴ - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 294

المتبادلة، وعن الفائدة التي تنجم جراء القيم بها قياما لا يكون بقدر ما تتطلبه المصلحة الحاضرة والمحسوسة لا غير، فالتبصر بالأمور لم يكن عندهم شيئا مذكورا، والتطلع إلى المستقبل البعيد كان خفيا عليهم، حتى أنهم ما كانوا يفكرون في غدهم القريب، فلو دعاهم الأمر إلى إصطياد ضبي، لأحس الواحد منهم بوجوب، بالتزامه بأمانة مكانا محددا، -ولكن لو مر أرنب على مقربة من أحدهم فلا تشكن أن، أحدهم سيسعى في طلبه دون تورع، وأنه ما أن يفوز بطريدته حتى يعود غير مبال بأنه أفسد على رفقاءه إصطياد طريدتهم." ¹

ويريد روسو هنا أن يشرح لنا تفسير كيفية الاتصال و التواصل بين الانسان الطبيعي وأقرانه من البشر بطريقة أو بأخرى ولما اخترع الناس الكلام وظهرت فكرة التملك برز الحسد وأصبح الشر متأصلا ². حيث يقول روسو في هذا الصدد : "سهل علينا أن اتصلا مثل هذا ما كان يستوجب لغة ألهم من لغة الغربان والقردة التي تتجمع هي أيضا على نحو ما يتجمع أولئك البشر تقريبا، فما كان يؤلف لزمنا لسانا كليا إنما هو صراخات بلا نبرات، وإيماءات كثيرة، وضروب من الأصوات المحاكية، وكل ذلك أن إقترنت به في كل منطقة بعض الأصوات الملفوظة، و المتواضع عليها مما لا يمكن تفسير تأسيسه، كما ذكرت ذلك سالفا، أعطت السنة خاصة، ولمنها صلفة وناقصة كتلك التي لا تزال جارية إلى اليوم شتى أم متوحشة." ³، لأن أصل اللغة هو الصوت كما يقول ميشال فوكو.

هكذا كان التواصل بين الانسان الطبيعي وأقرانه وبطريقة غريزية سهلة وطبيعية. ويضيف روسو قائلا: "واني وأنا أنصفح كثرة من القرون لأمر عليها مر الكرام، يكرهني

¹ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، ص 121

² - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 293

³ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، ص 121

على ذلك انسياب الزمن وغزارة الأشياء التي علي أن أقول فيها قولي، والتقدم المتدرج للبدائيات تقدما لا يكاد يلحظ ذلك أن الأحداث كلما كان تتابعها بطيئا كان وصفها سريعا.¹

(3) -التقدم وتطور سلوك الانسان:

إن هذه التقدّمات الأولى هي التي مكنت الإنسان من تحصل له تقدّمات سريعة من سابقاتها، وكلما إستتار العقل تكاملت أفعاله، وأعماله أكثر حيث صنع الأكواخ من أغصان الشجر ومن وحل الأرض وكان هذا بداية لثورة قد نشأت في الأسر²: حيث يقول روسو في هذا الصدد: " هذه التقدّمات الأولى مكنت الإنسان أخيرا من أن يأتي تقدّمات أسرع من سابقاتها. وكلما إستتار الذهن تكامل العمل أكثر. وسرعان ما كف الإنسان عن أن ينام تحت أول شجرة يلقاها عن أن ينزوي إلى الكهوف، إذ إهتدى إلى ضرب من الفؤوس الحجرية الصلبة، والقاطعة فإستخدمها لقطع الخشب، ولكي يحفر الأرض وصنع أكواخا من الأغصان طلاها فيما بعد بالطين والوحل، فكان ذلك عهد ثورة نشأت فيها الأسر.³

إن ظهور الملكية سبب الكثير من الشرور والصراعات بين البشر والاقنتال، من أجل من يملك أكثر حيث حدثت حروب ضروس ودامية بين البشر، من أجل التملك والسيطرة على الغير والآخرين، وإن القوة هي العنصر الوحيد التي تمكن الانسان من التملك والسيطرة و حماية أملاكه.⁴ حيث يقول روسو في هذا الصدد: " وتميزت عن بعضها البعض، وابتدع فيها ضرب من الملكية سبب كثيرا من الخصام والقتال، منذ ذلك الزمان. وأرجح الظن أن أقوى الناس هم أول من أعدوا لأنفسهم مساكن، و حدسوا في أنفسهم القدرة على حمايتها.

¹ - جان جاك روسو، في أصل التفاوت بين الناس، الصفحة 121

² - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 292، ص 293

³ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، ص 122

⁴ - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 295

فخليق بنا أن نعتقد أن الضعفاء، رأوا أيسر لهم وأسلم أن يقتدوا بالأقوياء في بناء الأكواخ، من أن يحاولوا طردهم منها.¹

—أما الذين كانت لديهم أكواخ قبلئذ، فما من أحد سعى حقا إلى تملك كوخ جاره ولم يكن ذلك منه لأن الكوخ ليس ملكا له، بقدر ما كانت قلة النفع فيه وإمتناع الاستحواذ عليه، من دون أن يعرض نفسه لقتال عنيف مع الأسرة التي تحتل المكان.²

وفي هذه الفترة بدأت تظهر علاقات وجدانية جديدة، حيث كانت نتيجة لظهور وضع جديد كان كفيلا لتأسيس الأسرة ولعيشها معا في مسكن واحد. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وأول تطورات الوجدان كانت نتيجة وضع جديد، ذلك الذي جمع في مسكن بين الأزواج و الزوجات بين الأبناء والإباء، وولدت عادة العيش معا أعذب المشاعر التي عرفها البشر: العشق والحنان، فكل أسرة أصبحت مجتمعا صغيرا، قد زاد في توثيق اتحاده أن الحرية و الوداد المتبادل كان الرابطتين الوجدتين بين أفرادها."³

فتعتبر الأسرة هي الشكل المصغر الشبيه بالنسبة إلى المجتمع المدني، وإن الأسرة هي البداية الأولى لتشكيل التجمعات الإنسانية والمجتمعات السياسية فيما بعد ولا تقوم إلا على الإتفاق الحر⁴، حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وعندئذ قام أول فرق في طريقة العيش بين الجنسين بعد، إن لم يكن بينهما سوى فرق واحد من قبل، فالنساء أصبحن أكثر

¹ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، ص122

² - جان جاك روسو، "المصدر نفسه"، ص122

³ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، الصفحة نفسها

⁴ - مهدي محفوظ، اتجاهات الفكر السياسي الحديث والمعاصر، مرجع سابق، ص147

استقراراً، وتعودنا على حراسة الكوخ و الأبناء، في حين أن الرجال يخرجون إلى طلب وسائل العيش المشترك.¹

وبدأ الانسان الطبيعي يألف ويبغي الحياة مع الآخرين²، ومن ثمة إقامة علاقة مع الآخرين والتعاون معهم، من أجل: الائتمان من خطر وشرور الحيوانات المفترسة الأخرى معهم. وبدأ طبعه يتغير مع مرور الوقت.³ حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وبدأ الجنس البشري أيضاً يفقدان بعض من شراستهما، وعنفوانهما لتوسلها طريقة في العيش تميل إلى الدعة، ولكن لما أصبح كل واحد من البشر غير قادر على مكافحة الحيوانات الوحشية بمفرده، غدا من الأسهل على البشر أن يتجمعوا لمقاومتها مقاومة جماعية. وإذا كانت للبشر الحالة الجديدة هذه، يطرقون فيها عيشاً بسيطاً ومنعزلاً، وكانت حاجاتهم محدودة وفي غاية الحد، وكانت لهم، اخترعوها توسلاً إلى تلك الحاجات، وتمتعوا بأوقات فراغ كثيرة عددا وعدة، فاستخدموها لتوفير أسباب راحة ورفاه لم يكن يعرفها آباؤهم."⁴

وكان هذا أول نير فرضوه على أنفسهم، دون أن يفطنوا ذلك كما كان أول مصدر للشرور مما هيأوه لسلالتهم من بعدهم : فعدا أنهم بهذا ظلوا منصرفين إلى الدعة و إماعة أجسادهم وأرواحهم، فإن ضروب الرفاهية هذه، وقد فقدت بحكم العادة إمتاعها وانقلبت في الوقت عينه إلى حاجة حقيقية، و فإن قسوة الحرمان أكثر من عذوبة حيازتها، وهكذا كان المرء شقياً لفقدانها دون أن يكون سعيداً بتملكها.⁵

¹ - جان جاك روسو، " في أصل التفاوت بين الناس، المصدر نفسه، الصفحة 122

² - جان جاك شفالبييه، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، ص 481

³ - جان جاك شفالبييه، المرجع نفسه، الصفحة نفسها

⁴ - جان جاك روسو، " في أصل التفاوت بين الناس، مصدر سابق، ص 122

⁵ - جان جاك روسو، المصدر نفسه، ص 123

يفسر هنا روسو لنا كيف ظهرت اللغة، وكيف بدأ التواصل بين الجنس البشري وكيف تم التعامل بالكلام والتخاطب بينهم.¹ حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وهنا نستشف على نحو أفضل ولو قليلا، كيف إستقر أو كيف تكامل استعمال الكلام داخل كل أسرة على نحو طفيف، كما أنه يمكن أن نخمن أيضا كيف أن أسبابا معينة مختلة أدت إلى انتشار اللغة، فسارعت في تقدمها بأن جعلتها ضرورية، أكثر من ذي قبل، فلرب فيضانات كبرى أو زلزال حوطت بالماء، و بالهوات السحيقة أقطارا أهلة بالسكان."²

وحدثت ظواهر وعوامل طبيعية غيرت من وجه الكرة الأرضية، ومن الأقاليم الجغرافية و ساعدت على حصول الاجتماع بين الأفراد فيما بينهم والتقرب أكثر من بعضهم البعض، ومن ثمة التواصل بلغة بينهم. حيث يقول روسو في هذا الصدد: " ولرب انقلابات حصلت في الكرة الأرضية، فاقتطعت من العالم القاري أقاليم وأحالتها جزرا. من السهل إذا أن نتصور أنه لزم أن تنشأ لغة جارية بين أقوام اقتربوا هكذا من بعضهم البعض و اضطروا إلى العيش سويا، لزوما هو بينهم مما بين أقوام كانوا يهيمنون على وجوههم أحرارا في غابات اليابسة على هذا النحو، فإنه من الممكن جدا أن أناسا من سكان الجزر، بعد أن عرفوا فن الفلاحة، قد حملوا إلينا استعمال الكلام، ومن أرجح المرجحات، في أدنى الحالات، إن المجتمع والألسنة نشأ داخل الجزر، و تكاملا قبل أن يعرفا داخل القارات ".³

ومع هذا التغير الكلي أصبح كل شيء يتغير، ويتبدل فالبشر الذين كانوا إلى ذلك الوقت متفرقين في الغابات اتخذوا لأنفسهم موطنًا ثابتًا، و أصبحوا يتقاربون شيئا فشيئا ويجتمعون داخل مجتمعات حيث ألفوا فيما بعد أمة خاصة في كل قطر، لها آداب وعادات خاصة بها. لكن حينئذ هناك احتمال كبير بأن الأمور وصلت إلى حد لا يمكن معه الرجوع

¹ - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 293

² - جان جاك روسو، " المصدر نفسه، _ الصفحة نفسها

³ - جان جاك روسو، في أصل التفاوت بين الناس، مصدر سابق، ص 124

الى الورا. ¹ حيث يقول روسو في هذا الصدد: "ثم بدأ وجه كل شيء يتبدل، البشر الذين كانوا إلى ذلك اليوم مشردين في الغابات اتخذوا لأنفسهم موطناً أثبت، وراحوا يتقاربون شيئاً فشيئاً، ويجتمعون داخل شتى الفرق، ليؤول أمرهم إلى تأليف أمة خاصة في كل قطر، متحدة الآداب العادات و التقاليد والطبائع دون النظم والقوانين، و ذلك بحكم نمط واحد من الحياة والأغذية، و بحكم تأثير المناخ المشترك، لا بد من المجاورة الدائمة أن توجد في نهاية المطاف، بعض الروابط بين الأسر. وهناك شباب من الجنسين يسكنون في أكواخ متجاورة، والاختلاط العابر الذي تقتضيه الطبيعة بينهم، لا يلبث أن يجلب معاشرة ليست أقل منه عذوبة و إنما أكثر دواما." ².

وهكذا يتعود المرء على اعتبار موضوعات متغايرة وعلى إجراء المقارنات، ويكتسب بدون وعي منه معاني الاستحقاق والجمال، وهي المعاني التي تولد الشعور بالأفضلية في الإنسان ³. "لفرط ما يتلاقى البشر لم يعد يسعهم أن يستغنوا عن التلاقي، فتسلل إلى النفس عاطفة حنون وهادئة، ما أن تلقى أقل مواجهة حتى تتحول إلى سورة غضب جارفة، وتستيقظ الغيرة مع الحب، فينتصر الشقاق، وتجازى أرق الأهواء بتضحيات تدفع من دم البشر." ⁴.

ومن هنا تبدأ العلاقات تتأسس بين البشر، و يبدأ التآنس بين البشر و تظهر سلوكيات جديدة و طبائع جديدة لدى الإنسان. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وبينما تتعاقب الأفكار و المشاعر، ويزداد الروح و القلب مراسا، يتابع الجنس البشري تآنسه، فتتسع العلاقات وتتوثق الروابط، يتعود البشر على التعود أمام أكواخهم، أو حول دوحة من الشجر: وهكذا نرى الغناء و الرقص، وهما وليدا الحب و اللهو الحقيقيان يصبحان تسلية

¹- جان جاك شفالبييه، تاريخ الفكر السياسي، ص 480

²- جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، ص 124

³- جان جاك شفالبييه، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، ص 481، ص 482

⁴- جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، ص 124

للناس، أو بالأحرى يصبحان الشغل الشاغل للرجال و النساء العاطلين والمحتشدين معا. يشرع كل واحد منهم ينظر إلى الآخرين، و هو يريد أن يكون هو ذاته منظورا إليه حتى صار لحظوته بين الجمهور ثمن يدفعه، فإن أكثرهم إجابة للرقص أو الغناء، وأجملهم و أقواهم و أوفرهم لباقة أو فصاحة هم أكثرهم مدعاة. ¹ . ومن هنا بدأت أولى الخطوات نحو التفاوت، ونحو الرذيلة في آن واحد ومن هذه المفاضلات ظهر الاعتزاز بالنفس والازدراء والاحتقار من جهة، ونشأ الحياء والحسد من جهة وكل هذه الأسباب أدت الى فقدان السعادة البشرية، والى تجسيد شؤم البشر وشره. ² حيث يقول روسو في هذا الصدد: "للتقدير ههنا : كانت أول الخطوات نحو التفاوت، ونحو الرذيلة في وقت معا، فمن هذه التقضيلات نشأ الاعتزاز بالنفس والاحتقار من جهة، ونشأ الحياء والحسد من جهة أخرى، وهكذا في نهاية الأمر، أنتج هذا الاختمار الذي سببته هذه الخمائر الجديدة مركبات كانت شؤما على السعادة والبراءة." ³

وإن الأخلاق الاصطناعية المزيفة والآداب النفاقية المصطنعة أثرت تأثيرا سلبيا على السلوك الإنساني، وعلى طبعه وطبيعته وعلى أفعاله وظهر معه سلوك مصطنع. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "ومن هنا تأتت أولى الواجبات التي لأدب المجاملة، حتى بين المتوحشين من البشر، ومن هنا أيضا صار كل خطأ إرادي إهانة، إذ بالعلوة على الذي يلي الناتج عن المسبة كان من يساء إليه، يرى في ذلك الخطأ الإرادي إحتقارا لشخصه، أقوى في أغلب الأحيان من الأذى نفسه." ⁴ . وأصبح الإنسان يؤول بنفسه حق تنفيذ القانون الطبيعي، المتمثل في حق الاقتصاص والردع على الاعتداءات التي كان

¹ - جان جاك روسو، في أصل التفاوت بين الناس ، الصفحة 124

² - جان جاك شفالبييه، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، ص 482

³ - جان جاك روسو، في أصل التفاوت بين الناس، مصدر سابق ص 125

⁴ - جان جاك روسو، " المصدر نفسه " ، الصفحة نفسها

يتعرض لها.¹ " وهكذا كان كل واحد من البشر يرد على ما يلقاه من إحتقار، بعقاب تتناسب طريقته مع الحالة التي يقدرها هو بالذات لنفسه، حتى لأصبحت ضروب الانتقام فضيعة، وصار البشر قساة وسفاحين.²

وفي هذا يتفق روسو مع أرسطو الذي قال أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يستطيع تطوير الأذى لأنه توجد فيه بذرة من التمدن، وفيه أيضا بذرة من التوحش حسب أرسطو. "هذه على وجه التدقيق الدرجة التي ألت إليها أكثر الشعوب المتوحشة التي نعرفها، وإذا كان الكثيرون قد تسرعوا في الاستنتاج أن الإنسان فظ بطبعه، وأنه في حاجة إلى الوازع المدني حتى تلين عريكته، فذلك لأنهم لم يميزوا بين الأفكار حق التمييز، و لم يلاحظوا كم صارت هذه الشعوب بعيدة عن حالة الطبيعة.³

وإن هذا ليس أطيّب من سلوك الإنسان الطبيعي في حالته البدائية، وأن الإنسان كان رؤوفا بأقرانه من البشر ورحيما حيث كان يتعاطف معهم، لما يصيبهم من آلام وأمراض وعاهات. حيث يقول روسو في هذا الشأن : "في حين ليس هناك من شيء أليّن من عريكة من الإنسان في حالته البدائية، لما وضعته الطبيعة في حد أوسط بين غباء البهائم و أنوار الإنسان المدني السيئة الطالع، ولما كان مجبولا أيضا بالغريزة وبالعقل ،على إنقاء الأذى الذي يتهدهد، إذ ذاك كان التحنن الطبيعي يزعه عن فعل الشر، من تلقاء نفسه لأي شخص كان، من دون أن يدفعه إلى ذلك دافع.⁴

فبدأ الصراع بين الناس مع ظهور الملكية الفردية، ومع ظهور فكرة التملك للأرض والسيطرة على الآخرين والتسلط عليهم، و أصبحت القوة هنا العنصر الأساسي التي تحدد

¹ - جان جاك شفالبيه، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، ص 481

² - جان جاك روسو، في أصل التفاوت بين الناس ، الصفحة 125

³ - جان جاك روسو، في أصل التفاوت بين الناس،" مصدر سابق، الصفحة نفسها

⁴ - جان جاك روسو، المصدر نفسه، ص 125.

مصير الحياة والملكية للأرض¹، وباقي الأشياء هنا في هذه الفترة التي يتكلم عليها "روسو". حيث يقول روسو في هذا الصدد: "حتى بعد أن يلقي الشر عن غيره، فكما يقول المثل المأثور عن "لوك" الحكيم "حيث لا توجد ملكية لا توجد شتيمة"، ولكن ينبغي أن نلاحظ أن المجتمع و قد تم له البدء، والعلاقات قد أرسيت بين البشر، فلقد إقتضى ذلك من البشر صفات تختلف عن تلك التي جاءتهم من تكوينهم البدائي".²

إن انقطاع المساواة سيؤدي الى فوضى عارمة³، فدخل الإنسان في حالة فوضى شاملة وفي حالة حرب وصراع مع أقرانه من البشر، ودخل في حالة حرب مع الآخرين وفي تناحر مستمر معهم. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وأن الطابع الأخلاقي إذ أخذ يتسرب إلى الأفعال الإنسانية، و كان كل إنسان حكماً أوحده يثار لنفسه عما يلقاه من إساءات قبل ظهور القوانين، فإن الخيرية التي كانت تلائم الحالة الطبيعية الخالصة، لم تعد تلك التي تلائم المجتمع الناشئ، وأنه كان لابد للعقوبات من أن تصير أشد صرامة بقدر ما تصبح شروط الإساءة أكثر توتراً".⁴

عندما أصبح الإنسان قاضي ومنفذا ومشرعا للقانون الطبيعي، أصبح من غير الممكن الأخذ بمعيار للاحتكام بين الإنسان وبقية خصومه، وهذا ما أدى الى ظهور التوتر بين الناس وفي هذه يتفق روسو مع جون لوك: في قضية تأويل وتنفيذ القانون الطبيعي. "ولا بد لرعب الانتقام من أن يقوم مقام الوازع القانوني. وهكذا و مع أنه قد قل جلد الناس واعتري بعض الوهن تحننهم الطبيعي، فإن هذه الحقبة من نمو الملكات الإنسانية، وهي التي كانت

¹ -جان جاك شفالبييه، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، ص482

² -جان جاك روسو، " المصدر نفسه، الصفحة نفسها .

³ -جان جاك شفالبييه، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، ص481

⁴ -جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، ص126

وسطا بين بلادة الحالة البدائية، و عنفوان حبنا الشخصي النشيط. كانت أسعد الحقبات وأكثرها دواما بال لزوم".¹

ويرى روسو أن هذه الفترة كانت أفضل الفترات من فترات النمو الإنساني، وهي فترة وسطى بين الحالة الطبيعية والحالة المدنية وأن هذه الفترة كانت فترة أقل عرضة للثورات وأفضلها للإنسان²، حيث يقول روسو في هذا الصدد : "وكلما أمعنا النظر فيها، زدنا يقينا بأنها كانت أقل عرضة للثورات، و أفضلها للإنسان. وبأن الإنسان ما كان ينبغي له الخروج منها، لولا إحدى المصادفات المشؤومة التي ليّتها لم تحدث قط، حتى تحصل المنفعة المشتركة. أما مثال المتوحشين الذين ما زلنا نلقاهم على هذه الحالة جميعا، فالبادئ منه أنه يثبت أن الجنس البشري جعل لكي يستقر فيها دائما. وإن هذه الحالة هي شباب العالم، وأن كل خطوات التقدم اللاحقة، كانت في ظاهرها وبمقدارها خطوات نحو كمال الفرد، وكانت في الحقيقة خطوات نحو هرم النوع بأكمله".³

ويشبهه روسو أيضا هذه الفترة بفترة شباب العالم، وأن كل خطوات نحو التقدم فيما بعد في الحقيقة كانت خطوات نحو الانحطاط، وإلى الفساد و سقوط النوع البشري في الهاوية واندثاره. "و البشر ما داموا راضين بأكواخهم ذات البناء الخشن، وما داموا يقتصرون على خياطة الجلود ملابس بأشواك النبات أو الحيتان، والازديان بالريش أو بالأصداف، وصبغ أجسامهم بشتى الألوان، وعلى صقل سهامهم و أقواسهم و زخرفتها، وعلى شذب بعض قوارب الصيد أو بعض الآلات الموسيقية الخشنة بالحجارة الحادة، أي ماداموا في جملة القول، لا يتعاطون من الأعمال إلا ما يستطيع الواحد منهم القيام به بمفرده، ومن الصنائع إلا ما لا حاجة فيه لتعاون الكثير من السواعد، فقد عاشوا أحرارا أصحاب محبين للخير

¹ - جان جاك روسو، في أصل التفاوت بين الناس ، ص126

² - جان جاك شفالبيه، تاريخ الفكر السياسي ، ص482

³ - جان جاك روسو، في أصل التفاوت بين الناس ، مصدر سابق، ص127

سعداء ما استطعوا بطبيعتهم، واستمروا يتمتعون فيما بينهم بنعيم معاشرة تقوم على الاستقلال.¹، وإن المعاونة بين الأفراد لم تكن موجودة في الحالة الطبيعية الأولى، وأن الظروف هي التي أملت فيها بعد، وما إن بدأت تظهر اللامساواة حتى أصبح العمل ضروريا، وتأسست الملكية بينهم فيما بعد، حيث يقول روسو في هذا الصدد: "ولكن ما إن احتاج إنسان لمعونة لإنسان آخر، وما أن تبين أنه من النافع لشخص واحد أن يكون زاد شخصين إثنين، حتى اضمحلت المساواة وتسربت الملكية بينهم، وصار العمل ضروريا²، وتحولت الغابات الواسعة حقولا باسماء وجب أن تروى بعرق البشر، ولم تلبث العبودية ولم يلبس البؤس ينبتان ينمو الحصاد."³.

4 (ظهور الصناعة والزراعة:

إن إختراع فن الصناعة المعدنية والزراعة، أدى إلى إحداث ثورة صناعية كبيرة وإلى حدوث التقدم المدني والسير قدوما نحو تأسيس الحضارة والتقدم والتطور.⁴ حيث يقول في هذا الشأن: "كانت الصناعة المعدنية والزراعة ذلك الفنين اللذين أدى اختراعهما إلى هذه الثورة الكبيرة، وهكذا فإن سبب تمدن البشر وهلاك النوع البشري إنما هو الذهب و الفضة بالنسبة إلى الشاعر، وهو الحديد والحنطة بالنسبة إلى الفيلسوف، لذلك لم يعرف متوحشو أمريكا لا هذا الفن و لا ذاك، فظلوا كما هم. ويبدو أن الشعوب الأخرى ظلت على بربريتها ما ظلت تزال أحد الفنين دون الآخر."⁵، فالحديد لعب دورا هاما في تقدم و تطور أوروبا اقتصاديا، وكانت سبابة إلى التقدم الصناعي، كونها منطقة غنية بالحديد، ولديها ثروة هائلة

¹ - جان جاك روسو، في أصل التفاوت بين الناس، ص127

² - جان جاك شفالبييه، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، ص482

³ - جان جاك روسو، في أصل التفاوت بين الناس، ص128

⁴ - جان جاك شفالبييه، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، الصفحة نفسها

⁵ - جان جاك روسو، المصدر نفسه، الصفحة 128

في هذا المعدن. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "ومن أوجه الأسباب التي تغل لماذا كانت أوروبا مقارنة بغيرها من مناطق العالم الأسبق أو على الأقل الأفضل، والأثبت تنظيماً سياسياً فريماً كونها أغنى البلاد حديداً وأخصبها قمحاً".¹

وإن الحديد ساهم في تطور الصناعة بابتكار الآلات، وصناعة آلات جديدة تحل محل الجهد البشري الذي يقوم به الإنسان أثناء العمل، وساهمت في تحريك آلة الإنتاج وتطوير وازدهار الاقتصاد الأوروبي وتقدم الحضارة والأمم الأوروبية صناعياً وتقنياً. ومن الصعب أن نعرف كيف وصل البشر إلى اكتشاف معدن الحديد وكيف استعملته البشرية في البداية. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "من العسير غاية العسر، أن نتكهن كيف توصل البشر إلى معرفة الحديد واستعماله، ذلك أن ما لا يصدق هو أن يكونوا قد تخيلوا من تلقاء أنفسهم كيف يستخرجون مادة الحديد من المنجم، وكيف يجرون عليها التحضيرات اللازمة لصهرها، وهم لا يعرفون بعد ما الذي سينتج من ذلك".²

لا يمكن أن نعرف كيف وصلت البشرية، وبأي طريقة تم إكتشافه، وكيف إكتشفت هذا المعدن ومتى حدث ذلك. هل حدث صدفة أم لا أم نتيجة حريق عارض، وستتلو ثورة الحديد ثورات أخرى.³ ويقول روسو في هذا الشأن: "ومن جهة أخرى، لا يمكن أن ينسب هذا الاكتشاف إلى حريق عارض، لأن المعادن لا تتكون إلا في الأماكن الجديبة العارية من الشجر والنبات، فكأننا بالطبيعة قد إحتاطت للأمر حتى تخفي علينا هذا السر المحتوم. لم يبق، إذا، إلا أن نفترض ظرفاً لا سويلاً أحدثته إحدى البراكين، فإذا كانت تقذف حمماً معدنية منصهرة أوحت للمراقبين إذاك بأن يقلدوا هذه العملية الطبيعية، ومع ذلك لا بد لنا، في هذه الحالة، من أن نفترض أن لهؤلاء المراقبين من الشجاعة، ومن التبصر بالعواقب

¹ - جان جاك روسو، في أصل التفاوت بين الناس، الصفحة 128

² - جان جاك روسو، في أصل التفاوت بين الناس، مصدر سابق، الصفحة نفسها

³ - جان جاك شفالبييه، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، ص 482

لكي يقوموا بعمل شاق جدا، و يتبينوا من موقعهم السحيق تلك الفوائد التي يمكنهم أن يجنوها من تلك العملية، وهذا مما لا يصح أن ينسب إلا إلى أذهان كانت قبلئذ أكثر مراسا مما كانت عليه عقولهم.¹

إن الإنسان عرف مبادئ الزراعة قبل ممارستها بزمن بعيد، لأن الطبيعة هي التي تمدهم بالغذاء، و بقوت يومهم ومن ذلك تفتنوا إلى الطرق التي تستخدمها الطبيعة لتوليد النبات²، حيث يقول روسو في هذا الصدد: "أما الزراعة فقد عرفت مبادئها قبل ممارستها بزمن طويل، والبشر قد دأبوا في استخراج أقواتهم بلا انقطاع من الأشجار والنباتات، فليس من الممكن ألا يفتنوا بسرعة إلى الطرق التي تستخدمها الطبيعة لتوليد النبات، على أنه من الراجح أن أعمالهم لم تتجه هذه الوجهة إلا في وقت متأخر، إما لأن الأشجار وكذلك صيد الحيوانات البرية، والمائية تدمهم بالقوت دون ما حاجة إلى الاعتناء بها، إما لجهلهم استعمال القمح، و إما إنعدام أدوات حراثة الأرض عندهم، وإما لفقدانهم التبصر بالقادم من الحاجات."³

وأما أخيرا لأنه لا يملكون ولم يكن لديهم من الوسائل والإمكانيات والآليات، و ما يصد الآخرين عن الاستيلاء على محاصيلهم وعلى ثمار عملهم، فلما صاروا يجدون أكثر في العمل⁴، "بات من المرجح أنهم قد استعانوا بحجارة حادة، وبعض مزرية ليبدأوا بزرع بعض البقول أو الجذور بالقرب من أكواخهم، وذلك قبل أن يعرفوا إعداد القمح بوقت طويل، وقبل أن تتوفر لهم الأدوات اللازمة للزراعة الكبرى."⁵

¹ - جان جاك روسو، " في أصل التفاوت بين الناس، ص129

² - جان جاك شفالبييه، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، ص481

³ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس" ، مصدر سابق، الصفحة نفسها

⁴ - جان جاك روسو، المصدر نفسه ، مصدر سابق" ص129

⁵ - جان جاك روسو، المصدر نفسه ،" ص129

هكذا كانت البدايات الاولى للفلاحة والزراعة، حيث كان لابد لقوة يد عاملة لزرع هذه الأراضي الشاسعة ولحصد المحاصيل أيضا.¹، "ولا يغبين عن الذهن أنه لأجل القيام بهذه الأعمال و لبذر البذور، لا بد من الإقدام على خسارة بشيء عاجلا لكسب الكثير آجلا، وكما سبق أن أشرنا إلى ذلك سابقا، فإن هذا الاحتياط بعيد جدا كل البعد عن فطنة الإنسان المتوحش الذي يجد مشقة في أن يفكر، عند الصباح، في ما يحتاج إليه في المساء."²

أما فيما بعد فوجدت الصناعات الأخرى نظرا لوجود ظروف إكراهية، على عمل الزراعة والفلاحة. وأن الحاجة هي التي أملت لهم لوجود مهن كصهر الحديد وصقله، ومهن أخرى لتوفير الغذاء.³ حيث يقول روسو في هذا الشأن: "ومن ثم كان إختراع الصناعات الأخرى أمرا لإكراه الجنس البشري على تعاطي فن الزراعة. ومنه دعت الضرورة إلى وجود أناس لصهر الحديد وطرقه، وجب وجود آخرين لتوفير الغذاء لهم."⁴

إن الزراعة كانت لابد لها من وجود حتى مع ظهور الصناعة، لأنها تساهم في إنتاج الغذاء والقوت المشترك لهؤلاء العمال المتزايدين في العدد باستمرار. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "ولما ازداد عدد العمال، قلت السواعد المستخدمة لتوفير القوت المشترك، والحال أن عدد الأفواه لم يتناقص، أما وقد لزم لبعض الناس أن يحصلوا على الميرة بدلا لما لهم من حديد، فقد إهتدى البعض الآخر إلى سر استعمال الحديد لتكثير الميرة."⁵

¹-مهدي محفوظ، اتجاهات الفكر السياسي الغربي الحديث، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الاولى 1990، بيروت لبنان، ص146

² - جان جاك روسو، المصدر نفسه، الصفحة نفسها

³- جان جاك شفالبيه، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، ص481

⁴- جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، الصفحة نفسها

⁵- جان جاك روسو، المصدر نفسه، ص130

وظهر فن الزراعة والحرث وظهرت مهن معالجة المعادن والتعدين ، وصهرها وتحويلها.¹ ويقول روسو في هذا الصدد: " ومن هذا نشأ الحرث والزراعة من ناحية ، ونشأ فن معالجة المعادن وتعدد وجوه استعمالها ، من ناحية أخرى ، فكان في حكم الضرورة أن تؤدي زراعة الأرض إلى تقسيمها ، وأن يؤدي الاعتراف بالملكية إلى أولى قواعد العدل ، فمن أجل أن يعاد لكل واحد من الناس " ما له "، ينبغي أن يكون كل واحد منهم " له " شيء ما.² كل هذه الأمور والعوامل أدت الى ظهور قواعد العدل وتثبيت القوانين وتنظيم المجتمع وهكذا³، " زد على ذلك أن البشر، إذ أخذوا يتجهون بأنظارهم إلى المستقبل، وإذ رأوا كلهم أن لديهم من الممتلكات ما هو عرضة للضياع فإنه لم يكن بينهم أحد أبدا، إلا ويخشى على نفسه من العقوبات انتقاما للأضرار التي قد يلحقها بالغير "⁴. ومن هنا بدأت تظهر بذور الحرب التي نادى بها توماس هوبز في كتابه التتين والتي كانت حالة حرب الكل ضد الكل. "وإن هذا الأصل لطبيعي تماما حتى أنه من المحال علينا أن نتصور فكرة الملكية تنشأ من شيء آخر، إن لم يكن من اليد العاملة، فمن أجل أن يمتلك الإنسان أشياء لم يخلقها قط، لا نرى ما عساه يضيف عليها أكثر من عمله. "⁵

وإن العمل هو الذي يضيف على الأرض صفة الملكية، ومن ثمة تملكها وتملك المحصول و المنتج الزراعي الذي ينتج من تلك الأرض⁶، كما يرى لوك وروسو ذلك. حيث يقول روسو في هذا الشأن: " إذ و أن هذا العمل قد منح المزارع حقا على محصول الأرض التي حرثها، فإنه العمل الوحيد الذي يمنحه بالنتيجة حقا على الأرض ذاتها حتى زمن

¹- مهدي محفوظ، اتجاهات الفكر السياسي الغربي الحديث، مرجع سابق، ص146

²- جان جاك روسو، المصدر نفسه، ص130

³-محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، ص295

⁴- جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، ص130

⁵- جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، ص130 .

⁶-جان جاك شفالبييه، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، ص481

الحصاد على الأقل، وهكذا فإن ما كون حيازة متواصلة، سنة بعد سنة، يتحول بسهولة إلى ملكية.¹

"ويذهب غروسيوس إلى أن القدماء عندما أطلقوا على "سيريس" لقب آلهة التشريع، ثم عظموها بأن أقاموا لها عيداً أطلقوا عليه اسم "عيد المشرعات"، عنوا بذلك أن تقسيم الأرض قد أوجد نوعاً جديداً من الحق، وهو حق الملكية الذي يختلف عن الحق الناشئ عن قانون طبيعي.²

وكان لابد في هذه الحالة أن تظل الأمور متساوية، و أن تكون هناك عدالة توزيعية بين المواهب، والقدرات كمثال لذلك توازن بين استعمال الحديد واستهلاك الميرة.³، حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وكان من الجائز في هذه الحالة أن تظل الأمور متساوية لو أن المواهب كانت متساوية كأن تكون، مثلاً، كفتا الميزان متعادلتين دائماً بين استعمال الحديد وإستهلاك الميرة، ولكن سرعان ما انفك التوازن بينهما، إذ لم يكن له من ضابط يضبطه".⁴، وكل واحد كان يستعمل إمكانياته ومهارته للحصول على ما يبتغي، و إلى تلبية حاجياته، ويظهر بأنه أفضل من أقرانه. " كان أقوى الناس من كان أوفرهم إنتاجاً و وكان اللبق يستفيد من لباقتة، وكان اللبيب يكتشف وسائل لاختصار عمله، وتارة كان المزارع أكثر حاجة إلى الحديد، و أخرى كان الحداد أحوج للقمح، وهكذا يكتسب الكثير وذاك بالكاد له ما يقتات منه.⁵

¹ - جان جاك روسو، في أصل التفاوت بين الناس ، الصفحة 130

² - جان جاك روسو، المصدر نفسه، الصفحة نفسها

³ - مهدي محفوظ، اتجاهات الفكر السياسي الغربي الحديث، مرجع سابق، ص 146

⁴ - جان جاك روسو، في أصل التفاوت بين الناس ، مصدر سابق، ص 130.

⁵ - جان جاك روسو، " المصدر نفسه ، ص 131

5) -بداية ظهور التفاوت الاصطناعي:

من المرحلة السابقة بدأ التفاوت بين الناس يظهر للعيان، وأرسيت البذور الأولى للتفاوت بين البشر من هذه الصفات، والفروق التي يتمتع بها كل إنسان على حساب الناس الآخرين و أقرانه من البشر ¹. "و هكذا يتبلور التفاوت الطبيعي مع التفاوت المركب رويدا، رويدا كما أن الفروق بين البشر، وقد زادت نمو الفروق الظرفية، تصبح أبرز و أدوم من حيث نتائجها، وتأخذ تؤثر في مصير الأشخاص بالنسبة لنفسها." ². بدأ التفاوت في الظهور للعيان مع اختراع الفنون الأخرى، و مع تطور اللغات و تقدمها، و تطوير في استخدام المواهب بدأ التفاوت يكبر ويحدث فجوة كبيرة بين الناس ³، حيث يقول " روسو" في هذا الصدد : "وإذ بلغت الأمور هذا المبلغ، فمن السهل أن نتخيل البقية، لن أتولى وصف ما تعاقب من اختراعات لفنون أخرى، و لا وصف طراً على اللغات من تقدم، و لا وصف ما جرى من إختبار وإستخدام للمواهب، ولا التفاوت في الحظوظ، ولا الانتفاع بالثروات أو الشطط فيها." ⁴

وحدثت تفاصيل جديدة والتي تنشأ من هذه الأشياء، والتي يمكن لكل فرد أن يلاحظها، ويفهمها بطريقة سهلة والذي أسس إلى نسق جديد للأشياء. حيث يقول روسو في هذا الصدد: " ولا غير ذلك من التفاصيل التي تنشأ عن هذه الأشياء، والتي يسهل على كل إنسان ان يستدركها نفسه، و إنما سأكتفي بإلقاء نظرة واحدة على الجنس البشري، من زاوية موقعه في نظام الأشياء الجديد هذا." ⁵

¹-محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص294

²- جان جاك روسو، " في أصل التفاوت بين الناس "، مصدر سابق، الصفحة 131

³- مهدي محفوظ، اتجاهات الفكر السياسي الغربي الحديث، مرجع سابق، ص146

⁴- جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، الصفحة نفسها

⁵- جان جاك روسو، المصدر نفسه، الصفحة 131

"هاهي إذن جميع ملكاتنا و قد تطورت، والذاكرة والمخيلة ناشطتان، و الحب الشخصي ساع إلى منافعه، و العقل وقد صار فاعلا، والذهن وقد بلغ أو يكاد حد الكمال الذي في مستطاعه. وها هي جميع الصفات الطبيعية وقد نشطت، ومرتبة كل إنسان ومصيره قد تقررا لا على مقدار الممتلكات، ولا على قدرة النفع و الضرر وحسب، وإنما على الذهن والجمال، على القوة أو البراعة، على المزايا أو المواهب. " ¹

ومن هنا بدأ السلوك الاصطناعي، والطبع المصطنع يظهر في سلوك الإنسان، وأفعاله فيما بعد و منه نتج المكر والخداع وبعدها بدأت تظهر الرذائل المصاحبة لها. ² والتي سقطت بسلوك الانسان وبأخلاقه إلى الحضيض، حيث يقول روسو في هذا الصدد: " أما وهذه الصفات قد غدت وحدها مجبولة للتقدير، فقد كان المرء إما أن يملكها أو أن يتظاهر متباهيا بها، وهكذا صار من مصلحته، أن يتظاهر بغير ما هو عليه حقيقة. صارت الكينونة وصار الظاهر شيئين مختلفين كل الاختلاف. من هذا الفرق تأتي الأبهة المهيبة، وتأتي المكر الخداع، وجميع الرذائل المواقبة لهما. " ³، ومن هنا بدأت العلاقات الاجتماعية فأصبح الانسان يبغى العيش في جماعة، وبدأ التصنع والسلوك الاصطناعي يظهر للعيان، " ومن جهة أخرى، بعد أن كان الإنسان قبلئذ حرا ومستقلا فإن كثرة من الحاجات الجديدة أخضعتة للطبيعة كلها، و لاسيما لأشباهه من البشر بأن صار، على وجه ما، عبدا لهم حتى لما صار سيدا عليهم: فإذا كان غنيا، كان في حاجة إلى خدماتهم، وإذا كان فقيرا كان في حاجة إلى مساعدتهم، وأما الحال الوسط فلا تغنيه عنهم. " ⁴

¹ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، ص131

² - مهدي محفوظ، اتجاهات الفكر السياسي الغربي الحديث، مرجع سابق، ص146

³ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، الصفحة نفسها

⁴ - جان جاك روسو، المصدر نفسه، ص131.

إن الحاجيات المتزايدة للإنسان ورغبته في إشباعها، والحصول عليها باستمرار هي التي أرغمته على إقامة علاقات بالآخرين من أشباهه من البشر¹، و التواصل معهم والتعاون معهم فأصبح عبدا لهم. "و لذلك لزم هذا الإنسان ألا ينقطع عن السعي حتى يحمل أشباهه على الاهتمام بمصيره، وحتى يقنعهم بأن لهم. - إن حقا أو زيفا - فائدة يجنونها لأنفسهم إن هم خدموه لفائدته وهذا ما يجعله محتالا، و متصنعا مع بعضهم، متغطرسا وصلفا مع بعضهم الآخر، وهذا ما يضطره أيضا إلى الشطط على جميع ما يحتاج إليهم، ما لم يحملهم على خشية جانبه أو يسلم بأن من مصلحته أن يخدمهم خدمة نافعة. " ²

" ثم أن هناك أخيرا الطموح الضاري، وهو إندفاع الإنسان من أجل إعلاء نصيبه، لا حاجة حقيقية، وإنما ليكون مقامه فوق مقام غيره من البشر، فحيث جميع البشر يعتمدون على إيذاء بعضهم بعضا، ويوحي لهم بغيرة خفية أخطر مخاطرها أنها تتقنع بقناع الرعاية العطوف حتى تصيب مرماها بأمان، " ³، إن طموح الإنسان هو الخطر الكبير الذي يحرق بالبشرية جمعا نظرا لأنانية الإنسان، وابتغائه على السيطرة على أقرانه من البشر وإخضاعهم له ⁴.

" وجملة القول هناك المنافسة والمزاحمة من جهة أولى، وهناك تضارب المصالح والرغبة الخفية المستديمة في الاستئثار بالمنفعة على حساب الغير، ومن جهة ثانية والحال أن جميع هذه الشرور هي النتيجة الأولى للملكية، و الحاشية الملازمة للتفاوت الناشئ. " ⁵

¹-مهدي محفوظ، اتجاهات الفكر السياسي الغربي الحديث، مرجع سابق ، ص146

²- جان جاك روسو، المصدر نفسه، ص132

³- جان جاك روسو ، في أصل التفاوت بين الناس ، مصدر سابق، الصفحة نفسها

⁴-مهدي محفوظ، اتجاهات الفكر السياسي الغربي الحديث، مرجع سابق، الصفحة نفسها

⁵- جان جاك روسو، " المصدر نفسه _ ص132

يلتقي روسو مع ماركس و الفكر الماركسي و الماركسيين، في فكرة مشاعة الملكية للأرض تقريبا، والذين يقولون بأن الأرض هي ملكية مشاعة بين البشر، ومن ثمة ليس هناك ملكية فردية.

وقبل إختراع رموز تمثل الثروة، لم تكن الثروات قائمة تقريبا إلا على ثروة الأرض وثروة المواشي، وهي الخيرات العينية التي في مستطاع الإنسان أن يحوزها. بيد أنه لما زادت الموارد عداد وامتداد إلى حد غطت معه جميع الأراضي فتماست كلها، حينئذ غدا بعضهم لا يستطيع التوسع إلا على حساب بعضهم الآخر¹. ومن هنا بدأت بذور التفاوت في الظهور وإرهاصات الصراع تتجلى بين أفراد المجتمع، والانشقاقات في الدخول إلى نفوس الأفراد. إذ مع ظهور الملكية العقارية والتنافس قد خطا الجنس البشري أولى خطواته نحو الانحطاط.²

"و أما الزائدون على العدد ممن منعهم الضعف، أو الغفلة حيازة الأرض بدورهم، فقد أصبحوا فقراء، وأن يخسروا كل شيء، لأنهم ظلوا على حالهم لم يتغيروا في حين تغير كل شيء حولهم، ولذلك اضطروا إلى قبول أقواتهم أو إلى اغتصابها من أيدي الأغنياء، ومن هنا بدأت السيطرة والعبودية في النشوء وكذلك العنف والنهب و السطو."³

وإن هذا التفاوت تحول الى صراع على من يحوز أكثر، ويمتلك الأراضي الشاسعة والسيطرة على وسائل الإنتاج، و استغلال الآخرين شر استغلال، وحتى استعبادهم: ومن هنا بدأت الحروب تنشب بين أفراد المجتمع، وبدأ التناحر والقتال بين الأغنياء والفقراء⁴. " تبعا لطبائع البشر وسلوكهم، و أما الأغنياء فما كادوا يذوقون لذة السيطرة حتى أخذوا يستخفون بغيرهم من البشر أجمعين، و يستخدمون عبيدهم السابقين لإخضاع عبيد جدد،

¹ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، ص132

² - مهدي محفوظ، اتجاهات الفكر السياسي الغربي الحديث والمعاصر، مرجع سابق، ص146

³ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، ص133

⁴ - مهدي محفوظ، اتجاهات الفكر السياسي الغربي الحديث، مرجع سابق، ص146

فإنصرفوا إلى قهر جيرانهم واستعبادهم، فكان مثلهم في ذلك مثل الذئب الجائعة التي و إذ ذاقت طعم اللحم البشري مدة، أصبحت تعاف غيره من الأغذية وغدت لا يطيب لها إلا افتراس البشر.¹

" وهكذا فإن أكثر الناس قدرة أو أكثرهم بؤسا، قد جعلوا من قوتهم ومن خصائصهم ضربا من الحق لهم في مال غيرهم مكافئا لحق الملكية، في نظرهم، حتى انفرطت المساواة لتعقبها أفضع ما ضروب الفوضى: على هذا النحو، فإن ما يأتيه الأغنياء من إغتصابات، والفقراء من أعمال لصوصية، وكذلك الأهواء الجامحة لدى الجميع، وقد قتلت فيهم التحنن الطبيعي.²

فأصبح البشر بخلاء وطماعين وأشرار، حيث كان نزاع دائم يقوم بينهم بين القوي والحائز الأول للأرض، ولا ينتهي هذا النزاع إلا بمعارك طاحنة وصراعات دامية، ولقد أفسح المجتمع الناشئ المكان لحالة حرب فضيعة، وإلى صراع المصالح والعبودية والشقاء³. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وأخرست صوت العدل و هو لا يزال خافتا، كل ذلك قد جعل البشر بخلاء وطماعين وأشرارا، وكان نزاع دائم يثور بين حق الأقوى وحق المتحور الأول، ولا ينتهي إلا بمعارك طاحنة ومذابح وصراعات دامية: لقد أفسح المجتمع الناشئ المكان لحالة الحرب هي أفضعها: وإذ حل الهوان والقنوط بالنوع البشري، إذ بات لا يستطيع أن يعود أدراجه، ولا أن يعدل عن مكتسباته المشؤومة، وإذ أصبح لا يعمل إلا ما يشينه لشططه، في إستعمال الملكات التي فيها تشريفه، فلقد دفع بنفسه إلى حافة خرابه: وعلى الغني والفقير أن يفرا من الثراء وأن يفقدا ما نشداه لما استحدثاه من شرور"⁴.

¹ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، ص134

² - جان جاك روسو، المصدر نفسه، الصفحة نفسها

³ - مهدي محفوظ، اتجاهات الفكر السياسي الغربي الحديث والمعاصر، مرجع سابق، الصفحة 146

⁴ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، ص134

وإنه ما لبث أن شعر الأغنياء، والفقراء بالأخطار التي كانت تحدد بهم في هذه الفترة بالذات والتي كانت شبيهة بحالة الحرب، التي تحدث عنها هوبز في كتابه التتين Léviathan. حيث كان الانسان: يعيش حالة حرب الكل ضد الكل، وكان الناس يعيشون كذرات متفرقة متناحرة وفي صراع مع أقرانه من البشر، وكان الانسان يعيش حالة حرب و خوف وقلق مستمر، وكان فيه الانسان ذنباً للإنسان¹. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "ليس من الممكن بعد لأي، ألا يكون البشر قد تفكروا في وضع بئس غاية البؤس، وفي الولايات التي كانت محيطة بهم. لم يلبث الأغنياء، بالخصوص أن إستشعروا كم كانت الحرب الدائمة في غير مصلحتهم."²

وإن الحق الذي يبني على أساس القوة: يمكن لهذه القوة أن تسلبه منه، لأن القوة هي شيء متغير ونسبي، فإن القوي لا يمكن أن يكون دائماً قويا: لكي يكون هو الحاكم دائماً.³ حيث يقول روسو في هذا الشأن: "وهي التي تحملوا وحدهم نفقاتها، وكانت فيها المجازفة بالحياة شيئاً شأناً مشتركاً بينما كانت فيها المجازفة بالامتلاكات شأناً خاصاً. وفوق ذلك أدركوا أنه أيا كانت المساحيق التي أمكنهم أن يزينوا بها ما آتوه من إغتنصابات، فإنها لم تستند إلا على حق يتصف بالتقلب والشطط، وأن هذا الحق إذ بني على القوة فإن في استطاعة القوة أن تسلبهم منه."⁴

وتنشأ خلافات بين المالكين للأراضي والأفراد الآخرين دون أي مسوغ شرعي، أو منطقي لذلك وهذه الخلافات المستمرة ستؤدي الى صراعات فيما بعد وإلى اقتتال وحروب طاحنة⁵، على من يملك أكثر ويستغل الآخرين ويسيطر عليهم ويستعبدهم. "دون أن يكون

¹ -مهدي محفوظ، اتجاهات الفكر السياسي الغربي الحديث والمعاصر، مرجع سابق، ص 79

² - جان جاك روسو، المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

³ - مهدي محفوظ، اتجاهات الفكر السياسي الغربي الحديث، مرجع سابق، ص 146

⁴ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، ص 134

⁵ - مهدي محفوظ، المرجع نفسه، ص 146

لهم ما يسوغ شكواهم، حتى أولئك الذين صاروا بكد عملهم وحده لم يكن في إمكانهم أن يستندوا في ملكيتهم إلى حجج أفضل، فعبثا يحتجون إذ يقول قائلهم: " أنا من بنى هذا الحائط، وأنا من كسب هذه الأرض بعمله"، - فيرد معترض: " من ذا الذي وضع لك الحدود، وما الذي يجيز لك أن تطالب بأن يدفع لك أجر عمل على حسابنا، ولم نكلفك إياه؟ ألا تدري بأن حشدا من إخوانك يهلك، أو يتعذب لحجاته إلى الزائد عندك عن الحاجة، وأنه يلزمك كسب رضاء الجنس البشري رضاء صريحا، و بالإجماع لكي تتملك من القوت المشترك كل ما يزيد عن قوت شخصك ؟ " ¹

(4)- ظهور المجتمع السياسي الفاسد وتأسيس الدولة(الجهاز الاصطناعي) :

يظهر المجتمع السياسي الفاسد مع الدخول الناس في حالة حرب، ولأن الغني لم يكن لديه من القوة للدفاع عن نفسه، وأملاكه ولأن عامل الكثرة في العدد هنا لديه تأثير كبير، حيث كان الغني وحيدا أمام عصابات قطاع الطرق ووجد نفسه وحيدا ضد الكل وأن الغيرة والحسد كانت تمنعه من الاتحاد مع المتساوين مثله، خطر في باله في تأسيس مؤسسات جديدة لحماية نفسه، والاستعانة بأعدائه لحماية نفسه بالاستعانة بقواعد جديدة. ² حيث يقول روسو في هذا الصدد : "ولما كان الغني فاقدا لتعليقات صالحة لتسويغ دعواه، وليس له ما يكفي من القوى للدفاع عن نفسه، إذ كان في ميسوره أن يسحق شخصا وتسحقه بدوره عصابات من قطاع الطرق، وحيدا ضد الكل، عاجزا بسبب الغيرة المتبادلة عن الاتحاد مع المساوين له ضد أعداء، وحد بينهم الأمل في النهب. دفعته الضرورة في نهاية المطاف إلى تصور أحصف مشروع خطر يوما بذهن إنسان، وهو أن يستخدم لمصلحته عين القوى التي

¹ - جان جاك روسو، في أصل التفاوت بين الناس ، الصفحة 134.

² - مهدي محفوظ، إتجاهات الفكر السياسي الغربي الحديث والمعاصر ، مرجع سابق ، الصفحة نفسها

كانت تكافحه، وأن يجعل من خصومه حماة له، وأن يوحى إليهم بقواعد مغايرة، وأن يمنحهم مؤسسات أخرى تكون موالية له بقدر ما كان الحق الطبيعي مضادا.¹،

هكذا يكون التطور الاقتصادي والاجتماعي هو الذي أفسد الإنسان، والدولة الناشئة عن الانتقال من الطور الطبيعي إلى المجتمع السياسي ليس سوى شرا أوجدته الظروف الخاصة في التطور.²، "وتوصلا إلى هذا الغرض، وبعد أن بسط الغني لجيرانه فظاعة وضع يضطرونهم إلى التسلح ضد بعضهم ويجعل حيازتهم عبئا يكلفهم ما يكلفه حصولهم على حاجاتهم، و وضع لا يجد فيه أحد منا، أكان من أهل الغنى أم من أهل الفقر، تيسر له أن يخلق أسبابا مموهة ليصل بهم إلى غايته."³. ومن هنا بدرت فكرة خبيثة لدى الأغنياء لاستعمال الفقراء كحماة لهم ومن ثمة تأسيس الجهاز الاصطناعي والذي هو الدولة كما يسميه هوبز لتحقيق الأمن." فكان مما قال لهم " لنتحد لكي نحمي الضعفاء من الاضطهاد، ونحاصر الطامحين، ونضمن لكل شخص حيازة ما له، لننشئ نظاما للعدل والسلام ويكون فيه البشر ملزمين بالامتثال لها، ولا تحابي أحدا منهم، وتقوم نوعا ما نزوات الحظ بأن تخضع القوي للضعيف، على السواء إلى واجبات متبادلة."⁴.

"وجملة القول : "بدلا من أن نوجه قوانا ضد أنفسنا نحن فلنوحدها في سلطة عليا تتولى الحكم فينا بحسب قوانين رشيدة، تحمي جميع أعضاء الشركة وتدافع عنهم وتصد العدو المشترك، وتمسكنا ضمن وفاق أبدي."⁵، ومن هنا أدى ذلك إلى تأسيس المجتمع السياسي الفاسد القائم على القوة والاستغلال، والذي يحمي حقوق وأملاك الأقوياء والتي تحصلوا عليها بالسطو والقوة والنهب. ولأن الأقوياء أوهموا الضعفاء بأن الأمن والسلم أفضل من الفوضى

¹ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، ص134

² - مهدي محفوظ، المرجع نفسه، ص 146

³ - جان جاك روسو، المصدر نفسه، الصفحة نفسها

⁴ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، الصفحة نفسها

⁵ - جان جاك روسو، المصدر نفسه، ص129

التي يعيشون فيها، وإن الإنقطاع في المساواة سيؤدي إلى أفضع فوضى، وخصوصا لإرتباطه بكثرة الحاجات لدى الإنسان التاريخي.¹ حيث يقول روسو في هذا الشأن: "القليل الأقل من مثل هذا الكلام كان كافيا لإستمالة بشر غلاظ تسهل غوايتهم، وكانت بينهم، بالعلاوة على ذلك، قضايا يتعين عليهم، وهي من الكثرة بحيث لا يستطيعون الاستغناء عن حكام يفصلون بينهم، وكانوا على غاية من البخل والطمع، بحيث لا يستطيعون الاستغناء طويلا عن أسياد. وهكذا تراهم جميعا يهرعون نحو أغلالهم ضانين إنما يؤمنون حريتهم."²

وإن المجتمع السياسي أنشئ لكي يقضي على الفوضى، والصراعات بين الأقوياء والضعفاء ويحقق العدالة لكن الأقوياء حولوا هذه الغاية الى حماية أملاكهم، وأنفسهم وتحقيق مصالحهم بهذا الجهاز الاصطناعي.³ كما يسميه هوبز في كتابه التتين. وإن المجتمع السياسي ليس سوى شر حسب روسو أوجده التقدم والتطور وأهم شرورها ظهور اللامساواة بين الناس.⁴ " ذلك إنه لئن كان لديهم ما يكفي من الأسباب المعقولة، لاستشعار الفوائد التي تحصل لهم من إنشاء هيئة سياسية، فإنه لم يكن لديهم ما يكفي من التجربة لتوقع ما ستأتي به من أخطار. أما أقدركم على استشعار شطط الهيئة السياسية. فكانوا بالذات أولئك الذين ينوون جني الفائدة منها، وأما عقل البشر فقد رأوا أنه من اللازم عليهم التضحية بجزء من حريتهم، من أجل الحفاظ على الجزء الآخر، كالجريح الذي يرضى ببتتر ذراعه لإنقاذ حياته وإنقاذ بقية جسده."⁵

"هكذا كان أو يجب أن يكون أصل المجتمع والقوانين، التي قيدت الضعيف بقيود جديدة والغني بقوى جديدة، فقضت على الحرية الطبيعية قضاء مبرما، وثبتت قانون الملكية و

¹ - جان جاك شفالبييه، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، ص 481

² - جان جاك روسو، المصدر نفسه، الصفحة نفسها

³ - جان جاك شفالبييه، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، الصفحة نفسها

⁴ - مهدي محفوظ، اتجاهات الفكر السياسي الغربي الحديث والمعاصر، مرجع سابق، ص 146

⁵ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، ص 129

شريعة التفاوت إلى الأبد، وجعلت من الاغتصاب الماكر حقا لا يقبل النقض، وأخضعت الجنس البشري بأكمله للعمل والعبودية والبؤس، خدمة لمصلحة بعض الطماعين الطامحين.¹

وإن العمل والعبودية كان نتاج القوة ونتاج التشريع التعسفي، والخطأ الذي شرع للأغنياء حق استعباد الفقراء والسيطرة عليهم. وهذا هو مصدر المجتمع السياسي الفاسد، حيث أصبح الظلم مدسّتر وأصبح المجتمع السياسي يحمي حقوق الأغنياء، ويضمن استمرار استغلال الأغنياء للفقراء.² "ومن السهل أن ندرك كيف أن إرساء مجتمع واحد، جعل إرساء جميع المجتمعات الأخرى أمرا لازما وكيف أنه من أجل مواجهة بعض القوى المتحدة وجب على البعض الآخر أن يتحد هو بدوره. وهكذا تكاثرت المجتمعات وانتشرت سريعا، ولم تلبث أن غطت وجه البساطة كله حتى أصبح من المحال، أن نجد في العالم زاوية واحدة يمكن للإنسان أن يتحرر فيها من النير، وأن يفلت من السيف المسلول غالبا بلاحق والذي يراه مسلطا دائما فوق رأسه. وإذ الحق المدني قد صار، على هذا النحو، القاعدة المشتركة للمواطنين، فإن قانون الطبيعة، لم يعد ساريا إلا بين المجتمعات المختلفة حيث عدلته، بعض الاتفاقيات الضمنية وصار ينعت بالقانون الدولي. وذلك من أجل تيسير التجارة والاستعاضة به."³ ، وأصبحت الدولة تتأسس من مؤسسات فاسدة، وغير عادلة تشرع لحق الأقوى وتحمي مصالح الأغنياء، وتضطهد الضعفاء فأصبح الإنسان يعيش في ظل مجتمع سياسي فاسد، يعيش في حالة قهر سلطوي وإستغلال اقتصادي و في حالة إغتراب واضطهاد.⁴

¹ - جان جاك روسو، في أصل التفاوت بين الناس ، ص 129

² - جان جاك شفالبييه، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، ص 481

³ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، ص 130

⁴ - جان جاك شفالبييه، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، ص 482

" أما عن الشفقة الطبيعية التي تنفلت من مجتمع إلى آخر فقدت تقريبا كل القوة التي كانت لها بين إنسان وآخر، حتى أنها لم تبقى كامنة إلا في بضع نفوس "كوسموبوليتية"¹ عظيمة، تلك التي تتخطى الحواجز الوهمية الفاصلة، بين الشعوب، و تهتدي بمثال سيد الوجود الذي خلقها فتشمل برعايتها الجنس البشري بأسره.²

"أما والأجساد السياسية القائمة قد ظلت، هكذا، في حالة الطبيعة من جهة علاقة مع بعضها البعض، فإنها لم تلبث أن شعرت بالمحاذير التي كانت قد اضطرت إلى الخروج من هذه الحالة، ثم أن الحالة الطبيعية، صار ضررها بين هذه الأجساد الكبيرة أكبر مما كان عليه قبلئذ بين الأفراد الذين يؤلفونها."³

فأصبحت الدول تمارس الاضطهاد على الأفراد وأصبح الانسان يعيش في حالة اغتراب واضطهاد، وفقد حريته الطبيعية وأصبحت حياته في خطر والموت يحدق به من كل صوب وحذب. "ومن هنا نشأت الحروب بين الأمم، والمعارك و الجرائم وصنوف القتل والثأر، مما ترتجف له الطبيعة وينكره العقل، ومن هنا أيضا نشأت جميع الأحكام المسبقة تلك التي ترى في سفك الدماء البشرية شرفا وتصنفه في باب الفضائل."⁴

ومن هذه الأفكار والأحكام المسبقة الظالمة، والمظلمة بدأ التنظير والتخطيط لتأسيس لإيديولوجيا تبيح بإقامة الحروب والقتل والدمار، ويعود كل شيء لقانون الأقوى⁵. "وإن الأمناء من البشر أكثرهم قد تعلموا كيف يرون في ذبح أمثالهم واجبا من واجباتهم، وانتهى الأمر بالبشر إلى أن يذبح بعضهم البعض بالألوف، وهم لا يدرون السبب. بل إنما يرتكب

*¹ "كوسموبوليتية" والمقصود بها المدينة الكونية أو المواطنة لكونية أو العالمية كما يقال اليوم.

² - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، ص131

³ - المصدر نفسه، الصفحة نفسها

⁴ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، ص131

⁵ - جان جاك شفالبييه، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، ص482

من مجازر قتل في يوم واحد من المعارك، وما يرتكب من فضائع في سبيل الاستيلاء على مدينة واحدة، لأكثر مما حصل في الحالة الطبيعية طوال قرون كاملة.¹ ويجد نفسه البشر نفسه ثانية في حالة حرب طبيعية جديدة.²

"وعلى وجه البسيطة جمعاء، هذه هي الآثار الأولى التي نستشفها من تقسيم الجنس البشري إلى مجتمعات مختلفة، فلنعد الآن إلى النظر في تأسيسها. إنني أعرف أن أصحاب الكثير من الآراء قد ردوا المجتمعات السياسية إلى أصول مغايرة، كقولهم بغزوات الأقوى أو باتحاد الضعفاء، بيد أنه ليس للخيار بين هاتين العلتين أي أهمية من جهة ما أريد إثباته."³

فهذه النظريات ليست صحيحة حسب روسو، الذي يؤمن بنظريات أخرى في تأسيس المجتمعات السياسية، لأن الحروب حسبه ستستمر بين الغزاة والشعوب المغلوبة لكي تسترجع الشعوب المغلوبة حريتها. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "بينما العلة التي إستعرضتها في سالف قلبي هي أكثر العلل تطابقاً مع الطبيعة، وذلك للأسباب الآتية: - أما في الحالة الأولى، فإن حق الغزو، وهو ليس حقاً البتة، لا يمكنه أن يؤسس حقاً آخر أي كان. فالغازي والشعوب المغلوبة يظل كل منهما في حالة حرب مع الآخر، اللهم إلا أن نرى الأمة التي إستردت حريتها كاملة تختار بمحض إرادتها من غلبها رئيساً لها. وحتى هذا الحد، ومهما كان الاستسلام الذي تأتبه الأمم المغلوبة، وهو الذي لم يكن قائماً إلا على العنف فكان إذا باطلاً لهذا السبب بالذات، فإنه لا يجوز من جهة هذه الفرضية أن يوجد أي مجتمع حقيقي، أو أي جسد سياسي، أو أي قانون آخر سوى قانون الأقوى."⁴

¹ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، الصفحة 131

² - جان جاك شفالبييه، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، الصفحة 482

³ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، ص 131

⁴ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، ص 132

هذه الفرضية تؤسس الحق للأقوى، وأن هذه القوة هي التي أسست للمجتمعات الفاسدة

لأن القوة هي شيء متغير ونسبي، هكذا كان أو وجب أن يكون أصل المجتمعات السياسية¹، فإن هذا الحق لن يدوم طويلا فستأتي قوة وتغير هذا الوضع.

"أما الحالة الثانية : فإن لفظتي قوي وضعيف تدلان على معنى ملتبس ، ففي أثناء الفترة الفاصلة بين إرساء حق الملكية أو حق المتحوز الأول ، و بين إنشاء حق الحكومات السياسية إتضح معنى تلك الألفاظ وضوحا أبلغ بواسطة لفظتي غني وفقير ، ففي حقيقة الأمر، وقبل سن القوانين لم يكن لدى الإنسان من وسيلة لحمل المساوين له من البشر على الخضوع سوى مهاجمة أموالهم ، أو اقتطاع نصيب لهم من ماله."²

إن معنى كلمة قوي وضعيف في البداية لم يكن واضحا ، في الفترة الفاصلة بين حق الملكية وحق المتحوز وبين إنشاء حق الحكومات السياسية ، وإتضح معنى الكلمتين بواسطة كلمات فقير وغني وحينما كثرت العلاقات بين الناس ظهر بينهم الأقوى والأكفأ³. "أما الحالة الثالثة : وإذ لم يكن لدى الفقراء من شيء يخسرونه ، سوى حريتهم فإنهم كادوا يكونون على قدر كبير من الجنون ، لو أنهم تخلوا بإرادتهم عن النعمة الوحيدة المتبقية بحوزتهم بدون أن يغنموا شيئا عوضا عنها. وعلى عكس ذلك ، فإن الأغنياء لما كانوا أكثر تأثرا بالأذى في جميع أجزاء أموالهم ، حتى كان من السهل اليسير الإساءة لهم أكثر من غيرهم. تعين عليهم بالنتيجة أن يتخذوا من الاحتياطات أكثر مما يتخذه غيرهم ، إتقاء لتلك الأضرار ، و أخيرا فمن باب المعقول أن نعتقد أنه أخرى بمن لهم منفعة في شيء معين أن يخترعوه من أن يخترعه من يلحقهم ضرر من وجوده."⁴، ومن هنا تم تأسيس الجهاز الاصطناعي كما يسميه

¹ - جان جاك شفالبييه، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، ص482

² - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، ص133

³ - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص294

⁴ - جان جاك روسو، في أصل التفاوت بين الناس ، مصدر سابق، ص133.

هوبز، والذي هو الدولة: لحماية الأغنياء وأملاكهم من ثورة الفقراء عليهم لاستعادة حقوقهم¹. "لم تتخذ الحكومة إبان ميلادها شكلا ثابتا ومنتظما قط ، وإنعدام الفلسفة والتجربة ، جعل البشر لا يتبينون من المحاذير سوى ما كان منها ماثلا أمامهم ، فليس من تدبر لإصلاح غيرها إلا على قدر مثولها أمامهم . وعلى الرغم من عمال أحكم المشرعين جميعهم."²

فالإنسان ليس فاسدا بطبيعته بل فطر على المشاعر الطيبة وعلى سجية الاجتماع والتعاون على الخير . وإنما لحق به الفساد مع المدنية والتقدم في سبل العيش ونشوء الدول وتطورها.³ ، "فإن الحالة السياسية ظلت دائما على نقصانها ، لأنها كانت من صنع المصادفات أو كادت ، ولأن بدايتها أيضا كانت بداية سيئة ، فحتى مرور الزمن لم يفلح أبدا في إصلاح عيوب التأسيس ، ولئن كشف عن العيوب وأوعز بالأدوية."⁴ - هذه الحالة السياسية أدت إلى ظهور حلول ظرفية و ترفيعية و آنية وواهية ، بدل من تأسيسها على أسس صحيحة والقيام بمسح كلي لهذه الأسس وإعادة بناء قوي ومتين، وكان لابد من عملية تهذيب للحالة المدنية الفاسدة والحضارة⁵ . حيث يقول روسو في هذا الصدد : "هكذا كان اللجوء إلى الرقيق والترقيع بلا انقطاع ، بدل لزوم البدء بمسح الفضاء وإقصاء معدات البناء القديمة جميعها ، من أجل أن يرفع بعد ذلك بناء قويم ، كما فعل " ليكورغس " في

¹ - جان جاك شفالبييه، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، ص482

² - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، ص133

³ - د. محمد وقيع الله احمد، مدخل الى الفلسفة السياسية، رؤية إسلامية، دار الفكر آفاق معرفة متجددة للنشر والتوزيع ، دمشق، 2010، ص179

⁴ - جان جاك روسو، في أصل التفاوت بين الناس، مصدر سابق، ص133

⁵ - د. محمد وقيع الله احمد، مدخل الى الفلسفة السياسية، مرجع سابق، ص180

إسبارطة. ولم يكن المجتمع متقوما في بداية أمره ، إلا بعض الاتفاقيات العامة التي تعهد جميع الأفراد بالتقيد بها ، والتي تتكفل الجماعة لضمانها لكل واحد منهم.¹

وإن التجربة هي التي ستبين فيما بعد بأن هذا البناء الواهن سوف لن يطول عمره طويلا، وكان يمكن لهم أن يغيروا هذا الوضع ، وأن الشعب هو الشاهد الواحد على ما اقترفوا من ذنوب وهو الذي سيحكم عليها². حيث يقول روسو في هذا الشأن : "ولكن لابد من التجربة لتبين كم هو واهن تأسيس كهذا التأسيس ، وكم كان سهلا على المخالفين أن يجتنبوا إقامة الدليل ضدهم ، أو العقاب على ما اقترفوا من ذنوب ، كان على الجمهور وحده أن يكون الشاهد عليها والحكم فيها. وهكذا كان لابد من خرق القانون بشتى الطرق ، التي لا تحصى ولا تعد ، وكان لابد أيضا من أن تتكاثر المحاذي ر وصنوف الفوضى ، حتى يعزم الناس على إيداع تلك الوديعة الخطيرة ، وديعة السلطة العامة ، بين أيدي أشخاص بعينهم. وأن يوكلوا إلى الحكام مهمة السهر على إلزام الناس بالتقيد بقرارات الشعب." ³. لكن حين ذاك قد وصلت الأمور إلى حد لم يكن منه أن تبقى فيه هذه الوضعية على ما كانت عليه.⁴

" أما القول بأن الرؤساء قد تم اختيارهم قبل قيام الاتحاد السياسي، وأن حفظة القوانين قد وجدوا قبل وجود القوانين نفسها، فذلك افتراض لا يستحق الاعتراض عليه اعتراضا جادا." ⁵ ، و لا يمكن منطقيا التصور أو القول أن نقول أن الشعوب قد إرتمت في أحضان حاكم طاغية، ومطلق بلا أدنى شرط، أو قيد وأنهم هم من إختاروا العبودية بمحض إرادتهم ⁶. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "ليس من المعقول أيضا الاعتقاد أن الشعوب قد إرتمت بادئ ذي

¹ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، ص134.

² - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، ص134

³ - جان جاك روسو، "المصدر نفسه ، مصدر سابق، ص134

⁴ - جان جاك شفالييه، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، ص480

⁵ - جان جاك روسو، المصدر نفسه، ص135

⁶ - جان جاك شفالييه، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، ص482

بدء في أحضان أو بين ذراعي سيد مطلق ، بلا شرط و بلا ردة ولا رجعة ، وإن أول وسيلة تصورها الناس لتوفير أمنهم المشترك ، وهم بشرة أباة لم يروضهم مروض ، هي ارتماؤهم في أحضان العبودية.¹

إن روسو يرفض فكرة العبودية للفرد وللجماعة ويعارض السلطة السياسية التي تأسست بالقوة والاضطهاد. وإن القوة لا تنتج أي حق.² حيث يقول في هذا الصدد: "وبالفعل لماذا اتخذوا لهم رؤساء إن لم يكن للدفاع عنهم ضد الاضطهاد ، ولحماية أموالهم وحياتهم وحياتهم. وهي إذا صحت العبارة ، العناصر المكونة لكي نؤمنهم ؟ -بيد أن شر ما يخشاه إنسان في علاقاته بإنسان آخر أن يجد نفسه تحت رحمة هذا الأخير ، ومن ثم أليس منافيا للحس السليم ، وأن يبدأ الإنسان بتجريد نفسه من تلك الأشياء العزيزة التي وحده الحفاظ عليها، قد دعا البشر إلى طلب معونة رئيس فإذا بهم يضعونها بين يديه ؟ وأي شيء مكافئ يمكن أن يقدمه لهم ذلك الرئيس بدل تنزلهم عن هذا الحق النفيس؟ وإذا اجتراً الرئيس على مطالبتهم بالتنازل له عن هذا الحق متعللاً بحجة الدفاع عنهم ، أما كان الجواب سيأتيه في المثل المأثور الذي يقول: " وهل للعدو أن يفعل بنا أكثر من هذا؟ " ³

"مما لا جدال فيه إذاً وها هنا المبدأ الأساسي للحق السياسي بأكمله ، أن الشعوب إتخذت لها رؤساء للدفاع عن حريتها لا ، لاستعبادها. وقد كان بلين يقول لترجان: " وإذ جئنا بأمر يحكمنا فلكي يقينا من أن يسود علينا سيد . " ⁴، وإن تحقيق الأمن والسلم هما الركيزتان الأساسيتان لتأسيس الجهاز الاصطناعي والذي هو الدولة كما يسميه هوبز. ⁵

¹ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، الصفحة 135

² - د. محمد وقيع الله احمد، مدخل الى الفلسفة السياسية، مرجع سابق، ص 181

³ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، ص 135.

⁴ - جان جاك روسو، المصدر نفسه، ص 136

⁵ - د. محمد وقيع الله احمد، مدخل الى الفلسفة السياسية، رؤية إسلامية، مرجع سابق، ص 159

ويقول روسو أيضا: "وإنه للسياسيين بلاغة عن حب حرية السفسطات نفسها التي للفلاسفة عن حالة الطبيعة ، وذلك أنهم يحكمون بواسطة أشياء يشاهدونها في أشياء مختلفة تماما عن تلك ولم يشاهدوها ، فينسبون للبشر ميلا طبيعيا للعبودية ، استنادا إلى ما يشاهدونه بأمر عيونهم عند الناس من صبر على العبودية ، من دون أن يفكروا أن شأن الحرية كشأن البراءة والفضيلة اللتين لا نعرف قيمتهما إلا بدوام تمتعنا بهما حتى ليضيع ميلنا لهما حالما نضيعهما".¹

إن روسو يقول بأن الانسان الطبيعي حر حرية طبيعية ، وأنه يرفض فكرة العبودية ويرى أنه إن وجدت في التاريخ فإنها فكرة عابرة عرضية وتعسفية ، فلا العقل ولا الأديان يبرران وجودها فلا تركزان على أي منطق² ، سوى منطق القوة والخضوع والاضطهاد والاستغلال والقهر. "ومما يؤثر ذكره في هذا الصدد ما قاله : برازايداس : لأحد مرآة الفرس الذي كان يشبه حياة إسبارطة بحياة "بريسيوليس" : "أنا اعرف ملذات بلدك و لكنك لا تستطيع أنت ان تعرف ملذات بلدي".³ وهنا يشبه روسو الانسان الطبيعي بالحصان الوحشي الغير قابل للترويض ، لأن الانسان الطبيعي حر حرية طبيعية ، وأنه حر بطبعه ، لا ينبغي أن يسيطر عليه. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وكما أن ما لم يروض من الجياد ينصب عرفه، ويضرب الأرض بسنابكه وينتفض جامحا لمجرد تقريب اللجام من شذقيه ، بينما يعاني الحصان المروض السوط والمهماز ، صابرا كذلك هو الإنسان البربري لا يحنو رأسه للنير الذي يحمله الإنسان المتمدن دون تذمر ، وهو يفضل الحرية العاصفة على الإذعان الهادئ".⁴ فالإنسان الطبيعي حر حرية طبيعية لا ينبغي ولا يقبل السيطرة عليه ، ولا أن يوضع في أغلال اصطناعية وأن يصبح عبدا للآخرين، فهو يعيش حرية طبيعية لا ينبغي

¹ - جان جاك روسو، في أصل التفاوت بين الناس ، الصفحة 135.

² - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 299

³ - جان جاك روسو، في أصل التفاوت بين الناس ، مصدر سابق، ص 136

⁴ - جان جاك روسو، المصدر نفسه، ص 137

حتى إقامة علاقات مع أقرانه من البشر ، فكيف يقبل أن يكبل ويوضع في سلاسل والحد من حريته. ولم يعرف الانسان الطبيعي القيود ولا الحواجز.¹

"ومن ثم فمن أجل الحكم ما إذا كان الإنسان مستعدا بالطبع لقبول العبودية ، أم لدفعها عنه لزم أن لا يستند حكما على الإذلال الذي فيه الشعوب المستعبدة. وإنما على الأعمال العجيبة التي بذلتها جميع الشعوب لحفظ نفسها من الاضطهاد".²

إن الشعوب المستعبدة غالبا ما تتغنى بالسلام ، والطمأنينة ، والسكينة: وتتسى الأغلال التي هي موجودة فيها ، و التي تكبلها وتحد من حريتها. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "إنني أعلم أن الشعوب المستعبدة ، لا تتقطع الإشادة بالسلام والسكينة اللذين تنعم بهما ، وهي ترسف في أغلالها ، وتسمي الشعوب أمنا أتعس ضروب العبودية ، ولكني حينما أرى الشعوب الحرة تضحي بالملذات وبالسكينة ، وبالثراء وبالسُلطان بل وحتى بالحياة من أجل حفظ تلك النعمة الوحيدة ، التي يستهين بها فاقدوها من الشعوب ، وعندما أرى أيضا حشودا من المتوحشين العراة كل العري يحتقرون اللذائذ الأوروبية ويتحدون الجوع والنار والحديد والموت، كي لا يحفظوا شيئا سوى استقلالهم ، أعني أنه ليس من شأن العبيد أن يقيموا محاكمة عقلية في الحرية".³

فروسو يرى أن السلطة الأبوية على الأبناء هي سلطة ظرفية ونسبية ، لا تستمر طويلا في الوقت لأنها تعتبر سلطة لها علاقة بالمصلحة لا غير وأن العلاقة بين الآباء والأبناء تنتهي بانتهاء حاجة الحماية للأبناء.⁴ حيث يقول في هذا الشأن: "وأما السلطة الأبوية التي

¹ - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص300

² - جان جاك روسو "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، الصفحة137

³ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، ص137

⁴ - مهدي محفوظ، اتجاهات الفكر السياسي الحديث والمعاصر، مرجع سابق، ص147

منها إستنبط كثيرون من أهل الرأي الحكومة والمجتمع بأكمله فيكفينا أن نلاحظ بدون الرجوع إلى أدلة "لوك" و"سدني" المعاكسة، إنه لاشيء في الدنيا أبعد عن الاستبداد الضارية من رفق السلطة الأبوية ، لأنها ترمي إلى مصلحة من يقوم بالطاعة أكثر مما ترمي إلى منفعة صاحب الأمر.¹

وإن القانون الطبيعي هو الذي يفسر لنا هذه الطاعة ، والعلاقة المبنية على المصلحة الطرفية في الزمان و المكان حيث سيستقيل الابن على الأب فيما بعد فإن المبدأ الأخلاقي يقضي بأن يبقى احترام الإبن للأب². ويضيف روسو قائلاً في هذا: "أما بحكم الناموس الطبيعي فالأب لا تستمر ولايته على الإبن إلا ما استمر هذا مضطراً إلى معونة ذاك. حتى إذا انقضى هذا الزمن أصبحا متساويين ، وعندئذ لا يعود الإبن ، وقد صار مستقلاً عن الأب مدنياً له لا بالطاعة وإنما بالاحترام ، وذلك لأن عرفان الجميل واجب يجب على المرء تأديته ولا يحق أن نلزمه به."³

وبدلاً من أن يقال أن المجتمع المدني متفرع من السلطة الأبوية ، وهي التي تستمد من المجتمع قوتها الأمة فإن شخصاً ما لا يعترف له أبوته لكثيرين من الأبناء ، إلا ببقائهم مجتمعين حوله. أما ممتلكات الأب و هو السيد الحقيقي عليها ، إنما تكون الروابط التي تشد إليه أبنائه بوثاق التبعية ، ومن الجائز ألا يخصهم بنصيب من إرثه إلا بنسبة ما يراهم جديرين به بفضل الامتثال الدائم لإرادته.⁴ فربط روسو هنا علاقة الطاعة الأبناء للآباء بالميراث، فالأبناء المطيعين لآبائهم هم الذين يحصلون على الميراث عكس الآخرين.⁵

¹ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس" ، الصفحة 137

² - مهدي محفوظ، انتجاهات الفكر السياسي، مرجع سابق، ص 146

³ - جان جاك روسو، أصل التفاوت بين الناس ، مصدر سابق، ص 138

⁴ - جان جاك روسو، المصدر نفسه، ص 138

⁵ - جان جاك شفالبييه، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، ص 481

"والحال أنه ليس للرعايا أبداً من حظوة يأملونها من المستبد بهم ، تكون مماثلة لحظوة الأبناء تلك مادام الرعايا وجميع ما يملكونه في حياة المستبد ، أو ما دام هو يزعم ذلك فيضيق بهم الأمر، حتى ليعدون هبة منه ما كان قبلئذ من مالهم الخاص وتركه لهم ، وهكذا يكون هو القاضي بالعدل كلما سلبهم، ويكون هو المنعم عليهم كلما تركهم قيد الحياة." ¹

ويرفض روسو فكرة العقد الاجتماعي التي أتى بها هوبز في نظريته في الحكم المطلق ، والتي يقول بأن العقد الاجتماعي له طرف واحد وهو الشعب ، فإن الحاكم غير ملزم هنا بمواد العقد الاجتماعي لأنه ليس طرفاً في العقد. ² ، حيث يقول روسو في هذا الصدد: "فإذا نحن تابعنا، هكذا فحص الوقائع بالنظر للحقوق ، لن نجد لا قوة ولا صواباً في القول بأن قيام الطغيان، إنما كان عن طوعية ، كما أنه من العسير أن نبرهن على صحة عقد لا يلزم إلا طرفاً دون الآخر. ويأتي كل ما فيه في كفة دون الأخرى ، وينقلب ضرراً على من يلتزم به دون غيره." ³

"إن نظاماً بغضاً كهذا النظام لبعيد كل البعد ، حتى في أيامنا هذه عن أن يكون نظام الحكماء و الصالحين من الملوك ، ولاسيما ملوك فرنسا ، وهو ما يمكننا أن نلاحظه في مواضيع مختلفة من مراسيمهم ، وخصوصاً في تلك الفقرة الواردة في مرسوم مشهور صدر "باسم الملك لويس الرابع عشر" و بأمر منه، ونشر سنة 1667 و تقول: " فلا يقولن قائل أن صاحب السيادة لا يدع لقوانين دولته ، وذلك لأن نقيض هذا القول حقيقة من

¹ -جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس" ، مصدر سابق، الصفحة 138

² - مؤيد جبير محمود ، الفكر السياسي الغربي الحديث والمعاصر ، جامعة الأنبار، كلية القانون، قسم العلوم السياسية،

العراق، 2019، ص 48

³ -جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس" ، مصدر سابق، ص 139

حقائق القانون الدولي قد تناول عليها التملق في بعض الأحيان ، ولكن الأمراء الصالحين كانوا أبدأ من المدافعين عنها كما لو كانت آلهة راعية لدولهم.¹

إن السيادة عند روسو هي سيادة الشعب كله، وتتجلى في الإرادة العامة وليست سيادة الأشخاص فالحاكم عند روسو يمثل الإرادة العامة للشعب، فعليه إذن طاعة القوانين والخضوع لها، لأن القوانين ناجمة عن الإرادة العامة للشعب². "وإنه لقول على مزيد من المشروعات أن نقول مع أفلاطون الحكيم بأن أتم السعادة للمملكة، أن يكون الأمير فيها مطاعا من رعاياها وأن يكون الأمير مطيعا للقانون، وأن يكون القانون قويا وموجها دائما إلى الخير العام."³

ويقول روسو أيضا: "لن أتبسط قط في البحث، وهل هذا يكون من باب الحط من طبيعة الإنسان - والحال أن الحرية هي أشرف ملكاته، من باب السقوط في مستوى البهائم - وهي عبد غريزتها -ومن باب الإهانة لبارئ وجوده -أن يتنازل هذا الإنسان دون تحفظ عن أعز ما أنعم ربه عليه، وأن يقبل بارتكاب جميع التي ينهاه لكي يطيع سيذا متجبرا، أو أحمقا؟"⁴. ولا يمكن لأي إنسان عاقل، أن يقبل بالتنازل عن الحرية الذي هو حق طبيعي لصالح حاكم طاغي أو مستبد. "بل أليس مما يثير سخط الصانع الأجل سخطا أكبر، أن يرى أجمل ما صنعت يده لا مهانا فقط بل مقوضا؟ ثم أني سأطرح جانبا رأي "بريراك" وهو حجة في الموضوع."⁵

¹ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، الصفحة 139

² - مهدي محفوظ، إتجاهات الفكر السياسي، مرجع سابق، ص 149

³ - جان جاك روسو، المصدر نفسه، ص 140

⁴ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، ص 140

⁵ - جان جاك روسو، المصدر نفسه، الصفحة نفسها

ولا يمكن لأي فرد عاقل أن يبيع ذاته ونفسه وحرية، لأي سلطة استبدادية وأي سلطة تعسفية، ومن هنا يعارض روسو رأي هوبز القائل بالحكم المطلق للحكام على شعوبهم والسيطرة و الاستبداد عليهم¹. حيث يقول روسو في هذا الصدد: " إذ يصرح بوضوح نقلا عن "لوك" بأن لا أحد يجوز له أن يبيع ذاته، وحرية إلى حد يخضعه إلى سلطة استبدادية تلعب به على هواها لأن معنى هذا، على حد قوله أنه يبيع حياته و هو ليس سيدها، وإنما أسأل فقط كيف أن أولئك الذين لم يترددوا في إذلال أنفسهم بأنفسهم غاية الإذلال، بأي حق يجوز لهم أن يقولوا بذريتهم في الهوان عينه. " ²، وأن يتنازلوا بالنيابة عنهم، عن خيارات لم يمنوا بها عليها، وإنما هي خيارات بدونها تصبح الحياة عبئا باهض الثمن على جميع من كان أهلا للحياة؟

إن روسو ينفي فكرة بيفندورف القائلة بأن الإنسان يمكن أن يتنازل عن حريته، وأن يصبح عبدا لإنسان ما أو لهيئة أو لسلطة ما بمقتضى عقود واتفاقيات³. حيث يقول روسو في هذا الشأن: "يقول "بيفندورف": على نحو ما ينقل الإنسان ممتلكاته، إلى الغير بمقتضى اتفاقيات وعقود، كذلك يمكنه أن يتنازل عن حريته لصالح أحد ما، ها هنا في ظني إستدلال فاسد، وذلك أولا. لأن المال الذي أتنازل عنه يصبح غريبا عني ويغدو شططا استعماله أمرا لا يعنيني، وأما حريتي فيعنيني أن يشط فيها علي في استعمالها. ولا يمكنني من دون أن أتحمل وزر الذنب الذي سأرغم على إقترافه، أن أعرض نفسي أن أكون أداة للجريمة." ⁴

إن حق الحياة وحق الحرية حسب روسو حقان طبيعيان، ولا يمكن التنازل عن أحدهما تحت أي ظرف لصالح سلطة طاغية متعسفة: لأن ذلك سيحط من قيمة الانسان ووجوده

¹-محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص299

²- جان جاك روسو، " في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، ص141.

³- مهدي محفوظ، إتجاهات الفكر السياسي، مرجع سابق، ص147

⁴- جان جاك روسو، في أصل التفاوت بين الناس، مصدر سابق الصفحة نفسها.

وسينزل به إلى مستويات دنيا فسيصبح عبدا لإرادة الأشخاص، وهؤلاء الحكام الطاغية. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "زد على ذلك أنه عندما لم يتم حق الملكية إلا بمقتضى اتفاقية وتأسيس إنساني، فلقد جاز لكل إنسان أن يتصرف فيما يحوزه كما يحلو له، ولكن الأمر خلاف ذلك بالنسبة للهبات الجوهرية التي وهبتها لنا الطبيعة كالحياة، والحرية يحق لكل إنسان أن يتمتع بهما، ولكن من المشكوك فيه أن يكون له حق تجريد نفسه منهما: وإن تجرد الإنسان من إحداهما، يحط من وجوده، وتجرده من الأخرى إعدام بما هو في ذاته".¹

إن حق الحياة والحق في الحرية هما حقان طبيعيان، وأنه لا يوجد أبدا خير في هذه الدنيا يمكنه تعويض هذه الحقوق الطبيعية: وإن التنازل عن أحد هذه الحقوق هو خروج قانون الطبيعة، وعن قانون العقل أي كان الثمن المقابل لهذا التنازل²، حيث يقول جان جاك روسو في هذا الصدد: "أما والحال أنه لا يوجد البتة خير دنيوي، يمكنه أن يعوض عن الحياة وعن الحرية، فإن في التنازل عن إحداهما إهانة للطبيعة، وللعقل أيا كان الثمن المقابل، ولكن عندما يكون في مستطاع الإنسان أن يتنازل عن حريته كما يتنازل عن ماله، يظل الفرق بينا بالنسبة إلى الأولاد الذين لا يتمتعون بمال أبيهم إلا بانتقال حقه إليهم. - بينما الحرية: بما هي هبة من الطبيعة وهبت للبشر بصفتهم بشرا".³

وإنه ليس للآباء أي حق في تجريد أبنائهم من الحرية، وإن وجدت العبودية في التاريخ فهي عرضية و تعسفية، وأنها فرضت عن طريق العنف والقوة ضد الطبيعة والطبيعة الإنسانية⁴، وإستلزم تغيير الطبيعة: لإدامة هذا الحق فالإنسان يولد حرا بطبعه وإن الله خلق الانسان حرا. حيث يقول روسو في هذا الصدد: " - ليس لأبائهم أي حق في

¹ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، ص142

² - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص299

³ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، الصفحة نفسها.

⁴ - مهدي محفوظ، إتجاهات الفكر السياسي، مرجع سابق ص147

تجريدهم منها، بحيث أنه لما كان من اللازم لأجل إرساء العبودية، إقامة العنف ضد الطبيعة، كذلك لزم تغيير الطبيعة لإدانة هذا الحق، أما فقهاء القانون الذين قضوا بكامل وقارهم بأن من كان ابناً لأمة يكون عبداً بالولادة، فكأنما قضوا، بعبارة أخرى، بأن الإنسان لا يولد إنساناً.¹

"ومن ثم فلكان اليقين عندي هو أن الحكومات، لم تبدأ قط من السلطة الاعتبارية ففيها فساد تلك الحكومات، وهي وحدها الأقصى المنذر بنهايتها، وهي في آخر المطاف ما يعود بتلك الحكومات إلى شريعة الأقوى وحدها دون غيرها."²

وإن قانون الحق للأقوى يتجلى في هذه الحكومات الفاسدة، وأن الاستبداد والقمع والاضطهاد هو سمات هذه السلطة القمعية الغاشمة،³ ولأن القوة هي شيء نسبي ومتغير فإن الحق لا يمكن أن يؤسس على القوة، لأن القوي ليست لديه القوة دائماً لكي يكون دائماً هو الحاكم، فالسلطة يجب أن تؤسس على رضى واتفاق ومعاهدات وعلى أسس شرعية. وهذا يعني أن السيادة الحقيقية هي سيادة الشعب المتمثلة في الإرادة العامة المكونة من إتحاد جميع الأفراد في العقد الاجتماعي.⁴، حيث يقول روسو في هذا الصدد: "بعد أن كانت تلك الحكومات في البداية شفاء من شريعة الأقوى، بل حتى لو جاءت الحكومات هذا النحو، في بدء وجودها فمادامت هذه السلطة غير شرعية، بطبيعتها فليس من الجائز أن تصلح كقاعدة لحقوق المجتمع، ولا بالنتيجة كقاعدة للتفاوتات المستحدث تأسيساً. ومن غير أن أخوض اليوم في البحوث التي لا يزال القيام بها لازماً حول طبيعة الميثاق الأساسي لكل حكومة،

¹ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، ص142

² - جان جاك روسو، المصدر نفسه، ص143

³ - مهدي محفوظ، المرجع نفسه، ص147

⁴ - مهدي محفوظ، إتجاهات الفكر السياسي، مرجع سابق ص148

سألتع الرأي المشترك لأقصر قولي على النظر في إقامة الجسد السياسي، بما هو تعاقد حقيقي بين الشعب وبين القادة الذين يختارهم لنفسه .¹

إن هذه الحكومات الغير شرعية :لا يمكن أن تدوم طويلا، لأن الشعب والمجتمع الذي هو مصدر وأساس الحكم، سوف يرفضها لأنها لم تتبع من شرعية المجتمع، ومن الإرادة العامة. حيث يقول روسو في هذا الصدد : "وهو وتعاقد بواسطته يلزم الطرفان، بعضهما بعضا بمراعاة القوانين المنصوص عليهما، والتي تؤلف عرى اتحادهما. ولما كان الشعب في ما يتصل بالعلاقات الاجتماعية قد وحد جميع إراداته في إرادة واحدة، فإن كل البنود التي تسوغها هذه الإرادة تصبح بنفس القدر قوانين أساسية تلزم جميع أعضاء الدولة دون استثناء."²

وإن العقد الذي يؤسس لهذه السلطة يكون جانبه طرفان، ولزم الطرفان لطاعة بنود العقد وطاعة القوانين التي تتجم عن الإرادة العامة، والتي هي إرادة الشعب، وهذه الإرادة ليست إرادة المجموع وإنما إرادة كل الشعب، والذي منه تتجم السلطة السياسية³.
"ومن بين هذه القوانين هناك قانون يرتب اختيار الحكام، وينظم سلطتهم من جهة كونهم مكلفين بالسهر على تنفيذ القوانين الأخرى، وهذه السلطة تشمل كل ما من شأنه أن يديم الدستور، من دون أن تتعدى ذلك إلى تغييره."⁴ "وتكون هذه التدابير مشفوعة بمراسيم التشريف، التي تحمل الناس على إحترام القوانين ورجالاتها، كما يعطى هؤلاء إمتيازات للتعويض لهم عما يكلفهم حسن الإدارة ويتطلبه من أعمال شاقة. أما الحاكم من جهته فيأخذ العهد على نفسه ألا يمارس سلطته الموكلة له إلا وفقا لمقصد موكله، وبأن

¹ - جان جاك روسو، في أصل التفاوت بين الناس ، مصدر سابق، الصفحة 143.

² - جان جاك روسو، " _ المصدر نفسه، ص143

³ - مهدي محفوظ، اتجاهات الفكر السياسي ، مرجع سابق، ص147

⁴ - جان جاك روسو، في أصل التفاوت بين الناس ، مصدر سابق " ، الصفحة نفسها

يديم لكل شخص هناء تمتعه بجميع ما يحوزه وبأن يجعله يفضل في كل مناسبة، المصلحة العامة على المصلحة الشخصية".¹

"وهذا الدستور الأصلي قبل أن تبين التجربة خطأه الذي لا مناص له، وقبل أن تنبه إلى هذا الشطط، الدراية بما في قلب الإنسان، وجب أن يظهر للناس في أفضل تكوين، لا سيما ورعته هم أكثر الناس سعيا إلى الانتفاع به".²

"ذلك أنه لما كانت رئاسة الشأن العمومي، وما يتبعها من حقوق لا تقوم إلا على القوانين الأساسية".³، فحالما تقوض القوانين يفقد الحكام شرعيتهم، (ولا يعود الشعب ملزما بطاعتهم)⁴، "وبما أن ما يكون ماهية الدولة إنما هو القانون، وليس الحاكم فإن كل فرد يسترد حريته الطبيعية بمقتضى الحق، يكون له الحق في ذلك".⁵

وإن الدولة ومؤسساتها تسيرها القوانين، وإن مؤسساتها تقوم على هذه القوانين فعندما يتم الاعتداء وتجاوز هذه القوانين من طرف الحكام، فلا يصبح الشعب ملزما بطاعة هؤلاء الحكام فيفقد هؤلاء شرعيتهم، لأن القانون هو الذي يكون ماهية الدولة، والقانون ما هو الا فعل الإرادة العامة وحدها.⁶، " وإذا نحن فكرنا ولو قليلا في المسألة، وجدنا أدلة عقلية جديدة، تؤيدها ورأينا أن العقد يمتنع عليه ألا يكون قابلا للنقض بطبيعته، فإذا لم توجد سلطة

¹ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، الصفحة 143

² - جان جاك روسو، المصدر نفسه، الصفحة نفسها

³ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، ص 143

⁴ - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 304

⁵ - جان جاك روسو، المصدر نفسه، ص 144

⁶ - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 305

عليها لتضمن وفاء المتعاقدين، ولتجبرهم على القيام بتعهداتهم المتبادلة، ظلت أطراف التعاقد لوحدها صاحبة الحل والعقد في قضيتها المخصصة عليها.¹

" وظل لكل طرف الحق في العدول عن العقد، حالما يرى أن الطرف الآخر يخلف شروطه، أو أن العقد لم يعد يلائمه، والظاهر أنه على أساس هذا المبدأ يمكن أن يقام حق النقض، فإن نحن إعتبرنا التأسيس البشري فقط الذي نحن بصده الآن، ألفينا أنه إذا كان من الحاكم الذي بيده السلطة كله، والمستأثر بكل مزايا العقد، أن يعدل عن السلطة، فالأحرى بالشعب، وهو من يحاسب حسابا غالبا على أخطاء رؤسائه، أن يعدل عن تبعيته.² وعندما يتم الإخلال بمواد العقد الاجتماعي المؤسس للدولة من طرف الحكام، وجب على الشعب استعادة حقه الطبيعي في الحرية، وعدم الخضوع لهذه السلطة الغير الشرعية وتغييرهم بحكام آخرين ينبثقون من الإرادة العامة، ومن سلطة الشعب عن طريق الرضا والترخيص لهم عن طريق العقد الاجتماعي، لأن السلطة العليا دائما تعود إلى الشعب وهو مصدر السلطة.³

"غير أن هذه الانشقاكات المريعة والاضطرابات، الدائمة التي يؤدي إليها بالضرورة هذا السلطان ذو الخطر الشديد تبين، أكثر من شيء آخر، كم كانت الحكومات البشرية في حاجة إلى قاعدة أصلب من مجرد العقل، وكم كان ضروريا للسكينة العمومية أن تتدخل المشيئة الإلهية لكي تجعل للسلطة العليا طابعا مقدسا، ومرعي الحرمة يبطل لدى الرعايا حق التصرف فيها وهو حق وخيم العواقب.⁴ وإن الدين لديه علاقة هامة في زرع السكينة والتحام الشعوب ووتعايشهم بينهم، وإنه يحقن دماء الشعوب ويزرع فكرة التآخي بين

¹ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، الصفحة 143

² - جان جاك روسو، المصدر نفسه، ص 144

³ - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 307

⁴ - جان جاك روسو، في أصل التفاوت بين الناس، مصدر سابق، ص 145

البشر. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "لو كان ما يفعله الدين إنما المن فقط بهذا الخير على البشر لكان ذلك كافيا لحملهم على وجوب محبته و اعتناقه، مع ما في الدين من شطط استعمال، وذلك لأن الدين يحقن الدماء أكثر مما يريقها التعصب. ولكن لنعد إلى فرضيتنا ولنتعقب خيطها الرابط."¹

تستمد مختلف أشكال الحكومات أصولها من فروق، قد تزيد شدة أو تنقص بين الأشخاص إبان تأسيس العقد، فإذا كان لإنسان مرتبة شريفة سواء بسلطانه، أو بخلقه الفاضل، أو بثرائه أو بوجاهته، ينتخب حاكما بمفرده، فإذا بالدولة وقد صارت ملوكية، وإذا كان هناك عديد الأشخاص يتساوون في ما بينهم، ويتفوقون على غيرهم ينتخبوا جميعا حكاما فإذا الحكم يكون أرستقراطيا²، وكان لابد إذن من البحث عن شكل الاجتماع يستهدف حماية كل شخص عضو وأمواله وشكل الاجتماع يكون فيه كل عضو إتحاد مع الآخرين غير خاضع مع ذلك إلا لنفسه. تلك هي المشكلة الحقيقية التي يبحث عليها روسو في العقد الاجتماعي.³

"وأما من لم تكن حظوظهم أو مواهبهم فاحشة التباين، وكانوا أقل البشر بعدا عن حالة الطبيعة، فقد احتفظوا بالدارة العليا مشتركة بينهم، وألفوا حكما ديمقراطيا. وكان من شأن الزمان أن يختبر أي الأشكال كان أكثر صلاحا للبشر، فلئن ظل بعضهم للقوانين فقط، فإن الآخرين سرعان ما دانوا بالطاعة للأسياد."⁴

إن الذين كانوا مواطنين أرادوا الاحتفاظ بحريتهم، وأما الذين كانوا رعايا لم يفكروا في غير سلب جيرانهم من تلك الحرية، لأنهم لم يطبقوا أن يرو غيرهم يتمتع بخير لم يعودوا

¹ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، الصفحة 145.

² - جان جاك روسو، المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

³ - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 198

⁴ - جان جاك روسو، في أصل التفاوت بين الناس، مصدر سابق، الصفحة نفسها

يتمتعون به. وقصارى القول أن الثروات والغزوات قد أصبحت في جهة، بينما السعادة و
الفضيلة في جهة أخرى.¹، و من هذا الصراع المحتدم بين الأفراد فقد الانسان سعادته
وفضيلته، و حريته الطبيعية و أصبحت الثروات والغزوات من جهة والسعادة من جهة أخرى
وأصبحت الثروات في يد فئة قليلة من الأفراد ويستغلون بها الآخرين.²

"في ظل هذه الحكومات المختلفة، جاءت الرئاسيات بجميع أشكالها انتخابية في بداية أمرها،
وعندما لا يكون الثراء هو الفيصل. يقع الخيار بحسب الجدارة التي تمنح صاحبها تفوقا
طبيعيا، وبحسب السن التي تمنح صاحبها تجربة، ودراية بالعمال وضبطا للنفس في أثناء
المداولات."³ و إن السن والتجربة يلعب دورا هاما في الانتخابات الرئاسية، و في عملية
الاختيار للوصول الى هرم وقمة السلطة السياسية و المجتمع السياسي.

"إن مجلس القدماء عند العبرانيين، والجيرونتيون في إسبارطة، ومجلس الشيوخ في روما،
بل وحتى اشتقاق كلمة الأكبر سنا في لغتنا تعني كل ذلك يبين كم كانت الشيخوخة محترمة
في ما مضى. أما الانتخابات فكلما ازداد نصيبها بين الطاعنين في السن، إزدادت توترا
ليزداد معه شعور هؤلاء بالارتباك والحرَج."⁴

ونتيجة لهذا التفاوت في الملكية الخاصة لابد إلا أن تنشب الحروب بين الأغنياء
والفقراء،⁵ وهكذا تردت الأوضاع وبدأت المكائد تتأسس فيما بينهم، وبدأت النزاعات تحتدم
فيما بينهم وهذا ما أدى إلى نشوب الحروب الأهلية، والفوضى فيما بينهم في الأزمنة السابقة
حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وهكذا أخذت الدسائس تتسرب إلى داخلهم، وتآلفت الشيع

¹ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، ص146

² - مهدي محفوظ، اتجاهات الفكر السياسي، ص146

³ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، الصفحة نفسها

⁴ - جان جاك روسو، في أصل التفاوت بين الناس، مصدر سابق، الصفحة نفسها

⁵ - مهدي محفوظ، اتجاهات الفكر السياسي الغربي الحديث والمعاصر، مرجع سابق، ص 146

وإحتدمت الأحزاب ونشبت الحروب الأهلية، وأريقَت الدماء، في الأخير، على مذبح ما يزعم بعضهم أنه سعادة الدولة، حتى أوشك البشر على التردّي في فوضى الأزمنة السابقة. وإغتتم الطامحون من الأعيان هذه الظروف لكي تدوم، وظائفهم داخل أسرهم، وكان الشعب قد تعود على التبعية والراحة ورفاه العيش.¹ وهكذا يكون المجتمع السياسي الفاسد والنقد شر وإن الاجتماع شر وينبوع الشر فالأثانية والفوضى والحرب والرق لا وجود لها في الناس إلا إذا كانوا فقط كائنات تميل إلى الاجتماع ولديها قابلية لذلك.²

" ولم يعد الشعب قادرا على كسر أغلاله، فرضي بأن يخلي السبيل لعبوديته حتى تتزايد بغية توطيد ساكنته. على هذا النحو، صارت ولاية الأمر وراثية فتعود إلى أصحابها على إعتبار رئاستهم متاعا عائليا. وعلى إعتبارهم ملاكا للدولة بعد أن كانوا من رجالاتها المكلفين، وأن يخاطبوا مواطنيهم على أنهم عبيد لهم وأن يعدوهم، كما تعد البهائم، في عداد الأشياء التي يملكونها، ثم أن يلقبوا أنفسهم بأنناد الآلهة و بأرباب الملوك."³

في هذه الحالة لم يصبح من قدرة المواطنين التحرر من الأغلال، وأصبحت السلطة والحكم وراثي كأنها ملكية خاصة، وعائلية وأصبح المواطنون كأنهم عبيد وملكية لهؤلاء الحكام والمستبدين. وهكذا يكون التطور الاقتصادي والاجتماعي والمجتمع السياسي الفاسد هو الذي أفسد الإنسان.⁴

إذا تتبعنا تقدم التفاوت في مختلف انقلاباته، وجدنا حده الأول في إقامة القانون و حق الملكية، وحده الثاني في تأسيس الرئاسة، وحده الثالث والأخير في تبديل السلطة الشرعية

¹ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، الصفحة 146

² - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 295

³ - جان جاك روسو، "المصدر نفسه"، ص 146

⁴ - مهدي محفوظ، اتجاهات الفكر السياسي، مرجع سابق، ص 146

بسلطة إعتباطية، بحيث أن وضع الغني والفقير جوزته الحقبة الأولى، ووضع القوي و الضعيف، جوزته الحقبة الثانية.¹

هذه هي إذن حدود تطور التفاوت بين البشر، وهذه هي الحقبات التي مر بها عبر الزمن و يتمثل الحد الأول في إقامة القانون، وحق الملكية أما الحد الثاني فيتمثل في تأسيس الرئاسة أما الحد الثالث فتتمثل في تبديل السلطة الشرعية بسلطة إعتباطية تعسفية، و غير شرعية. إن وضعية السيد والعبد هي آخر درجات التفاوت، وهو الحد الذي تنتهي إليه كافة الحدود، وإلى تقويض الانقلابات والتحويلات الجديدة، الحكومة بالكلية أو تؤهلها للأساس الشرعي². حيث يقول روسو في هذا الصدد: "و وضع السيد والعبد جوزته الحقبة الثالثة وهو آخر درجات التفاوت والحد الذي تنتهي إليه جميع الحدود الأخرى، وذلك إلى أن تقوض إنقلابات جديدة الحكومة بالكلية أو تقربها من التأسيس الشرعي".³

ولفهم هذا التطور يجب أن نسعى إلى فهم الشكل الذي تكتسيه الدولة، أثناء إجراءاتها وتنفيذها للقوانين، وفهم الرذائل التي تجعل المؤسسات السياسية ضرورية، وتضفي عليها صفة الشرعية. والدولة الناشئة عن الانتقال من مرحلة المجتمع الطبيعي الى المجتمع السياسي الفاسد ليست سوى شرا أوجدته الظروف الخاصة في التطور وأهم شرورها ظهور عدم المساواة بين الأفراد.⁴ حيث يقول روسو في هذا الشأن: "و لكي نفهم ضرورة هذا التقدم، يجب أن لا نعتبر الدواعي إلى إقامة الجسد السياسي، بقدر ما نعتبر الشكل الذي تكتسيه في أثناء إجراءاتها وتنفيذها و كذلك المحاذير، والموانع المنجزة عنها: ذلك أن الرذائل

¹ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، ص 147

² - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، ص 147

³ - جان جاك روسو، المصدر نفسه، الصفحة نفسها

⁴ - مهدي محفوظ، اتجاهات الفكر السياسي، مرجع سابق، ص 146

التي تجعل المؤسسات الاجتماعية ضرورية، هي بالذات ما يجعل شططها أمرا لا مناص منه.¹

وإذا ما استثنينا إسبارطة، التي في ظلها كان القانون يسهر على تربية الأطفال خصوصا، وكان "ليكورج" قد أقام فيها عادات و آدابا أغنته عن القوانين أو كادت، يبقى أن القوانين، وهي على العموم أقل قوة من الأهواء، تضبط البشر، وتردعهم، من دون أن تغيرهم. ومن السهل أن نثبت الدليل أن كل حكومة لا تعرف لا فسادا ولا تغاييرا، وتسير نحو الغاية التي حددها لها تأسيسها سيرا مضبوطا على الدوام، هي حكومة لا موجب لإقامتها.² إن روسو يستثني إسبارطة من الحالات التي عرضها لنا، لأنه يرى أن إسبارطة لها نظام اجتماعي صارم خاص بها، يضمن التربية والتعليم للأطفال، وحتى أفلاطون أعجب بهذا النظام الإسبارطي. وهذا ما أشار عليه في كتابه الجمهورية.³

إن القوانين فوق الجميع، ولا يمكن لأحد أن يراوغ أو يعتدي على القوانين، ويبالغ في استخدام الحكم لصالحه، ولصالح مصالحه الخاصة والشخصية والضيقة. فإن حدث ذلك فإن ذلك البلد لا حاجة له لحكام، ولقوانين ولمؤسسات تشريعية. لأن القانون هو التعبير عن الإرادة العامة.⁴ حيث يقول روسو: في هذا الصدد: "وأن نبرهن أيضا على أن بلدا ليس فيه أحد يراوغ القوانين، ويشط في استخدام الرئاسة هو بلد لا حاجة فيه لحكام، و لا لشرائع. وتجري التمييزات السياسية تمييزات مدنية بالضرورة، وسرعان ما يحصل للأشخاص إحساس بوطأة التفاوت المتنامي بين الشعب و رؤسائه، وبحسون بتبدل أحواله بينهم على ألف وجه، بحسب الأهواء والمواهب والظروف الطارئة. وليس في مستطاع الحاكم أن يغتصب سلطة

¹ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، ص148

² - جان جاك روسو، المصدر نفسه، ص148

³ - أميرة حلمي مطر، الفلسفة السياسية من أفلاطون إلى ماركس، مرجع سابق، ص13

⁴ - مهدي محفوظ، اتجاهات الفكر السياسي، مرجع سابق، ص153

تعود لا شرعية، إلا ويصطنع لنفسه من البشر صنيعات، يكون مكرها على التنازل لهم عن جزء من تلك السلطة.¹

إن الطموح الأعمى هو الذي يجبر المواطنين إلى الاضطهاد، فيقبلون السيطرة عليهم لكي يسيطروا هم على الآخرين بدورهم ويستغلونهم، و يقبلون بأن يكونون مكبلين في أغلال. حيث يقول روسو في هذا الشأن: "وبالعلوة على ذلك لا يستسلم المواطنون، للاضطهاد إلا بقدر ما يجبرهم إليه طموح أعمى، وبقدر ما ينظرون إلى ما دونهم أكثر مما ينظرون إلى ما فوقهم، فتصير السيطرة عندهم أعز من الاستقلال، ويرضون بالحديد قيداً يكبلهم لكي يتمكنوا بدورهم من تكبيل غيرهم." ²، ولد الانسان حراً لكن عندما دخل معتزك التاريخ أصبح فاسد أخلاقياً ومستغل إقتصادياً ومكبل سياسياً أينما تنظر تراه مكبل في أغلال.³

"ومن أصعب الأمور من ألا أن يكره على الطاعة، من لا يحاول أبداً أن يصير أمراً، وليس في مستطاع أمهر السياسيين أن يتوصل إلى إستعباد بشر، يأبون إلا أن يكونوا أحراراً. بيد أن التفاوت ينتشر من غير عناء بين النفوس الطماعه الذليلة، والمستعدة دوماً لركوب مخاطر الحظ و المتأهبة، إن للسيطرة و إن للخدمة نسيان عندها الاثنان تقريباً على قدر ما يكون السعد مواتياً لهما أو غير مواتياً." ⁴ وإن التفاوت ينتشر عند الأشخاص الطماعين والذين يبيغون دائماً المخاطرة بالحياة، وبحقوقهم الطبيعية لأن هناك لديهم استعداد لذلك. على هذا النهج، وجب أن يأتي على الشعب زمن صارت فيه أعينه مبهورة انبهاراً بلغ حداً مكن حكامه من أن يقولوا لأحققر البشر: "كن عظيماً أنت وفصيلتك" وفي الحال يظهر

¹ - جان جاك روسو، في أصل التفاوت بين الناس، مصدر سابق، ص 149

² - جان جاك روسو، " المصدر نفسه، الصفحة نفسها

³ - مهدي محفوظ، اتجاهات الفكر السياسي، مرجع سابق، ص 147

⁴ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، ص 149

الحقير عظيما في عيون كل الناس، وكذلك في عينيه هو بالذات، أما ذريته فيعلو شأنها أكثر بقدر ما تتأى عنه، فكلما كانت العلة نائية، و لا يقينية تعاضم الأثر، وكلما ضمت إحدى الأسر عددا أكبر من الكسالى، إزدادت شهرة.¹

إن الاجتماع شر وينبوع الشر فالأنانية والفوضى، و الحرب والرق والرذيلة لا يمكن أن توجد إلا إذا كان الناس كائنات تميل الى الاجتماع بالطبع، وتبحث عن إقامة العلاقات بأقرانها²، حيث يقول روسو: "لو كان هنا مجال الدخول في التفاصيل، لشرحت بسهولة كيف يصبح التفاوت في النفوذ والسلطة أمرا لا مفر منه بين الأشخاص. حالما يجتمعون في مجتمع واحد فيضطرون إلى مقارنة بعضهم ببعض، وإلى حساب كل حساب للفروق التي يجدونها في استخدام بعضهم لبعض."³

إن هذه الفروق لها أنواع متعددة وأن المميزات الرئيسية، التي تميزها هي الثروة والشرف والمقام والقدرة، والمزايا الشخصية وهي كلها ما به يقدر الإنسان مقدار شخصه، في المجتمع⁴. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "تكون هذه الفروق أنواع كثيرة، ولكن لما كانت التمييزات الرئيسية، على العموم، هي الثروة، والشرف أو المقام، والقدرة والمزايا الشخصية، وهي جميعها ما به يقدر الإنسان مقدار شخصه في المجتمع، فإني سأقيم الدليل أن توافق هذه القوى المختلفة أو تنازعها، هما أصدق دليل على صلاح التكوين الذي للدولة أو على فساده."⁵، إن الاجتماع والملكية الفردية هما أصل المجتمع السياسي الفاسد.⁶، وإن الثروة هي الفيصل الأخير للتفاوت بين الناس، وإنها أيسر أنواع التفاوت تتقلا ومبادلة بين الناس

¹ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، الصفحة 149

² - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 295

³ - جان جاك روسو، المصدر نفسه، ص 150

⁴ - جان جاك شفالبييه، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، ص 482

⁵ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، ص 150

⁶ - مهدي محفوظ، اتجاهات الفكر السياسي الغربي الحديث والمعاصر، مرجع سابق، ص 146

وإذا حدث أصبح من اليسير للبشر استخدام هذه الثروة لشراء كل أصناف الامتيازات الأخرى. ومدن الحديد والقمح البشر لكن الجنس البشري ضاع، إن خطوة كل تقدم تبين بما فيه الكفاية الى ما ستؤول إليه الأمور¹. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "سأبرز للعيان كيف أنه من بين ضروب التفاوت الأربعة تلك، وبعد أن كانت الخصال الشخصية أصلا لها جميعا، قد أمست الثروة هي نوع التفاوت الأخير، والمآل الذي إليه تترد جميع تلك الأنواع، لأن نفعها في طيب العيش أكثر مباشرة وتعجيلا من سواه، والثروة هي أيضا أيسر أنواع التفاوت نقلة ومتبادلة، وإذا كان ذلك كذلك، تيسر للناس استخدام الثروة لشراء جميع صنوف الامتيازات الأخرى."²

وإن هذه الملاحظة هي التي تمكننا من الحكم حكما صحيحا، بما فيه الكفاية في مدى ابتعاد كل شعب من الشعوب عن تأسيسه الأصلي، وفي مدى الطريق الذي قطعه صوب الحد الأقصى للفساد. لو كان هناك مجال التفصيل أيضا، للاحظت كم أن هذه الرغبة الكونية في الشهرة والتشريفات و الحظوات، وهي رغبة تفترسنا جميعا وتهذب المواهب والقوى.³

هكذا كان أو جب أن يكون أصل المجتمعات السياسية هذه الأجسام الكبيرة التي ستغطي قريبا كل الأرض وتقسم الجنس البشري.⁴ وإن قيام التنظيمات الاجتماعية وبداية تأسيس التجمعات زادت من العلاقات بين الناس و من ثمة ظهرت أفكار المنافسة والتفضيل، والتفوق فذاعت الشرور وإنعدام التسامح بين الناس. حيث يقول روسو في هذا الصدد: " و تفاضل بينها، كم أنها تشد الأهواء و تكثرها و إذ هي تجعل من البشر منافسين وخصوما، أو بالأحرى أعداء لبعضهم فكم من خيبات ونجاحات، وكوارث من شتى

¹ -جان جاك شفالبييه، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، ص 481

² - جان جاك روسو، في أصل التفاوت بين الناس، الصفحة 150

³ - المصدر نفسه، الصفحة نفسها

⁴ - جان جاك شفالبييه، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، ص 482

الصنوف تسببه لهم كل يوم، بجعل هؤلاء الطامحين يركضون في حلبة واحدة، ولو كان هنا محل للتفصيل لبينت أننا مدينون لتلك الحمية التي لنا في حمل الناس على الحديث عن ذواتنا، ومدينون أيضا لعتو التميز الأهوج الذي يشدنا دائما إلى خارج ذواتنا أو يكاد، إننا لمدينون بأفضل و بأسوأ ما يوجد بين البشر، بفضائلنا كما برذائلنا، بعلو منا كما بضاللتنا، بغزائنا كما بفلاسفتنا، أعني بذلك كثرة من الأمور الطالحة، إلى جانب قلة قليلة من الأمور الصالحة.¹

ويرى روسو أن أنانية الأغنياء تدفعهم لاضطهاد الفقراء واستغلالهم شر إستغلال، وأن كل هدفهم هو إبقاء الفقراء في هذه الحالة التعيسة، وأن سعادتهم تكمن في رؤية الفقراء يتألمون وفي حالة بائسة. و إن خنق الشهوات الجامحة للشفقة الطبيعية وحب الذات المدفوع إلى ذروته وإساءة استعمال الانسان للملكات التي تشرفه هي التي أدت الى هذه الحالة البائسة.² حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وأخيرا لو إتسع المجال لأقمت الدليل، على أنه إذا كانت هناك حفنة من المقتدرين والأغنياء تعطي ذروة العظمة والثروة، على حين أن الجمهور يزحف في الظلمة وفي البؤس، فما ذلك إلا لأن أولئك لا يلذ لهم طعم ما يتمتعون به، إلا بمقدار حرمان هؤلاء إياه، وأنهم، وهم على حالهم باقون، يكفون عن سعادتهم لو كف الشعب عن بؤسه."³

"ولكن هذه التفاصيل تؤلف وحدها مادة كتاب ضخمة، فيه توزن فوائد ومساوئ كل حكومة مقارنة بحقوق حال الطبيعة، وفيه تكشف كل الوجوه المختلفة التي يتجلى بها التفاوت إلى هذا اليوم، والتي يمكنه أن يظهر بها في القرون المقبلة وفقا لطبيعة هذه الحكومات،

¹ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، ص151

² - جان جاك شفالبييه، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، الصفحة نفسها

³ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، ص151

وللثورات التي يحدثها فيها الزمن بالضرورة.¹ مع ظهور الملكية والمجتمع السياسي الفاسد وظهر المنافسة تبدأ الصراعات والاختلالات، وكان الانسان لا يمكن له ان يتنبأ لما سيحدث له، و لأقرانه مستقبلا، نظرا لهذه الاضطرابات الخطيرة: التي ستؤدي الى حروب و اقتتال في ما بعد، للدفاع عن الملكية أو للتملك أكثر، أو السيطرة على الآخرين وإستغلالهم شر استغلال وإستعبادهم. ويعود كل شيء الى قانون الأقوى.² حيث يقول روسو في هذا الشأن: "وسوف نرى الحشد والأغلبية من الجمهور يلقي الاضطهاد في الداخل نتيجة نفس الإحتياطات، التي إتخذها هو بنفسه لصد ما يتهدهه من الخارج، وسوف نرى أيضا الاضطهاد ينمو، و متواصل دون أن يستطيع المضطهدون أبدا معرفة الحد الذي سينتهي إليه، أو الوسائل المشروعة التي ستبقى لهم لوقفه ولردعه."³

وتبدأ حقوق المواطنين تهضم و تنقص تدريجيا، و أن الضرائب ستفرض على الضعفاء فيما بعد، وتبدأ عملية سرقة المزارعين من مجهوداتهم ومحاصيلهم بهذه العملية. حيث يقول روسو في هذا الصدد: " سوف نرى حقوق المواطنين، وحریات الأمم تأفل شيئا فشيئا، ونرى مطالب الضعفاء معدودة كتذمرات تحرض على الفتنة. سوف نرى السياسة تحد شرف الدفاع عن القضية المشتركة، على فئة من مرتزقة الشعب: ومن هنا نرى كيف تتجر ضرورة فرض الضرائب، وكيف يتأتى إخلاء الفلاح لحقله وقد خذلته شجاعته، حتى في أيام السلم، فيتخلى عن المحراث ليتقلد السيف."⁴

ومن هنا يبدأ الصراع بين الرعايا، وحماة الوطن حماية لطغاة ولمستبديه ومصالحه وتبدأ الحروب الدامية والنزاعات الطاحنة، التي لا نهاية لها، فنصل الى حالة حرب شاملة والتي

¹ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، الصفحة 151

² - جان جاك شفالبييه، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، ص 482

³ - جان جاك روسو، المصدر نفسه، ص 152

⁴ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، ص 152

تنبأ بها هوبز في كتابه التتين عندما تكلم عن الحالة الطبيعية الاولى أو حالة الحرب. ويجد الجنس البشري نفسه في حالة حرب طبيعية جديدة.¹، حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وسوف نرى قيام تلك القواعد الضارة، والشاذة الراعية لما يسمى بـ"أم الشرف"، سوف نرى حماة الوطن يتحولون أعداء له إن آجلاً وإن عاجلاً، ولا ينقطعون عن الإمساك بمقابض خناجرهم مسلولة في وجوه مواطنيهم."²

وهذا التفاوت المصطنع واختلاف الأهواء، والمواهب سوف يؤدي إلى ميلاد وظهور أحكام مسبقة تتعارض مع العقل والفضيلة و السعادة، حيث يقول في هذا الشأن: "ومن فرط تفاوت الأوضاع و الحظوظ، ومن إختلاف الأهواء و المواهب، ومن الفنون الغير المجدية، ومن الفنون الفاسدة، ومن العلوم الطائشة، ستتولد طوائف من الأحكام المسبقة تضاد العقل، والفضيلة والسعادة على حد سواء."³

وسنرى كيف تم تطبيق مبدأ فرق تسود، وكيف تم تفريق المجتمع الى فرق، وشيع مشتتة ومتناحرة فيما بينها، لكي يتقلد بعض الزعماء مقاليد الحكم، والسيطرة على الشعب وأفراد المجتمع، كونهم أصبحوا ضعفاء: بفعل التفرقة التي حدثت بينهم. وإن انقطاع المساواة سيؤدي الى أفضع فوضى والى ظهور المجتمع السياسي الفاسد والظلم والاستبداد.⁴، حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وسوف نرى كيف يثير الزعماء كل ما من شأنه، أن يضعف من تجمع الناس فيفرق بينهم أشتاتاً، وكيف يسعى الزعماء إلى إظهار المجتمع بمظهر الوفاق، بينما هم يبذرون فيه بذور الشقاق الحقيقي، وكيف ينسجون كل ما يمكنه أن يوحى لمختلف الطبقات بسوء الظن و بالبغيضاء المتبادلة، وذلك بإقامة التضاد بين حقوقها

¹-جان جاك شفالبييه، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، ص 482

²- جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، ص153

³- جان جاك روسو، في أصل التفاوت بين الناس، مصدر سابق، ص153

⁴- جان جاك شفالبييه، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، ص481

ومصالحها، فيوطنون بالنتيجة، السلطة التي تلجمها جميعاً.¹، لأن الاجتماع شر وينبوع الشرور والرذيلة وهو أصل التفاوت واللامساواة بين الأفراد.²

وإن الاستبداد يتغذى ويعيش على الاضطرابات والانقلابات، ويتزعزع في هذه الأجواء التي تساعد على البقاء والتطور لأن في حالة السكينة، والأمان لا يمكن له أن يضمن بقاءه ووجوده. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "من رحم الاضطرابات توالد الانقلابات يخرج الاستبداد رافعا رأسه البشع شيئاً فشيئاً، فيفترس كل ما وقعت عليه عيناه بين جميع أجزاء الدولة من حسن وسليم، إلى أن يتوصل آخر الأمر إلى أن يدوس القوانين والشعب بقدميه، وإلى إرساء كيانه على أنقاض الجمهورية."³

وإن هذه الحقبات من الزمن التي تسبق هذا التغير الأخير ستكون أزمنة صراعات وحروب واقتتال، وكل شيء سيبتلعه الغول الكبير في الأخير، فلا يتبقى هناك لا رؤساء ولا قوانين ولا مؤسسات تشريعية، وإنما كل ما هناك طغاة ومستبدين. ويحل محل الرعايا عبيد.⁴ حيث يقول روسو في هذا الصدد: "إن الأزمنة التي تسبق هذا التبدل الأخير ستكون أزمنة اضطرابات وويلات، ولكن كل شيء سيبتلعه الوحش الهائل في نهاية الأمر، فلا يبقى للشعب لا رؤساء ولا قوانين وإنما طغاة لا غير. ومنذئذ تكف الفضيلة والأخلاق الجارية عن أن تكون شاغل الناس فحيثما يسود الاستبداد لا محل لسيد آخر، وحالما يتكلم لا خلق قواماً، ولا واجب مما يعود إليه الضمير، وإنما الطاعة العمياء هي الفضيلة التي تبقى للذين يكونون عبيداً."⁵

¹ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، الصفحة 153

² - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 295

³ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، ص 153

⁴ - جان جاك شفالبييه، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، ص 282

⁵ - جان جاك روسو، المصدر نفسه، ص 154

وإننا نكون قد عدنا إلى نقطة البداية، وهي حالة الحرب التي تحدث عنها هوبز في كتابه التتين، والتي كان فيها الناس عبارة عن ذرات متناحرة ومتصارعة، وكانت حالة الحرب شاملة وكان فيه الناس متساوين، وأن القوة هي التي تسيطر على هذه الحالة¹. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "ههنا حد التفاوت الأخير والنقطة القصوى التي تغلق الدائرة، وتماس النقطة التي كنا قد انطلقنا منها. ههنا يعود جميع الأشخاص متساوين بينهم لأنهم يساؤون" لاشيء وإذ بالرعايا لا قانون لهم، سوى إرادة السيد، والسيد لا دليل له سوى أهوائه، تلاشت ثانية معاني الخير ومبادئ العدل." ² وفي هذا الحال يعود مرجعية كل شيء إلى قانون الأقوى، أي إلى طور طبيعي جديد آخر وإلى حالة حرب جديدة. ³ وإلى طور طبيعي يختلف عن الطور الذي منه بدأنا مقالتنا، ويعنى أن الحالة الطبيعية الأولى هي حالة خالصة وأن هذه الحالة الجديدة، هي حالة نتيجة الفساد. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وهاهنا يكون مرد كل شيء إنما إلى شريعة الأقوى، أي بالنتيجة إلى حالة طبيعية جديدة تختلف عن الحالة التي منها بدأنا خطابنا هذا، من حيث أن القديمة كانت حالة الطبيعة الخالصة وأن الجديدة ثمرة الشطط والفساد، ولكن من ناحية أخرى، مادام الفرق بين الحالتين ضئيلاً، وبما أن الاستبداد قد بدد عقم الحكم بتديداً بليغاً، فإن المستبد لا يكون هو السيد إلا ما دام هو الأقوى، وإنه ليس له ما يحتج به على العنف عندما يصبح في مقدور الناس إجتثاثه وخلعه." ⁴

إن الحروب التي تؤدي إلى تغيير أحد الحكام وتبديله، إنما هو نتيجة فعل طابعه القانوني يساوي ما كان يفعل الحاكم برعاياه قبل خلعه. حيث أن القوة هي التي كانت تحفظ استمراره واستقراره في الحكم فإن هذه القوة هي التي ستؤدي إلى تغييره وإلى إجتثاثه من

¹- محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 225

²- جان جاك روسو، في أصل التفاوت بين الناس، مصدر سابق، ص 154

³- جان جاك شفالبييه، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، ص 282

⁴- جان جاك روسو، " المصدر نفسه، الصفحة نفسها

جذوره. حيث يقول روسو في هذا المقام: "إن الفتنة التي تؤول إلى خنق أحد السلاطين أو إلى خلعه إنما هو فعل طابعه القانوني يضاهي الأفعال التي كان ذلك السلطان، يأتيها عشية خلعه، من التصرف في حياة، وممتلكات رعاياه، القوة وحدها كانت تحفظ استقراره، فالقوة وحدها تقلبه".¹

وهذا هو مجرى السنة الطبيعية، والتي تسير بوفقه الأشياء في الطبيعة، وفق نظام صارم، "ويعود كل شيء إلى قانون الأقوى".² ومهما يكن أثر هذه الثورات العابرة والمتكررة، فلا يستطيع أحد أن يشتكي من ظلم الآخر، وإنما يجب أن يشتكي من عدم إبطاره ومن حظه السيئ. حيث يقول: روسو في هذا الصدد و"هكذا تجري كل الأشياء مجرى النظام الطبيعي، ومهما كان أثر هذه الثورات العابرة و المتكررة، فما من أحد يستطيع أن يشكو من ظلم الغير و إنما حسبه أن يشكو من عدم تبصره، أو من سوء حظه هو بالذات، على هذا النحو، فإن قارئ نبيه، لما يكتشف ويقتفي تلك الثنايا المنسية، والضائعة التي قادت الإنسان من الحالة الطبيعية إلى الحالة المدنية، ولما يتوسل المواقع الوسيطة التي كنت قد وسمتها لكي يعيد هو بنفسه رسم تلك المواقع التي أكرهني ضيق الوقت، على حذفها أو لم توحى المخيلة بها إلى أبدا، لا يسع هذا القارئ إلا أن تأخذه الدهشة، للمسافة الحقيقية التي تفصل بين تلك الحالتين".³ ، تفصل بين هاتين الحالتين مسافة شاسعة جدا وفترة زمنية طويلة جدا، وإن كل تقدما وتطور من بعد ذلك ساهم في فساد النوع البشري وفساد الأخلاق عندما دخل الانسان في معترك التاريخ، ففقد حريته وحقوقه الطبيعية، فأصبح يعيش في إضطهاد و إغتراب من طرف المؤسسات التي أنشأها.

¹ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، ص 154

² - جان جاك شفالبييه، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، ص 482

³ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، ص 155

"و طي هذا التعاقب البطيء للأشياء سيهتدي إلى حل ما لا يحصى ولا يعد من المشكلات الأخلاقية والسياسية مما لا يقوى الفلاسفة على حله. " ¹

يرى بعض المفكرين والقراء والفلاسفة أن الجنس البشري، ليس نفسه في الفترات الزمنية التي مر بها تاريخ البشرية وهذا ما أدى بدوجين أن يبحث عن الإنسان فلم يجده، لأنه كان يبحث عن إنسان من زمن قد فات وانتهى و إندرث. حيث يقول روسو في هذا الصدد : "وإذ يرى القارئ كيف أن الجنس البشري، في جيل معين ليس الجنس البشري في جيل آخر، فإنه يدرك السبب الذي جعل "ديوجين" لا يعثر أبداً بين معاصريه على إنسان واحد، والسبب أنه كان يبحث بينهم عن إنسان من زمن قد ولى، وإنقضى: أنه سيقول أن "كاتون" لقي هلاكه مع روما ومع الحرية لأنه لم يكن يلئم العصر الذي عاش فيه، وأن أعظم البشر هذا لم يثر سوى الدهشة في عالم كان يصلح لحكمه، لو ظهر قبل خمس مئة سنة. " ²

إن الإنسان الطبيعي وطيبته قد تلاشى مع مرور العصور، لأن طائفة من الأسباب تألبت جميعها على ظروف عيشه فتحوّلت حياته من طور الطبيعة إلى طور الحياة الاجتماعية، فصار الإنسان شريراً، منذ أن كان كائناً اجتماعياً ³، مع ظهور الإنسان التاريخي الذي دخل معترك التاريخ ألحق ضرراً كبيراً بالصفة الإنسانية، حيث أصبح إنساناً فاسداً أخلاقياً و مستغلاً اقتصادياً ومقهوراً، ومكبلاً سياسياً في قيود اصطناعية صنعها هو بنفسه. ويقول روسو أيضاً في هذا الشأن: "وقصارى القول أن قارئنا سيفسر كيف أن النفوس و الأهواء البشرية لما يطرأ عليها التغير على نحو، لا يعيه أحد فإنها تبدل طبيعتها، إذ صح التعبير، وسيفهم لماذا حاجاتها وملذاتها تغير من موضوعاتها، مع مرور الزمن، ولماذا يتوارى الإنسان الأصلي بالتدريج، فلا يعود المجتمع في عين الحكيم سوى تركيب

¹ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، الصفحة 155

² - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، الصفحة نفسها

³ - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 292

ملفق من بشر اصطناعيين، ومن أهواء مختلفة، وهي من صنع تلك العلاقات الجديدة، ولا أساس لها في الطبيعة.¹

وإن تحليلنا لتطور الطبيعة البشرية عبر التفكير، والذي تبرهن عليه الملاحظة والتجربة التاريخية، تقر بأن الإنسان الطبيعي والإنسان المتمدن مختلفان اختلافا تاما، ومطلقا من جهة العواطف والوجدان، ومن جهة الميولات. وإن مفهوم السعادة تختلف من أحدهما إلى الآخر. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وما يعلمنا إياه التفكير تؤيده الملاحظة تمام التأييد : أن الإنسان المتوحش و إنسان السياسة المدنية، لمختلفان كل الاختلاف من جهة ما في أعماق الوجدان و من جهة الميولات، حتى أن ما فيه تحصيل للسعادة القصوى لأحدهما قد يجبر الآخر إلى اليأس والقنوط، فأما أولهما فلا يستنشق إلا السكون والحرية، ولا يطلب إلا العيش و العطالة، بل أن سكينه الرواقي عينه لا تبلغ المدى الذي بلغته لا مبالاة المتوحش الغائرة، إزاء أي موضوع آخر عداهما."²

وإن حياة الإنسان المتمدن تشوبها الحركة المستمرة، والعرق والخوف و القلق المستمر والبحث عن الأشغال ذات الجهد الشديد، حيث "مع ظهور الحضارة وتطور الحياة وتقدم المدنية ظهرت المساوي"³، حيث يعمل حتى الفناء وأصبحت الحياة عنده قصيرة نظرا للجهد المضني الذي يقوم به، والذي يؤدي به إلى هلاكه وفنائه. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وخلافا لذلك فإن الإنسان المدني النشط، دائب على العرق وعلى الحركة وعلى القلق بدون انقطاع، بحثا عن مشاغل ذات جهد أثقل وأشد: انك تراه يعمل حتى الموت، بل

¹ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، ص 156

² - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس" المصدر نفسه، الصفحة نفسها

³ - مهدي محفوظ، اتجاهات الفكر السياسي في العصر الحديث، ص 144

ويسعى حثيثا إلى الموت طلبا لوضع يمكنه من مجرد الحياة، أو تراه يتخلى عن حياته في سبيل الخلود.¹

هذا السلوك الاصطناعي والطبع المصطنع وهذا النفاق المتصنع، أصبح لصيقا بالإنسان نظرا لعدم القدرة على الدفاع عن نفسه، أو نظرا للخوف من قهر قوة وسلطة الآخرين. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وهو يتزلف إلى العظماء الذين يبغضهم، وإلى الأغنياء الذين يحتقرهم، لكنه لا يدخر جهدا ليحزر شرف خدمتهم، ويباهي منتفخا بذله وبحمايتهم إياه، و إذ هو فخور بعبوديته يتحدث بازدراء عن أولئك الذين ليس شرف مشاطرته العبودية التي هو أهلا لها، فأى مشهد هذا تمثله، في عين ساكن الكرايبب تلك الأعمال المضنية التي لوزير أوروبي والتي يغبطه عليها الناس !"²

ومع تطور الحياة وتقدم التمدن ظهرت المساوئ بتقسيم العمل ونشوء الصناعة وظهور الملكية الخاصة التي ميزت بين الغني والفقير، وبذلك قضي على السعادة الكامنة في حالة الفطرة.³ هذه الحياة الرذيلة والدنيئة والمضنية التي يعيشها الإنسان، أفقدته السعادة ولذة الحياة التي كان يعيشها الإنسان في الحالة الطبيعية. حيث يقول روسو في هذا الشأن: "وكم من صنوف الموت القاسية كان سيفضلها هذا المتوحش البليد، بشجاعة على حياة كهذه الحياة لا يفوز فيها الإنسان، في أغلب الأحيان، حتى بلذة إتقان الصنعة للتخفيف من وزرها؟ غير أن المتوحش لكي يفهم الغاية من كل هذه الجهود، لزمه أن يكون في ذهنه معنى لكلمة قدرة وكلمة صيت، وأن يكون قد تعلم أن هناك ضربا من البشر يقيمون وزنا، لنظرات سائر الكون إليهم، ويعلمون كيف يكونون سعداء وراضين عن أنفسهم."¹

¹ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، ص 156

² - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، ، ص 156

³ - مهدي محفوظ، اتجاهات الفكر السياسي في العصر الحديث، مرجع سابق، ص 144

¹ - جان جاك روسو، المصدر نفسه، ص 157.

وإن الإنسان الطبيعي يعيش من أجل نفسه "وكان يكفي نفسه بنفسه" ¹، أما الإنسان المدني فيعيش من أجل الآخرين ولإرضائهم فالإنسان الطبيعي ليس لديه سلوك مصطنع، أو رياء أو طبع نفاقي والذي وجد مع الإنسان المدني. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "اعتمادا على شهادة الغير لهم بالاستحقاق أكثر مما هم بالذات لأنفسهم شهودا، ذلك هو، في واقع الأمر السبب الحقيقي لكل هذه الفروق: يعيش المتوحش في داخل نفسه، أما الإنسان المدني فإذا كان دائما خارج نفسه فإنه لا يدري كيف يعيش إلا وهو داخل آراء الآخرين، ومن أحكامهم فقط يستمد شعوره بوجوده الخاص." ²، لقد كان لديه أقران يعيشون مبعثرين مثله لكنه لا يقيم أي تجارة معهم، فلم يكن لديه أي حاجة لهم. ³

وإن الخطابات الأخلاقية سببها الأول هو السلوك الظاهري، والمظاهر الاصطناعية للإنسان، لأنه معها يصير كل شيء اصطناعي، مثل الفضيلة الصداقة والشرف. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "ليس غرضي هنا أن أبين كيف أن ترتيبا كهذا، تنشأ منه لا مبالاة كثيرة بالخير وبالشر، رغم الجمال الفائق الذي يزين الخطابات الأخلاقية، ولا كيف أن كل شيء يؤول إلى المظاهر، وكل شيء يصير مصطنعا ومتكلفا، أكان الشرف أو الصداقة أو الفضيلة، بل وبلغ الأمر في أكثر الأحيان، أن الرذائل عينها، إكتشف سر المفارقة بها في النهاية." ⁴

إن ذات الإنسان هي التي تبلغه على حقيقته، وعلى صدق مشاعره ولا بد له أن لا ينتظر ذلك أن يصدر من الآخرين، وإعطائه له الألقاب وأوسمة الشرف التي لا تحتوى على

¹ - مهدي محفوظ، المرجع نفسه، الصفرحة نفسها

² - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، الصفحة نفسها

³ - جان جاك شفالبييه، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، ص 479

⁴ - جان جاك روسو، المصدر نفسه، ص 157

فضيلة، وأن يحصل على اللذة التي ليس لها سعادة¹ : حيث يقول روسو في هذا الشأن: "وقصارى القول ليس غرضي أن أبين كيف ونحن نسأل دائماً الآخرين عن نكون دون الجرأة، على مساءلة أنفسنا بهذا الصدد وسط قدر هائل من الفلسفة والمشاعر الإنسانية، والطرق المهذبة والحكم الجلييلة، كيف أن لا أملك إلا برانية خداعة وطائشة ، وألقاب شرف بلا فضيلة، وعقلا بلا حكمة، ولذة بلا سعادة."²، ويقول أيضا روسو في هذا الصدد : "أجل ليس غرضي كل هذا فحسبي، أن أكون قد أقمت الدليل على أن ما نحن شاهدوه ليس أبدا حالة الإنسان الأصلية، وأن روح المجتمع وحده لا غير، وما يولده من تفاوت هما اللذان يبدلان ويغيران جميع ميولاتنا الطبيعية."³، وإن الاجتماع حسب روسو شر ينبوع كل الشرور فالأنانية والفوضى والحرب والرق والرذيلة لا وجود لها في الناس إلا إذا كانت تميل إلى الاجتماع.⁴

إن روسو هنا عرض لنا التفاوت وأصله وتقدمه، ونشأة المجتمعات السياسية قيامها و أخطاؤها وعيوبها عن طريق العقل والمنطق، والاستنباط العقلاني وبواسطة أنوار العقل بعيدا عن التأويلات الدينية الكنسية والعقائد المقدسة، "وكان روسو يطالب بإقرار حريات الانسان الأساسية والطبيعية وبالقضاء على الفساد والانقسام الطبقي".⁵ : حيث يقول روسو: في هذا الشأن "ألا إني إجتهدت في عرض التفاوت، أصله وتقدمه، والمجتمعات السياسية، قيامها وشططها، بقدر ما يكون من الجائز إستنباط هذه الأمور من طبيعة الإنسان، بواسطة

¹ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس" ص 157

² - جان جاك روسو، " المصدر نفسه، الصفحة نفسها

³ - جان جاك روسو، في أصل التفاوت بين الناس ، مصدر سابق، الصفحة نفسها

⁴ - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 225

⁵ - مهدي محفوظ، اتجاهات الفكر السياسي في العصر الحديث، مرجع سابق، ص 144

أنوار العقل وحدها لا غير، إستتباطا يكون مستقلا عن العقائد المقدسة، التي تمنح السلطة صاحبة السيادة تصديق الحق الإلهي.¹

وإن التفاوت لما كان غير موجودا في حالة الطبيعة حيث يتساوى فيها جميع الأفراد²، فإنه تأسس وتقوى وترعرع من نمو ملكاتنا، وتطور الروح الإنسانية وأصبح ثابتا وشرعيا بقيام الملكية، "ومع ظهور الملكية يكون الجنس البشري قد خطى خطواته الأولى نحو الانحطاط"³، وبدسترة القوانين الغير شرعية فأصبح الظلم والتفاوت مدسّتر. حيث يقول روسو أيضا في هذا الصدد: "ما يستحصل من هذا العرض هو أن التفاوت، لما كان معدوما في حالة الطبيعة، أو يكاد فإنه استخلص قوته وتناميه، من نمو ملكاتنا و تقدمت الروح الإنساني، ثم أصبح ثابتا وشرعيا بإنشاء الملكية وقيام القوانين".⁴، "ويستفاد أيضا أن التفاوت الأخلاقي الذي أجازته القانون الوضعي، وحده لا غير، يكون مضادا للحق الطبيعي كلما لا يجري مجرى التفاوت الفيزيقي الجسماني، وعلى مقداره ونسبته".⁵

وإن هذا التفاوت حسب روسو هو شيء مضاد للقانون الطبيعي، وللعقل والمنطق وأي كان تعريفنا لهذا القانون الطبيعي، والنوامس الطبيعية التي تدير الحالة الطبيعية. حيث يقول في هذا الشأن: "و إقامة مثل هذا التمييز هي التي تحدد، بما فيه الكفاية، ما يجب أن يكونه تفكيرنا، من هذا المنظور، بخصوص التفاوت السائد بين جميع الشعوب المحكومة بالسياسة المدنية: من الجلي أنه أمر مضاد للقانون الطبيعي، أيا كانت طريقتنا في تعريف

¹ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، ص158

² - مهدي محفوظ، اتجاهات الفكر السياسي في العصر الحديث، مرجع سابق، ص145

³ - مهدي محفوظ، المرجع نفسه، ص146

⁴ - جان جاك روسو، "في أصل التفاوت بين الناس"، مصدر سابق، الصفحة نفسها

⁵ - جان جاك روسو، "المصدر نفسه"، ص158

هذا القانون، أن نرى صبيا يحكم شيخا هرما، وغيبيا يقود إنسانا حكيما، وحفنة من الناس
تغص من وفر الزوائد، في حين تفتقر الحشود الجائعة وعامة الناس لما هو ضروري.¹

¹ -ROUSSEAU -JEAN JACQUE : - DE LINNEGALITE PARMI LES HOMMES ED
GALLIMARD, PARIS, 2000.p156

الفصل الثالث: العقد الاجتماعي وتصحيح الحضارة.

المبحث الأول: -تعريف الحضارة وخصائصها

المبحث الثاني: -العقد الاجتماعي

المبحث الثالث: -الإرادة العامة

المبحث الرابع: -تصحيح الحضارة

المبحث الخامس: -المواطن الصالح

(أ)- الحضارة :

هي نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي، وتتألف الحضارة من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخُلقية، ومتابعة العلوم والفنون؛¹ وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق، لأنه إذا ما أمّن الإنسان من الخوف، تحررت في نفسه دوافع التطلع ، وعوامل الإبداع والإنشاء، وبعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها ، و باختصار الحضارة هي الرقي والازدهار في جميع الميادين والمجالات . "وتتضح قيمة الحضارة من حيث أن لها علاقة مزدوجة بين الطبيعة والمجتمع".²

وترتكز الحضارة على البحث العلمي والتقدم والتطور التكنولوجي، والفني التشكيلي بالدرجة الأولى، فالجانب العلمي يتمثل في الابتكارات التكنولوجية و في العلوم الاجتماعية. - فأما الجانب الفني التشكيلي فهو يتمثل في الفنون المعمارية والمنحوتات ، وبعض الفنون التي تساهم في الرقي. فلو ركزنا بحثنا على أكبر الحضارات في العالم مثل الحضارة الرومانية سنجد أنها كانت تمتلك علماء وفنانين عظماء. فالفن والعلم هما عنصران متكاملان يقودان أي حضارة. وفي اللغة العربية هي كلمة مشتقة من الفعل حضر، ويقال الحضارة هي تشيد القرى والأرياف والمنازل المسكونة، فهي خلاف البدو والبداءة والبادية، وتستخدم اللفظة في الدلالة على المجتمع المعقد الذي يعيش أكثر أفراده في المدن ويمارسون الزراعة على خلاف المجتمعات البدوية ذات البنية القبلية التي تنتقل بطبيعتها ، وتعيش بأساليب لا تربطها ببقعة جغرافية محددة، كالصيد مثلاً، ويعتبر المجتمع الصناعي الحديث شكلاً من أشكال الحضارة. تعتبر لفظة حضارة مثيرة للجدل وقابلة للتأويل، واستخدامها يستحضر قيم (سلبية أو إيجابية) كالتفوق والإنسانية والرفعة، وفي الواقع رأى ، ويرى العديد من أفراد الحضارات المختلفة أنفسهم على أنهم متفوقون ومتميزون عن أفراد الحضارات الأخرى، ويعتبرون أفراد

¹- universalis, *Encyclopédia universalis*, (Paris, T-14, 1990),p20.

²-عادل العوة، فلسفة القيم، درا طلا للدراسات للترجمة والنشر، الطبعة الأولى، دمشق، 1986، ص689.

الحضارات الأخرى همجيين و دونيين ، أي أن الحضارة اليونانية مثلا هي بداية أساس الحضارات الإنسانية.¹

ويذهب البعض إلى اعتبار الحضارة أسلوب معيشي ، يعتاد عليه الفرد من تفاصيل صغيرة إلى تفاصيل أكبر يعيشها في مجتمعه ، ولا يقصد من هذا إستخدامه إلى أحدث وسائل المعيشة بل تعامله هو كإنسان مع الأشياء المادية ، والمعنوية التي تدور حوله وشعوره الإنساني تجاهها. ومن الممكن تعريف الحضارة على أنها الفنون والتقاليد والميراث الثقافي والتاريخي ومقدار التقدم العلمي ، والتقني الذي تمتع به شعب معين في حقبة من التاريخ. إن الحضارة بمفهوم شامل تعني كل ما يميز أمة عن أمة ، من حيث العادات والتقاليد وأسلوب المعيشة والملابس والتمسك بالقيم الدينية والأخلاقية ، ومقدرة الإنسان في كل حضارة على الإبداع في الفنون والآداب والعلوم . والحضارة هي نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي.² وأن العنصر الهام في الثقافة هو المبدأ الأخلاقي،³ وأن الحضارة في جوهرها أخلاقية.⁴ فمفهوم الحضارة مزدوج يشير من جهة إلى قيم روحية ومن جهة إلى قيم مادية.⁵

وللتعرف على حضارات الشعوب تُدرس العناصر التالية :

- طرق العيش والظروف الطبيعية .
- الوضع الاقتصادي.
- العلاقات الاجتماعية بين فئات المجتمع .
- أنظمة الحكم السائدة.

¹-ويل ويريل ديورانت ، نشأة الحضارة ، تقديم الدكتور محي الدين صابر ، ترجمة زكي نجيب محمود، الجزء الأول ، المجلد الأول، دار الجيل ،بيروت لبنان، 1988، ص6

²-ويل ويريل ديورانت، نشأة الحضارة، مرجع سابق، ص3

³- عماد الدين إبراهيم عبد الرزاق، نقد الحضارة الغربية في فكر مالك ابن النبی ، الطبعة الأولى، النجف، العراق، المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية، 2019، ص 18.

⁴-ألبرت أشفيتسر، فلسفة الحضارة، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، مراجعة: زكي نجيب محمود، المؤسسة العامة للتأليف والترجمة الطباعة والنشر، 1963، القاهرة، ص3.

⁵-فرناند برودل، تاريخ وقواعد الحضارات ، ترجمة وتعليق د. حسين شريف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1999، ص5

• (ب)- الحضارة اصطلاحاً :

الحضارة في مفهومنا العام هي ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان ، لتحسين ظروف حياته ومعيشته سواء أكان الجهد المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصوداً ، أم غير مقصوداً سواء كانت الثمرة مادية أم معنوية.¹ لأن في الحضارة هناك تراث مادي ، وتراث لامادي فكل ما ينتجه الإنسان من علم وتكنولوجيا وفلسفة ، فيساهم في تطوره وتقدمه فهو حضارة.

ويرى أندري لالاند: (André Lalande (1963-1876 أن الحضارة هي

مجموعة من ظواهر اجتماعية مركبة ذات طبيعة قابلة للتناقل تتسم بسمة دينية، جمالية، وفنية، تقنية، أو علمية، ومشاركة بين الأجزاء، في مجتمع عريض أو في عدة مجتمعات مترابطة (الحضارة الصينية، الحضارة البابلية والآشورية والحضارة المصرية، واليونانية والرومانية...) ² " وهذا المفهوم للحضارة أشد الارتباط بالتاريخ لأن التاريخ كما سنرى هو الزمن، والثمرات الحضارية التي ذكرناها تحتاج إلى زمن لكي تطلع أي أنها جزء من التاريخ، أو نتاج جانبي للتاريخ، وكما أن ثمار الزرع و الأشجار لا يطلع إلا بفعل الزمن إذ لا يمكن أن تزرع وتحصد ثمرة ما في نفس الوقت الذي زرعتها، فإن ثمار الحضارة لا تظهر إلا بإضافة الزمن إلى جهد الإنسان." ³ لأن التاريخ متعلق بالإنسان ومع الإنسان: فالإنسان هو الذي يكتب التاريخ ، والإنسان هو الذي يقوم بالأفعال والأحداث التاريخية لأن الظاهرة التاريخية: هي ظاهرة إنسانية محضة.

¹-د. محمد مؤنس ،-الحضارة : دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها ، عالم المعارف ، الكويت ، 1978، ص13.

²-أندري لالاند ، - الموسوعة الفلسفية ، إشراف: أحمد عويدات ، ترجمة: خليل أحمد خليل ، الطبعة 2، بيروت، باريس، منشورات عويدات، 2001-، ص172.

³-د. محمد مؤنس ،-الحضارة : دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها ، مرجع سابق، ص13.

ولا تتبين القيمة الحقيقية لأي ثمرة حضارية ، إلا إذا جربها الإنسان في الاستعمال مرة بعد مرة (أخرى)، وعرف فائدتها وتعلم كيف يصنعها إذا أراد. وهذا أيضا يحتاج إلى وقت أي إلى زمن وتاريخ. ولا بد كذلك أن يتكاثر صنع الشيء ويتراكم، حتى يكون له أثر في حياة الإنسان. ويصبح جزءا من هذه الحياة، فإذا وفق إنسان إلى صنع قوس واحدة ورمى بها ثم تركها أو لم يعرف كيف يستفيد منها في الصيد والحرب فأهملها، لم تكن لها قيمة حضارية.¹، "ومن المؤكد عند العلماء أن كل اكتشاف من الاكتشافات المبكرة ، التي كونت الخطوات الأولى في المسيرة الحضارية، إكتشفت ثم أهملت أو نسيت أكثر من مرة في نفس الجماعة، حتى إتضحت قيمتها العلمية ، فعمل الناس على الإكثار منها وإستعمالها ومع الإكثار تحسن نوعها وزادت كميتها." ²، وأصبحت أداة من أدوات الحياة اليومية وهذا ما يسمى بالقيمة التراكمية ، وهذا أيضا يحتاج إلى وقت :-أي إلى زمن وتاريخ لكي تظهر قيمتها.فالحضارة كلمة تثير في نفس الانسان وعقله صورا وعواطف قوية ومؤثرة.³

وعندما وجد الأركيولوجيون والأنثروبولوجيون رغيفان الخبز في مقابر الفراعنة ، عرفنا أن وراء هذه الأقراص تاريخا طويلا ، وعندما درسنا أحوال المجتمعات البدائية الباقية إلى اليوم، عرفنا صفحات طويلة من ذلك التاريخ ، فمن هذه القبائل ما يعرف القيمة الغذائية لسنابل القمح التي توجد برية بين الحشائش ، فيأخذون القمح من السنابل ويأكلونه كما هو ، ومنها من يجمع أفرادها هذه السنابل حصدا ومنها قبائل تزرع القمح وتحصده وتأكله حبا ، ومنها قبائل تجرشه قبل أن تأكله ، وهناك قبائل تطحنه وتأكله دقيقا أو تذيبه في الماء. وهكذا حتى نصل إلى القبائل التي تصنع الخبز. وإذا كان عمر الإنسان على وجه الأرض يرجع إلى ثلاث مائة ألف سنة على أقرب الآراء إلى الصحة ، فإن لكل من هذه القبائل

¹ - د. محمد مؤنس ،-الحضارة : دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها ، مرجع سابق ، ص 13

² - د. محمد مؤنس ،-المرجع نفسه، الصرفحة نفسها

³ - توماس سي باترسون،الحضارة الغربية الفكرة والتاريخ، ترجمة شوقي جلال،المجلس الأعلى للثقافة، الهيئة العامة لشؤون

المطابع الأميرية،2001، ص4

مكانها على هذا الطريق ، أو التاريخ الطويل الذي يحكيه رغيف الخبز الذي وجدناه في مقابر الفراعنة.¹

فإن الإنسان بغض النظر عما إذا كان قد ولد في هذا العالم من أجل أن يعيش أو قد يفكر فإنه طالما يعمل فكراً أو تصرفاً فهو يقظ واع، لذلك إذن فهو داخل مركز الدائرة لذلك "أعني أنه نظم وأعد وفق المغزى الذي يحتويه من أجله عالم الضوء البرهة التي هو فيها".²

وهنا مرة أخرى تتجلى لنا الصلة بين الحضارة والتاريخ ، ولنذهب مع المثل الواحد خطوة أخرى فنقول: أن صنع الخبز لم يتيسر إلا بأدوات من مواعين وآنية ، وأحجار طحن وعلم يتمثل في خلط الدقيق بالماء وعجنه وحسن إستخدام النار في هذا المطلب ، وهذه كلها إحتاجت إلى أزمان متطاولة حتى تمكن الناس من جمعها ، واستخدامها معاً لصناعة شيء واحد هو رغيف الخبز. "فالحضارة والتاريخ-على هذا-مرتبطان أحدهما بالآخر أشد الارتباط ولا يستطيع الإنسان أن يتحدث عن الحضارة حديثاً معقولاً، إلا إذا عرف ماهية التاريخ معرفة معقولة أيضاً. ولا معنى لأن نشير هنا إلى ما ذهب إليه بعض قدماء المفكرين، ومنهم أبو محمد علي بن أحمد بن حزم ، الذي أيد هذا الرأي في كتابه المسمى « مراتب العلوم » من أن الله سبحانه وتعالى، قد أوحى إلى الإنسان الحرف والصنائع كلها وحيأ فأوحى إلى أول نجار صنعة النجارة، وكذلك فعل مع الحدادة والبناء وبقية الصناعات. كما أوحى سبحانه إلى النحل كيف تبني خلاياها.³

¹ - د. محمد مؤنس ،-الحضارة : دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها،مرجع سابق. ص13

² -أسوالد شبنغلر، تدهور الحضارة الغربية، ترجمة احمد الشيباني، الجزء الثاني، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان،

ص1

³ - د. محمد مؤنس ،-الحضارة : دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها،مرجع سابق، ص 13

إن الله أعطى القدرة للكائنات أن تكتمل ، وتؤسس انجازاتها عن طريق المؤهلات الفطرية التي خلقت بها كل حسب مؤهلاته و غريزته الطبيعية. "يقول ابن حزم « وكيف يتأتى للنحل أن يصنع خليته إلا بإلهام من الله تعالى ؟ » نقول ونرد على هذا القول: بأن هذا أسهل وسطحي في تفسير ظاهرة الحضارة، وقد غاب عن ابن حزم أن النحلة تبني خليتها بغريزة مركبة فيها هدفها المحافظة على نوعها، وإن النحل يصنع خلاياه بطريقة آلية غريزية ، منذ القدم فلا يحدث هناك أي تغير أو تطور لهذه الآلية الغريزية ، "ولهذا فإن النحل يصنع خلاياه على هذا النحو من عشرات الألوف من السنين، وسيظل يصنعها على هذه الوتيرة إلى أن يطوي الله الأرض وما عليها ، أما الإنسان فله غرائزه أيضا التي يحافظ بها على بقائه وبقاء نوعه، وبالغرائز وحدها يظل الإنسان على هيئته التي فطرها الله عليها أبد الدهر أما تقدمه، وتحسن أحواله فيرجع إلى مواهب أخرى أعطاه الله إياها أولها العقل وهذا العقل هو الذي اختزن المعلومات ،ولاحظ الأشياء وتأملها وتبين الروابط بينها واكتشف وإخترع، وفتح للإنسان أبواب السيادة على هذا الكوكب.¹ ، فتاريخ الحضارة الإنسانية لديها جانب مادي و عقلائي وروحاني عند توينبي.²

1-العقل ومكانه في تاريخ الحضارة:

وعندما نذكر « العقل » نريد به النشاط الذي يقوم به عضو في كيان الإنسان وهو المخ. وهناك فرق بين المخ والعقل. فالمخ عضو يشترك فيه الإنسان مع بقية الحيوانات، والطيور والأسماك ولكن مخ الإنسان أكبر من المخ عند غيره من الحيوان، وأكثر تعقيدا وخلاياه أكثر تنوعا. وقد إحتاج الإنسان إلى عشرات الألوف من السنين، ليصقل ذهنه وترهف ملكاته ويصبح قادرا على « عقل » الأشياء أي ربطها بعضها ببعض، وملاحظة الأشياء والظواهر

¹ - د. محمد مؤنس ،-الحضارة : دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها ، مرجع سابق، ص13

² -آرنولد توينبي، مختصر دراسة للتاريخ، مرجع سابق، ص8

واختزان نتائج هذه الملاحظات، وعندما تنبّه الإنسان إلى أن له « عقلا-» أي قدرة على إدراك الأشياء وفهمها، والربط بين الظواهر بعضها ببعض.¹

والحضارة في نظر النخب الذين صاغوا هذا التعريف وهذه الفكرة هي دائما تصور متعدد الطبقات ومجتمعات قائمة على الدولة وشعوب متحضرة تنتمي الى تلك الطبقات صاحبة الوجود المتميز ويكفل هذا الوجود المتميز مؤسسات وممارسة الدولة.²

وإن التجربة لعبت دورا هاما في تطور العقل الإنساني ، حيث يرى كانط أن كل معرفة بعدية تبدأ مع التجربة في نقده للعقل الخالص ، وأن العقل هو عبارة عن صفحة بيضاء كما يقول لوك في كتابه مقال في الفهم البشري. -"وإن خطأ الخطوة الأولى في طريق الحضارة، ومن هنا يقول بعض العلماء إن العقل نفسه أول مخترعات الإنسان، ولنذكر أن اللفظ العربي «عقل» بمعنى القدرة على عقل الأشياء أي القبض والسيطرة عليها، أدل على مفهوم العقل من اللفظة الإنجليزية وهي mind وأصلها هو فعل to mind ومعناه الأول يتذكر ، وهي قدرة واحدة من قدرات العقل ولفظ reason ، ومعناه الدقيق « السبب » ثم فرعوا عليه المعاني الأخرى التي تتصل بالعقل وكذلك يقال عن لفظي L esprit L raison الفرنسيين ولفظي L geist vernunft الألمانيتين ومن الواضح أن قدرة الذهن على (العقل) ، أو عقل الأشياء كانت قليلة أول الأمر ثم إزدادت القدرة مع الاستعمال لأن للذهن عضلات تقوى، وتتعدد قدراتها واستعمالاتها بالاستعمال ، والمران شأنه في ذلك شأن الذراع أو اليد."³

¹ - د. محمد مؤنس ،-الحضارة : دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، مرجع سابق ،ص 13

² - توماس سي باترسون ، الحضارة الغربية الفكرة والتاريخ ، ترجمة شوقي جلال،المجلس الأعلى للثقافة،الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية،2001، ص4

³ - د. محمد مؤنس ،-الحضارة : دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، مرجع سابق ، ص 13

إن المران والتدرب على ضبط الأشياء والتحكم فيها ، يقوم بها العقل بطريقة التعود على تطبيق هذه الآلية عبر الزمن وإعادة ذلك مرارا وتكرار. "وينبغي أن يكون السلوك الأخلاقي للإنسان، وظيفة التكيف مع الأشياء الطبيعية المحيطة.¹ ، فالإنسان يتعلم كل يوم، ويعمق النظر ويرى.²

وعندما ترى طفلا يحاول استخدام كفه ، وأصابعه في إمساك الأشياء والتصرف فيها فليعلم أن ذهنه أيضا يقوم بعمله على هذا النحو، من الضعف وقلة الضبط والإحكام ومع الزمن تقوى اليد. وتزداد حركتها إحكاما ويجري نفس التطور في الذهن، وهذه الملاحظة في ذاتها تعطيك فكرة عن العصور المتطاولة، التي إحتاج إليها الإنسان حتى ينتبه إلى قدرات ذهنه وإمكانات إستخدامه، ونحن نختصر الطريق اليوم عندما نرسل أولادنا إلى المدارس ومن المعروف أن المراحل الأولى من التعليم، لا يقصد من ورائها إلى تلقين الطفل معلومات معينة بقدر ما نقصد إلى تمرين ذهنه وتقويته، ليصل إلى مرتبة الإدراك المنطقي والعقل المنظم ثم التفكير بطريقة سليمة.³

وواضح أن التفكير أي إستخدام الذهن إستخداما منظما ، هو عملية حضارية إحتاجت إلى زمن طويل وإلى فترة طويلة ، حتى أصبح هذا التفكير عنصرا أساسيا وفعالا في توجيه أعمال وتنظيم الإنسان وتأسيس وصنع الحضارة. والعملية مازالت مستمرة وما زلنا نشهد، ونحس في أنفسنا الصراع بين الغريزة والعقل، والغريزة بطبيعة الحال أقوى لأنها مركبة في

¹ - روزنتال. م، يودين.ب،: الموسوعة الفلسفية:ترجمة:سمير كرم،مراجعة:صادق العظم، جورج طرايشي،دار الطليعة للطباعة والنشر،بيروت، ط1، 1974، ص 11

² -موريس كروزيه، رولاند موسني إرنست لابروس، تاريخ الحضارات العام، القرن 18، ترجمة يوسف اسعد داغر، فريد داغر، المجلد الخامس ، منشورات عويدات ،لبنان، الطبعة الثانية، 1987، ص7.

³ -د. محمد مؤنس :-الحضارة : دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، مرجع سابق، ص16

الطبع، في حين أن العقل ينمو تدريجيا كما يرى "جان بياجي" وفي مستويات الحضارة الدنيا والعليا على السواء، نلاحظ كثيرا أن الغريزة تنجح في حالات كثيرة جدا في التغلب على العقل وتذليله ، لرغباتها كما نرى في حالات الإجرام والعدوان على الناس والأموال والأعراض ، في حالة الأفراد وكما نرى في ظواهر سيطرة الغريزة على أعلى مستويات العقل. وهو العلم في صنع أدوات التدمير والتخريب، أو في الهبوط بالإنسان إلى مستويات الدناءة والفوضى الخلقية، في أرقى المجتمعات.¹ "والى يومنا هذا لا تزال هناك قبائل في أستراليا وغينيا الجديدة ، وغابات أفريقيا وغابات الأمازون لا يدخل العقل أو التفكير في تصرفاتها أفرادا، وجماعات إلا بقدر محدود جدا ، ومازالت أعمالها ردود أفعال غريزية لا أفعالا معقولة ، وليس معنى ذلك أنها غير متحضرة أو عارية عن الحضارة أصلا، بل معناه أنها متحضرة بالقدر الذي تستطيع أن تستخدم به أذهانها، وسنرى بعد قليل أن من الخطأ القول بأن هناك جماعات بشرية متحضرة، وأخرى وحشية أو همجية، فليست هناك جماعات كاملة التحضر وكذلك لا توجد جماعات إنسانية على الفطرة، تماما فلكل جماعة حضارتها والفرق في المستوى."²

إنه لكل جنس من الأجناس البشرية حضارة خاصة به ، حيث نرى أنه توجد في التاريخ : حضارة بابلية وحضارة مصرية ، وحضارة صينية ، وحضارة فارسية ، وحضارة رومانية ، ثم حضارة إسلامية.. والفرق يوجد في المستوى لا غير ، وبمدى تقديمها و إثرائها للتراث العالمي. وإن الحضارة ليست منحة أو هبة بل هي انجاز، وهي انجاز هش بحاجة إلى موالاة والدفاع عنه ضد من يسعون تطويقه من الداخل والخارج.³

¹- د. محمد مؤنس :-الحضارة : دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، مرجع سابق، ص 16

²- د. محمد مؤنس :-المرجع نفسه: ص 16

³- توماس سي باترسون، الحضارة الغربية الفكرة والتاريخ، مرجع سابق، ص 8

إلى هنا نكون قد تبينا عنصرين أساسيين، من عناصر صنع الحضارة وهما: الزمن أو التاريخ والعقل أو التفكير. ونقول الآن كلمة موجزة عن العنصر الثالث وهو الإنسان نفسه، وهو الكائن الوحيد الذي صنع حضارة، وهو لم يصنعها بعقله فحسب أو بعقله مضافا إليه عنصر الزمن، بل بتركيبه العضوي وخصائصه البدنية كذلك.¹

(2)-الإنسان و خصائصه:

تختلف الآراء حول عمر الإنسان على هذا الكوكب ، "وأقرب الآراء إلى القبول هو ما ذهب إليه آرنولد توينبي ، من أن أقدم آثار للإنسان عثرنا عليها ترجع إلى ثلاثمائة ألف سنة، ولكن أكمل الهياكل العظمية الكاملة التي وجدناها ترجع إلى تسعة وأربعين ألف سنة، أي في الوقت الذي وصل فيه العصر الثلجي الأخير إلى ذروته".² . إن العوامل المناخية الصعبة لعبت دورا هاما في توجيه وتحديد حياة الإنسان على ظهر هذا الكوكب ، فنتوسع البشرية أينما سمحت لها الظروف المناخية ذلك ، فالإنسان يحب أن يعيش في المناخات المعتدلة، التي تساعد على العيش حيث يلائمه هذا المناخ والعيش حياة سهلة. وليست الدراسات التاريخية الواضحة المعالم عند توينبي هي الأمم أو العصور لكنها المجتمعات أو بالأحرى الحضارات.³

وأخذ الثلج ينحسر إلى الشمال خلفا جماعات من البشر متشابهة، في صفاتها العامة في نواح شتى من الأرض مثل فرنسا وشبه جزيرة أيبيريا، وطانجة وروديسيا زيمبابوي وإندونيسيا أي في نطاق واسع من الأرض ، يدل على أن الإنسان كان موجودا في نواح

¹ -د. محمد مؤنس ،-الحضارة : دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها ، مرجع سابق، ص 17

² - المرجع نفسه، ص 18

³ -آرنولد توينبي، مختصر دراسة للتاريخ، ترجمة محمد احمد شبل، مراجعة احمد عزة عبد الكريم، تقديم عبادة كوحيلة، سلسلة ميراث للترجمة ، المركز القومي للترجمة ، الجزء الرابع ، 2011 القاهرة ، مصر، ص 7

الأرض جميعا قبل ذلك العصر الثلجي الأخير، "ثم طغى الثلج فقضى على البشر في كثير من نواحي النصف الشمالي للكرة الأرضية، فلم يبق منهم إلا بقايا متناثرة في المواضع التي ذكرناها وفي نواح أخرى غيرها، فلما انحسر الثلج إلى الشمال أخذ البشر ينتشرون في الأرض من جديد، هذه النماذج البشرية التي وجدناها تتشابه في خصائصها البدنية العامة وتتشابه أيضا في خصائصها العقلية ، بدلالة ما وجدنا مع هياكلها من أدوات، وبصفة عامة لم تتغير حياة الإنسان كما هي عليه اليوم عنها في ذلك الحين".¹

لا يمكن إعتبار البيئة هي العامل الإيجابي في تكوين الحضارة والذي جلب الحضارات الى الوجود وإن كان بلا ريب عاملا عظيما له دوره في التشكيل الثقافي إذ ما يزال هناك عنصر هام آخر وهو سيكولوجي في طبيعته وهو أهم دوافع إنبعاث الحضارة.² ، "وقد قلت الثقة اليوم بين علماء الغرب في أن الإنسان ينحدر من جنس البشريات Hominoïde أو Anthroppoïde وهي على رأي القائلين بالتطور المطلق، تشمل القردة العليا Primates والإنسان Homo Sapiens وغالبية العلماء يجمعون اليوم على أن الإنسان جنس قائم بذاته ، لأن الفجوة بينه وبين القردة العليا، أوسع من أن نفترض أننا نستطيع تغطيتها بما يسمى بالحلقة المفقودة، إذ الحقيقة أن التشابه بين هذه القردة العليا (وخاصة الأورانج أوتان و الشمبانزي والغوريلا) ، و الإنسان بعيد بينما التشابه بينها وبين بقية القردة والحيوانات الأخرى أقوى، و جدير بالذكر أن خطوط الأنساب، والقرايات بين فصائل الحيوان غير ثابتة بصفة عامة ، وعلماء الحيوان والأحياء يدخلون عليها كل حين تعديلات وتصويبات، وهناك مئات أصناف الحيوان تقف إلى الآن منفصلة لا تتبع أي فصيلة جنس، ولا معنى والحالة هذه للإصرار على ربط الإنسان بالقردة أو بالقردة العليا".³

¹ -د. محمد مؤنس ،-الحضارة : دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، مرجع سابق، ص18

² -آرنولد توينبي، مختصرة دراسة للتاريخ، مرجع سابق، ص 10

³ -د. محمد مؤنس، -الحضارة : دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها ، مرجع سابق، ص 27

إن نظرية لامارك وداروين في التطور وصلت الى حدودها ، لأنها تقوم على فرضيات تاريخية غير مبرهن عليها إطلاقاً في وقتنا الحالي. فالحيوان يتأقلم مع الظروف الجديدة والصعبة ولكنه لا يتطور .

(3)- البيئة الجغرافية والإنسان والحضارة:

ولا شك في أن البيئة الجغرافية التي ينشأ فيها شعب من الشعوب، لها أثر كبير في التقدم والشكل الحضاري الذي ينشئه. "لأن الإنسان يأخذ مادة حضارية مما حوله ، والظروف الطبيعية التي تحيط به لها أعظم الأثر في حفز همته إلى العمل والإنشاء والابتكار، أو في تثبيط همته وحرمانه من كل تطلع إلى جديد ، ومن الآراء المتداولة بيننا دون تفكير، وأن البيئة المعتدلة الجو أعون للإنسان على التقدم من البيئة الحارة المناخ".¹ استخلص توينبي فكرة أن الإنسان قد حقق الحضارة لا نتيجة لمواهب بيولوجية عليا أي التفوق العنصري أو ثمرة بيئة جغرافية ولكنه حققها إستجابة لموقف ذو صعوبة خاصة، إستثار الانسان لبذل جهد ما لم يبذل من قبل.²

وإن هناك فرق بين البيئة الجغرافية الأوروبية والإفريقية ، والآسيوية والأمريكية والقطبية الشمالية والجنوبية، فكل بيئة لديها خصوصيتها الخاصة بها ، فالإنسان يتأقلم مع هذه البيئة ويتأثر بها ويؤثر فيها أيضا. "وأن البيئة الباردة والمناخ تحفز على العمل وتنشط على السعي وهو رأي صحيح من حيث نتيجته ، لا من ناحية منطقيته لأن الجو الحار يفتر الهمة إلى العمل، ولكنه لا يقضي على النشاط الذهني، ففي بلاد الهند وأفريقيا المدارية والاستوائية ، وهي بلاد حارة المناخ في جملتها قامت حضارات كبرى وظهر رجال نوابغ، يمتازون بنشاط ذهني وبدني متدفق من أمثال يوسف بن تاشفين ومنسي ككن موسى ملك مالي 1337 م)

¹- د. محمد مؤنس ، -الحضارة : دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها ، مرجع سابق، الصفحة نفسها.

²-آرنولد توينبي، مختصر دراسة للتاريخ، مرجع سابق، ص10

وماري جاطة) 1312 وكان من أعظم حكام إفريقيا الغربية المدارية ، وغيرهم والحقيقة أن المناخ البارد يقضي أولاً بأول على الضعفاء والخاملين والقاعدين عن العمل.¹، حيث يرى أصحاب الحتمية الجغرافية أن البيئة الجغرافية (المناخ والتربة، والأنهار) هي العامل الأساسي في التطوير الاجتماعي. وهي تناول طبيعي ومثالي في أساسه للتاريخ قال بها في البداية المفكرون الأقدمون، مثل: أفلاطون وأرسطو.² حيث عرض أرسطو في كتابه السياسة العلاقة الموجودة بين المناخ والحضارة.³

إن المناخ الصعب يقضي على الضعفاء والتمهالكين - فلا يبقى في النهاية إلا القوي الصلب الدعوب، أي أن العمل في ذلك المناخ ضرورة دونها الهلاك في حين أن العمل ليس ضرورة في الجو الحار، حيث لا يحتاج الإنسان إلى كساء أو دار أو غذاء كثير، وعندما عرفنا قدرًا كافيًا من تاريخ سكان جزر المحيط الهادي في جنوب شرقي آسيا، وهي جزر حارة في جملتها تبيننا أن أهلها قاموا بأعمال تتطلب أكبر جانب من الجهد والإقدام . "ويكفي أنهم عمروا جزر هذا المحيط الشاسع التي تمتد من نيوزيلندا إلى جزر الهاواي، قاطعين عشرات الألوف من الكيلو مترات على متون سفن لا تقل صلابة عن أحسن ما ابتكره الإنسان إلى مطالع العصر الحديث".⁴ فالبقاء للأقوى وللأصلح في هذه الظروف الصعبة والباردة، لأن الإنسان في هذه البيئة يبتكر الوسائل التي تساعد على العيش في هذه الظروف القاسية. وأبرز مثال يطالعنا على هذا الشأن انبعاث الحضارة المصرية فلقد كان السهب الأفراسي الصحراء الكبرى والصحراء العربية قبل فجر الحضارة أرض رعي عامرة

¹ - د. محمد مؤنس ،-الحضارة : دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها ، مرجع سابق، ص 27

² -روزنتال م، ب.بيودين، الموسوعة الفلسفية،، مرجع سابق، ص175.

³ -موريس دو فيرجي، مدخل إلى علم السياسة، ترجمة د. جمال الأتاسي، د. سامي الدروني، دار دمشق للنشر والتوزيع، د.ط، د.ت، ن، دمشق، ص67

⁴ - د. محمد مؤنس ،-المرجع نفسه. ص28

بالمياه وطالع الجفاف المتتالي هذه المراعي فجابه سكانها هذه الظروف بتحد إستجابوا له بطرق مختلفة.¹

ولدينا ظاهرة معروفة لنا تضاف الثقة القديمة في نظرية البيئة، وأثرها في الإنسان وهي ظاهرة العرب فقد نشأوا- على ما نعلم- في صحراء تشبه الصحراء الأفريقية الكبرى في كل شيء، وتشبه صحراء جوبي في الصرين بل تم تاز هذه الأخيرة بجو أميل إلى الاعتدال وأوفر حظا من الأمطار والمراعي، فكيف إنفردت صحراء العرب بظهور هذا الجنس العربي المتميز منذ عصور الجاهلية الأولى، بخصال الذكاء البعيد والنشاط البدني وفتح الذهن والاستعداد للانتقال من الجاهلية إلى الإسلام، وما تطلبه هذا الانتقال من ملكات وقدرات؟ وكيف أتيح لهذا الشعب العربي تطوير هذه اللغة التي اتسعت لم عاني القرآن ولكل مطالب الحياة المتهضرة بعد ذلك إلى يومنا هذا، في حين لم ينشأ في الصحراويين الآخرين شيء من ذلك أو قريب منه ؟².

وعندما أتيحت الفرصة لجينجيسخان وللمغول والنتار سكان صحراء جوبي ، أن يمتدوا خارج بلادهم كان إمدادهم بلاء على الناس وهدما ودمارا للحضارة وسفكا للدماء، فإذا كان للبيئة هذا الأثر البعيد في حياة البشر فكيف اختلفت آثار البيئة الصحراوية ، على ثلاث جماعات من الناس هذا الاختلاف؟ منشأ هذه الفكرة-فكرة الأثر الحتمي للبيئة على تكوين الصور البدنية والعقلية للبشر عند اليونان³.

إنه يمكن أن تكون البيئة الجغرافية واحدة ، أو متشابهة، لكن الحضارة التي تنشأ وتتجم عنها، تكون مختلفة كل الاختلاف بين هذه الأجناس البشرية التي تسكن هذه المناطق

¹ - آرنولد توينبي، مختصر دراسة للتاريخ، مرجع سابق، ص 10

² - د. محمد مؤنس :- الحضارة : دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها ، مرجع سابق، ص 28

³ - د. محمد مؤنس ،-المرجع نفسه، ص 28

الجغرافية المتشابهة. "فقد وردت مفصلة في رسالة من رسائل مدرسة أبقيراط الطبية، أورد نصها آرنولد توينبي في الجزء الأول من « دراسة للتاريخ » وهي تقول إن هيئات البشر تنقسم إلى أنواع، أو نماذج يرجع كل منها إلى نوع معين من البيئة الجغرافية، فهناك نوع البشر الذين يسكنون بيئات جبلية ، وفيرة الغابات والأمطار، والنوع الذي يسكن أرضا سمك تربتها قليل ومياهها شحيحة والنوع الذي يسكن أراضي المراعي، والمستنقعات والنوع الذي يسكن بيئة أزيلت غاباتها وأحسن تصريف مياهها ... إلى آخر صنوف البيئات".¹، وهكذا يمكن تفسير بدايات الحضارة في الفرض القائل بأن الأحوال الصعبة هي التي تولد هذه الأعمال المجيدة.²

فهنا نرى أن أبيقراط قسم الأجناس البشرية حسب البيئة الجغرافية التي يسكنونها ، ويعيشون فيها فهناك بيئة تحتوي على مياه كثيرة ، وأخرى على غابات وأراض سامكة. " ثم تذكر الرسالة خصائص البشر الذين تخرجهم كل بيئة من هذه ، فتقول مثلا إن سكان البيئة الجبلية الصخرية الوافرة المياه ذات الارتفاع العالي ، حيث يختلف الجو إختلافا بينا بحسب الفصول هذه البيئة. يؤدي إلى إخراج بشر كبار الأجسام وأجسادهم مهيأة ، على نحو ينبت الشجاعة والاحتمال ."³ .

ويبيدي إستقراء التاريخ أن الشعوب التي تشغل مواقع حدود وتتعرض لعدوان متصل تظهر إستطالة أشد إشراقا من أصحاب المواقع المحمية وتستجيب بصفة عامة.⁴ ، أما سكان الوهاد ذات الأراضي المنبسطة الوافرة المياه ، أولئك الذين يتعرضون في العادة للرياح الدافئة أكثر من تعرضهم للرياح الباردة ، لا يكونون على عكس السابقين ذوي أبدان نحيلة، بل يكونون أقرب

¹ - د. محمد مؤنس ،-الحضارة : دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها ، مرجع سابق، ص 28

² - آرنولد توينبي، مختصر دراسة للتاريخ، مرجع سابق، ص 11

³ - د. محمد مؤنس :-المرجع نفسه. الصفحة نفسها

⁴ - آرنولد توينبي، مختصر دراسة للتاريخ، مرجع سابق، ص 11

إلى السمنة، ذوي لحم وشحم وشعر أسود وبشرة أميل إلى السمرة مع ميل إلى التراضي وبعد عن المغمرة ، ولا نجد الشجاعة أو الاحتمال مركبين في طباعهم على النحو الذي يكونان به عند الأولين ، ولكن من الممكن غرس هاتين الخصلتين فيهم إذا وجدوا نظاما سياسية صالحة... إلى آخر هذا الكلام الذي يجعل البشر نتاجا للبيئة الجغرافية.¹

ف نجد أن الأجناس البشرية التي سكنت أوروبا تكون بشرتها بيضاء والأجناس البشرية التي تسكن جنوب شرق آسيا تكون لون بشرتها صفراء. ولقد حقق الإنسان الحضارة، لا نتيجة للتفوق البيولوجي أي التفوق العنصري، أو ثمرة بيئة جغرافية ولكنه حققها نتيجة لإستجابة لتحد موقف ذو صعوبة خاصة.²، "وتختتم الرسالة بقولها: وفي غالب الحالات نجد أن تكوين الإنسان الجسماني، وخلقه يختلفان بحسب القطر الذي يعيش فيه وهذا الكلام ، يذكرنا بقول ابن خلدون في مقدمته في الفصل الذي عنوانه «: في المعتدل من الأقاليم و المنحرف وتأثير الهواء في ألوان البشر»³.

إن تكوين الانسان الجسدي الفيزيقي والخلقي يختلف من قطر إلى آخر ، وهذا ما قاله ابن خلدون في مقدمته. وإن ابن خلدون يستخدم لفظ « الهواء » في مكان ما نسميه نحن اليوم بالمناخ، والفصل طويل يقسم المعمورة من الأرض، إلى سبعة أقاليم « الثاني والسادس بعيدان عن الاعتدال والأول والسابع، أبعد بكثير فلهذا كانت العلوم والصنائع، والمباني والملابس والأقوات والفواكه بل والحيوانات، وجميع ما يتكون في هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال، وسكانها من البشر أعدل أجساما وألوانا وأخلاقا وأديانا ،حتى النباتات فإنما توجد في الأكثر فيها،

¹ - د. محمد مؤنس ،-الحضارة : دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها ،، مرجع سابق، ص 28

² - آرنولد توينبي، مختصر دراسة للتاريخ ، مرجع سابق، ص10

³ - د.محمد مؤنس،المرجع نفسه، ص 28

ولم نقف على خبر بعثة في الأقاليم الجنوبية ولا الشمالية، وكذلك أن الأنبياء والرسل، إنما يختص بهم أكمل النوع في خلقهم ، وأخلاقه وأهل هذه الأقاليم أكمل لوجود الاعتدال لهم ، فنجدهم على غاية من التوسط في مساكنهم وملابسهم وأقواتهم وصنائعهم.¹

يستخدم ابن خلدون لفظ الهواء بدل من مصطلح المناخ ، حيث يقسم أقاليم الأرض الى سبعة أقاليم، وأنه كانت العلوم والصنائع والمباني والملابس والأغذية والحيوانات في الأقاليم المعتدلة، وإن سكانها ذات إعتدال في الأجسام والألوان والأخلاق والأديان."وأما الأقاليم البعيدة من الإعتدال مثل الأول والثاني والسادس والسابع ، فأهلها أبعد من الاعتدال في جميع أحوالهم فبنائهم بالطين والقصب، وأقواتهم من الذرة والعشب وملابسهم من أوراق الشجر يخسفونها عليهم،...وأخلاقهم مع ذلك قريبة من خلق الحيوانات العجم .حتى لينقل عن الكثير من السودان أهل الإقليم الأول ، أنهم يسكنون الكهوف والغياض ويأكلون العشب وأنهم متوحشون".².

وإن الأقاليم البعيدة نرى أن أهلها أبعد من يكونوا معتدلين فبيوتهم يبنو نها بالطين والقصب، وإن غذائهم من الذرة والعشب ، وإن أخلاقهم بهيمية تكون قريبة من الحيوانات: "غير مستأنسين يأكل بعضهم بعضا وكذلك الصقالبة) « الروس. بل يتوغل في هذا التفكير في فصل عن « أثر الهواء في أخلاق البشر» قال فيه إن « في خلق السودان على العموم الخفة، والطيش وكثرة الطرب فتجدهم مولعين بالرقص ، على كل توقيع موصوف بالحمق في كل قطر، والسبب الصحيح في ذلك أنه تقرر في موضعه من الحكمة أن طبيعة الفرح والسرور هي انتشار الروح الحيواني وتفشييه ، وطبيعة الحزن بالعكس وهو انقباضه وتكاثفه الخ...".³.

¹- د. محمد مؤنس ،- الحضارة : دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها ، مرجع سابق، ص28

²- المرجع نفسه، ص 29

³- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

وإن المجتمع ينفعل ويتفاعل مع المجتمعات والشعوب الأخرى¹. وهو نظام العلاقات بين الأفراد ولا يتأتى للكائنات أن تحقق وجودها الحقيقي إلا بتفاعلها مع رفاقها²، " ثم يلحق بالسود في ذلك « أهل البلاد البحرية لما كان هواؤها متضاعف الحرارة، بما ينعكس عليه من أضواء بسيط البحر، وأشعته كانت حصتهم من توابع الحرارة في الفرح والخفة موجودة أكثر من بلاد التلال والجبال الباردة... الخ. »³.

وإن السكان الذين يعيشون على ضفاف البحر المتوسط ينفعلون بسرعة، ويغضبون بسرعة لأن لديهم طابع إنفعالي وحماسي يتغير كتغير المناخ الذي يعيشون فيه، " وهذا كلام ظاهر الخطأ، وهو يعتمد أساسا على معرفة خاطئة بطبيعة الحياة والنفس الإنسانية، وتركيب الإنسان وكيف تعمل أجهزته، وإبن خلدون لا ينفرد بهذا الخطأ بل كانت هذه هي معلومات أهل عصره بالطب والنفس وطبيعة الحياة، فكلامه هذا لا يعتد به ولا يعتبر كلاما علميا مفهوم عصرنا، ومن المعروف أن معظم ما كان يسمى علما في العصور الوسطى.⁴ .

إن معيار العلم في العصور الوسطى: هو العلم الأرسطي المبني على القياس، والاستدلال الأرسطي. - لا العلم الحديث المبني على التجربة العلمية، حيث كان إبن خلدون يستخدم آليات العلم في عصره، و هذا ما أشار اليه: عندما تكلم عن علم العمران البشري. "كان يقوم على آراء وفروض، واستنتاجات من هذه الفروض التي يصعب قبولها، ولا نستطيع أن نقبل من هذا العلم إلا شيئا، من الجانب العملي فيه مثل الأدوية المجربة، وبعض العلاجات بالكي أو الجراحة في ميدان الطب، وبعض نظريات الهندسة وأسس الرياضيات وأشياء من مبتكرات الزمن في الفلك وما إلى ذلك. وقد انصرف أهل العلم الآن

¹ - آرنولد توينبي، مختصر دراسة للتاريخ، مرجع سابق، ص 13

² - آرنولد توينبي، المرجع نفسه، الصفحة نفسها

³ - د. محمد مؤنس، - الحضارة : دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، مرجع سابق، ص 30

⁴ - د. محمد مؤنس، المرجع نفسه، ص 30

عن موضوع البيئة وأثرها في طبيعة الإنسان، وخلقه لأن كان أثرها لا ينكر على الحيوان الذي يتصرف بغرائزه وحدها، ولا يستطيع التفكير في التغلب على ظروف طبيعية دائمة أو طارئة فهو يحاول التكيف مع الظروف التي يجد نفسه فيها ، فيبقى من جنسه من يستطيع التكيف ويهلك الباقي".¹

وظاهر أن الإرتقاء وفقا لما سبق يتميز بين أفراد المجتمع الذي يسير في مرحلة النمو إذ ستبرز بعض الأجزاء إستجابة ناجحة في كل مرحلة وسينجح بعضها بفضل تتبع خطوات المحاكاة، سيفشل بعضها في تحقيق الأصالة أو المحاكاة على السواء، ومن ثمة تنهأوى الحضارة.² وهذا الذي يبقى يستطيع ذلك لإمتيازه على غيره، في بعض خصائص النوع كقوة البدن، أو سمك الفراء أو قوة الأظافر التي تمكن الحيوان من التسلق ، أو حفر الأنفاق في الأرض وبمرور الأزمان الطويلة تظهر من النوع الواحد ، فصائل مختلفة كما نجد مثلا في فصائل الكلاب أو الأرانب أو الخيل".³

وإن الانسان يمتلك العقل ، وهذا العقل هو الذي يمكنه من التغلب على الظروف الصعبة التي تواجهه في هذه الحياة ، بدلا من الإستسلام والخضوع لها كما يقول أرسطو أن الانسان حيوان ناطق أي عاقل ، والإنسان حيوان اجتماعي بالطبع. "ولكن الإنسان له عقل يتصرف به ، وبهذا العقل يستطيع التغلب على الظروف غير المواتية بدلا من الإذعان لها ، وتركها تشكله كيف شاءت ولهذا بقي الإنسان على هيئته وخصائصه آلاف السنين، ولم يمس التغير إلا ظواهر لا تمس الجوهر كتغير لون البشرة نتيجة لإفراز الجسم لصبغ يحمي من أشعة الشمس، أو اتساع مسام الجسم ونشاط غدد العرق ليفرز إفرازه لتبريد الجسم في الحر الشديد، وازدياد قدرة الجسم على مكافحة بعض الأمراض المتوطنة في بعض المناطق، نتيجة لازدياد المناعة وهكذا".⁴

¹ - د. محمد مؤنس ، -الحضارة : دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها ، مرجع سابق، الصفحة نفسها

² - آرنولد تويني، مختصر دراسة للتاريخ، مرجع سابق ص13

³ - د. محمد مؤنس ، - المرجع نفسه، ص.31

⁴ - د. محمد مؤنس، المرجع نفسه، ص.31

فواضح أن للمجتمعات المختلفة سمات إذ يتفوق بعضها في الفن والبعض الآخر في الاستنارة الدينية والآخر في الابتكارات الصناعية.¹ -أما ما ذكره ابن خلدون من غلبة الخفة والطيش والميل إلى الغناء، والرقص عند السود كما تصورهم فليس سببه شيء خاصا في تركيبهم ، وإنما هم يعيشون في مواطنهم في بلاد دافئة وفيرة موارد العيش بأقل كلفة وأيسر مجهود، فالدافع إلى العمل الشاق غير موجود ووقت الفراغ متسع . ولا بد من ملئه بطريقة ما :إما بالحرب وهي وسيلة للتخلص من الملل لإنفاق الطاقة المخزونة، وإما بالرقص والغناء، وهما متنفسان للضيق والطاقة المخزونة، وفي هذه الحالات يبطل التقدم الحضاري جدا، حتى لا يكاد يحس وتصبح تكرارا. لا لنفسها فتظل جماعاتها على حالها قرونا متطاولة وهي ما نسميه عادة بالجماعات البدائية primitive societies». ² في حين أن جماعات أخرى توجد في ظروف تتطلب بذل مجهود عقلي وبدني، للبقاء وما دامت الظروف دائمة فالمجهود مستمر، ومن استمرار المجهود تسير عجلة الحضارة ولكن النوع لا يتغير. وشعوب أوروبا ظلت قرونا طويلة لا تتطور إلا بقدر ضئيل جدا، لأن الأوقات والمياه كانت وفيرة وفائضة عن الحد المطلوب. وكانت المشكلة الوحيدة هي مشكلة التغلب على البرد وقد تغلبوا عليها بالبيوت والفراء والملابس ، واتسع لديهم الفراغ فشغلوه بالحرب والتناحر والصيد والرقص والغناء أيضا.³ و إن أوروبا عاشت فترة زمنية مظلمة في العصور الوسطى حيث كانت أوروبا تحت الحكم الكنسي ، والنظام الإقطاعي ولم تتطور إلا بعد أن أسقطت هذا النظام الإقطاعي، والأنظمة الملكية المستبدة والطاغية ، ومن ثمة تم تحرير الانسان والعقل الأوروبي، وحدث التطور والتقدم العلمي وتطورت الحضارة الأوروبية. وإن خطوطا كثيرة من خطوط الأزمنة ترتسم في العصر الحديث العلوم تتطور تطورا مدهشا وتؤلف صرحا كاملا تتوجه العلوم الاجتماعية للإنسان يتعلم كل يوم ويعمق النظر ويرى

¹ - آرولد توينبي، مختصر دراسة للتاريخ، مرجع سابق، ص14

² -د. محمد مؤنس ،-الحضارة : دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها ، مرجع سابق، ص31

³ -د. محمد مؤنس، المرجع نفسه، ص31

ويبدو له أن الظلمات تتقهقر إنه عصر الأنوار، وإن تقدم المعارف ينمي الإيمان بتقدم الإنسانية تقدماً مستمراً.¹

ولم تتحرك شعوب أوروبا إلى التغيير وتسرع حركتها الحضارية، إلا خلال القرن العاشر الميلادي عندما تضاعف سكان أوروبا ثلاث مرات، عما كانوا عليه في القرن الخامس ثم إنهم أسرفوا في قطع الأشجار، والقضاء على الغابات لاستعمال الخشب في إنشاء البيوت أو التدفئة، ونتيجة القضاء على مساحات شاسعة من الغابات قل حيوان الصيد، وشحت الأقوات بصفة عامة فنشط العمل في الزراعة وتربية المواشي، وفي القرن الحادي عشر زاد نمو السكان وضاعت الأرض بالناس، وعرفت أوروبا ما يسمى بالانفجار السكاني الأول فازدادت الهمة في العمل، وزاد الطلب على المنسوجات نتيجة لندرة الجلود، ونشطت حركة التجارة للحصول على الأقمشة خاصة من الشرق، فتقدم الفن البحري وتحسن صنع السلاح واتجهت الأنظار إلى البحث عن أراضي جديدة وافرة الخير.²

وهنا تدخلت الكنيسة في حث النصارى على غزو أراضي المسلمين، وكان الشائع أنها أغنى بمراحل من بلاد أوروبا فكانت هذه العوامل من أكبر الدوافع إلى حركة الصليبيات. وقد بعث هذا كله في الكيان الأوروبي الغربي نشاطاً بدنياً وفكرياً واسعاً، وهو التمهيد لما عرف بالنهضة الأوروبية.³ إن هذه الحروب الصليبية كانت نتيجة للأهداف التوسعية للكنيسة الأوروبية لغزو ونشر الديانة المسيحية على يد الدولة الكارولنجية، وعلى يد شارلمان حيث أرادوا أن ينشروا المسيحية عبر كل أرجاء العالم وجعلها ديانة عالمية. وتتلاقى الحضارات وتتصادم ولهذا أهميته الكبرى في التاريخ البشري والإنساني.⁴

¹ -موريس كروزيه، تاريخ الحضارات العام القرن الثامن عشر الجزء الخامس، مرجع سابق، ص 7

² -د. محمد مؤنس :- الحضارة : دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، مرجع سابق، ص 31

³ -د. محمد مؤنس، -المرجع نفسه، الصفحة نفسها

⁴ -آرنولد توينبي، مختصر دراسة للتاريخ، مرجع سابق، ص 20

وإننا لنشكو من عدوان الصليبيين علينا، ولكننا ننسى أن عدوان بعضهم على بعض كان أشد وأقسى وأطول مدى، وبينما كانت حروب أوروبا في القرون الوسطى الأولى والوسطى حروبا محلية صغيرة الحجم تأخذ طابع الفروسية الرياضية ، حيث أصبحت ابتداء من القرن الحادي عشر حروبا طويلة مريعة، فعرفت أوروبا حرب الثلاثين سنة وحرب المائة سنة وهي حروب بلاد ضد بلاد وطوائف دينية ضد أخرى، حتى تخصبت أراضي أوروبا كلها بالدماء.¹

حدثت حروب طاحنة في أوروبا، خاصة تلك المتعلقة بالطوائف الدينية ، والعقائدية و التي دامت طويلا ، وعكرت حياة الأوروبيين، وأدخلتهم في دوامة عنف لا مخرج منها ، وأدخلت أوروبا في فوضى عارمة، وكانت نتيجتها خسائر بشرية كثيرة، "وكانت هذه الحروب المستمرة من أكثر ما أذكى نشاط الحركة الحضارية، التي ظهرت بصورة واضحة وحاسمة في عصر النهضة الذي بدأ من القرن العاشر الميلادي، لا من القرن الخامس عشر كما يظن البعض ."² ، وقد كانت قمة هذا الدفع الحضاري في نهاية القرن الخامس عشر ، هي اكتشاف العالم الجديد نتيجة لتتافر الأسبان والبرتغاليين على الفوز بمتاجر آسيا، ونتيجة لتقدم صناعة السفن. وكانت هذه السفن في ذاتها ، بداية لعصر جديد في تاريخ البشرية اختلفت فيه موازين القوى ودوافع العمل، والنشاط بين الشرق والغرب إختلافا تاما كما سنرى.³

إن اكتشاف العالم الجديد ، أعطى الدفع الحضاري حركة مستمرة ، ودفعة معنوية كبيرة ، وهذا بسبب: تقدم التجارة بالسفن بين الشرق والغرب. وهذا التأثير ليس بأي حال من

¹ - د. محمد مؤنس ، - حضارة : دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها ، مرجع سابق ، ص31

² - د. محمد مؤنس ، -المرجع نفسه ،الصفحة نفسها

³ - د. محمد مؤنس ، -المرجع نفسه ،ص32

الأحوال المثل الفريد من نوعه الذي يسجله التاريخ¹ ، "وهكذا نتبين أن ما توهمه ابن خلدون وأضرابه من مفكري العصور الوسطى ، من أن إختلاف الطبائع نتج عن إختلاف الأجواء والبيئات الجغرافية لم يكن في الواقع إختلاف طبائع أو أجناس، وإنما إختلاف ظروف وتغير أزمان. ولم يبتكر ابن خلدون نظرية أثر البيئة القوي في الإنسان من عند نفسه، بل هي من الآراء التي ذاعت عند الإغريق أي أنها ظاهرة من ظواهر الفكر الهيليني، وكان الهيلينيون أي الإغريق يرون أنفسهم منفردين بالحضارة، ومن عداهم همجا أو برابرة barbares فأنشأ مفكرهم يبحثون عن سبب امتيازهم المزعوم، وابتكروا آراء منها هذا الرأي في البيئة ومن المعروف أن الفكر الإغريقي يقوم أساسا على افتراضات يقبلها المنطق ، دون تناقضت مع الواقع .وعلى أساس هذه الافتراضات تنشأ-عن طريق التسلسل المنطقي- آراء منطقية أخرى غير واقعية، دون أن يفكروا في تجربة ما انتهوا إليه من نتائج إلا فيما ندر.²

إن هذا الاستنباط يقوم على فرضيات عرقية عنصرية وإيديولوجية، والتي تقول بتفوق الإغريق على الأجناس البشرية الأخرى وتنفوق الغرب على باقي العالم، وترتكز على أسس المنطق الأرسطي والاستدلالات التي تتجم عنه ، وأن القياس الأرسطي يقوم على عدم التناقض الفكر مع ذاته، لا مع الواقع، ولا يقوم على المنهج التجريبي الذي يقوم على التجربة العلمية..³، ومن ذلك مثلا قولهم بالطبائع الأربع، وبنائهم الفكر الطبي كله على هذا الأساس الوهمي وتصورهم لخطوط طول وعرض وهمية ، وإقامتهم العلم الجغرافي كله على هذا الوهم .ومن هذه الآراء حفن العرب بكلتا يديهم فلم يصح من علم العرب، إلا ما كان له أصل في تفكيرهم الواقعي الناتج من طبيعتهم كجنس نشأ في صحراء كلها واقع قاس ، لا

¹ - آرنولد توينبي، مختصر دراسة للتاريخ، مرجع سابق، ص 29

² - د. محمد مؤنس ،-الحضارة : دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، ص 32

³ - آرنولد توينبي، مختصر دراسة للتاريخ، مرجع سابق، ص 9

يمكن التغلب عليه بفروض وأوهام بل بالعمل والجهد، فلم يصح من علم العرب في العصور الوسطى إلا ما نبع من تجاربهم في الجاهلية والإسلام، مثل مجربات الطب وطرق استخراج المياه ومعرفة الجغرافية عن طريق الرحلة ومشاهدة البلاد والعباد، وهو ما يعرف بالمسالك و الممالك و الإيمان بتساوي الأجناس في المواهب والخصال ، وهي فكرة نبعت من مبادئ الإسلام ، ولكنها تعرضت للشك عند بعض المفكرين المسلمين نتيجة لانسياقهم وراء الفكر اليوناني، ثم الهيليني كما رأينا في كلام ابن خلدون وهو كلام يتناقض مع الواقع ولا يتفق مع الفكر الإسلامي الخالص كما هو واضح.¹

إن اليونانيين أنشئوا خطوط الطول ودوائر العرض على وهم إيديولوجي وعلى تفوق عرقي، والذي هو تفوق الجنس اليونان على الأجناس الأخرى. وإن إقامتهم الجغرافيا على هذا الوهم الإيديولوجي لأن الحضارة موجودة في اليونان ، أما الأجناس الأخرى فهي غير متحضرة فهي متوحشة. "وقد ناقش نظرية العلاقة بين البيئة والحضارة ، آرنولد توينبي في دراسته للتاريخ وقال ببطلانها، ولا بأس هنا بأن نقتبس من كلامه في هذا الموضوع ما يناسب المقام، حيث قال: ولكن التصوير المفضل عند الإغريق لصحة نظرية البيئة، كان يقوم على المقارنة بين تأثير البيئة في القسم الأعلى من وادي النيل الصعيد، في الهيئة البدنية للسكان وأخلاقهم والنظم التي تميز بها المصريون، وبين تأثير البيئة في أراضي الحشائش "الأوراسية" الأوروبية الآسيوية على الهيئة البدنية، والأخلاق والنظم الخاصة بالشيشيين".²، وأنه لا يمكن ان يربط التفوق الحضاري للجنس البشري على لون البشرة . فالواقع أن جميع الأجناس البشرية ساهمت في انبعاث الحضارة.³

¹ - د. محمد مؤنس ، - حضارة : دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها ، مرجع سابق، ص33

² - د. محمد مؤنس ، -الهرجع نفسه ، الصفحة نفسها

³ - آرنولد توينبي، مختصر دراسة للتاريخ، مرجع سابق، ص9

إن القائلين بنظرية الأجناس والقائلين بنظرية البيئة، كلهم يحاولون أن يثبتوا أنهما أصل الاختلاف في السلوك النفسي، (وتشمل الناحيتين العقلية والروحية) وطريقة التصرف بين أجناس الناس، ويفترضون أن إختلاف السلوك النفسي يتماشى بصورة ثابتة ومستمرة مع اختلافات ظواهر البيئة الطبيعية، ونظرية الأجناس ترى أن إختلاف الطبائع يرجع إلى اختلاف الهيئة البدنية ، ونظرية البيئة ترد الاختلاف في طبائع الخلائق، إلى الاختلاف في الظروف المناخية والجغرافية، ولباب كلتا النظريتين هو التوافق بين طائفتين من الظواهر المتغيرة ففي حالة نظرية الأجناس، يكون التوافق بين الطبائع والتكوين البدني وفي حالة نظرية البيئة يكون التوافق بين الطبائع والبيئة. ولا بد أن يبرهن على أن ذلك التوافق ثابت ومستمر إذا كان لابد من قبول النظريات القائمة عليه، و لما وضعنا نظرية الجنس موضع الاختبار تبين تهافتها وبطلانها¹.

إن نظرية الجنس البشري تقوم على: نظرة إيديولوجية ضيقة وعنصرية ، وهي تفوق الجنس الأوروبي على بقية الأجناس البشرية الأخرى. وأن أوروبا هي مهد الحضارة ، وأن الحضارة بدأت مع أوروبا أي مع اليونان ثم إنتقلت الى الحضارة الرومانية. وأنه لا يمكن أن يعزى قيام الحضارات إلى صفات معينة من جنس من الأجناس البشرية .² ، "والآن نتبين كيف أن نظرية البيئة-وإن كانت أقل سخفا-ليست بأقوى من صاحبها. وما علينا إلا أن نختبر نظرية البيئة هذه ، مستخدمين نفس المثالين المحبيين إلى أصحابهما وهما مثال بيئة الحشائش الأوراسية ، وبيئة وادي النيل. ينبغي أن نجد أقاليم أخرى على سطح الأرض تشبه في ظروفها الجغرافية والمناخية هذين الإقليمين، فإذا ظهر أن هذين الإقليمين يخرجان طرازين من الناس يشبهان في الطبائع، والنظم طباع الشيشيين من ناحية المصريين من

¹ - د. محمد مؤنس ، -الحضارة : دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها ، مرجع سابق، ص 34

² - آرنولد توينبي، مختصر دراسة للتاريخ، مرجع سابق، ص 9

ناحية أخرى، ثبت نظرية البيئة وإذا لم يخرجها هذين الطرازين إنهارت من أساسها ورفضناها.¹

ولنأخذ أولاً بيئة الحشائش الأوراسية تلك المنطقة الواسعة، التي لم يعرف الإغريق منها إلا الركن الجنوبي الغربي ونستطيع أن نضيف إليها بيئة) ، أو منطقة (الحشائش الأفراسية (الإفريقية الآسيوية)، التي تشمل الجزيرة العربية والصحراء الأفريقية. هل نجد أن التشابه بين منطقتي الحشائش الأوراسية والأفراسية، له ما يقابله من التشابه بين الجماعات البشرية التي ظهرت في المنطقتين ؟ الجواب :نعم فكلتا البيئتين أخرجت مجتمعا من البدو وكانت بدايتهما تتشابه في أشياء وتختلف في أشياء، منها ما يمكن أن نتوقعه من إختلاف حيوان المراعي لكل منهما. ولكننا إذا وضعنا الأمر موضع الاختبار مرة أخرى، لم نلبث أن نتبين أن تشابه المراعي لا يؤدي بالضرورة إلى تشابه المجتمعات التي تنشأ فيها، لأننا نجد أنه توجد بيئات حشائش أخرى لم تنشأ فيها حياة بدواة ، كما نرى في بسائط فنزويلا وسهول البامباس في الأرجنتين وأراضي الأعشاب في أستراليا².

وإنه هناك إختلاف في نمط الحياة بين بيئتين جغرافيتين متشابهتين :لأن الإنسان هو الذي يعيش في هذه البيئة الجغرافية، ويؤسس لنمط معيشي معين ولحياة معينة ولعادات وتقاليد ولثقافة معينة ولحضارة معينة. ولا يمكن إعتبار البيئة هي العامل الإيجابي الذي جلب الحضارات إلى الوجود و إن كان بلا ريب عاملا هاما في التشكيل الثقافي. ³، "ففي هذه البيئات لم تنشأ الجماعات التي عاشت فيها حياة بدوية خاصة بها . ومن الممكن أن يقال إن سلطان الصحراء لم يظهر على من نزلها من الأوروبيين ، لأنهم جميعا خرجوا من

¹ - د. محمد مؤنس ،-الحضارة : دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، مرجع سابق، ص34

² - د. محمد مؤنس،-المرجع نفسه ، ص34

³ - آرنولد توينبي،مختصر دراسة للتاريخ، مرجع سابق، ص10

بيئات غربية فلم ينشئ رعاة البقر في أمريكا حياة بدوية، ولا فعل ذلك " الجاوتشو " وهم فرسان أراضي المراعي من الأرجنتين ، ولا أهل الماشية الأستراليون فهؤلاء جميعا لم يتحولوا إلى بدو رغم معيشتهم في أقاليم صحراوية، ذات حشائش تكفي للمراعي بل ذللوا أرض المراعي للزراعة بالمحراث.¹

ولو أن للبيئة كل هذا الأثر لكان من المتوقع ، أن ينشئ المهاجرون الأوروبيون في مهاجرهم مجتمعات بدو ظواعن ولو لجيل واحد، ومن الجدير بالملاحظة بصورة أوضح أن السكان الأصليين الذين ، وجدهم الأوروبيون في تلك البقاع لم تحولهم بيئتهم إلى بدو ظواعن قط، وكل ما فعلوه هو أنهم حولوا جنة البدو هذه إلى أراض للصيد². وليس للبيئة تأثير مطلق وواحد على الأجناس البشرية ، فكل جنس من هذه الأجناس البشرية لديه خصائصه ومن ثمة إتبع النمط المعيشي الخاص به ، والملائم مع حياته وأسس لحضارته الخاصة به. فهناك عامل آخر جديد يلتجئ إليه توينبي وهو العامل السيكولوجي وهو أهم عوامل إنبعاث الحضارة.³

وننتقل إلى بيئة وادي النيل، التي تعتبر ظاهرة مم تدة وسط أراضي الحشائش الأفرو-آسيوية التي تحيط به .إن مصر تتمتع بنفس الجو الجاف ، الغالب على الأراضي المحيطة بها .ولكن لها ميزة غير عادية ، وهي أنها تحصل على فيض من الماء، والظمي لا ينقطع يأتيها به النهر العظيم ، الذي ينبع من نواح وافة الأمطار خارج حدود منطقة الأستيج. وقد تمكن الذين أنشئوا الحضارة المصرية من استخدام هذه الميزة ، ليقيموا مجتمعا يختلف كل الاختلاف عن مجتمعات البدو من حولهم، ونسأل:هل البيئة الخاصة التي وفرها النيل في مصر هي العامل الأساسي الذي يرجع إليه قيام الحضارة المصرية ؟ لكي

¹ - د. محمد مؤنس ، -حضارة : دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها ، مرجع سابق، ص34

² - د. محمد مؤنس، -الهرجع نفسه ، ص35

³ - آرنولد توينبي، مختصر دراسة للتاريخ، مرجع سابق، ص10

يصدق هذا القول لابد أن نثبت أنه في كل منطقة أخرى، تتوافر ظروف بيئية مماثلة للبيئة النيلية لابد أن تظهر حضارة مماثلة لحضارة مصر¹. فمثلا نجد أن الحضارة المصرية: قامت حول ضفاف نهر النيل، و هذا ما حدث أيضا مع حضارة بلاد الرافدين، التي قامت على ضفاف نهر الدجلة والفرات. - لكن هذا لم يحدث مع الأردن. " وسنضع هذه النظرية موضع الاختبار في بيئة مجاورة للبيئة النيلية تتوافر فيها نفس الخصائص، ونريد بذلك المجرى الأدنى لوادي الفرات ودجلة. هنا نجد ظروفًا طبيعية ومجتمعًا شبيهين بما نجده في وادي النيل ، وذلك هو المجتمع السومري. هنا تنطبق النظرية ولكنها لا تصدق في وادي الأردن الذي لم يكن قط مقرا لحضارة².

إن المجتمع الأردني الذي عاش ضفاف نهر الأردن لم يؤسس لحضارة مماثلة للحضارة المصرية والبابلية وحضارة بلاد الرافدين. حيث أن المصريين واجهوا الطبيعة القاسية فولجوا مستنقعات ودلتا النيل فجابوها بذلك التحدي الذي تمثله. وعملوا على تجفيفها، فكان أن أقاموا الحضارة المصرية³. " وربما لا تصدق كذلك على وادي السند، وذلك إذا صدق ما نفترضه من أن حضارة بلاد السند قد أتى بها المهاجرون السومريون إلى هناك. ونستطيع أن نستبعد من ذلك الإختبار الحوض الأدنى لنهر اليانج، لأن بيئته استوائية شديدة الرطوبة، وكذلك نستبعد الحوض الأدنى لنهر اليانج تسي والحوض الأدنى للميسيسيبي، بسبب الرطوبة الشديدة وميل شديد في الجو إلى الدفء ولكن أشد الناس تشددا، لا يمكنه أن ينكر أن الظروف البيئية السائدة في وادي النيل وبلاد الرافدين توجد في وادي نهري اليرموك والفرات والكولورادو في الولايات المتحدة وبجهد المهاجر الأوروبي الذي أقبل إلى هناك مزودا بأدوات

¹ - د. محمد مؤنس ،-الحضارة ،دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، مرجع سابق، ص35

² - د. محمد مؤنس،-المرجع نفسه ، ص35

³ - آرنولد توينبي،مختصر دراسة للتاريخ، مرجع سابق، ص11.

حضارية، أتى بها معه من الجانب الآخر للمحيط الأطلسي"¹. وإن تأقلم كل إنسان مع البيئة يختلف من جنس بشري إلى آخر، ومن إنسان إلى آخر، فكل له قدراته ومؤهلاته، على التكيف مع البيئة والطبيعة الصعبة التي يواجهها. حيث تمسك البعض بأراضيهم وغيروا عاداتهم فابتكروا نمط حياة جديد.²

حيث تمكن الإنسان الأوروبي من أن ينشئ الأعمال الحضارية المعجزة، ولكن بيئة الريبوجرانددي والكولورادو وحدها، ما كانت لتحقيق ذلك العمل لولا أن أصحابه أتوا بأصوله من نواح أخرى. ويخرج توينبي من ذلك بالقول بأن البيئة وحدها، ليست العالم الأساسي في قيام الحضارات النهرية. وقال إن هذا الرأي يزداد توثقا إذا أخذنا بيئات أخرى، مشابهة لبيئة وادي النيل والرافدين، ولكنها لم تلد حضارة مشابهة فقد قامت الحضارة الأنديية على هضبة عالية، وثمراتها تختلف كل الاختلاف عن الوحشية التي سادت غابات الأمازون تحتها.³

فهناك أمثلة كثيرة على إختلاف البيئة، وإختلاف الأجناس البشرية، وعن الحضارات التي أسسها كل منهم: حسب خصوصيته، وحسب خصوصية هذه الحضارة وهذا الالتقاء والتأثير على هذه البيئة الذي حدث. ولا يقبل توينبي بالفكرة القائلة بوجود حضارة واحدة هي الحضارة الغربية كما يدحض نظرية إستطارة الحضارة القائلة بأن مصر هي أصل جميع الحضارات.⁴، "فهل كانت الهضبة هي السبب في قيام المجتمع الأنديي، على مستوى أرفع بكثير عما كان عليه جيرانه المتوحشون ؟ ثم يقارن توينبي بين ما ذكره من أن في العالم الجديد بينات متشابهة في أفريقيا، حيث نجد مرتفعات شرقي أفريقيا تشرف

¹ - د. محمد مؤنس ،-الحضارة : دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، مرجع سابق، ص35

² - آرولد توينبي، مختصر دراسة للتاريخ، مرجع سابق، ، ص10

³ - د. محمد مؤنس، المرجع نفسه، ص36

⁴ - آرولد توينبي، مختصر دراسة للتاريخ، مرجع سابق، ص9

على غابات حوض الكونغو وهنا نجد أن الهضبة» لم تخلق مجتمعا متحضرا أرقى من مجتمع غابات حوض النهر الكبير تحتها¹.

إن البيئة لا تصنع وحدها الحضارة، فهناك عناصر كثيرة يجب أن تتلاقى، وأن تكون هناك عبقرية إنسانية لهذه الحضارة وتطورها وتزدهر فيما بعد. " ويضرب توينبي أمثلة أخرى كثيرة يستخرجها من علمه الواسع بالحضارة ، ليدلل على أن البيئة وحدها لا تصنع الجماعة المتحضرة، ويضيف أن بعض العلماء يذهب إلى أن حضارة الصرين إنما هي من صنع وادي النهر الأصفر، وكل حجتهم في ذلك أنها قامت في حوض هذا النهر ويقول: إذا كان هذا صحيحا فلماذا لم تنتشأ في حوض نهر الدانوب، حضارة مماثلة مع تشابه الظروف المناخية والطبيعية؟ ولقد نشأت حضارة المايا في بيئة استوائية، عامرة بالزراع في جواتيمالا وهندوراس البريطانية) التي تعرت اليوم بإسم بليز (Belise ولكننا لا نجد حضارة أخرى مشابهة لها في حوضي الأمازون والكونغو ، مع أن ظروف البيئة واحدة. وإذا قيل إن منطقة جواتيمالا تقع على خط عرض 15 شمالا، في حين أن الأمازون والكونغو يقعان في المنطقة زاهرة، لا تزال آثارها ظاهرة في موقع انجكور-وات Angkor Wat في قلب الم منطقة الاستوائية، وإن كانت الأبحاث الأركيولوجية قد حلت على أن حضارة أنجكور -وات إنما هي وليدة بعيدة للحضارة الهندية.²

تصمد النظرية للاختبار في منطقة مجاورة تتوافر فيها الشروط المطلوبة. تلك هي المنطقة الدنيا، من واد دجلة والفرات إذ نجد ظروفًا مماثلة ومجتمعا مماثلا مثل المجتمع السومري لكن النظرية تسقط في واد اصغر وإن كان مشابها هو واد الأردن الذي لم يكن يوما مركزا لأي حضارة³ ، ثم يختم توينبي كلامه قائلا: إننا نستطيع الاستمرار في هذه

¹ - د. محمد مؤنس ،-الحضارة : دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها ، مرجع سابق، الصفحة نفسها.

² - د. محمد مؤنس ،-المرجع نفسه، ص37

³ - آرنولد توينبي، مختصر دراسة للتاريخ، مرجع سابق، ص10

الدراسة إلى مدى بعيد، ولكننا قلنا ما فيه الكفاية لنقنع القارئ بأن البيئة وحدها ، لا يمكن أن تكون السبب الرئيسي لتلك الحركات الحضارية التي أيقظت الإنسانية من سباتها الراكد ، ورفعتها إلى مستوى المجتمعات البدائية، ثم مضت بها مناصرة الحضارة قدما خلال ستة آلاف السنة الماضية. وقد دارت معركة فكرة التقدم هذه خلال القرن الثامن عشر ، كما قلنا وهو قرن بدأ والناس متفائلون بمستقبل الإنسان (الغربي بوجه خاص)، وكانت هناك درجة معقولة من الاتفاق بين أهل الفكر، على أن الإنسانية تتقدم في ميدان واحد على الأقل :وهو ميدان العلوم الطبيعية والرياضية من فيزياء وكيمياء وهندسة وحساب، وما إلى ذلك ثم في ميدان التطبيق العملي لقواعد العلم المكتشفة ، وهو ما نسميه اليوم بالتكنولوجيا وقبل نهاية ذلك القرن كان هناك اقتناع عام بحتمية التقدم، في ميدان الاقتصاد والحضارة والتنظيم الاجتماعي والفن والأدب بل في الطبيعة الإنسانية، والشكل البيولوجي. -ولكن القرن الثامن عشر انتهى بـإنفجار الثورة الفرنسية فطوحت الآمال من جديد في حتمية التقدم واطراده. وكان أكثر الناس حزنا لذلك هم الذين علقوا على فكرة التقدم أكبر الآمال".¹

إن الثورة الفرنسية فاجأت الكثير من المفكرين والمؤرخين وعلماء الاجتماع في حدوثها وانفجارها، وما أتت به من تغيير على المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي خاصة ، لأن الوضع الاجتماعي والاقتصادي المهترئ واليأس واليؤس الذي كان يعيش فيه المجتمع الفرنسي هو الذي أدى إلى إنفجار الثورة الفرنسية ، ومن ثمة إسقاط الملك لويس 16 والنظام الملكي والتأسيس للنظام الجمهوري في فرنسا. وفقدت الكنيسة الكاثوليكية نفوذها وتقهقرت الكاثوليكية في كافة أنحاء العالم.² ، " وقد مهد لهذه الثورة الفرنسية « الفلاسفة » وهم من طبقة البورجوازيين، كما قلنا وخاض معاركها الفقراء وصغار الصناع والزراع أو البروليتاريا ،

¹ - د. محمد مؤنس ، - حضارة : دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها ، مرجع سابق، ص 37

² -موريس كروزيه، تاريخ الحضارات العام ، القرن 18، مرجع سابق، ص 7

كما نقول اليوم ثم جنى ثمراتها البورجوازيون وبلغت الثورة الفرنسية وبداية عصر نابليون. بدأ العصر الذهبي للبورجوازية وهو عصر قيل إنه انتهى على يد كارل ماركس، وحلت محلها البروليتاريا في مراكز القيادة والقوة في الفكر والسياسة في البلاد التي تبعت مذاهب كارل ماركس، وفردريك إنجلز وهنري لاسال وليرين وروزا لوكسمبورج وستالين، و ماوتسي تونج وتزعزع مركزها أي مركز البورجوازية في بقية بلاد الدنيا"¹.

إن فلاسفة الأنوار هم الذين مهدوا للثورة الفرنسية، وقاموا بزرع بذور هذه الثورة: حيث نجد منهم روسو وفولتير وديدرو ودو لباخ، وكان هؤلاء الفلاسفة يعادون الكنيسة والأنظمة الملكية المستبدة والنظام الإقطاعي أشد العدا. "وكانت الغالبية العظمى من فلاسفة التقدم، من أبناء تلك الطبقة الوسطى التي نشأت خلف أسوار المدن، وكانوا يرون أن طبقتهم تلك هي أقدر الطبقات على حمل راية التقدم والسير بها إلى الأمام، ولهذا فقد نادوا بالحرية والمساواة ولكن نداءهم هذا لم يخل من تحامل على النبلاء وكبار رجال الكنيسة والدين جملة، ولم تتسع المساواة عندهم للطبقة الدنيا في السلم الاجتماعي، وتلك كانت هي الثغرة التي دخل منها رجال الفكر الاشتراكي المعتدل أو المتطرف"².

إن إقصاء الطبقة البروليتارية والعاملة من سلم المساواة، هو الذي أدى الى ظهور الفكر الاشتراكي والشيوعي فيما بعد على يد ماركس ولينين، والمفكرون الآخرون في أوروبا والعالم لتحقيق العدالة الاجتماعية. لقد درج "ميشليه" في معرض كلامه عن القرن الثامن عشر على أن يدعو بالقرن العظيم³، وعندما نتأمل كتابات الفلاسفة في عصر الأنوار، نلاحظ أنها في كلامها عن التاريخ تتصرف انصرافا واضحا مقصودا عن التاريخ السياسي والكنسي، وتتجه اتجاها صريحا نحو التاريخ الحضاري، فتركز الاهتمام على الإنسان

¹ - د. محمد مؤنس ،- الحضارة : دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، مرجع سابق، ص24

² - د. محمد مؤنس :-المرجع نفسه :الصفحة نفسها

³ - موريس كروزيه، تاريخ الحضارات العام ، القرن 18، مرجع سابق، ص7

العادي وتمضي تبحث عن أحواله ومعيشته ومستواها فقد قال فولتير مثلاً في كتابه المسمى «مقال عن أخلاق الشعوب وتقاليدها وروحها: وما أود معرفته هو نوع المجتمع القائم في العصر الذي أُوْرخ له (وكيف كان الناس يعيشون بين أهلهم ، وأي الفنون كانوا يمارسون...إنني أريد أن أتعرف على القوى الحقيقية العاملة في ذلك البلد، أو ذاك وإلى أي درجة كان الناس يتغذون غذاء حسناً وما علاقة الناس في جوتلاند) مثلاً(بهؤلاء الذين عانوا في أراضي الدولة الرومانية ، وكيف دخلت الفنون إلى السويد على مر السن، وما هي قوانين البلد الأساسية وما قدر ثروتها وما درجة الفقر فيها.)» وهذه أسئلة تدخل في نطاق التاريخ الحضاري.والنظرة نفسها تعد تحولاً مهماً في التفكير التاريخي والفكر الأوروبي بصفة عامة.¹

إن فلاسفة الأنوار بحثوا في الإنسان، ومع الإنسان وعن تاريخه، ووجهوا وغيروا بوصلة التفكير من الكنيسة نحو الإنسان. وكان مركز ومحور تفكيرهم هو الإنسان: وتحريره حرية تامة من القيود التي وضعت فيه الكنيسة، والأنظمة الملكية المستبدة، ومن استغلال النظام الإقطاعي، وتحرير العقل الأوروبي أيضاً من قيود عصر الظلمات، وإعطائه الحرية التامة في التفكير. لذلك سمي القرن الثامن عشر بقرن الأنوار. ² "فلنقارن هذه النظرة عند بوسويه في كتابه الذي سماه «مقال عن التاريخ العالمي»- وما هو بعالم في شيء ، وإنما هو قس متعصب للكاتوليكية تقليدي في أفكاره ونظرته إلى الحياة وهذا الحماس المتعصب من جانب التقليديين، كان يثير نفوس فلاسفة عصر الأنوار ويجعلهم يتجهون اتجاهها معادياً للكنيسة، ورجالها بصورة عامة بل تغلب على كتاباتهم روح سخرية بالكنيسة ورجالها.³

¹ - د. محمد مؤنس ، حضارة : دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها ، مرجع سابق، ص24

² -موريس كروزيه، تاريخ الحضارات العام، القرن 18، مرجع سابق، ص7

³ - د. محمد مؤنس، -المرجع نفسه، الصفحة نفسها

كان فلاسفة الأنوار يعادون الأنظمة الملكية ورجال الكنيسة والنظام الإقطاعي عداءا شديدا، نظرا لسيطرتهم على مقاليد الحكم هذا من الجانب السياسي ولأنهم يسيطرون على الأراضي والثروات والمعاملات التجارية، والاقتصاد ولاستغلالهم الشعوب هذا من الجانب الاقتصادي. وتسلمت البورجوازية زمام الحركة الثورية، وقضت البورجوازية على الإقطاعية وحررت الفرد البورجوازي واستطاعت بفضل المساواة المدنية والملكية المصونة والمقدسة وسيادة الأمة أن تضمن لنفسها إدارة المجتمع الجديد ومكاسبه والتصرف فيه.¹، "وأخذ أهل الفكر ينظرون إلى ما كان يكتب من تواريخ تقليدية نظرتهم إلى شيء لا قيمة له، ولا فائدة فيه لخلوه من الناحية الحضارية. ففي سنة 1788 وقبل الثورة الفرنسية بعام (كتب آرثر ينج يقول: إن قراءة التاريخ الحديث هي أسوأ ما يمكن للإنسان أن يعمل: إن الإنسان يبتلى بالقراءة عن أعمال طائفة من الناس بغيضة يسمى أفرادها فلتحين، وأبطالا وأنت تمضي في هذه التواريخ خلال صفحات حافلة بالتفاصيل الحربية، ولكنك عندما تريد أن ترى تقدم الزراعة والتجارة والصناعة، وأثر هذا التقدم في شتى مناحي الحياة وأثرها في الناس. وعندما تريد أن تعرف مقدار ما تحصل من ثروة، وكيف كان توزيع هذه الثروة وفيم كانت تستخدم، وما ترتب على ذلك من أثر في السلوك، فإنك لا تحصل على شيء لقد ضرب لنا فولتير مثلا في فهم التاريخ، كيف ينبغي أن يكون ولكن هل اتبعه الناس؟"²

إن تاريخ الإنسانية يعطي الأهمية للأبطال، وللجزئيات الصغيرة لهذه الشخصيات، عوض الاهتمام بالتقدم الإنساني وبالزراعة والصناعة، وما ينتج عنها من ثروة وكيفية توزيعها بين البشر. "وقبل أن يصل الفكر الأوروبي إلى الاستقرار عند فكرة التقدم: مرت فترة تحدث المؤرخون فيها عما سموه بللمراحل، أو الحالات التاريخية Historical States أو Stages ويراد بها أن التاريخ لا يمكن أن يقف ثابتا عند وضع واحد، بل من أن يتحرك إلى الأمام أو إلى الخلف، وهو في حركته ينتقل من مرحلة إلى مرحلة أو من حالة إلى حالة. وانتقاله لا يكون « حالة » على النظام الخلدوني أي ميلادا، و نموا ونضجا ثم انحدارا بل يراد به أن الجماعة أو الحضارة لم تولد وتتوقف، ثم تعود فتولد من جديد ثم تنمو وتقوى،

¹ - موريس كروزيه، تاريخ الحضارات العام، القرن 18، مرجع سابق، ص 9

² - د. محمد مؤنس، - حضارة : دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، مرجع سابق، ص 245

وقد ترتد إلى الوراء مرة أخرى ، ثم تعود إلى الوقوف على قدميها، و متابعة المسير وهذا التصور ينطبق بصورة خاصة على الحضارات طويلة العمر: كالحضارات المصرية القديمة والصينية، فقد مرت كل من هاتين الحضارتين بحالات أو مراحل مختلفة فولدت و نمت ثم سقطت، ثم عادت إلى السير من جديد حتى بلغت النضج أي الأوج ثم ارتدت إلى الوراء من جديد. ¹ إن الحضارات القديمة التي تتميز بطول العمر ²، لها حركة غير منتظمة ومسار إرتدادي تارة تعود إلى الوراء وتارة تتقدم إلى الأمام وهذا دواليك، وهذا ما حدث مع الحضارة المصرية والصينية. ولا يمكن أن نرجع قيام حضارة إلى صفات معينة. ³، وقد تحدث في أمر المراحل هذا كثيرون ولكن أكبرهم جيامباتيستا. - فيكو: (1668-1744) فقد قال إن كل أمة أو حضارة تمر في تاريخها بحالات، أو مراحل مختلفة من السير والعودة إلى المسير Corso ri corso وذلك في كتابه المسمى بالعلم الجديد. «Scienza Nova». وقد قال فيكو إن هناك طريقا خالدا للتاريخ. تمر فيه كل أمة بدورة وهذا الطريق ، ينقسم إلى مراحل من النمو والتقدم والنضج، والاضمحلال والتدهور. وهذه المراحل عنده هي المرحلة اللاهوتية أو الدينية، وفيها يكون الآلهة هم الذين يصنعون التاريخ ثم مرحلة البطولة، وهي مرحلة الأساطير وفيها يقوم ويظهر في تاريخ الأمة أبطال يقودونها في مغامرات وأعمال بطولية وغزو، وفتح وحروب حديثها مثل حديث الأساطير ثم مرحلة التمدن Stasso Civile وهي مرحلة النضج ، التي يجري كل شيء في حياة الأمة خلالها بناء على علم ومنطق. وقد تطول هذه المرحلة، أو تقصر فتصل الأمة أو الحضارة في الأوج لفترة طويلة أو قصيرة ولكنها لابد أن تتحدر في نهاية الأمر. ⁴

إن هذه المراحل التي تحدث عنها فيكو: تشبه كثيرا قانون المراحل الثلاث للحضارة التي تحدث عنها إبن خلدون : مرحلة البناء والتطور ، ثم الوصول الى القمة ، ثم مرحلة السقوط ، وإن العصبية هي التي تتحكم في تطور الحضارة. إن المجتمعات البشرية تسير وفق قوانين

¹ - د. محمد مؤنس، -الحضارة : دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، مرجع سابق، ص24

² - آرنولد توينبي، مختصر دراسة للتاريخ، مرجع سابق، ص 9.

³ -آرنولد توينبي، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

⁴ -د. محمد مؤنس، المرجع نفسه، الصفحة نفسها

مضبوطة ومحددة وهذه القوانين تفتح المجال على قدر كبير من التنبؤ بالمستقبل من حيث تطور الحضارات وانتهيارها إذا ما درست وفهمت بالشكل الصحيح.¹ .

وواضح أن هذا القول يشبه إلى حد بعيد ما قال به ابن خلدون، ولا نستبعد قط أن تكون آراء ابن خلدون قد وصلت إلى علم ذلك الفيلسوف المؤرخ الإيطالي بطريقة ما، فقد ثبت لنا أكثر من مرة أن الأفكار والآراء تنتقل بطريقة ما، من مكان إلى مكان ومن محيط حضاري إلى محيط آخر بعيد عنه، ولكننا لا نستطيع القطع بذلك ولا بد أن تكون لدينا شواهد أقوى من مجرد الافتراض. وسواء أخذ فيكو هذا الرأي عن ابن خلدون أم لم يأخذه فإن الواضح أن ابن-خلدون كان أدق في كلامه ، وأكثر علما من فيكو فإن عصور اللاهوت والبطولة ليست مراحل حضارية، وإنما هي تصورات حول القوى المحركة للتاريخ: الآلهة ثم الأبطال ثم الملوك ثم العلماء وهكذا.²

فالتاريخ هو عملية يقوم بها البشر في مسار زمني معين وفي رقعة جغرافية معينة، ويؤرخ لها الانسان هو عملية إنسانية محضة. وإن الانسان هو صانع الحضارة في كل فترات حياته حيث هو الذي يوجد البيئة الصالحة لذلك بعد أن يكيف ويتكيف مع عوامل الطبيعة.³ ، " ثم إن نظرية ابن خلدون-رغم ما تناولناها به من نقد-يمكن تطبيقها على عدد كبير جدا من الأمم، فهي تنطبق على قدماء المصريين ، والسومريين والفرس وأهل الصين. والهند ودول الإسلام واليونان والرومان، ودول العصور الوسطى في الغرب جميعا. أما نظرية فيكو فلا تصدق إلا على شعوب قليلة مثل الفرس، واليونان والرومان و المصريين القدماء. ومع ذلك فهذه ليست أعظم آراء فيكو، فإن أعظم آرائه التي جعلت له مكانا خاصا في تاريخ الحضارات ، هو أنه قال إن من الممكن أن تعد العدة لكتابة تاريخ

¹-أحمد شيخ حسين، تطور الحضارة وانتهيارها عند ابن خلدون، جامعة كيليس، 2020، ص 2

²- د. محمد مؤنس ،-الحضارة : دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها ، مرجع سابق، ص247

³-عبد الرحمان خليفة، فضل الله محمد إسماعيل، المدخل في الايدولوجيا والحضارة، مكتبة بستان للمعرفة طباعة

للنشر والتوزيع، 2006، ص6

دقيق علمي يقوم على قواعد اجتماعية للتطور ، تضمن حدوث طراز واحد من التطور في تاريخ كل أمة وأن ذلك التطور يتم على صورة دائرة كبيرة، تشمل الأمم جميعا لا أمة واحدة وتلك نظرية قال بها الكثيرون بعده ولكنها انتهت آخر الأمر دون محصل.¹ وإن نظرية ابن خلدون يمكن أن تنطبق على بعض الحضارات ، - أما نظرية فيكو يمكن أن تطبق على جميع الأمم، وإنه يمكن كتابة تاريخ دقيق شامل ، و عالمي يشمل جميع الأمم، وهذا التاريخ يقوم على قواعد اجتماعية .

4)جان جاك روسو وآراؤه في الحضارة المجتمع والتاريخ:1712-1887

على نقيض من فولتير كان روسو يفكر وينتقد التقدم الحضاري للحضارة الأوروبية . وكان الاثنان من المؤمنين بحرية الفكر وضرورة التقدم، ولكن فولتير كان رجلا غنيا ينظر إلى الأشياء من شرفة الأغنياء ، بينما كان روسو رجلا فقيرا يتكلم لغة الإنسان الفقير المثقل بالمتاعب الطامح إلى التخلص من فقره ، وهوان أمره على الناس. وربما كانت كراهية روسو للترف نابعة من هذا الوضع الاجتماعي. كان يؤمن بالعلم وبالتقدم كغيره من فلاسفة عصر الأنوار، أي أنه بدأ من نفس النقطة التي بدأ منها غيره من معاصريه ، ولكنه انتهى إلى نتائج تناقض ما وصلوا إليه تماما.²

هنا يكمن الفرق بينهما في الطبقة الاجتماعية التي ينتمي كل منهما : فروسو عاش حياة قاسية، و أوضاع اجتماعية صعبة عكس فولتير . "حيث عانى في حياته الشخصية بمرارة من اللامساواة والتبعية"³، وهذه الأوضاع هي التي صقلت شخصيته ، وتفكيره ينبع من الاحتكاك بهذه الحياة الصعبة التي عاشها ، لكن كغيره من فلاسفة الأنوار : يؤمن بالتطور

¹ - د. محمد مؤنس ، - حضارة : دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، مرجع سابق، ص270

² - المرجع نفسه، الصفحة نفسها

³ -جان جاك شفالبييه، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، ص481

والتقدم العلمي، وإن العلم والتطور التكنولوجي سيحلان الكثير من المسائل التي كانت صعبة على الإنسانية، وأنها أصبحت فيما بعد متيسرة وسهلة على الانسان. وإن تقدم المعارف والعلوم يؤدي الى تقدم الإنسانية تقدما مستمرا وبسرعة.¹

كان روسو يرى أن الحضارة شر، وأنها تفقد الإنسان إنسانيته شيئا فشيئا هنا . يقترب روسو من ابن خلدون اقترابا شديدا. ولكن ابن خلدون كان لا يحب البدائيين وكان يرى أن البدو بدائيون وهذا ليس حقا كما رأينا. أما روسو فكان يعجب بالبدائيين أو الوحشيين (les sauvages) حيث قال:إن الإنسان الطبيعي، لا يتنفس غير سلام وحرية، بينما نجد الإنسان المتحضر دائما في شغل بأمر نفسه ، ومصالحه نجده دائما مجهدا يتسبب منه العرق ، دائما يعمل ودائما يجهد ذهنه ليجد أعمالا جديدة ، تتطلب عملا أكثر طمعا في مزيد من المال و المتاع ، وعلى هذه الوتيرة يمضي إلى آخر أيامه وهو لفرط غروره بعبوديته ينظر باحتقار إلى أولئك الذين لا يشاركونه هذه العبودية، وكان روسو يحب الطبيعة ويرى أنها مصدر كل خير وفضيلة.²

إن روسو يرى أن الانسان الطبيعي: كان يعيش حياة هنيئة وسعيدة وفي وئام ، وانسجام مع الطبيعة، وأن كل ما يريد الحصول عليه تعطيه إياه الطبيعة التي خرج منه صافيا ونقيا³، وإن الانسان الطبيعي : خير وطيب وأنه لا يمكن أن يأذي اقرانه من البشر ، ولم يكن هناك سبب لإقامة علاقة مع اقرانه من البشر ، والشيء الذي كان يخافه الانسان الطبيعي هو المرض والموت ، وكان يتألم عندما يرى اقرانه يمرضون ويتألمون . وإن التفاوت بين الناس بدأ مع ظهور الملكية الفردية: لأن الملكية في الحالة الطبيعية كانت مشاعة ، ومن ثمة بدأ التفاوت والشر، و الصراع بين البشرية على من يملك اكثر ويسيطر على الآخرين.

¹-موريس كروزيه، تاريخ الحضارات العام، القرن 18، مرجع سابق، ص 7.

²-د. محمد مؤنس ، الحضارة : دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، مرجع سابق، ص271

³- محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص292

وكان لهذا يتخوف من نتائج التطور العلمي، والثقافي الذي يرى أنه يخرج الإنسان عن طبعه الأصيل ويعرضه لمساوئ الحضارة وآفاتهما، و كان ينفر من عالم السياسة وما فيه من جشع وغرور وطلب للقوة والسلطان ويفضل عليه ، عالم الطبيعة بصفائه وانسجامه. وكان يرى أن المال شر و إن الملكية شر ، وتؤثر عنه عباراته المشهورة التي يقول فيها: إن أول إنسان حاز لنفسه قطعة أرض وقال في نفسه « :هذه لي » ووجد الناس من حوله بسطاء فصدقوه هذا الرجل كان مؤسس المجتمع السياسي الفاسد ، ولو أن إنسانا اقتلع عصيان الخشب التي صنع منها مالك الأرض سورا حولها، أو ردم الخندق الذي أداره حولها لإلغاء هذه الملكية لجنب الدنيا شرورا كثيرة ، وحروبا ومقاتل و فظاعات وحظوظا عاثرة. وكان على هذا الرجل أن يقول بعد أن أزال حدود الملكية : "حذار من الإصغاء إلى هذا المحتال إنكم لها لكون إذا نسيتم أن ثمرات الأرض لنا كلنا ، أما الأرض نفسها فليست ملكا لأحد.¹

إن مؤسس الملكية الفردية : هو مؤسس المجتمع السياسي الفاسد ، والذي يعيش فيه الانسان التاريخي الفاسد أخلاقيا،². ومستغل اقتصاديا ومكبل سياسيا : أينما تنتظر تراه مكبل في أغلال اصطناعية ، صنعها هو بنفسه، يحسب نفسه حرا،- لكنه عبدا أكثر عبودية من الآخرين. فأصبح التفاوت والظلم في المجتمع السياسي الفاسد ظلم مدستر، وأصبح الشر متأصلا في المجتمع. ثم يعود روسو فيرى أن العودة إلى حالة الطبيعة أصبحت مستحيلة، وأن امتداح الطبيعة لم يكن عن أمل في العودة إليها، وإنما كان وسيلة لنقد الحضارة، وكان مثله في ذلك مثل غيره من الموسوعيين، يرى الاحتفاظ بأحسن ما في حضارة عصرهم ومحاولة السير إلى الأمام ، ولكنه كان يرى طريق التقدم مليئا بالأخطار ومواضع الزلل ومن ثم فقد بحث عن طرق أخرى ينصح الناس باتباعها، لتصل الإنسانية إلى السعادة المنشودة، ومن هذه الطرق المناداة بمساواة البشر مساواة كاملة، قال بهذا في كتابه في أصل التفاوت

¹- د. محمد مؤنس ،- الحضارة : دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها ، مرجع سابق، ص 271

²- محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 293

بين البشر ، وعاد إليه في « العقد الاجتماعي » الذي صدر سنة 1762 ثم في كتاب إميل Emile الذي صدر في نفس العام، وفيه تصور لأمثل الطرق لتعليم الإنسان ووضعه في طريق السعادة الحقّة.¹

إن روسو يرى أن الحضارة أعطت لنا تقدما علميا متطورا ، - لكنها لم تعطي لنا السعادة :التي كان يبحث عليها الانسان ، فإنه أكثر من ذلك فإنها أفقدت الإنسان الحرية الطبيعية: التي كان يتمتع بها في الحالة الطبيعية ، ومن ثمة انحرفت عن السكة التي تسير فيها. - لكنه لا يمكن إلغاء الحضارة ، رغم أنها أعطت لنا إنسان فاسد أخلاقيا، ومجتمع سياسي فاسد ومكبل في قيود، وإنما تصحيحها يكون عن طريق العقد الاجتماعي المبشر بإنشاء المجتمع السياسي الجديد والفاضل، وطيب وخير ، لذلك تكلم عن الحالة الطبيعية: كوظيفة نقدية للحضارة و للمجتمع السياسي الفاسد. ² "وإن روسو كان يرى أيضا بأنه لا يمكن الرجوع الى الحالة الطبيعية ،- لأن الطاقة الكامنة الموجودة في الانسان قد انفجرت،" وأعطت لنا هذه الحضارة و هذا المجتمع السياسي الفاسد. "لقد فتح روسو بآرائه وأفكاره طرقا واسعة أمام الإنسان ليتقدم، ويصل إلى السعادة وإذا كان الغالب على فولتير هو النقد والنقض ، فإن الغالب على روسو هو البناء. أي أنه قدم حلولا وحاول أن يحل مشاكل قديمة على طريقته، حقا لقد قال الكثيرون من الباحثين بعد ذلك إن روسو وقع في أخطاء كثيرة في تحليلاته وتصورات، وهذا صحيح ولكنه على أي حال-بالاشتراك مع فولتير و مونتيسكيو، و ديدرو و كوندورسي ومعاصريهم-نجح في إشعار الناس بأنهم في عنق زجاجة، وأنه لابد لهم من الخروج من ذلك العنق إلى عالم جديد وفسيح"³.

¹ -د. محمد مؤنس ،-الحضارة : دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، مرجع سابق، ص 271

² -محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 296

³ -د. محمد مؤنس ، حضارة : دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها ، مرجع سابق، ص 171

إن القرن الثامن عشر يحضر العالم المعاصر وينبئ به بمواصلة أعمال شرع بها القرن السالف.¹ ، وهذا الشعور بأن الإنسانية في طريق مسدود، وبأنه لابد من إيجاد طرق أخرى لمواصلة التقدم هو الذي يعطي أولئك المفكرين هذه الأهمية في تاريخ الحضارة. وإذا ذكرنا تشبيه مسيرة الأمم في طريق الحضارة بالصعود على سفح جبل، وأن الصعود قد يتوقف إذا وصلت الجماعة الصاعدة إلى رف على السفح استقرت عليه ، واستحالت عليها مواصلة الصعود استطعنا أن نقول إن أولئك: المفكرين أحسوا بأن هذا التوقف في ذاته انحدار، لأن الأطر والنظم الحضارية. يلي إلى التآكل والفساد إذا لم تتجدد، أو إذا لم تستطع مواصلة السير إلى الأمام، وهذا موقف أليم عرفناه نحن بعد القرن الرابع الهجري-العاشر الميلادي عرفناه دون أن نفكر في الخروج منه ، كما فعل هؤلاء لأن نفرا من أعظم مفكري الإسلام نجحوا في إقناع الناس بأن السعادة في هذه الدنيا لا وجود لها، ومن ثم فمن العبث البحث عنها وأن السعادة لا توجد إلا في الحياة الآخرة ، ومن ثم فلا بد من تركيز جهد الإنسان كله في ضمان وصوله إلى سعادة الآخرة ، عن طريق العبادات والزهد في كل ما تقدمه هذه الحياة من خيرات، وذلك هو لباب كلام الغزالي في كل مؤلفاته وخاصة : "إحياء علوم الدين".²

إن التقدم عندما يصل الى طريق مسدود ، يجب أن تستحدث الإنسانية طرق جديدة وعقلانية جديدة، وآليات جديدة لتجاوز هذا الانسداد ، و الجمود الذي وصلت اليه ، وهذا ما قام به روسو من خلال: إضفاء نظرة نقدية للحضارة وللتقدم ، من أجل استعادة السعادة والحرية، التي فقدها الانسان في حياته المدنية ، بعد أن دخل معترك التاريخ في ظل المجتمع السياسي الفاسد: حيث أصبح يعيش في حالة إغتراب، واضطهاد: مضطهدا من طرف

¹-موريس كروزيه، تاريخ الحضارات العام، القرن 18، مرجع سابق، ص 7.

²- د. محمد مؤنس، -المرجع نفسه، الصفحة نفسها

الحضارة التي اخترعها هو بيده. وإن النمو المتتالي للحاجات والتقدم كما حدث حسب روسو كان شرا.¹

كان فولتير وروسو يمثلان التشاؤم بين جمهرة أهل عصر الأنوار المتفائلين، من أمثال فونتنيل و تورجو و كوندورسي و ديدرو و مونتيسكيو، ولكن تشاؤمهما كان أنتج أثرا في إخراج الحضارة من عنق الزجاجة من جمهرة المتفائلين. وكان روسو أوسع ثقافة وأعمق إنسانية من فولتير، كان علم فولتير بالبشر يقف عند الأوروبيين، قدامى ومعاصرين له كان لا يعرف من الأديان معرفة جيدة إلا المسيحية الكاثوليكية، وكانت إنسانية فولتير أوروبية لا تتخطى حدود جزء من هذه القارة، أما روسو فعرف كثيرا عن غير الأوروبية من الشعوب و في كتاباته أحاديث طويلة ودقيقة إلى حد ما عن الهند والصين، وأهل العالم الجديد.²، بل إنه عرف العرب وقرأ عنهم وأعجب بالكثير من فضائلهم، وعرف الإسلام وتبين نواحي الخير والفضيلة فيه وذكر محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير، واجتهد في الاقتراب من شخصه على الطريقة التي سار عليها توماس كارلايل فيما بعد. ولم يكن إعجابه بالعرب مقتصرًا على إعجابه بكل البدائيين عامة، فقد كان معظم مفكري عصره يرون غير الأوروبيين بدائيين جملة، أما هو فلم يكن يراهم بدائيين وإنما كان يرى فيهم قوما ذوي شهامة وبسالة واستجابة للخير، سمعوا نداء إلى عبادة الله الواحد فاستجابوا له وسعدوا بذلك واجتهدوا في إشراك غيرهم معهم في هذه السعادة. وهذا الكلام وارد في مقدمة طبعة أعمال روسو الكاملة التي قام بها الأستاذ برنار جانيان المؤرخ السويسري المحقق، وقد ألقى في هذا الموضوع محاضرات في القاهرة والكويت وبيروت.³

¹ -جان جاك شفالييه، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، ص476

² -د. محمد مؤنس، -الحضارة: دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، مرجع سابق، ص271

³ -د. محمد مؤنس، -الحضارة: دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، مرجع سابق، ص271

إن روسو كان أكثر ثقافة. وآفاقه كانت أكثر اتساع من فولتير ، الذي كانت ثقافته وتفكيره مطلعا فقط على الثقافة والتاريخ الأوروبي. - أما روسو فكان تفكيره وثقافته عالميان أدري بتاريخ و بثقافة الشعوب الأخرى في هذا العالم." وكان فولتير رجلا لاذعا يميل إلى السخرية والإيلام في حين أن روسو. كان إنسانا طيب القلب بعيدا عن الأذى. وعلى الرغم من أن كلام فولتير يبهر النفس في حالات كثيرة ، إلا أن كلام روسو يتضمن دائما دعوة إلى التفكير ، ورغبة في الحوار ومن ثم فإن أثر روسو في تحريك عجلة التاريخ كان أقوى على المدى الطويل. وعندما قامت الثورة الفرنسية كانت كتابات روسو أكثر فائدة وأبعد أثرا لأنها كما قلنا: تميل إلى البناء وتقدم حلولاً، وحتى في حالة اتضاح خطأ هذه الحلول فهي على أي حال أنفع من السخرية اللاذع، الذي يهدم ولا يبني، وإذا كان فولتير قد شارك في عملية هدم الماضي ، فإن روسو شارك في الهدم والبناء جميعاً".¹، لأنه هو الذي سيشيد فلسفة الأجيال القادمة، حيث يرى غوته أن العالم القديم ينتهي مع فولتير وأن عالما جديداً يبدأ مع روسو.²

إن روسو كان أكثر تأثيراً في سير عجلة التاريخ من فولتير ، حيث كانت مؤلفاته بمثابة دستور الثورة الفرنسية ، والوقود الذي حركها ، وإن روسو لديه مؤلفات: تهدم ما هو قائم وهذا من خلال كتبه : في أصل التفاوت بين الناس ، و رسالة حول العلوم والفنون ، وأخرى بناءة تعيد بناء وتشيد ما هدمه في البداية ، من خلال كتابه: العقد الاجتماعي وإميل.

إن الحضارة التي نحللها في موضوعنا ، و نتكلم عنها هنا هي الحضارة الغربية ونقصد بالغرب هنا أوروبا عامة وهذا نظراً للتطور ، و التقدم الذي حدث فيها في تلك الفترة ، وهذه الفترة هي القرن الثامن عشر الذي وجد ، وعاش فيها روسو. ونقصد بالحضارة هنا التطور والتقدم العلمي والصناعي الذي عرفته أوروبا ، وانعكاساته على شتى ميادين الحياة

¹- د. محمد مؤنس ،- الحضارة :المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

²- جان جاك شفالبييه، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، ص 425

الاقتصادية والاجتماعية و السياسية و الأخلاقية. وكون روسو أحس بروح عصره وبمشاكله فلنظر لهذا العصر و أعطى لنا نظرية هامة لحل هذه المشاكل التي وقع فيها عصره من فساد واستغلال وشر وشقاء ، وتفاوت اجتماعي واستعباد .ويبدأ روسو إعادة بناء مجتمع سياسي جديد قائم على الحرية والتراضي بين الناس ، والموافقة والترخيص عن طريق العقد الاجتماعي.

(2) - العقد الاجتماعي:

(1) -ضبط المفاهيم:

أ-**العقد** : " يعتبر العقد الأداة القانونية التي يعتمد عليها الأفراد لتلبية حاجاتهم اليومية ورغم تعدد العقود إلا أنها تشترك في اعتبارها اتفاق بين إرادتين على إحداث أثر قانوني ويعتبر العقد اتفاق يلتزم بموجبه شخص أو عدة أشخاص نحو شخص أو عدة أشخاص آخرين بمنح أو فعل أو عدم فعل شيء ما. إذ يتجلى دور الإرادة في العقد من خلال: استعمال المشرع لكلمة اتفاق"¹.

ب - **الاتفاق** : "وتدل كلمة اتفاق على تطابق إرادة أطراف العقد على محل الالتزامات. وتبدو العلاقة وطيدة بين إرادة المتعاقد من جهة باعتبارها مصدر للالتزامات التعاقدية والمصلحة الشخصية للمتعاقد من جهة أخرى ، إذ من الصعب في الواقع تصور قيام المتعاقد بإبرام عقد دون وجود دافع إلى التعاقد، من هذه الزاوية تظهر أهمية الدافع إلى التعاقد باعتباره عنصر فعال في الإرادة. والدليل على ذلك هو اعتبار المشرع السبب كركن في العقد"².

¹ - بلال عثمانى، إشراف الأستاذ :-أيت منصور كمال، أطراف العقد المدني : بين الحق في تحقيق المصلحة الشخصية و الالتزام بحسن النية ،كلية الحقوق والعلوم السياسية ، - جامعة مولود معمري تيزي وزو. تيزي وزو، الجزائر. (2018)ص1.

² - بلال عثمانى، إشراف الأستاذ :-أيت منصور كمال، أطراف العقد المدني : بين الحق في تحقيق المصلحة الشخصية و الالتزام بحسن النية، مرجع سابق، ص1.

ج-العقد الاجتماعي: "هو إصطلاح استخدمته نظريات فلسفية وفقهية في القانون والسياسة ترى أن العلاقة بين الحكام والشعب تقوم وفقا لعقد يحدد شروط تلك العلاقة ومن أشهر القائلين بهذه النظرية نجد: (هوبز . لوك . روسو).¹ "وهو اتفاق يفترض إبرامه بين الشعب والحاكم أو بين أفراد الشعب لإنشاء الهيئة السياسية وتحديد حقوق كل من الحكام والمحكومين فيها."²

وإن غاية الدولة عند "لوك" هي تحقيق المنفعة: "ومن هنا ينشأ التعاقد الاجتماعي عند "لوك"، الذي ينص بأن ينقل الأفراد سلطاتهم الى شخص، أو بضعة أشخاص يكونون حكومة وتكون مهمة هذه السلطة السياسية هي محافظة الحقوق الطبيعية وحمايتها. وينص العقد على ألا يتنازل الأفراد إلا بقدر ما يتيح للسلطة أن تقوم بواجباتها للدفاع عن مصالحهم. ولا يجوز هذا الانتقال الى الحالة السياسية إلا برضاء الأفراد سواء بالرضاء الصريح أو الضمني فالفرد يكتفي بإرادته الحرة مع غيره من الأفراد على الاتحاد في جماعة هدفها حفظ بقائهم وضمان استقرارهم. فرضاء الفرد إذن هو أصل قيام الدولة والسلطة السياسية والحكومة، وليست السلطة الأبوية كما يذهب أنصار السلطة الوراثية أو الاستبداد."³

وينص العقد الاجتماعي الذي يولى به الناس السلطة للحاكم أن الحاكم يعتبر طرفا في هذا العقد شأنه شأن المحكوم. وإذا قصر أحد الطرفين في تنفيذ العقد أصبح الطرف الآخر في حل من الالتزام بتعهداته. وبناء على ذلك يكون العقد لاغ. ومن هنا اختلفت صيغة العقد

¹ - أحمد عزالدين عبد الله . -شوقي ضيف. -مجمع اللغة العربية المصرية. (1999). معجم القانون. (الهيئة العامة لشؤون المطابع الاميرية، المحرر) مجمع اللغة العربية المصرية. القاهرة، مصر. ص.22.

² - أحمد عزالدين عبد الله . -شوقي ضيف. -مجمع اللغة العربية المصرية. (1999). معجم القانون. مرجع سابق، ص115.

³ - مطر أميرة حلمي، الفلسفة السياسية من افلاطون الى ماركس ، دار المعارف، القاهرة، مصر، (1995)، ص69

الاجتماعي عند "لوك"، عما كانت عليه عند "هوبز" ذلك لأنه في حين إعتبر هوبز العقد الاجتماعي دائماً، ومطلقاً ذهب "لوك" الى أنه موقوف بمحافضة المتعاقدين على التزاماتهم، وفي حين إعتبر "هوبز" تنازل المواطنين عن حقوقهم مطلقاً ذهب "لوك" الى أنه تنازل عن القدر الذي يضمن قيام السلطة العليا بواجباتها. وبينما ذهب هوبز إلى أن الحاكم ليس طرفاً في العقد وغير ملزم بأي قيد أو التزام. ذهب "لوك" الى ضرورة اعتباره طرفاً في العقد حتى لا ينجح الى الظلم والاستبداد.¹

د-الميثاق: في القانون هو ما يتعاهد أو يتحالف عليه رسمياً شخصان أو أكثر، وهو رابطة تتألف من أجل عمل مشترك. مثل: -ميثاق حقوق الانسان في القانون، وهو قانون الأفراد ويعبر على الخلاصة الأساسية لحقوق مجموعة من الناس.-وميثاق الأمم المتحدة وهي وثيقة سياسية تتضمن مبادئ الأمم والقواعد الأساسية المتفق عليها من أجل احترامها في الممارسة. " وإن فكرة الميثاق في حد ذاتها فكرة قديمة قدم النظريات السياسية والدينية والاقتصادية مهما كانت منزلتها باهتة وهامشية في العصور القديمة والعصور الوسطى وأما فكرة الشرعية فارتبطت هي أيضاً منذ القدم بفكرة الحق سواء كان الحق مسبقاً على القوة أو كانت القوة مسبقة على الحق."²

ه-الحقوق الطبيعية :

" هو اصطلاح يطلق على مجموعة الحقوق التي يتمتع بها الانسان بوصفه إنساناً فهي حقوق نابعة من طبيعته الإنسانية دون الحاجة للنص عليها أو تقريرها في موثيق أو

¹ - أميرة حلمي، الفلسفة السياسية من افلاطون الى ماركس، مرجع سابق، الصفحة نفسها

² - جان جاك روسو ، في العقد الاجتماعي ، (الإصدار الطبعة الاولى) ، (عبد العزيز لبيب، المترجمون) ، دار المعارف، بيروت، لبنان، (2011)، ص 12.

دساتير أو قوانين وضعية وتسمى أيضا بالحقوق الأساسية للإنسان، وذلك وفقا لنظرية القانون الطبيعي.¹

(2)-العقد الإجتماعي عند روسو:

إن غرض روسو من مؤلفه العقد الاجتماعي ، هو البحث عن كيفية تأسيس مجتمع فاضل مبني على التعاقد والرضا والذي ستسيره الإرادة العامة والقانون، ولتصحيح الحضارة والمجتمع السياسي الفاسد، والذي أسسه التقدم والتفاوت الاصطناعي والاستغلال. وإعادته إلى السكة الصحيحة. وعما إذا كان من الممكن أن يوجد في النظام السياسي معيار وقاعدة صلبة لوضع: قانون للحكم يكون مشروعا و شرعيا، و ثابتا وموضوعيا بإعتبار البشر هم موجودون لتصحيح الأوضاع التي ألت إليها البشرية مع ظهور المجتمع السياسي الفاسد أخلاقيا وسياسيا، وباعتبار القوانين و النواميس: كما يجب أن تكون. حيث يقول روسو في هذا الصدد: في الكتاب الأول: "أريد أن أبحث في النظام المدني هل يمكن أن تكون هناك بعض الأسس الإدارية الشرعية والحقيقية والثابتة: باعتبار البشر كما هم كائنون ، وباعتبار القوانين كما يمكنها أن تكون. وسوف أسعى في هذا البحث إلى أن أقرن ، دائما بين ما يسمح به الحق وما تقضي به المصلحة ، من أجل ألا تحصل تفرقة أبدا بين العدالة والمنفعة."²، ويقول أيضا في هذا الصدد: " وقد يطلب مني أحدهم هل أنا أميرا ، أم مشرعا لكي أكتب في السياسية ؟ -أجيب : بلا- ولهذا السبب أكتب في السياسة. ولو كنت أميرا أو كنت مشرعا لما ضيعت وقتي في قول ما يجب فعله. بل كنت سأفعله أو سأسكت."³

¹ - أحمد عزالدين عبد الله ، -شوقي ضيف، -مجمع اللغة العربية المصرية، معجم القانون، مرجع سابق، ص14.

² -JEAN JACQUES ROUSSEAU, DU CONTRAT SOCIAL , OU PRINCIPE DU DROIT POLITIQUE. Ed : Gallimard ; PARIS, 1996 p8

³ -JEAN JACQUES ROUSSEAU :DU CONTRAT SOCIAL , Ed: Enag ,Alger,1990,. P9

هنا يدخل روسو في صلب الموضوع ليعالج المسألة السياسية، والتي هي الحلقة الأساسية في مشروعه الفلسفي والفكري السياسي، لأنه يريد تأسيس مجتمع سياسي جديد وفاضل، مبني على الأخلاق و الرضا والترخيص، والتعاقد بين الناس فيما بينهم لتأسيس الدولة القائمة على الإرادة العامة. حيث يقول في هذا الصدد: "وإذا ولدت مواطن دولة حرة عضوا من أعضاء صاحب السيادة. فمهما كان تأثير صوتي في الشؤون العمومية ضعيفا فإن حقي في التصويت عليها كاف لأن يوجب علي تكويني المعرفي بها."¹

إن روسو يرى أن الانسان الطبيعي كان حر حرية طبيعية، وكان يعيش في وئام وفي إنسجام مع الطبيعة في الحالة الطبيعية. وكان يتمتع بحقوقه الطبيعية، وعندما دخل معترك التاريخ مع ظهور الملكية الفردية وظهر الانسان التاريخي و المجتمع السياسي الفاسد: فقد حرشته، فأصبح فاسد أخلاقيا ومستغل اقتصاديا ومقهور سياسيا، أينما تنظر تراه في أغلال. حيث يقول روسو في هذا الصدد في الفصل الأول: وموضوع الكتاب الأول: " ولد الانسان حرا وفي كل مكان تراه في أغلال، ويعتقد بأنه هو سيد الآخرين ولكنه لا يدري بأنه هو أكثر عبودية منهم. كيف حدث هذا التغيير ؟ لا أدري. -ما الذي يجعله شرعيا ؟- أعتقد بأنني أستطيع أن أحل هذه المشكلة."²

كون الإنسان كان يعيش في الحالة الطبيعية في هناء، وأمان فإنه كان يتمتع بالحرية الطبيعية، وبالحقوق الطبيعية الأخرى ثم فقدتها مع ظهور الملكية³، والمجتمع السياسي الفاسد وأصبح مكبل يعيش في إغتراب و إضطهاد ، وفي أغلال اصطناعية هو صنعها بنفسه وهي المؤسسات السياسية الفاسدة ، وأصبح فيها الظلم مدستر ، والمبنية على القوة و التعسف و الاضطهاد والتي بدورها أنتجت الاستغلال والاستعباد. -حيث يقول في

¹-جان جاك روسو ، في العقد الاجتماعي ، مصدر سابق، ص79

²- جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص79

³-مهدي محفوظ ، اتجاهات الفكر السياسي الغربي الحديث والمعاصر، مرجع سابق، ص146

هذا الصدد: " أما إذا لم أقدر أن القوة وما ينجم عنها من نتائج سأقول : طالما يكون الشعب مجبرا على الطاعة فيطيع. -فإن هذا خير له ، وعندما يستطيع أن يرفع عنه العقبات ، فيرفعها فنعم ما يفعل: فإذا هو يسترجع حريته بنفس الطريقة التي أخذت منه. فيكون هذا من حقوقه الشرعية والأساسية.¹

وإن الأنظمة الاجتماعية والسياسية والجهاز الاصطناعي أو الدولة، مبني على اتفاقيات ومعاهدات بين أفراد المجتمع وبين الحكام لتأدية غرض ما، وهو المنفعة العامة والخير العام. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "- وإما أنه لم يكن هناك من حق أبدا في أن تسلب منه. - لكن النظام الاجتماعي حق مقدس يستخدم قاعدة لجميع الحقوق الأخرى. بيد أن هذا الحق لا يأتي أبدا من الطبيعة، فهو بالتالي مؤسس على اتفاقيات. والمقصود إنما المعرفة بهذه الاتفاقيات.²

إن الاتفاق و الرضا والتعاقد هو المبدأ الأساسي لقيام الأنظمة السياسية المشروعة ، والتي من حقها القيام بمهام سن القوانين وتنفيذها ومزاولة السيادة ، والحكم على المستوى الداخلي والخارجي للدولة ، ومن ثمة على المواطنين الطاعة لأنهم يعتبرون هم مصدر هذه السلطة والتي هي الإرادة العامة، لأنهم في هذه الحالة هم الذين يشرعون القوانين لأنفسهم .

(3)-في المجتمعات البدائية الأولى:

ويقول روسو في الفصل الثاني من كتابه العقد الاجتماعي: الموسوم ب في المجتمعات الأولى:إن الأسرة هي النموذج القديم للمجتمعات البشرية وللمجتمعات السياسية،"وإن الأسرة هي من أقدم المجتمعات البشرية وأكثرها طبيعية. وأن الأولاد لا يبقون طويلا في صلة مع أبيهم ، إلا عندما يكونون بحاجة إليه: لكي يحميهم و ليحفظ بقائهم ،

¹-جان جاك روسو :المصدر نفسه، الصفحة نفسها

²- JEAN JACQUES ROUSSEAU, DU CONTRAT SOCIAL,

ED :FLAMMARION ,PARIS,1933. P9.

وعندما يزول هذا الغرض فإن الرابطة الطبيعية تزول.¹، وإن علاقة الأولاد بالآباء هنا هي علاقة حاجة ومصلحة شخصية وظرفية، و التي هي الحماية وحفظ البقاء، "فأما وقد أصبح الأولاد في حل من طاعة أبيهم التي كانت واجبة عليهم. أما وقد صار الأب في حال من رعاية الأولاد التي كانت واجبة عليها. دخلوا جميعهم على حد سواء، في طور الاستقلال. وإذا ما مكثوا متحدين لم يعد ذلك بالفطرة الطبيعية، بمقتضى الإرادة، وهكذا فإن الأسرة نفسها لا تستمر باقية إلا على وجه الاتفاق."²

إن الإنسان لا يبق دائما تحت الرعاية الأسرية، إذا ما بلغ سن الرشد وأصبح قادرا على كفالة نفسه وبقائه، ومن هنا يصبح سيدا لنفسه وحاكما لذاته فإنه سيستقل وينفصل فيما بعد عن السلطة الأسرية. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "فأما هذه الحرية المشتركة فنتيجة طبيعة الإنسان. وأما سنة الإنسان الأول هي الحرص على بقائه هو بالذات، كما أن الرعاية التي يبدأ بها، هي التي يدين بها لنفسه. فإذا بلغ سن الرشد. وأصبح حكما أوحده في اعتبار الوسائل الكفيلة، وبقائه صار بهذا سيدا على نفسه هو بالذات."³، ويعتبر روسو أن الأسرة هي بمثابة النموذج الأصلي و الأنموذج الأول للمجتمعات، وللمجتمعات السياسية ويتجسد الأب في صورة الحاكم، أما الأولاد فيعتبرون بمثابة الشعب. ويرى روسو أن الجميع يولدون أحرار، ويتمتعون بالحرية الطبيعية فلا يتنازلون عنها إلا بمقابل المنفعة. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "ويمكن أن تعد الأسرة إذن أول نموذج للمجتمعات السياسية، حيث يكون الرئيس في صورة الأب والشعب صورة الأولاد، وبما أن الجميع يولدون أحرار

¹ –JEAN JACQUES ROUSSEAU, DU CONTRAT SOCIAL,TUNIS 1994. P1

² – جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 80

³ – جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 80

متساوين، فإنهم لا يتنازلون عن حريتهم إلا لنفعهم، وكل الفرق هنا هو حب الأب لأولاده في الأسرة يؤديه بما يراعاهم به، وأن لذة القيادة في الدولة، تقوم مقام الحب الذي لا يكنه الرئيس نحو شعبه.¹، وتعتبر الأسرة النموذج الأول الطبيعي المقابل للمجتمع المدني وللجهاز الاصطناعي كما يسميه هوبز. " وإن "غروسيوس" ينكر أن تكون أية سلطة بشرية، قد أقيمت لمصلحة المحكومين، فيستشهد على ذلك بالرق، وكان أسلوبه الأكثر ثباتا في المحاكمة هو البرهان على الحق بالواقع، ويمكننا استخدام منهج أكثر منطقية لكنه لن يكون أكثر تأييدا للحكام.²

يرى غروسيوس وهوبز أن الحاكم لديه سلطة مطلقة، وسيادة مطلقة على الشعب، كونه لم يكن طرفا في العقد الاجتماعي، ويشبه غروسيوس الأجناس البشرية بقطعان من الحيوانات فيكون لكل قطيع حاكم. حيث يقول روسو في هذا الشأن: "وعند "غروسيوس" أن من المشكوك فيه، إذن كون الجنس البشري تابعة لفئة من الناس، أو كون هؤلاء من الناس تابعين للجنس البشري، ويبدو في جميع كتابه ميله إلى الرأي الأول. وهذا هو شعور "هوبز" أيضا، وهكذا يكون النوع البشري مقسوم إلى قطعان من الحيوانات، فيكون لكل قطيع منها حاكمه الذي يراعاه ليلتهمه. وما أن الراعي أعلى مرتبة من قطيعه طبيعة فإن رعاية الناس الذين هم رؤساء لهم، أعلى من شعوبهم طبيعة.³

إن هوبز يدافع هنا عن الحكم المطلق وعن السيادة والسلطة المطلقة، حيث يرى أن الحاكم لديه حكم مطلق وسيادة مطلقة على الشعب، كونه لم يكن طرفا في العقد

¹-JEAN JACQUES ROUSSEAU, DU CONTRAT SOCIAL, e d : Gallimard, PARIS,1994. P10.

²-جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، الصفحة نفسها

³-جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، الصفحة نفسها .

الاجتماعي وليس لديه إلزام اتجاه الشعب، إلا بحمايته وتحقيق أمنه الداخلي والخارجي، ولا يكون ملزماً إلا بمواد العقد الاجتماعي، "وإن تفكير كاليغولا يعود بنا الى تفكير هوبز و غروسيوس. وإن أرسطو قبلهم قال بأن الناس ليسوا متساوين طبيعياً وأن بعضهم يولد للعبودية، والآخرين يولدون للسيطرة على الآخرين".¹

إن أرسطو هنا لديه نظرة غير إنسانية حيث يرى أن العبيد ليسوا بشر، حيث يعتبرهم أرسطو بمثابة آلة لتحريك دواليب الإنتاج، في المجتمع الطبقي الأثيني القديم لأنه يعتبر مثل أستاذه أفلاطون يؤمن بالطبقية في المجتمع، فيتجلى نظام الطبقات في الدولة عند أفلاطون في "كون الدولة ليست مكونة من فرد واحد، وإنما هي مكونة من عدة أفراد وهؤلاء الأفراد مختلفون من حيث الطبيعة".²، حيث يقول روسو أيضاً: "كان أرسطو على حق ولكنه خلط بين العلة والمعلول، و أخلط بين النتيجة و السبب: فليس ثمة ما هو مؤكد أكثر من أن الرجل المولود في العبودية. يولد من أجل العبودية. ذلك أن العبيد يفقدون كل شيء في أغلالهم حتى الرغبة في التخلص منها. إنهم يحبون عبوديتهم. كما كان رفقاء "أوليس" يحبون التوحش الذي آلوا إليه. وإذا وجد عبيد بالطبيعة، إذن فلذلك لما كان من وجود عبيد ضد الطبيعة، فالقوة صنعت العبيد الأولين، والجبن و النذالة أدامتهم".³

وإن أرسطو كان مثل أستاذه أفلاطون، يريد المحافظة على التركيبة الاجتماعية للمجتمع اليوناني القديم آنذاك لأنه كان ينتمي إلى تيار الفلاسفة المحافظين عند اليونان

¹ – JEAN JACQUES ROUSSEAU, ŒUVRES COMPLETES, T3, DU CONTRAT SOCIAL, ECRITS POLITIQUES, Ed : Gallimard, PARIS, 1959. P10

² – عبد الرحمان بدوي، موسوعة الفلسفة، الطبعة الأولى، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، (1984)، ص 183

³ – جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 80

القدامى: حيث كان يرى أرسطو أن المجتمع عنده مجتمع طبقي،¹ ويجب أن يقسم إلى ثلاثة أقسام، وطبقات هي طبقة العبيد و طبقة الجنود و الطبقة الارستقراطية. فالعبيد حسبه ليسوا مواطنين، وليسوا حتى بشر وكان يرى العبيد بمثابة آلة تساهم في تحريك قوة الإنتاج الاقتصادي لا غير. وأن في هذه النظرة نوع من الاحتقار والازدراء للجنس البشري عامة. ويقول روسو أيضا: "ولم أقل شيئا عن الملك آدم ، ولا عن العاهل نوح ، بجانب الملوك العظماء الثلاثة الذين اقتسموا العالم كما صنع أولاد "ساتورن" الذين أضن أنهم معروفون ، وأرجو أن أقنع بهذا الاعتدال ، وذلك بما أنني سليل أحد هؤلاء الأمراء رأسا. سليل الفرع الآسن على ما يحتمل."²

إن السلطة لا يمكن أن تحصل وتكون عن طريق الوراثة ، وإنما عن طريق العقد الاجتماعي والرضا والترخيص ، لأن الشعب هو المصدر الشرعي للسلطة لأن الإرادة العامة تتجم منه، و إن الإرادة العامة هي مصدر القانون الذي ينجم عنها فيما بعد. ويقول أيضا روسو في هذا الشأن: " فكيف أدري أنني لا أكون الملك الشرعي للجنس البشري بالبحث في الوثائق؟ ومهما يكن من أمر ، فلفه لا يمكن أن ينكر أن آدم كان مالك وسيدا على العالم ، كما كان روبنسون ملك وسيدا في جزيرته ، إذا كان وحده الساكن فيها ، وكل ما هو سائق في هذه الإمبراطورية هو أن الملك المطمئن إلى عرشه لم يكن ليخاف ثورة. ولا حريا ولا متأمرين عليه."³

¹ -الشيخ كامل محمد، محمد عويضة، الأعلام من الفلاسفة: الفلسفة السياسية، مراجعة محمد رجب البيتومي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1995، ص15.

² - جان جاك روسو، المصدر نفسه، الصفحة نفسها

³ -JEAN JACQUES- ROUSSEAU, DU CONTRAT SOCIAL OU PRINCIPES DE DROITS POLITIQUE,-SUIVIT DE- FRAGUEMENTS POLITIQUES e d : Gallimard, PARIS,1996. P11.

(4)-السلطة المطلقة و في حق الأقوى :

يرى "روسو" أن القوة لا يمكن أن تكون أبدا مصدرا للسلطة السياسية: لأنها غير ثابتة ومتغيرة باستمرار وهي نسبية، وأن الحق لا يمكن أن يؤسس أبدا على مبدأ القوة والقهر والسيطرة، كما يرى ذلك هوبز الذي يدافع عن الحكم المطلق، والسلطة المطلقة في كتابه: **التنين**، كون الحاكم لم يكن طرفا في العقد الاجتماعي: فإنه غير ملزم بمواد العقد الاجتماعي.¹ وأن سلطته وسيادته في هذه الحالة تكون مطلقة. و ليس لديه إلا واجب واحد وهو تحقيق الأمن والسلم الداخلي والخارجي للمواطنين في الدولة. حيث يقول روسو فيما يخص حق الأقوى ورجوع السلطة السياسية إليه: "أن الأقوى ليس قويا بما فيه الكفاية أبدا بأن يكون سيذا على الدوام، اللهم أن يحول قوته إلى حق، والطاعة إلى واجب. من هنا يتأتى حق الأقوى: حق يؤخذ من الظاهر مأخذ السخرية، وهو في واقع الأمر راسخ بالمبدأ".²

وإن القوة شيء عرضي ومتغير ونسبي باستمرار، ولا يمكن إقامة الحق والسلطة عليه. ويقول روسو في هذا الصدد: "ولكن هل لأحد أن يفسر لنا هذه الكلمة؟-إنما القوة قدرة جسمانية، فلا أرى أبدا أي أخلاقيات قد تحصل من أثارها. الإذعان للقوة فعل اضطراري لا فعل إرادي، وهو لا يعدو أن يكون فعلا من أفعال الاحتراس، فبأي معنى من الجائز أن يكون واجبا؟ -هب لحين من الوقت أن هذا الحق المزعوم موجود، فأقول أنه لا ينتج منه سوى هراء لا يقبل التفسير. وذلك أنه حالما تكون القوة هي ما يصنع الحق، تتغير النتيجة بتغير السبب فكما تغلبت على قوة سابقة عليها. قامت مقام الحق الذي كان لها، وحالما أمكن الخروج عن الطاعة دونما عقاب، جاء إمكانه ذاك نحو مشروع، أما والأقوى

¹ -محمد غلي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 231

² -جان جاك روسو : في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 84

يكون دائما على حق ، فليس لأحدنا من فعل يفعله إلا أن يصير هو الأقوى، فأبي حق هذا الذي يفنى بانفكاك القوة ؟"¹

إن الحق لا يمكن أن يؤسس على أساس غير ثابت، وعلى أساس متغير ونسبي لأن القوة شيء غير ثابت و إنها متغيرة بتغير الظروف، والزمان والمكان وباستمرار: إذن لا يمكن أن تؤسس الحق على القوة كما يرى ذلك هوبز:-حيث كان يرى أن الإنسان في حالة الحرب وفي الحالة الطبيعية الأولى يعيش في حالة خوف وقتال مستمر، وأن القوة هي السبيل الوحيد التي تضمن بقاءه، ووجوده وحماية حقوقه الطبيعية في هذه الحالة. فالحق إذن لا يمكن أن يؤسس على شيء نسبي ومتغير، لأن القوة متغيرة ونسبية. حيث يقول روسو في هذا الصدد: " و إذا أرغم المرء على أن يطيع بمقتضى القوة ، لم يلزمه أن يطيع بمقتضى الواجب. وإذا لم يعد المرء مجبرا على الطاعة لم تعد تلزمه هذه الطاعة. و نرى إذن كيف أن كلمة "حق" هذه لا تضيف شيئا إلى القوة ، وإنما هي لغو لا تدل على أي شيء."²

إن القوة هنا هي شيء نسبي أعطاها هوبز أهمية كبيرة في تفكيره السياسي، وفي نظريته في العقد الاجتماعي لكي يبرر الحكم المطلق، الذي كان ينادي إليه هوبز في فلسفته السياسية ونحن نعلم أن الشيء النسبي متغير باستمرار، و غير ثابت ولا يمكن تأسيس وقيام الحكم والدولة ومؤسساتها على شيء متغير. ويقول روسو أيضا في هذا الصدد:"عليكم بطاعة القوى السلطانية: فإذا كان هذا يعني أن استسلموا للقوة، فهذه قاعدة صالحة ولكنها من تحصيل الحاصل، ولذلك أجب بأن حرمتها هذه لن تنتهك أبدا. فأما أن ينبع كل سلطان من الله فهذا ما أقر به ولكن كل مرض يأتي منه أيضا. أفيعني هذا أنه محبر علي أن

¹ - جان جاك روسو ، في العقد الاجتماعي ، مصدر سابق ، الصفحة نفسها

² -JEAN JACQUES ROUSSEAU, DU CONTRAT SOCIAL, e d :Flammarion ,PARIS,1967.p11

أستدعي الطبيب؟".¹ وهنا يتحدث و يستدل روسو بنظرية أخرى في الفلسفة والمتمثلة في نظرية التفويض الإلهي، التي أتى بها روبرت فيلمير لتبرير الحكم الملكي المطلق والطغيان، والاستبداد والأنظمة الملكية المستبدة آنذاك.

ويشبه روسو الحكام المستبدين الذين يستخدمون القوة لإخضاع مواطنيهم، والسيطرة عليهم كقطاع الطرق، الذين يعتدون على الناس و يستخدمون القوة لسلبهم أملاكهم .حيث يقول روسو أيضا في هذا الصدد: "وأما أن قاطع طريق قد أخذني على حين غرة، في ركن غابة. فلا يجب إعطاؤه نقودي بالقوة فحسب، وهل أكون مجبرا، حقيقة، عندما يسع لي إخفاؤها عنه، على إعطائها إليه؟ ذلك أن المسدس الذي يمسك به هو بالتالي نوع من القوة والسلطة".²، فالقوة إذن لا تصنع الحق و لا يمكن أن يأتي منها ، وأن المواطنين ليسوا ملزمين بطاعة سلطة غير شرعية لا تتبثق من الإرادة العامة ومن الشعب، ويكون بترخيص وبتفويض لهذه السلطة، حيث يقول روسو في هذا الشأن: "لنقر إذن بأن القوة لا تصنع الحق، وأننا لسنا ملزمين إلا بطاعة القوى المشروعة والشرعية".³

(5)-في العبودية والاستعباد:

يرى روسو في الفصل الموسوم :في العبودية: أنه ليس هناك أشخاص أسياد بالطبيعة وليس هناك أشخاص عبيد بالطبيعة، وأنه ليس للإنسان أو لأي إنسان كان أي سلطة طبيعية على آخر، وعلى أقرانه من البشر، وأن القوة لا تنتج أي حق فإن الاتفاقيات هي الأساس لكل سلطة شرعية، وأن العقد الاجتماعي هو الذي يؤسس لسلطة شرعية، وهذه

¹ - جان جاك روسو ، في العقد الاجتماعي ، مصدر سابق، ص 84

² - JEAN JACQUES ROUSSEAU -, OEUVRES COMPLETES, DU CONTRAT SOCIAL - SUIVI DE-LES ECRITS POLITIQUES EDITION GALIMARD ,PARIS,1964.P12.

³ -جان جاك روسو ، في العقد الاجتماعي ، مصدر سابق، ص 84

الشرعية تنتج من الشعب ومن الإرادة العامة. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وإذ ليس لإنسان، أيا كان هذا الإنسان، من سلطة طبيعية على شبيهه، وإذ القوة لا تولد أي حق كان، ظلت الاتفاقيات هي الأساس لكل سلطة مشروعة بين البشر. فإذا جاز لشخص من الخواص على نحو ما جاء في أقوال "غروسيوس"، أن يتنازل عن حريته فيصبح رعية ملك من الملوك؟ هاهنا من الكلام المبهم ما يحتاج إلى إيضاح، ولكن لنقتصر على كلمة "تنازل".¹

يتحدث روسو هنا عن فكرة الإغتراب (إغتراب الإنسان) حيث يرى أن العبودية هي فكرة غريبة عن طبيعة الإنسان، وأن العبودية هي شيء تعسفي، وإن وجدت فهي شيء عرضي في تاريخ البشرية وإنها مبنية على مبدأ القوة والتعسف و منافية للنظام الطبيعي، و السنة الطبيعية لأن الإنسان حر حرية طبيعية، ولا يمكن للإنسان أن يتنازل عن هذه الحقوق الطبيعية لصالح شخص ما، وأنه لا المنطق ولا العقل، ولا الدين يبرران العبودية كما يرى لوك. وروسو. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "فالتنازل عن شيء هو إعطاؤه أو بيعه. وعليه فإن الإنسان، الذي يجعل من نفسه عبدا لشخص آخر. فإنه لا يهب نفسه، وإنما يبيعها بيعا لأجل حياته على أقل تقدير".²

إن روسو هنا يرفض العبودية جملة وتفصيلا، ولا يقبل بحالة العبودية لا للشخص و لا للجماعة و لا للشعب ولا للمجتمع بكامله، فلا يمكن للشعب أن يبيع نفسه للحاكم: لأن العبودية منافية للطبيعة وللطبيعة البشرية و الإنسانية. وحسبه فهي ليست شيء طبيعي، وإنما إذا وجدت في فترات من التاريخ، فهي أشياء عرضية تعسفية لأنها تقوم على القهر والقوة، و التسلط والتعسف ولا يقبلها لا العقل ولا الدين، لا المنطق ولا الديانات و لا الشرائع

¹ -جان جاك روسو ، في العقد الاجتماعي ، مصدر سابق ، الصرفة نفسها

² -JEAN JACQUES ROUSSEAU, DU CONTRAT SOCIAL ,

Ed :Flammarion ,PARIS,1967.p12

السماوية، إذن لا العقل ولا المنطق يبرران العبودية حسب روسو. حيث يقول في هذا الصدد: "ولكن لماذا يبيع الشعب نفسه؟ ما أبعد الملك من أن يزود الرعايا بأقواتهم، فهو من لا يحصل قوته إلا منهم، و الحال أن الملك في رأي "رابليه Rabelais" *¹ لا يعيش على القليل. أعني ذلك أن الرعايا يهبون أشخاصهم شرط أن تؤخذ منهم أموالهم أيضاً؟ إني لا أرى أنه قد تبقى لديهم شيئاً حتى يحتفظوا به."²

إن المستبد يأخذ الحرية من مواطنيه وحتى ممتلكاتهم، ويتعسف عليهم بسلطته القهرية وبقوة تعسفية، إذن فكيف له أن يضمن لهم الراحة والسعادة، وإن طموحه اللا محدود في السيطرة على الشعب وطغيانه سوف يجبر لهم الشقاء و التعاسة والخراب والخوف والاضطهاد، وإن كل هذه الأحداث والعلامات، لهي بذور لزرع الفوضى العارمة التي ستسود فيما بعد وستؤدي إلى حروب وإلى اندثار، وزوال الدولة وانحلالها فيما بعد، والوصول إلى حالة الحرب التي نادى إليها هوبز³. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "ولقائل أن يقول أن المستبد يضمن لرعاياه الراحة. فليكن ذلك كذلك. - ولكن ماذا يكسبون والحال أن الحروب التي يجرها عليهم الشره بالحد، وإن مظالم وزرائه تنزل بهم من الخراب أكثر مما تفعله بهم الشقاكات."⁴، فهذه الراحة تشبه الراحة التي يحس بها السجناء في زنزانتهم داخل السجن.

¹ * فرانسوا رابليه (بالفرنسية François Rabelais): هو كاتب فرنسي وطبيب وراهب وعالم باليونانية وأحد إنساني النهضة. يعتبر رابليه أحد أعظم الكتاب على مستوى العالم، وكذلك أحد مؤسسي أسلوب الكتابة الأوروبية الحديث. تعد رواية غارغانتوا وبانتاغرويل أنجح أعماله على الإطلاق. كان رابليه لفترة قصيرة راهباً ولكنه شعر أنه لا يستطيع أن يتحمل بجدية هذه الحياة لأسباب عدة تدخل في صميم المبادئ الدينية والممارسات، فدرس الطب ، ثم مارس التطبيب في مدينة ليون ، إلا أنه سئم ذلك أيضاً، وراح يتجول في أرجاء أوروبا الغربية . وخلال الفترة التي مارس فيها الطبابة كتب روايتين هما : حياة غارغانتوا وبانتاغرويل ، وأصدرهما باسم مستعار ، فلقبنا نجاحاً كبيراً، وهما تزخران بالسخرية والعمق، وبالخشونة في أجزاء منهما .

² -جان جاك روسو ، في العقد الاجتماعي ، مصدر سابق، ص 84

³ - إبراهيم موسى، الفكر السياسي الحديث والمعاصر، مرجع سابق، ص 100

⁴ - جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 85

حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وماذا يحصلون عليه من ذلك، إذا كانت هذه الراحة هي بعينها ضرب من ضروب شقائهم وبؤسهم؟ وإن المرء ليعيش هادئاً، وعلى راحته في غياهب الزنزانة".¹ - فهل ذلك كاف ليرى نفسه في طيب العيش؟ هكذا كان اليونانيون المحبسون في غار "سيكلوب"، يعيشون على راحتهم وهم ينتظرون دورهم الذي فيه سوف يفترسون.² ولا يمكن لأي شخص أن يتنازل عن حريته، أو عن ذاته لصالح شخص أو هيئة ما، فإن هذا ضرب من ضروب القهر والعبث والسخافة، وإنه لا العقل ولا المنطق ولا الشرائع الدنياوية أو السماوية تقر ذلك كما يرى ذلك لوك. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "فأما من قال بأنه من شأن أي إنسان أن يهب نفسه دون مقابل، فقد قال كلاماً عبثياً وغير قابل للتصور. فإن فعلاً كهذا هو فعل غير مشروع، وباطل لمجرد صدوره من شخص خرج عن صوابه. وأما من قال الكلام نفسه عن شعب بأكمله معناه: أن نفترض وجود شعب من المجانين والجنون لا يصنع الحق".³، ومتى أمكن لأي فرد من البشر، أن يتنازل عن شخصه بنفسه، فإنه لا يمكنه أن يتنازل عن أولاده، فهم يولدون بشراً وأحراراً. و أن حريتهم هي ملك لهم، ولا يحق لأحد سواهم حق التصرف فيها. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "ويستطيع أبوهم قبل أن يبلغوا سن الرشد، أن يضع بالوكالة عنهم شروطاً لأجل بقائهم ولأجل طيب عيشهم.

- ولكنه لا يستطيع أن يتنازل عنهم بلا رجعة ولا شرط، ذلك أن هبة كهذه مضادة لغايات ولسن الطبيعة، وتجاوز حقوق الأبوة. ولأجل أن تكون حكومة إستبدادية ما مشروعة، لا بد

¹ - JEAN JACQUES ROUSSEAU - , DISCOURS SUR L'ECONOMIE POLITIQUE DU. CONTRAT SOCIAL ET SUIVIT DE FRAGUEMENT POLITIQUES , e d : Gallimard, PARIS,1996. P14

²-جان جاك روسو ، في العقد الإجتماعي، مصدر سابق، ص86

³-جان جاك روسو ، المصدر نفسه،الصفحة نفسها.

إذن أن يكون الشعب في كل جيل، هو الفيصل في قبولها أو رفضها. -ولكن هذه الحكومة لن تكون إذاك استبدادية." ¹

إن تنازل الإنسان عن حريته هو تنازله عن كرامته وعن صفاته كإنسان، والتي تعتبر حق من الحقوق الأساسية والطبيعية للإنسان. وإن تنازله عنها هو تنازله عن حقوقه الإنسانية، ومنه فإنه يتنازل أيضا عن واجباته، وإن هذا يتنافى مع طبيعته كإنسان وهو تقويض وتعطيل واعتداء على حقوقه الطبيعية الأساسية. حيث يقول روسو في هذا الشأن: "إن تنازل المرء عن حريته، يعني تنازله عن صفته كإنسان التي له، وعن حقوقه في الإنسانية، بل وحتى عن واجباته. وكل من يتنازل عن كل شيء فليس هناك أي تعويض ممكن له." ²

وإن الحرية هي المبدأ الأساسي الذي تقوم عليه الكرامة الإنسانية، لأنها تعتبر من الحقوق الأساسية والطبيعية للإنسان لذي يجب عليه أن يحافظ على هذا الحق، ويدافع عنه بكل الوسائل وبكل قوة لأنه يعتبر من الحقوق الطبيعية والأساسية للإنسان. "وإن عدولا كهذا غير ملائم لطبيعة الإنسان، فإن تعطيل الحرية في إرادة الإنسان هو تعطيل لكل مبادئ أخلاقية في أعماله. وأخيرا باطلة ومتناقضة هي الاتفاقية التي تشترط سلطة مطلقة من جهة. وطاعة ولا قيود لها من جهة أخرى." ³ وإن العبودية لا يمكن أن تحدث ولو باتفاقيات لأنها منافية لنظام الطبيعة، وللطبيعة الإنسانية ولسنن الطبيعة ولقانون الطبيعة.

-لكن غروسيوس يستخلص حقا آخر للإستعباد، والذي يكون نتيجة من الحروب، وأخذ المغلوبين كعبيد، ومن ثمة فإن العبيد يفقد حريته لكنه يسترد حياته. فإن القوة التي يؤسس عليها غروسيوس هذا الحق، هو حق تعسفي مبني على القهر والتسلط، لأن القوة

¹ -جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 86

² - JEAN JACQUES ROUSSEAU, DU CONTRAT SOCIAL OU PRINCIPE DU DROIT POLITIQUE e d : Gallimard, PARIS, 1975. p14

³ - جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، الصفحة نفسها

شيء متغير ونسبي وغير ثابت وزئبقي، ولا يمكن أن نؤسس الحق إذن على شيء متغير ونسبي. حيث يقول روسو في هذا الشأن: "يستخلص غروسيوس وآخرون غيره من الحرب أصلا آخر لحق الاستعباد المزعوم. فلما كان للغالب في رأيهم حق قتل المغلوب. جاز للمغلوب أن يسترد حياته بخسران حريته ثمنا لها".¹

وإن الاستعباد هنا يقوم على الحرب، والحرب تقوم على القوة: والقوة هي شيء نسبي ومتغير، وهذا الشيء هو أمر تعسفي ومناف للطبيعة البشرية حسب روسو: لأن الإنسان حسب روسو حر، وخير وطيب بطبعه لا يمكن أن يؤدي أقرانه من البشر، فإنه رؤوف بأقرانه من البشر يتألم عندما يراهم يتألمون، ولا يمكن له أن يعتدي عليهم أو حتى إيذائهم. وإن هذا التعاقد يكسب ويزداد مشروعية بمقدار ما يتحول لصالح الطرفين. بيد أنه واضح أن هذا الحق المزعوم في الإجهاز على المغلوبين، لا ينشأ بأي حال من الأحوال من حال الحرب".²

وإن حالة الحرب حسب روسو لم تكن علامة الحالة الطبيعية أبدا، وإنما وجدت مع ظهور المجتمع السياسي الفاسد، وظهور الملكية الفردية والإنسان التاريخي ومن ثمة الصراع على من يملك أكثر ويسيطر على الآخرين، ويستغلهم أشد إستغلال ويستعبدتهم وأصبح الإنسان يعيش في حالة إغتراب وإضطهاد، "فإذا كان الناس يعيشون على استقلالهم البدائي، لم يكن بينهم أبدا ما يكفي من العلاقات الثابتة، لتكوين حالة من السلام ولا حالة من الحرب، وبسبب ذلك فقط محال، قطعا، أن يكون بعضهم أعداء بعض".¹ وإنه من الواضح أن هذا الحق المزعوم في قتل المهزومين، لا ينتج بأي صورة عن حالة الطور الطبيعي

¹ - جان جاك روسو، المصدر نفسه، ص 86

² - JEAN JACQUES ROUSSEAU, DU CONTRAT SOCIAL, ED LODYSSEE Alger, ALGERIE, S.D.E, p15

¹ - جان جاك روسو، في العقد الإجتماعي، مصدر سابق، ص 87

الأول، لأن الحرب والنزاعات هي من سمات الطور المدني. وإن القوة هي العنصر الوحيد الذي يسير هذه الحالة أي (حالة الحرب التي نادى إليها هوبز). وإن السيطرة والتسلط والقهر هم نتيجة هذا الصراع والاقتتال، والفوضى العارمة التي تنتج عن حالة الحرب.¹

إن العلاقة بين الأشياء لا بين البشر هي التي تشكل الحرب، ولما كانت حالة الحرب لا يمكن أن تنشأ عن مجرد العلاقات الشخصية، بل فحسب عن العلاقات الواقعية فإن الحرب الخاصة أو حرب الإنسان لإنسان، لا يمكن أن توجد لأنه في الحالة الطبيعية لم تكن هناك ملكية خاصة، والتي هي السبب في الصراعات والنزاعات. حيث يقول روسو في هذا الشأن: "إنما العلاقة بين الأشياء. لا العلاقة بين البشر، هي التي تكون الحرب ولما كان ممتنعاً أن تنشأ الحرب من مجرد العلاقات الشخصية البسيطة، وإنما من العلاقات الحاصلة فعلاً، فإن الحرب الخصوصية، أو حرب إنسان مع إنسان لا يمكن أن توجد، لا في حالة الطبيعة. حيث لا وجود أبداً لملكية قارة، ولا في الحالة الاجتماعية حيث يدخل كل شيء تحت طائلة القوانين."²

إن الحروب هي علاقة دولة بدولة، فإنها لم تكن أبداً علاقة إنسان بإنسان، فعداوة الناس فيما بينهم إن وجدت في فترات زمنية من التاريخ، فهي أشياء عرضية وليست جوهرية. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وإن فليست الحروب، أبداً، علاقة إنسان بإنسان، وإنما علاقة دولة بدولة، والتي لا يكون الأشخاص فيها أعداء بعضهم لبعض إلا بالعرض، فلا يأتون ذلك أبداً بوصفهم بشراً، ولا حتى بوصفهم مواطنين، ولكن بوصفهم جنوداً، ولا يأتون ذلك أبداً، بوصفهم أعضاء في البلاد بل بوصفهم مدافعين عنه."¹، وأن

¹- محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص226

²-جان جاك روسو ، المصدر نفسه ، الصفحة نفسها

¹ – JEAN JACQUE ROUSSEAU, DU CONTRAT SOCIAL, Ed :Flammarion , PARIS ,1967.p15.

المواطنين عندما يدافعون عن وطنهم وعن دولتهم في هذه الحالة: يكونون بمثابة جنود، لردع الخطر الذي يأتي من الخارج، والذي يشكل خطرا على حياتهم وأمنهم و أملاكهم." ثم أنه يمتنع أن يكون أعداء الدولة أيا كانت، شيئا آخر سوى دول أخرى مثيلة، أي يمتنع أن يكونوا بين سائر البشر. وذلك باعتبار أنه لا يمكن أن نرسي أي علاقة حقيقية بين أشياء مختلفة الطبائع.¹

إضافة إلى ذلك إن هذا المبدأ مطابق ومتناسق مع القواعد العملية المقررة في جميع الأزمنة و الأوقات، ومطابق للعادات الجارية لدى جميع الشعوب المنضبطة بنظام المدينة. وليست إعلانات الحرب إنذارات للدول بقدر ما هي إنذارات لرعاياها، أكثر منها للحكومات. "أما الشخص الأجنبي سواء أكان ملكا أو شخصا عاديا، أو شعبا فيسرق أو يسجن الرعايا، دون أن يعلن الحرب على الأمير، فلا يعد عدوا، بل قاطع طارق. إن أميرا عادلا في أوج الحرب ببلاد العدو، يستولي بلا شك على كل ما يعود للعموم. في تلك البلاد، ولكنه يحترم ذات الخواص وممتلكاتهم: إنه يحترم حقوقا تتأسس عليها حقوقه. وإذ كانت الغاية من الحرب تدمير الدولة العدو.² وإن غاية الأمير العادل في هذه الحرب هي السيطرة على الدولة العدو، وليست القضاء على الشعوب الموجودة في تلك الدول و الأمم. ويقول أيضا روسو في هذا الصدد: "فلنا حق قتل المدافعين عنها طالما حملوا السلاح بين أيديهم. فإن هم ألقوا السلاح واستسلموا. زالت عنهم صفة العدو أو صفة صنيعه العدو. وعادوا من جديد مجرد بشر من الناس ليس إلا-فينتهي الحق الذي لنا على حياتهم. ومن الممكن أحيانا إماتة الدولة من غير إماتة عضو واحد من أعضائها." ¹. وعليه فإن الحرب لا تمنح أي حق لا يكون ضروريا لتحقيق هدفها لذلك ليست هذه المبادئ مبادئ غروسيوس. وأنها ليست مبنية على

¹ -جان جاك روسو ، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص88

² - جان جاك روسو ،المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

¹ - جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص88

حجج الشعراء. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "إذا فالحرب لا تجوز أي حق إلا و كان ضروريا لتحقيق هدفها . فهذه المبادئ ليست مبادئ "غروسيوس". ولا هي مؤسسة على سلطات الشعراء. وإنما هي تتجم من طبيعة الأشياء ، وترتكز على أسس العقل. وأما بالنسبة لحق الغزو، فلا يوجد أي أساس له إلا قانون الأقوى".¹

إن الحرب لا تجيز للغالب الحق في قتل، و تدمير الشعوب المغلوبة و الخاسرة في الحرب. فلا يجوز لحق كهذا الحق التعسفي تدمير الشعوب، و لا يتمتع به الغالب ولا يمكن أن يؤسس لحق استعباد واسترقاق تلك الشعوب والسيطرة عليهم. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وإذا كانت الحرب لا تخول للغالب الحق في قتل الشعوب المغلوبة فلا يجوز لحق كهذا، لا يتمتع به الغالب، أن يؤسس لحق استعباد تلك الشعوب فليس من قبيل الحق أن يقتل العدو عندما يكون في المستطاع أن يجعله عبدا".²، إن القوة هي التي تفرض هذه المبادلة الجائرة والظالمة بين حق إبادة الشعوب وقتلهم أو استعبادهم واسترقاقهم. "وهكذا فإن الحق في استعباده لا يتأتى من الحق في قتله: وإنما إذن لمبادلة جائرة، أن يحمل المغلوب على دفع حريته ثمنا لشراء حياته، التي ليس هناك من حق عليها أيا كان. وإذ نحن أرسينا حق الحياة والموت على أساس حق الاستعباد، وأرسينا حق الاستعباد على أساس حق الحياة والموت. أليس بيننا أننا نقع في الدور؟"¹

فحتى مع افتراض هذا الحق التعسفي الرهيب والغير طبيعي، و الغير منطقي والعبثي في قتل كل شيء، فإن الشخص المستعبد في الحرب أو الشعب المهزوم لا يربطه ولا يقيدته أي شيء أبدا تجاه سيده، إلا الطاعة بقدر ما يكون مكرها عليها.ومن المستحيل ان يكون

¹ – JEAN JACQUE ROUSSEAU, DU CONTRAT SOCIAL, PARIS, Ed : Gallimard, PARIS, 1998. P15.

² – جان جاك روسو، المصدر نفسه ، ص 89.

¹ – جان جاك روسو، في العقد الإجتماعي، مصدر سابق، ص 89.

الانسان عبدا حتى ولو أراد ذلك ¹، حيث يقول روسو في هذا الصدد: "فهب جدلا قيام هذا الحق المرعب في قتل جميع الناس آنئذ أن من يصير عبدا بالحرب، وأن شعبا مغلوبا بالحرب والغزو، ليس كلاهما ملزما بأي شيء إزاء سيده خلا أن يطيعه طالما كان مكرها على ذلك، فإن الغالب لما أخذ من المغلوب مكافئا لحياته لم ينعم بها عليه: وإنما بدل أن يقتله، من دون غنيمة يغنمها منه أماته بطريقة نافعة. وحال الغالب أنه يظل هكذا قاصرا عن كسب أي سلطة تضاف إلى القوة." ²، وهذا ما يجعل حالة الحرب باقية بينهما كما في السابق وعلاقتهما نفسها، هي الأثر الدال على ذلك واستخدام حق الحرب لا يفترض أي معاهدة سلم. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "ظلت إذن حالة الحرب قائمة بينهما كما كانت من قبل، وحتى العلاقة بينهما إنما هي نتيجة تلك الحالة، وممارسة حق الحرب لا تفترض قيام أي معاهدة سلام. لقد أبرما اتفاقية، فليكن ذلك، ولكن هذه الاتفاقية، وهي القاصرة عن تبديد حالة الحرب إنما تفترض استمرارها." ³

هكذا فإن حق الاستعباد والاسترقاق من أية زاوية نظرنا إلى الأمور حق باطل، و تعسفي وغير طبيعي ومنافي للسنة الطبيعية و القانون الطبيعي، ومناف للعقل والمنطق وحتى الأديان والشرائع السماوية، ليس فحسب لأنه غير شرعي، وأنه محال ولا يعني شيئا. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "هكذا ومن أي جهة أو بأي معنى من المعاني نفحص هذه الأمور. كان حق الاستعباد باطلا ، لا لأنه غير مشروع فحسب. وإنما أيضا لأنه غير معقول وعبثي ، ولا يعني شيئا ، و إن كلمات عبد وحق ، متناقضتان تطرد كلتاها الأخرى طردا متبادلا." ¹

¹-محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص299

²- جان جاك روسو : المصدر نفسه ص 89.

³-جان جاك روسو : المصدر نفسه، الصفحة نفسها

¹ - JEAN JACQUE ROUSSEAU, DU CONTRAT SOCIAL-LES ECRITS POLITIQUES ,
Ed : Gallimard, PARIS,1999 , P15.

وسواء أكان الأمر من إنسان إلى إنسان آخر، أم من فرد إلى شعب، وأي كان مصدر هذا القرار التعسفي فإن الاستعباد والعبودية شيء منافي للطبيعة البشرية وللعقل والمنطق وللشرائع السماوية، فروسو يرفض أن يكون هناك أسياد بالطبيعة وعبيد بالطبيعة أو بواسطة الاتفاقيات والمعاهدات: حيث يقول روسو في هذا الشأن: "وإذا ما خاطب الإنسان إنساناً، أو خاطب إنسان شعباً قائلاً: "واني أقيم معك اتفاقية عليك أنت كل وزرها، ولي أنا كل نفعها. أرهاها أنا ما طاب لي الأمر. وترعاها أنت ما طاب لي الأمر أيضاً، لضل هذا القول قولاً كذلك منافياً للصواب".¹، إن روسو يرفض العبودية والاستعباد والاسترقاق جملة وتفصيلاً، لا القائم على القوة ولا الذي يقوم على أساس الاتفاقيات، ولا يمكن لأي اتفاقية تعسفية وعبثية كهذه أن تكون أو أن تتحقق في أمر الواقع.

6- إلزامية الرجوع إلى اتفاقية أو معاهدة أولى:

يرى روسو بأنه يلزمنا أن نعود إلى إتفاقية أولى:- لكي يتم التأسيس للجهاز الاصطناعي أو للجهاز السياسي أو الدولة، لأنه من دون ذلك سوف تحدث فوضى، كما يرى هوبز عند حديثه عن حالة الحرب التي تسبق تأسيس المجتمع المدني. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "حتى لئن سلمت بكل ما رفضته إلى حد الآن. فلن يتقدم صناع الاستبداد شوطاً أكبر إلى الأمام. سوف يكون هناك فرق و اختلاف كبير بين إخضاع جمع من الناس وقيادة المجتمع".¹

ومن ثمة فإن السلطان لا يستطيع مثلاً أن يكسر مبدأ الحرية والمساواة والعدالة، وتكافؤ الفرص بين المواطنين، وكذلك لا يمكنه الاعتداء على الحريات أو تقييدها بسبب لا

¹ -جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 90

¹ -جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 90

يمت للصالح العام والخير العام بصله، وهو حين يفعل ذلك لا يعبر عن الإرادة العامة أو عن الشعب¹، "فأما أن يتحول شتات من البشر الواحد بعد الآخر، وبالغا ما بلغ عددهم، إلى صنّعة شخص بمفرده فليس ما أرى ها هنا سوى سيد وعبيد، ولا أرى أبدا شعبا ورئيسه. هذا ما يجوز أن يكون تكتلا، ولكن لا يجوز أن يكون اجتماعا، إذ لا وجود فيه لا لخير عمومي ولا لجسم سياسي".²

إن المصلحة العامة والمنفعة المشتركة، والخير العام وتحقيق الأمن والسلم الداخلي والخارجي: هي الهدف الأسمى من تأسيس الدولة³، وأجهزتها لكي تسهر على تأديتها بأفضل طريقة، وعلى أحسن وجه فإذا لم تؤدي هذا الواجب فإنها ستسقط حتما و بصفة كاملة وإن العلاقة بين المواطنين و الدولة هي علاقة منفعة. حيث يقول روسو في هذا الشأن: "وهذا البشر يضل شخصا جزئيا، ولو استبعد نصف البشرية فإذا انفصلت مصلحته عن مصلحة الآخرين، ظلت دائما مصلحة خاصة لا غير. فإذا حدث أن هلك هذا الشخص بعينه ظلت مملكته مشتتة بعده، وبلا لحمه كبلوط ينحل ويتهاوى مثل كومة من رماد بعد أن أئت عليه النار".⁴

وإن المصلحة العامة هي اللحمة والرابطة التي تربط أفراد المجتمع، فعندما تسقط المنفعة والخير العام تصبح العلاقة بين أفراد المجتمع هشة ومشتتة، ومعرضة لحدوث فوضى عارمة و إن الدولة ستكون معرضة للسقوط، و الاندثار و التلاشي و الخراب و تؤول إلى حالة الحرب التي تحدث عنها هوبز. "ومعنى ذلك إذن" يقول "غروسيوس" أنه من الجائز للشعب أن يهب نفسه للملك، ومعنى ذلك إذن في رأي

¹-محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 304

²-جان جاك روسو : _المصدر نفسه: ص 90

³-محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 297

⁴-جان جاك روسو ، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 90

غروسيوس، إنما الشعب هو شعب قبل أن يهب نفسه للملك. و إلا أن هذه الهبة لهي في حد ذاتها فعل مدني يفترض مشاوره عمومية. ولذا يحسن بنا ، قبل أن ننظر في الإجراء الذي بمقتضاه ينتخب الشعب ملكا ، أن نبدأ بدراسة الفعل والإجراء الذي بمقتضاه يكون الشعب شعبا.¹

- هنا غروسيوس لا يختلف كثيرا عن هوبز في نظريته في الحكم المطلق،

عندما يتنازل الشعب عن جميع حقوقه الطبيعية لصالح الحاكم و من ثمة تصبح سلطة الحاكم مطلقة، وأن الحاكم غير ملزم بمواد العقد الاجتماعي: لأنه لم يكن طرفا في العقد. "وسببه أنه له لما كان هذا الفعل سابقا بالضرورة على ذاك، كان الأساس الحقيقي للمجتمع. أجل إذا لم توجد اتفاقية سابقة قط، فما الذي يسوغ إلزام الأقلية بالخضوع لاختيار الأكثرية، اللهم إن يحصل الانتخاب بالإجماع؟"²

هنا يعود روسو الى فكرة الترخيص بالتصويت، و إلى الرجوع إلى فكرة الاتفاقية الأولى وإلى الرضا و فكرة الميثاق، و فكرة التعاقد بين الشعب لتأسيس دولة ومؤسسات شرعية تبنى عليها هذه الدولة المنبثقة من العقد الاجتماعي. حيث يقول روسو في هذا الشأن: "وكيف يحق لمائة شخص يريدون سيذا عليهم، أن تعبر أصواتهم عن أصوات عشرة أشخاص آخرين لا يريدونه سيذا عليهم مطلقا؟ إن قانون أكثرية الأصوات قائم هو بالذات بمقتضى اتفاقية، ويفترض أن الإجماع قد حصل ولو مرة واحدة."¹

(7)- في العقد الاجتماعي:

¹-ROUSSEAU JEAN JACQUES , DU CONTRAT SOCIAL Ed : Gallimard, PARIS,1969.P16

²-جان جاك روسو ، المصدر نفسه، ص 91

¹- جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ، ص 91

إن روسو في كتابه العقد الاجتماعي يرى أن الهدف الرئيسي والأساسي، من كل هذا: ليس هدم المجتمع المتحضر والمجتمع السياسي الفاسد، وإنما إعادة بناء مجتمع سياسي فاضل يقوم على العقد الاجتماعي و الحرية والترخيص والرضا،¹ ومبني على المساواة والعدالة والحرية وعلى تكافؤ الفرص لا على القوة والاستغلال والتفاوت. "ولكنه يعني بالضبط تلمس الطبيعة و قوانينها في ثنايا المجتمع، وبمعنى آخر فقد رأى أنه من الاستحالة العودة إلى حالة الطبيعة، بالنسبة للمجتمع المتحضر فالعصر الذهبي للمساواة و العدالة هو حلم جميل، ولكنه لا يمثل أمنية قابلة للتحقيق، ومع ذلك يمكن أن نعتبر حالة الطبيعة كمعيار ثابت تصحح على أساسه حالة المجتمع المتحضر، والمجتمع السياسي الفاسد و تنطلق منه نحو بناء اجتماعي أقرب ما يكون إلى السلامة"².

وهذا لا يحدث إلا بواسطة العقد الاجتماعي لتصحيح الحضارة والمجتمع السياسي الفاسد. "حيث كان لابد إذن من البحث عن شكل من الاجتماع يستهدف حماية شخص كل عضو وأمواله. وهذا الشكل من الاجتماع يكون فيه كل عضو و قد إتحّد مع الأعضاء الآخرين، غير خاضع مع ذلك إلا إلى نفسه . تلك هي المشكلة الحقيقية و الرئيسية التي يبحث العقد الاجتماعي عن الحل الصحيح لها، فكأن العقد الاجتماعي هو الذي ينهي حالة الطبيعة، ويعمل على إنشاء المجتمع حيث تصبح السيادة والسلطان من حق المجموع ككل لا من حق فرد واحد من الأفراد على حدة، إذ يتنازل كل فرد عن نفسه وعن حقوقه للمجتمع كله."¹ و إن روسو يفترض: بأن الناس وقد وصلوا إلى ذلك الحد الذي تغلبت فيه العقوبات التي تعيق و تمس، و تضر ببقائهم ووجودهم: في حالة الطبيعة بمقاومتها على القوى التي يستطيع كل فرد، استعمالها من أجل استمراره في

¹ -محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 296

² -محمد علي عبد المعطي، المرجع نفسه، الصفحة نفسها

¹ - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 297

تلك الحالة. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "إنني لأفترض أن البشر قد بلغوا تلك النقطة التي بدت فيها العوائق الضارة ببقائهم في حالة الطبيعة، وقد تغلبت بما لها من مقاومة، على القوى التي يمكن لكل فرد أن يستخدمها ليدوم في تلك الحالة."¹

كان لابد من الخروج من تلك الحالة لأن العوائق، و السلبيات بدأت تجلياتها تظهر وكان هناك خطر كبير، و فوضى عارمة كانت تحقق بتلك الحالة الطبيعية. ويقول روسو أيضا في هذا الشأن: "وعندئذ لم يعد ممكنا لهذه الحالة البدائية أن تدوم، أما الجنس البشري فكان سيهلك ما لم يكن قد غير طريقته في الوجود، و لكن الحال أن البشر لا يستطيعون إنتاج قوى جديدة. وإنما يمكنهم فقط أن يتحدوا ويسيروا الموجود من القوى."²

وإن الاتحاد في تكتلات ومن ثمة إنشاء قوى جديدة، ومؤسسات سياسية جديدة بديلة، ومجتمع سياسي جديد ومجتمع سياسي فاضل لحماية أنفسهم، والإبقاء على وجودهم³. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "ولم يبق لهم من وسيلة للإبقاء على أنفسهم، إلا أن يشكلوا بتكتلاتهم مجموع قوى يمكنها التغلب على المقاومة، و يمكنها أن تدفع بهذه القوى إلى الحركة بدافع واحد و أن تجعلها تفعل وتعمل بالتناسق بينها."⁴ وإن هذه الحركة و هذا التلاحم والتناسق والانسجام: هو الذي سيضمن لهم البقاء، والمحافظة على حقوقهم الطبيعية التي كانت مهددة من ذي قبل. ويقول أيضا روسو في هذا الشأن: "ليس ممكنا لمجموع القوى أن ينشأ إلا بتعاون الآخرين، ولكن، بما أن قوة كل واحد من البشر و حريته هما أول ما له من وسائل لبقائه، فكيف له أن يرهنهما من دون أن يسيء إلى نفسه، ومن دون أن يخل بما يجب عليه عناية تجاه شخصه؟".¹

¹ -جان جاك روسو ، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 92.

² - جان جاك روسو، المصدر نفسه ، الصرفة نفسها

³ -محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 297

⁴ - جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ، ص 92

¹ -جان جاك روسو ، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 93

- هذه الصعوبة يمكن وضعها: في حدود علاقتها بالموضوع الذي روسو بصدد دراسته، حيث يريد إيجاد شكل من الاتحاد ومن الانسجام يدافع، ويحمي كل القوة الجماعية و المشتركة في ظل العقد الاجتماعي، والمبني على أساس الحرية و الرضا والمساواة: حيث يقول روسو في هذا الصدد: "إن هذه المشكلة إذا ما ألحقت بالموضوع الذي أنا بصددده أمكن عرضهما كما يلي: المطلوب هو الاهتداء إلى شكل من الاجتماع، الذي من شأنه أن يدافع عن شخص كل شريك فيه، وعن أملاكه وأن يحميها بكل من يتوفر من قوة مشتركة، و إذ يتحد بمقتضاه كل واحد مع الجميع فإنه مع ذلك، لا يطيع إلا نفسه، ويظل حرا كما كان قبلئذ، هذا هو المشكل الأساسي الذي تكفل **العقد الاجتماعي** بحله.¹"

لا يوجد إلا عقدا واحد وميثاق واحد و هو **ميثاق الجميع مع الجميع** ، و استسلام الإرادة الفردية لإرادة عامة و واحدة، و القانون هو التعبير عن هذه الإرادة العامة. ولا سيادة إلا سيادتها على شرط أن تنتج عنها قوانين صالحة تستهدف المصلحة العامة والخير العام، ومصلحة جميع المواطنين، و ألا تعارض هذه القوانين قوانين الطبيعة و فوائدها ولذا يتمتع على أي قانون يضطهد المواطن بوجه من الوجوه، و أن العلاقة بين الأفراد و الدولة يجب أن تكون مباشرة ولكن السلطان الذي يمارس السلطة العامة له حدود، لا يجب أن يتعدها لأن كل فرد عندما تنازل للهيئة الاجتماعية عن حريته، وماله من الحقوق إنما كان يهدف إلى توجيه كل ذلك لصالح العام الذي يعد صالحه هو نفسه وكل ما يتماشى مع نصوص العقد الاجتماعي¹، في نفس الوقت وعلى ذلك فالهيئة الاجتماعية يجب إذن أن توجه سلطاتها إلى كل ما فيه صالح مصلحة الشعب، وكل ما يتماشى مع نصوص العقد الاجتماعي.

¹ - جان جاك روسو، المصدر نفسه ، الصرفة نفسها

¹ - محمد علي عبد المعطي ، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 300

وإن شروط العقد معينة: وبطريقة محكمة بطبيعة عمل التعاقد، وأي تعديل صغير يحصل فيها سيجعلها ملغاة، وباطلة المفعول وغير شرعية، وغير صالحة. حيث يقول روسو في هذا الشأن: "وإن هذا العقد لمعينة شروطه غاية التعيين بطبيعة فعل "التعاقد"، حتى أن أقل تعديل يطرأ عليه يجعلها بلا جدوى ويبطل مفعولها، أما تلك الشروط، وإن لم يصرح بها علانية قط، فإنها هي عينها في كل مكان، هي عينها مسلم، ومعتترف بها ضمناً في كل مكان، إلى حين أن ينتهك العقد الاجتماعي، إذ ذاك يستأنف كل واحد حقوقه الأولى، ويستعيد حريته الطبيعية بما أنه فقد الحرية المستحدثة بالاتفاق التي لأجلها تنازل عن تلك".¹

ومن ثم فالسلطان لا يستطيع مثلاً أن يكسر مبدأ المساواة، وتكافؤ الفرص بين المواطنين، وكذلك لا يمكنه الاعتداء على الحريات أو تقييدها، بسبب لا يمت للصالح العام والخير العام والمنفعة العامة بصلة وهو حين يفعل ذلك لا يعبر عن الإرادة العامة أو عن الشعب.² و للعقد الاجتماعي شروط لا يمكن التغاضي عنها بصفة أو بأخرى، وهذه الشروط يمكن حصرها جميعاً في شرط واحد: ألا وهو التنازل الكامل من جانب كل مشارك عن كل حقوقه للجماعة كلها. إذ يتنازل كل فرد عن نفسه وعن حقوقه للمجتمع كله، حيث يقول روسو في هذا الصدد: "ومن المعلوم أن هذه الشروط تختزل جميعها في شرط واحد:- ألا وهو أن يتنازل كل شريك في الاجتماع عن شخصه، وعن جميع حقوقه تنازلاً تاماً للمجموعة كلها. وذلك أولاً، لأن كل واحد إذ وهب شخصه بتمامه وكماله، كان الشرط متساوياً بين الجميع، وإذا كان الشرط متساوياً بين الجميع، لا أحد له مصلحة في جعل وطأة الشرط تقع على الآخرين وحدهم".¹

¹ جان جاك روسو ، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 93

² - محمد علي عبد المعطي ، الفكر السياسي الغربي، ص 298

¹ - جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 94

وتتحقق المساواة والعدالة في ثنايا العقد الاجتماعي، لأن الأفراد بردهم أنفسهم وكل حقوقهم إلى المجتمع يعودون الى نقطة الصفر، وتتحقق المساواة التامة بينهم والحرية، كما أن إتحادهم يكون كاملا بالإطلاق، و لا يسمح بأي أفضلية لأي فرد على آخر¹. و هكذا تتحقق المساواة التامة والعدالة كما تتحقق الحرية، فعندما يتم التنازل بلا تحفظ: فإن الاتحاد فضلا عن ذلك: يكون أكمل ما يمكن أن يكون، و لا يبقى لأحد شيء يطالب به. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "أما و التنازل يحصل من دون تحفظ، فإن الاتحاد يكون على أفضل حال يمكنه أن يكون عليه، ولم يعد لأي شريك من شيء يطالب به. ذلك أنه لو بقي لبعض الأشخاص حقوق، والحال أنه قد لا يوجد أبدا وازع أعلى مشترك، يفصل بينهم وبين العموم، فإن واحد لما كان حكما على نفسه بنحو من الأنحاء، سيدعي أنه كان حكما على الجميع، وهكذا تتوهم حالة الطبيعة، و يصير الاجتماع بالضرورة إما طغيانا إما غير مجد".²

ولما كان كل شخص يضع نفسه للجميع، فإنه من ثمة لا يضع نفسه لأي شخص آخر، أي أنه يستحيل أن يضع الإنسان حريته تحت تصرف شخص آخر، أو فرد أو ملك أو سلطان. و النتيجة هي حصوله على الحرية التامة و العامة، فثمة فرق إذن: - بين أن يتقيد الإنسان بإنسان آخر، وبين أن يتقيد بالكل الذي هو جزء فيه. وأخيرا فإن كل واحد إذ يهب نفسه للجميع: فإنه لا يهب نفسه لأحد. حيث يقول روسو في هذا الشأن: "وفي الأخير إذ يهب كل واحد من الأشخاص شخصه للجميع، فإنه لا يهب لأحد بعينه، وبما أنه ليس هناك من شريك إلا ولنا عليه عين الحق لما عنه نتنازل له من ذواتنا نحن. فإننا نريح مكافئ كل ما نخسر، بل ونريح مزيدا من القوة لحفظ ما نملك".¹

¹- محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، الصفحة نفسها

²- جان جاك روسو، المصدر نفسه، الصفحة نفسها

¹- جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 95

وبما أن الإرادة العامة تمثل السيادة، فإن أي تعبير لا يحقق المنفعة العامة والخير العام، والمصلحة العامة لا يكون معبرا عن الإرادة، ومن ثمة يفقد صفة السيادة¹، وإن الإرادة العامة:- هي الحدود الأساسية للعقد الاجتماعي، و هي التي ستسير السلطة حيث تكون هذه السلطة شرعية، و منبثقة من الشعب فيما بعد. حيث يقول "روسو" في هذا الصدد: " فإذا ما أزعنا جانبا عن الميثاق الاجتماعي ما ليس من ماهيته، وجدناها مقصورا على الحدود الآتية:" يضع كل واحد منا شخصه، وكل قدرته موضع اشتراك تحت الإمرة العليا التي للإرادة العامة، ونحن نتقبل كجسم واحد كل عضو كجزء لا يتجزأ من الكل."²

هنا يتنازل الأشخاص عن إرادتهم الجزئية لصالح الإرادة الكلية، والتي هي الإرادة العامة: حيث يصحرون إرادتهم في بوتقة الإرادة العامة.³ فعندما يطيع المواطن القانون، فإنه يخضع لإرادته هو نظرا لأن القانون يصدر من الإرادة العامة والذي هو جزء منها. "وبدلا من الشخص المفرد لكل متعاقد ينتج من هذا العقد الاتحادي في الحال هيئة معنوية، وجماعية مؤلفة من عدد الأعضاء مقدارهم مقدار الأصوات التي للجمعية، جسما يستمد من هذا الفعل بعينه وحدته وذاته المشتركة، وحياته وإرادته."¹

هذا الشخص المعنوي، أو الجهاز الاصطناعي: كما يسميه هوبز، كان يسمى قديما بالمدينة سيأخذ فيما بعد إسم الجمهورية أو الجسم السياسي. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "إن هذا الشخص العمومي الذي يتكون على هذا النحو من إتحاد جميع الأشخاص

¹- محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 303

²- جان جاك روسو، المصدر نفسه، ص 95

³- محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، الصفحة نفسها

¹- جان جاك روسو، المصدر نفسه، الصفحة نفسها

الآخرين، وكان يحمل قديما إسم المدينة ويحمل الآن إسم الجمهورية أو الجسم السياسي: هذا الجسم هو ما يسميه أعضاؤه الدولة إذا كان منفعلا، وصاحب سيادة إذا كان فاعلا، وقوة إذا ما قسناه على أمثاله.¹

أما المتعاقدون فيطلق عليهم جماعيا إسم الشعب أو إسم المواطنين، لأنهم سيشاركون في السلطة السيادية، وفي تسيير الشؤون العامة للمجتمع ومؤسسات الدولة. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وأما المشاركون فيطلق عليهم جماعيا إسم الشعب، ويطلق عليهم إسم المواطنين من حيث هم مشاركون في السلطة السيادية، ورعايا من حيث هم خاضعين لقوانين الدولة. ولكن غالبا ما تختلط هذه الأفراد بعضها البعض، ويحل استعمال الواحد منها الآخر، ولذلك يكفي أن نجيد التمييز بينها في سياق استعمالها الدقيق بالدقة وبكلية متناهية."²

(3) - الإرادة العامة والسيادة:

(1) - في صاحب السيادة:

يعالج روسو هنا في الفصل السابع: الموسوم ب: في صاحب السيادة: مسألة الإلزام السياسي بين المواطنين والسلطة السيادية، أي مسألة الطاعة والخضوع للسلطة الشرعية المنبثقة من العقد الاجتماعي، ومن الشعب الذي له السلطة السيادية العليا في الدولة، "لأن الشعب هو صاحب السيادة"¹، والذي يعتبر بأنه مصدر السلطة العليا، فكون المواطن عضوا

¹ - JEAN JACQUES ROUSSEAU, OEUVRES COMPLETES, VOL3, DU CONTRAT SOCIAL ECRITS POLITIQUES, Ed :Flammarion ,PARIS ,1975.P18

² - ROUSSEAU JEAN JACQUES , DU CONTRAT SOCIAL , Ed :Flammarion, PARIS,1952, P18.

¹ - فضل الله محمد إسماعيل، الأصول اليونانية للفكر السياسي الغربي الحديث، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، دار بستان المعرفة للطبع و النشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2001، ص28.

صاحب السيادة وعضوا في الدولة، فهنا الإلزام يتضمن علاقة مزدوجة ومتبادلة. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "يتضح لنا من صيغة هذا العقد الاجتماعي، أنها تنطوي على التزام متبادل من الشعب و الأفراد، وأن كل فرد، وكأنه يتعاقد مع نفسه إذا صح القول. يجد نفسه مرتبطا بالتزام مزدوج: فمن جهة كونه عضوا صاحب السيادة، يكون ملزما تجاه الأشخاص، ومن جهة كونه عضوا في الدولة، يكون ملزما تجاه صاحب السيادة".¹

فعندما يكون المرء هو الذي يشرع لنفسه القوانين: فإنه لا بد عليه أن يطيع القوانين، ويكون ملزما بطاعة هذه القوانين: التي سنّها هو بنفسه ولنفسه، لأنه هو صاحب القرار. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "ولكن قاعدة الحق المدني القائلة بأن لا أحد "مطالب باحترام الالتزامات التي أخذها مع نفسه هو بالذات، إنما هي قاعدة لا تنطبق في هذا المقام لأن هناك فرقا بين التزام المرء تجاه ذاته، والتزامه اتجاه كل من ينتمي إليه كجزء منه".²

وإن القانون عند روسو ما هو إلا فعل الإرادة العامة وحدها. ومن هنا فإن القانون ليس له معنى غير السيادة، وإن أية قواعد أو أوامر صادرة عن أي سلطة أخرى، غير سلطة السيادة المعبرة عن إرادة الشعب الكلية العامة والشاملة، لا يكون لها صفة القانون.

كما أن أية قواعد أو أوامر تمس مصالح الشعب، و تقوض المنفعة العامة والصالح العام لا يكون لها صفة القانون، حتى ولو كانت صادرة عن السيادة. و نرى أنه لا يوجد ولا يمكن أن يوجد أي نوع من القانون الأساسي الذي يعتبر ملزما لهيئة الشعب، حتى وإن كان العقد الاجتماعي. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "إذ لا يجوز لصاحب السيادة أن يعتبر إلا من جهة علاقة واحدة مماثلة، كان حينئذ في الحالة التي يكون عليها شخص متعاقد مع نفسه، فنرى جراء ذلك أنه لا يوجد، ولا يمكن

¹ -ROUSSEAU –JEAN JACQUES, DU CONTRAT SOCIAL OU PRINCIPES DE DROITS POLITIQUES, e d : Flammarion , PARIS , 1994. .P18.

²-جان جاك روسو، العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 96

أن يوجد أي قانون أساسي، مهما كان نوعه ملزم لجسم الشعب حتى لو كان العقد الاجتماعي بالذات.¹

يرى روسو أن الشعب هو السيد بالتعريف، وأن سيادته لا تباع ولا تشتري وغير قابلة للتحويل، أو التصرف فيها لأنها لا ترتبط بالوعود وليس في وسع الشعب التنازل عن السيادة، أو أن يتخفف منها. و لكن لما كانت السلطة السياسية، أو صاحب السيادة، لا يستمد كيانه إلا من قدسية العقد الاجتماعي، فإنه لا يمكنه إلزام نفسه. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "غير أن الجسم السياسي أو قل صاحب السيادة، وهو الذي لا يستمد بقاءه إلا من قدسية العقد، لا يمكنه أبدا أن يلزم نفسه، ولو كان ذلك تجاه غيره والآخرين، بما من شأنه أن يخالف هذا الإجراء الأصلي، كأن يتنازل عن جزء من نفسه هو بالذات أو كأن يخضع لصاحب سيادة آخر. ذلك أن إنتهاكه لحرمة العقد الذي يوجد بمقتضاه يعني تدمير نفسه. ومن لا يكون شيئا لا ينتج أي شيء".¹

وإن القوة العظمى والسلطة القصوى والسيادة الوحيدة، هي تلك التي أوجدها العقد الاجتماعي ونسبها الى الشعب كله، ذلك لأن الأفراد حينما يتنازلون عن حقوقهم فإنهم يتنازلون لصالح المجتمع كله وليس لفرد محدد، وما دامت هذه الجماعة قد إتحدت على هذا المنهج، فإنه لا يمكن الإساءة الى أحد أعضائها دون الهجوم على الهيئة². حيث يقول روسو في هذا الشأن: "وعندما يتحد هذا الجمع من الجمهور في شكل جسم على ذلك الشكل، لا يمكننا أن نسيء إلى أحد الأعضاء من دون أن نعتدي على الجسم بأكمله، و

¹ -ROUSSEAU JEAN JACQUE , ŒUVRES COMPLETES ,VOL 3- DU CONTRAT SOCIAL- ET ECRITS POLITIQUES -, ed : Gallimard, PARIS ,1975.P18.

¹-JEAN JACQUES ROUSSEAU, ŒUVRES COMPLETES VOL 3, DU CONTRAT SOCIAL-LES ECRITS POLITIQUES _ ed : Gallimard, PARIS ,1975.p18.

²-محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، ص303

الأقل إمكانا لنا من ذلك أن نسيء إلى الجسم، من غير أن يستشعر الأعضاء الضرر الذي يصيبهم.¹

إن هدف الإرادة العامة هي تحقيق المنفعة العامة، لا منفعة فرد واحد على حدة وهذه المنفعة العامة هي التي تجعل في الإمكان قيام الدولة، وكون أن صاحب السيادة: لا يتكون إلا من أفراد يؤلفونه، فليس له و لا يمكن أن تكون له مصلحة معاكسة لمصلحتهم². حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وهكذا فإن المصلحة والواجب يفرضان على الطرفين، أن يتعاونوا على حد، ويجب على هؤلاء الناس بالذات أن يسعوا، بإعتبار تلك العلاقة المزدوجة، إلى تحصيل جميع المزايا التي تنتج عنها".³

- وبما أن الإرادة العامة تمثل السيادة، فإن أي تعبير لا يحقق الصالح العام والمنفعة العامة والخير العام لا يكون معبرا عن الإرادة العامة، ومن ثمة يفقد صفة السيادة،- فلا يمكن على صاحب السيادة أن ينوي إلحاق الضرر بجميع أعضائه، لأنه هو عضو من هذا الجهاز الاصطناعي والجسم السياسي¹. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وبالنظر إذا كان صاحب السيادة لا يتكون إلا من الأفراد الذين يؤلفونه، فليس له مصالح تختلف عن مصالحهم، ولا يمكنه أن تكون له تلك المصالح، وبالنتيجة فإن القوة السيادية لا تحتاج أبدا إلى ضامن يضمنها تجاه الرعايا، فمحال على الجسم أن ينوي إلحاق الضرر بجميع

¹-جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 96.

²- محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، ص 297

³- ROUSSEAU –JEAN JACQUES , ŒUVRES COMPLETES VOL 3 DU CONTRAT SOCIAL-LES ECRITS POLITIQUES , ed : Gallimard, PARIS, 1961. P19.

¹- محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، ص 303

أعضائه، وسوف نرى فيما سيأتي قوله في أنه لا يمكنه أن يلحق الضرر بأي واحد منهم
شخصاً، شخصاً.¹

يرى روسو أن الشعب هو صاحب السيادة والسيد بالتعريف وأن سيادته كلية
وكاملة وشاملة غير قابلة للتجزئة أو التخفيف، لا تباع، ولا تشتري وغير قابلة للتحويل
أو التصرف فيها لأنها لا ترتبط بالوعود، وليس في وسع الشعب أن يتنازل عن السيادة
أو أن يتخفف منها، وهذه السيادة واحدة لا تتجزء.² فالأمر نفسه كذلك فيما يتعلق
بالمواطنين تجاه صاحب السيادة، الذي ليس هناك ما يكفل الوفاء بالتزاماتهم قبله. حيث
يقول روسو في هذا الشأن: "غير أن الأمر ليس على هذا الشكل من جهة علاقة
المواطنين بصاحب السيادة، فرغم المصلحة العامة فلا شيء يضمن إلتزاماتهم إتجاهه،
ما لم يهتد إلى وسائل بها إخلصهم".³، ويمكن أن تكون لكل شخص كإنسان إرادة
خاصة به، مخالفة للإرادة العامة التي له كمواطن، أو متناقضة معها فمصلحته
الخاصة: يمكن أن تفرض عليه أن يتصرف بما يخالف مع المصلحة العامة. حيث يقول
روسو في هذا الصدد: "والحقيقة أن كل فرد يمكنه، من جهة كونه إنساناً، أن تكون له
إرادة جزئية مضادة للإرادة العامة أو غير شبيهة بها، وهي الإرادة التي تحصل له على
كونه مواطناً. قد نتحدث إليه مصلحته الخاصة، بحديث مغاير للمصلحة العامة".¹

ولقد ميز بين الإرادة العامة وإرادة المجموع، فبينما إرادة المجموع لا تعدو أن
تكون الإرادات الخاصة الفردية، وأن لكل مواطن كونه إنسان حر يعيش في مجتمع عادل

¹-جان جاك روسو، في العقد الإجتماعي، مصدر سابق، ص 97

²- محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص302

³-JEAN JACQUES ROUSSEAU , DU CONTRAT SOCIAL, GENEVE, 1962.p19

¹-جان جاك روسو ، المصدر نفسه، الصرفحة نفسها

وفاضل، إرادة جزئية مستقلة عن الإرادات العامة¹. "وجوده المطلق والمستقل بصورة طبيعية يمكن أن يسول له، النظر ما يجب أن يؤديه للقضية المشتركة على أنه مساهمة من دون مقابل، يكون فقدانها أقل ضررا بالآخرين من كلفة الدفع بالنسبة له. و إذ ينظر إلى الشخص المعنوي الذي يكون الدولة ككائن عاقل، لأنه ليس إنسانا. فإنه قد يتمتع بحقوق المواطن دون الرغبة في القيام بواجبات كراعية، وهذا ظلم قد يسبب تزايد انحلال الهيئة السياسية."²

ولا يوجد إلا عقد واحد و ميثاق وحيد، هو ميثاق الجميع مع الجميع و استسلام الإرادة الفردية كلها لإرادة عامة واحدة، والقانون هو التعبير عن هذه الإرادة و لكي لا يصبح العقد الاجتماعي إذا صيغة باطلة، فإنه يحتوي ضمنا على هذا الالتزام: الذي يستطيع وحده إعطاء القوة للآخرين: ألا و هو أن كل من يرفض طاعة الإرادة العامة، سوف يرغب عليها من الهيئة كلها أي أن هناك سلطة سياسية ترغبه بالقوة على طاعة القوانين. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "لأجل أن لا يكون الميثاق الاجتماعي صيغة جوفاء غير مجدية، فإنه يضم، على نحو ضمني، التزاما - هو الالتزام الوحيد الذي يستطيع أن يعطي نفوذا لسائر الالتزامات الأخرى. مفاده أن كائنا ما كان الشخص الذي يمتنع عن طاعة الإرادة العامة، سوف يرغبه الجسم السياسي كله على ذلك."¹

إن القانون نتاج خالص لإرادة الشعب الكلية و العامة ولقد ظهر من الشعب و لأجله ومن ثمة فهو لا يهتم بالأشخاص، وحين يوضع القانون، فإنه لا يوضع في اعتباره الأشخاص و أفعالهم الخاصة، ولكنه يعبر عن الجميع وعن الأفعال المجردة

¹- محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، ص 303

²-JEAN JACQUES ROUSSEAU , DU CONTRAT SOCIAL OU PRINCIPE DU DROIT POLITIQUE e d :Flammarion ,PARIS,1970.p19.

¹-جان جاك روسو ، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 97

ونرى أن ذلك هو الشرط الأساسي الذي يقوم عليه هذا المبدأ، و هو يقوم كل مواطن للوطن و يحميه من أي خضوع شخصي. حيث يقول روسو في هذا الصدد: " ذلك هو الشرط الذي إذ يجعل من كل مواطن عطية تعطى للوطن، صانه من تبعية شخصية هذا الشرط هو الذي يصنع فنون الآلة السياسية وألاعيها، وهو وحده الذي يجعل من الالتزامات المدنية التزامات مشروعة كانت من دونه، ستكون لا معقولة، وضالعة في الطغيان، عرضة لأشنع ضروب الشطط."¹

(2)-في الحالة السياسية والمدنية:

في هذا المبحث يتكلم روسو عن الحالة المدنية، ويرى أن إنتقال الإنسان من الحالة الطبيعية إلى الحالة المدنية يحدث تغييرا جذريا في الإنسان، بإستبداله الغريزة في مسلكه بالعدالة، وبإضافائه على أفعاله الصبغة الأخلاقية التي كانت تنقصها فيما سبق. حيث يقول روسو في هذا الشأن: "أنتج هذا العبور من الحالة الطبيعية إلى الحالة المدنية تغييرا بينا جدا في الإنسان، إذ حل في سلوكه عوض الغريزة، وأكسب أعماله المنزلة الأخلاقية التي كانت قبل إذن تفتقر إليها. إذاك فقط، لما حل نداء الواجب محل النزوة الفيزيقية، وحل الحق محل الاشتهااء، ألقى الإنسان نفسه.- وهو الذي لم يكن حتى ذلك الحد ينظر إلا إلى شخصه بالذات، مرغما على العمل بمقتضى مبادئ أخرى وعلى أن يلجأ إلى رؤية عقله قبل أن ينصت إلى ميولاته."¹

وبالرغم من أنه يحرم نفسه في هذه الحالة من مزايا عديدة، يحملها من حالة الطبيعة، فإنه يعوض فيها مزايا عظيمة، إذ أن ملكاته تتدرب وتنمو وأفكاره تتسع وعواطفه تتنبل وتسمو روحه بأكملها. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "لئن صار

¹ -JEAN JACQUES ROUSSEAU , DU CONTRAT SOCIAL ,ED: LODYSSEE ,ALGERIE,2009.p19.p.20.

¹-جان جاك روسو، في العقد الإجتماعي، مصدر سابق، ص 99

الإنسان في هذه الحالة محروما من مزايا كثيرة كانت تتأتى له من الطبيعة، فإنه حصل على مزايا أخرى أعظم بما لا يقاس: تمرست ملكاته وتنامت، واتسع أفق أفكاره، وازدادت مشاعره نبلا، وسمت نفسه بأكملها فبلغت ما بلغت من درجات السمو حتى لو وجب عليه - لو لم يتقهقر به شطط هذا الوضع الجديد في أغلب الأحيان، يؤدي إلى وضع أحط من ذلك الذي خرج منه. - وأن يبارك، غير منك، تلك اللحظة السعيدة التي إنتشلته من ذلك الوضع إلى الأبد، بأن صنعت من حيوان بليد ومقيد الأفق كائنا ذكيا وإنسانا.¹

حقا أن الانسان يفقد في العقد الاجتماعي حريته الطبيعية، ولكنه يحصل لقاء ذلك على حرية مدنية أو حرية سياسية أو اجتماعية كما يستفيد من حق تملك ما يملكه، أي أنه يفقد حريته الذاتية، والأنانية لكي يحصل على الحرية المعنوية العاقلة حرية المجتمع بأسره. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "لنختزل هذه الموازنة بأكملها في حدود يتيسر لنا أن نقارن بينها. - فأما ما يخسره الإنسان جراء العقد الاجتماعي، فإنما حريته الطبيعية وحقا لا محدودا في كل ما يستهويه، ويمكنه الوصول إليه، وأما، ما يربحه فإنما الحرية المدنية وملكية كل ما في حوزته."¹

وإن ما يفقده الإنسان بالعقد الاجتماعي: هو حريته الطبيعية، وحقا لا محدودا في كل ما يغريه وما يستطيع بلوغه، أما ما يكسبه فهو الحرية المدنية، وملكية كل ما هو في حيازته. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "ولكي لا نخطئ في حساب هذه التعويضات ينبغي التمييز جيدا بين الحرية الطبيعية، وهي التي لا قيود لها سوى التي للفرد، والحرية المدنية وهي التي تحددها الإرادة العامة."²

¹- JEAN JACQUES ROUSSEAU, DU CONTRAT SOCIAL(livres 1et 2), e d : Gallimard, PARIS,1966.p24.

¹-جان جاك روسو ، في العقد الإجتماعي، مصدر سابق، ص 100

²- جان جاك روسو، _ المصدر نفسه ، الصرفة نفسها

إلى ما سبق يمكننا أن نزيد إلى ما تقدم على المكتسبات في الحالة المدنية، الحرية المعنوية التي وحدها تجعل الإنسان سيد نفسه بالفعل، حيث يصبح خاضعا للقانون المنبثق من الإرادة العامة، لا لأهواء الأشخاص والأفراد. حيث يقول روسو في هذا الشأن: "ويمكننا أن نضيف إلى مكتسبات الحالة المدنية، والتي جننا على ذكرها، الحرية الأخلاقية وهي وحدها ما يجعل من الإنسان سيذا لنفسه، ذلك أن نزوة الاشتهااء وحدها عبودية. وطاعة القانون الذي سننها لأنفسنا حرية".¹

(3)- في الملكية العينية والعمومية:

إن العقد الاجتماعي هو الذي سيضمن حماية ملكية الأفراد وحياتهم، وحرية أشخاصهم في ظل العقد الاجتماعي ويستفيد الإنسان من حق تملك ما يملكه²، وإن كل واحد يهب نفسه للجماعة بمجرد أن يتشكل الجهاز الاصطناعي في تلك الحالة التي يوجد عليها عندئذ، هو وجميع قواه التي تعتبر الأموال التي في حيازته جزءا منها، ولا يعني بمقتضى هذا التصرف أن تتغير طبيعة الحيازة بتغير المالكين، وتصبح ملكية من ممتلكات صاحب السيادة. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "يهب كل عضو من الجماعة لها نفسه إبان تشكلها، وهو على الحالة التي بها يوجد رهينا، ومعه جميع قواه التي يكون ما بحوزته من خيرات جزءا منها".¹

ويصبح الفرد وكل ممتلكاته ملكا للدولة في ظل العقد الاجتماعي، وهذا لا يعني أن الملكية تتغير بتغير الإجراءات والأشخاص. وإن الدولة هي أعظم من قوى الفرد والأفراد

¹-JEAN JACQUES ROUSSEAU, DU CONTRAT SOCIAL, Ed :Enag, ALGER, 1988.p26.

²- محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، ص298

¹-جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 101

والخواص، وإن الملكية العمومية أقوى لأنها تحقق العدالة والمساواة. ولا يمكن للملكية أن تقوم على السطو وعلى القوة، حيث يقول روسو: "وليس معنى ذلك إن الحيابة تغير بهذا الإجراء من طبيعتها بتغير ذوي الأيدي، وتصبح ملكية بيد صاحب السيادة. ولكن لما كانت قوى المدينة "الدولة" أعظم من قوى الشخص ومن الخواص عظمة، كانت الحيابة العمومية هي أيضا أقوى في واقع الأمر، وكانت أشد من تقبل النقض، رغم أن ذلك لا يزيدها مشروعية بالنسبة للأجانب على الأقل".¹

وإن الدولة في مواجهة أعضائها، هي سيدة جميع ممتلكاتهم: بمقتضى العقد الاجتماعي، الذي يستخدم أساسا لجميع الحقوق²، إلا أنه ليست كذلك في مواجهة الدول الأخرى. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "ولذلك لأن الدولة، في ما يخص أعضائها، هي السيد على جميع ممتلكاتهم بمقتضى العقد الاجتماعي الذي هو، بالنسبة إلى الدولة، بمثابة القاعدة لجميع الحقوق، ولكن الدولة ليست كذلك بالنظر إلى القوى الأخرى، إلا بما لها من حق المتحوز الأول الذي جاءها من الأشخاص".¹

وإن حق الاستيلاء الأول، وإن كان أكثر واقعية، من حق الأقوى لا يصير حقا حقيقيا إلا بعد تقرير حق الملكية. ولكل إنسان بصورة طبيعية حق بكل ما يكون ضروريا له، لكن العقد الإيجابي هو الذي يجعله مالكا لشيء يستبعده من كل الباقي. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وأما حق المالك الأول فلئن كان عينيا أكثر من حق الأقوى، فإنه لا يصير حقا واقعيًا وحقيقيا إلا بعد إرساء حق الملكية. لكل إنسان بالطبع حق في كل ما هو ضروري، لكن الإجراء الوضعي الذي يجعل منه ملكا لبعض الخيرات، يقصيه عن كل الباقي. فإذا ما

¹ – JEAN JACQUES ROUSSEAU, DU CONTRAT SOCIAL, EDITION LAOUADI, S.L.E 2014,p26.

² – محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، ص 305

¹ – جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 101

حددت حصته، وجب عليه أن يتقيد بها، ولم يعد له من حق أبدا ينافي الجماعة، فأنظر لماذا يكون حق المتحوز الأول، وهو حق بالغ الضالة في حالة الطبيعة، حقا مشهودا في عين كل إنسان مدني. - أما احترامنا لما يعود إلى غيرنا في هذا الحق فأقل من احترامنا لما لا يعود إلينا نحن بالذات.¹

وعموما لجواز حق الأسبقية في الاستيلاء على قطعة أرض، يجب أن تتوفر الشروط التالية. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "لإجازة حق المتحوز الأول على قطعة أرض لا بد، على العموم من وجود الشروط الآتية: أولا :- ألا تكون هذه الأرض مأهولة بأي شخص كان.

ثانيا : -ألا يحوز المتحوز إلا مقدار ما يحتاج إليه لداوم عيشه.

ثالثا :-ألا تقع حيازة القطعة بواسطة المراسيم الكاذبة، وإنما بالعمل و الفلح، ذلك الدليل الوحيد على الملكية الواجب على الغير إحترامها إذا ما غابت السندات القانونية.¹

إن روسو هنا يضع شروطا للتملك ويتكلم عن الحيازة والملكية الأولى للأرض، ويرى روسو أنه في واقع الأمر، ونحن نقصر حق الأسبقية في الاستيلاء على الحاجة، والعمل قد وسعناه إلى أقصى ما يمكن الوصول إليه؟. حيث يقول روسو في هذا الشأن: "وفي واقع الأمر، أن نصبغ على الحاجة وعلى العمل حق المتحوز الأول، ألا يعني ذلك أننا قد وسعنا في الحق توسيعا متناهي البعد؟ أليس في مقدورنا أن نضع قيودا لهذا الحق؟ هل يكفي إنسانا أن تطأ قدماه قطعة أرض مشتركة حتى يدعي حثيثا أنه السيد عليها؟"²

¹ -JEAN JACQUES ROUSSEAU, DU CONTRAT SOCIAL, GENEVE, 1962. p27.

¹ - جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ، ص101

² -جان جاك روسو، _ المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

وإن القوة لا تصنع الحق في التملك، ولا تخلقه لأن الطبيعة والأراضي في البداية هي ملكية مشاعة وجماعية بين أفراد الجنس البشري، والاستيلاء بالقوة والتملك هو الذي صنع التفاوت بين الناس¹، وخلق الصراع والتنازع على من يملك أكثر وبسيط على أقرانه من البشر مع ظهور الإنسان التاريخي والمجتمع السياسي الفاسد. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "هل يكفي أن يكون له من القوة ما يلزم لطرد البشر الآخرين منها حيناً من الوقت، لكي يجردهم من حقهم في العودة إليها أبداً الأبد؟ - وهل يستطيع إنسان ما أو شعب ما أن يستولي أي منهما على منطقة شاسعة فيحرم الجنس البشري بأكمله منها، لو لم يغتصبها بما يستأهل العقاب إذ يعوق سائر البشر من المقام، والغذاء اللذين جادت بهما الطبيعة عليهم إشتراكاً بينهم؟"² حيث يستدل روسو بما عمل به نونيز بالبوا*¹. وهو يستولي على الساحل ويعلن بإسم تاج قشتالة حيازته على بحر الجنوب وعلى أمريكا الجنوبية كلها، كافياً لينزع ملكيتها من جميع السكان وليبعد عنها جميع أمراء الأرض. حيث يقول روسو في هذا الصدد: لما بلغ "نونيز" بالبوا "Nuñez"

¹- محمد علي عبد المعطي ، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 294

²- جان جاك روسو، المصدر نفسه، الصفحة نفسها

¹ * فاسكو نونيث دي بالبوا (بالإسبانية Vasco Núñez de Balboa) ، ولد في 1475 ، خيريث دي لوس كاباييروس، بطليوس، إسبانيا - توفي في 15 يناير 1519 ، أكلا، بنما (هو مكتشف وحاكم وكونكيستور إسباني. معروف بكونه أول أوروبي اكتشف المحيط الهادي وأسس مدينة دائمة على الأراضي الأمريكية. اشتهر فاسكو نونيث دي بالبوا بأنه كان ربما أول أسباني - أوروبي - يرى من بعيد البر الرئيسي في أمريكا . وقد هاجر إلى هيسبانيولا ، أول مستعمرة أسبانية في جزر الهند الغربية سنة 1500 م، وقد أوفد سنة 1510 م إلى داريان في أمريكا الجنوبية ، وعيّن في منصب الحاكم، وفي 25 من شهر ايلول سنة 1513 م لمح المحيط الهادئ من موقع ما على الساحل الغربي لداريان وأعلن رسمياً أنه يخصّ إسبانيا . ولم يكن يعلم أنه محيط كبير، وأكبر من كل محيطات العالم مجموعة معاً . وكانت نهايته محزنة، ذلك بأنه قُبض عليه بتهمة الخيانة ، وأعدم.

« balboa الساحل الأمريكي فاستولى، بإسم تاج قشتالة*¹، على بحر الجنوب وعلى كل أمريكا الجنوبية، فهل كان ذلك يكفي لتجريد جميع سكان البلاد من حيازتها ، وإقصاء جميع أمراء العالم عنها؟ -والجواب أنه منظورا إلى الأمر من هذه الزاوية، كانت هذه المراسيم تتعدد بلا جدوى، ولم يكن للملك الكاثوليكي إلا أن يحتاز إليه العالم بأسره دفعة واحدة، عدا أنه يشرع عقب ذلك، بالطرح من إمبراطوريته ما كان قبلئذ في حيازة غيره من الأمراء.¹»

ويمكننا أن نتصور كيف أصبحت أراضي الأفراد، وقد جمعت وبانت متجاوزة، إقليميا عاما، وكيف صار حق السيادة، وقد امتد من الرعايا إلى الأرض التي يشغلونها، حقا عينيا وشخصيا في وقت واحد. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "ولنا أن نفهم كيف تصبح أراضي الأشخاص المجموعة والمتجاوزة ملكا عموميا، وكيف أن الحق السيادي إذ يبسط سيده على الرعايا حتى يبلغ الأراضي التي يحتلونها، ويصبح حقا عينيا وشخصيا معا، مما يجعل أصحاب الحيازات تابعين لصاحب السيادة تبعية أشد ويحول قواهم بالذات إلى عربون ولائهم."²، وهذه الميزة لا يبدوا أن الملوك القدامى قد فطنوا لها، إذ

¹ - تاج قشتالة كيان تاريخي بدأ من اتحاد نهائي وحاسم للفريقين مملكة ليون ومملكة قشتالة في 1230، أو في الواقع من اتحاد البرلمان في وقت لاحق خلال بضعة عقود. في 1230 توج فرديناند الثالث ملك قشتالة وليون والتي تضمنت الممالك القديمة من جليقية وأشتورية.

بعد أن ظلت الدولة الإسلامية في الأندلس بضعاً من الزمن متماسكة موحدة، بدأت تقام ممالك مسيحية في شمال إسبانيا مثل ممالك "قشتالة" و"أراجون" و "مملكة ليون" و"الباسك" قامت دولة بني ذو النون في "طليطلة" وبدأ صراع مع ملك "سرقسطة" ابن هود ولجأ الطرفان إلى طلب المساعدة من ملوك إسبانيا المسيحيين وكان هؤلاء يساعدون المسلمين على بعض مقابل الحصول علي مال أو قلاع أو أراضي أو مدن واستمر نزاعهما من 1043 إلى 1046 وبعد فترة صراعات بين البيت القشتالي انتهى بوحدة مملكتي قشتالة وليون تحت صولجان الملك ألفونسو السادس.

¹ -جان جاك روسو ، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 102

² - المصدر نفسه، الصرحة نفسها

كانوا وقد سموا أنفسهم ملوكا للفرس والسكتيين والمقدونيين¹، حيث يقول روسو في هذا الشأن: " وإن هنا لميزة، الظاهر أن قدماء الملوك لم يفتنوا إليها الفطنة اللازمة، فإذا هم قد لقبوا أنفسهم بملوك الفرس، وبملوك الشيت، وبملوك المقدونيين، فالبادي منهم أنهم كانوا يعتبرون أنفسهم رؤساء على الناس لا أسياد على البلاد. أما ملوك هذا الوقت فيتخذون لأنفسهم بمزيد من المهارة، لقب ملك فرنسا أو ملك اسبانيا، أو ملك إنجلترا...الخ. و إذ هم يقبضون على الأرض، على النحو، باتوا متأكدين جيدا من القبض على عنان سكانها."²

والشيء المتميز في أمر هذا التنازل هو أن المجتمع، بدلا من قبوله بممتلكات الأفراد يجردهم منها لا يفعل إلا أن يؤمن لهم حيازتها الشرعية، إذ يبذل الاغتصاب بحق حقيقي و الانتفاع بالملكية. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وأما في هذا التنازل من خاصية فكون الجماعة بتقبلها أملاك الأشخاص لا تجردهم منها البتة، وإنما مسعاها الأوحد ولا مسعى سواه، أن تصون حيازتهم المشروعة لتلك الملاك وأن تحول الاغتصاب إلى حق مبین، والانتفاع إلى ملكية. فإن الملاك باعتبارهم المؤتمنين على الملك العمومي، وباعتبار ما تحظى به حقوقهم من إحترام، عند جميع أعضاء الدولة فتصونها هذه بكل قواها ضد أطماع الأجنبي، قد غنموا كل ما كانوا قد وهبوه بمقتضى تنازل ذي فائدة جمة على الشخص العمومي، بل وأكثرها على أشخاصهم هم بالذات، ها هنا

¹- jean. jacques. rousseau, du contrat social , enag. alger, reghaia, algerie,(2012).P17.

²- جان جاك روسو ، في العقد الإجتماعي، مصدر سابق، ص 102

مفارقة من اليسير أن تتضح بالتمييز بين الحقوق التي لكل من صاحب السيادة، ومن المالك على عين العقار الواحد.¹

ويمكن أن يتحد الناس قبل حيازتهم لأي شيء، وأنهم حين يستولون بعد ذلك على أرض تكفيهم جميعا ينتفعون بها بصورة مشتركة، أو يقتسمونها فيما بينهم إما بالتساوي، أو وفقا لنسب يحددها صاحب السيادة². حيث يقول روسو في هذا الشأن: "وقد يحدث أيضا أن يبدأ الناس بأن يتحد بعضهم ببعض قبل أن يحوزوا أي شيء، ثم إنهم يستولون في إثر ذلك على بقعة من الأرض كافية لسد حاجيات الجميع، فينتفعون بها انتفاعا جماعيا أو يعمدون إلى قسمتها في ما بينهم إما بالتساوي، وإما بنسب يقررها صاحب السيادة. وكائنا ما كانت الطريقة التي بها يحصل اكتساب هذه الأرض، فإن الحق الذي لكل شخص على عقاره الخاص يضل دائما رهينا بالحق الذي للجماعة على جميع العقارات، ولولا ذلك لما كان هناك من رسوخ داخل الرابطة الاجتماعية، ولا من قوة فعلية في ممارسة السيادة."¹

وينتهي روسو هذا الفصل في كتابه بملاحظة يجب أن تفيد أساسا للنظام الاجتماعي كله ويرى أن العقد الاجتماعي بدل أن يقوض المساواة الطبيعية، فيعوض محلها مساواة أخلاقية شرعية، تعوضهم عن الفوارق المادية أو الجسدية التي قد تفرضها الطبيعة عليهم، فيصبح الناس متساوين جميعا بمقتضى العقد الاجتماعي والاتفاق والحق. ويقول روسو في هذا الشأن: "وإني لأنهي هذا الفصل وهذا الكتاب الأول بملاحظة يجب أن

¹ - جان جاك روسو، المصدر نفسه، ص 103

²-jean. jacques. rousseau, (2012). *du contrat social* , enag. alger, reghaia, algerie.P17

¹- جان جاك روسو، *في العقد الاجتماعي*، مصدر سابق، ،الصفحة نفسها

تستخدم قاعدة للنسق الاجتماعي بأكمله: وهي أن العقد الأساسي بدل أن يقوض المساواة الطبيعية يحل على العكس من ذلك مساواة أخلاقية مشروعة محل ما جاز للطبيعة، أن تقيمه من تفاوت فيزيقي بين البشر. وهكذا لئن جاز أن يكونوا متفاوتين بالقوة وبالموهبة العقلية، فقد صاروا متساوين جميعا بمقتضى الاتفاق والحق.¹

(4)- في أن السيادة غير قابلة للتنازل عنها:

إن أهم نتيجة نتجت عن المبادئ المقررة سابقا، هي: - أن الإرادة العامة تستطيع وحدها توجيه قوى الدولة نحو غاية إنشائها وهي الخير العام، والمصالح العام والمنفعة العامة، ولا يكون لها صفة القانون.² لأنه إذا كانت تعارض المصالح الفردية، قد جعلت من الضروري إنشاء المجتمعات، وإن إتفاق هذه المصالح الفردية نفسها هو الذي جعلها ممكنة، وأن هذه الرابطة: والتي هي الصالح العام: هي النسيج واللحمة الأساسية التي تساهم في تناسق المجتمع وإنسجامه كوحدة عضوية متكاملة ومتناسقة. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "للمبادئ السالف الذكر الخوض فيها، وإثباتها نتيجة أولى ذات شأن بالغ وهو أن الإرادة العامة، هي ولا شيء سواها، تستطيع أن تقود قوى الدولة وفقا للغاية من تأسيسها، ألا وهي الخير المشترك. وذلك لأنه إذا كان التضاد بين المصالح الجزئية قد جعل إقامة المجتمعات أمرا ضروريا، فإن التوافق بين هذه المصالح عينها هو الذي جعلها أمرا ممكنا. إن ما هو مشترك في هذه المصالح المختلفة: هو الذي يشكل الرابطة الاجتماعية. فلو لم يكن هناك نقطة ما، كائنا ما كانت هذه النقطة، تتوافق عندها جميع

¹-جان جاك روسو، المصدر نفسه، ص 103

²-محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 304

المصالح لما وجد أي مجتمع أبداً، والحال أنه بإعتبار هذه المصلحة المشتركة وحدها لا غير، يجب أن يحكم المجتمع".¹

إن السيادة هي سيادة الشعب كله وأن السيادة ليست سوى ممارسة الإرادة العامة، فإنها لا تستطيع أبداً التنازل عن ذاتها بأي شكل من الأشكال و أن صاحب السيادة هو كيان اجتماعي، وأن الإرادة الكلية العامة لا يمكن نقلها وغير قابلة للتحويل.² حيث يقول روسو في هذا الصدد: "من هنا يأتي إذن قلبي بأن السيادة، إذ هي ليست سوى ممارسة الإرادة العامة، فإنه يتمتع أبداً التنازل عنها، وبأن صاحب السيادة، وهو ليس إلا موجوداً جماعياً، لا يمكنه أن يمثله أحد عدا أن يمثل نفسه هو بالذات، إن السلطان يتيسر نقله إلى الغير، وأما الإرادة فلا".³

بالفعل إذا لم يكن من المتعذر أن تتفق إرادة خاصة مع الإرادة العامة على نقطة ما، فمن المستحيل على الأقل أن يكون هذا الاتفاق دائماً وثابتاً، لأن الإرادة الفردية والخاصة تميل دائماً إلى المنفعة الخاصة، بينما تميل الإرادة العامة إلى المنفعة العامة و العدل والمساواة. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وواقع الأمر لئن لم يكن محالاً أن تتوافق إرادة من الإرادات الخاصة مع العامة على مسألة من المسائل، فمحال، في أدنى الحالات أن يكون هذا التوافق قابلاً للدوام وثابتاً، وذلك لأن الإرادة الخاصة تنزع بطبعها إلى المفاضلات، بينما تنزع الإرادة العامة إلى المساواة".¹، وأنه من الصعب أن تحدث هذه النتيجة، وأنه لأكثر استحالة أيضاً أن يكون لدينا ضمان لهذا الاتفاق مع أنه لابد من وجوده دائماً، فقد لا يكون نتيجة للمهارة وإنما للصدفة. حيث يقول روسو في

¹ - جان جاك روسو ، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 105

² - محمد علي عبد المعطي ، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 302

³ - جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ، الصفحة نفسها

¹ - جان جاك روسو، المصدر نفسه، ص 106

هذا الصدد: "والأشد امتناعاً من كل ذلك هو إيجاد ضامن يضمن هذا التوافق، فإذا ما قضي له أن يوجد يوماً ما، فلن يكون ذلك نتيجة فن الاختراع وإنما نتيجة المصادفة".¹

إن الإرادة العامة تسعى دائماً إلى تحقيق المنفعة العامة والخير العام، ولا يمكن أن ترضى بأمر معارض لخير الفرد وتقوض المنفعة العامة²، والذي هو جزء من هذه الإرادة العامة و أنه من الخطأ أن تقيد الإرادة العامة نفسها بالمستقبل، وبما أنه ليس من شأن أية إرادة أن ترضى بشيء يعاكس صالح الكائن الذي يريد. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وذلك أنه من الخلف أن تقصد الإرادة العامة إلى تقييد مستقبلها بالسلاسل، كما أنه ليس من شأن أي إرادة أن، كائناً ما كانت، أن ترضى بأمر مناف لخير الكائن المرید، فلو أن الشعب يعطي، إذا، مجرد وعد بالطاعة لا نحل الشعب بهذا الفعل، ولفقد صفته كشعب. وحالما يكون هناك سيد لا يعود هناك صاحب سيادة، ومن ثمة يدمر الجسم السياسي".³

ولا يعني هذا أبداً أن أوامر الرؤساء لا يمكن اعتبارها إرادات عامة، طالما يكون صاحب السيادة حراً، ولا يعارضها الشعب وطالما أنها تهدف إلى الصالح والخير العام. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وليس المقصود من ذلك البتة أن أوامر الرؤساء لا يمكنها أن تجري مجرى إرادات عامة، طالما أن صاحب السيادة، وهو الذي له حرية الاعتراض عليها، وإذا حصلت حالة مثل هذه الحالة فإن في السكوت الكلي لعلامة دالة على رضا الشعب بتلك الأوامر. وهذا ما سيزداد وضوحاً طوال ما سيأتي من قول".¹

(5)- في أن السيادة غير قابلة للتجزئة:

¹- جان جاك روسو، المصدر نفسه، الصفحة نفسها

²- محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 304

³- جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 106.

¹- جان جاك روسو، المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

إن الشعب هو السيد بالتعريف و أن سيادته كلية وشاملة ولا يمكن تجزئتها أو تفكيكها أو تقسيمها، ولا تباع، و لا تشتري وغير قابلة للتحويل أو التصرف فيها بأي حال من الأحوال، لأنها لا ترتبط بالوعود، وليس في وسع الشعب أن يتنازل عن السيادة¹، أو أن يتخفف منها، "وهذه السيادة وحدة لا تتجزأ"،² فهي لا تنقسم أبداً: إن السيادة لا تتجزأ لنفس السبب الذي يجعلها غير قابلة للتنازل، إذ أن الإرادة تكون عامة، أو أنها لا تكون كذلك فهي إرادة هيئة الشعب كله أو إرادة جزء منه فحسب. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "إن السبب ذاك الذي جعل السيادة غير قابلة للتنازل، هو عينه الذي يجعلها غير قابلة للتجزئة. فإن الإرادة إما عامة أو لا تكون، وإما متعلقة بجسم الشعب أو متعلقة بجزء منه فقط. فأما في الحالة الأولى: فإن هذه الإرادة صريحة هي فعل سيادي ولها حكم القانون. - وأما في الحالة الثانية: فليست سوى إرادة جزئية أو عمل من أعمال ولاية الحكم، إنها لا تعدو أن تكون مرسوما لا غير".¹

- لكن السياسيين إذا لم يستطيعوا تجزئة السيادة في مبدئها جزؤها في موضوعها، فهم يقسمونها إلى قوة و إلى إرادة، إلى سلطة تشريعية، وإلى سلطة تنفيذية وإلى سلطة قضائية. فروسو يرفض تجزئة السيادة لأنها تتصف بأنها وحدة عضوية وكلية². حيث يقول روسو في هذا الصدد: "بيد أن أهل السياسة عندنا، إذ لم يستطيعوا تجزئة السيادة من جهة مبدئها، جزؤها من جهة موضوعها، فقسموها إلى قوة وإرادة، السلطة التشريعية وأخرى تنفيذية، إلى قوانين جنائية وقضائية وحربية، إلى إدارة للشأن الداخلي وسلطة تفاوض مع الأجنبي: فإنك

¹ - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 304

² - غيوم سيبيرتان، بلان، الفلسفة السياسية، ترجمة عز الدين الخطابي، مراجعة جورج كتورة، المنظمة العربية للترجمة،

مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 2011، ص 36

¹ - جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، الصفحة نفسها

² - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 303

تراهم تارة يخلطون معا هذه الأجزاء، وتارة يفصلون بينها.¹، حيث يجعلون من صاحب السيادة كائنا وهميا وخرافيا وأسطوريا، ومكونا من قطع مجلوبة، ذلك كأنهم كانوا يؤلفون الإنسان من أجساد عديدة يكون لأحدها عيان وللآخر ذراعان ولغيرهما رجلان ولا شيء أكثر من ذلك. حيث يقول روسو في هذا الشأن: "إنهم يجعلون من صاحب السيادة كائنا خياليا، ومركبا من أجهزة ملفقة حتى كأنهم يركبون الإنسان من أجسام كثيرة، لهذا عيان، ولذا ذراعان، ولذلك قدمان، ولا شيء غير هذا."²

ويقوم السياسيون وأهل السياسة بأخطاء كثيرة حيث يقومون بتفكيك، وتجزئة الجهاز الاصطناعي أو الجسم الاصطناعي أو الدولة بالأعييهم الساذجة، التي تصلح بأن تكون كفرجة في الأسواق العظيمة. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "كذا هي أيضا: بالتقريب، تراها أهل السياسة عندنا: فإنهم بعد أن يفككوا أعضاء الجسم الاجتماعي بأعاجيبهم السحرية، وهي الخلق بها أن تكون بها فرجة في الأسواق الكبرى، يلممون تلك القطع بكيفية لا يدرك كننها."¹

إن روسو يرفض فكرة فصل السلطات (التشريعية، التنفيذية، والقضائية) التي أتى بها مونتيسكيو،² ويرجع هذا الخطأ إلى عدم تكوين أفكار مضبوطة، و واضحة ودقيقة عن السلطة السيادية وإلى اعتبار أجزاء من هذه السلطة ما لم يكن إلا تعبيراً عنها. وهكذا مثلا قد نظر إلى عمل إعلان الحرب وإلى عقد السلام كأنها من أعمال السيادة، وهما ليسا كذلك. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وأما أخطاؤهم هذه فتتأتى من غفلتهم عن تحصيل معان صحيحة عن السلطة السيادية، ومن كونهم قد أخذوا ما ليس سوى تعبيرات منبثقة عن تلك السلطة على أنها أقسام تكونها. على هذا النحو مثلا، إعتبر إعلان الحرب، وإجراء الصلح

¹ - جان جاك روسو، المصدر نفسه، ص 107

² - جان جاك روسو، المصدر نفسه، الصفحة نفسها

¹ - جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، الصفحة نفسها

² - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 302

فعلين من الأفعال السيادية، وولية الأمر ليست كذلك، فإن كلا من هذين الفعلين ليس قانونا أبدا، وإنما هو تطبيق القانون، أي إجراء جزئي يخصص الحالة التي يجري عليها القانون، وهو ما سيأتي بيانه لما تثبت الفكرة المتعلقة بكلمة قانون.¹

إن السيادة إذن هي تعبير عن الإرادة الكلية العامة الشاملة للشعب، وهي تتميز بالإضافة إلى كونها لا تباع ولا تشتري، وكونها غير قابلة للتقسيم والتخفيف بأنها لا تخطئ، وإذا ما تتبعنا على نفس الطريقة التجزيئات الأخرى سنجد أننا نخطئ في كل مرة عندما نظن فيها بأن السيادة مجزأة، وأن الحقوق التي تؤخذ على أنها أجزاء من هذه السيادة². حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وإذا ما فحصنا أمر التقسيمات الأخرى بالطريقة نفسها، ألفينا أننا نخطئ كلما توهمنا القسمة في السيادة، ألفينا أن القوانين التي نحسبها أقساما مكونة لهذه السيادة، إنما هي تابعة لها مشروطة بها، بل ودائما ما تفترض وجود إرادات عليا ليست هي، أي أن القوانين تلك، ليست سوى تنفيذ لها."¹

وإن القوة العظمى والسلطة القصوى، والسيادة الكلية والوحيدة هي تلك التي أوجدها العقد الاجتماعي، ونسبها إلى الشعب كله، ذلك لأن الأفراد حينما يتنازلون عن حقوقهم فإنهم يتنازلون عنها للمجتمع كله وليس لفرد محدد أو لملك أو سلطان، وهم يتنازلون عن إرادتهم الفردية إنما يصحرون تلك الإرادات في بوتقة الإرادة الكلية العامة والشاملة.² و ليس في وسعنا القول إلى أي مدى ألقى هذا النقص في الدقة من غموض على أحكام المؤلفين في مادة الحق السياسي، عندما أرادوا الفصل في الحقوق الخاصة بكل من الملوك والشعوب. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "ليس في مستطاعنا بيان

¹-جان جاك روسو ، المصدر نفسه، ص 108

² -محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، ص303

¹- جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، الصفحة نفسها

²- محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص303

مقدار ما ألقى عدم الضبط ذلك من غموض، على أحكام المؤلفين في شأن الحق السياسي وعلى تقاريراتهم، لما أرادوا أن يحكموا ويفصلوا في الحقوق، ما يعود منها للأمرأء و ما يعود منها للشعوب، بناء على المبادئ التي وضعوها.¹

(6) - إمكانية وقوع الإرادة العامة في الزلل والخطأ:

إن السيادة إذن هي تعبير عن الإرادة العامة الكلية والشاملة للشعب، وهي تتميز بالإضافة إلى كونها لا تشتري ولا تباع، لا يمكن فصلها أو تفكيكها وتجزئتها كما فعل "مونتيسكيو"، و"لوك"، وكونها غير قابلة للتقسيم فإنها لا تخطئ. وينتج مما سبق أن الإرادة العامة تكون دائما عادلة، وتميل دائما الى النفع والصالح العام و الخير العام²، ولكن لا ينجم عن ذلك أن تتسم مداولات الشعب دائما بنفس السداد ويراد دائما له الخير لكن هذا الخير لا يرى دائما. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "إن حاصل ما تقدم قوله، هو أن الإرادة العامة تكون على الصراط المستقيم دائما، ميالة إلى المنفعة العمومية دائما، ومع ذلك فليس من اللزوم أن تتحلى مشاورات الشعب بالاستقامة عينها دائما. - ولكنه لا يرى دائما ما عساه يكون. محال أن يزرع الفساد في الشعب أبد الآبدين. ولكن الشعب لا يخدع في غالب الأحيان، وإذاك، ذاك فقط قد يظهر بمظهر من يريد سوء السبيل".¹

هناك إختلاف بين الإرادة العامة وإرادة الجميع، وغالبا وكثيرا ما يكون هناك من الفارق بين إرادة الجميع والإرادة العامة، فهذه لا تراعي سوى المصلحة المشتركة والمنفعة العامة، أما الأخرى فتراعي المصلحة الخاصة و الفردية وليست سوى

¹ - جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، ص 108

² - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 302

¹ - جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 110

مجموع الإرادات الخاصة¹. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "غالبا ما يكون هناك إختلاف شديد بين إرادة الجميع والإرادة العامة، فإن هذه لا تتشغل إلا بالمصلحة المشتركة، ولا تتشغل تلك إلا بالمصلحة الخاصة."²

وإذا لم تكن للمواطنين، عندما يتداول ويتشاور الشعب وهو على دراية كافية أية وسيلة للاتصال فيما بينهم فإن الإرادة العامة قد تنتج دائما العدد الكبير من الفوارق الصغيرة، وتكون المداولة والمشاورة دائما حسنة. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "إذا ما عدم المواطنون أي تواصل بينهم، وكان الشعب إذ ذاك يتشاور في الأمور وهو على بنية كافية منها، فمن العدد الأكبر، للفروق الصغرى تنتج الإرادة العامة دائما كما تكون المشاورة صالحة دائما. ولكن إذا قامت المكائد وتكونت العصبية الجزئية، وكان في ذلك إخلال بالعصبية الكبرى صارت الإرادة التي لكل عصبية، إرادة عامة بالنسبة إلى أعضائها، وإرادة خاصة بالنسبة إلى الدولة، وهكذا يمكن القول إذاك أنه لم يعد يوجد ناخبون، بمقدار ما يوجد من عصبيات وتصبح الفروق أقل عددا وتؤدي إلى نتيجة أقل عمومية."¹

المهم إذن للحصول على التعبير عن الارادة العامة، يجب أن لا يكون هناك جماعة جزئية في الدولة،² وأن لا يبدي كل مواطن رأيه إلا تعبيرا عن نفسه. فهذا ما كانت عليه المؤسسة الوحيدة والرفيعة التي أقامها ليكورغس العظيم. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "لزم إذن لكي نتحصل حقا على الإرادة العامة، ألا توجد عصبية داخل الدولة وألا يبدي كل واحد من المواطنين من الآراء إلا الرأي الذي يعود له. هذا ما اتصف به قديما التأسيس

¹ - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، ص 303

² - جان جاك روسو، المصدر نفسه، الصفحة نفسها

¹ - جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، المصدر نفسه، ص 110

² - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، ص 303

الفريد والرائع الذي أقامه "لوکورغس"¹* العظيم. أما إذا وجدت عصبية لزم إذن تكثير عددها والإحاطة لما يقوم بينها من تفاوت فيجتنب هدايا، بما فعل **صولون**²* « Solon » « ونوما » « numa » و « سرفيوس » « servius » فوحدها هذه الحيطات صالحة و بها تكون الإرادة العامة نيرة ويكون ممتعا على الشعب قطعاً أن يخدع.¹ ، بهذه الطريقة فقط يمكن التغلب على الفساد وعلى الخطر الذي يحقق بالدولة ومؤسساتها بالزوال والإنحلال.

(7) قيود السلطة السيادية:

إن السيادة غير قابلة للتقسيم، ولا يحد السيادة العامة إلا حد وحيد هو الذي يرسمه العقد الاجتماعي نفسه، ونعني به حقوق الفرد في التملك و في الحرية². و إذا كانت الدولة أو المدينة السياسية ليست سوى شخص معنوي تقوم حياته على إتحاد أعضائه، و إذا كان أهم غاياته هي صيانة بقائها الخاص. فلا بد لها من قوة إكراه ردعية شاملة من أجل تحريك و تهيئة كل جزء على النحو الملائم للكل. حيث يقول روسو في هذا

¹ -Lycurgue (في اليونانية القديمة Λυκοῦργος) ، هو خطيب وسياسي يوناني ، من الحزب القومي والمناهض للمقدونية (سي 390 أثينا ، 324 قبل الميلاد). اشتهر بأنه غير قابل للفساد ومعجب بمثل سبارتا ، فقد أدار السياسة الأثينية من خلال تولي الحكم ، الجديد في ذلك الوقت ، لاتجاه التمويل والأشغال العامة ، من 338 إلى 326 قبل الميلاد. J. - C. ، في ظروف مضطربة ، حيث يظهر وفقاً لجولز هامبرت وهنري بيرجوين مديراً لنشاط منهجي واستقامة شديدة 1. بالإضافة إلى عمله المهم في هذين المجالين ، كان أيضاً مصدر إصلاح فرض نوعاً من الإيداع القانوني ، في شكل نسخة رسمية محفوظة في الأرشيف ، لأجزاء التراجيديين اليونانيين الثلاثة العظماء: وبالتالي ، يُسمح بمنع التعديلات التعسفية التي أدخلها الممثلون على النص ، وعلى هذا النحو ، يمكن اعتباره مُدرجاً للقانون المأساوي.

² - سولون (في اليونانية القديمة Σόλων) ، ولد في أثينا حوالي 640 قبل الميلاد. م وتوفي في جزيرة قبرص حوالي 558 قبل الميلاد. م ، رجل دولة ومشرع وشاعر أثيني. غالباً ما كان يُنظر إليه على أنه قد أسس الديمقراطية في أثينا ، وكان أولاً وقبل كل شيء ممثلاً للطبقة الأرستقراطية. وهو أحد حكماء اليونان السبعة. لعب سولون دوراً سياسياً مهماً ، حيث بدأ سلسلة من الإصلاحات التي زادت بشكل كبير من دور الطبقة العاملة في السياسة الأثينية.

¹ - جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ، ص 110

² - محمد علي عبد المعطي ، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 303

الصدق: "لما لم تكن الدولة أو قل المدينة، سوى شخص معنوي تكمن حياته في اتحاد أعضائه، ولما كانت أبلغ ضروب العناية التي للدولة إنما ما توليه لبقائه هي بالذات لزم أن تكون لها قوة كلية جامعة وقاهرة، لتحريك كل جزء وترتيب وضعه الترتيب الأولى للكل. وعلى ما تفعل الطبيعة إذ تهب كل إنسانا سلطانا مطلقا على جمع الأعضاء التي تكونه، وأن هذا السلطان بالذات، وهو الذي تحكمه الإرادة العامة كما ذكرت ذلك سابقا هو الموسوم بإسم السيادة."¹

إن الشعب هو المصدر الأساسي والرئيسي لكل سلطة شرعية، وإن القانون هو نتاج خالص لإرادة الشعب الكلية و العامة والشاملة، وما هو إلا فعل الإرادة العامة وحدها ومن هنا فإن القانون ليس له معنى غير السيادة.² و لكن فضلا عن الشخص العام يجب أن ننظر في الأشخاص الخاصين، الذين تكون منهم هذا الشخص العام والذي تكون حياتهم وحریتهم مستقلة عنه بصورة طبيعية. فالمقصود إذن أن نحسن التمييز بين حقوق المواطنين، وصاحب السيادة وبين واجباته. حيث يقول روسو في هذا الشأن: "ولكن علاوة على النظر في الشخص العمومي، وجب علينا أن نزيد على ذلك فننظر في الأشخاص الخاصين الذين يكونون الإرادة العامة . والذين حياتهم وحریتهم مستقلتان بطبعهما عن تلك الإرادة. لزاما علينا إذن: أن نميز حق التمييز بين الحقوق العائدة إلى المواطنين، وتلك العائدة إلى صاحب السيادة كما يلزمنا أن نميز بين الواجبات ينبغي على المواطنين تأديتها بصفتهم رعاياها، والحق الطبيعي الذي يجب أن يتمتعوا به بصفتهم بشرا."¹

¹ - جان جاك روسو، المصدر نفسه، ص 112

² - محمد علي عبد المعطي ، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 304

¹ - JEAN JACQUES ROUSSEAU, ŒUVRES COMPLETES,T3,DU CONTRAT SOCIAL,ECRITS POLITIQUES, e d :Flammarion ,PARIS,1967. P40.

إن الشعب هو صاحب السيادة وصاحب السلطة العليا في الدولة، ولا يوجد إلا عقد واحد وميثاق وحيد هو ميثاق الجميع مع الجميع، واستسلام الإرادة الفردية كلها لإرادة عامة واحدة، والقانون هو التعبير عن هذه الإرادة العامة الكلية، ومن المسلم به أن كل من يتنازل عنه كل فرد بالعقد الاجتماعي من سلطته وممتلكاته وحرية¹، - وهو الجزء من كل ذلك فحسب الذي يقتضيه انتفاع المجتمع ولكن يجب التسليم أيضا بأن صاحب السيادة هو الذي يفصل في تلك الأهمية. و أن أية قواعد أو أوامر تمس مصالح الشعب وتقوض المنفعة العامة لا يكون لها صفة القانون حتى لو كانت صادرة عن السيادة. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "يسلم بعضهم بأن ما يتنازل عنه كل شخص من قدرته ومن ممتلكاته ومن حريته، بمقتضى العقد الاجتماعي ليس سوى جزء من كل هذا، وهو الجزء الذي من شأن الجماعة التصرف فيه، ولكن لزم التسليم أيضا بأن صاحب السيادة، هو وحده الحكم الذي يعود إليه تقدير شأن ذلك التصرف و أهميته بالغة".¹

وإن أية قواعد أو أوامر تمس مصلحة الشعب، وتقوض الخير والمنفعة العامة لا يكون لها صفة القانون حتى ولو كانت صادرة عن السيادة، و إن القانون نتاج خالص لإرادة الشعب الكلية والعامة ولقد ظهر من الشعب ولأجله²، "وإن جميع الخدمات التي يمكن أن يؤديها أي مواطن للدولة تصبح واجبة عليه حالما يطالب صاحب السيادة بقضائها، بيد أنه لا يمكن لصاحب السيادة أن يثقل وزر رعاياه بأثقال لا طائفة للجماعة من ورائها، بل أنه لا يمكن له أن يريد ذلك مجرد الإرادة، إذ أن لا شيء يحدث من دون سبب تحت حكم "الناموس" و القانون العقلي، ولا أيضا تحت حكم ناموس القانون الطبيعي".³

¹ - موسى إبراهيم ، الفكر السياسي الحديث والمعاصر، مرجع سابق، ص 158

¹ - جان جاك روسو ، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 113

² - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، ص 304

³ - جان جاك روسو ، المصدر نفسه، الصرفة نفسها

وإنه لا سيادة إلا سيادة الإرادة العامة، على شرط أن تنتج عنها قوانين صالحة تستهدف المصلحة العامة ومصلحة جميع المواطنين، وسعادتهم وأن لا تعارض هذه القوانين قوانين الطبيعة وفوائدها¹. وأن الالتزامات التي تربط المواطنين بالهيئة الاجتماعية ليست ملزمة إلا لأنها متبادلة. ومن طبيعتها، أنهم، وهم يؤدونها، لا يمكنهم العمل من أجل الغير دون العمل كذلك من أجل ذواتهم. فلماذا تكون الإرادة العامة دائما عادلة، ولماذا يريد الجميع على الدوام السعادة للجميع. لأن الفرد ينتمي إلى هذا المجتمع ويعتبر خلية من خلايا المجتمع. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وليس الالتزامات التي تربطنا بالجسم الاجتماعي ملزمة إلا لأنها متبادلة بيننا، وهي طبيعة حالها يجعل الواحد منا متى أداها لا يمكنه أن يعمل لصالح غيره، من دون أن يعمل أيضا لصالح نفسه. فما الداعي إلى تسيير الإرادة العامة على الصراط المستقيم دائما، وما الداعي إلى أن يريد جميع الناس سعادة كل واحد منهم على الدوام إن لم يعنيان ما من شخص منهم، إلا و إحتازا إلى نفسه لفظة كل واحد، وإنقطع هاجسه إلى نفسه دون سواها، وهو يهم بانتخاب الجميع؟"¹

إن الانسان يفقد حريته الذاتية والأنانية والأهواء الغريزية الطبيعية، لكي يحصل على الحرية المعنوية العاقلة وعلى حرية المجتمع بأسره، وتظهر في مجاله فكرة الحق الصحيح، كما أن إتساق وإنسجام الناس في المجتمع يوفر مساواة أدبية وشرعية، تعوضهم عن الفوارق المادية أو الجسدية التي قد تفرضها الطبيعة عليهم، وهذا ما يقيم الدليل على المساواة في الحق، ومعنى العدالة الذي ينجم عنها يشقان من الأفضلية التي

¹ - موسى إبراهيم ، الفكر السياسي الحديث والمعاصر ، مرجع سابق ، ص 158

¹ - ROUSSEAU -JEAN JACQUES , OEUVRES COMPLETES , VOL3 , -.DU CONTRAT SOCIAL- DISCOURS POLITIQUE , e d :Flammarion , PARIS,1975.p41.

يعطيها كل واحد لنفسه، و بالتالي من طبيعة الإنسان أن يبحث عن المساواة،¹ وإن الإرادة العامة من أجل أن تكون حقيقة يجب أن تكون كذلك في هدفها مثلما تكون في جوهرها. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "إذ ذلك ليقدم الحجة على أن المساواة في الحق معنى العدل الناتج منها، إنما يتفرعان من إثثار النفس الذي به يخص كل واحد نفسه، أي من طبيعة الإنسان بالنتيجة، وعلى أنه يجب على الإرادة العامة لكي تكون عامة بالحقيقة أن تكون كذلك من حيث موضوعها، ومن حيث ماهيتها أيضا، وعلى أنه يجب عليها تصدر من الجميع لكي تنطبق على الجميع، وعلى أنها لا تحيد عن سواء سبيلها الطبيعي عندما تقصد موضوعا فرديا ومعينا."²

يرى روسو أن أساس الإرادة المنفعة، ومن ثمة فإرادات الأفراد ترتبط بمنافعهم التي قد تتعارض فيما بينها في كثير من النقاط، أما الإرادة العامة الكلية الشاملة فتوضح أن المنفعة بين الجميع واحدة¹. ويمكن بالفعل أن يكون المقصود فعلا أو حقا فرديا في نقطة لم تكن قد سويت بإتفاق عام وسابق، حتى تصبح المسألة موضوع تنازع و أنها قضية يكون فيها الأفراد المعنيون طرفا ويكون الجمهور طرفا آخر. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وفعلا ما أن يتعلق الأمر بواقعة الوقائع، أو بحق جزئي يخص مسألة محددة لم يسبق أن نظمتها اتفاقية عامة وسالفة، إلا وصارت القضية محل نزاع: إنها عبارة عن محاكمة يكون فيها خواص الناس المعنيين بالأمر أحد الطرفين، ويكون العموم الطرف الآخر، ولكنها محاكمة لا أثبتين فيها وجودا للقانون، الذي ينبغي إتباعه، ولا للقاضي الذي أن يفصل بمقتضاه في تلك القضية."²

¹ - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، ص 301

² - جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ، ص 114

¹ - موسى إبراهيم، الفكر السياسي الحديث والمعاصر، مرجع سابق، ص 157

² - جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ، ص 114

إن الإرادة العامة هي إرادة كلية و واحدة ولا تتجزأ، و هي إرادة الشعب والقانون هو التعبير عن هذه الإرادة العامة والإرادة العامة تستهدف المصلحة العامة، ولذى يتمتع على أي قانون يضطهد المواطن بوجه من الوجوه.¹ و قد يكون من السخافة أن نبتغي عندئذ الاستناد في ذلك إلى قرار صريح للإرادة العامة التي لا يمكن أن تكون سوى أحد الطرفين، والذي لا يكون بالتالي، بالنسبة للطرف الآخر إلا إرادة أجنبية خاصة جانحة في هذه المناسبة إلى الظلم و الجور والظلة وعرضة للخطأ. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "ومما قد يكون مدعاة للسخرية أن يسعى بعضهم إلى الرجوع عندئذ إلى قرار صريح من الإرادة العامة، قرار لا يمكن أن يكون إلا نتيجة ما قرره أحد الطرفين، فلا يكون في عين الطرف الآخر، بالنتيجة، إلا إرادة غريبة وجزئية، تكون ميالة إلى الجور والظلم في مثل هذه المناسبة المواتية: وعرضة للخطأ. وعلى هذا النحو فكما أنه لا يمكن لإرادة خاصة أن تمثل الإرادة العامة، فإن الإرادة العامة بدورها تتغير طبيعتها، وقد صار لها موضوع جزئي فلا يمكن لها أن تبرم حكماً لا في شأن شخص من الناس، ولا في شأن واقعة من الوقائع."¹

يرى روسو أن الشعب هو السيد بالتعريف وهو مصدر السيادة، وهو مصدر الإرادة العامة الكلية وأن سيادته كلية لا نقاش فيها وغير قابلة للتحويل أو التصرف أو التخفيف أو التقيص فيها أو التجزئة، لأنها لا ترتبط بالوعود، وليس في وسع الشعب أن يتنازل عنها.² فعندما كان شعب أثينا مثلاً يسمي، أو يعزل قاداته يمنح الواحد أكاليل المجد، ويوقع الآخر ألوان العقاب و بعيد من المراسيم الخاصة يمارس بلا تمييز جميع أعمال الحكم. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "ومثل ذلك أن شعب أثينا عندما كان يقلد

¹ - موسى إبراهيم ، المرجع نفسه ، الصفحة نفسها

¹ - جان جاك روسو ، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص114

² - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، ص302-303

رؤساء الحكم أو يعزلهم عنه، وعندما كان يمنح هذا شرفا وينزل بذاك عقابا، كان يمارس جميع الأفعال الحكومية بلا تمييز".¹

وتتحقق العدالة والمساواة والحرية المدنية وحماية الأملاك في ثنايا العقد الاجتماعي لأن الأفراد بردهم أنفسهم و كل حقوقهم إلى المجتمع. يعودون إلى نقطة الصفر وتتحقق المساواة التامة بينهم كما أن إتحادهم يكون كاملا بالإطلاق و لا يسمح بأي أفضلية لأي فرد.² وأي كانت الجهة التي نرجع منها إلى الأصل، فإننا نصل دائما إلى نفس النتيجة: وهي أن العقد الاجتماعي يقر بين المواطنين نوع من المساواة، بحيث يلتزموا جميعا بنفس الشروط، ويجب أن يتمتعوا جميعا بنفس الحقوق. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وكأننا ما كانت الجهة التي نسلوها لبلوغ المبدأ نتوصل دائما إلى الخلاصة نفسها: ومفادها أن العقد الاجتماعي يقيم بين المواطنين من المساواة ما يجعلهم يلتزمون جميعا في الانضواء إلى شروط واحدة، ويحملهم جميعا على التمتع بالحقوق نفسها. على هذا النحو، فإن طبيعة الميثاق هي ما به كل إجراء سيادي، أي كل فعل حقاني من أفعال الإرادة العامة، يلزم أو قل يحابي كامل جسم الأمة على السواء، ولا يفضل أحدا على سائر الذين يؤلفون الجسم".¹

وبموجب العقد الاجتماعي يتنازل كل فرد عن حقوقه لصالح المجتمع، وهذا الشرط يطبق على الجميع بالتساوي، وإن منح الفرد نفسه للمجتمع يعني أنه لا يمنح نفسه لأي شخص²، "وإنه ليس باتفاقية يجربها من هو أعلى مع من هو أدنى، وإنما اتفاقية الجسم مع عضو من أعضائه، إنها اتفاقية مشروعة لأن القاعدة التي تقوم عليها هي قاعدة العقد الاجتماعي، وهي منصفة لأنها مشتركة بين الجميع، وهي نافعة لأنه لا يمكن أن يكون لها

¹ - جان جاك روسو ، المصدر نفسه،الصفحة نفسها

² -محمد علي عبد المعطي،الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص297

¹ - جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ، ص 115

² - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، ص298

موضوع آخر سوى موضوع الخير العام، وهي شديدة البنيان لأنها حائزة على ضمانات القوة العمومية والسلطان الأعلى.¹

ولما كان كل شخص يضع نفسه للجميع، فإنه من ثمة لا يضع نفسه لأي شخص آخر. أي أنه يستحيل أن يضع الإنسان حريته تحت تصرف شخص أو فرد، أو ملك أو سلطان، والنتيجة هي حصوله على الحرية العامة، فثمة فرق إذن بين أن يتقيد الإنسان بإنسان آخر، وبين أن يتقيد بالكل الذي هو جزء منه². وبقدر ما يكون الرعايا غير خاضعين إلا لمثل هذه الاتفاقات، فإنهم لا يمثلون لأمر شخص وإنما لإرادتهم الخاصة فحسب. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وطالما لا يذعن الرعايا إلا لمثل هذه الاتفاقية، فإنهم لا يطيعون شخصا بعينه أيا كان وإنما يطيعون إرادتهم الخاصة".¹

إن القوة العظمى والسلطة القصوى والسيادة الوحيدة هي تلك التي أوجدها العقد الاجتماعي ونسبها إلى الشعب كله. إذ يتنازل كل عن نفسه وعن حقوقه للمجتمع كله: فأن يسأل المرء إلى أين تمتد الحقوق، ما كان منها لصاحب السيادة و ما كان للمواطنين، فكأنما هو يسأل إلى أي حد يكون في مستطاعهم أن يقيموا عهدا مع أنفسهم، هو عهد كل واحد مع الجميع، وعهد الجميع مع كل واحد نتبين من ذلك أن السلطة السيادية مهما كانت مطلقة، ومقدسة، لا يمكن المساس بها أبدا ولا تتجاوز ولا يمكن أن تتجاوز حدود الاتفاقيات العامة². حيث يقول روسو في هذا الصدد: "للمرء أن يتبين من ذلك أن السلطة السيادية، مهما كانت مطلقة تماما، ومقدسة تماما، ومصانة تماما، من كل انتهاك لحرمتها، فإنها لا تتخطى، بل ولا يمكنها أن تتخطى قيود الاتفاقات العامة، وإن كل إنسان يمكنه أن يتصرف

¹ - جان جاك روسو، المصدر نفسه، الصرحة نفسها .

² - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 299

¹ - جان جاك روسو ، المصدر نفسه، الصرحة نفسها

² - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، ص 302

تصرفا في ما أبقت له هذه الاتفاقيات من ممتلكاته وحياته، بحيث لا يحق أبدا لصاحب السيادة أن يكلف أحد الرعايا بما يزيد عما يكلف به غيره، فإذا يعود الشأن إذاك شأننا خاصا يفقد السلطان الذي لصاحب السيادة أهليته واختصاصه.¹

ويتم تجاوز التفاوت الاصطناعي والاستغلال وتحقيق المصلحة العامة والحرية المدنية والعدالة والمساواة والفضيلة في ثنايا العقد الاجتماعي، لأن الأفراد بردهم أنفسهم وكل حقوقهم الى المجتمع يعودون إلى نقطة البداية، وتتحقق العدالة والمساواة التامة بينهم كما أن اتحادهم يكون كاملا بالإطلاق، ولا يسمح بأي أفضلية لأحد على آخر وهكذا تتحقق المساواة التامة كما تتحقق الحرية.¹ حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وأما متى سلمنا بهذه التمييزات، بطل بطلانا شديدا أن يكون في التعاقد الاجتماعي بين الأشخاص أي تنازل حقاني من قبلهم عما لديهم، بل أن وضعهم يصير في الواقع وبمقتضى أثر هذا العقد، أفضل مما كان عليه من قبل، فعوضا عن التنازل لم يفعلوا شيئا سوى أن أقاموا مقايضة مريحة فاستبدلوا طريقة في العيش مرتبكة، وواهنة بطريقة أخرى أفضل وأمنة لهم، واستبدلوا الاستقلال الطبيعي بالحرية، وقدرتهم على إيذاء غيرهم بسلامة ذواتهم، وقوتهم التي كان في مستطاع الآخرين أن يتغلبوا عليها بحق يجعل منه الاتحاد الاجتماعي حقا لا يقهر."²

كان لابد من البحث عن شكل للاجتماع يستهدف حماية شخص كل عضو وأمواله: وإن حياتهم التي كرسوها للدولة تكون بذلك محمية على الدوام، وعندما يعرضونها للخطر من أجل الدفاع عن الدولة، فما الذي يفعلونه عندئذ سوى أنهم يردون إليها ما منحهم إياه.³ فماذا يفعلون ما لم يكن في غالب الأحيان، ويفعلوه بخطورة أكبر وهم في حالة الطبيعة.

¹ - جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 116.

¹ - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 298

² - جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 116.

³ - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، ص 297

حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وأما أرواحهم و هي بالذات التي نذروها للدولة، فأصبحت في حماها على الدوام، وعندما يجازفون بحياتهم للذود عن الدولة، فما عساهم: هم فاعلون سوى أن يردوا إليها ما أخذوه منها؟ وما تراهم هم صانعون سوى ما كانوا في الحالة الطبيعية يصنعون بمزيد من المعاودة والمخاطرة، لما كانوا وهم يخوضون معارك لا مناص منها، يجازفون بحياتهم للدفاع عما به يتوسلون الإبقاء عليها؟ حقا إنه ينبغي على الجميع أن يقاتلوا في سبيل الوطن ما دأع، داع، إلى ذلك، ولكن ليس لواحد منهم البتة، أن يقاتل في سبيل نفسه أبدا. أو ليس أجدى لنا وأنفع، في سبيل ما فيه سلامة ذواتنا أن نركب بعضا من تلك المخاطر ينبغي علينا أن نركبها، دفاعا عن أنفسنا حالما تنتزع منا تلك السلامة؟"¹

(8) - الإرادة العامة غير قابلة للفناء:

إن الإرادة العامة هي التي وحدها لها الحق في قيادة الدولة، وتوجيهها نحو الهدف المنشود للصالح العام، والخير العام وتحقيق المنفعة العامة وتحقيق السلم الداخلي والخارجي وتحقيق العدالة والمساواة وحماية حقوقهم الطبيعية، وتحقيق السعادة والرفاهية للمواطنين، حيث يرى روسو أنه ما دام أن جملة من الناس مجتمعين يعتبرون أنفسهم هيئة واحدة، فليس سوى إرادة واحدة تنصب باتجاه المحافظة المشتركة، وباتجاه الرفاهية العامة والصالح العام والخير العام.² عندئذ تكون جميع بواعث الحياة في الدولة قوية وبسيطة. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "طالما أن عدة أناس مجتمعين يعتبرون أنفسهم جسما واحدا، إمتنع عليهم أن يكون لهم غير إرادة واحدة تتعلق بالبقاء المشترك ورفاهية العيش العامة. إذاك تكون جميع نوابض الدولة شديدة البأس وبسيطة، وتكون قواعدها العملية واضحة مضيئة، ولا

¹ - جان جاك روسو، المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

² - موسى إبراهيم، الفكر السياسي الحديث والمعاصر، مرجع سابق، ص 157

يكون لها أبدا مصالح عشواء متناقضة، و أما الخير المشترك فيتجلى في كل مكان جلاء بينا بنفسه، فلا يقتضي سوى الحس المشترك أو بعضه لكي تدركه العيان.¹

والإرادة العامة هي إرادة الأفراد في جملتهم، و هي ليست مجموع إرادات الأفراد، ولكنها روح عامة تعبر عن الصالح العام والخير العام والخير المشترك². ويرى روسو أن السلام والاتحاد والمساواة هم الذين يؤدون إلى إنسجام الجسد السياسي والجهاز الاصطناعي أو الدولة، وهي أعداء الطغيان السياسي والاستبداد، حيث يعيش المواطنون في حالة وئام. ذلك أن الرجال المستقيمين والحصيفين والبسطاء يصعب خداعهم بسبب بساطتهم. فالخداع والحجج المنمقة لا تغشهم أبدا، إنهم ليسوا حتى على درجة كافية من الإرهاف لكي يستغفلوا. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "إن السلام والاتحاد والمساواة من أعداء اللباقة السياسية. وإن الذين هم من البشر أهل استقامة وبساطة، فهم الذين يصعب مخادعتهم بسبب البساطة التي لهم، وإن الأحابيل والتعديلات المستجدة لا تتطوي أبدا عليهم بل قل أيضا إنهم ليسوا على قدر كاف من الرقة حتى يكونوا مغفلين."¹

إن الإرادة العامة هي وحدها مصدر القانون، ولها السلطة المطلقة دون وجود أي واسطة أو ممثلين لأن علاقة الأفراد بالدولة يجب أن تكون مباشرة. والقانون عند روسو ما هو إلا فعل الإرادة العامة وحدها، والقانون ليس له معنى غير السيادة، وأن أية قواعد أو أوامر صادرة عن أي سلطة أخرى غير سلطة السيادة وعن إرادة الشعب الكلية الشاملة والعامة، لا يكون لها صفة القانون، كما أن أية قواعد أو أوامر تمس مصالح الشعب وتقوض المنفعة العامة لا يكون لها صفة القانون، حتى ولو كانت صادرة عن السيادة²، لأن روسو يضع مصلحة الشعب فوق كل اعتبار، "وعندما نشاهد بين ظهرائي شعب من شعوب

¹ - جان جاك روسو ، في العقد الاجتماعي، ص 203

² - جان جاك شفالبييه، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، ص 488

¹ - جان جاك روسو، المصدر نفسه، الصرحة نفسها.

² - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 304

العالم، هو أسعدها. وكيف أن زمرا من الفلاحين يتبنون شؤون الدولة تحت سنديانة، وكيف يتصرفون بحكمة على الدوام، و فهل يمكننا منع أنفسنا، من أن نحترق حذاقات الأمم الأخرى تلك التي تصنع صيتها الذائع كما تصنع حالها البائس بكل ما أوتيت من أفانين وأعاجيب؟¹، فهنا روسو له نوع من الحنين نحو الرجوع إلى الحالة الطبيعية. ويمجد الحالة الطبيعية، والحياة البسيطة والبساطة والسعادة التي تتميز بها الشعوب البدائية والفلاحية التي تعيش على المحاصيل الزراعية وبما تمدهم إياهم الطبيعة ويمجد كيفية تسيرهم للشؤون العامة للمجتمع بطريقة بسيطة وسهلة.

وإن كل فرد عندما تنازل للهيئة الاجتماعية عن حريته، وماله من حقوق وإنما كان يهدف إلى توجيه ذلك إلى الصالح العام والخير العام، الذي يعد صالحه في نفس الوقت.¹ وإن دولة تحكم على هذا النحو البسيط تحتاج إلى قليل جدا من القوانين، وكلما أصبح من الضروري إصدار قوانين جديدة فإن هذه الضرورة تكون قدت أصبحت عمومية. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "إن الدولة التي تسير على هذا النحو لا تحتاج إلى قلة قليلة من القوانين، وبقدر ما تكون هناك ضرورة إلى سن قوانين جديدة باتت هذه الضرورة لجميع الناس كليا. وأما أول من يدعوا إليها فإنما لا يقول سوى ما كان قبلئذ قد أحس به الجميع، فلا داعي هنا للشراذم الطامحة، و لا للأقوال البلاغية حتى يصاغ في صيغة قانون ما، كان كل شخص قبلئذ قد أقر العزم على القيام به حالما يعلم علم اليقين إن الآخرين سيقومون به على نحو ما قام هو به."²

فإذا أدركنا أنه ليس لإنسان سلطة على إنسان آخر، وأدركنا أن القوة لا يمكن أن تخلق حقا عرفنا أن السلطة الشرعية بين الناس إنما تقوم على تعاقدات: فما يخدع المحاجون هو

¹ - جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، الصفحة نفسها.

¹ - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 297

² - جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 204

أنهم، إذ لا يرون إلا دولا متكونة منذ الأصل تكويننا سيئا، يحسون باستحالة المحافظة فيها على سياسة شبيهة¹. حيث يقول روسو في هذا الشأن: "وما يخدم غلاة الاستدلالات العقلية، وهم لا يشاهدون من الدول إلا التي كانت فاسدة التأسيس من أصلها، هو اندهاشهم من امتناعها امتناعا باتا عن صون نظام مدني كهذا النظام، وعلى الاقتناع به."²

وإن صاحب السيادة لا يستطيع مثلا أن يكسر مبدأ المساواة، و تكافؤ الفرص بين المواطنين و كذلك لا يمكنه الاعتداء على الحريات الفردية أو الجماعية أو تقييدها بسبب لا يمت بالصالح العام والخير العام.¹ وأما في حالة عندما تبدأ العلاقة الاجتماعية بالتراخي والدولة في الضعف، وعندما تبدأ المصالح الخاصة في فرض نفسها والشراذم الصغيرة في التأثير على الكبيرة فإن المصلحة العامة تفسد وتجد من يعارضها. حيث يقول روسو أيضا في هذا الصدد: "بيد أنه عندما تبدأ الرابطة الاجتماعية في التراخي و الدولة في الضعف، وعندما تبدأ المصالح الجزئية تبرز للعيان و المجتمعات الصغرى تبسط نفوذها على المجتمع الأكبر، تأخذ المصلحة المشتركة في الفساد وتلقى أممها معارضين لها، يكف الإجماع عن أن يكون هو الغالب على أصوات الناخبين، أما الإرادة العامة فتكف عن أن تكون هي إرادة الجميع، بل أنه تقوم تناقضات ومساجلات، ولا يحظى أبدا بها أفضل رأي بالمصادفة إلا بعد خصومات."²

وأخيرا عندما تكون الدولة قد أشرفت على الخراب والدمار، ولا تعود باقية إلا في صورة وهمية وباطلة، وتنقطع الرابطة الاجتماعية في قلوب الجميع³، وتترزين أحقر المصالح بوقاحة في ثوب الصالح العام المقدس فتصبح الإرادة العامة لا معنى لها، فيصبح هناك لا

¹ - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 298

² - جان جاك روسو ، المصدر نفسه، الصفحة نفسها

¹ - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 298

² - جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، الصفحة نفسها .

³ - جان جاك شفالبييه، تاريخ الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 488

وجود للدولة وينحل كيائها فتصير المصلحة الخاصة هي الهدف من تمرير القوانين الجائرة والظالمة والفاصلة. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وأخر الأمر، فعندما لا يدوم من الدولة، وهي على مقربة من خرابها، إلا صورتها الوهمية، وعندما تنقطع الألفة الاجتماعية داخل جميع الأفئدة. وتتزين أخس المصالح جاهرة بوقاحتها بلقب الخير العمومي المقدس، إذاك تصير الإرادة العامة خرساء، وإذ صار الجميع مآرب خفية. عادوا لا يعملون رأيهم كمواطنين وكأنما لم توجد الدولة قط. وبإسم القوانين تمرر مراسيم جائرة لا هدف منها إلا المصلحة الجزئية."¹

فتصبح القوانين في هذه الحالة لا معنى لها لأنها تعسفية، ولا تخدم إلا المصالح الشخصية والفردية الضيقة ولا إلزام على طاعتها والخضوع لها. فهل ينتج عن ذلك أن الإرادة العامة تكون قد انعدمت أو فسدت؟ كلا. فهي دائما ثابتة كما هي ونقية. لكنها تكون خاضعة لإرادات أخرى تتغلب عليها. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "أيتبع ذلك أن الإرادات العامة قد إنعدمت وفسدت؟ والجواب هو كلا: فهي دائما ثابتة، لا تقبل التغير، وخالصة، وإنما الأمر أنها تابعة لإرادات أخرى تتغلب عليها. لما يفصل كل شخص مصلحته الخاصة عن المصلحة المشتركة، يتبين جيدا كيف أنه لا يستطيع فصلها فصلا مبرما، ومع ذلك فإن مساهمته في الضرر العمومي تظهر له، وكأن لا وزن لها أبدا بالنظر إلى الخير الحصري المخصوص به والذي يدعي تملكه."²

ويرى روسو أن أساس الإرادة هي المنفعة، ومن ثمة إرادات الأفراد ترتبط بمنافعهم التي قد تتعارض فيما بينها في كثير من النقاط، أما الإرادة الكلية العامة فتوضح أن المنفعة بين الجميع واحدة وهذه المنفعة العامة، هي التي تجعل في الإمكان قيام الدولة³. فباستثناء

¹ - جان جاك روسو ، المصدر نفسه، ص 204

² - جان جاك روسو ، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، الصفحة نفسها

³ - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 303

هذا الخير الخاص، فالفرد يريد الخير العام من أجل منفعته الخاصة، بنفس القوة التي يبذلها الآخر من أجلها. حيث يقول روسو في هذا الشأن: "فإن طرح جانباً هذا الخير الشخصي الجزئي، كان ذلك الشخص يحب الخير العام لأجل مصلحته هو بالذات حباً شديداً شأنه، شأن أي شخص آخر، بل أنه حتى لو باع صوته الانتخابي مقابل المال، ما استطاع أن يطفئ في قرارة نفسه الإرادة العامة".¹

إن الإرادة الجزئية هي التي تفسد القوانين، خاصة إذا كانت تشرع القوانين وتصدرها لصالح فئة معينة في المجتمع أو لصالح أشخاص معينين، أو لصالح فرد معين فثمة تقترب مؤسسات الدولة من الهلاك والدمار و الاندثار والتلاشي، والطغيان والاستبداد يكون قريباً في هذه الحالة. "وإن العقدة الاجتماعية بدأت بالتراخي".²

إن السيادة هي إذن تعبير عن الإرادة الكلية العامة للشعب، وهي تتميز بالإضافة إلى كونها غير قابلة للتقسيم، فإنها لا تخطئ إذ أنها معصومة من الخطأ.

(4)-تصحيح الحضارة:

تبدأ عملية تأسيس مجتمع سياسي جديد وفاضل، والذي يبشر به روسو في كتابه العقد الاجتماعي والذي يقوم على التوافق والرضا، وبالتعاقد بين الناس وهذا العقد الاجتماعي هو الذي سيتكفل بتأسيس مجتمع جديد، يقوم على مبدأ الأخلاق والحرية والمساواة والذي سيقضي على التفاوت الاصطناعي، و الاستغلال والتسلط على البشر لإعادة بناء ما دمره المجتمع السياسي الفاسد والحضارة الفاسدة، والتقدم العلمي الذي أنتج لنا الإنسان التاريخي الفاسد أخلاقياً، والمستغل اقتصادياً والمقهور سياسياً والذي

¹ - جان جاك روسو ، المصدر نفسه، ص 205

² -جان جاك شفالييه ، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، ص488

أيما تنظر تراه مكبل في أغلال مصطنعة. وإن العقد الاجتماعي كما رأينا سابقا سيقوم على الرضا وسوف تسيّره الإرادة العامة، وإن القانون ينجم عن هذه الإرادة العامة بالذات. وإن القانون هو الذي سيّسّر الدولة ومؤسساتها، وسوف يكون الإنسان حر فيها حرية مدنية، بحكم طاعته للقانون الصادر عن السلطة التشريعية الشرعية، و التي هي بدورها تنبثق من الإرادة العامة ومن إرادة الشعب ومن العقد الاجتماعي.

1) -في القانون:

-ضبط المفاهيم:

(أ)-القانون: عامة: "هو كلمة عامة يقصد بها معان متعددة. فهو لفظ يفيد النظام، و النظام معناه، أن تسيّر الأمور على وجه مستمر ومستقر وثابت، وبهذا المعنى أطلق لفظ القانون في لغة الفلسفة على النظم التي تحكم الظواهر الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية... إلخ"¹. فمثلا يقال في هذا المعنى (قانون الكون) ويراد به نظام الكون المستقر: مثل دوران الكواكب وسيرها وتعاقب الليل والنهار، و(قانون الجاذبية) ويراد به قاعدة إنجذاب أي جسم يرمى به في الفضاء نحو الأرض، و(قانون العرض والطلب) ويراد به القاعدة المستقرة في الإقتصاد من تأثر الأسعار والأجور، بإختلال التوازن بين العرض والطلب في السلع والخدمات، و(قانون البقاء للأصلح)..... إلخ.

ففي هذا المجال نجد أن لكل شيء قانونه الذي يحكمه، فقانون الأخلاق هو الخير، وقانون العدالة هو الحكم بين الناس بالعدالة."²

(ب)-"القانون إصطلاحاً: وفي الاصطلاح القانوني: يستخدم لفظ القانون في معنى عام ومعنى خاص.

¹-د.غالب علي الدواوي، المدخل إلى علم القانون، كلية الحقوق جامعة جرش الأهلية، دار وائل للنشر، الطبعة 7، عمان، الأردن، 2004، ص10

²-د. غالب علي الدواوي، المدخل إلى علم القانون، مرجع سابق، الصفحة نفسها

(1)-**القانون في المعنى العام** هو : مجموعة من قواعد السلوك العامة المجردة الملزمة التي تنظم الروابط الاجتماعية في المجتمع وتقترن بجزاء مادي حال، وتقصر الدولة الناس على إتباعها ولو بالقوة عند الحاجة.

(2)-**القانون في المعنى الخاص** : يسمى قانونا كل قاعدة أو مجموعة من القواعد القانونية التي تصدر من السلطة التشريعية في الدولة، ويكون مقصود بالقانون عندئذ التعبير عن التشريع الوضعي. فيقال قانون المحاماة، وقانون الجامعة، وقانون التجارة....إلخ.

وقد يراد بكلمة القانون الدلالة على قوانين دولة معينة بصورة عامة، فمثلا لو قلنا القانون الجزائري، فإننا نعني بذلك القوانين المعمول بها في الدولة الجزائرية، كقانون التجارة، وقانون الجنسية، وقانون العمل،.....إلخ

وقد تستخدم كلمة القانون للدلالة على قانون معين بالذات من مجموع القوانين السارية في الدولة، كقولنا القانون المدني الجزائري، والقانون المدني الأردني، وقانون العمل العراقي، وقانون العمل اللبناني،.....إلخ. فلفظ القانون يفيد معنى عام وخاص.¹

فالقانون إذن عند روسو هو الذي سيغير الأشياء والأوضاع نحو الأفضل أي ينتقل من الحالة السلبية التي كان يعيش فيها الانسان التاريخي في المجتمع السياسي الفاسد، حيث كان يعيش في قهر واستغلال واغتراب، حيث كان مكبل سياسيا وفاسد أخلاقيا ومستغل اقتصاديا أينما تنظر تراه مكبل في أغلال إصطناعية، نحو تحقيق العدالة والمساواة والحرية وحماية أملاكه وحقوقه الطبيعية وتحقيق السلم والأمن الداخلي والخارجي. وإن السيادة عند روسو إذن هي تعبير عن الإرادة الكلية للشعب، وهي غير قابلة للتقسيم و التخفيف ولا تباع و لا تشتري والقانون عند روسو: ما هو إلا فعل الإرادة

¹ - د. غالب علي الدواوي، المدخل إلى علم القانون ، مرجع سابق، ، ص11.

العامة وحدها¹، و لقد أعطى العقد الاجتماعي للهيئة السياسية كيائها وحياتها، والقانون هو الذي سيقضي على المجتمع السياسي الفاسد ومؤسساته الفاسدة الغير شرعية كالمؤسسات التشريعية الفاسدة، وعلى الظلم المدسّتر القائم على القوة والاضطهاد والتعسف والظلم والتفاوت الاصطناعي، والذي كان يدافع عن مصالح الأغنياء والأقوياء ويستعبد ويستغل الفقراء والضعفاء، والمقصود الآن أن نعطي لهذه الهيئة السياسية الروح و الحركة و الإرادة بالتشريع لتحقيق العدالة والمساواة والحرية والخير العام والأمن والسلم الداخلي والخارجي، حيث يقول روسو في هذا الصدد: "أعطينا بالميثاق الاجتماعي ذاك الجسم السياسي الوجود والحياة: وعلينا الآن أن نعطي الحركة والإرادة بواسطة التشريع. ذلك لأن الإجراء الأصلي الذي به يتكون الجسم ويتحد مازال لم يعين شيئاً مما يجب على هذا الجسم أن يفعله من أجل البقاء على نفسه".²

ومن هنا فإن القانون ليس له معنى غير السيادة، وإن أية قواعد أو أوامر صادرة عن أية سلطة أخرى، غير سلطة السيادة المعبرة عن إرادة الشعب الكلية العامة، لا يكون لها صفة القانون.³ و إن ما يكون حسناً للنظام و يلائمه يكون كذلك بطبيعة الأشياء وبصورة مستقلة عن الاتفاقات البشرية. حقا إن كل عدالة تأتي من الله، وهو وحده منبعها. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "ما هو خير ومطابق للنظام إنما هو كذلك بمقتضى الطبيعة التي للأشياء، ولا دخل للاتفاقيات الإنسانية فيه. وما من عدالة إلا وآتية من الله، فهو وحده المصدر، لا غير".⁴ ، و أنه لو كنا نعلم كيف نتلقاها من أعالي السماء، لما كنا بحاجة إلى حكومة أو قانون، لا شك في أن هناك عدالة كلية صادرة عن العقل. ولكن واجب هذه العدالة أن تكون متبادلة مثلاً بمثل حتى نقبل بها بيننا. فإذا نظرنا نظرة بشرية إلى الأشياء

¹ - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 302

² - جان جاك روسو ، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ، ص 119

³ - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 304

⁴ - جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، الصفحة نفسها.

رأينا أن القوانين والعدالة لا غاية لها، في حالة انعدام الجزاء الطبيعي وتكون باطلة بين البشر، فهي لا تصنع إلا الخير للشرير، والشر للعادل عندما يراعيها هذا العادل تجاه جميع الناس، ولا يتقيد بها أحد تجاهه. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وإذا اعتبرنا الأمور من منظور بشري ألفينا قوانين العدالة لا طائل لها بين البشر لانعدام الجزاء الطبيعي، إنها في هذه الحالة تعود بالخير على الشرير وبالوبال على الخير منهم، عندما نرى هذا الأخير يراعي تلك القوانين في معاملته جميع الناس ولا أحد منهم يراعيها إتجاهه. وجب إذن أن توجد اتفاقيات وقوانين لأجل قران الحقوق بالواجبات وتوجيه العدالة إلى غرضها. -أما في حالة الطبيعة وفيها يكون كل شيء مشتركاً، فلست مدينا بشيء لأولئك الذين لم أعدهم بشيء، ولا أعترف بأن شيئاً ما هو لغيري إلا إذا لم يكن لي فيه نفع، وليس الأمر كذلك في الحالة المدنية، أي أن الحقوق مضبوطة بمقتضى القانون".¹

إن روسو لا يهتم كثيراً بالمفاهيم الميتافيزيقية العقلية الجوفاء للقانون، التي تؤدي إلى المحاجاة دون الوصول الى نتائج و إلى تفاهم، حيث يصرح بأنه: إذن، ماذا نعني بالقانون في نهاية الأمر؟ وطالما أننا إذا اكتفينا بالمعاني المتافيزيقية فسنستمر في المحاجة دون تفاهم. حيث يقول روسو في هذا الشأن: "لكن ما هو القانون إذا في نهاية المطاف؟ إننا ما دمنا نقتصر على إضفاء معان ميتافيزيقية على هذا اللفظ، سنستمر في استدلالاتنا العقلية دون التفاهم بيننا، ومتى أدركنا الحد الذي يعرف ما هو قانون الطبيعة، لن تكون معرفتنا بما عساه يكون قانون الدولة معرفة أكمل".²

ويرى روسو أن القانون الصادر عن الارادة العامة المعبرة عن السيادة، هو الذي يضيف على الدولة السمة الشرعية وأنه ليس ثمة دولة شرعية، إلا إذا حكمت بواسطة القانون.

¹ - جان جاك روسو، المصدر نفسه، ص 120

² - جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، الصفحة نفسها.

إن القانون هو نتاج خالص لإرادة الشعب الكلية والعامة والشاملة، ولقد وجدت من الشعب و من أجله، فعندما يضع كل الشعب قواعد لكل الشعب فإنه لا ينظر إلا إلى نفسه،¹ وإذا ما كون لنفسه عندئذ علاقة فإنها تكون علاقة الموضوع بأكمله، من وجهة نظر إلى الموضوع بأكمله من وجهة نظر أخرى دون أية تجزئة للكل. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "ولكن عندما يقضي كل الشعب في شأن كل الشعب، فلا إعتبار عنده إلا نفسه، وإذا ما قامت إذاك علاقة فإنما هي علاقة الموضوع بأكمله منظورا إليه من زاوية ما مع الموضوع بأكمله، منظورا إليه من زاوية أخرى دونما تجزئة أيا كانت للكل، ومن ثم يكون الشأن الذي يقضى فيه عاما مثله مثل الإرادة العامة التي هي بصدد القضاء. وهذا الفعل هو ما أسميه قانونا."²

ومن ثمة فالقانون لا يهتم بالأشخاص، ولا يعبأ بما قد يظهر بين الناس من طبقية، ولا ترتبط بإسم ملك أو عائلة ملكية و إن هدف القوانين يكون دائما عاما ؛ و أن القانون ينظر إلى الرعايا كهيئة وإلى الأفعال على أنها مجردة، ولا ينظر أبدا إلى أن الإنسان بوصفه فردا، ولا إلى عمل خاص³. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وعندما أقول بأن موضوع القوانين يكون عاما دائما أعني بذلك، أن القانون يعتبر الرعايا من حيث هم أجسام، وينظر إلى الأفعال على أنها مجردة، ولا ينظر قط إلى إنسان ما باعتباره فردا، ولا إلى فعل من الأفعال على أنه جزئي."⁴

وحين يوضع القانون فإنه لا يوضع في اعتباره الأشخاص، و أفعالهم الخاصة و لكنه يعبر عن الجميع وعن الأفعال المجردة، وقد يحدد القانون حقوقا، ولكنه لا يمنحها لفرد محدد

¹ - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 304

² - جان جاك روسو ، المصدر نفسه، ص 120

³ - محمد علي عبد المعطي الفكر السياسي الغربي ، مرجع سابق، الصفحة نفسها

⁴ - جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي ، مصدر سابق، الصفحة نفسها.

بالذات¹. وقد يصنف الناس طبقا لبعض الكيفيات ولكنه لا يدرجهم في طبقات متفاوتة. و قد يقيم حكومات ملكية وراثية ولكنه لا يختار ملكا. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "على هذا النحو فإن القانون يمكنه أن يقضي بوجود امتيازات، ولكن لا يمكنه أن يخلعها على شخص بعينه ناعتا إياه، بالإسم ويمكن للقانون أن يضع المواطنين مراتب عديدة، بل ولن يعين الصفات التي تجوز الحق فيها، ولكن لا يمكنه أن يخلعها على شخص بعينه ناعتا إياه بالإسم. ويمكن للقانون أن يضع المواطنين مراتب عديدة، بل وأن يعين الصفات التي تجوز الحق فيها، ولكن لا يمكنه أن ينعت بالاسم من الناس، هؤلاء أو أولئك يحق لهم كسب تلك المراتب، ويمكنه أن يقيم حكومة ملوكية وسلاسة بالوراثة. ولكن لا يمكنه أن يصطفي ملكا بعينه ولا أن ينعت بالاسم أسرة ملكية بعينها: ومختصر الكلام أن كل وظيفة تتعلق بموضوع فردي ليست أبدا من شأن السلطة التشريعية."²

إن القانون ما هو إلا فعل الإرادة العامة، وإن سلطة السيادة هي المعبرة عن إرادة الشعب الكلية العامة والكلية، وعلى ضوء هذه الفكرة يتضح لنا، أنه لم يعد من الواجب أن نسأل عمن يحق له سن القوانين، ما دامت أنها أفعال صادرة عن الإرادة العامة، ولا إذا كان الأمير فوق القوانين ما دام أنه عضو من الدولة³. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "نبين في الحال بالاعتماد على هذه الفكرة أنه لم يعد لنا أن نسأل عمن يعود إليه حق سن القوانين، مادامت أنها من أفعال الإرادة العامة. ولا أن نسأل إذا ما كان الأمير يعلو على القانون، مادام أنه عضو من الدولة، وإذا كان من الجائز للقانون: أن يكون

¹- محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص304

²-جان جاك روسو، المصدر نفسه، ص 121

³- محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص305

جائراً، ومادام أن لا أحد يمكنه أن يكون جائراً على نفسه، ولا كيف أن المرء حر ومذعن للقوانين، وما دامت نفسها أنها ليست سوى دواوين إرادتنا.¹

-وكون القوانين صادرة عن الارادة العامة، فيجب على المواطنين الخضوع لها لأنها أيضاً صادرة من إرادتهم الخاصة أيضاً فيصبح الإنسان هو الذي يشرع لنفسه القوانين في هذه الحالة.² كذلك يتضح أنه لما كان القانون يجمع عمومية الإرادة وعمومية الموضوع، فإن ما يأمر به إنسان من تلقاء نفسه، أي كان، لا يكون قانوناً أبداً، حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وهكذا لما كان القانون جامعاً بين كلية الإرادة و كلية الموضوع - نتبين مرة أخرى كيف أن ما يؤمر به بشر من الناس بمحض إرادته وسلطته، وكأننا ما كان هذا البشر، ليس البتة بقانون. بل أن ما يؤمر به صاحب السيادة نفسه، بصدد موضوع جزئي، ليس كذلك بقانون، وإنما هو مرسوم، أنه ليس بإجراء سيادي، وإنما هو من إجراءات ولاية الحكم. وهكذا فإني أنعت بالجمهورية كل دولة تسودها القوانين، كأننا شكل إرادتها، فإذا كان فقط المصلحة العامة والعمومية، يكون للشأن العمومي شأن يذكر. كل حكومة مشروعة إنما هي جمهورية."³

إن القانون عند روسو ما هو إلا فعل الارادة العامة وحدها، ومن هنا فإن القانون ليس له معنى غير السيادة، وإن القانون هو نتاج خالص لإرادة الشعب الكلية العامة والشاملة.⁴ فليست القوانين بمعناها المحدد سوى الشروط للاتحاد المدني. والشعب الخاضع لهذه القوانين يجب أن يكون واضعها، إذ أن تنظيم شروط المجتمع لا يعني إلا أولئك الذين يتحدون ويتعاقدون. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "ليست القوانين

¹ - جان جاك روسو ، في العقد الإجتماعي، مصدر سابق، ص121

²- محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص304

³- جان جاك روسو ، المصدر نفسه، ص 122

⁴- محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص304

بالمعنى الحقيقي إلا شروط الاجتماع المدني. ويجب على الشعب المذعن للقوانين أن يكون هو صاحبها الذي سنّها، وأما القواعد الضابطة لشروط الاجتماع فأمرها لا يعود إلا إلى الشركاء. - ولكن كيف يضبطونها؟ - هل يكون ذلك باتفاق مشترك، أم أن يكون بإلهام مفاجئ؟ - وهل للجسم السياسي من لسان حال تتكفل بإعلان إرادته؟ ومن الذي يهبه التبصر الضروري بالأمور حتى يبلور تلك الإجراءات وينشرها مسبقاً؟ أو كيف سيعلن عنها في وقت الحاجة؟ وإنه لحشد أعمى غالباً ما لا يدري أي شيء يكون صالحاً له أن يحقق من تلقاء نفسه، ولكن لا يتبينه دائماً من تلقاء نفسه.¹، وإن هذه المهمة النبيلة والمقدسة سوف تسند إلى المشرع، والذي تسند إليه مهمة سن وتشريع القوانين التي ستسير مؤسسات الدولة والمجتمع.

ميز روسو بوضوح دقيق وكامل بين الدولة وبين الحكومة، فبينما تعني الدولة المجتمع ككل الذي إتفق الناس على إقامته في العقد الاجتماعي، والذي يتبدى لنا في صورة الإرادة العامة نجد أن الحكومة تشير إلى ذلك الشخص، أو تلك الهيئة التي عينها المجتمع لتنفيذ إرادة السيادة. فالإرادة العامة غير قابلة للتصرف.² - فالإرادة العامة أيضاً تكون دائماً سديدة، ولكن الحكم الذي يوجهها لا يكون دائماً مستتيراً. لذلك يجب العمل دائماً على أن ترى الأمور على حقيقتها وأحياناً كما يجب أن تبدو لها، وإرشادها إلى السبيل السوي الذي تسعى إليه، وحمايتها من إغراءات الإرادة الخاصة وتوجيهها إلى تحقيق الصالح العام والخير العام والذي هو هدفها الأساسي. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "ألا أن الإرادة العامة لداًئماً على صراط مستقيم، ولكن ملكة الحكم التي تدلها وتوجهها ليست دائماً نيرة. لزم إذن أن نجعلها تتبين الموضوعات كما هي في الأعيان، بل وأحياناً كما يجب أن تبدو لها في الظاهر، أن نهديها إلى سبيل الخير الذي تبحث

¹ - جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 122

² - مهدي محفوظ، اتجاهات الفكر السياسي الغربي الحديث والمعاصر، مرجع سابق، ص 150

عنه، وأن نصونها من إغراءات الإرادات الخاصة، وأن نيسر لها إدراك الأمكنة والأزمنة، وأن نعدل كفة الوعد الذي للفوائد العاجلة و المرئية بكفة الوعيد بالمكارة الآجلة والخفية".¹

ولا يوجد إلا عقد واحد وميثاق وحيد هو ميثاق الجميع مع الجميع، و استسلام الإرادة الفردية كلها لإرادة عامة واحدة، و القانون هو التعبير عن هذه الارادة العامة.² وهو الذي يجسد هذه الإرادة العامة للشعب، و لا سيادة إلا سيادتها، على شرط أن تنتج عنها قوانين صالحة تستهدف المصلحة العامة والخير العام، ومصلحة جميع المواطنين، وألا تعارض هذه القوانين قوانين الطبيعة وفوائدها، ولذا يمتنع على أي قانون يضطهد المواطن بوجه من الوجوه³. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "ألا أن الأشخاص يتبينون الخير الذي عنه ينصرفون، أما العموم فيريد الذي لا يتبينه. هكذا يحتاج الإثنان إلى مرشدين على حد السواء، يجب إلزام الأشخاص بأن توافق إرادتهم العقل الذي لهم، ويجب إلزام العموم بأن يعرف ما الذي يريده. وهكذا بفضل الأنوار التي للعموم يحصل إذ ذاك إتحاد الفهم والإرادة داخل الجسم الاجتماعي، ومن هنا يتأتى تضامن الأجزاء بعضها مع بعض تعاضدا صحيحا، أي تتأتى، في نهاية المطاف، قوة الكل العظمى، ذلك إذا ما عنه ينشأ وجوب وجود مشرع".⁴

وإن هذه الأنوار التي يمتلكها العموم هي التي تشكل إتحادا في الفهم، وهذا الفهم هو الذي يؤدي الى هذا التضامن والتناسق بين هذه الأجزاء تضامنا صحيحا، والتي تشكل في النهاية وحدة عضوية وقوة عظمى في الدولة، هي التي تستوجب وجود مشرع للقانون.

¹ - جان جاك روسو ، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق ، ص 123

² - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 300

³ - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 304

⁴ - جان جاك روسو ، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، الصفحة نفسها.

(2) - المشرع (القانون):

إن المشرع: هو الذي يقوم بعملية سن وتشريع القوانين عن طريق السلطة التشريعية، والتي تسند إليها مهام سن القوانين في الدولة، ويجب أن يكون لها ترخيص وتفويض من طرف الشعب للقيام بذلك ويكون عن طريق العقد الاجتماعي¹، لأن الشعب هو صاحب السيادة العليا في الدولة، وإن الإرادة العامة هي التي لها وحدها الحق في قيادة الدولة وتوجيهها نحو الهدف المنشود والذي هو الصالح العام،² ولاكتشاف أفضل أسس للمجتمع التي تتلاءم مع طبيعة الأمم لا بد من توفر عقل ممتاز، ومتميز يرى جميع أهواء الناس ولا يعاني من أي هوى، ولا تكون له أية علاقة مع طبيعتنا لكنه يدركها حتى أعماقها. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "لأجل إكتشاف أفضل قواعد الاجتماع التي تلائم الأمم، لزم أن يكون هناك قوة عاقلة سامية تكون قد أحاطت بكل أهواء البشر، ولكنها لم تبطل بواحد منها أيا كان ليست ذات اتصال بجوهرنا، وتعلم كل ما فيه اليقين، سعادتها مستقلة عن وجودنا نحن، ومع ذلك شاءت أن تعنى بسعادتنا، وخلاصة الأمر أنها في أثناء تقدم العصور قد إحتاطت لأمرها من أجل مجد آجل، فزرعت في عصر لتحصد في عصر آخر. لا بد من آلهة لتذهب القوانين للبشر."³

وإن الإرادة العامة هي إرادة الأفراد في جملتهم، وهي ليست مجموع إرادات الأفراد ولكنها روح عامة تعبر عن الصالح العام، وهي مصدر القانون ولها السلطة المطلقة، دون وجود أي واسطة أو ممثلين، وعلاقة الأفراد بها يجب أن تكون: مباشرة ولكن السلطان الذي يمارس السلطة العامة له حدود لا يجب أن يتعداها، لأن كل فرد عندما تنازل للهيئة الاجتماعية عن حريته، وماله من حقوق إنما كان يهدف الى توجيه كل ذلك للصالح العام،

¹ - LAROUSSE, Le petit la rousse compacte, -Edition entièrement nouvelle. 21 : rue de Montparnasse 75283.paris cedex 06, 1998, p590.

² - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 304

³ - جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 123

وكل ما يتمشى مع نصوص العقد الاجتماعي، "غير أنه إذ كان صحيحاً أن أميراً عظيماً أمر نادر الوجود، فما بالك بمشرع عظيم؟ - فأمّا الأول فليس من واجبه إلا أن يتبع المنوال الذي من واجب الثاني أن يقترحه. وأمّا الثاني فهو مهندس الآلات الذي يخترع الآلة بينما ذاك ليس سوى العمل الذي يركبها، ويدفع بها إلى الحركة والسيرورة في حركة منسجمة ومتناسقة. أوليس « مونتيسكيو » « Montesquieu » هو القائل: "رؤساء الجمهوريات إنما هم الذين ينشؤون مؤسسات الدولة إبان نشأة المجتمعات، ثم إن مؤسسات الدولة هي التي تنشئ فيما بعد رؤساء الجمهوريات".¹

وتتحقق العدالة والحرية في ظل العقد الاجتماعي، وتتحقق المساواة بينهم كما أن إتحادهم يكون كاملاً بالإطلاق ولا يسمح بأي أفضلية لفرد على آخر²، وإنه من يتجرأ على مباشرة تنظيم شعب يجب أن يحس أنه بعمله هذا بصدد تغيير الطبيعة البشرية وبصدد تحويل كل فرد من شخص يكون بذاته كاملاً ومنعزلاً، إلى جزء من كل أكبر يتلقى منه هذا الفرد، على هذا النحو حياته وكيانه. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "إن من يجروء على التكفل بإنشاء شعب ما، لا بد أن يحس في قرار نفسه أن بإمكانه أن يغير الطبيعة البشرية، وأن يحول أي فرد من الناس هذا الفرد حياته ووجوده، على نحو من الإنحاء، ولا بد أن يمسح تكوين الإنسان لجعله أقوى، وأن يستعويض عن الوجود الفيزيقي والمستقل الذي تلقيناه من الطبيعة بوجود نسبي جزئي وأخلاقي معنوي، و قصارى الكلام، لا بد له أن يرفع عن الإنسان قواه المخصوصة عليه، ليعطيه قوى غريبة عنه. تلك التي لا يمكنه استعمالها إلا بمعونة غيره".¹، وإن القانون هو نتاج خالص لإرادة الشعب الكلية والعامة وإنما ظهر من الشعب ولأجله وهو الذي يسير مؤسسات

¹ - جان جاك روسو ، المصدر نفسه، ص 124

² - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، ص 298

¹ - جان جاك روسو : في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 125

الدولة.¹ وكلما كانت قوى الفرد الطبيعية ميتة ومتلاشية كانت القوى المكتسبة أعظم وأرسخ وكانت المؤسسة أمتن وأكمل، وإن القوة المكتسبة من الكل مساوية أو أكبر من مجموع القوى الطبيعية لجميع الأفراد، كانت مؤسسات الدولة قوية وكاملة. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وكلما زادت هذه القوى الطبيعية موتا وفناء، كانت القوى المكتسبة أكبر وأدوم، وكانت المؤسسة أشد بناء و أكمل صورة على هذا النحو، - لما لم يكن أي مواطن من المواطنين شيئا يذكر إلا بفضل جميع الناس الآخرين، ولا قدرة له على أي شيء إلا بهم جميعا. ولما كانت القوة التي إكتسبها الكل إما مساوية: لمجموع القوى الطبيعية التي لجميع الأفراد أو زائدة عليها، أمكننا القول بأن التشريع قد نفذ إلى أرفع مقام من مقامات الكمال الذي يستطيع أن يناله."²

والقانون ما هو إلا نتاج فعل الارادة العامة وحدها، وإرادة الشعب، ومن هنا فإن القانون ليس له معنى غير السيادة، فالمشرع من أية جهة نظرنا إليه فهو شخص متميز وممتاز في الدولة.³ وإذا كان ذلك بعقريته فهو لا يقل عنه في وظيفته. وهي ليست منصب قضاء ولا سيادة أبدا. فإن هذه الوظيفة التي تكون الجمهورية لا تتدخل أبدا في تكوينها إنها مميزة. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وعلى أي نحو من الأنحاء نظرنا إلى المشرع ألفيناه رجلا خارق الشأن ليس كسائر رجال الدولة. ولئن وجب أن يكون كذلك بحسب عقريته، فليس أدناه بحسب وظيفته. ألا إن وظيفته لا تكمن أبدا في السيادة، وإنما هذه الوظيفة التي تقيم للجمهورية أسسها لا تلج أبدا إلى تكوينها. إنها لوظيفة ذات ميزة خاصة، وذات مقال عال لا شيء يجمعهما مع الملكوت البشري. وذلك أنه كان من واجب من يحكم الناس ألا يسيطر القوانين، وجب أيضا على من يسيطر

¹- جان جاك شفالبييه، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، ص 489

²- جان جاك روسو، في العقد الإجتماعي، مصدر سابق، ص 124.

³- محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 304

القوانين ألا يحكم الناس. أما على غير هذا الوجه، فإن قوانين المشرع، وهي في حال خادم يخدم نزواته، لا تعمل غالباً إلا على إدامة مظالمه، حتى أنه لا يمكنه أبداً، أن يحول دون المواقف الخاصة لئلا تمسخ قداسة صنعه.¹

إن المشرع لا يجب أن يعمل لصالح مصالحه الضيقة ورغباته ونزواته الخاصة به،² وإن الجمع بين السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية والسيادية، حسب روسو سيؤدي إلى الاستبداد والطغيان والفساد، وإلى الفوضى ومن ثمة إلى الحروب الأهلية و إلى سقوط وفناء الدولة وإلى اندثارها وزوالها والعودة إلى المجتمع السياسي الفاسد، وعندما منح ليكورغس قوانين لوطنه بدأها من التنحي عن الملك. فقد كانت العادة السائدة في معظم المدن الإغريقية أن تعهد إلى أجنبى لوضع قوانينها وغالباً ما اتبعت الجمهوريات الحديثة في إيطاليا هذا التقليد. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "لما وهب "ليكورغس" ³ « Lycurgue » قوانين لوطنه، بدأ بالتنحي عن العرش. وكان ذلك عرفاً جارياً في أغلب الحواضر الإغريقية، وهو أن تعهد للأجنبى بإقامة شرائعها. أما الجمهوريات الحديثة في إيطاليا فغالباً ما جرت مجرى هذا العرف بالتقليد. ومثلها صنعت

¹ - جان جاك روسو ، في العقد الاجتماعي ، مصدر سابق ، ص 126.

² - جان جاك شفالبييه، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، ص 496.

³ - * كان ليكورغوس (تُنطق /lat'kɜːgəs/، وبال يونانية *Lukoûrgos*، *Λυκοῦργος* ؛ (قبل الميلاد 820 - 730 ؟) المشرع الأسطوري بأسبرطة الذي حولها إلى مجتمع عسكري وفقاً لعرافة معبد أبولو في مدينة دلفي، واهتمت إصلاحاته بثلاث فضائل إسبارطية هي: المساواة (بين المواطنين)، واللياقة العسكرية، والصرامة . ذكره كثير من المؤرخين والفلاسفة القدامى في كتاباتهم:

مثل هيرودوت (Herodotus) ، كسينوفون (Xénophon) ، أفلاطون (Platon) ، بوليبيوس (Polybius) ، بلوتارخ (Plutarch) ، وأبيكتاتوس (Épic têtus). إلا أن كون ليكورغوس شخصية تاريخية حقيقية يظل غير مؤكداً حتى الآن، وبالرغم من ذلك اعتبر العديد من المؤرخين القدامى ليكورغوس مسؤولاً عن الإصلاحات العمومية والعسكرية التي غيرت المجتمع الإسبارطي وأبرزها ريترا الكبرى (الدستور الإسبارطي)، ويصنفه المؤرخون القدامى بين شخصيات النصف الأول من القرن السابع قبل الميلاد.

"جمهورية جنيف"، فعاد عليها ذلك بالخير. وأما " روما" لما كانت في أجمل عصورها، فلقد شاهدت جميع جرائم الطغيان وهي تترعرع بين طهرانيها، بل وشاهدت نفسها وقد أشرفت على الهلاك، إذ ضمت تحت لواء واحد السلطة التشريعية والسلطان السيادي".¹ في حين أن الحكام العشرة*² أنفسهم لم يستأثروا أبداً بحق العمل على تقديم أي قانون بمحض سلطتهم وإرادتهم الخاصة. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "مع ذلك فإن مجالس القناصل العشرة، لم تستأثر قط بحق استصدار أي قانون بناء على السلطة التي لها وحسب، وإنما كان رجالها يقولون للشعب: "ليس هناك من شيء نقترحه عليكم، ويمكنه أن يقوم مقام القانون من دون رضاكم. يا أهل روما كونوا أنتم بأنفسكم صانعي القوانين التي يجب أن تصنع سعادتكم".³

ويرى روسو أن القانون الصادر عن الإرادة العامة، المعبرة عن السيادة الذي يضيف على الدولة السمة الشرعية، لا يمكن أن يعمل ضد المصلحة والخير العام وضد الحرية والعدالة والمساواة، وأنه ليس ثمة دولة شرعية إلا إذا حكمت بواسطة القانون⁴، وليس لمن يكتب القوانين، إذن ولا ينبغي أن يكون له أي حق تشريعي. ولا يستطيع الشعب نفسه عندما يريده أن يتنازل عن هذا الحق الذي لا يمكن انتقاله إلى جهة أخرى، لأنه بمقتضى العقد الاجتماعي ليس هناك إلا الإرادة العامة التي تلزم الأفراد. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وإذن فليس لمن يدون القوانين حق البتة في التشريع، أو قل يجب ألا يكون له ذلك. زد على ذلك أن الشعب نفسه، لا يمكنه التجرد من هذا الحق غير

¹ -جان جاك روسو ، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 126

² *-الحكام العشرة: (الرجال العشرة) باللاتينية: (décemvir) هو مصطلح لاتيني تُعنى به لجنة مؤلفة من عشرة أشخاص من عهد الجمهورية الرومانية. كانت تؤلف هذه اللجان بكثرة للبت في العديد من المسائل القانونية والإدارية.

³ -جان جاك روسو ، المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

⁴ -جان جاك شفالبييه، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، ص 496

القابل للنقل حتى لو كان يريد ذلك فبمقتضى الميثاق الأساسي ليس هناك من شيء،
عدا الإرادة العامة والشعب الذي يلزم الأشخاص، كما أنه لا يمكن أبدا التحقق من
مطابقة إرادة خاصة ما للإرادة العامة، إلا بعد أن تمثل أمام الاقتراعات الحرة التي يدلي
بها الشعب.¹، وهكذا نجد معا في تأليف التشريع أمرين يبدوا أنهما غير متفقين. حيث
يقول روسو في هذا الصدد: "على هذا النحو نلقى في صنعة التشريع أمرين إثنين البادي
منهما أنهما غير متلائمين: أولهما مشروع يفوق طاقة البشر، وثانيهما سلطة من شأنها
أن تنفذه، وهي ليست شيئا يذكر."²

وهناك صعوبة أخرى تستحق الاهتمام، وهي أن الحكماء الذين يريدون التحدث إلى
العامة بلغتهم بدلا من لغتها لا يمكن أن تفهمهم.³ إذ أن هناك ألف نوع من الأفكار التي
يستحيل ترجمتها إلى لغة الشعب. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "ثمة صعوبة أخرى أهل
لأن ننتبه إليها: ومفادها أن الحكماء الذين يريدون مخاطبة العامي بلغتهم هم بدلا من لغته
هو، لا أمل لهم في أن تدرك مقاصدهم، والحال أن هناك الآلاف من ضروب الأفكار التي
من المحال ترجمتها إلى لغة الشعب. أما الرؤى العامة بإفراط، والمواضيع القاصية بإفراط
فخارجة هي كذلك عما يطاله إدراك الشعب. ولما كان كل فرد لا يستسيغ من تخطيط
للحكومة إلا ما إتصل بمصلحته الخاصة، فإنه يتبين بصعوبة المزايا التي لا بد أن يجنيها
من ضروب الحرمان المتواصلة التي يقضي بها صلاح القوانين."¹

¹ - جان جاك روسو ، في العقد الاجتماعي ، مصدر سابق ، ص 127

² - جان جاك روسو ، المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

³ - جان جاك شفالييه، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، ص 496

¹ - جان جاك روسو ، في العقد الاجتماعي ، مصدر سابق ، الصفحة 127.

ولا يستطيع الشعب أن يتنازل عن سيادته أو حريته لأن هذه الأخيرة لم توجد إلا وفق قانون صادر عن الإرادة العامة،¹ ولكي يتمكن شعب ناشئ من تذوق المبادئ الأساسية الصحيحة في السياسة، ويتبع القواعد الأساسية في قيام الدولة. فلا بد من أن يدافع الشعب عن المصلحة العليا للبلاد وهو الصالح العام والخير العام، وأن تتصدر الروح الاجتماعية أهدافه الأساسية والتي يجب أن تكون من صنع النظام نفسه غايته. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "إن شعبا في طور الولادة، لأجل أن يستسيغ القواعد العملية القيمة التي للسياسة، وأن يقتدي بالسنن التي تقضي بها مصلحة الدولة العليا. لابد أن يتمكن المعلول من أن يصير علة، ولابد للروح الاجتماعية، وهي وجوبا صنيعة المؤسسة من أن تكون في أصل التأسيس نفسه، ولا بد للناس من أن يكونوا قبل وجود الشرائع ما من شأنهم أن يصيروا إياها بعونها. وعلى هذا النحو فإن المشرع إذن ليس في مستطاعه أن يستخدم لا القوة ولا الاستدلال بالفكر، لجأ اضطرارا إلى سلطة من مقام آخر. وهي تلك التي يمكنها أن تقود من غير عنف، وأن تقنع من غير أن تجادل."²

وهذا هو ما أجبر أباء الأمم في جميع الأزمنة على الاستعانة بالدين وبتدخل السماء، وأن ينسبوا إلى الآلهة فخر حكمتهم الخاصة، لكي تطيع الشعوب الخاضعة لقوانين الدولة كخضوعها لقوانين الطبيعة. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "ذاك هو ما أرغم أباء الأمم الأولين في جميع العصور على طلب السماء لكي تتدخل، وعلى تمجيد الآلهة نعتوها بالحكمة التي كانت حكمتهم أنفسهم، حتى أن الشعوب وهي المذعنة لقوانين الدولة على نحو ما تدعن لقوانين الطبيعة، وهي أيضا الشاهدة بوجود سلطان

¹ - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 307

² - جان جاك روسو، الصدر نفسه، الصفحة نفسها

أوحد في تكوين الإنسان وفي تكوين المدينة تأتي الطاعة عن حرية، وتحمل وزر النعمة العمومية عن لين وطواعية.¹

وإن المشرع يستعين في بعض الأحيان بالدين وبالسلطة الكنسية للتشريع ولسن القوانين²، فهذا العقل السامي الذي يرتفع فوق إدراك الناس العاديين، هو العقل الذي يضع به المشرع الأحكام على أفواه الخالدين ليقود بالسلطة الإلهية، أولئك الذين لا يمكن أن تترشحهم الحكمة البشرية. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وهذا العقل ذو المقام الجليل والذي يعلو على ما يمكن للعامة من البشر أن تطاله، إنما أحكامه هي ما يضعه المشرع على ألسنة الخالدين حتى يقودوا بإسم السلطة الإلهية."³

لكن العلاقة الموجودة بين المشرع والقانون والدين هي علاقة عرضية ومؤقتة وإن الفطنة والحكمة هي التي تديمه، وذلك أن المجد الباطل يشكل علاقة عابرة فليس ما يجعله دائما سوى الحكمة. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "ولكنه لن يقيم أبدا ملكا ذا شأنًا، وإنما تُلغى أثره يزول بزواله. و وحدها الحكمة تجعل العرى وثقا على الدوام. وبينما لا ترى الفلسفة المتكبرة، أي العصبية العمياء، في هؤلاء الرجال إلا دجالين و أتاهم الحظ، فإن رجل السياسة الحقيقي يعجب بما تطفح به مؤسساتهم من عبقرية عظيمة ومقتدرة، تلك التي تسهر على التأسيسات المستديمة."⁴

يرى روسو بأنه: يجب أن لا نعتقد أن هناك علاقة وثيقة بين السياسة والدين، وكل واحد يؤثر في الآخر، وإن لهما أيضا موضوع وميدان مشترك فكل واحد يستخدم الآخر كأداة ووسيلة لتحقيق أهدافه كما يرى ذلك "و.واربورتون"، حيث يقول روسو في

¹ - جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 127

² - جان جاك شفالبييه، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، ص 497

³ - جان جاك روسو، المصدر نفسه، ص 129

⁴ - جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، الصفحة 130.

هذا الشأن : " بيد أنه لا ينبغي أن نذهب إلى ما ذهب إليه « ويليام واربورتون»¹
William « warburton فنستخلص من هذا كله أن للسياسة وللدين موضوعا مشتركا
عندنا، وإنما أن كليهما كان، إبان أصل الأمم وانبعائها أداة يستخدمها الآخر.²

(3)-في الشعب:

إن الشعب يعتبر من المقومات ومن الركائز والشروط الأساسية لتأسيس ولقيام أي دولة
أو أي مجتمع سياسي، وعليه ترتكز الدولة والسلطة السياسية، "والشعب: le peuple هو
مجموعة من الناس يعيشون في انسجام ، وتفاهم على إقليم محدود ويخضعون لسلطة دولة
معينة، وهو يطلق على أركان الدولة ، حيث تتكون الدولة من شعب وإقليم وسلطة سياسية
ذات سيادة."³

وكما يفحص المهندس المعماري الأرض، ويختبر قوتها وصلابتها قبل إقامة بناء
ضخم عليها فإن المشرع الذكي والحكيم لا يبدأ بكتابة قوانين جيدة بذاتها، بل يفحص قبل
ذلك ما إذا كان الشعب الذي يضعها من أجله أهلا وقادرا على تحمل أعبائها وأنها صالحة
لهذا الشعب، وللبنية الثقافية والاجتماعية والحضارية الذي يتكون منها هذا الشعب.⁴ لأن
القوانين ليست كلها صالحة لكل الشعوب فكل شعب لديه خصوصياته ومميزاته الثقافية
والحضارية التي تميزه عن باقي الشعوب. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "مثله مثل
المهندس المعماري الذي تراه قبل أن يشيد معمارا ضخما، يفحص الأرض ويسبر ما في
داخلها لينظر إن كان في استطاعها أن تحتل ثقل المعمار، ترى الحكيم من المؤسسين لا

¹ -*«ويليام واربورتون (24 ديسمبر 1698 - 7 يونيو 1779) كان كاتبًا إنجليزيًا ، ناقد أدبي ورجل الكنيسة ، أسقف
جلوسست من 1759 حتى وفاته. قام بتحرير طبعات من أعمال صديقه الكسندر بوب، وبناءا على وليام شكسبير.

² -جان جاك روسو ، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 130

³ - أحمد عز الدين عبد الله ، -شوقي ضيف، -مجمع اللغة العربية المصرية، معجم القانون، مرجع سابق، ص 20.

⁴ -جان جاك شفالبييه، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، ص 497

يبدأ بتدوين شرائع تكون صالحة في ذاتها، وإنما يفحص قبل ذلك إذا ما كان الشعب الذي يريد أن يبلغه إياها كفاً لأن يكابدها، و قادر على تقبلها والخضوع لها. ولهذا السبب امتنع أفلاطون عن وضع قوانين " لأهل أركاديا " و"أهل فورينا" لعلمه أن هذين الشعبين الغنيين ليس في وسعهما أن يصبرا على المساواة. ولهذا السبب أيضا كانت " جزيرة كريت " شاهدة على ما فيها من قوانين صالحة ومن أناس أشرار، ذلك أن « مينوس*¹ Minos » لم يبعث الانضباط إلا في شعب محمل بالردائل.²

ولقد تأسست آلاف من الأمم والدول على وجه الأرض، ولم تكن تتمكن أبدا من تحمل قوانين صالحة، حتى تلك الأمم التي استطاعت ذلك ما كانت تداوم عليها سوى فترة قصيرة جدا من فترة بقائها. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "أمم كثيرة لا تحصى ولا تعد، وأن بريقها لم يدوم على وجه المعمورة، ولكن ما كان يمكنها أبدا أن تكابد القوانين الحسنة أو وضعت لها، وحتى تلك التي تم لها ذلك، فإنما تم إلى حين قصير فقط من عمرها المديد. لا يستقيم غالبية الشعوب ومعهم غالبية البشر أيضا، على الطاعة إلا في أثناء شبابهم."³

وإن الماضي والأعراف والعادات والتقاليد والإيديولوجيا والديانات والمعتقدات والأحكام المسبقة الموجودة في ذاكرة الأمم والحضارة السائدة فيها، لها تأثير كبير على الشعوب والمجتمعات البشرية، فيمكن لها أن توقف وتقوض القوانين وتعرقل الإصلاحات التي يريد المشرع أن يطبقها على هذه الشعوب وعلى هذه الأمم والمجتمعات البشرية

¹*- في الأساطير اليونانية، مينوس (في اليونانية القديمة Μίνως / Mínôs)، ابن زيوس وأوروبا (ابنة Agénor)، هو ملك أسطوري لجزيرة كريت.

²- جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 130

³- جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، الصفحة 130

أثناء هذه الفترة المتأخرة من أعمارهم.¹ حيث يقول روسو في هذا الشأن: "ثم يصيرون مستعصين على الإصلاح في أثناء شيخوختهم فإن الأعراف وقد تم لها الاستقرار، والأحكام المسبقة وقد ضربت بجذورها في الأعماق، عادت الرغبة في إصلاح تلك الشعوب مسعى محفوفًا بالمخاطر، ولا طائل من ورائه بل أن الشعب لا يحتمل المساس بشيء منه حتى بأوجاعه لأجل القضاء عليها، شأنه في ذلك شأن أولئك المرضى الأغبياء من عديمي الشجاعة الذين يرتجفون عند مشاهدة الطبيب."²

وإن حياة الأفراد مثل حياة الدول، وهذا يعني أنه كبعض الأمراض التي تدير رؤوس البشر، فتنزع منها ذكرى الماضي، يتفق أحياناً أنه تأتي في تاريخ الدول عصور عنيفة تحدث فيها الثورات في الشعوب فتحدث فيها تغييرات جذرية وراдикаلية وفوضى عارمة. وهذا ما تحدثه أزمات معينة في الأفراد فتقوم في نفوسها كراهية الماضي مقام النسيان. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "ليس المقصود مما تقدم أنه لا توجد أحياناً في عمر الدولة حقب من العنف شأنها شأن بعض الأمراض التي تهيج عقول البشر وتجردهم من ذكرى الماضي، فتحدث عقب العنف هذه في الشعوب ما تحدثه أزمات معينة في الأشخاص في حقب كهذه يقوم الفزع من الماضي مقام النسيان."³

ويمكن لهذه الأمم أن تفلت في بعض الأحيان من مخالب الحروب الأهلية، و الدمار و الإندثار والإنحلال والزوال⁴، وتعيد تشييد بنائها من جديد، وتتبعث من جديد و تفلت من قبضة الموت والفناء. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وفيها ترى الدولة، وقد اشتعلت فيها نيران الحروب الأهلية، تتبعث حية من تحت رمادها، وتستعيد عنفوان الشباب وهي تفلت

¹ - جان جاك شفالبيه، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، ص 497

² - جان جاك روسو ، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 131

³ - جان جاك روسو ، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، الصفحة 131

⁴ - jean . jacques rousseau, du contrat social, OP.CIT ,p35

من قبضة الموت. هكذا كان شأن إسبارطة في عهد ليكورغس، و شأن روما بعد سلالة « تاركان " *¹ Tarquin » وهكذا هو شأن هولندا وسويسرا عندما بعد أن طردتا الطغاة." ²

-ولكن يعتبر وجود هذه الأحداث أمرا نادرا، فهي يرجع سببها دائما إلى الدستور الخاص بالدولة المعينة. بل يمكن أن لا تحدث مرتين في تاريخ شعب واحد، إذ يستطيع الشعب أن يجعل من نفسه حرا طالما هو في حالة الهمجية، ولكن تنفذ منه القدرة على ذلك عندما تكون طاقته المدنية قد إستنفذت، حيث يقول روسو في هذا الصدد: "ولكن هذه الأحداث نادرة الوجود، فإنما هي استثناءات لها تعليلها في التكوين الخصوصي للدولة، التي يطالها الاستثناء، استثناءات لا يمكنها أن تحدث مرتين لشعب واحد بعينه ذلك أنه يستطيع أن يجعل من نفسه شعبا حرا طالما لم يكن شيئا سوى همجي، ولكنه لا يعود في مستطاعه شيء من ذلك عندما يهترئ نابضها المدني عندئذ تتمكن الاضطرابات من أن تدمره من دون أن تتمكن الثورات أن تعيد إرساءه، وحينما تكسر أغلاله يذهب هباءا منثورا، ولا يعود له وجود أبدا ومنذئذ صار يلزمه سيد لا محرر، أيتها الشعوب الحرة، ألا أذكري هذه الحكمة التي تقول: "يمكننا أن نكتسب الحرية، ولكننا لا نستردها أبدا." ³

إن الأمم شأنها، شأن الأفراد في ذلك، فلها مرحلة الرشد التي يجب انتظارها قبل إخضاعها لقوانين. ¹ -لكن مرحلة الرشد في حياة شعب من الشعوب ليست دائما مما

¹ -* Lucius Tarquinius Superbus (Tarquin the Superb N 1) باللاتينية) ، ابن أو حفيد Tarquin الأكبر وصهر Servius Tullius ، كان الملك السابع والأخير لروما. ملك من 534 قبل الميلاد. م حتى 24 فبراير 509 ق. م ، وتوفي عام 495 قبل الميلاد. ق- م.

² - جان جاك روسو ، في العقد الإجتماعي، مصدر سابق، الصفحة نفسها

³ - جان جاك روسو ، في العقد الإجتماعي، مصدر سابق، ص 131

¹ - jean . jacques rousseau *du contrat social* : OP.CIT ,p35

يسهل معرفتها والتنبؤ بها بسهولة، وإذا استبقناها ستذهب جهداً منثوراً. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "ليس الشباب هو الطفولة، هكذا يأتي على الأمم كما على البشر عهد من الشباب، أو قل إن شئت عهداً من النضج لا بد من انتظاره قبل أن نجعل تلك الأمم تخضع للقوانين، بيد أنه ليس من اليسر أن نقطن دائماً إلى النضج الذي لشعب من الشعوب، وإذا ما احتطنا لأمره في خيبة المسعى: فهذا شعب من الشعوب قابل للانضباط منذ ولادته، وذلك آخر ليس بقابل للانضباط بعد عشرة قرون." ¹

إن لكل شعب سماته وصفاته ومميزاته الخاصة به، فكل شعب يختلف عن الآخر في العادات والتقاليد والأعراف، وفي نمط العيش والحياة أيضاً والحضارة، فيستدل روسو هنا ويعطي أمثلة على هذا التنوع والاختلاف الثقافي والحضاري لدى الشعوب، حيث يقول: "كذا هم الروس لن يتمدّنوا في المدنية الحقّة أبداً، لأنهم بكروا في ذلك غاية التبكير. لقد كان "بطرس" * ² عبقرية في المحاكاة، ومعدوماً من العبقرية الحقيقية تلك التي

¹ - جان جاك روسو ، المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

² - * بطرس الأكبر أو بيتر العظيم أو بيتر الأول أو بيوتر ألكسييفيتش روما نوفمبر 9 (يونيو 8 - 1672 فبراير 1725) وقصر روسيا الخامس، (يسمى بالروسية) Пётр I Алексеевич: ولد في الكرملين عام 1672. حكم روسيا من عام 1682 خلفاً للقيصر فيودر الثالث وحتى وفاته عام 1725. وقد كان يحكم روسيا بدايةً حتى 1696 مشاركاً لأخيه غير الشقيق القيصر إيفان الخامس في الحكم حيث أن الأخير كان يعاني المرض. كان بطرس رجل المتناقضات، فكان عنيفاً قاسياً عديم الصبر انتقامياً ولكنه كان أيضاً شجاعاً بعيد النظر ذكياً حساساً. دمر عدة مؤسسات قائمة ولكنه أدخل تأثيرات إيجابية من الغرب إلى بلده روسيا. يُعتبر بيتر العظيم أحد أعظم من حكموا روسيا على مدار تاريخها. وقد قاد سياسة تحديث وسياسة التوسع التي حولت روسيا القيصرية إلى الإمبراطورية الروسية والتي باتت إحدى أهم القوى على مستوى أوروبا. وهو مؤسس مدينة سانت بطرسبرغ والتي مثلت عاصمةً لروسيا على مدى أكثر من قرنين من تاريخها ليكون قصر إمبراطوريته الآسيوية في محجر أوروبا، وأدخل كثيراً من الفنون الغربية والأساليب المعمارية إلى المدينة الجديدة. خلفته في الكرسي زوجته الإمبراطورة كاثرين الأولى. كما أجرى عدة إصلاحات في الإدارة والمالية والصناعة والمجتمع. زار إنجلترا وهولندا عندما كان شاباً وكان يتكر أحياناً ويعمل في بناء السفن، فأسس جيشاً حديثاً وبنى أسطولاً بحرياً عظيماً لروسيا. انتهج بطرس الأكبر سياسة ثقافية جديدة للدولة وقد أراد تغيير أدواق الروس وتعريفهم بالتراث الثقافي الأوروبي، إذ أمر بطرس رجال حاشيته ومستشاريه الذين كانوا ملتحمين أن يحلقوا لحاهم فامتعضوا كثيراً لأن اللحية كانت عندهم شيئاً مقدساً. فطلب بطرس اثنين من الحلاقين وراح يقص اللحي بنفسه. كان هدف بطرس الأكبر

تخلق وتصنع كل شيء من لاشيء فبعض الأمور مما صنع بطرس كان حسنا بينما كان أكثرها في غير موضعه.¹

لقد رأى بطرس أن شعبه همجي ولكنه لم يتبين أبدا أنه لم يكن ناضجا بعد للمدينة² والتمدن فأراد تحضيره، في حين لم يكن عليه إلا أن يدرجه على الحرب. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "لقد نظر كيف كان شعبه همجيا، ولم ينظر كيف لم يكن نضجا مهياً للمدينة، لقد أراد أن يجعله متحضرا حينما لم يكن يلزمه شيء سوى تعويده على الحرب."³، وهكذا قبل كل شيء أراد أن يخلق ألمانا و إنجليزا من الروس عندما كان يجب أن يجعلهم روس. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "أراد بادئ ذي بدء أن يجعل من شعبه ألمانا وإنجليزا، حينما كان لابد من البدء بجعلهم روسا هكذا حال بطرس دون رعيته ودون أن تصير يوما ما كان يمكنها أن تكون، بأن زين لها، تظن أنها قد كانت ما ليست إياها على الحقيقة."⁴

ويرى روسو بأنه سوف ترغب الإمبراطورية الروسية في قهر أوروبا ولكنها ستقهر نفسها¹: إذ يصبح التتار رعاياها، سادتها وسادتنا معا وسادة كل أوروبا. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "سوف تسعى الإمبراطورية الروسية إلى استعباد أوروبا، لكن

آنذاك جعل روسيا دولة أوروبية سياسيا وثقافيا. ورعى مهمة إرسال الطلبة الروس إلى الجامعات الأوروبية للدراسة. (ويكيبيديا)

¹ -جان جاك روسو ، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 132

² - jean. jacques rousseau. (2012). *du contrat social* , enag. alger, reghaia, algerie.P35.

³ - جان جاك روسو ، المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

⁴ - جان جاك روسو ، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 132

¹ -jean. Jacques rousseau, *du contrat social* , OP.CIT ,p35

روسيا نفسها هي التي ستتعبد ذلك أن التتار سواء رعية من رعايا روسيا كانوا، أو جارا من جيرانها هم الذين سيصيرون أسيادا عليها، وعلينا نحن كذلك والظاهر لعياني أن هذه الثورة آتية لا محالة. أما ملوك أوروبا أجمعون فيكدون بالتوافق بينهم على التعجيل بوقوعها.¹

كما أعطت الطبيعة حدودا لقوام الرجل حسن التكوين، كذلك راعت التكوين الأفضل للدولة بالحدود التي يمكنها أن تمتد إليها، لكي لا تكون كبيرة جدا يتعذر حكمها على وجه حسن، ولا صغيرة جدا لكي تستطيع المحافظة على نفسها بنفسها. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "على نحو ما فعلت الطبيعة إذ حدثت بحدود الهيئة التي تكون لإنسان سوي الشكل - فإن هو تخطى تلك الحدود لا تعود الطبيعة تصنع سوى عمالقة أو أقزام، توجد كذلك باعتبار أفضل دستور للدولة. حدود لامتداد الأطراف الذي يمكن الدولة أن تتسع لها فلا تكون بالغة الصغر، يمكنها أن تديم نفسها بنفسها. هناك في كل جسم سياسي حد أقصى من القوة لا يقدر على تخطيها، وحد غالبا ما يتقاصى عنه الجسم السياسي بقدر ما يزداد اتساعا."²

وكلما إتسعت الرابطة الاجتماعية كلما تراخت، وبصفة عامة تكون الدولة الصغيرة نسبيا أقوى من الكبيرة. و هناك ألف دليل للبرهان على صحة هذه الحقيقة العامة³. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وكلما ازدادت الرابطة الاجتماعية امتدادا ازدادت ارتخاء، وهكذا على العموم. فإن دولة صغيرة أقوى، على وجه النسبة، من دولة كبيرة. إن حجبا لا تحصى ولا تعد تقدم البرهان على هذه القاعدة. و أولها أن الإدارة تصبح أشق بتعاضد المسافات بين الأطراف على نحو ما يصبح الوزن أثقل، في طرف رافعة أطول. وتصبح الإدارة أكثر كلفة كلما تعددت المراتب: ذلك أن لكل حاضرة إدارتها التي يدفع الشعب

¹ - جان جاك روسو ، المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

² - جان جاك روسو ، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 133

³ - jean. Jacques rousseau, *du contrat social*, OP.CIT ,p35

نفقتها أيضا.¹، "ويلي ذلك كل ولاية، ثم الحكومات الكبيرة و الأقاليم و الإيالات النائية عن الملك، وهكذا بقدر ما نصعد في تلك المراتب يلزم دائما أن يزداد الإنفاق ونفقات الدولة".²

ويكون ذلك دائما على حساب الشعب البائس، وفوق ذلك كله تأتي الإدارة العليا التي تسحق الجميع فإن أعباء كثيرة كهذه الأعباء تستنزف قوى الرعايا باستمرار. حيث يقول روسو في هذا الشأن: "و يكون على حساب الشعب المسكين دائما. وأخيرا تأتي إدارات الإدارات التي تسحق كل شيء. ألا كم هي كثيرة الأعباء المالية الفائقة التي تنتهك الرعايا إنهاكا متواصلا، ولئن كان الأبعد منالا، بالنسبة إلى هؤلاء، هو أن تحكمهم جميع هذه المراتب المختلفة حكما يكون أفضل فإن الأدهى في الأمر أن تكون على رأسهم سلطة واحدة تحكمهم، حينئذ. لا يكاد يبقى شيء من الموارد لأجل الحالات الخارقة للعادة وعندما يلزم الاستتجاد بتلك الموارد دائما تكون الدولة على حافة خرابها ليس هذا كل ما في الأمر: فغير كاف كون الحكومة تلك أقل عنفوانا وأقل تسريعا حتى تحمل الرعايا على مراعاة القانون. ودرء تعديات بعضهم على بعض، وإصلاح الشطط، والاحتياط للفتن مما قد يحدث في الأماكن البعيدة ولكن الشعب، إضافة إلى ذلك، يكون أقل وجدانا تجاه رؤسائه، وهم الذين لا يراهم أبدا، وتجاه وطنه الذي، وهو الذي يتساوى أمام ناظره و العالم، وتجاه شركائه في المواطنة و أغلبهم غرباء عنه".¹

يعتبر روسو أن العقد الاجتماعي يعطي الإرادة العامة سلطة مطلقة على جميع أعضاء المجتمع السياسي²، وأنه على الشعب أن لا يقف موقف سلبي، أي موقف المتفرج الذي لا

¹ - جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 133.

² - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

¹ - جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 134

² - موسى إبراهيم، الفكر السياسي الحديث والمعاصر، مرجع سابق، ص 161

1 بيالي وإنما عليه ان يسهر على صيانة القوانين، وأن يهتم كل فرد بأمر الحكم في بلده. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "إن عين القوانين الواحدة لا يمكنها أن تلائم هذا الكم الهائل من شتى الأقاليم ذات الخلق الجارية المختلفة، والتي تعيش في مناخات متضادة، فلا تكون مهيأة للعيش في كنف حكومة شكلها هو عينها بالنسبة إلى الجميع." ²

فالقانون هو تعبير عن الإرادة العامة إذ يرى فيه روسو السبيل الوحيد للوقوف في وجه الاستبداد، ³ وحتى القوانين نفسها لا يمكنها أن تلائم ذلك العدد الكبير من الولايات المتباينة، التي تكون لكل منها طباعها المختلفة، وتعيش في ظل ظروف متعارضة وبالتالي لا يمكن أن تحمل شكل الحكومة نفسها. حيث يقول روسو في هذا الشأن: "ثم إن اختلاف القوانين لا يولد سوى الإضطراب والحيرة بين شعوب تلتافها، وهي التي تعيش تحت إمرة الرؤساء أعينهم، وتتواصل في ما بينها تواصلا مستمرا، ويجمع بينها المتناقضات، إضافة إلى ما يجري عليها من أعراف أخرى تختلف عن أعرافها، نلقاها، وحالها تلك لا يعرف الواحد منها أبدا إذا ما كان ميراثه يعود إليه حقا." ⁴، فتذهب وتدفن المواهب وتغفل الفضائل والأخلاق، وتظل الرذائل بلا عقاب و لا حساب في ذلك الجمع من الناس الذين يجهل بعضهم بعضا. و الذين تضمهم سلطة إدارية عليا و مركزية في مكان واحد. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "أما المواهب فتظل مغمورة، والفضائل مجهولة والرذائل لا يطالها، في هذا الحشد من البشر وبعضهم نكرات لبعضهم الآخر. فإذ بمركز الإدارة العليا يحشدهم في موضع

¹ -محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 308

² - جان جاك روسو، المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

³ -موسى إبراهيم، الفكر السياسي الحديث والمعاصر، الصفحة نفسها

⁴ - جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 134.

واحد. وأما الرؤساء، فإنّ أثقلتهم الأعمال و صاروا لا يبصرون شيئاً بأعينهم، فيعود حكم الدولة إلى أيدي مأموريها.¹

فإن القانون لا يمكن أن يكون جائراً ولا يمكن لأي حاكم أن يضع نفسه فوق القانون²، وإنه هناك أمور أساسية لكي تدوم السلطة العامة، وهي أمور ينبغي عدد من موظفي الدولة البعيدين عن مركز السلطة التهرب من أدائها و يريدون إرغامها على غيرهم. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وأخر الأمر فإنك ترى تلك التدابير اللازمة لدوام السلطة العامة، وهي تدابير يريد عدد من موظفي الدولة الأبعدين عن المركز التملص من أدائها أو يريدون فرضها على غيرهم فرضاً، تراها تستأثر بكامل العناية العمومية حتى لا يبقى منها شيء يصرف لأجل هناء الشعب. بل لا يكاد منها شيء لأجل الدفاع عنه إذا دعا الداعي على هذا النحو، ترى كيف أن جسماً مفرطاً في الضخامة بالنظر إلى بنيته يتهاوى و يتهالك ممحوقاً تحت أثقاله هو بالذات."³

ولا بد للدولة من ناحية أخرى، من أن توفر لنفسها أساساً معيناً لضمان صلابتها وقوتها و صمودها في وجه الهزات و الانقلابات التي ستعرض لها و ستضطر إلى بذله من أجل جهد في سبيل تدعيم نفسها. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وأما من جهة أخرى فقد وجب على الدولة أن توفر لنفسها قاعدة ما لكي تكتسب الصلابة و الرسوخ، وتقاوم الهزات التي لا مناص لها من الابتلاء بها. وتداوم على الجهود التي ستضطر إلى بذلها حتى يرسخ كيانها. ذلك أن لجميع الشعوب قوة نابذة بمقتضاها يسعى بعضها

¹ - جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 135

² - موسى إبراهيم، الفكر السياسي الحديث والمعاصر، مرجع سابق، ص 161

³ - جان جاك روسو، المصدر نفسه، ص 135

ضد بعض ، وينزع إلى التوسع على حساب جيرانه على نحو ما تفعل دوات ديكارت.¹

وهكذا سرعان ما تتعرض الشعوب الضعيفة منها للابتلاع، وقلما يستطيع أحد منها أن يحافظ على بقاءه، إلا بأن يضع نفسه مع الجميع، في نوع التوازي يجعل الضغط في كل مكان متساويا تقريبا. ويؤيد روسو حق الشعب في التشريع والسيادة². حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وهكذا فإن المستضعفين يتهددهم الابتلاع في أقرب حين، وما من أحد يمكنه، أن يحفظ بقاءه أو يكاد، اللهم أن يدخل معية الجميع في نوع من التوازن يجعل الضغط أينما كان متساويا على وجه التقريب. يتبين لنا بذلك أن هناك أسبابا للتوسع وأسبابا للانكماش. و لا يكفي رجل السياسة أن تكون له أدنى المواهب حتى يوجد بين هذه وتلك النسبة الأصلح لبقاء الدولة. و على العموم، يمكننا القول بأن الأسباب الأولى، وهي ليست كذلك سوى خارجية ونسبية وجب أن تكون تابعة للأخرى وهي أسباب داخلية ومطلقة".³

وإن أول ما يجب العمل على تحقيقه هو دستور صحيح وقوي، وأن الهدف الأساسي الذي يرغبه الشعب هنا هو تأسيس و تكوين قوي للدولة ويجب أن يؤمن بالحكومة الصالحة أكثر من مقومات والموارد التي تعطيها لها الأراضي الشاسعة. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "ألا إن أول ما يلزم السعي إليه إنما هو التكوين القوي، لذا وجب أن نتوكل على العنفوان المتأتي من حكومة صالحة، أكثر من توكلنا على الموارد التي توفرها الأراضي الشاسعة".⁴

¹ - جان جاك روسو ، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 135.

² -موسى إبراهيم، الفكر السياسي الحديث والمعاصر، مرجع سابق، ص 161

³ - جان جاك روسو، المصدر نفسه ، الصفحة نفسها

⁴ - جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 135.

ومع ذلك رأينا دولا متكونة على نحو كانت ضرورة الفتوحات و الغزو تدخل في دستورها نفسه، وأنها كانت للإبقاء على نفسها مجبرة على التوسع بلا انقطاع. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "عدا ذلك فلقد شاهد الناس دولا تكونها ضخم أي ضخامة حتى أن الاضطراب إلى الغزوات صار كامنا في صميم تكوينها، فكانت مرغمة على التوسع، غير منفكة، لأجل دوامها. ربما كثيرا ما يطيب لهذه الدول أن تزهر بهذا الاضطراب المبارك حتى ولئن بين لها، وقد بلغت من عظمة توسعها حداً الأقصى، إن لحظة انهيارها المحتوم قد حانت."¹

(4) - في مختلف طرق التشريع:

إن القانون هو نتاج خالص لإرادة الشعب الكلية والعامة، ولقد ظهر من الشعب ولأجله، ولتحقيق الصالح العام والخير المشترك²، وإذا بحثنا فيما يتكون بالضبط أعظم خير للجميع، والذي يجب أن يكون غاية كل نظام تشريعي لوجدنا أنه ينحصر في هذين الغرضين الرئيسيين والذي هما الحرية والمساواة³. حيث يقول روسو: في هذا الصدد: "إذا كنا نبحث فيما يشتمل عليه بالضبط أكبر خير يكون للجميع، وهو الذي يجب أن يكون غاية كل نظام تشريعي ألفينا أنه ينحصر في موضوعين رئيسيين: ألا وهما الحرية والمساواة. لأن غاية أي دولة أو أي نظام سياسي هي تحقيق الخير العام وتحقيق السلم الداخلي والخارجي، وحماية حقوق الأفراد. فأما الحرية فواجبة لأن كل تبعية جزئية إنما يكافئها نقصان بالقدرة نفسه من القوة التي لجسم الدولة، وأما المساواة فواجبة لأن الحرية لا يمكنها أن تدوم من

¹ - جان جاك روسو ، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص135.

² - مهدي محفوظ، اتجاهات الفكر السياسي الغربي الحديث والمعاصر، مرجع سابق، ص151

³ - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص308

دونها.¹ ، "فالحرية والمساواة هما مبدآن أساسيان يقوم عليهما كل نظام سياسي شرعي يتأسس بواسطة الرضا والعهد و التعاقد".²

ولا يحد السيادة العامة إلا حد وحيد هو الذي يرسمه العقد الاجتماعي نفسه ونسبها إلى الشعب كله، وتتحقق الحرية والمساواة في ثنايا العقد الاجتماعي،³ و لقد تحدث روسو سابقا عن الحرية المدنية، أما ما يتعلق بالمساواة فلا يجب أن نفهم من هذه العبارة أن تكون درجات القوة والثراء هي نفسها صورة مطلقة، و إنما يعني فيما يتعلق بالقوة، أن تسمو على العنف وأن لا تمارس أبدا إلا بمقتضى المركز والقوانين. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "كنت من قبل قد عرفت ما هي الحرية المدنية. فأما ما إتصل بالمساواة، لزمنا أن لا نفهم من هذه الكلمة أن درجات القدرة و الثراء لا بد لها أن تكون أسوء بين الجميع إطلاقا، وإنما القصد من جهة القدرة، ألا تبلغ درجة العنف، وألا تمارس أبدا إلا بما توجبه المرتبة والقوانين".⁴

ويجب أن ترتكز الثروة على مبدأ القانون وعلى مبدأ تكافؤ الفرص⁵ ، لا على القوة والاحتكار والسطو والاستغلال والاستعباد، وأن تكون هناك عدالة توزيعية في توزيع الثروات بين المواطنين، وأن ترتكز على مبدأ العدالة والمساواة بين المواطنين، "وأما من جهة الثروة فالقصد ألا يكون لأي مواطن، كائنا ما كان من الرخاء ما يكفي حتى يبتاع مواطنا آخر، و ألا يكون لأي مواطن من الفقر ما يكفي حتى يضطر إلى بيع ذمته. وأن هذا ليفترض

¹ - جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر مرجع سابق، ص 135

² - جان جاك روسو، المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

³ - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 298

⁴ - جان جاك روسو، المصدر نفسه، ص 139

⁵ - محمد علي عبد المعطي، المرجع نفسه، ص 298

الاعتدال في الثروة وفي المقام، عند كبار القوم، والاعتدال في الجشع والطمع عند صغارهم.¹

يجب أن تكون هناك عدالة اجتماعية، ونوع من التوازن بين طبقات المجتمع، لكي لا يحدث هناك صراع طبقي بينهم لأن الصراع سوف يؤدي إلى فوضى وإلى حروب وإلى أزمات وفتن وإلى هلاك المجتمع السياسي وسقوط الدولة.

إن العدالة هي أم الفضائل كما يرى الفلاسفة اليونانيون القدامى (أفلاطون، أرسطو) ولا يمكن أن تكون هناك سكينة وسعادة في المجتمع إلا بوجود العدالة والمساواة والحرية وتكافؤ الفرص بين أفراد المجتمع، بعضهم يقول أن هذه المساواة وهم من أوهام التأمل، ولا يمكن أن يوجد عملياً، ولكن إذا كان التعسف لا مفر منه فهل ينتج عن ذلك أنه لا يجب تنظيمه. حيث يقول روسو في هذا الشأن: "يقول بعضهم إن مساواة كهذه لوهم من أوهام النظر فلا يمكنها أن توجد في باب العمل، ولكن إذا كان لا مناص من الشطط، فهل عن ذلك أنه ليس من اللزوم أن يضبط بقواعد في أدنى الحالات؟ ها هنا بالضبط لما كانت القوة الكامنة في طبائع الأشياء تجري دوماً إلى تدمير المساواة، وجب على القوة الكامنة في القانون والتشريع أن تجري دوماً إلى صونها."²

ولأن فضيلة العدالة تعتبر منذ القدم بأنها أم الفضائل وهذا منذ اليونان القدامى، وإن هذه الأهداف العامة في كل نظام صالح يجب أن تعدل في كل بلاد بالعلاقات التي تنشأ سواء عن الوضع المحلي أم عن طبائع السكان، لتحقيق الخير العام والصالح العام. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "غير أن هذه الموضوعات العامة التي يضعها كل تأسيس صالح

¹ - جان جاك روسو ، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 139.

² - جان جاك روسو ، المصدر نفسه، ص 140

يجب تعديلها في كل بلد واحدا، واحدا، وذلك بحسب العلاقات التي تتولد عن الوضعية المحلية.¹

ويجب على أساس هذه العلاقات تعيين أفضل نظام من التكوين لكل شعب، وعن طبع السكان وباعتبار هذه العلاقات، لا بد من أن يعين لكل شعب من الشعوب نظام تأسيسي ليس من شأنه أن يكون الأفضل في حد ذاته، وإنما بالنسبة إلى الدولة التي بعث من أجلها وعلى سبيل المثال إذا كانت التربة شحيحة ومجدبة، أو كانت البلاد ضيقة جدا على سكانها فيجب الانصراف إلى ناحية الصناعة والفنون التي يمكن مبادلة منتجاتها بالسلع الغذائية الناقصة². حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وعلى سبيل المثال: إذا كانت الأرض جديبا وعقيمة أو البلاد ضيقة وغاصة بسكانها غصصا مفرطا: - فيجب الانصراف إلى ناحية الصناعة والفنون التي يمكن مبادلة منتجاتها بالموث الغذائية الناقصة، وعلى العكس، إذا كانت هناك سهولة غنية وسفوح خصبة، و إذا كان السكان قليلين في أرض طيبة: - فلا بد من أن تتصرف الاهتمامات صوب الزراعة التي تؤدي إلى تكاثر البشر، وإلى الابتعاد عن الحرف التي تؤدي إلى تفريغ البلاد من سكانها القليلين، وتجميعهم في مناطق معدودة، و إذا كانت البلاد شواطئ ممتدة، وصالحة لأبد من ملء البحر بالسفن والاعتناء بالتجارة والملاحة، وهذا ما يكفل حياة مزدهرة وقصيرة."³

وفي حالة ما إذا كانت البلاد تحتوي على شواطئ واسعة وصالحة لأبد من ملء البحر بالسفن والاعتناء بالتجارة والملاحة، وهذا ما يكفل حياة متطورة وقصيرة. وإذا كانت البلاد صخرية، ولا تصلح للملاحة فليبقى السكان متوحشين يعيشون على نتاج البحر وبذلك

¹ - جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 140.

² - jean . jacques rousseau, *du contrat social*, OP.CIT ,p41

³ - جان جاك روسو، المصدر نفسه، ص 141

يعيشون حياة هنيئة وهادئة¹. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وإذا كانت البلاد صخرية ولا تصلح للملاحة فليبقى السكان متوحشين يعيشون على نتاج البحر، وبذلك يعيشون حياة أهدأ، وربما تكون أفضل، وأكثر سعادة بالتأكيد. وجملة القول أن كل شعب من الشعوب إلى جانب هذه المبادئ الأساسية المشتركة بين الجميع، تشتمل في ذاته على سبب ما ينظم تلك المبادئ الأساسية المشتركة بين الجميع. وعلى هذا النحو كان العبرانيون قديما والعرب حديثا قد إتخذوا من الدين مسعاهم الرئيسي، وأما الأثينيون فلهم الأدب، وقرطاج وصور لهما التجارة، ورودوس لها الملاحة، وإسبارطة لها الحرب، وروما لها فضيلة العنفوان، وقد ضرب مؤلف روح الشرائع: شتى الأمثلة بين بها بأي صنعة فائقة يقود المشرع التأسيس صوب كل موضوع من تلك الموضوعات."²

وإن ما يجعل تكوين دولة ما قويا وقوية حقيقة ودائما. هو مراعاة العادات والتقاليد والثقافة مراعاة دقيقة بحيث تتلاقى العلاقات الطبيعية والقوانين بانسجام وتتأسق تام دائما في نفس المنوال والنقاط ولا يكون من شأن هذه القوانين التفريق بينها، ويكون ذلك بوضع علاقات متناسقة ومنسجمة بين أفراد المجتمع السياسي، إلا أنها تؤمن وتواكب تطور المجتمع، وتقوم تلك العلاقات على التضامن بين أفراد المجتمع، وتبتعد كل البعد عن التفاوت والفوارق التي تثير الأزمات والفتن بين أفراد المجتمع.³ حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وأما ما يجعل تكوين الدولة صلبا، وراسخا على الدوام حقا فهو أن تراعى التوافقات المراعاة كلها، حتى ليحصل التوافق دائما بين العلاقات الطبيعية، والقوانين على المسائل نفسها بعينها. ولكأن عمل هذه القوانين إنما في ترسيخ تلك العلاقات ومعاضدته وتصحيحها. ولكن إذا حدث أن خاب المشرع في مسعاه فإتخذ مبدأ مغايرا للمبدأ الذي ينجم عن طبيعة

¹- jean . jacques rousseau, *du contrat social*, OP.CIT ,p41

²-جان جاك روسو ، في العقد الإجتماعي ، مصدر سابق، ص 141

³- jean . jacques rousseau , *du contrat social* : OP.CIT ,p,p, 41,42.

الأشياء. فرأيت أحد المبدأين يتوق إلى العبودية والآخر إلى الحرية، الواحد منها إلى تكديس الثروات والآخر إلى التزايد السكاني، الواحد منهما إلى السلام والآخر إلى الغزوات، وإذا حدث كل هذا شاهدت القوانين آيلة إلى الوهن شيئاً فشيئاً والتكوين الأصلي يعتريه الفساد، والدولة ما تنفك مضطربة إلى أن تدمر وتغير هيئتها، وإلى أن تسترد الطبيعة التي لا تقهر ملكوتها.¹

(5) - في تقسيم القوانين:

إن كل فرد يتنازل للهيئة الاجتماعية عن حريته، وماله من حقوق لتحقيق الغرض الأسمى الذي من أجله تأسست الدولة والذي هو الصالح العام و الخير العام وحماية أملاكه وتحقيق السلم والأمن الداخلي والخارجي، والذي يعد صالحه هو في نفس الوقت². وعلى ذلك فالهيئة الاجتماعية يجب إذن أن توجه سلطاتها الى كل ما فيه مصلحة الشعب وخيره، وثمة روابط مختلفة يجب مراعاتها من أجل تنظيم الكل، أو إعطاء أفضل شكل ممكن للدولة. أولاً عمل الهيئة بأكملها في تأثيرها على نفسها أي علاقة الكل بالكل. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "لأجل ترتيب الكل أو قل لأجل إكساب الشأن العمومي أفضل شكل ممكن لزم أن تعتبر علاقات شتى، و أولاًها عمل الجسم بأكمله و هو يفعل فعله في نفسه بنفسه، وأعني بذلك علاقة الكل بالكل، أو قل علاقة صاحب السيادة بالدولة.³

إن القانون هو نتاج خالص لإرادة الشعب الكلية والعامة. ولقد ظهر من الشعب ولأجله والقانون ما هو إلا فعل الإرادة العامة، ومن هنا فإن القانون ليس له معنى غير

¹ - جان جاك روسو ، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 141.

² - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 298

³ - جان جاك روسو ، المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

السيادة.¹ وإن **القوانين الأساسية** هي التي تدير الدولة وتنظمها كيلا يحدث هناك طغيان و استبداد من طرف الحكام ولكي لا تعم الفوضى والدمار والهلاك. وتحمل القوانين التي تنظم هذه العلاقات إسم القوانين السياسية أو الأساسية. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "تحمل القوانين التي تنظم هذه العلاقة إسم القوانين السياسية وتسمى أيضا بالقوانين الأساسية، وليست هذه التسمية عديمة الحق، ولو قليلا، متى كانت هذه القوانين حكيمة. ذلك أنه إذا لم تكن موجودة في كل دولة إلا طريقة واحدة صالحة لترتيب شؤونها، فأحرى بالشعب الذي أوجدها أن يتقيد بها، ولكن إذا كان النظام القائم طالحا، فلماذا تؤخذ تلك القوانين مأخذ القوانين الأساسية."²

ومن جهة أخرى فإن الشعب على كل حال هو السيد دائما، في تغيير قوانينه حتى وإن كانت أفضل القوانين. وأن أية قواعد أو أوامر تمس مصالح الشعب وتقوض المنفعة العامة لا يكون لها صفة القانون حتى ولو كانت صادرة من السيادة.³ حيث يقول روسو في هذا الصدد: "فإن شعبا ما هو الفيصل في تبديل قوانينه، بل و تبديل أفضلها أيضا، وذلك إذا كان يحلو له أن يجلب الضرر لنفسه بنفسه، فمن الذي له الحق الحيلولة دون ذلك؟"⁴

ولا يوجد إلا عقدا واحد وميثاق وحيد هو ميثاق الجميع مع الجميع و استسلام الإرادة الفردية كلها لإرادة عامة واحدة⁵، وإن العلاقة الثانية هي علاقة الأعضاء بعضهم ببعض وعلاقتهم مع الهيئة بأكملها: وهذه العلاقة يجب أن تكون في الاعتبار الأول،

¹- محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 304

²- جان جاك روسو ، في العقد الإجتماعي، مصدر سابق، ص 141

³- محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 304

⁴- جان جاك روسو، المصدر نفسه، الصفحة نفسها .

⁵- محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 300

صغيرة جدا وفي الاعتبار الثاني كبيرة جدا بقدر ما يمكن أن يكون. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وأما ثنائية تلك العلاقات فهي علاقة الأعضاء بين بعضهم بعضا، أو هي علاقة الأعضاء بالجسم بأكمله. وإنه ينبغي لهذه العلاقة أن تكون من المنظور الأول، متناهية الصغر. وتكون من المنظور الثاني متناهية الكبر بقدر الإمكان بحيث يكون كل مواطن مستقلا عن جميع المواطنين كاتم ما يكون الاستقلال، ويكون تابعا للمدينة السياسية كأشط ما تكون التبعية، وهذا ما يقع دائما بجميع السبل، ذلك أنه لا يوجد سوى قوة الدولة في مستطاعه أن يصنع الحرية التي لأعضائه. وإن لمن هذه العلاقة الثانية تتولد القوانين المدنية."¹

ولا سيادة إلا سيادة الشعب وسيادة الإرادة العامة، على شرط أن تنتج عنها قوانين صالحة تستهدف المصلحة العامة، ومصلحة جميع المواطنين. و لا تعارض هذه القوانين قوانين الطبيعة وفوائدها ولذا يتمتع على أي قانون يضطهد المواطن بوجه من الوجوه.² ويمكن النظر في نوع ثالث من العلاقة بين الإنسان والقانون وهي المتعلقة بعدم **الخضوع والعقوبة**، وهي من مصدر **القوانين الجزائية**. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وأما ثالثة العلاقات التي من الجائز اعتبارها فهي بين الإنسان و القانون: - ألا وهي علاقة العصيان بالعقوبة، التي تلزمه. وتؤدي هذه العلاقة إقامة القوانين الجنائية، وهي ليست في باطنها خاصا من القوانين بقدر ما هي التصديق على سائر القوانين الأخرى."³

يضاف إلى هذه الأنواع الثلاثة من القوانين نوع رابع، وهو أهمها جميعا وهو القانون الذي لا ينقش على الرخام ولا على البرونز وإنما في **قلوب المواطنين**، والذي

¹-جان جاك روسو، في العقد الإجتماعي، مصدر سابق، ص 141

²- محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 300

³-جان جاك روسو، المصدر نفسه، الصفحة نفسها

يصنع تكوين الدولة الحقيقية. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "ثم يأتي ضرب رابع من القوانين يضاف إلى الضروب الثلاثة تلك وهو الأهم بينها جميعا، لا يمكن نقشه على الرخام، ولا على البرونز وإنما في طي أفئدة المواطنين، إنه هو الذي يصنع دستور الدولة الحقاني وهو الذي يكسب يوما بعد يوم عنفوانا جديدا، وإذا ما أصاب الهرم القوانين أو خمدت شعلتها كان هو الذي يحييها أو يقوم مقامها، وهو الذي يديم الشعب على مقاصد نشوئه، ويستعويض شيئا فشيئا عن قوة السلطة بقوة العادة." ¹

وإن القانون ليس له من معنى غير السيادة ²، وهناك نوع آخر من فروع التشريع ويعني به روسو الطباع والعادات والأعراف والتقاليد وعلى الأخص الرأي العام وهو فرع مجهول لدى السياسيين، لكن نجاح جميع القوانين الأخرى يتعلق به. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وإنه لأعني: بذلك الأخلاق الجارية والأعراف، ولا سيما الآراء: فهي فرع من فروع التشريع مجهول عند ساستنا، ولكن عليه يتعلق تحقيق سائر الفروع الأخرى، إنه فرع ينشغل به في الخفاء كل مشرع عظيم. حتى وإن رأيت منشغلا في الظاهر بالنظم الجزئية حصرا، تلك النظم التي تعمل ما يعملها القوس لبناء الأقبية فتأتي الأخلاق أخيرا." ³

(6) - *تقسيم الحكومات:

في هذا الفصل يتحدث روسو عن تقسيم الحكومات وعن كيف يتم هذا التقسيم، ولماذا هذا التقسيم وما السبب، وما هي الغاية من هذا التقسيم وما هي أشكال الحكومات التي ستتجم من هذا التقسيم. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "رأينا في الفصل السابق

¹ - جان جاك روسو ، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق ، ص 143

² - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 300

³ - جان جاك روسو ، المصدر نفسه، الصفحة نفسها

لماذا نميز بين مختلف أنواع الحكومات أو مختلف أشكالها بعدد الأعضاء الذين يؤلفونها، أما في الفصل الذي نحن بصدده فيبقى لنا أن نرى كيف يحصل هذا التقسيم.¹

ويرى روسو أنه يستطيع صاحب السيادة في المقام الأول، أن يعهد بأمانة الحكم إلى الشعب كله أو إلى الجزء الأكبر منه، حيث يكون هناك من المواطنين الحكام أكثر من المواطنين الأفراد، ويطلق على هذا الشكل من الحكومة إسم **الديموقراطية**². فيسند الحكم هنا أو الوديعة كما يسميها روسو لكل الشعب أو للقسم الأعظم منه. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "هناك من الجائز لصاحب السيادة، في أول أمره، أن يعهد بالحكومة إلى كل الشعب أو إلى الجزء الأعظم منه، بحيث يفوق عدد المواطنين من الحكام عدد المواطنين من الأشخاص البسطاء: وننعت هذا الشكل من الحكومات **بالديمقراطية**. بدلا من ذلك من الجائز له أن يحصر الحكومة في قبضة عدد قليل من الناس بحيث يفوق عدد المواطنين البسطاء عدد الحكام منهم. وننعت هذا الشكل بإسم **الارستقراطية**".³، ففي الشكل الارستقراطي فتسند هذه الوديعة، أو الحكم لعدد قليل أي لبعض الأفراد.

- أما في هذا الشكل الثالث نجد الحكم أو الوديعة كما يسميه روسو مسند أو مفوض للحاكم واحد. يستمد منه أعضاء الجسم الآخرين سلطتهم. ويرى روسو أيضا أنه يستطيع تركيز الحكومة بين أيدي حاكم واحد، يستمد جميع الآخرين سلطتهم منه وهذا الشكل الثالث من الحكم هو أكثر صور الحكم شيوعا ويدعى **ملكية أو حكومة ملكية**⁴. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "و من الجائز له أخيرا أن يركز كل الحكومة في قبضة

¹-جان جاك روسو ، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 156

²-جان جاك شفالبييه، تاريخ الفكر السياسي، مرجع سابق، ص 509

³-جان جاك روسو ، المصدر نفسه، ص 156

⁴- جان جاك شفالبييه، تاريخ الفكر السياسي، الصفحة نفسها

حاكم أوحده، يستقي منه جميع الآخرين سلطانهم. وإنك لترى هذا الشكل الثالث أكثر الأشكال شيوعاً، وينعت بإسم الملوكية أو بإسم الحكومة الملكية.¹

ويجب أن نلاحظ بأن جميع هذه الأشكال أو على الأقل الشكلين الأولين منها قابلة للزيادة أو النقصان، بل تملكان حرية واسعة إلى حد ما في التصرف، إذ تستطيع الديمقراطية ضم الشعب كله أو تضيق حتى تشمل نصفه. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "حري بنا أن نلاحظ أن جميع هذه الأشكال، أو قل كلا الشكلين الأول والثاني منها على الأقل عرضة للزيادة والنقصان، بل ولها أيضاً فسحة كبيرة بما فيه الكفاية للحركة، ذلك أن الديمقراطية قد تشمل كل الشعب وقد تنقلص إلى النصف منه. وأما الارستقراطية فيمكنها هي بدورها، أن تنقلص إلى العدد الأصغر بلا تحديد. وأما الملوكية بعينها فهي بنفسها عرضة لضرب من للتقسيم. ما إنفكت إسبارطة، بموجب دستورها، تعيش بملكين إثنيين، ورأى الناس الإمبراطورية الرومانية قد آلت منقسمة. وهكذا ثمة حد معين، يختلط فيه كل شكل من أشكال الحكومة مع الشكل التالي له، حتى أننا لنرى من وراء المسميات الثلاث وحدها لا غير كيف أن الحكومة عرضة لأن تتخذ من الأشكال لشتى مقدار ما للدولة من مواطنين."²

وإنه هناك أكثر من ذلك أي من هذه الحكومة نفسها، إذ يكون في الوسع من بعض الوجوه أن تنقسم إلى أجزاء أخرى، يدار، حيث يدار أحدها بطريقة بينما يدار الجزء الآخر بطريقة أخرى. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "واليك بالمزيد إذ كان في استطاع هذه الحكومة بالذات أن تتشعب منقسمة، من بعض الجهات إلى أجزاء أخرى، بعضها يحكم

¹ - جان جاك روسو ، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق ، ص 156

² - جان جاك روسو ، المصدر نفسه، الصفحة نفسها

بطريقة، وبعضها بطريقة مغايرة أخرى، أمكن أن تصدر عن **توليفة** هذه الأشكال الثلاثة كثرة من الأشكال **المختلطة** يكون كل واحد منها قابلاً للضرب بجميع الأشكال البسيطة.¹

وإنه دار جدال كبير، وفي جميع العصور حول أفضل أشكال الحكم.² دون النظر إلى أن كلا من تلك الأشكال يكون الأفضل في حالات معينة، والأسوأ في حالات أخرى. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "لقد تساجل الناس في كل العصور حول أفضل شكل من أشكال الحكومة، ولم يأخذوا في حسابهم أن أياً منها هو أفضلها في بعض الحالات، و أسوأها في حالات أخرى. وإذا لزم في مختلف الدول أن يكون عدد الحكام الأعلى متناسباً تناسباً عكسياً مع عدد السكان، نتج من ذلك، عموماً أن الحكومة الديمقراطية إنما تلائم الدول الصغرى. والارستقراطية تلائم الدول الوسطى، والملوكية تلائم الدول الكبرى. ألا أن هذه القاعدة لتتبع بنفسها مباشرة من المبدأ. ولكن كيف لنا أن نأخذ في حسابنا الظروف الكثيرة التي قد تنتج ضروباً من الاستثناء؟"³

1. (الشكل الديمقراطي:

يتكلم روسو في هذا الفصل عن الخصائص والمميزات والايجابيات والسلبيات التي تميز الشكل الديمقراطي، ونعني في هذا الفصل من هذا الكتاب شكل الحكم الذي يتولى فيه الشعب كجسم ليس فقط التصويت على القوانين، وإنما أيضاً التدابير الخاصة المطلوبة من أجل تنفيذها، وأن السلطة التنفيذية تلحق هنا بالسلطة التشريعية. ويعلم من يضع القانون أكثر من أي شخص كيف يجب أن ينفذ ويفسر. وعلى هذا يبدو إذا أنه ليس هناك أفضل

¹ - جان جاك روسو ، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق ، ص 157

² - jean jacques rousseau, du contrat social , OP.CIT ,p53

³ - جان جاك روسو ، المصدر نفسه، الصفحة نفسها .

من دستور تتحد فيه السلطان التنفيذية والتشريعية.¹ -ولكن في هذه الحالة عينها تجعل الحكومة لا تحقق أغراضها من عدة نواحي معينة، حيث يقول روسو في هذا الصدد: "إن الذي يسن القانون أدرى من أي شخص سواه بالكيفية التي بها ينفذ القانون ويؤول. البادئ، إذ، أن لا سبيل لنا إلى أفضل الدساتير إلا بدستور يقرن بين السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية. ولكن هذه الحالة بعينها هي ما يجعل هذه الحكومة لا تقي بالمطلوب من جهات معينة، وسببه أن ما كان من الأمور واجبا تمييز بعضه عن بعض ليس كذلك، وأنه لما لم يكن الأمير وصاحب السيادة إلا عين الشخص الواحد، إلا، فإنهما لا يؤلفان، إن جاز القول إلا حكومة بلا حكومة."²

وأنه ليس من الأفضل أن يكون من يضع القوانين هو منفذها، ولا أن يتحول انتباه هيئة الشعب عن المسائل العامة إلى الأهداف الخاصة. إذ ما من شيء أخطر على الأمور من تأثير المصالح الفردية الخاصة.³ على الشؤون العامة، ومن ثمة السقوط في الظلم والاستبداد والتعسف. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وهكذا، ليس من الصالح أن من يسن القوانين هو من يتولى تنفيذها، ولا أن يحيد جسم الشعب بانتباهه عن المقاصد العامة ليصوبها نحو الموضوعات الجزئية. ليس هناك من شيء أدعى إلى الخطر من تأثير المصالح الخاصة في الشؤون العمومية، فإن شطط الحكومة في استخدام القوانين: شره أهون من فساد المشرع، وهو فساد يعقب المقاصد الجزئية، لا مناص، إذ ذاك، وقد أصابت الكدورة الدولة في جوهرها، و صار كل إصلاح أمرا محالا. إن شعبا لا يخطئ أبدا في استخدام

¹ - jean . jacques rousseau, du contrat social , OP.CIT ,p53

² - جان جاك روسو ، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 157

³ - jean . jacques rousseau, du contrat social , OP.CIT ,p53

الحكومة، لا يخطئ أيضا في استخدام الاستقلال، أما الشعب الذي قد يسير الحكم على أحسن وجه دائما فهو قد لا تكون له حاجة في أن يحكم.¹

فإذا نظرنا عبارة الديمقراطية بكل معناها الدقيق، نجد أن الديمقراطية الحقيقية لم توجد أبدا ولن توجد أبدا. فما يخالف النظام الطبيعي أن يحكم العدد الأكبر وأن يكون العدد الصغير هو المحكوم. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وأما إذا أخذنا لفظ ديمقراطية في معناه الدقيق، بان أن الديمقراطية الحقانية لم توجد قط، ولن توجد أبدا. فإنه لا مما يضاد النظام الطبيعي أن يحكم العدد الأكبر وأن يكون العدد الأصغر محكوما. وليس من الجائز أن نتخيل الشعب لا ينفك مجتمعا لكي ينقطع للشؤون العامة. وبين لنا بسهولة أنه لا يمكن للشعب، أن يقيم لجانا تتولى تلك الشؤون مكانه من دون أن يتغير شكل تصريف الإدارة."²

ومن حيث المبدأ عندما تكون وظائف الحكومة موزعة بين عدة دواوين أو هيئات، فإن أقلها عددا سيستحوذ على أكبر قدر من السلطة عاجلا أم آجلا على أكبر قدر من السلطة³. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وأظنني في واقع الأمر، قادرا أن أقرر، على جهة المبدأ أنه متى كانت الوظائف الحكومية مقسمة بين كثير من مجالس الحكم، فإن ما كان منها أقل عددا هو الذي سيكتسب، إن عاجلا أم آجلا، السلطة الأعظم، لا لسبب سوى سهولة تصريف الشؤون تلك التي يلقاها، بالطبع، من كان عددهم هو الأقل."⁴

¹ - جان جاك روسو ، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 157

² - جان جاك روسو ، المصدر نفسه، ص 158 .

³ - jean . jacques rousseau du contrat social , OP.CIT , p53

⁴ - جان جاك روسو ، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 158

إن مثل هذا الحكم يفترض توفر الكثير من العناصر التي من الصعب جمعها كصغر مساحة الدولة، لأقصى حد والبساطة الكبيرة في الأخلاق والكثير من اليقظة والشجاعة لدى كل مواطن، و زيادة على ذلك أن لا يكون الحكم موضوعا لحروب أهلية وصراعات داخلية. وأنها تتطلب دولة صغيرة جدا يكون الشعب فيها سلس القيادة للجمع، ويمكن فيها لكل مواطن أن يعرف بسهولة جميع المواطنين الآخرين. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "عدا ذلك، فيا لها من أمور عسيرة على الجميع بينهم وتشتربها هذه الحكومة. وأولها دولة صغيرة جدا حيث يستيسر جمع الشعب، وحيث يستيسر لكل مواطن أن يعرف جميع المواطنين الآخرين، وثانيتهما: بساطة كبيرة في الأخلاق الجارية تحول دون تكاثر القضايا ودون المناقشات الشائكة. وثالثتها: كثير من المساواة في المراتب والثروات، فمن دونها لا يمكن أن تدوم طويلا المساواة في الحقوق وفي السلطة. وأخيرا ورابعتها: وهي القلة القليلة من الترف فقط أن لم يكن لا ترف أبدا. وذلك لأحد الأمرين: إما لكون الترف نتيجة الثروة، أو لجعله إياها أمرا ضروريا، إنه يفسد الغني والفقير كليهما، يفسد الأول بالحياة، والثاني بالطمع، وهو يبتاع البدعة والتفاهة بالوطن، ويجرد الدولة من جميع مواطنيها ليجعل بعضهم عبيد لبعض آخر. ويجعل منهم جميعا عبيدا للأهواء." ¹، وتعود ظاهرة الاستعباد الى الواجهة وتتجسد ظاهرة إغتراب الانسان عن ذاته.

وهذا هو السبب في أن فيلسوفا شهيرا مثل أفلاطون قد جعل الفضيلة مبدأ الجمهورية²، إذ أن جميع و كل هذه الشروط لا يمكن بقاؤها دون الفضيلة، لكن هذا المنظر والفيلسوف لعدم إجراءات التمييزات الضرورية لم يكن واضحا في تحليلاته في بعض الأحيان، وفي الكثير من الأحيان أخطأ في الحكم في استدلالاته وتحليلاته، لأن أفلاطون يعتبر

¹ - جان جاك روسو ، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 158.

² - jean . jacques rousseau, *du contrat social* , OP.CIT ,p54

وتلميذه أرسطو من الفلاسفة المحافظين على النظام الطبقي الاجتماعي اليوناني القديم: حيث يقول روسو في هذا الصدد: "ذلكم هو السبب في أن مؤلفها ذائع الصيت قد جعل من الفضيلة مبدأ للجمهورية، إذ جميع تلك الشروط لا يمكنها الدوام من دون فضيلة. يبدأ أن صاحب العبقرية الجميلة ذاك. وهو الذي قد إمتنع عن القيام بالتميزات الضرورية، نراه في أغلب الأحيان بجانب الصواب، ونراه في بعضها بجانب الوضوح، ولم ينظر كيف أنه لما كانت السلطة السيادية هي عينها في كل مكان، وجب على عين المبدأ أن يكون كامنا في كل دولة قويمة التكوين، كمونا قد يزيد أو ينقص بحسب شكل الحكومة القائمة." ¹

ويضيف روسو إلى ذلك أنه ليس ثمة من حكومة معرضة إلى هذا الحد للحروب الأهلية والثورات العاصفة والتغيرات الفجائية والاضطرابات الداخلية أكثر من الحكومة الديموقراطية أو الشعبية، لأنه لا توجد أية حكومة من الحكومات تميل بمثل شدة ميلها واستمراريتها إلى تغيير شكلها ². حيث يقول روسو في هذا الصدد: "زد ذلك أنه ليس هناك حكومة أكثر عرضة للحروب الأهلية والاضطرابات الداخلية من الحكومة الديموقراطية أو الشعبية، وسببه أنه ليس هناك حكومة واحدة سواها تبلغ ما بلغت من النزوع القوي والمتواصل إلى تغيير شكلها، وتقتضي ما تقتضيه من مزيد من اليقظة والشجاعة لتبقى سائرة على شكلها هذا. والواجب على المواطن، في كنف هذا التكوين بالخصوص، أن يتسلح بالقوة و الثبات، وأن يردد كل يوم من أيام حياته قائلا من أعماق قلبه ما كان أحد رجالات البلاط الفضلاء، يقوله في مجلس **الدايت البولوني** : إنني أفضل الحرية بمخاطرها على

¹ - جان جاك روسو ، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 159

² jean . jacques rousseau, du contrat social , OP.CIT ,p54

العبودية بسكينتها. ألا لو كان هناك شعب من الآلهة لحكم نفسه بصفة ديمقراطية، أما حكومة كاملة أي كمال فلا تلائم البشر.¹

II. - الشكل الأرستقراطي:

يتحدث روسو في هذا الفصل عن خصائص ومميزات وإيجابيات وسلبيات وخصوصيات الشكل الأرستقراطي ويعرفه بأنه هو الحكم المسند إلى عدد قليل، وأنها إما أن تكون وراثية وهذا هو الأسوأ من بين كل أنظمة الحكم، أو أن تكون إنتخابية وهذا هو الحكم الأفضل لأنه يختار أعضائه ويقود الشؤون العامة بنظام وتناسق وسرعة. ويرى روسو بأنه لدينا هنا شخصان معنويان يتميز أحدهما عن الآخر وهما الحكومة وصاحب السيادة، وبالنتيجة إرادتان عامتان أحدهما تتعلق بالمواطنين جميعهم، والأخرى بأعضاء الإدارة وحدهم². حيث يقول روسو في هذا الصدد: "لدينا هاهنا شخصان معنويان متباينان الواحد عن الآخر تباينا شديداً، وهما الحكومة وصاحب السيادة، وبالنتيجة يكون إرادتان عامتان تتعلق إحداهما بجميع المواطنين، وتتعلق الأخرى بأصحاب الإدارة والتدبير لا غير. وهكذا فلئن جاز للحكومة أن تقيم نظامها الداخلي كما يروق لها، فإنه لا يجوز لها أبداً أن تخاطب الشعب إلا بإسم صاحب السيادة، أي بإسم الشعب نفسه. وهذا أمر يجب أن لا ننساه أبداً."³

وإنه قد حكمت المجتمعات القديمة الأولى نفسها بصورة أرستقراطية، فكان رؤساء العائلات يتداولون الشؤون العامة فيما بينهم، وينحني الشباب رؤوسهم بلا صعوبة لسلطان التجربة. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "لقد حكمت المجتمعات الأولى نفسها بصفة

¹ - جان جاك روسو ، في العقد الإجتماعي، مصدر سابق، ص 159

² - jean . jacques rousseau , *du contrat social* , OP.CIT ,p55

³ - جان جاك روسو، في العقد الإجتماعي ، مصدر سابق، ص 160

أرستقراطية، فكان رؤساء الأسر يتشاورون في الشؤون العامة فيما بينهم، وكان الشبان يسلمون طواعية بسلطة التجربة. ومن هنا تتأتى تلك الألقاب مثل كهنة، وأقدمين، ومجلس شيوخ (سيناتوس)، ومجلس أوائل. أما سكان أمريكا الشمالية المتوحشون فلا يزالون يحكمون أنفسهم على هذا النحو، وأن حكومتهم لصالح كل الصلاح.¹

وإنه كلما حل التفاوت الناجم عن النظام محل التفاوت الطبيعي، صار الثراء أو القوة مفضلة على السن وأصبحت الأرستقراطية إنتخابية. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "ولكن بقدر ما صار التفاوت المستقر بالاصطناع، يتغلب على التفاوت الطبيعي صار الثراء أو قل القدرة، مقدما، كلاهما على البلوغ في السن حتى صارت الأرستقراطية إنتخابية. ثم أن القدرة وقد آلت من الآباء إلى الأبناء بنقلة الممتلكات حتى حولت الأسر إلى أسر من الأشراف، جعلت الحكومة حكومة وراثية، فصار الناس يشاهدون في ظلها شيوخا من المجلس سيناتورات في العشرين من عمرهم."²

يرى روسو بأنه هناك إذن ثلاثة أنواع من الأرستقراطية: - طبيعية - وانتخابية - ووراثية³، و إن روسو هنا يفضل الارستقراطية الانتخابية لإستتارة حكامها ولقربهم من الإرادة العامة الشاملة ومن السلطة السيادية والتي هي الشعب، حيث يقول في هذا الشأن: "تأتي الارستقراطية إذن على ثلاثة ضروب: طبيعية، وانتخابية، ووراثية، فأما الأول فلا يصلح إلا لشعوب على الفطرة، وأما الثالث (الوراثية) فهو أسوء ضرب من ضروب الحكم. -وأما الثاني: (الانتخابية) فهو أفضلها إنها الأرستقراطية في معناها الحقيقي."⁴

بالإضافة إلى ميزة التفريق بين السلطتين تتمتع هذه الحكومة الأرستقراطية بإختيار أعضائها، إذ أن جميع المواطنين في الحكومة الشعبية، يولدون حكاما لكنها تحصرهم في

¹ - جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 160

² - جان جاك روسو، المصدر نفسه، الصفحة نفسها

³ - jean . jacques rousseau, *du contrat social*, OP.CIT, p55

⁴ - جان جاك روسو ، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 160

عدد قليل ولا يصيرون حكاما إلا بالانتخابات. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "فضلا عن أن للأرستقراطية ميزة التمييز بين السلطتين لها مزية اختيار أعضائها. ذلك أن جميع المواطنين يولدون حكاما في كنف الحكومة الشعبية، غير أن هذا الضرب من الحكومة يقصر الحكام على قلة قليلة فلا يصيرون كذلك إلا بالانتخاب، وأن في هذا لوسيلة بها تكون الاستقامة وتكون المعارف النيرة، وتكون الخبرة، وما عداها من أسباب التفضيل والتقدير العمومي و بمثابة الضمانات المستزادة لأجل أن يحكم الناس بحكمة." ¹

وفوق هذا فإن الاجتماعات تحدث بسهولة، وتناقش الأمور على نحو أفضل وتصرف الأعمال بنظام أكثر وبغناية. حيث يقول روسو في هذا الشأن: "زد على ذلك إن الجلسات تعقد على نحو ميسور، و القضايا تناقش على نحو أكمل، وتثبت بطريقة أكثر ترتيبا و إسراعا، أما الدولة فتلقى في الخارج تأييدا أشد على يد شيوخ وقورين، لا على يد حشد من النكرات أو المحتقرين." ²

في نهاية المطاف فإن خلاصة القول: أن النظام الأفضل والأقرب الى الطبيعة هو أن يحكم الجمهور عقله ³، عندما يكون من المؤكد أن هؤلاء العقلاء الذين يحكمونه، - إنما يحكمونه من أجل صالحه لا من أجل صالحهم هم. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "مفاد القول أنه لمن قبيل الإهتداء بأفضل الأنظمة، وبأكثرها جبلة طبيعية أن يحكم الحشد من العامة أكثر الناس حكمة متى كنا على يقين من أن هؤلاء سوف يحكمون العامة لمصلحتها لا لمصلحتهم. ولا ينبغي أبدا أن تعدد الأجهزة النابضة بلا جدوى. ولا أن يكلف عشرون ألف رجل بعمل يستطيع مئة شخص من المختارين إنجازه على نحو أفضل، غير أن نلاحظ أن مصلحة الجسم السياسي، تبدأ هنا تتراخى عن قيادة القوة العمومية وفق قاعدة

¹ - جان جاك روسو ، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 160 .

² - جان جاك روسو ، المصدر نفسه ، ص 161

³ - jean . jacques rousseau, du contrat social , OP.CIT ,p56

الإرادة العامة، وأن مهوى آخر لا مناص منه أن يجرّد القوانين من جزء من سلطتها التنفيذية.¹

أما بالنسبة للشؤون الخاصة فلا يجب في دولة جد صغيرة ولا شعب جد بدائي، و جد مستقيم أن يتبع تنفيذ القوانين مباشرة: لأنه يخضع في هذه الحالة إلى الإرادة الشعبية كما يكون الحال في ديمقراطية جيدة. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "ومراعاة للملاءمات الشخصية لزم على الدولة ألا تكون بالغة الصغر، وعلى الشعب ألا يكون بالغ البساطة: والاستقامة فيتأتى تنفيذ القوانين من الإرادة العمومية مباشرة، كما لو في ديمقراطية جيدة. ولكن لا ينبغي كذلك قيام أمة عظيمة الأرجاء حتى أن الولاة، المتناثرين هنا وهناك، لأجل حكمها، ليتمكنوا من الفصل في أمر السيادة كلا في مقاطعته، ويبدأون بإكتساب إستقلالهم ثم يصبحون الأسياد في آخر المطاف."²

أما إذا كانت الأرستقراطية تتطلب فضائل أقل من الشعبية³، فإنها تتطلب أكثر كذلك من الفضائل الخاصة بها كالاعتدال في صفوف الأغنياء، والقناعة عند الفقراء. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "ولكن لئن كان ما تستلزمه الأرستقراطية من فضائل مقداره أدنى بقليل مما تستلزمه الحكومة الشعبية، فإنها تستلزم كذلك وجود فضائل مخصوصة عليها هي بالذات، كالاعتدال عند الأغنياء والقناعة عند الفقراء، وسببه، على ما يبدوا، إن مساواة صارمة في ضل حكومة أرستقراطية، لن تكون في موضعها، والحال أنه لم يتقيد به حتى في إسبارطة نفسها."¹

¹ - جان جاك روسو ، في العقد الإجتماعي، مصدر سابق، ص 161

² - جان جاك روسو ، المصدر نفسه، ص 161

³ - rousseau, jean . jacques , du contrat social , OP.CIT , p56

¹ - جان جاك روسو، المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

ومع ذلك إذا كان هذا الشكل يقتضي قدرا معيناً من التفاوت في الثروة، فذلك بالتأكيد لكي تسند إدارة الشؤون العامة، على وجه العموم إلى أولئك الذين يكون في وسعهم أكثر من غيرهم تكريس وقتهم لها. وليس كما يزعم أرسطو لكي يحظى الأغنياء بالتفضيل دائماً. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "عدا ذلك فإن إشتغال هذا الشكل من الحكومة على شيء من التفاوت في الثروة، فإنما الغاية، على وجه العموم، أن يعهد بإدارة الشؤون العمومية إلى الذين يمكنهم أن يندروا لها كامل أوقاتهم، وليس كما يزعم أرسطو لكي يحظى الأغنياء بالتفضيل دائماً، وإنما من المجدي، على العكس من ذلك، أن يوجد اختيار مضاد يلحق الشعب أحياناً كيف أن للبشر مزايا فيه من اعتبارات التفضيل ما ليس في الثروة." ¹

III. - الشكل الملكي:

يتحدث روسو في هذا المبحث عن خصائص ومميزات وإيجابيات وسلبيات الشكل الملكي، لقد نظر " روسو " إلى الأمير حتى الآن كشخص معنوي وجماعي، موحد بقوة القوانين ومؤتمن في الدولة على السلطة التنفيذية. ويجب أن ننظر الآن في هذه السلطة مجتمعة في يد شخص طبيعي ² له وجود فزيقي واقعي. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "كنا حتى الآن قد اعتبرنا الأمير من جهة كونه شخصاً معنوياً وجماعياً توحد قوة القوانين، وكونه مؤتمناً داخل الدولة على السلطة التنفيذية. أما الآن فلنا أن نعتبر هذه السلطة وهي مجتمعة في يدي شخص طبيعي، أي في يدي إنسان عيني واقعي له وحده حق التصرف فيها طبقاً للقوانين. وهذا ما يدعى بالعاهل أو الملك." ¹

- ¹ - جان جاك روسو ، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 162

- ² - jean . jacques- rousseau, du contrat social , OP.CIT ,p56

- ¹ - جان جاك روسو ، المصدر نفسه، ص 163

وإنه على عكس الإدارات الأخرى تماما، حيث يمثل كائن جماعي فردا. فإن فردا يمثل في هذه الإدارة كائنا جماعيا بحيث تكون الوحدة المعنوية التي تؤلف الأمير هي وحدة مادية في نفس الوقت¹. وتوجد فيها مجتمعة بصورة طبيعية. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وعلى العكس تماما مع سائر الإدارات الأخرى حيث نشاهد كائنا جماعيا، ويأتي ذلك على نحو يجعل، في وقت واحد، من الوحدة المعنوية المكونة للأمير وحدة جسمانية فيها تتحصل تلقائيا كل القدرات تلك التي لا يحصلها القانون إلا بجهد جهيد في كنف إدارة أخرى."²

وهكذا فإن إرادة الشعب وإرادة الأمير، وقوة الدولة العامة وقوة الحكومة الخاصة، تستجيب كلها لباعث واحد. وجميع محركات الآلة (أو الجهاز الاصطناعي أو الدولة كما يسميه هوبز) تكون في اليد نفسها. وكل شيء يسير إلى نفس الهدف، فليس ثمة من حركات معارضة مطلقا يهدم بعضها بعضا. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "على هذا النحو فإن إرادة الشعب، وإرادة الأمير، والقوة العمومية التي للدولة، والقوة الخصوصية التي للحكومة، وكل شيء من ذلك ينصاع لداع واحد، كما أن جميع نوابض الآلة في قبضة يد واحدة، وكل شيء من ذلك يتحرك صوب هدف واحد. ولا يوجد أبدا حركات مضادة بعضها يقوض بعضها، ولا يمكننا أن نتخيل ضربا آخر من التكوين، أيا كان، يستطيع فيه أي جهد ضئيل أن ينتج فعلا هائلا."¹

¹-jean . jacques rousseau, *du contrat social* , OPCIT ,p57

²-جان جاك روسو، *في العقد الإجتماعي*، مصدر سابق، ص 163

¹- جان جاك روسو ، المصدر نفسه ، ص164

وفي هذه الحالة فالسلطة متمركزة في يد شخص واحد ¹:- لكن إذا لم تكن هناك من حكومة أبدا أكثر نشاطا، فليس هناك من حكومة أبدا للإرادة الخاصة فيها سلطة أوسع وتسيطر بسهولة أكثر على الإرادات الأخرى. فحقيقة هنا أن كل شيء يسير إلى نفس الهدف ونفس الغاية. ولكن هذا ليس في سبيل سعادة المواطنين، ولن يدوم طويلا فتتجر من ذلك أضرار للدولة وللجهاز الاصطناعي. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "ومع ذلك فلا يوجد أبدا حكومة أخرى لها من العنفان ما يفوق عنفوان الملوكية، كما لا توجد أبدا حكومة أخرى تحوز الإرادة الجزئية فيها، على سلطان أقوى وتسري سيادتها على غيرها بيسر أكبر. حقا أن كل شيء يجري إلى عين الهدف الواحد، ولكن هذا الهدف ليس أبدا السعادة العامة. بل أن القوة نفسها التي للإرادة ما تنفك تجري بما فيه ضرر الدولة." ²

فتأتي بعض الأفكار الاستبدادية التي طرحها هوبز سابقا في كتابه "التنين"، والمتمثلة في الحكم المطلق إلى أذهان الملوك لكي يسيطروا على رعاياهم ويبدأ الطغيان للظهور للعيان وللشعب، حيث: يود الملوك أن يحكموا حكما مطلقا، وينبهم صوت عميق بأن أفضل وسيلة لأن يكونوا كذلك هي اكتساب محبة شعوبهم. وهذا المبدأ جميل جدا، بل وصحيح جدا من بعض الوجوه. إلا أنه مع الأسف مثار سخرية دائما في بلاط الملوك. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "يريد الملوك أن يكونوا ملوكا مطلقين، وثمة أصوات ترتفع من بعيد تناشدتهم، ألا أن الوسيلة المثلى ليكونوا مطلقين أنه يجب أن يكسبوا حب الشعب. ها هنا حكمة جميلة، بل وصادقة كل الصدق من جهات معينة. ولكنها لسوء الحظ موضع استهزاء في بلاطات الملوك." ¹، إن الأمراء والملوك يميلون غالبا إلى الاستبداد والطغيان والسيطرة والتعسف على الشعوب لذلك فإن سلطتهم دائما معرضة

¹ - jean . jacques rousseau, *du contrat social*, OP.CIT ,p57

² - جاك روسو ، في العقد الإجتماعي، مصدر سابق، ص164

¹ - جان جاك روسو، المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

للسقوط والاندثار وسوف يتعرضون لثورات من طرف الشعب الذي سوف يثور عليهم ويقلب عليهم الأوضاع ويسترد سيادته المسلوبة منه.

إن القوة التي تأتي من مودة الشعب لهي أقوى¹، من الطغيان والاستبداد. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وإن القوة التي تتأتى من حب الشعوب لهي أقوى بلا شك، ولكنها زائلة ومشروطة بشروط لذلك لن يقتنع بها الأمراء أبدا. يريد أحسن الملوك أن تكون لهم القدرة على أن يكونوا أشرار، متى راق لهم ذلك وهم لا ينفكون أسيادا. وليخطب فيهم واحد من وعاظ السياسية ما شاء أن يخطب، قائلا لهم أنه لما كانت قوة الشعب هي قوتهم هم بالذات، إقتضت مصلحتهم الكبرى أن يكون الشعب مزدهرا كثير العدد مهابا فسيقتدون، مع ذلك أن قوله هذا ليس صحيحا".²

إن الأنظمة الملكية المطلقة والمستبدة، دائما ما تعمل على استضعاف شعوبها للسيطرة عليها بالقوة والقمع والاضطهاد، وهذا ما أشار إليه مكيا فيللي في كتابه الأمير: إذ أن مصلحتهم الشخصية هي أولا في أن يكون الشعب ضعيفا بائسا، وأن لا يكون في وسعه أبدا مقاومتهم. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "ذلك أن مصلحتهم الشخصية تكمن أولا في أن يكون الشعب ضعيفا، وبائسا وعاجزا عن مقاومتهم أبدا. وإنني أعترف على إفتراض أن الرعايا خاضعون تمام الخضوع دائما، فإني أسلم بأنه مصلحته ستقضي حينئذ أن يكون الشعب قويا بغية أن تجعله هذه القوة، التي هي قوته مهابا عند جيرانه".¹ ، إذا لم يكن الملك ذا حكمة وفطنة ولم ينتبه إلى أن الاستبداد سيؤدي إلى زوال حكمه، وأن محبة الشعب له هي الأفضل والأجدر له، فإنه سيسقط حتما وأن سيادته وحكمه سيندثر ويزول وأن الشعب الذي له السلطة العليا سوف يثور عليه ويستبدله بحاكم آخر.

¹- jean . jacques-rousseau, *du contrat social* , OP.CIT ,p57

²- جان جاك روسو، في العقد الإجتماعي، مصدر سابق، ، ص164

¹- جان جاك روسو، ، المصدر نفسه ، ص 165

إن مصلحة الشعب فرعية وثانوية عند الملك¹ ولا يعطي لها أي أهمية لدى الملوك والأمراء، حيث يقول روسو في هذا الصدد: "ولكن لما لم تكن هذه المصلحة سوى مصلحة فرعية وتابعة، وكان هذان الزعمان غير متلائمين الواحد مع الآخر، كان من الطبيعي أن يميل اختيار الأمراء دائماً، إلى القاعدة الأنفع عندهم نفعا مباشرا. وإن هذا ما قد نادى به صاموئيل بقوة بين العبرانيين، وهذا ما بينه مكيافيللي على نحو بديهي أن مكيافيللي وهو يتظاهر بتقديم الدروس إلى الملوك، إنما قدم أعظمها إلى الشعوب. ألا أن كتاب الأمير لمكيافيللي لكتاب الجمهوريين."²

إن النظام الملكي لديه مثل بقايا الأنظمة مساوئ مثل باقي أنظمة الحكم الأخرى، التي تدبر الشؤون العامة للمجتمع: ولقد وجدنا من العلاقات العامة أن الملكية لا تلائم سوى الدول الكبرى، وسنجد أنها كذلك ببحثنا لها في ذاتها. فكلما كان المشتغلون في الإدارة عديدين كلما تناقصت علاقة الأمير بالرعايا. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وإذ رأينا بالنظر في النسب العامة كيف أن الملكية لا تلائم سوى الدول الكبيرة سنرى المزيد من ذلك بتفحص الملكية في حد ذاتها. بقدر ما تتكاثر الإدارة العمومية تتناقص نسبة الأمير إلى الرعايا وتقارب المساواة، على نحو يتساوى فيه هذه النسبة واحداً، أو تكون المساواة عينها كما في الديمقراطية. تزداد هذه النسبة نفسها بقدر ما تنحصر الحكومة، وهي تكون في حدها الأقصى عندما تكون الحكومة في قبضة شخص واحد. حينئذ يقوم بين الأمير والشعب فرق شاسع حد الشطط والخطأ، وإذا بالدولة تفتقر إلى رابطة تشدها، في سبيل تكوين هذه الرابطة

¹-jean . jacques- rousseau, *du contrat social*, OP.CIT ,p58

²- جان جاك روسو، في العقد الإجتماعي، مصدر سابق، ص 165

لا بد من مراتب وسيطة: أي بالنتيجة لابد من أمراء، ومن سادة، ومن نبالة لإقامة هذه المراتب.¹

وإن الهيئة الحاكمة يجب أن تتجلى بأروع صورها في الإرادة العامة²، وأنه هناك روابط في المجتمع هي التي تحافظ على الانسجام، والتناسق في النسيج الاجتماعي بين الحكام والمواطنين. وإن هذه الرابطة هي التي تحدد المراتب الوسيطة في الحكم مثل الأمراء ومثل السادة. "وحال الأمر أن لا شيء من كل ذلك يلائم دولة صغيرة تقوض أركانها جميع تلك المراتب. لئن كان مستعصيا على دولة كبرى أن يحكمها حكم صالح، فمن الأعصى أن يتم لها ذلك تحت شخص بمفرده، وما من أحد إلا ويعلم ما يجري للدولة عندما يستعين الملك بوكلاء ينوبون عنه."³

إن النظام الملكي له عيوب كثيرة، و منها أن الإرادة العامة المنبثقة من الشعب دائما ما توضع في الدرجة الثانية أثناء عملية الحكم، وأثناء اتخاذ القرارات الهامة، ومنه فثمة عيب جوهري، ولا محيص عنه يضع الحكومة الملكية دائما في مرتبة أدنى من الجمهورية، وهو أن الصوت الشعبي يكاد لا يرفع أبدا إلى المراكز العليا في الحكم الملكي. ويضع رجالا مستتيرين وقادرين يشغلونها بجداراة في النظام الجمهوري. على حين لا يصل إليها في الملكيات، في أغلب الأحيان إلا المفسدين وصغار النصابين والمحتالين وصغار المتآمرين، والذين يصلون إلى مناصب الحكم في بلاطات الحكم بواسطة مواهبهم التافهة. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "ثمة نقيصة جوهريّة لا مناص منها تجعل الحكم الملكي دوما في مقام، دون مقام الحكم الجمهوري ألا وهي: أن الصوت العمومي في كنف الحكم الجمهوري

¹ -جان جاك روسو ، العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص165

² -مهدي محفوظ، اتجاهات الفكر السياسي الغربي الحديث والمعاصر، مرجع سابق، ص150

³ - جان جاك روسو، المصدر نفسه، الصفحة نفسها .

هذا، لا يرفع أبداً إلى سدة المناصب العليا أو يكاد إلا أشخاصا نيرين وأهل مقدرة يتكفلون بها بإخلاص وشرف، بينما ترى في الحكومات الملوكية كيف أن الذين يصلون إلى تلك ليسوا في أغلب الأحيان إلا من صغار المبلبلين، ومن صغار الدساسين، ذوي المؤهلات الصغيرة تلك التي ترفع أصحابها إلى المناصب الكبرى في بلاطات الملوك.¹

ثم ما أن يمارسوا فيها أعمالهم حتى تتكشف للجمهور غباوتهم. فالشعب أقل خطأ بكثير من الأمير في هذا الاختيار، لذا يكاد يكون من النادر وجود شخص ذي جدارة حقيقية في وزارة ملكية بقدر ما ينذر وجود رجل غبي على رأس حكومة جمهورية². حيث يقول روسو في هذا الشأن: "ثم إنها لا تفعل سوى أن تكشف للجمهور عن كيانهم الأخرق، حالما يصلون إلى تلك المناصب. وبين أن الشعب أقل انخدعا من الأمير بصد هذا الاختيار، فإن صاحب المزايا الحقيقية نادر الوجود بين وزراء الملوك ندرة وجود غبي على رأس حكومة جمهورية. ومن ثم فمتى حصل، بفعل إحدى المصادفات المباركة، أن واحدا من هؤلاء الناس الذين ولدوا على السليقة لأجل أن يحكموا، قد أمسك بدفة الشؤون في ملوكية موشكة على هلاكها. بفعل ما فعلته فيها تلك الأكوام من المسيرين الظرفاء، رأيت الناس في بهتة وعجب لما يوفره ذاك الحاكم من خيارات، حتى ليملاً أمره هذا الدنيا ويشغل العصر بأحد البلدان."³

ولكي يمكن أن تحكم دولة ملكية حكما صالحا لا بد أن تكون عظمتها، أو اتساعها متناسبا مع قدرات من يحكمها¹. وإن الغزو أسهل من الحكم. ومهما كان حجم الدولة صغيرا فإن الأمير يكاد يكون دائما صغيرا. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "لكي

¹ - جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 166

² - jean . jacques-rousseau, *du contrat social*, OP.CIT ,p59

³ - جان جاك روسو، المصدر نفسه، الصفحة نفسها .

¹ - jean . jacques-rousseau, *du contrat social*, OP.CIT ,p59

يمكن حكم الدولة الملوكية حكما صالحا، وجب أن تقاس عظمتها أو قل امتدادها بقياس ملكات الذي يحكمها. فالغزو أيسر من الإدارة. ولتكن الدولة من العظم ولو قليلا فإن الأمير سيكون هو الأصغر على الدوام تقريبا، أما إذا حدث أن كانت الدولة، على العكس من ذلك، مفرطة الصغر نسبة إلى رئيسها وهو أمر قل وندر أن يحدث فإن حكمها سيكون سيئا أيضا.¹

يرى روسو: أن الأمير أو الملك ينسى مصالح الشعب وهو يواصل دائما تحقيق أماله الكبرى، ومصالحه الخاصة والضيقة، فإن بهذا لا يقل تعاسة لسوء استعمال الرئيس لمواهبه الزائدة. فلا بد إذن أن تتسع المملكة و أن تضيق مع كل حكم تبعا لقدرة الأمير. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "فإذا كان مالكا مقتديا دائما ببعد نظره نسي مصالح الشعوب، بل أنه بشططه في استخدام ما له من مواهب مفرطة، لا يسبب لتلك الشعوب من الشقاء ما يقل عما يفعله بها رئيس ضيق النظر لنقصان معيب في مواهبه. ولنا أن نقول على نحو من الأنحاء، بأنه لابد للمملكة إما أن تمتد أو أن تنقبض في كل عهد من العهود على قدر همة الأمير، وأما في حال مجلس شيوخ له قدرات موازينها أثبت، يمكن للدولة أن تنقيد بقيود ثابتة، ويمكن للإدارة أن تدور عجلتها دورانا أقل عسرا."²

وإن أكبر أضرار حكم الفرد الواحد، هو فقدان ذلك التعاقب المتواصل الذي يشكل في النظامين الآخرين صلة لا تنقطع.¹ فإذا مات ملك وجب عندئذ أن يقوم ملك آخر. إذ أن الانتخابات تدع فترات إنقطاع خطيرة تكون فترات عاصفة. وعندئذ فالفوضى هنا تكون قريبة. وتصبح الدولة في أيدي أشخاص غير نزهاء. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وأبرز

¹ - جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 166

² - جان جاك روسو، المصدر نفسه، الصفحة نفسها .

¹ - jean . jacques-rousseau, du contrat social , OP.CIT ,p59

مساوئ حكومة الفرد الواحد فقدان ذلك التعاقب المتواصل الذي نراه يؤلف في الشككين الآخرين من الحكومات رابطة لا منقطعة. لئن مات ملك، لابد من ملك آخر، وفي أثناء ذلك تترك الانتخابات بينه فترات لها مخاطرها، وهي كثيرة الفوضى، تخالطها الدسائس والفساد، اللهم أن يكون المواطنون على قدر من نكران الذات ومن النزاهة قلما تحتمله هذه الحكومة.¹

وإن هذا الحكم الملكي الفاسد سيؤول إلى الزوال، ومن الصعب على من باعت الدولة نفسها له، أن لا يبيعها بدوره وأن لا يستعيز من الضعفاء من المال ما إغتصبه منه الأقوياء. ويصبح كله معروضا للبيع والشراء وتتدخل في فترة وفي حالة فساد أخلاقي وسياسي وتصبح الدولة في حالة فوضى عارمة وعلى حافة الانهيار والاندثار والسقوط. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "صعب على من باعته الدولة ذمتها ألا يبيعها بدوره هو أيضا، وصعب عليه ألا يعرض لنفسه، من أموال الضعفاء عما سلبه من الأقوياء. وهكذا إن عاجلا أم آجلا يصير كل شيء، في ضل إدارة مثل هذه الإدارة. موضع بيع وشراء، أما السلام الذي ينعم به المرء عندئذ في عهد الملوك، فهي أسوء من الاضطراب الذي يكون بين عهدين".²

ويتساءل روسو: ما الذي تم لتلاقي هذه العيوب؟ السبب هو أنه جعل التاج وراثيا في أسر معينة، ووضع نظام للوراثة يمنع كل نزاع على أثر موت الملوك. أي أنه بإحلال ضرر مدة الوصاية محل ضرر الانتخابات، فضلوا هدوء ظاهري على إدارة حكيمة. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "فماذا صنع الناس لإلتقاء هذه الشرور؟ الجواب هو أنهم جعلوا التيجان وراثية، داخل بعض الأسر بعينها، وإنهم أقاموا نظاما

¹ - جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ، ص 167

² - جان جاك روسو، المصدر نفسه ، الصرحة نفسها

لتوارث العرش يحسب حسابا لكل جدال يحدث عند وفاة الملوك. ومعنى ذلك، أنهم وقد استعاضوا عن مساوئ الانتخابات بمساوئ الوصاية على العرش، فضلوا راحة ظاهرية على إدارة حكيمة، وخبروا مخاطر أن يولوا على أنفسهم رؤساء من بين الأطفال أو المسوخ أو الحمقى على الدخول في جدال حول اختيار أصلح الملوك. إنهم لم يلاحظوا كيف أنهم بتعرض أنفسهم، على هذا النحو، لمخاطر هذا الخيار إنما أداروا بظهورهم لجميع الحظوظ المواتية تقريبا.¹

فكل الظروف تتضافر على رجل رفع ليحكم الآخرين.² لحرمانه من العدالة والحكمة. وإن جهودا كثيرة تبذل، على ما يقال لتعليم الأمراء الصغار فن الحكم، ولا يبدو أن هذا التعليم يفيدهم فقد يكون من الأفضل البداية في تعليمهم فن الطاعة. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "كل شيء يجري بما يحرم من العدل، والعقل بشرا نشئ من أجل أن يحكم الآخرين. وعلى ما يقول بعضهم، فيبذل الناس كثيرا من العناء لتعليم الأمراء الشبان فن الملك. ولكن لا يبدو أن هذه التربية تعود عليهم بالفائدة. وقد يكون من الأفضل أن يبدووا بتعليمهم فن الطاعة. ألا إن أعظم من مجدهم التاريخ من الملوك لم ينشؤوا قط لأجل الملك، فالملك علم لكي يكون تحصيله: أبدا أقل مما أن يكون عليه بعد حفظه حفظا مفرطا، وأن إكتسابه بالطاعة يكون أفضل من إكتسابه بالأمر والنهي."¹

¹ - جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي ، مصدر سابق، ص 168

² - jean . jacques- rousseau , *du contrat social* , OP.CIT ,p60

- ¹ - جان جاك روسو ، المصدر نفسه ، الصفحة نفسها

إن عدم ثبات الحكومة الملكية نتيجة لهذا النقص في التماسك والتناسق. فهي إذ تتبع تارة بهذه الخطة، وأخرى بغيرها تبعا لطبع الأمير الحاكم أو الناس الحاكمين له¹، ولا تستطيع السير طويلا وراء هدف ثابت، ولا البقاء على سلوك منطقي وعاقل، فهذا التقلب يجعل الدولة دائما متقلبة ومتأرجحة من مشروع إلى مشروع، وغير ثابتة في إتخاذ قراراتها. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وقد قيل أن أقوم المسالك وأيسرها للتمييز بين الخير والشر، هي أن تتساءل عما كنت تريد أو ما لا تريد لو كان غيرك هو الملك. من عواقب انعدام التماسك هذا عاقبة التقلب الذي للحكومة الملكية فهي إذ تنضبط حيناً بخطة وحيناً بغيرها، وفق طبع الأمير الذي له الأمر، أو من يتولون الأمر عنه، ليس في استطاعتها أن تمكث طويلا على غرض ثابت ولا على سلوك وجيه: وأن هذا التغيير لا يجعل الدولة دائمة التآرجح بين قاعدة، وأخرى بين مشروع وآخر، وهو تغير لا يحدث في الحكومات الأخرى حيث يكون الأمير واحدا بعينه دائما".²

وكذلك نرى من وجهة نظر عامة، إذا كان يوجد في البلاط من الدهاء والحيلة والخداع أكثر مما في مجلس الشيوخ، فإن في مجلس الشيوخ من الحكمة والحصافة أكثر مما في البلاط³، وأن الجمهوريين يسировون إلى أغراضهم بوجهات نظر أكثر ثباتا، وأفضل متابعة في حين أن كل ثورة في الوزارة الملكية يتبعها ثورة في الدولة، وهذا دليل على هشاشة الدولة الملكية وهوانها. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "ولذلك نرى أيضا على وجه العموم كيف أنه إذا كان هناك المزيد من الدهاء في بلاطات الملوك هناك المزيد من الحكمة في مجالس الشيوخ، وإن الجمهوريات تسير نحو غاياتها ببصيرة أثبت، وبصيرة أحسن تدبيرا. بينما

¹-jean . jacques rousseau, du contrat social, OP.CIT ,p60

²- جان جاك روسو ، في العقد الإجتماعي ، مصدر سابق، ص 168 .

³-jean . jacques- rousseau, du contrat social, OP.CIT ,p61

يحدث كل إنقلاب في أحوال الوزارة الملوكية، إنقلابا في أحوال الدولة، فالقاعدة الشائعة بين جميع الوزراء وجميع الملوك تقريبا هي العمل نقيض أسلافهم في كل أمر".¹

ومنه ينشأ من عدم هذا الترابط نفسه سفسطة، ومغالطة مألوفة عند السياسيين الملكيين، وهي أنهم لا يكتفون فحسب بمقارنة الحكومة المدنية بالحكومة العائلية، ويضفون بسخاء على الأمير جميع الفضائل، التي يمكن أن يكون في حاجة إليها. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "إن عدم التماسك هذا هو بعينه هو ما ينكشف منه الحل السفسطائي المألوف جدا عند السياسيين الملوكيين، و هو ليس فقط أن يشبهوا الملك برب الأسرة. وهذا خطأ قد سبق دحضه. - بل إنهم ينسبون إلى هذا الحاكم من الفضائل ما يحتاج إليه، ودائما ما يفترضون إن الأمير هو عين ما يجب أن يكون: وجلي أنه بفضل هذا الافتراض تخير الحكومة الملوكية على سواها من الحكومات جميعا، فلا جدال أنها أقوى الحكومات، ولا يعوزها شيء سوى إرادة الجسم الواحد التي تكون أكثر مطابقة للإرادة العامة".²

-وأما إذا كان الملك بطبيعته شخصية نادرة الوجود، كما يقول أفلاطون فكم مرة سوف تتضافر الطبيعة والحظ السعيد على تنويجه³، وإذا كانت التربية الملكية تفسد بالضرورة من يتلقونها فماذا نرجو ممن تربو على هذا المنوال، و ربيت لكي تحكم. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "أما والحال، كما يذهب إلى ذلك أفلاطون، إن الملك بطبيعته شخصية نادرة الوجود غاية الندرة، فمتى حدث أن تعاضدت الطبيعة مع الطالع مرارا لوضع التاج على رأسه؟ وإذا كانت تربية الملوك تبعث الفساد في الذين ينشؤون عليها، فأبي أمل نأمله في أجيال من الناس نشئوا من أجل الملك؟ و من ثمة نكون بالتأكيد كمن يريد مغالطة نفسه إذ

¹ - جان جاك روسو، في العقد الإجتماعي، مصدر سابق، ص168

² - جان جاك روسو ، المصدر نفسه ، ص 169

³ - jean . jacques rousseau , du contrat social , OP.CIT ,p61

نأخذ الحكومة الملوكية على أنها حكومة الملك الصالح. لكي نعرف ما هي هذه الحكومة في حد ذاتها، لزم أن ننظر في أمرها وهي تحت حكم أمراء رعناء أو أشرار، فإننا سنراهم يعتلون العرش وهم كذلك، أو أننا سنرى العرش يجعلهم كذلك.¹

وهذه الصعوبات لم تغب عن بصيرة الكتاب والمؤلفين لكنهم لم ينشغلوا فيها أبدا. فالعلاج كما يقولون، هو الطاعة بلا تذمر.

وإن الله يبعث الملوك السيئين غضبا منه ويجب تحملهم عقابا من السماء.² إلا أن المسألة الأساسية هنا هي مغايرة تماما لهذا الرأي الساذج، وهي البحث في إيجاد حكم صالح وقويم، يبحث في تحقيق الصالح العام والخير العام، لا الاستبداد والطغيان. حيث يقول روسو في هذا الشأن: "ما كانت هذه الصعوبات لتغيب عن كتابنا، ولكنهم لم يتجشموا عناء التصدي لها، بل قالوا إن الدواء إنما في الطاعة بلا تذمر، فإن الله يبعث بالأشرار من الملوك في حال غضبه، لذلك لا بد من الصبر عليهم كعقاب نزل من السماء. لا ريب أن في هذا الخطاب عبرة حسنة. ولكنني لست أدري إن لم تكن المنابر أولى به من كتاب في السياسة؟ وما عسانا نقول في طبيب يعد بالمعجزات ثم يتفنن بكل ما له من مهارة في حث مرضاه على الصبر؟ من المعلوم أنه لا بد من الصبر على حكومة فاسدة، - ولكن المطلوب هو الاهتمام إلى حكومة صالحة.³

(7) - في علامات الحكومة الصالحة:

¹ - جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 169.

² - jean . jacques rousseau, *du contrat social*, OP.CIT ,p61

³ - جان جاك روسو، المصدر نفسه، الصفحة نفسها

يمكن للحكومة أن تكون صالحة أو فاسدة أي تكون عادلة أو ظالمة. إذن ما هي أفضل حكومة ممكنة فإننا نطرح سؤالاً، لا حل له بقدر ما هو غير محدد، أو أنه له من الحلول الصالحة بقدر ما هنالك من التركيبات الممكنة في أوضاع الشعوب المطلقة، والنسبية، حيث يقول روسو في هذا الصدد: "عندما نسأل بإطلاق عن أفضل الحكومات، فإننا نبسط سؤالاً مستعصياً الحل من جهة كونه سؤالاً غير متعين، أو لنقل إذا شئنا بأن له من الحلول الصحيحة مقدار ما يوجد من توليفات ممكنة لأوضاع الشعوب المطلقة والنسبية. أما لو سألنا بأي علامة يمكننا معرفة ما إذا كان شعب بعينه محكوماً بحكم صالح، أم بحكم طالح لكان ما نحن بصددده خلاف ذلك لكانت المسألة إذن مسألة وقائع."¹

إلا أنه لا يحل أبداً، لأن كل واحد يريد حله على منواله. فالرعايا يشيدون بالأمن، والمواطنون بحرية الأفراد، يفضل أحدهم ضمان الممتلكات ويفضل الآخر ضمان الأشخاص.² والواحد يريد أن تكون الأفضل بين الحكومات هي الأقسى، بينما يؤيد الآخر أنها الأكثر وداعة. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "ولكنها مع ذلك لن تحل أبداً لأن كل واحد من الناس يسعى إلى حلها بالطريقة التي يريدها. الرعايا يكيلون النشاء على الراحة العمومية، والمواطنون يكيلونه على حرية الأشخاص. هذا الواحد من الناس يفضل حرمة الأملاك، والآخر يفضل حرمة الذوات. هذا يريد من أفضل الحكومات أن تكون أشدها قسوة. والآخر يدل على أن أفضلها إنما هو أودعها، هذا يريد معاقبة الجرائم."³

¹ - جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ، ص 171

² Jean . Jacques-rousseau, du contrat social: ,OP.CIT ,p61

³ - جان جاك روسو، المصدر نفسه ، ص 179

فهناك من يريد تدارك وقوعها: فالواحد يرى مفضلاً أن يكون مرهوبي الجانب من الجوار، بينما يفضل أن يكون مجهولين لديه وكل واحد حسب أهوائه وأهدافه. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "والآخر يريد الاحتياط لها، الواحد منا يريد أن يهابه الجيران، والآخر يخير ألا يأبهوا لوجوده. يكون أحدهم مسروراً عندما يرى النقود وهي تدور، والآخر يطالب أن يمكن الشعب من الخبز. بل وهب أننا سنتفق على جميع هذه النقاط، وعلى غيرها مما شابهها. فهل يعني ذلك أننا سنزيد تقدماً نحو الحل؟ لما كانت الصفات الأخلاقية تعوزها دقة القياس فحتى لو اتفقنا على العلامة فكيف لنا أن نتفق على التقدير؟" ¹

إن غاية الاتحاد السياسي (الجهاز الإصطناعي كما يسميه هوبز) أو الدولة هي: المحافظة على أمن أعضائه ورخائهم. ² فإذا تساوت جميع الظروف تكون الحكومة التي يتكاثر في ظلها السكان ويعمرون البلاد، دون وسائل خارجية أو التجنس، أو إقامة مستعمرات أو غزوات هي الأصلح. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "أما أنا فتأخذني الدهشة دائماً أن أرى الناس يجحدون بعلامة على مثل هذه البساطة، أو لا يسلمون بها عن سوء نية. فما غاية الاجتماع السياسي؟ غايته هي بقاء أعضائه ورخاؤهم. وما هي العلامات التي تؤكد على حفظ بقائهم وعلى رخائهم؟" ³

حيث يجيب روسو عن هذه العلامات ويقول: "إنما هي عددهم وتزايدهم السكاني، فلا تذهب باحثاً في مكان آخر عن علامة كهذه بلغ الجدل فيه أيما مبلغ. بل وهب المساواة في كل شيء بين جميع الحكومات. فلا مناص من أن تكون أصلحها هي تلك الحكومة التي ينمو المواطنون في كنفها، ويتكاثرون بإطراد دونما وسائل خارجية، ولا تجنيس، ولا

¹ - جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي، مصدر سابق، ص 179

² - محمد علي عبد المعطي، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق، ص 229

³ - جان جاك روسو، المصدر نفسه، ص 180.

مستعمرات. أما تلك التي يتناقص في كنفها الشعب، ويندثر فهي شر الحكومات. ألا هي الحسبة: الآن الأمر أمركم، فأقيموا الحساب وأقيموا الميزان وأقيموا المقابلة.¹

بعد أن أنهينا من عرض كيف تتكون الدولة والحكومة، وما هي أسسها وما هي مكوناتها وما هي مقوماتها، وما هي حدودها وما هي أشكالها وما هي غايتها، وأنه يجب أن تؤسس على أسس صالحة، ومتينة والمبنية على شرعية الشعب وعلى إرادة الشعب، والمتمثلة في الإرادة العامة والتي ستتأسس عن طريق العقد الاجتماعي، جاء الآن الدور لنعرض كيف أراد روسو أن يكون تكوين، وتربية المواطن الصالح تربية طبيعية والذي يعيش في كنف المجتمع السياسي الجديد الذي يبشر به العقد الاجتماعي.

(5)*المواطن الصالح:

أراد "روسو" أن يعطي لنا البديل عن الإنسان التاريخي، الذي عاش في المجتمع السياسي الفاسد والذي أسس لظلم مدستر، والذي كان مقهورا سياسيا أينما تنظر تراه مكبل في أغلال ومستغل اقتصاديا وفاسد أخلاقيا. وإن هذا الإنسان البديل والمواطن الصالح الذي يستبشر به "روسو" في كتابه "إميل"، والذي يكون قد تربى وتكون بتربية طبيعية²، لكي يتخلص من الشوائب التي لحقت بالإنسان التاريخي، والذي أفسدته الحضارة وأفقدته الطيبة والحرية التي كان يتمتع بها في الحالة الطبيعية، والذي أفسده المجتمع السياسي الفاسد، حيث أصبح يعيش في اغتراب، ومضطهدا من طرف الحضارة التي اخترعها وأسسها على أسس فاسدة.

¹ - جان جاك روسو ، في العقد الاجتماعي ، مصدر سابق ، ص 180.

² - برتراند راسل ، تاريخ الفلسفة الغربية ، الكتاب الثالث، الفلسفة الحديثة، ترجمة: محمد فتحي الشنيطي، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، 1988. ص 295.

"وإن ما هو صحيح على الصعيد السياسي هو صحيح أيضا على الصعيد التربوي، إن نسيان واحتكار غرائز الإنسان الأولية، هو الذي أفسد كل شيء وحينما فسد المجتمع، لم يعد يستطيع أن يعطي سوى تربية فاسدة. ولكن بما أن المجتمع قابل للإصلاح فالتربية أيضا قابلة للإصلاح."¹

وفي كتابه : إميل أو في التربية:

"كان "روسو" يعلق أهمية كبيرة على كتابه إميل لأنه يتضمن حجر الزاوية في نظريته. فبعد أن كشف في مقالاته، وفي الرسالة عن مشاهد الرذائل في المجتمع السياسي الفاسد الحديث، كان يتعين عليه أن يحدد في مؤلفاته الكبرى نواحي الإصلاح التي يجب إدخالها عليه. وقد أوضح في "هيلويزا" الجديدة"، نموذج الأسرة وفي العقد الاجتماعي أسس للدولة وبقي عليه أن يقدم لنا نموذج الإنسان الطبيعي. وقد كان يعرف جيدا أن أحدا لا يستطيع أن يشرع في إصلاح الدنيا دون أن يسعى أولا في إصلاح التربية."²

وإن التربية الطبيعية هي الركيزة الأساسية لتربية وتكوين الانسان الصالح، والذي هو إميل والذي سوف يتكون بتربية طبيعية³. وإن مشروع روسو السياسي لن يكتمل إلا بمشروعه الأخلاقي وهو التربية الصالحة. وقد ذاع صيت إميل وأقبل الناس على قراءته لأن روسو نادى فيه بالمساواة بين الأفراد وامتدح الرجل العادي ورفع من شأنه⁴، "والواقع أننا لابد أن نبدأ من الطفل إن شئنا أن نطبق شيئا على الناس، فإنما تتكون أخلاق المجتمع تبعا لما نغرسه من عادات، ومبادئ في نفوس النشء. وقد حرص روسو نفسه في حواراته على

¹ -أندريه كريسون، روسو حياته فلسفته منتخبات، مرجع سابق، ص92

² -نجيب المستكاوي، روسو حياته مؤلفاته، مرجع سابق، ص 323

³ - أنطوان م، الخوري، أعلام التربية، حياتهم، آثارهم، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1964، ص102.

⁴ -جان جاك روسو، إميل أو في التربية، ترجمة نظمي لوقا، تقديم أحمد زكي محمد، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة ص10

أن يوضح لنا كيف أن الأفكار الواردة في إميل مكملة لمبادئه ومتماشية مع فكره¹. أراد يؤسس للمجتمع الفاضل عبر تكوين مواطن صالح وفاضل والذي سيتربى تربية طبيعية. حيث يقول في هذا الصدد: "لقد تتبعت بكل جهدي خيط تأملاته فوجدت فيها جميعا نمو مبدئه العظيم، وهو أن الطبيعة جعلت الإنسان سعيدا وطيبا، ولكن المجتمع يفسده ويستغله ويجعله شقيا وتعيسا".²

في كتاب إميل يشرح لنا روسو حقيقة التربية الطبيعية³، "وإميل بصفة خاصة، في هذا الكتاب الذي قرأه الناس كثيرا ولم يفهموه إلا قليلا، وأسأوا تقديره إلى هذا الحد، ليس إلا رسالة في الطبيعة الأصلية للإنسان مكرسة لإيضاح كيف أن الرذيلة والخطأ، الغريبين على كيانه يأتیان إليه من الخارج ويفسدانه على نحو غير محسوس"⁴.

وإن الطبيعة نقية وخالصة وأعطت لنا إنسانا طيبا لكن المجتمع هو الذي يفسده ويجعله شقيا وتعيسا، عن طريق التربية السيئة عندما بدأ بإقامة علاقات مع الآخرين للحصول على حاجياته. فروسو يعطي لنا في كتابه إميل التربية الصالحة التي سوف يتربى عليها إميل المواطن الصالح.، "يضم الكتاب خمسة أجزاء، ويفترض المؤلف أن يتبع خطوة، خطوة، نمو الطفل الذي عهد به إليه، فهو إذن رواية تروى، يقطع سياقها كثيرا بالتأملات، والاستدلالات والتحقيقات، وتعالج الأجزاء الثلاثة الأولى:- كيفية تربية الطفل، والتعاليم التي ينبغي أن يتلقاها حتى الخامسة عشر من عمره. ويتناول الجزء الرابع التكوين

¹-نجيب المستكاوي ، روسو حياته مؤلفاته ، مرجع سابق، ص 323 .

² - JEAN JACQUES ROUSSEAU, EMILE OU DE L'EDUCATION, PARIS ,ED GALIMARD.1971.p8.

³-مصطفى أمين ، تاريخ التربية ، مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر، الطبعة الثانية ، القاهرة، 1926، ص280.

⁴- نجيب المستكاوي ، روسو حياته مؤلفاته، مرجع سابق، ص 324

الأخلاقي والديني للمراهق. وفي هذا الجزء يظهر إيمان ألخوري السافوي الذي أثار ضجة كبيرة وسبب إدانة الكتاب واضطهاد مؤلفه، أما الجزء الخامس فيتناول موضوع زواج إميل، فضلا عن موضوع تعليم البنات.¹

المرحلة الأولى: في الجزء الأول: من كتاب إميل يتحدث روسو عن المرحلة الأولى وهي الطفولة وما تقتضيه من عناية: ويبدأ الكتاب بداية روسوية مألوفة كالمعتاد أي بعبارة من عباراته ذات التأثير القوي الرنان كل شيء يخرج طيبا من يدي خالق الأشياء وكل شيء يفسد بين يدي الإنسان. حيث يقول في هذا الصدد: "يخرج كل شيء من يدي خالق صالحا"². "وكل شيء بين يدي البشر يلحقه الاضمحلال، يكره الإنسان الأرض على إنبات ما تخرجه أرض سواها، ويكره الشجرة على حمل ثمار شجرة غيرها. يخلط بين الأجواء والعناصر والمواسم."³.

إن الطبيعة نقية وكل ما يخرج منها نقي والإنسان في الحالة الطبيعية كان نقياً، وصافي لم تلحقه شوائب التاريخ والمجتمع السياسي الفاسد، والإنسان المدني الفاسد أخلاقياً والمستغل اقتصادياً والمكبّل سياسياً. وبعد أن قال إن الإنسان يقلب كل شيء ويفسده يضيف "ومع ذلك فلولا هذا لصارت الأمور إلى أسوأ" و هو استطراد غير متوقع ولكنه يشرح : " في الحالة التي إنتهت إليها الأمور الآن فإن إنسانا يترك وحده منذ ولادته وسط الناس يصبح أكثرهم تشوها وفسادا. إن المعتقدات الباطلة، والسلطة، والضرورة وكل

¹ - نجيب المستكاوي ، المرجع نفسه ، ص 423

² JEAN JACQUES -ROUSSEAU, ŒUVRES COMPLETES – EMILE OU DE EDUCATION – Gallimard ; PARIS,1969.P8

³- JEAN JACQUES ROUSSEAU , ŒUVRES COMPLETES – EMILE OU DE EDUCATION, P8.

الأنظمة الاجتماعية التي نجد أنفسنا منغمسين فيها سوف تخنق فيه الطبيعة ولا تضع محلها شيئاً".¹ فالوسط الاجتماعي الفاسد هو الذي يفسد الإنسان.²

ويناشد روسو الأم الرعوف والحنون أن تلتفت إلى واجبها الأساسي وترعى طفلها، وتنشئه نشأة وتربية حسنة، وتحيط روحه بسياج من التعاليم التي تقيه شر الانحراف، والفساد المتفشي في المجتمع، ويميز روسو ثلاثة أنواع من التربية: أولها يأتيها من الطبيعة، والثاني يأتيها من الناس، والثالث نتلقاه من الأشياء. وهذه الأنواع الثلاثة ليست فقط مختلفة هي أحياناً متناقضة".³

ويريد روسو للأم الحنون أن تحمي ابنها بشتى الطرق والوسائل بحماية قوية، حيث يقول في هذا الصدد: "إني أتجه إليك بالخطاب أيتها الأم الحسيفة الحنون التي عرفت كيف تتفكين الطريق المطروق، وتحمين النبتة الباقية من عتو المواضعات البشرية. أسقي هذه النبتة الصغيرة وتعهد بها قبل أن تموت فيوما ستكون ثمراتها قوة عينك. وبادري إلى إحاطة روح ولدك بحمي متين".⁴

وفي الصراع الناشب بين الطبيعة والنظم الاجتماعية، علينا أن نختر بين تكوين إنسان، أو تكوين مواطن لأننا - كما يقول: لا يمكننا تكوين هذا وذاك في نفس الوقت. وهكذا فإنه يلزم مسألة خطيرة: - هل ينبغي تنشئة الشخص من أجل ذاته أم من أجل الآخرين ؟،

وإن الطبيعة البشرية حاضرة عند كل مولود سواء كان ذكر أم أنثى، فالمطلوب من المربي قبل كل شيء أن يحافظ على هذه الطبيعة، و أن يتحاشى هدمها بواسطة الضغط

¹ - نجيب المستكاوي، روسو حياته مؤلفاته، مرجع سابق، ص 325

² - جان جاك روسو، إميل أو في التربية، مصدر سابق، ص 24

³ - نجيب المستكاوي، روسو حياته مؤلفاته، مرجع سابق، ص 325

⁴ - جان جاك روسو، إميل أو في التربية، مصدر سابق، ص 25

الذي لا مبرر له، وأن يساعدها على النمو والاكتمال. يستطيع الولد لو ترك لنفسه أن يتعلم كثيرا من اختبار الشخص، وبقدر ما تتجح محاولاته المتلمسة يتعلم استعمال أعضائه وعقله، وتجنب الضرر، والسعي وراء المفيد، والتميز بين الأفعال المشرقة والأفعال الشائنة بيد أن هذا النمو يكون بطيئا ومحدودا.¹

هنا يستطيع المعلم التدخل لكي يضع تلميذه في أفضل الشروط التي تتيح له الإفادة من جسمه، وعقله، وقلبه. هنا يترتب على المعلم أن يلاحظ بفهم ردات فعل تلميذه الحسنة، وأن يجلبه إلى الحكم على ردات فعله السيئة، وإلى إصلاحها بنفسه. إنها مهمة صعبة تنتظر المعلم وتفترض فيه البراعة والدقة وأحيانا الدهاء. لا كتب حتى الآن فالمطالعة تحفظ للمراهق، ولا أوامر أيضا لأنها تجعل الولد يفكر في المخالفة والكذب. ليتبع المعلم سير الطبيعة، ويثق بها، ويلاحظ ردات فعلها. هذا كلما تتطلبه التربية الصحيحة، هذه هي كل السياسية التربوية التي يبشر بها روسو.²

وإن النظم الاجتماعية السليمة هي التي تعرف أكثر من غيرها كيف تغير طبيعة الشخص، كيف تجرده من وجوده المطلق لتعطيه بدلا منه وجودا نسبيا، وتذيب نفسه وأنيته في وحدة المجتمع.³ - وأن الانسان لم يكن في الحالة الطبيعية بحاجة إلى أقرانه من البشر أو إلى معונاتهم فالإنسان لم يكن إجتماعيا بالطبع كما قال أرسطو.

ويتحدث روسو عن الرعاية التي يجب أن يحظى بها الطفل، ويكافح الأباطيل والعادات والتقاليد السائدة والفسادة في عصره فيقول: "إن كل حكمتنا تكون من معتقدات باطلة وضیعة، وكل عاداتنا ليست سوى إستعباد. ومضايقة وقهر. إن الشخص يولد ويعيش ويموت في العبودية: فعند ولادته يلفونه في قماط، وعند وفاته يلفونه في كفن. وكل ما يعوزنا

¹ - اندريه كريسون، روسو حياته فلسفته منتخبات، مرجع سابق، ص 91

² - اندريه كريسون، روسو حياته فلسفته منتخبات، مرجع سابق، ص 325.

³ - نجيب المستكاوي، روسو حياته مؤلفاته، مرجع سابق، ص 326

حين مولدنا ونفتقر إليه في كبرنا تؤتية إياه التربية.¹ ، وإن الشخص الطبيعي يعيش لنفسه، فهو الوحدة العددية ، وهو الكل أيضا بالإطلاق ولا يتعلق وجوده إلا بنفسه.² ، حيث يقول روسو في هذا الصدد: " ان الناس في الحالة الطبيعية سواسية ومهمتهم المشتركة أن يكونوا رجالا وأنا لا يعني أن يكون مصير تلميذي الانضمام إلى الجيش أو الكنيسة أو الاشتغال بالقانون. فالطبيعة تتدبه قبل كل شيء للحياة الإنسانية، والحياة هي المهنة التي أريد أن ألقنه إياها ويتخرج من بين يدي لن يكون قاضيا أو جنديا، بل سيكون إنسانا قبل كل شيء بكل ما ينبغي أن يكونه الانسان وسيعرف كيف يكونه على الوجه الصحيح ومهما غيرت ظروف الأيام من وضعه فسيكون دائما في موضعه الحق."³ وبعد أن يحمل روسو بشدة على تقارير تقييد الطفل بالقمط منذ ولادته يتناول انحلال رابطة الأسرة ذاتها، ومع أنه لم يكن أول مبشر في هذا المعنى إلا أنه يستعمل بلاغته الخارقة لجعل نفسه مسموعا، كما لم يسمع مبشر قط من قبل.⁴ ، إن البلاد التي تشد الأطفال في القمط، فهي البلاد التي تغص بالحدب والعرج وما إلى ذلك من العيوب والعاهاات. وخوفا من تشوه الجسم بالحركات الحرة، يسارعون إلى تشويهه بالضغط فكأننا نعجز أطفالنا عن الحركة كي نحول بينهم وبين أذى محتمل من حركاته.⁵

وأن هذه القيود هي مثل الأغلال الاصطناعية التي ستكبل الانسان التاريخي فيما بعد، الذي دخل معترك التاريخ والذي يعيش في ظل الاستعباد في المجتمع السياسي الفاسد أخلاقيا. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "إن كل شيء يأتي تباعا من هذا الانحلال الأول، كل النظام الأخلاقي يتغير ويفسد، وما هو طبيعي ينطفئ في كل القلوب، إن دخيلة البيت

¹ - نجيب المستكاوي ، المرجع نفسه، الصرحة نفسها

² - جان جاك روسو، إميل أو في التربية، مصدر سابق، ص 28

³ - جان جاك روسو، إميل أو في التربية، مصدر سابق، ص 32

⁴ - نجيب المستكاوي، روسو حياته مؤلفاته، مرجع سابق، ص 326

⁵ - جان جاك روسو، إميل أو في التربية، مصدر سابق، ص 35.

مظهرها أقل حيوية، إن المشهد المؤثر لأسرة تتولد لم يعد يربط الأزواج، والعادة لم تعد تقوي روابط الدم، فليس ثمة آباء ولا أمهات، ولا أولاد، ولا أشقاء ولا شقيقات، كل يتعرف على آخر بشق الأنفس، فكيف يتحابون؟ عندما لا يصبح لبيت إلا عزلة حزينة فلا بد من البحث عن المسرح في الخارج. لكن فلتتنازل الأمهات برعاية عن أطفالهن، تنصلح الأخلاق من تلقاء نفسها وتستيقظ مشاعر الطبيعة في كل القلوب... إن فتنة الحياة المنزلية هي خير ترياق ضد الأخلاق السيئة. إن ضوضاء الأطفال التي تظنها مضايقة تصبح ممتعة إنها تجعل الأب والأم أكثر ضرورة وعزة، كلاهما بالنسبة للآخر، إنها توثق الرابطة الزوجية فيما بينهما.¹

وعندما تكون الأسرة عائشة وحية فإن الشؤون المنزلية تكون أعز مشاغل الزوجة وأمتع تسلية للزوج. وهكذا فمن إصلاح هذا الخطأ وحده سرعان ما ينتج إصلاح عام وسرعان ما تستردد الطبيعة حقوقها.²

المرحلة الثانية: وفي الجزء الثاني: من كتاب إميل يتكلم روسو عن المرحلة الثانية وهي التربية الأخلاقية:

يهاجم روسو في هذا الجزء نظام التربية العادية، والتربية البربرية التي تستعبد الأطفال والتي تفسد عليهم أنفس سنوات عمرهم في سبيل إعدادهم لمستقبل مشكوك فيه. "وما الرأي إذن في تلك التربية البربرية التي تضحي بالحاضر من أجل مستقبل غير مضمون، والتي تبهظ كاهل الطفل بالسلاسل من كل نوع، وتبدأ بجعله شقيا تعيسا لتعد له على المدى البعيد، ما لست أدريه من سعادة مزعومة.... إن سن المرح تنقضي وسط دموع، وعذاب وتهديد، وعبودية...، أيها الناس كونوا إنسانيين، هذا واجبكم الأول.³ حيث يقول روسو : "فأما القول في تلك التربية الهمجية التي تضحي بالحاضر القائم في سبيل مستقبل غير

¹ -جان جاك روسو، إميل أو في التربية، مصدر سابق، ص 26.

² -نجيب المستكاوي، روسو حياته مؤلفاته، مرجع سابق، ص 326

³ - نجيب المستكاوي، المرجع نفسه، ص 328

مضمون، وهي تربية تكبل الطفل بالأغلال من جميع الأنواع والأشكال وتبدأ بان تجعله شقيا لكي تعده لمستقبل تزعم بأن سيكون سعيدا فيه مع أنه ربما لا يصل إليه مطلقا".¹

ويخاطب روسو الناس لكي يكونوا إنسانيين وطيبين وخيبرين، وأن يحبوا الطفولة وأن يرفعوا براءتهم ويقول لهم: "كونوا كذلك بالنسبة لكل دولة ولكل عمر. وأي حكمة تجدونها خارج الإنسانية؟ أحبوا الطفولة، ناصروا لعبها، ومتعها وغريزتها المحببة. من منكم لم يأسف أحيانا على هذا العمر حيث الضحكة دائما على الشفاء، والروح دائما في سلام؟ لماذا تريدون أن تحرموا هؤلاء الأبرياء الصغار من متعة وقت جد قصير يولي منهم؟ ويجب ألا نحرّم على الطفل أن يخطئ ويسئ، وإنما يكفي أن نحول دون ارتكابه ذلك".²، إن الطفل في هذه الحالة يكون في حالة عفوية وفي حالة براءة لذى على المربي أن يتغاضى عن بعض الأخطاء التي يقوم بها الطفل. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "أيها الناس أشد إنسانية فهذا هو واجبكم كونوا رحماء بجميع الطبقات وبجميع الأعمار. وبجميع من ليسوا غرباء على البشرية. فأى حكمة يمكن ان تكون لكم ان أخرجتكم عن إنسانيتكم، أحبوا الطفولة وأرعوا في مودة لهوها وملذاتها وطبيعتها اللطيفة".³

كذلك يجب أن لا نجبر الطفل على أن يتصرف وفقا لإرادتنا نحن، وفي الوقت نفسه ينبغي ألا نخضع لكل رغباته. احتفظوا بالطفل في حالة الاعتماد على الأشياء وحدها. بذلك تتبعون نظام الطبيعة في نمو تربيته. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وهناك نمو آخر يجعل إلتجاء الطفل الى الشكوى أقل لزوما لحياته، وذلك هو نمو قواه فمتى استطاع الأطفال أن يقوموا لأنفسهم بمزيد من العون والعمل، قلت حاجتهم للاستعانة بالآخرين، ومع نمو

¹ -جان جاك روسو، إميل أو في التربية، مصدر سابق، ص79

² -نجيب المستكاوي، روسو حياته ومؤلفاته، ص 328

³ -جان جاك روسو، إميل أو في التربية، مصدر سابق، ص79

قوتهم، تنمو معرفتهم بحيث يكونون قادرين على استخدام قواهم وتوجيهها. وبهذا تبدأ بصورة دقيقة حياة الفرد. إذ يبدأ عندئذ وعيه لذاته.¹

ويجب أن تكون إرادته حرة، ولا توجهوا إرادته إلا بعقبات بدنية أو عقوبات تتولد من تصرفاته نفسها ومن تلقاء ذاته، يتذكرها في الظروف والحالات المشابهة والمماثلة فدون أن تحرموا عليه ارتكاب الخطأ يكفي أن تحولوا دون أن يرتكبه.

إن الطبيعة لكي تقوي الجسم وتنمي لديه وسائل يجب ألا نعارضها أبدا. يجب ألا نرغم الطفل على أن يبقى إذا أراد أن يذهب أو أن يذهب عندما يريد البقاء في مكانه. إن الأطفال لا يريدون شيئا هباء إذا كانت إرادتهم لم تفسد بسبب خطئنا. فلا بد أن يقفوا وأن يجروا وأن يصيحوا عندما يحسون رغبة في ذلك. فكل تحركاتهم هي إحتياجات لتكوينهم. ثم يعارض روسو على هذا التدليل بقوله ...- هل تعرفون ما هي أضمن وسيلة لجعل أطفالكم تعساء؟ إنه تعويدهم على الحصول على كل شيء. لأن رغباتهم تنمو نموا غير محسوسا، بفعل سهولة إرضائهم، وسوف يرغمكم العجز عاجلا أم آجلا على رفض بعضها.²

وهذا الرفض غير المعتاد والغير مألوف، يصيب الطفل بعذاب أكثر من عذاب حرمانه مما يرغب فيه. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "إنه في البداية يريد العصا التي تمسكها وسرعان ما يريد ساعتك، وبعدها يريد العصفور الذي يطير، ويريد النجم الذي يتألق، إنه سوف يريد كل ما يراه: وما لم تكن إلها فكيف تلبي رغباته هذه...؟"³.

¹ JEAN JACQUES ROUSSEAU, _____ EMILE OU DE L'EDUCATION ,PARIS ,ED : GALIMARD, 1971,p44.

²-نجيب المستكاوي، روسو حياته ومؤلفاته، مرجع سابق، ص 32

³- جان جاك روسو، إميل أو في التربية، مصدر سابق، ص79

ويعارض روسو مبدأ " لوك " في استعمال المنطق مع الأطفال، ولا يوافق على الاستدلال معهم بالعقل، على أساس أن العقل هو الشيء الأخير، وأصعب ما ينضج في الإنسان، ومن ثمة يجب ألا يكون العقل أول ما يستعمله الإنسان، وإلا كنا كمن يريد أمن النهاية. ولو كان الأطفال يفهمون بالعقل وبلا استدلال لما احتاجوا إلى تنشئة وتربية¹. إن الاستدلال العقلي لا يمكن إدراكه وفهمه عند الطفل إلا في مرحلة معينة. فعملية الفهم تبدأ بالمرحلة الحسية ثم المرحلة العقلية. ويقول روسو أيضا: " و احذروا على الخصوص من تلقين الطفل صيغا شكلية فارغة للتهذيب فإنه سيستخدم ذلك عند الحاجة، وكأنه رقية سحرية لإخضاع جميع من يحيطون به وللحصول فورا على ما يشتهيهِ".²، ويضيف روسو قائلا في هذا الصدد: "يا لها من حصافة خرقاء تلك التي تفرض الشقاء، على مخلوق في الوقت الحاضر فعلا على أمل ربما يكون حقيقيا أو موهوما بأن يسعد يوما ما. إن هؤلاء الفلاسفة السوقة يخلطون بين الحرية والتعجرف بين الطفل السعيد والطفل المدلل فمن واجبنا أن نعلمهم تلك الفروق".³

وبعدها ينتقل بنا روسو الى نظرية جديدة في التربية السلبية لم تكن معروفة من ذي قبل في عصره، "وهنا يصل بنا روسو إلى نظرية غريبة ويسميتها التربية السلبية فعلى نقيض الأساتذة الذين يتعجلون تعليم ذهن الطفل وتنقيفه، وتكوين قلبه وإرادته يقول روسو إن أعظم قاعدة في التربية ليست هي كسب الوقت بل فقدانه لأنها ليست تعليم الفضيلة والحق، وإنما حماية القلب من الرذيلة والعقل من الضلال".⁴، راقبوا الطبيعة وكيف تبين لكم السبيل

¹ - نجيب المستكاوي ، المرجع نفسه ، ص 330

² - جان جاك روسو ، إميل أو في التربية، مصدر سابق، ص 81

³ - جان جاك روسو ، المصدر نفسه ، الصفحة نفسها

⁴ - نجيب المستكاوي ، روسو حياته مؤلفاته ، مرجع سابق، ص 33

فإنها تعمل على تمرير الأطفال بالأحداث والأشياء،¹ هناك مرحلة حساسة وخطيرة في حياة الإنسان ففي تلك الفترة يصقل الطفل سلوكه ويمكن أن يقع في الأخطاء والأخطار، والردائل وينمو نموا تدريجيا كما قال جان بياجيه. "إن الخطر مرحلة من المراحل في حياة الإنسان هي ما بين الولادة وسن الثانية عشر. إنه الوقت الذي تثبت فيه بذرة الأخطاء والردائل، ولو كان الأطفال يقفزون دفعة واحدة من الأجسام إلى سن الرشد لكانت التربية التي نلقنها لهم، مناسبة ملائمة، لكنهم وفقا للنمو الطبيعي تلزمهم تربية على النقيض منها تماما...، إنها ليست تعليم الفضيلة والحق، وإنما حماية القلب من الرذيلة، والعقل من الضلال."²، ومهما يكن من أمر فالتربية الطبيعية ينبغي أن تعد الرجل كي يكون لائقا في جميع الظروف البشرية.³

إن روسو يرى أن الفضيلة موجودة في القلب ويجب أن نحمي الطفل من الرذيلة وأن نحمي العقل من الوقوع في الضلال والزلل. "إنه يرى أنك إذا نجحت في أن تجعل طفلك سليما، وقويا في سن الثانية عشر، حتى لو لم يميز بين يده اليمنى ويده اليسرى، فإن عيون إدراكه سوف تتفتح للمنطق، دون عادات ودون أباطيل، ومن ثم يكون نقي الطوية ويصبح عجينة طليعة تشكلها برعايتك كما تشاء، لو شئت أن تجعله أحكم الحكماء."⁴

المرحلة الثالثة: في الجزء الثالث: من كتاب إميل في هذا الجزء يتكلم روسو: عن المرحلة الثالثة وهي التربية الذهنية:

¹-جان جاك روسو، المصدر نفسه ، ص 38.

² -نجيب المستكاوي، روسو حياته مؤلفاته ، مرجع سابق، ص 330

³- جان جاك روسو، إميل أو في التربية ، مصدر سابق، ص 48

⁴-نجيب المستكاوي، روسو حياته مؤلفاته ، مرجع سابق، ص 331

إن إميل يبلغ الآن الثانية عشر من عمره، وقد آن الأوان لكي يبدأ تعليمه ودراساته. "ويجب أن نختار الأشياء التي نعلمها له. وبين المعارف، ما هو باطل، وبينها ما هو غير نافع، وبينها ما لا فائدة منه إلا تغذية الكبر في نفس الإنسان. وإذن فإن الواجب أن نعرض عليه القليل الباقي الذي يسهم حقيقة في إسعاده وفي جعله خيرا. وحتى هذا القليل الباقي من المعارف يجب أن نحذف منه الحقائق التي يحتاج فهمها إلى إدراك كامل ناضج." ¹، إن روسو يرى أن الانسان خير وطيب بطبعه لذي يجب المحافظة على هذا الطبع وهذا السلوك الخير و إرشاده وتوجيهه إلى الذوق السليم لكي يكون سعيدا، حيث يقول روسو في هذا الصدد: "ليس الغرض في هذه الفترة إطلاقا أن نعلمه العلوم بل الغرض أن نربي فيه الذوق ليحبها ونربي لديه مناهج تعلمها بنفسه عندما يبلغ ذلك الذوق أشده. وهذا يقينا هو المبدأ الأساسي لكل تربية جيدة." ²، ويضيف قائلا في هذا الشأن: "وهذا هو أيضا أوان تعويده شيئا فشيئا على الانتباه المتصل بموضوع بعينه. ولكن ليس بالإرغام إطلاقا بل بالسرور أو الرغبة التي يجب أن تنتج هذا الانتباه. فالحذر كل الحذر من ثقل الموضوع على نفسه بما يدفعه إلى الملل." ³

لأن الملل هو الشيء الخطير على المتعلمين: ولأنه سوف لن تكون لديهم الإرادة على الاستمرار في التعليم مستقبلا، ولأن الذوق أيضا هو الشيء الأهم في عملية التعليم والتحصيل المعرفي الجيد. حيث يرى روسو أنه يجب "أن تجعل تلميذك يواجه الوقائع والأحداث. وظواهر الطبيعة لتثير فضوله. ولا تتعجل إشباع فضوله. ضع الأسئلة في متناوله ودعه يحلها بنفسه لا تجعله يفهم شيئا لأنك قلته له، وإنما لأنه فهمه من تلقاء

¹ - نجيب المستكاوي ، المرجع نفسه ، الصفحة نفسها

² - جان جاك روسو ، إميل أو في التربية، مصدر سابق، ص 158

³ - جان جاك روسو ، المصدر نفسه ، الصفحة نفسها

نفسه".¹، إجعل تلميذك ينتبه الى الظاهرات الطبيعية وسرعان ما يصبح متطلعا يملؤه الفضول²، وأن الفضول هو الذي يجعل المتعلم يبحث الحقائق بنفسه عكس العملية التلقينية، وعملية حشو العقل بالمعارف الجافة ويصبح المتعلم يتلقى فقط، و لا تكون لديه روح المبادرة والإبداع. - ويقول روسو في هذا الصدد: "إياك ان تتعجل إشباع هذا الفضول الذي أيقظته عنده بل ضع المسائل في متناول يديه ثم دعه يتول حل كل مسألة منها بنفسه".³ ، "وإذا أردت أن تعلمه الجغرافيا فلا تترك نفسك بالخرائط، ما عليك إلا أن تصاحبه في الصباح الباكر إلى مكان مرتفع ليرى مشهد شروق الشمس الرائع ودعه لتأملاته، ولا بأس أن تعرض عليه بعض الموضوعات وأن توجه إليه بعض الأسئلة:"⁴ ، هنا يربط روسو الجغرافيا بالواقع العيني والفيزيقي الملموس لا بالطرق القديمة في التعليم عن طريق الخرائط. حيث يقول في هذا الصدد: "وعلى كل حال ليس المقصود أن يعرف معالم الإقليم بالضبط، بل المقصود أن يكون ذلك وسيلة لتعلمه بوجه عام مبادئ الجغرافيا بالاستنباط من دراسة إقليمية. أجل إن المقصود ليس حشو دماغه بالخرائط، بل المهم أن يتصور ما تمثله تلك الخرائط فكرة محددة عن الفن الذي يستخدم في عملها. وهكذا يعرف التلاميذ الآخرون الخرائط، أما تلميذي فبصنعها. وتلك نمارق يزين بها حجرته الخاصة".⁵

هنا ندرك عند روسو فكرة الابتكار والصناعة والمبادرة لإنتاج أشياء ومعارف جديدة لم يكن يعرفها عكس الطريقة التقليدية في التعليم. ويقول روسو أيضا في هذا الشأن: "ولتتذكر أن روح نظامي ليس هو أن نعلم الطفل أشياء كثيرة وإنما هو أن لا ندع يدخل مخه إلا الأفكار الصحيحة الواضحة. وعندما لا يعرف شيئا فإن ذلك ليس مهما، شريطة ألا يخدع

¹-نجيب المستكاوي ، روسو حياته مؤلفاته، مرجع سابق، ص 331

²-جان جاك روسو، المصدر نفسه، ص152

³- جان جاك روسو، المصدر نفسه ، الصفحة نفسها

⁴- نجيب المستكاوي، روسو حياته مؤلفاته ، مرجع سابق، ص 331

⁵- جان جاك روسو، إميل أو في التربية، مصدر سابق، ص 157

نفسه، وألا أضع الحقائق في رأسه إلا لحمايته من الضلال الذي يستعمله بدلا منها. وإن المنطق والتقدير يأتیان على مهل، أما الأباطيل فتأتي سريعة وجماعة، وهي التي يجب حمايته منها"¹. " ويعارض " روسو " حشو رأس الطفل بالعلوم دون إرادته. ويقول أن الواجب هو تنمية حب العلوم في نفسه بحيث يدفعه إلى تعلمها ميلا ورغبة ومتعة، ويتحدث عن الكتب فيوضح أنه يكرهها ولكنها ضرورية مع ذلك وهو ليس أن يختار منها كتب أرسطو ولا بوفون وإنما كتاب روبنسون كروزويه لأنه نموذج للتربية الطبيعية . فهو هناك، في جزيرته وحيدا محروم من مساعدة البشر بني البشر، ومن الأدوات الخاصة بكل الفنون، حيث يعتمد على نفسه."²، لأن الإنسان الطبيعي حسب روسو عندما كان يعيش في الحالة الطبيعية كان وحيدا ولم يكن بحاجة إلى أقرانه من البشر ولا إلى الحاجة إلى مساعدتهم، وكانت الطبيعة تكفيه وتلبي حاجياته البيولوجية من مأكّل وغذاء. "ويهيئ لنفسه وجودا سعيدا وبينني بيتا، ويربي عنزا، ويزرع نباتا، وكل هذا لا يعطي فقط الفتى اليافع نموذجا طيبا لما يمكن عمله في مثل هذه الظروف الذي تعرض لها روبنسون كروزويه، وإنما يمكن أن يقدم لكل طفل بطريقة مثيرة جذابة. ولأن إميل لم يتأثر بأباطيل المجتمع فإنه سوف يقدر أعمال الناس بميزان، دقيق وسليم وما تنطوي عليه من فائدة. وهكذا فإنه يرى الحديد أهم من الذهب، والزجاج أهم من الماس."³.

إن روسو يريد لـ "إميل" أن يكون براغماتيا وعملاتيا لتنمية روح المبادرة فيه، " لذي ينبغي أن نعود الطفل على الشعور بمنفعة ما يتعلمه وجدواها."⁴، ويقول أيضا في هذا الصدد: "يجب أن ألقى عليه خطبة بليغة عن منافع الرحلات وفوائد التجارة، والحاصلات بكل

¹- جان جاك روسو، المصدر نفسه، الصفحة نفسها

²-نجيب المستكاوي ، روسو حياته مؤلفاته ، مرجع سابق، ص 332

³-نجيب المستكاوي ، المرجع نفسه ، ص 333

⁴- جان جاك روسو ، إميل أو في التربية، مصدر سابق، ص 160

إقليم من أقاليم الأرض، والعادات الخاصة بكل من أقاليم الأرض والعادات والتقاليد بكل شعب من شعوبها، وعن استخدام التقويم وفائدة تعاقب الفصول لتنظيم مواسم الزراعة. وعلاقة كل ذلك بالتاريخ الطبيعي والسياسة والفلك والأخلاق نفسها.¹ -لأن الرحلات لديها أهمية بالغة في تكوين روح الإبداع لدى الفرد وتفتح له آفاق واسعة للمستقبل ويجب أن يهتم بالمهن والفنون اليدوية أيضا. "وبالتالي فإن الحداد والبناء كلاهما أهم من الصايغ. فقيمة كل عمل هي: في مدى اتساع الخدمات وفي الفائدة التي يقدمها للمجتمع. ومن هنا أيضا فإنه يضع الزراعة في المقام الأول بين كل الفنون والمهن، وهنا يتحدث روسو عن ضرورة العمل، وواجب إميل في أن يتعلم إحدى الحرف ويندد برغبة الأم، دائما في أن يصبح مركزيا أو أميرا ويقول أن عمل إميل في أية مهنة مفيدة للمجتمع غير له من هذا الهوان ! ويقول أما أنا فأني أريد أن أعطيه مركزا لا يستطيع أن يفقده، مركزا شرفه في كل زمان، أريد أن أرفعه إلى حالة الإنسان".²

هنا يعطي روسو أهمية كبيرة للمهن والحرف اليدوية حيث نرى أنه يضع الزراعة في المرتبة الأولى بين كل الفنون والمهن التي يمارسها الإنسان. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "إن إميل يعيش في المجتمع فينبغي إذن أن يدرس العلاقات الاجتماعية. ولكن ينبغي ألا نطلعه على تلك العلاقات من جانبها المعنوي الأخلاقي بل نوجه انتباهه أولا نحو الصناعة والفنون الميكانيكية التي تجعل الناس بعضهم نافعا لبعض".³

و إن روسو يعطي أهمية للصناعة والفنون الميكانيكية التي تجعل الناس ينتفعون من منافع بعضهم البعض. ويقول أيضا في هذا الشأن: "وعلى خلاف العقيدة الشائعة سيتعلم إميل كيف يقدر الأمور المختلفة على أساس منفعتها الحقيقية وحدها ويجب أن نضع في المقام الأول بين الفنون تلك التي يعم إستخدامها ولا غنى عنها للبشرية وأعني بذلك الزراعة

¹ - جان جاك روسو ، المصدر نفسه ، الصرحة نفسها

² -نجيب المستكاوي، روسو حياته مؤلفاته ، مرجع سابق، ص 333

³ - جان جاك روسو ، إميل أو في التربية، مصدر سابق، 164

والحدادة والنجارة .. إلخ أما الاقتصاد السياسي فلا يعرف عنه إميل إلا ما يتصل بالملكية وباستخدام النقود. فالنقود هي الرباط الحقيقي في المجتمع بين الناس من حيث أنها تتيح تحقيق تبادل العمل، وتبادل العمل هو أساس المجتمع بعينه.¹

ويضيف قائلاً: "ومرة أخرى ليس هدفي إطلاقاً أن أمنحه العلم بل أن أعلمه كيف يكتسبه عند الحاجة، وكيف يقدره حق قدره، وأن يحب الحقيقة ويغلبها فوق كافة الأشياء."²

إن روسو يريد أن يمنح إميل القدرة على إكتساب العلم عند الحاجة والتكيف مع الأوضاع الجديدة الفجائية و المتغيرة باستمرار وبطريقة ثورية وعنيفة في هذه الحياة وتجاوزها بإبتكار آليات جديدة، وعقلانية جديدة، وأن يحب الحقيقة ويغلبها على كافة الأمور الأخرى. حيث يقول روسو: "ينبغي ان نعود الطفل على الشعور بمنفعة ما يتعلمه وجدواها وبذلك يتعود على أن لا ينقاد انقيادا أعمى في أعماله وأفكاره وننمي فيه روح المثابرة والمبادرة."³

وعند هذه النقطة يتنبأ روسو بالثورات والتغيرات التي ستحدث لأوروبا مستقبلاً ويقول: "إنكم تتقنون في الوضع الحالي للمجتمع دون أن تفكروا أن هذا الوضع عرضة لثورات حتمية، وأنه يستحيل عليكم أن تنتبئوا أو تستشفوا الوضع الذي يمكن أن يشهده أطفالكم حيث يصبح الكبير صغيراً، والثري فقيراً، والملك رعية: هل ضربات القدر من الندرة بحيث تحسبون إنكم مستثنون منها؟ إننا نقرب من حالة الأزمة ومن عصر الثورات."⁴

وإن روسو يتحدث عن الثورات التي ستحدث مستقبلاً وأنها حتمية لا مفر منها ولا يمكن إيقافها لأن مسارها تتحكم فيه الحتمية التاريخية والاجتماعية، ويتحكم فيه القدر أيضاً ولا يمكن للإنسان أن يهرب منها أو أن يوقفها. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "إنكم تركزون

¹ - جان جاك روسو ، المصدر نفسه، الصفحة نفسها

² - نجيب المستكاوي ، المرجع نفسه، الصفحة نفسها

³ - جان جاك روسو ، إميل أو في التربية، مصدر سابق، ص 160

⁴ - نجيب المستكاوي ، روسو حياته مؤلفاته ، ص 334

إلى النظام الاجتماعي الحالي، من غير أن تفكروا في أن ذلك النظام عرضة لثورات لمناص منها وأنه من المستحيل أن تتوقعوا سلفاً أو تتنبأوا بما يمكن أن يحدث لأطفالكم غداً، إن الكبير يسمى صغيراً، والغني يسمى فقيراً، والملك يسمى رعية، وضربات القدر من القلة بحيث تضمنون أنفسكم بمنجاة منها، إننا نقترّب من قمة الأزمة ونقترّب من عصر الثورات، فمن ذا الذي يضمن لكم ماذا ستكونون عندئذ؟ **إنني أقرر أنه من المستحيل أن تبقى الملكيات طويلاً في أوروبا.**¹ و"إن فولتير أيضاً قال : "إن كل ما أراه ينثر بذور ثورة سوف تقع حتماً وإن كنت لن أسعد بمشاهدتها أليس عجيباً حقاً، أن هذين العالمين رغم تعارض فكرهما وطباعهما بشدة، قد تنبأ كلاهما بالثورة قبل إنفجارها بربع قرن؟" ²

المرحلة الرابعة: في الجزء الرابع: من كتاب إميل يتكلم روسو عن المرحلة الرابعة وهي مرحلة المراهقة والتعليم الديني:

يعالج روسو في هذا الجزء من التربية الدينية والروحية للفتى إميل، وهنا تبدأ على حد قوله التربية الحقيقية حتى أن ما قبلها يمكن يعد لعب أطفال. ففي هذا السن تبدأ أزمة المراهقة، وهي ثورة عاصفة عارمة تعلن عن هبوبها رياح الشهوات المتولدة. وهذه الشهوات من حيث المبدأ، ليست سيئة ما دامت تتبع من الطبيعة: "إنها الركيزة الأساسية لحفظ نوعنا، فهي إذن محاولة باطلة بقدر ما هي سخيفة إن نريد سحقها، إن ذلك بمثابة رقابة منا للطبيعة، بمثابة إصلاح لعمل الله." ³

إن مرحلة المراهقة هي من أصعب مراحل الشخص لأنها مرحلة حساسة، وفي هذه المرحلة تبدأ الأزمات التي تواجه الفرد من تولد الشهوات الكامنة فيه. حيث يقول روسو في هذا الصدد: "ومن الخير أن تنمو الأهواء والإنفعالات نمواً بطيئاً بحيث يعد

¹ - جان جاك روسو ، إميل أو في التربية ، مصدر سابق، ص 167

² - نجيب المستكاوي، روسو حياته مؤلفاته، مرجع سابق، ص 334

³ - نجيب المستكاوي، المرجع نفسه، الصفحة نفسها

ويهيئ بعضها للبعض الآخر، وتتنظم فيما بينها بمجرد تولدها. فإن الشاب ظل طاهرا يفتتح قلبه أولا للانفعالات الطيبة كالصداقة.¹

ويجب أن تنمو الأهواء والانفعالات نمو بطيئا وتدرجيا، وتنسجم فيما بينها بمجرد ولادتها. وإذا كان الشاب نقياً سيفتح فؤاده أولاً للانفعالات الطيبة كالصداقة. ، "قلو أن الله قال للإنسان أن يلغي الشهوات التي يعطيها له لكان الله يريد ولا يريد، ولناقض نفسه. ولكنه لم يصدر هذا الأمر الغير المعقول، لو شيء مثل هذا مكتوب في القلب البشري، وما يريد الله أن يفعله له إنسان فإنه لا يقوله له بواسطة إنسان غيره، وإنما يقوله بنفسه يكتبه في أعماق قلبه." ² ، إن روسو يقول بأن الفضيلة منقوشة في قلب الانسان ولا داعي للوسائط للوصول إليها، "كلام جريء يخالف الأخلاقيات المسيحية، ويمهد لإقرار إيمان الخوري السافوي الذي سنصل اليه فيما بعد، ولنعد إلى الشهوات. إنها طيبة تكون طبيعية، ولكن بعضها غريب دخيل علينا." ³ ، وإن في قرارة النفوس مبدأ فطريا للعدل والفضيلة نقيس إليه أفعالنا وأفعال سوانا من الناس ونحكم عليها بالخير والشر وهذا المبدأ هو الذي أسميه بالضمير.⁴

إن منبعها طبيعي هذا صحيح، ولكن ألف رافد غريب نمتها، إنها نهر كبير ينمو دون انقطاع، ولا يكاد المرء يجد فيه بضع قطرات من مياهه الأولى. إن شهواتنا الطبيعية جد محدودة، إنها أدوات حريتنا إنها تعمل على حفظ نوعنا. أما كل الشهوات التي تستعبدنا وتهلكنا فإنها تأتينا من الخارج، فالطبيعة لا تعطينا إيها.⁵

¹ - جان جاك روسو ، إميل أو في التربية ، مصدر سابق، ص178

² - نجيب المستكاوي، روسو حياته مؤلفاته ، مرجع سابق، ص 335

³ - نجيب المستكاوي ، المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

⁴ - جان جاك روسو، إميل أو في التربية، مصدر سابق، ص213

⁵ - نجيب المستكاوي ، المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

إن الطبيعة لا تتعارض مع صحة الإنسان وتنميته البيولوجية، لأن الإنسان نفسه وليد الطبيعة كما يقول روسو فالطبيعة أعطت ووفرت للإنسان الغذاء والمشرب والمنام، لتلبية حاجياته البيولوجية دون أدنى عناء أو جهد يذكر، وكان يتغذى من ثمار الأشجار وينام تحتها ويشرب من أول جدول يلقاه أمامه، وأعطته مناعة بيولوجية.

إن دور الأستاذ هو توجيه قدرات المراهق، فالشاب الذي أفسدته الأنانية، والمتعة، جاف جامد بالنسبة إلى الغير، وعلى العكس فإن الشاب الذي إحتفظ بنفسه شريفا بريئا هو خير شفيق رؤوف. يجب إيقاظ بواكير إختلاجات الحساسية المتولدة، بإطلاع الغنى، ليس على مشهد الغنى والسعادة وإنما على حياة المخلوقات التي تتألم. هكذا يجبل على الشفقة والحنان.¹ ، و إنه عندما بدأ نمو الذكاء يذكرى فيه نار المخيلة يبدأ بالإحساس بما يعاينه نظراؤه ويتأثر لشكواهم ويتألم لآلامهم وعندئذ يجب أن تصل إلى قلبه صورة البشرية الرءوفة وتحمل إليه أول إحساس بالعطف والحنان.²

ويجب على إميل أن يحس كيف يعيش الضعفاء والفقراء الذين يتألمون لكي يربى على الشفقة والحنان ويكون متعاطفا معهم، ويتألم عندما يرى أقرانه يتألمون وتصل فيه صفات الإنسانية كالتعاطف والتضامن معهم."والآن وقد دخل الشاب في الحياة الأخلاقية، فإنه سيواجه الآخرين وسيكون أول شعور له أن يرغب في المركز الأول. إن الكرامة هي من الصفات الفاضلة للإنسان، والكرامة لا غبار عليها لأنها طبيعية، ومتفقة مع حفظ النوع، ومن ثم فإنها تولد العواطف الرفيعة، أما الأنانية أو الأثرة الشهوات الحاقدة فلا حاجة له لذلك، ولكي نوجه إميل في علاقاته مع الآخرين يجب أن يدرس قائمة الدرجات الاجتماعية. سوف يتعلم إميل معرفة الناس ورؤيتهم كما هم. وهنا يتدخل التاريخ".³ ، ومن

¹ - نجيب المستكاوي، روسو حياته مؤلفاته، مرجع سابق، ص 336

² - جان جاك روسو، إميل أو في التربية، مصدر سابق، ص 180

³ - نجيب المستكاوي، المرجع نفسه ، الصرحة نفسها

أراد أن يعرف الناس يجب أن يراهم في أفعالهم لا في أقوالهم فنحن إذ نسمعهم نجدهم يخفون أفعالهم ولا تبدو تلك الأفعال للعيان مجردة إلا في ضوء التاريخ فهناك يكون الحكم على الوقائع.¹

ويريد روسو أن نضع "إميل" بين يدي المؤرخين الذين يجعلون القارئ يقرأ ما في النفوس: "ليس هيرودوت، لأنه وإن كان حافلاً بالتفاصيل الشائقة إلا أن هذه التفاصيل كثيراً ما تحل إلى صغائر تفسد ذوق الشباب أكثر مما تكونه. وليس **تيوسيديد** وقيصر اللذان يتحدثان عن الحرب، ولا يرى المرء في رواياتهما إلا أقل الأشياء بالمعلومات. وليس " **تيت ليف** " لأنه سياسي وخطيب ولا يلائم هذه المرحلة من مراحل العمر. وليس **تاسيت** الذي لا يلائم غير العجائز، وإنما الذي يصور، برشاقة ليس لها نظير، عظماء الرجال في صغائر الأشياء.²

أ- التكوين الفلسفي والديني:

تبدأ في هذه المرحلة التربية الدينية والتكوين الفلسفي، "وإن تربية إميل كانت حتى الآن عملية، فكيف نوصله إلى الأفكار المجردة و إلى فكرة الخالق بصفة خاصة؟ كيف نجعله يدرك هذا الكائن السامي والمطلق، والكائن الذي يحرك الكون، ويشكل كل نظام الكائنات، والذي لا نستطيع أن نراه بالعين المجردة ولا أن نلمسه باليد، ولا أن ندركه بأية حاسة من الحواس والذي نرى منه الصنع دون أن نرى الصانع؟ إنها ليست مسألة بسيطة أن نعرف وجوده في النهاية، وحينما نصل إلى ذلك، نسأل أنفسنا من هو، وأين هو؟ يرتبك منا الذهن ويظل..³

¹ -جان جاك روسو، إميل أو في التربية، مصدر سابق، ص 184

² - نجيب المستكاوي، روسو حياته مؤلفاته، مرجع سابق، ص 336.

³ - نجيب المستكاوي، المرجع نفسه، ص 337

وإن البحث في مسألة الخالق هي مسألة فلسفية، ودينية معقدة فكيف نبسط لإميل هذه الأمور المعقدة وهذه الأفكار المجردة ونجعله يفهمها و يستعيبها بطريقة سهلة وبسيطة. ويرى روسو "أنه يجب أن نحذر كل الحذر من إعلان الحقيقة لأولئك الذين لم يتأهبوا بعد لإدراكها. فإن ذلك أدعى لقيام الضلال مقام ما نرمي إليه من الحق وخير ألف مرة ألا تكون لدى الفتى فكرة إطلاقاً عن الإلهيات، من أن تتكون لديه عنها أفكار مسبقة خرافية مهينة لا تليق بجلاله. فذلك أهون الضررين أن الجهل بالمقام الأسمى مؤقتة أفضل من التتقص منه." ¹

إن الأحكام والأفكار المسبقة الزائفة عن الدين والأمور الإلهية عند الطفل هي أفكار خاطئة، ويقول روسو في هذا الصدد: "إنه لن تتكون لديه صورة خاطئة مزيفة عن الأمور الإلهية، لأنه تعود إلا بما هو في متناول حواسه وإدراكه ومع هذا ليس في نية معلمه أن يتركه في هذا الموضوع نهبا للتأثيرات فلن يفرض عليه عقيدة دينية معينة. بل سيعده للقدرة على اختيار العقيدة المثلى التي يهديه إياها عقله عن إقتناع وتمييز." ²

إن روسو هنا يترك "لإميل" حرية الاختيار لعقيدته ولدينه حيث سيهتدي إليها بعقله المستتير عن قناعة وتمييز وسيختار ذلك بنفسه وبقناعة ذاتية. "ويعارض روسو ما ذهب إليه "لوك" من البدء بدراسة الأرواح ثم الانتقال بعدها إلى دراسة الأجسام، ويقول أن هذه نظرية الأباطيل والخرافة والظلال، وليست نظرية منطقية ولا طبيعية لأن حواسنا هي أول أدوات معارفنا، ومن ثمة فإن الكائنات المادية المحسوسة هي أول الكائنات التي تتكون لدينا فكرة عنها. فالروح لفظ لا يدرك معناه إلا الفيلسوف، لأنها عند الشعب وعند الأطفال ليست سوى جسم. ولهذا السبب فإن كل الشعوب أقامت لنفسها آلهة مادية في بداية عصور الإنسانية، ³ مثل الكواكب والجبال والرياح والأنهار ثم أن أفكار الخلق، والأزل، والقدرة التي

¹ - جان جاك روسو، إميل أو في التربية، مصدر سابق، ص 191

² - جان جاك روسو، المصدر نفسه، الصفحة نفسها

³ - نجيب المستكاوي، روسو حياته مؤلفاته، مرجع سابق، ص 338

يراهما القليلون غامضة عويصة ولا يدرك العامة ما فيها من غموض، لأنهم لا يفهمون شيئاً منها، هي أفكار من الصعب أن نعرضها: بكل غموضها على أذهان شابة مازلت مشغولة بعمليات الحواس المتفتحة، و التي لا تتصور إلا ما تلمسه، حتى أنك لو حدثت الطفل عن قوة الله لقدر أن الله في مثل قوة أبيه.¹، فمن الصعب على إدراك بشري مشغول بموضوعات حسية أن يرتفع بصورة طبيعية إلى التصورات المجردة من قبيل الروح والطبيعة الإلهية.²، ويتحدث روسو عن أدلة وجود الله في دليل التناسق والإرادة التي تحرك الكون. حيث يقول: إنه إذن إرادة تحرك الكون وهذا أول لبنة لعقيدتي³، أو من أن هناك إله وأن هناك عقلاً مدبراً وراء تناسق حركات الكون كما أن هناك إرادة تحرك الكون والطبيعة وتلك لبنة أخرى في عقيدتي.⁴ وإن الثابت عندي على كل حال أن الكون في مجموعة شيء واحد بدليل تناسق عناصره في الفكر وهذا يدل على أن عقلاً واحداً يدبر الكون كله. وهذا الكائن الذي يريد ويقدر ويفعل بذاته محرك الكون ومدبر النظام هو ما أدعوه الله.⁵

وينتقل روسو إلى مسألة العقائد ويتساءل عما يؤمن به الطفل المسيحي، ويقول أنه يؤمن بما يتصوره، وما أقل ما يتصوره مما نلقنه، حتى أننا لو لقناه عكس ذلك تماماً لأمن به أيضاً.⁶

ويؤكد أن الإيمان بهذا الشكل هو مسألة جغرافية، وله علاقة وطيدة بالمكان الذي يعيش فيه الشخص والفرد ولها علاقة بالمجتمع أيضاً. فالطفل الذي في مكة يقال له أن محمداً رسولاً الله ص فيؤمن بذلك، والطفل الذي في باريس يقال له أن محمداً ليس رسولاً الله فيؤمن

¹ - نجيب المستكاوي، روسو حياته مؤلفاته، مرجع سابق، ص 338

² - جان جاك روسو، إميل أو في التربية، مصدر سابق، ص 190

³ - جان جاك روسو، إميل أو في التربية، مصدر سابق، ص 205

⁴ - المصدر نفسه، الصفحة نفسها

⁵ - المصدر نفسه، ص 207

⁶ - نجيب المستكاوي، روسو حياته مؤلفاته، مرجع سابق، ص 339

بذلك أيضا. فلو تبادلوا الطفلان مركزيهما فذهب الفرنسي إلى مكة وذهب المكي إلى باريس
لأكد كلاهما ما قاله الآخر، أو لتغير إيمانهما، بل لا تبادلوا مركزيهما في الجنة والنار
مستقبلا أيضا. على أساس أن كل دين يرى أنه وحده الدين الحق.¹ ، فالإنسان ينشأ على
دين أبويه وعلى تربيتهم فإما يسلمانه فيصبح مسلما أو يهودانه فيصبح يهوديا أو يمسحانه
فيصبح مسيحيا أو يمجسانه فيصبح مجوسيا ، " ومع ذلك لابد أن يتحدث الأستاذ إلى تلميذه
عن الله، وهنا تبرز صعوبة أخرى: فعلى أي دين ينشأ الفتى؟ السؤال قد لا يتبادر إلى ذهن
الكثيرين لأن الوضع الطبيعي أن ينشأ الفتى على دين أبيه: فهم يثبتون له دائما أن هذين
الدين أي كان هو الدين الوحيد الحق، وأن كل الأديان الأخرى خرافات، وسخافات. وقوة
البراهين في هذه النقطة تتوقف على الدولة التي تعرض فيها. دع التركي الذي يرى
المسيحية في القسطنطينية سخيفة إلى هذا الحد، يذهب ليرى كيف ينظرون إلى الإسلام في
باريس.²

فنرى أن المسألة العقائدية هنا هي مسألة دينية وتربوية وجغرافية واجتماعية أيضا وأن
تربية الأبوين لها تأثير هام في تكوين عقيدة الشخص: "في مسألة الدين على الأخص يتمثل
انتصار الرأي. ونحن الذين نزعم أننا نتبع سلطانه في كل الشؤون، ونرفض أن نسلم بشيء
للسلطة، في أي دين ننشئ إميل؟ الجواب سهل إننا لن نعلمه هذا الدين أو ذاك، و إنما
سنضعه في موضع يتيح له استعمال عقله على أفضل نحو ليقوده إلى الاختيار السليم."³

ب- إقرار إيمان الخوري السافوي:

يعرض روسو على إميل مبادئ الدين الطبيعي على لسان الراهب السافوي وهو شخصية
ليست خيالية، لأن روسو عرف فعلا زهاء عام 1728 راهبين من سافوى هما الأب جيم و

¹ -نجيب المستكاوي ، المرجع نفسه، الصفحة نفسها

² - نجيب المستكاوي ، روسو حياته مؤلفاته ، مرجع سابق، ص 339

³ - نجيب المستكاوي ، المرجع نفسه ، الصفحة نفسها

الأب جاتيه، فخرج شخصيتهما و أخرج منها شخصية الراهب السافوي الذي يلقي بخواطره الدينية على إسماع شاب منفي من بلاده - يقضي أياما في تورين هو روسو نفسه الذي تعرض لهذه التجربة.¹ ، حيث يقول روسو: "على لسان الكوري دوسافوي: " لقد أطلعتك أيها الصديق على عقيدتي كما أودعها الله في فؤادي وأنت أول شخص صرحت له ما في نفسي، وربما كنت الأخير أيضا وأنت في سن الحرج التي تنفتح فيها النفس لليقين".²

حيث يقول أيضا روسو في هذا الصدد: على لسان الكوري دو السافوي: "وحسبي أن أبسط لك ما أعتقد على قلب سليم وأحب أن ترجع إلى قلبك وأنا أحدثك بحديثي هذا. وهذا كل ما أطلبه منك، وإن أخطأت فبحسن نية. وهذا حسبي كي لا تحتسب غلطتي إجراما. وإن أخطأت أنت خطأ من هذا القبيل، فما عليك من ذلك بأس".³

ونميز في إقرار الإيمان بين قسمين: أحدهما قوام التأييد.

- والثاني قوامه الإنكار ففي الأول يؤكد روسو اعتقاده في ثلاثة: الله ، العناية الإلهية خلود الروح، وهكذا يضع أسس الدين الطبيعي ويمد يده إلى المؤمنين. وفي الثاني يحمل روسو على التنبؤ والمعجزة وعلى ما هو خارق للطبيعة، و هنا يولي ظهره لحظة للمؤمنين ويبدوا صديقا للفلاسفة. بعدها يعود روسو ليكمل الجزء الرابع من إميل وهو التكوين الديني للشاب.⁴

ج-الإعداد للحياة:

¹- نجيب المستكاوي ، المرجع نفسه ، الصفحة نفسها

²-جان جاك روسو، إميل أو في التربية ، مصدر سابق، ص 217

³-جان جاك روسو ، إميل أو في التربية، مصدر سابق ، ص197

⁴- نجيب المستكاوي ، روسو حياته مؤلفاته ، مرجع سابق ، ص 33

إن إميل لم يعد طفلاً، لقد أصبح رجلاً. يجب أن ننمي فيه الآن الشعور بالمسؤولية، ويجب أن نطلعه على الأسرار الخطيرة التي أخفيها عنه فترة طويلة بحذر شديد. لكن علينا أن نتفادى إغراقه بالقراءة، والعزلة، والحياة الرخوة، المرفهة، وأن نرهق جسمه، ونخفف خياله وحواسه بشغل طاقته في أعمال وأنشطة شاقة.¹

إن الشعور بالمسؤولية هو شيء هام في تكوين شخصية "إميل" فتجعله يواجه الحياة والظروف الجديدة والصعبة التي يواجهها في حياته. "ويحسن أن يبتعد به أستاذه عن المدينة والظروف الاجتماعية فترة. ولا بأس بعد أن أنرنا له الطريق وأعدناه للحياة، وحذرنا من المخاطر التي تتهدده، أن يفتحه أستاذه في أمر الحب، لكن ليس بخطب إليه بقطاعته وبشاعته، وإنما بتبصيره تبصيرا حريصا واعيا بالفارق بين الإنحلال والحب. ومع ذلك فإن إميل لن يعيش عمره وحده، وإنما سوف يعيش في المجتمع.²، حيث يقول في هذا الصدد: "يجب عند المصارحة أن أتخير المناسبة والزمان والمكان وأن أحدثه في الموضوع ببساطة ورزانة، ولكن ليس في جفاف بل بحيث يدرك أنني مشترك معه في الإحساسات التي أحدثه عنها. وسأحدثه عن الحب والنساء والملذات حديثا صريحا أكسب به قلبه وأكون موضع سره في هذه الأمور بعد ذلك."³

ويضيف روسو قائلاً في هذا الشأن : "لن أخفيه في فطرته بل سأكتفي بتوضيحها له وبيان مدى الأمان فيها ومواطن الخطر، بحيث يسلمني قياده عن ثقة من فهمي وتسامحي وحرصى على متعته ومصلحته معا."⁴

¹ - نجيب المستكاوي، المرجع نفسه ، ص 362

² - نجيب المستكاوي، روسو حياته مؤلفاته، مرجع سابق، ص 363

³ - جان جاك روسو، إميل أو في التربية ، مصدر سابق ، ص 223

⁴ - جان جاك روسو، المصدر نفسه، الصفحة نفسها

د-إميل في المجتمع:

إن إميل لم يخلق لكي يبقى منعزلاً ومنطوياً على ذاته لأن الإنسان اجتماعي بالطبع، وإنه عضو في المجتمع ويجب أن يؤدي واجبه فيه ولقد خلق ليعيش مع الناس ولذا يجب أن يعرفهم، إنه يعرف الإنسان بصفة عامة، ويتبقى عليه أن يعرف الأفراد. وهو يعرف ماذا يفعل الناس في المجتمع: ويتبقى عليه أن يرى كيف يعيش الناس فيه. حيث يقول في هذا الصدد: "إنه يحب الناس لأنهم أناس مثله، وأحبهم إليه أشباههم به في الذوق والخلق وتقديره للناس مبني على دراسة أخلاقهم وسجاياهم وأذواقهم".¹

وهنا يبدو روسو وكأنه يدين طريقته في التربية. ولكن هذا غير صحيح. "إنه لم يقل قط بأنه يجب حفظ الفرد معزولاً عن المجتمع، وإنما أعداؤه هم الذين يحاولون أن يلصقوا به هذه الفكرة الباطلة. فهو يقول ببساطة أن مدنييتنا فاسدة، ولكن يجب أن نوقف سريانها، فهي مصدر الخلل في المجتمع".²، ومن ثمة يجب تصحيح المجتمع السياسي الفاسد، ومسار هذه الحضارة الفاسدة التي أعطت لنا الإنسان التاريخي والذي دخل معترك التاريخ، والذي يعيش في المجتمع السياسي الفاسد فأصبح إنساناً فاسداً أخلاقياً ومستغلاً اقتصادياً ومكبلاً سياسياً، ومن ثمة تصحيح هذه المدنية المفسدة. "ومع ذلك فإن إميل لن يدخل المجتمع لكي يلهو أو ليعيث فيه فساد، وإنما ليبحث فيها عن الصحة التي يشعر أن قلبه محتاج إليها. إن روسو يؤمن الشباب ضد مخذورات معينة يجب أن يلاحظها في بحثه، ويعني بأن يحدثه مسبقاً ومراراً عن الصفات التي يجب أن تتوافر في تلك الموعودة التي عليها أن تسعده، بل نراه يعنيها بالاسم: إنها صوفيا".³ وهو يرسم لها صورة كاملة، جسماً وخلقاً يجعله يأنف سلفاً من

¹ - جان جاك روسو ، إميل أو في التربية ، مصدر سابق ، ص 226

² - نجيب المستكاوي ، روسو حياته مؤلفاته ، مرجع سابق ، ص 363

³ - المرجع نفسه ، ص 364

فتيات أخريات قد يغرينه برشاقتهن أو مفاتنتهن، وحتى يقارن الشاب بين طيشهن وخفتن وبين المثل الأعلى التي رسخت في ذهنه يستهول التباين الشديد.¹

فيعطي روسو لنا صورة حسنة عن صوفيا، والتي ستكون قرينة حياة لإميل لكي يعيش حياة هنيئة وسعيدة. ويدخل إميل المجتمع وعمره عشرون عاما. وهو لا يتألق فيه ولا يسعى لكي يتألق، ولكنه يستلقت الأنظار ويجتذب عطف الناس ببساطته وطبيعته وصراحته. إنه يحب الناس، ويريد أن يحظى بالإعجاب. وبالاختلاط يتعلم ما هو الذوق فما الذوق إلا القدرة على تقدير ما يروق وما لا يروق في نظر أكبر عدد من الناس.²

حيث يقول روسو في هذا الصدد: "وألاحظ هنا أن الذوق يخضع لقواعد محلية ولاسيما من جهة الجو والطبع والعادات، والعرف السائد والنظم الاجتماعية، وطريقة الحكم كما أن الاعتبار السن والنوع والطبع دخلا في تلوين الذوق، ولهذا قيل أن الأنواق لا يصح أن تناقش."³، وهنا يحين وقت مطالعة الكتب المفيدة واللطيفة. هنا يجب على الأستاذ أن يسعى لتكوين الشاب أدبيا، لينمي فيه ذوق الجمال الذي سيعتمد عليه روسو مستقبلا في تحويل الشاب عن البحث عن السعادة المبتذلة الرخيصة وعن حب الثروة.⁴

وبعد حديث مطول عن الثروة والذوق ببلاغة لا نظير لها يعود روسو إلى صوفيا ويقول: إننا نبحث دائما عن صوفيا، وليس هذا مذهلا: فقد كنت أبحث عنها دائما حينما أثق أنها غير

¹ - المرجع نفسه، الصرفة نفسها

² - نجيب المستكاوي، روسو حياته مؤلفاته، ص 364

³ - جان جاك روسو، إميل أو في التربية، مصدر سابق، ص 227

⁴ - نجيب المستكاوي، روسو حياته مؤلفاته، مرجع سابق، ص 364

موجودة أبداً." أما الآن فقد حان وقت البحث عنها ولهذا فهو يودع المجتمع، يودع باريس مدينة الضجة والدخان، والطين، ويعلن أنه ذاهب للبحث عن الحب والسعادة والبراءة".¹

المرحلة الخامسة: في الجزء الخامس: من كتاب إميل يتكلم روسو عن : صوفيا أو المرأة: يصل روسو الى المرحلة الأخيرة من الشباب ويدخل في الحياة الاجتماعية مع شريكة حياته، حيث يقول روسو في هذا الصدد: ها قد وصلنا الى المرحلة الأخيرة من الشباب ولكن لم نبلغ بعد آخر مداه وليس من المستحسن ان يعيش الرجل وحيدا وإميل رجل وقد وعدناه بشريكة حياته فينبغي ان نمنحه إياها وهذه الشريكة هي صوفي".²

فناموس الطبيعة يقول بأن النساء: " لا يكفي أن يكن خليقات بالتقدير بل ينبغي أن يكن محل تقدير، ولا يكفي أن يكن حكيمات بل ينبغي أن يعترف بهن فعلا كحكيما".³ وإن سعادتهن ليست فقط في سلوكهن وإنما في سمتهن.⁴ ، فليس مهما أن تكون المرأة أمينة فحسب بل يجب أن يحكم زوجها بأمانتها و أن يحكم بذلك جميع الناس.⁵

"وقد لا يكون هذا متناقضا في الظاهر مع أفكارنا الحالية في تربية المرأة، ولكننا لا نورد الكتاب كاملا، وبالتالي لا نورد حجج روسو المنطقية كليا. ولكن الأيام تثبت صدق نظرية روسو في شأن أخطار المدنية المتزايدة، وما سنتبعه من خلل في العلاقات الإنسانية. ولعلنا لا ننسى أن نظريته واحدة ولا تقبل التجزئة وأن أساسها نظريته في التربية".⁶

¹ - نجيب المستكاوي ، المرجع نفسه، ص 365

² -جان جاك روسو، إميل أو في التربية، مصدر سابق، ص 234

³ - المصدر نفسه، ص 244

⁴ - نجيب المستكاوي ، روسو حياته مؤلفاته ، مرجع سابق، ص 365

⁵ -جان جاك روسو، إميل أو في التربية، مصدر سابق، ص 239

⁶ - المرجع نفسه، ص 366

وإذا اتبعنا توجيهات الطبيعة وجدنا ان الرجل والمرأة يجب ان يكون بينهما تناسق وتوافق ولكن لا يجب أن تتاط بهما نفس الأعمال ونفس الأمور أجل إن الغاية من أعمالهما مشتركة ولكن الأعمال بينهما متباينة ، وبالتالي تكون متباينة أيضا الأذواق والطباع التي توجه تلك الأعمال.¹

يرى روسو وكذلك أن كل تربية النساء يجب أن تكون متعلقة بالرجال، أن يعجبهم، أن يكن نافعات لهم، أن يكن محل حبهم، وتقديرهم أن ينشئهم صغاراً، ويرعينهم كباراً، أن يصاحبهم، أن يلبسهم، و أن يجعلن حياتهم ممتعة و وديعة وعذبة: هذه واجبات النساء في كل زمان. وما يجب أن نعلمهن منذ طفولتهن، وطالما لا ترتفع إلى هذا المبدأ فإننا نبعد عن الهدف، و كل التعاليم التي نلقنها لهن لن تجدي في تحقيق سعادتهن وسعادتنا.²

حيث يقول روسو في هذا الصدد: "ولهذا يجب أن تكون تربية النساء برمتها مرتبطة بالرجال فإن وجبات النساء في جميع الأزمان هي إرضاء الرجال ونفعهم وتحري محبتهم وتكريمهم وتربيتهم صغاراً ورعايتهم كباراً، وإرشادهم بالمشورة والتسرية عنهم وتهوين الحياة عليهم."³

"ويستطرد "روسو" مبدئياً في ملاحظاته في ملابس المرأة، وألعابها ودراساتها ويؤيد أن تحتفظ و أن تتحكم في نفسها وتصرفاتها، ولكنه يعارض في حرمانها من الغناء والرقص واللعب، لأنه يريد أن تكتسب المواهب الجذابة. أما بالنسبة للدين فلا ينبغي أن نعاملها في شأنه كما عاملنا الرجل وناقشناه وعلمناه لأننا لو انتظرنا حتى نصبح في حالة تسمح لها بمناقشة هذه المسائل العويصة فإننا أغلب الظن لن نتهياً لنا هذه الفرصة، و من ثمة فإن الفتيات يجب أن يكن لهن دين، وأن يؤمن به."⁴

¹ - جان جاك روسو، إميل أو في التربية، مصدر سابق ص 241

² - نجيب المستكاوي ، روسو حياته مؤلفاته ، مرجع سابق ص 366.

³ - جان جاك روسو، إميل أو في التربية، مصدر سابق، ص 243

⁴ - نجيب المستكاوي ، المرجع نفسه، ص 367

إن الذوق يتكون بالموهبة وبالاجتهاد، وبالذوق يتفتح الذهن لا شعوريا لمعاني الجمال بكافة أنواعه ثم للمعاني الأخلاقية التي ترتبط به¹، و على كل حال يجب أن لا نفرض الدروس والمعلمين على الفتيات بل ندع كل فتاة تطلب تلك الدروس عند شعورها باحتياجه إليها ويجب أكثر من ذلك ألا ندفع الفتاة في طريق التعلم دفعا بل نتركها لميلها الفطري.² ويرى روسو يجب أن نفتح باب المجتمع للفتيات ولكن بعد تبصيرهن بمتعته وسخافته وأوهامه الباطلة، وهو يطلب الأم التي تقدم إبنتها إلى المجتمع أن تجعلها تراه على حقيقته، وأن تتفد بها جوهره ولا تكتفي بمظهره، وأخيرا فإنه يشيد بفعالية التربية المنزلية: "لكي تحب الفتاة الحياة الهادئة والعائلية يجب أن تعرفها، يجب أن تكون قد شعرت بعذوبتها منذ طفولتها. و أنه لفي بيت الأسرة تتعلم حب بيتها الخاص، وكل امرأة لم تنشأ أمها لن تحب تنشئة أطلالها."³ وهكذا فإن الفتاة لن تخرج عن المحيط العائلي، ولن تبتعد عن أمها حتى تتعلق ببيتها في المستقبل. "وبذلك فإنها ستعرف التدبير المنزلي، ولن تقتصر على الأعمال المتعلقة بها، وإنما سيكون لها ذهنها المستتير الذي يربي الأطفال. ولكنها يجب أن لا تتبحر في العلم كثيرا."⁴

وفي الأخير يبحث عن العلاقات التي تربط إميل بالمواطنين الذين يعيشون معه في نفس الوطن وعن الحكومة التي يعيش في ظلها حيث يقول: "والآن بعد أن عالجت العلاقات المادية بينه وبين نظرائه من الكائنات والعلاقات الأخلاقية بينه وبين سواه من الناس. يتبقى أن نعالج علاقاته المدنية مع مواطنيه. ولهذا يجب أن يبدأ بدراسة طبيعة الحكومة على العموم، والصور المختلفة للحكومة. والحكومة المعنية التي ولد في ظلها. كي يرى إميل

¹ - جان جاك روسو، إميل أو في التربية، مصدر سابق، ص 258

² - جان جاك روسو، المصدر نفسه، الصفحة نفسها

³ - نجيب المستكاوي، روسو حياته مؤلفاته، مرجع سابق، ص 367

⁴ - نجيب المستكاوي، المرجع نفسه، ص 367

هل من المناسب له أن يعيش في ظلها أم لا. ذلك أن هناك حقا لا يمكن أن ينقض لكل إنسان متى بلغ رشده وملك زمام أمره، أن يكون حرا في التنازل عن العقد الذي يربطه بالمجتمع المعين، وذلك بمغادرة الإقليم الذي يستوطنه ذلك المجتمع.¹

وهذا يعني أن إميل عندما يبلغ سن الرشد سيختار المجتمع السياسي والدولة التي ستضمن له حقوقه الطبيعية والأساسية وتحميها، والتي ستحقق له الخير العام والمشارك، والتي ستحقق له الأمن الداخلي والخارجي لكي يعيش في كنفها في سلام و أمان ووئام.

¹ -جان جاك روسو ، إميل أو في التربية ، مصدر سابق، ص 329



خاتمة

-إن الخاتمة التي نختم بها بحثنا هذا والتي بمقتضاها وصلنا إلى مجموعة من النتائج والمتمثلة فيما يلي حيث نرى:-* أن "روسو" ليس عدوا ورافضا للحضارة وإنما ناقدا ومصححا للحضارة الغربية: * ومنه فهذا يعني أن الشر حصل عندما انحرفت الحضارة عن وجهتها الصحيحة: * حيث أعطت لنا إنسانا فاسدا أخلاقيا ومكبلا سياسيا ومستغل اقتصاديا. أين ما نتظر تراه مكبلا في أغلال * وما كان يريدہ روسو هو إصلاح الحضارة وبيان كيف انحرفت، ونقد هذه النتائج، ومسألة السلطة هي جزء من هذه المشكلة. ويبدأ "روسو" نظريته في العقد الاجتماعي بالحالة الطبيعية حيث يرى أن الإنسان في الحالة الطبيعية: - كان خيرا وليس شريرا كما يراه "هوبز"، وأن الإنسان كان يعيش حياة بهيمية: - لا يعرف فيها إلا الأكل والنوم والأنثى. وكان يتميز بالحرية الطبيعية:- لكن هذه الحياة الطبيعية لم تدم طويلا وسرعان ما دخل الإنسان في الصراع مع أقرانه من البشر بسبب ظهور الملكية الفردية، لأن الملكية في البداية كانت مشاعة بين أفراد البشرية ، ومن بعده ظهر التفاوت بين الناس ، وظهر الإنسان التاريخي الذي دخل معترك التاريخ ، والذي أصبح يعيش في المجتمع السياسي الفاسد ، والذي كان مستغلا اقتصاديا ومكبلا سياسيا وفاسدا أخلاقيا بعد التقدم الحضاري الذي طرأ على هذا الإنسان. * حيث تساءل "روسو": - هل التقدم العلمي الذي حصل في أوروبا - هل حقق السعادة وهل جعل البشر سعداء أم رغم هذا التطور الهائل وزيادة التحكم في الطبيعة لم يحقق السعادة؟ * ويرى "روسو" أن الإنسان في عصره مكبل في قيود مصطنعة: - الفساد الأخلاقي - التفاوت الاجتماعي. الاستبداد السياسي: - فنرى أن الإنسان منحط أخلاقيا ومقهور سياسيا ومستغل اقتصاديا. * ويتساءل "روسو": - هل هذه النتائج نتائج حتمية للتقدم العلمي والحضاري؟ - أم أن هذا الوضع ليس له علاقة بالتطور كتطور: - أم هي نتائج عرضية وهي عوارض تاريخية؟

* يجيب "روسو": بأن الحل يكمن في تصحيح الحضارة وليس في إلغاء الحضارة والتقدم العلمي. * ويبدأ "روسو": - مشروعه النقدي للحضارة والتصحيحي للحضارة الغربية:

- لكي يثبت أن الشر والاستبداد والاستغلال والفساد والتفاوت الاجتماعي:- هو نتيجة لانحراف الحضارة، كان عليه أن يبدأ من الحالة الطبيعية ويحلل هذه الحالة.

* الحالة الطبيعية: يرى "روسو" في بحثه المسمى « مقال في أصل التفاوت بين الناس » أن حالة الطبيعة الأولى:- كان يسودها الخير والسعادة و الفضيلة وأن الشر والآثام والكذب والرياء ما هي إلا صفات المجتمع المتحضر الفاسد. حيث إستخدم "روسو" المنهج الرياضي في فلسفته السياسية مثل "هوبز" و"لوك" حيث بدأ "روسو" من الحالة الطبيعية والتي يعتبرها حالة براءة لأن الإنسان في هذه الحالة كان يعيش حياة بهيمية في الطبيعة وكان يعيش منسجما مع هذه الطبيعة ، و كان بريئا، لا يعرف الشر والعدوانية والنفاق. وكان يتمتع بالحرية الطبيعية. وكان له غريزة حب البقاء والرأفة على الآخرين. كان يتألم عندما يرى أقرانه من بني جنسه يتألمون وكانت الملكية في الحالة الطبيعية مشاعة لكل أفراد البشرية، ولم تكن هناك ملكية فردية وإن "روسو" يصور لنا الإنسان في الحالة الطبيعية ، كما خرج من بين أيدي هذه الطبيعة:- أي أنه أشبه بحيوان أقل قوة وبأسا من الحيوانات الأخرى:- كما أنه أفضل تنظيمًا منها، فهذا الإنسان الطبيعي:- يأكل حتى يشبع ويشرب حتى يرتوي وفرشه يكون تحت جذع الشجرة التي أطعمته. وبهذه الصفات يمكن للإنسان الطبيعي أن يشبع حاجياته. وكان يعيش في حالة من العزلة كما وصفه لنا "روسو": بأن الإنسان الطبيعي كان سائرا في الغابات: لا صناعة له ولا نطق ولا مسكن ولا حروب ولا حاجة له إلى أبناء جنسه، ولا رغبة له في أذية أي منهم، ولا حتى معرفة أحد منهم شخصا:- بمعنى أن الإنسان الطبيعي يعيش هكذا دون مسكن وفي أي مكان من الأرض:- فكل ما يسعى إلى تحقيقه هو الغذاء فقط. وقد عزى له "روسو" غريزتين أساسيتين: * الغريزة الأولى:- هي التي تدفعه باستمرار إلى المحافظة على وجوده، فهذا الدافع الغريزي يتحكم فيه، وهو الذي يجعله دائما في حاجة إلى تلبية رغباته البيولوجية من الغذاء الراحة والأنثى أي أن الخيرات الوحيدة التي يعرفها في العادة هي الطعام و الأنثى والراحة ، أما الشرور التي يخشاها:- هو

الجوع والوجع (الألم). - * أما الغريزة الثانية: - فيقصد بها "روسو" استعداد الكائن الطبيعي إلى الرأفة والرحمة بكونه يملك شعورا فطريا رقيقا: - ويجعله لا يحتمل رؤية إنسان آخر مثله يتألم، لأنه يولد في نفسه الانزعاج والألم أيضا، وبالنظر إلى كل الصفات الإنسانية مثل: - الرعاية والصداقة التي يمتلكها: فهو إنسان خير وطيب وصالح بطبيعته وهذه العاطفة والشعور بالرحمة هي بمثابة القانون أو الفضيلة في المجتمع المدني ، والشفقة في الحالة الطبيعية هي التي تقوم مقام القانون والأخلاق و الفضيلة.

- وعن أصل التفاوت بين الناس: يرى روسو أن ظهور التملك أو الملكية الفردية كان السمة البارزة في تحول الإنسان من حالته الأولى (الحالة الطبيعية) إلى الحالة الثانية: - وهي مرحلة تأسيس المجتمع السياسي الفاسد: - وإن أول من سور قطعة أرض، ثم قال هذه لي ووجد قوما ساذجا يصدقونه كان هو المؤسس الحقيقي للمجتمع المدني الفاسد وهذه الملكية لا تولد حسب "روسو" إلا الجرائم والحروب والمصائب والاعتقالات والفضائح التي اعتبرها عاملا سلبيا في تاريخ البشرية ، فملكية الأراضي لا تولد إلا التفاوت واللامساواة: أين تتفاوت فيها وتتصارع المصالح وبعده تنتج العبودية والشفاء: - فمن جهة يستولي على مساحات واسعة من الأراضي ، - ومن جهة أخرى: يؤول الضعيف بضعفه وبعده إمتلاكه ولو شبرا واحدا منها: - نحو الفقر: وهذا ما أدى بالفقير إلى أن يكون دائما في تبعية مستمرة للغني: - فيتلقى رغيف خبزه مقابل الخدمات التي يؤديها له: وهذه هي العلاقة القائمة بين الغني والفقير إلى يومنا هذا: فهي مجملها علاقة سيطرة واستعباد كذا علاقة إستغلال وسطو، ففي فكرة مشاعة الملكية للأرض تقريبا يلتقي روسو مع التفكير الماركسي: والذي يقول بأن الأرض هي ملكية مشاعة بين البشر. - وبهذا يصبح المجتمع شبيها بمسرح تدور على خشبته حرب ضارية ، وفي هذه الحرب يكون الفقراء هم المتضررون فيها بالدرجة الأولى، وإن كان الأغنياء يلجأون إلى حيل للإيقاع بالفقراء من خلال إبداعاتهم لشعارات تتضمن حماية للفقراء ، وإرساء العدل والسلم والمساواة ، وذلك بوضع قوانين تتولى حماية

الأفراد الأغنياء والأقوياء وتحمي ممتلكاتهم . ومن ثمة أصبح هناك ظلم مدسّتر وتفاوت مدسّتر، وتم إضفاء شرعية قانونية على هذا الظلم : بتشريع القوانين التي تحمي الأغنياء ، ومنذ ذلك الحين لم تر البشرية إلا العبودية والشقاء ، فلا يجني المجتمع من جراء هذه الملكية سوى المنافسة وصراع المصالح وطغيان الحقد فكان هناك شعور باللامبالاة إزاء فعل الخير. هذا وعلاوة على ما سبق فقد الإنسان من خلال هذه المرحلة أعلى شيء يملكه وهو الحرية الطبيعية والمساواة المعنوية، فبعد ما كان الإنسان حرا طليقا يفعل ما يشاء أصبح الإنسان في حاجة دائمة إلى مساعدة غيره ، سواء كان غنيا أو فقيرا بالإضافة إلى هذا تكونت عند الإنسان رذيلة الطمع، وبعدما نفذت القناعة لديه راح يبحث عن الزيادة في ثروته حتى يزيد من قوته ويرفع من شأنه ولعل الغيرة هنا هي التي دفعته إلى السعي للوصول إلى مرتبة غيره أو تجاوزه. إذن فالعلاقات التي أقيمت بين الأفراد ، هي التي أبعدتهم عن طبيعتهم البدائية ليعتبار أن الشر لا يمثل طبيعة الإنسان البدائي فالطبيعة الإنسانية خيرة ، وإنما الشر أتى من الخارج أي من المجتمع الذي جعله تعيسا ، وإن كانت الطبيعة كذلك قد جعلت الإنسان حرا فإن المجتمع قد جعله عبدا وفي هذا يقول "روسو": « ولد الإنسان حرا إلا أنه مكبل في كل مكان بالأغلال ». وأن القدرات العقلية التي راح الإنسان يستعملها لتحقيق السعادة قد أوصلته إلى التقدم أي إلى تأسيس مجتمع فاسد أخلاقيا، مستغلا اقتصاديا ومكبل سياسيا وغيرها ولكن لم توصله إلى السعادة.

—* أما فيما يخص العقد الاجتماعي وتصحيح الحضارة :

1 -العقد الاجتماعي :يرى "روسو" أنه يجب البحث عن الخلاص والحل من هذا الوضع المتأزم والمأساوي، الذي وصل إليه الإنسان التاريخي ويرى "روسو" أن الخلاص لا يكمن في الرجوع إلى الحالة الطبيعية والبدائية ، ولا بد من وجود حل: بتصحيح الحضارة نفسها وتصحيح الحضارة معناه: - ببنائها على أسس جديدة أخرى، مغايرة على الأسس التي قامت عليها هذه الحضارة الفاسدة، وإن الحضارة الفاسدة تؤسسها القوة والإكراه. وإن

هذه الحضارة الجديدة لا تؤسسها: - القوة والتضارب في المصالح لأن هذه الحضارة ثمارها سيكون الاستبداد والطغيان. _ وإن هذه الحضارة التي يتنبأ بها "روسو": يؤسسها الحق والتي يبشر بها في العقد الاجتماعي: حيث تبنى الحضارة على أساس الحق وتكون الحرية المدنية هي ثمرتها الطبيعية وينتهي المجتمع الفاسد ويتلاشى وينحل الاغتراب الذي وجد فيه الإنسان نفسه رغما عنه. - لأن القوة لا تؤسس الحق ولا تكسب الحق ولا يمكن أن يؤسس المجتمع المدني على القوة لأنها متغيرة فهذا الحق غير ثابت. - لأن المجتمع السياسي الفاسد أقيم وأسس على أساس القوة. فروسو أراد أن يغير هذا المبدأ الذي أسس عليه المجتمع السياسي (الدولة) وتأسيسها على مبدأ ثابت غير متغير والذي هو العقد الاجتماعي والذي يقوم على رضا أفراد المجتمع و ترخيص للمجتمع لكي تكون لديه شرعية ، وإن الإرادة العامة هي التي ستسير المجتمع السياسي بعد العقد الاجتماعي عن طريق القانون المنبثق من المؤسسات الشرعية للدولة .حيث كان لا بد إذا من البحث عن شكل للوحدة ، أو الاجتماع من شأنه أن يحمي ويقي كل شخص وأمواله حيث شكل هذه الوحدة في المجتمع السياسي ، حيث يكون فيه كل فرد قد إتحّد مع الأفراد الآخرين، و يكون مع ذلك غير خاضع إلا لنفسه ، ويكون متمتعاً بالحرية التي كان يتمتع بها من قبل. - فك أن العقد الاجتماعي هو الذي ينهي عهد الفطرة ، ويعمل على تأسيس المجتمع الجديد . حيث تصبح السيادة والسلطة من حق المجموع ككل ، لا من حق فرد واحد على حدة: - إذ ينزل كل فرد عن نفسه وعن حقوقه للمجتمع كله حينما ينطق بالصيغة التالية: « يضع كل منا شخصه وجميع قوته ، وضعا مشتركا تحت السلطة العليا للإرادة العامة. ونستقبل بصفتنا الجماعية كل عضو كجزء لا يتجزأ من الكل ».وتتحقق المساواة في ظل العقد الاجتماعي ، لأن الأفراد بردهم أنفسهم وكل حقوقهم إلى المجتمع ، ويعودون إلى نقطة الصفر فتتحقق المساواة بينهم. كما أن إتحادهم يكون كاملاً بالإطلاق لا يسمح بأية أفضلية لأي فرد. وهكذا تتحقق المساواة التامة كما تتحقق الحرية، لأن "روسو" يرى أنه لما كان كل شخص يضع نفسه للجميع ، فإنه من ثمة لا

يضع نفسه لأي شخص آخر:- أي أنه يستحيل أن يضع الإنسان حريته تحت تصرف شخص أو فرد أو ملك أو سلطان ، والنتيجة هي حصوله على الحرية العامة فثمة نرى إذن: -الفرق بين أن يتقيد الإنسان بإنسان آخر وبين أن يتقيد بالكل الذي هو جزء منه.

يرى "روسو" أن هليس ثمة تعاقد أو تعهد أيا كان يبيح أن يسرق إنسان إنسانا آخر ، ولكن ثمة حاجة انبثقت من ضرورة تعاون الناس في سبيل مقاومة قوى الطبيعة ودفع الناس إلى تعاقد أولي لا يركز إلى القوة هو العقد الاجتماعي. والذي يهدف إلى تكوين نوع من المشاركة يحمي بكل قوى المشتركين فيه مجتمعه:- شخص وثروة كل عضو،. و يزود عنهما على وجه يمكن كل فرد رغم اتحاده مع سائر الأفراد، أن يظل فيه حرا كما كان: لا يطيع إلا نفسه:- ويؤلف في الوقت ذاته جزء لا يتجزأ من المجموع ، ولا يوجد إلا عقد واحد وميثاق وحيد ، هو ميثاق الجميع مع الجميع و استلام للإرادة الفردية كلها لإرادة عامة واحدة ، والقانون هو التعبير عن هذه الإرادة العامة ولا سيادة إلا سيادتها على شرط أن تنتج قوانين صالحة تستهدف المصلحة العامة. مصلحة جميع المواطنين، وألا تعارض هذه القوانين قوانين الطبيعة وفوائدها ، ولذا يمتنع على أي قانون أن يضطهد المواطن بوجه من الوجوه.

2 *الإرادة العامة: هي إرادة الأفراد في جملتهم وهي ليست مجموع إرادات الأفراد ، ولكنها روح عامة تعبر عن الصالح العام ، وهي وحدها مصدر القانون ولها السلطة المطلقة دون وجود أي واسطة أو ممثلين. لأن علاقة الأفراد بالدولة يجب أن تكون مباشرة. ولكن السلطان الذي يمارس السلطة العامة له حدود، ولا يجب أن يتعدها، لأن كل فرد عندما يتنازل للهيئة الاجتماعية عن حريته وماله من حقوق، إنما كان يهدف لتوجيه كل ذلك للصالح العام الذي يعد صالحه هو في نفس الوقت. وعلى ذلك فالهيئة الاجتماعية يجب إذن أن توجه سلطاتها إلى كل ما هو في مصلحة الشعب. وكل ما يتماشى مع نصوص العقد الاجتماعي. من ثمة فالسلطان لا يستطيع مثلا أن:- يكسر مبدأ المساواة وتكافؤ الفرص بين المواطنين وكذلك لا يمكن الاعتداء على الحريات أو تقييدها بسبب ما ليس

له علاقة بالصالح العام ، وعندما يقوم بذلك فإنه لا يعبر عن الإرادة العامة. - وإن الإرادة العامة الكلية: هي إرادة مستقيمة دائماً. وإنها إرادة الشعب كله والشعب لا يريد إلا المنفعة العامة. ومن خرج عن الخضوع لها أرغمه المجتمع على ذلك. ويرفض طاعة الإرادة العامة ، فإن المجتمع كله يرغمه على الطاعة. وإن الإرادة العامة الكلية للشعب هي تعبير عن السيادة وهي تتميز بالإضافة إلى كونها لا تباع ولا تشتري وكونها غير قابلة للتقسيم فإنها لا تخطيء إذ أنها معصومة من الخطأ ولا يحد السيادة العامة إلا حد وحيد: هو الذي يرسمه العقد الاجتماعي نفسه ونعني به حقوق الفرد في التملك والحرية ، والقوة العظمى والسلطة القصوى والسيادة الوحيدة هي تلك التي أوجدها العقد الاجتماعي ونسبها إلى الشعب كله، ذلك لأن الأفراد حينما يتنازلون عن حقوقهم فإنهم يتنازلون عنها للمجتمع كله وليس لفرد محدد أو ملك أو سلطان وهم يتنازلون عن إرادتهم الفردية ويصهرون تلك الإرادات في الإرادة الكلية العامة. ويرى "روسو" أن أساس الإرادة هي المنفعة، ومن ثمة إرادات الأفراد ترتبط هنا بمنافعهم التي قد تتعارض فيما بينها في كثير من النقاط. أما الإرادة الكلية العامة فتوضح أن المنفعة بين الجميع واحدة، ومن هنا فهي تهدف إلى تحقيق المنفعة العامة لا منفعة فرد على حدة، وهذه المنفعة العامة هي التي تجعل في الإمكان قيام الدولة. ومعنى هذا أنه إذا لم تنصهر الإرادات الفردية في إرادة واحدة هي الإرادة الكلية العامة إستحال أن يقوم المجتمع. فإذن الإرادة العامة تمثل السيادة، فإن أي تعبير لا يحقق المنفعة العامة لا يكون معبراً عن الإرادة من ثمة يفقد صفة السيادة.

ولقد ميز "روسو" بين الإرادة العامة وبين إرادة المجموع. فبينما إرادة المجموع لا تعدو أن تكون مجموع الإرادات الخاصة والفردية كأصوات الناخبين مثلاً فإننا نجد أن الإرادة العامة مشيرة إلى فكرة الوحدة العضوية. والقانون عند "روسو" ما هو إلا فعل الإرادة العامة وحدها ومن هنا: - فإن القانون ليس له معنى غير السيادة. وأن أية قواعد أو أوامر صادرة

عن أية سلطة أخرى غير السيادة المعبرة عن إرادة الشعب الكلية والعامة ولا يكون لها صفة القانون كما أن أية قواعد أو أوامر تمس مصالح الشعب، وتعوض منفعته العامة لا يكون لها صفة القانون حتى ولو كانت صادرة عن السيادة، وإن القانون نتاج خالص لإرادة الشعب الكلية والعامة.

*- تصحيح الحضارة: إن امتلاك الإنسان لقدرة تحقيق الكمال، هو ما يميزه عن باقي الكائنات الأخرى، هذا من جهة، ومن جهة أخرى ما يجعله قادراً للوصول إلى مختلف الكماليات التي يتوق إليها. وإن عملية تصحيح الحضارة الغربية، وإرجاعها إلى سكتها يقتضي بناء الحضارة الغربية على أسس جديدة في المقابل للأسس السلبية التي أسس عليها المجتمع الفاسد: والمؤسس على القوة والتفاوت والاضطهاد والاستغلال والفساد. أي يجب على الحضارة الغربية: أن تقوم على:- الحق والعدالة والحرية والتكافؤ في الفرص والفضيلة. ويكون هذا التصحيح عن طريق العقد الاجتماعي والذي يؤسس المجتمع المدني الصالح. وإن العقد الاجتماعي يعيد الإنسان الذي أفسده العلوم والفنون والمجتمع السياسي الفاسد إلى حالة الصفر لكي يكون الجميع سواسية وأحرار، وإذا كان الأمر كذلك فإن السيادة لا تتعلق بفرد أو هيئة وإنما هي صادرة عن إرادة الشعب العامة ومن ثمة: - فلا تمييز ولا تفوق كما أن القانون:- لا يصنعه فرد أو هيئة وإنما هو صادر عن إرادة الشعب الكلية والعامة: فليس ثمة فرق إذا بين واضع القانون، وبين منفذ له وبين مطيع لأوامره، ما دام أنه يصدر وينفذ ويطاع من الشعب بأسره، والنتيجة أن الإنسان حر مساوي لكل إنسان آخر. ويجب على العقد الاجتماعي أن يؤسس على: 1- الحق: يرى "روسو" أن العقد الصالح الذي تقوم عليه السلطة الحقيقية لا بد من أن تكون مبنية على مجموعة من الشروط المعينة وفقاً لأهداف محددة، من بينها ضمان وحماية الحقوق العامة، فالسلطة لا تستمد مشروعيتها إلا من العقد الاجتماعي القائم على الحق. 2- الحرية: فكون الناس ولدوا أحراراً حسب "روسو" هذا من ناحية، ومن ناحية

أخرى فقد أقر "روسو" عن طريق العقد الاجتماعي الأمثل، أنه تصبح للإنسان سلطة مشروعة على غيره: فإن الشكل الاتحادي للناس فيما بينهم لا يقوم على الإكراه وإنما على الحرية لأن القوة لا تنتج أي حق. 3- العدل والمساواة: إن العقد بالنسبة إلى "روسو" لا يهدف فقط إلى تحقيق المساواة في الخضوع بين الأفراد المتعاقدين وإنما الغرض منه كذلك هو ضمان حقوقهم. فالمجتمع الذي يطمح إلى تأسيسه "روسو" : هو ذلك المجتمع المشروع الذي يضمن سلامة ممتلكات ، وحرية كل متعاقد بهدف تحقيق السعادة الإنسانية ، وهذا لا يتحقق إلا إذا توفر المجتمع المدني على مواطنين صالحين يطيعون القانون ، ولا يعتدون على حرية وأموال الآخرين، ويرى "روسو" أن المواطن الصالح يجب أن يخضع إلى تربية طبيعية مثل "إميل" ليكون مواطنا صالحا.

3 *المواطن الصالح : يرى "روسو" أن المواطن الصالح يجب أن يكون في مقابل الإنسان التاريخي - أي ألا يكون : - مكبل في أغلال ومقهور سياسيا ولا يكون فاسدا أخلاقيا - ولا يكون مستغلا اقتصاديا. يعني أن المواطن الصالح : يجب أن يكون : حر حرية طبيعية وأن يكون إنسانا فاضلا ذو أخلاق و أن يكون عادلا ، لا يسيطر عليه ولا يسيطر على الآخرين ، وأن يتمتع بالمساواة وتكافؤ الفرص.* و أن يخضع إلى تربية طبيعية مثل إميل :وإن الأساس الذي إعتد عليه "روسو" في تكوين مذهبه الطبيعي هو الطبيعة: حيث دعا إلى ضرورة تنظيف المجتمع ، وإعادة بناء الدين الذي يتفق مع طبيعة الإنسان. دون نسيان وجوب تربية الطفل بما يتفق مع ميوله وحاجياته ، ونجد أن مصطلح الطبيعة أخذ معنا اجتماعيا من خلال آراء "روسو" في تربية الطفل والإنسان الطبيعي عند "روسو" لا يقصد به ذلك الإنسان الذي توجهه قوانين الطبيعة.

*-ف "روسو" يهدف من وراء كل هذا إلى تضمين مفهوم الإنسان: المعنى الطبيعي والاجتماعي في الوقت نفسه، حيث لا يقبل "روسو" أن يكون "إميل" كائنا يعش لنفسه فقط وهو يخضع دائما إلى رغباته وميوله ، كما لا يريد أن يكون إنسانا يسيطر عليه المجتمع.

يرى روسو أنه يجب أن نبني حضارة على الحق والحرية، وبناء مجتمع جديد قائم على الحق والحرية عندما يحصل هذا تنتهي ظاهرة الاغتراب وتنتهي العبودية والاستغلال ويرجع الإنسان إلى نفسه وعودة الإنسان إلى ذاته العاقلة. * - ف روسو أراد أن يحدث ثورة سياسية: من أجل تحليل بنية المجتمع القائم على القوة ، وإقامة مجتمع يقوم على الحق والحرية، لأن الإنسان عقل وحرية. ويجب أن لا يصغي إلى طبيعته الغريزية ، ويجب أن يكون فيها متحررا من الاستبداد الذي خلقت الحضارة والمجتمع السياسي الفاسد، ويصبح يصغي لذاته العاقلة ويشعر لنفسه القوانين. ومن ثمة يطيع نفسه فهذا يحدث تطور جديد. * - فهذه المرحلة هي تأسيس لمرحلة جديدة : لأن الثورة السياسية ليست غاية ، - وإنما وسيلة لتحقيق هدف أخلاقي. فمشروع " روسو " هو مشروع حضاري أخلاقي : أي إحداث ثورة أخلاقية: التي هي تصحيح الحضارة ، والتي ستبني إنسان جديد لكنه إكتشف أن هذا لا يحدث إلا عن طريق ثورة سياسية تربية التي : هي أداة لإنتاج المشروع الأخلاقي.

وأثرت أفكار روسو في الفيلسوف الألماني كارل ماركس وعلى الماركسيين في ما بعد خاصة في فكرة الملكية الجماعية (المشاعية) ، وفي فكرة التفاوت بين الناس والصراع بين الأغنياء والفقراء، حيث بلور ماركس هذه الأفكار في مؤلفاته وتكلم عن الصراع الطبقي والصراع على إكتساب وسائل الإنتاج، والاستغلال والاستعباد والاعتراب. وقد أثرت أفكار روسو فيما بعد أيضا في الفلاسفة المعاصرين خاصة في نظرية العقد الاجتماعي وفكرة التفاوت بين الناس التي كان لها تأثير عميق في فلسفة الفيلسوف الأمريكي " جون راولز"، حيث بلورها في كتابه: "نظريات العدالة theories of justice" من خلال إقامة عقد اجتماعي دولي بين الدول والأمم، لتحقيق العدالة بين الدول وتحقيق المساواة بين كل الإنسانية وكافة الأجناس البشرية، ومن ثمة القضاء على التفاوت الحاصل بين الأمم والدول المتقدمة تكنولوجيا، واقتصاديا والدول السائرة في طريق النمو، وتحقيق عدالة ومساواة عالمية بين هذه الدول والأمم.

كما أثرت أفكار روسو على الأنثروبولوجي "كلود ليفي ستراوس" (Claude Lévi Strauss) ، عند دراسته للحضارات القديمة. وإنه هناك من يعتبر روسو مؤسس العلوم الانسانية أو علم الإنسان.

كما أن هناك تأثير كبير لروسو على المفكرين العرب ، فأثر كتاب العقد الاجتماعي لروسو تأثيرا كبيرا على المفكر العربي عبد الرحمن الكواكبي من خلال تفكيره السياسي وهذا ما يتجلى بوضوح في كتابه طبائع الاستبداد.

قائمة المصادر والمراجع

1/ المصادر :

ا- باللغة الفرنسية :

قائمة المصادر باللغة الفرنسية :

- 1- ROUSSEAU JEAN JACQUES: ŒUVRES COMPLETES, T3, DU CONTRAT SOCIAL, ECRITS POLITIQUES, e d : Flammarion , PARIS, 1967..
- 2- _____: DU CONTRAT SOCIAL OU PRINCIPES DE DROITS POLITIQUE, -SUIVIT DE- FRAGUEMENTS POLITIQUES e d : Gallimard, PARIS, 1996.
- 3- _____: DU CONTRAT SOCIAL , ED LODYSSEE Alger , ALGERIE, SDE .
- 4- _____: DU CONTRAT SOCIAL OU PRINCIPE DU DROIT POLITIQUE e d : Gallimard, PARIS, 1975.
- 5- _____: DU CONTRAT SOCIAL, PARIS ed : Flammarion , PARIS, 1967..
- 6- _____: DU CONTRAT SOCIAL, PARIS, ed : Gallimard, PARIS, 1998. .
- 7- _____: ŒUVRES COMPLETES, T3, DU CONTRAT SOCIAL, ECRITS POLITIQUES, éd : Gallimard, PARIS, 1959.
- 8- _____ (1762), Émile ou de l'éducation : livres I, II et III Édition complétée. le 30 mars 2002 à Chicoutimi, Québec. Canada ..
- 9- _____: DISCOURS SUR L'ORIGINE DES FONDEMENTS DE L'INEGALITE PARMIS LES HOMMES : ED : FLAMMARION, PARIS, 1996.
- 10- ROUSSEAU -JEAN JACQUE : ŒUVRES COMPLETES , VOL 3- DU CONTRAT SOCIAL- ET ECRITS POLITIQUES -, éd : Gallimard, PARIS , 1975.

- 10- _____: EMILE _____ OU _____ DE L'EDUCATION,PARIS ,ED GALIMARD.1971.
- 11- _____: - DE LINNEGALITE PARMI LES HOMMES ED GALLIMARD, PARIS, 2000.
- 12- _____: - DE LINNEGALITE PARMI LES HOMMES,ED :FLAMMARION, PARIS, 2000.
- 13- _____ .DISCOURS SUR LES FONDEMENT DE LINNEGALITE PARMI LES HOMMES, :Flammarion, PARIS, 1996..
- 14- _____ –:- DISCOURS SUR LORIGINE ET LES FONDEMENTS DE LINEGALITE PARMIS LES HOMMES, éd : Gallimard, PARIS,1965..
- 15- _____ –:-EMILE _____ OU _____ DE L'EDUCATION,PARIS ,ED : GALIMARD. 1971..
- 16- _____: DU CONTRAT SOCIAL OU PRINCIPES DE _____ DROITS _____ POLITIQUES e d :Flammarion ,PARIS , 1994.
- 17- _____: DU CONTRAT SOCIAL(livres 1et 2) , e d : Gallimard, PARIS,1966.
- 18- _____ .DISCOURS SUR L'ECONOMIE POLITIQUE DU. CONTRAT SOCIAL ET SUIVIT DE FRAGUEMENTS POLITIQUES , e d : Gallimard, PARIS,1996.
- 19- _____: DU CONTRAT SOCIAL,GENEVE,1962..
- 20- ROUSSEAU JEAN JACQUES -: DU CONTRAT SOCIAL ,ED: LODYSSEE ,ALGERIE,2009
- 21- _____: OEUVRES COMPLETES , VOL3 , – .DU CONTRAT SOCIAL- DISCOURS POLITIQUE , e d :Flammarion , PARIS,1975..

- 22- _____: DU CONTRAT SOCIAL :
éd :Flammarion, PARIS,1952, .
- 23- _____: DU CONTRAT SOCIAL : EDITION
LAOUADI.S.L.E 2014.
- 24- _____: ŒUVRES COMPLETES – EMILE OU
DE EDUCATION Gallimard ; PARIS,1969.
- 25- _____: ŒUVRES COMPLETES VOL 3 DU
CONTRAT SOCIAL-LES ECRITS POLITIQUES , éd :
Gallimard, PARIS, 1961.
- 26- _____. discours sur l'origine et les fondement
de L inégalité parmi les hommes 1754 édition
électronique v.1.0 les échos du maquis 2011.
- 27- _____ - DE LINNEGALITE PARMi LES
HOMMES, éd : Flammarion, PARIS, 2000. .
- 28- _____: LETTRES A MR , DALLEMBERT SUR
LES SPECTACLE, GENEVE, vol6 ,1948.
- 29- _____: LES _____ CONFESSIONS,_____
éd :Flammarion, PARIS ,1963.
- 30- _____. : LES ECRITS DE LA MONTAGNE ,
ed :Flammarion ,PARIS,2018.p6.
- 31- _____ : LES REVERIES DU PROMMENEUR
SOLITAIRE , éd :Flammarion , PARIS,1933.
- 32- _____: DU CONTRAT SOCIAL éd : Gallimard,
PARIS,1969.
- 33- _____, de l inégalité parmi les hommes,
collection: folio essai, édition Gallimard, Paris, 1989..
- 34- _____, discours sur l'origine et les fondements
de l'inégalité parmi les hommes, édition électronique v1.0
les échos du maquis, Paris, 2011, .

- 35- _____ ESSAIS SUR L'ORIGINE DES LANGUES SUIVI DU DISCOURS SUR LES SCIENCES, TUNIS ,1995..
- 36- _____: DU CONTRAT SOCIAL ,GENEVE,1962.
- 37- _____: DU CONTRAT SOCIAL OU PRINCIPE DU DROIT POLITIQUE e d :Flammarion ,PARIS,1970..
- 38- _____ -: OEUVRES COMPLETES, DU CONTRAT SOCIAL -SUIVI DE-LES ECRITS POLITIQUES EDITION GALIMARD ,PARIS,1964.
- 39- _____: DISCOURS SUR L'ORIGINE ET LES FONDEMENTS DE L'INEGALITE PARMIS LES HOMMES éd : Gallimard, PARIS,1996.p6
- 40- _____ -: OEUVRES COMPLETES,VOL3, DU CONTRAT SOCIAL ECRITS POLITIQUES , éd :Flammarion ,PARIS ,1975.
- 41- _____: OEUVRES COMPLETES VOL 3, DU CONTRAT SOCIAL-LES ECRITS POLITIQUES _____. éd : Gallimard, PARIS ,1975.
- 42- _____: DU CONTRAT SOCIAL , ed :Flammarion ,PARIS,1967.
- 43- _____: DU CONTRAT SOCIAL, e d : Gallimard, PARIS,1994.
- 44- _____: DU CONTRAT SOCIAL, e d :Flammarion ,PARIS,1967.
- 45- _____: DU CONTRAT SOCIAL, ED :FLAMMARION ,PARIS,1933. .
- 46- _____: DU CONTRAT SOCIAL,TUNIS,1994.
- 47- _____: DU CONTRAT SOCIAL-LES ECRITS POLITIQUES __, éd : Gallimard, PARIS,1999 , .

- 48- _____: DU CONTRAT SOCIAL , éd :Enag, ALGER, 1988.
- 49- _____: DU CONTRAT SOCIAL, éd: Enag ,Alger,1990.
- 50- rousseau Jean jacques discours sur les sciences et les arts édition les classique de la philosophie « introduction et préface » jacques berchtold. .
- 51- _____: DU CONTRAT SOCIALE : OU PRINCIPE DU DROIT POLITIQUE. éd : Gallimard ; PARIS , 1996
- 52- _____: ESSAIS SUR L'ORIGINE DES LANGUES SUIVI DU DISCOURS SUR LES SCIENCES, TUNIS ,1995..
- 53- _____. (2012). du contrat social : enag. alger, reghaia, algerie.
- 54- _____, de l'inégalité parmi les hommes, collection: folio essai, édition Gallimard, Paris, 1989..
- ب - باللغة العربية :

- 1) روسو جان جاك ، أصل التفاوت بين الناس ، ترجمة بولس غانم ، أنيس للنشر 1991
- 2) _____ ، أصل التفاوت بين الناس ، ترجمة: بولس غانم، الجزائر: طبع المؤسسة.الوطنية للفنون وحدة الرغبة، 1991.
- 3) _____ ، في أصل التفاوت بين الناس ، ترجمة بولس غانم. التقديم:عبد العزيز لبيب ،المنظمة العربية للترجمة ،الطبعة الأولى ،بيروت ،2009.
- 4) _____ ، في أصل التفاوت بين الناس ، ترجمة عادل زعيتر ، اللجنة الدولية لترجمة الروائع اليونسكو ، دار العالم العربي .د.ط،القاهرة.2011.
- 5) _____ ، محاولة في أصل اللغات ، ترجمة محمد محجوب، تقديم:الدكتور عبد السلام المسدي، إشراف فتحي التركي، الدار التونسية للنشر ، 1985.

- (6) _____ ، أحلام يقظة جوال منفرد ، ترجمة وتعليق ثريا توفيق ، مراجعة صالح جودت، إشراف جابر عصفور ، المشرف على السلسلة طلعت شايب ، المركز القومي للترجمة، ميراث الترجمة ، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، الطبعة الثانية، 2009، القاهرة، مصر .
- (7) _____ ، الاعترافات ، ترجمة حلمي مراد ، دار البشير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1998.
- (8) _____ ، إميل أو في التربية ، ترجمة الدكتور نظمي لوقا. تقديم أحمد زكي محمد. الشركة العربية للطباعة والنشر . د.د. ن. القاهرة ، مصر .
- (9) _____ ، في العقد الإجتماعي ، ترجمة، عبد العزيز لبيب، بيروت، ط 1 ، 2011.

2/ المراجع :أ- باللغة العربية :

- (1) إبراهيم موسى ، الفكر السياسي الحديث والمعاصر ، دار المنهل اللبناني للدراسات، التوزيع : مكتبة رأس النبع، الطبعة: 1، بيروت، 2011.
- (2) أبو اليزيد الميث ، النظم السياسية والحريات العامة ، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية ، مصر. 1982.
- (3) أبو ريان محمد علي ، - تاريخ الفكر الفلسفي: الفلسفة الحديثة . ط 1. الإسكندرية، دار المعارف الجامعية، 1969.
- (4) أبو فاضل ميشال ، مورييس شربيل، روسو: المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، ط1، 1978 .
- (5) أحمد محمد وقيع الله ، مدخل إلى الفلسفة السياسية، رؤية إسلامية، دار الفكر آفاق معرفة متجددة للنشر والتوزيع ، دمشق، 2010.
- (6) إسماعيل قباري ، علم الاجتماع السياسي، الإسكندرية: . 1980.
- (7) أشفليتسر ألبرت ، فلسفة الحضارة، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، مراجعة: زكي نجيب محمود، المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة، مصر، 1963.
- (8) أفلاطون ، الجمهورية ، تقديم جيلالي اليابس، تحت إشراف علي الكنز، أنيس للنشر، الرغبة، الجزائر، 1990.

- (9) _____ ، الجمهورية ، ترجمة: شوقي داود تمارز ، دار الأهلية للنشر ، بيروت ، لبنان ، 1994 .
- (10) الإمام عبد الفتاح إمام ، توماس هوبز فيلسوف العقلانية ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، 1985 .
- (11) أمين مصطفى ، تاريخ التربية ، مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، 1926 .
- (12) إباضة إبراهيم دسوقي ، عبد العزيز الغنام ، تاريخ الفكر السياسي . دار النجاح للنشر ، بيروت ، لبنان ، 1973 .
- (13) باشار غاستون ، العقلانية المطبقة ، ترجمة د. بسام الهاشم ، الطبعة الاولى ، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، 1984 .
- (14) _____ ، فلسفة الرفض مبحث فلسفي: في العقل العلمي الجديد ، ترجمة الدكتور خليل أحمد خليل ، الطبعة الاولى ، دار الحدثة للطباعة والنشر بيروت ، لبنان ، 1985 .
- (15) _____ ، النار في التحليل النفسي ، ترجمة نهاد خياطة ، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الاولى ، بيروت ، لبنان ، 1984 .
- (16) _____ ، الماء والأحلام ، دراسة عن الخيال والمادة ، ترجمة: د. علي نجيب إبراهيم ، تقديم أدونيس ، المنظمة العربية للترجمة ، بيروت ، لبنان . 2007
- (17) باول جان ، الفكر السياسي الغربي ، ترجمة محمد رشاد الخميس . القاهرة . الهيئة المصرية العامة للكتاب . 1985
- (18) بدوي محمد طه ، - فلسفتنا السياسية الثورية . منشأ للمعارف ، - . د. ط. د. ت. الإسكندرية .
- (19) بدوي محمد ، المخطط التاريخي لتقدم العقل البشري لكواندورسيه ، مهرجان القراءة للجميع ، مكتبة الأسرة ، تراث الإنسانية ، وزارة الثقافة ، الهيئة المصرية للكتاب ، 1995 .

- (20) برودل فرناند ، تاريخ وقواعد الحضارات ، ترجمة وتعليق د. حسين شريف ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1999.
- (21) برييه إميل ، تاريخ الفلسفة الحديثة ، الجزء الخامس ، ترجمة جورج طرابيشي ، دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت ، الطبعة الثانية ، 1993.
- (22) برييه إميل ، تاريخ الفلسفة ، الجزء الرابع ، القرن السابع عشر ، ترجمة: جورج طرابيشي ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، 1993.
- (23) بوحوش عمار ، - تطور النظريات والأنظمة السياسية ، المؤسسة الوطنية للكتاب ط.2 الجزائر 1984.
- (24) بيترز ريتشارد ، في أعلام الفكر السياسي ، دار النهضة للنشر د.ط.د.م 1940.
- (25) بيرنز دليل ، - المثل السياسية ، ترجمة لويس إسكندر ، القاهرة. مؤسسة سجل العرب 1964.
- (26) بيومي مذكور إبراهيم ، يوسف كرم ، دروس في تاريخ الفلسفة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، 1958.
- (27) توشار جان ، (بمعاونة) : لويس بودان ، بيار جانين ، جان سيريلي ، تاريخ الفكر السياسي ، ترجمة الدكتور علي مقلد ، الطبعة 2 ، الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، 1983.
- (28) _____ ، تاريخ الأفكار السياسية من عصر النهضة إلى عصر الأنوار ، ترجمة: الدكتور ناجي الدراوشة ، الطبعة: 1 ، دار التكوين للتأليف والترجمة للنشر ، دمشق ، 2011.
- (29) توفيق حورية مجاهد ، الفكر السياسي من أفلاطون إلى محمد عبده ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، جامعة القاهرة ، مكتبة 485 . القاهرة.
- (30) _____ ، الفكر السياسي من أفلاطون إلى محمد عبده ، الطبعة الثالثة: مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، دار الطباعة الحديثة.

- (31) توينبي آرنولد ، مختصر دراسة للتاريخ ، ترجمة محمد احمد شبل، مراجعة احمد عزة عبد الكريم، تقديم عبادة كوحيلة، سلسلة ميراث للترجمة ، المركز القومي للترجمة ، الجزء الرابع ، القاهرة ، مصر . 2011.
- (32) حافظ علي: أساس العدالة في القانون الروماني . القاهرة، 1951.
- (33) حسين الطعان عبد الرضا ، مدخل إلى الفكر السياسي الغربي الحديث والمعاصر، الجزء الأول، د.ت.ن. د.ط، بغداد، العراق.
- (34) حلمي مطر أميرة ، - الفلسفة السياسية ، - من أفلاطون إلى ماركس، ط 2. دار غريب للطباعة و النشر القاهرة 1999.
- (35) _____ ، في الفلسفة السياسية ، دار الثقافة للنشر و التوزيع القاهرة 1978.
- (36) _____ ، الفلسفة السياسية من افلاطون الى ماركس ، دار المعارف. القاهرة، مصر ، (1995).
- (37) _____ ، الفلسفة اليونانية تاريخها ومشكلاتها، كلية الآداب جامع القاهرة، دار قباء للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، 1997 .
- (38) _____ ، عن القيم والعقل في الفلسفة والحضارة، كلية الآداب جامعة القاهرة، الطبعة الأولى، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 2006.
- (39) خليفة عبد الرحمان ، فضل الله محمد إسماعيل، المدخل في الإيديولوجية والحضارة، مكتبة بستان للمعرفة طباعة للنشر والتوزيع ، 2006.
- (40) _____ ، - مقالات سياسية، الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية. 1985.
- (41) الخوري أنطوان م ، أعلام التربية، حياتهم، آثارهم ، (بيروت دار الكتاب اللبناني، 1964).
- (42) درويش إبراهيم ، - الدولة . دراسة تحليلية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1969.

- (43) دو فيرجي موريس ، مدخل إلى علم السياسة، ترجمة: د. جمال الأتاسي، د. سامي الدروني، دار دمشق للنشر والتوزيع، د.ط، د.ت، ن، دمشق .
- (44) ديكارت روني ، مقالة الطريقة، ترجمة: الدكتور جمال صليبا، (اللجنة الدولية لترجمة الروائع الإنسانية، 1953). (
- (45) _____ ، مقالة في المنهج، ترجمة محمود الخضيرى، مراجعة وتقديم: محمد مصطفى حلمي، الهيئة المصرية للكتاب، الطبعة الثالثة، 1985.
- (46) ديورانت ويل وايرل ، قصة الحضارة: روسو والثورة، ترجمة فؤاد أندوراس، مراجعة علي أدهم، الجزء الأول من المجلد العاشر، د.ت، ن، د.ط، بيروت، لبنان.
- (47) _____ ، نشأة الحضارة ، تقديم الدكتور محي الدين صابر ، ترجمة زكي نجيب محمود، الجزء الأول ، المجلد الأول، دار الجيل ،بيروت لبنان، 1988.
- (48) راسل برتراند ، تاريخ الفلسفة الغربية ، الكتاب الثالث، الفلسفة الحديثة، ترجمة: محمد فتحي الشنيطي، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، 1988.
- (49) سبايين جورج ، تطور الفكر السياسي ، الكتاب الثاني ترجمة: فتح الله الخطيب. القاهرة. دار المعارف. 1969.
- (50) سي باترسون توماس ، الحضارة الغربية الفكرة والتاريخ ، ترجمة شوقي جلال، المجلس الأعلى للثقافة، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، 2001.
- (51) سيبيرتان غيوم ، بلان، الفلسفة السياسية، ترجمة عز الدين الخطابي، مراجعة جورج كتورة، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 2011.
- (52) ستيفان دي تفسى، علم السياسة: الأسس، ترجمة رشا جمال ، مراجعة جمال عبد الرحيم، الطبعة الاولى، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، 2012.
- (53) شبل فؤاد: الفكر السياسي دراسة مقارنة للمذاهب السياسية و الاجتماعية : ج الأول، القاهرة. الهيئة المصرية العامة للكتاب 1974.
- (54) شبنغلر أسوالد ، تدهور الحضارة الغربية ، ترجمة احمد الشيباني، الجزء الثاني، منشورات دار مكتبة الحياة، د ت ن. بيروت، لبنان.

- (55) شتراوس ليو ، جوزيف كروبسي، تاريخ الفلسفة السياسية : من جون لوك إلى هيدجر، الجزء: 2، ترجمة محمود سيد أحمد، مراجعة إمام عبد الفتاح المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة: 1، القاهرة، 2005.
- (56) شفالبييه جان جاك ، - تاريخ الفكر السياسي : من المدينة الدولة الى الدولة القومية، الكتاب: 2، ترجمة محمد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة، 1، بيروت، 1985.
- (57) _____ ، تاريخ الفكر السياسي ، ترجمة محمد عرب صاصيلا : المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع . بيروت . لبنان 1985.
- (58) عبد الرزاق عماد الدين إبراهيم ، نقد الحضارة الغربية في فكر مالك ابن النبي، الطبعة الأولى ، النجف، العراق، المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية، 2019.
- (59) عبد الفتاح غنيمه، نحو فلسفة للسياسة، مكتبة الأسرة .د.م .ن. 1991
- (60) عبد الكريم أحمد ، أسس النظم السياسية : القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، 1971.
- (61) عبد الله محمد فتحي. ميلاد زكي: - أرسطو والمدارس المتأخرة ، الإسكندرية، منشأ المعارف. د.ت.ن.
- (62) عبد المنعم عباس ، أساطين الفلسفة الحديثة والمعاصر ماليرانش ، تقديم، محمد علي أبو ريان، كلية الآداب جامعة الإسكندرية، دار النهضة العربية، بيروت، 1996.
- (63) علي عبد المعطي محمد، - اتجاهات الفلسفة الحديثة ، الإسكندرية ، دار المعارف الجامعية.د.ط. 1993.
- (64) _____ ، السياسة أصولها وتطورها في الفكر ال غربي:دار المعارف الجامعية .مصر . د.ت.ن.
- (65) _____ ، الفكر السياسي الغربي ، (دار المعرفة الجامعية، د.ط.الإسكندرية، 1993).

- (66) _____ ، الفكر السياسي الغربي ، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية. د. ط. 1993.
- (67) العمري أحمد سويلم ، أصول النظم السياسية المقارنة ، مكتبة الفارابي ، د. ت. ن. نابلس.
- (68) العوة عادل ، فلسفة القيم ، درا طلا للدراسات للترجمة والنشر ، الطبعة الأولى ، دمشق ، 1986.
- (69) عيدان عقيل يوسف ، التنوير في الإنسان شهادة جان جاك روسو ، (الإصدار دون طبعة). الجزائر ، شارع حسبية بن بوعلي ، الجزائر ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، منشورات الاختلاف ، (2009)
- (70) غالب علي الدواوي: المدخل إلى علم القانون ، كلية الحقوق جامعة جرش الأهلية ، دار وائل للنشر ، الطبعة 7 ، عمان ، الأردن ، 2004.
- (71) غالي بطرس. محمود خيرى عيسى ، المدخل في علم السياسة . مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة . 1976
- (72) فولغين. ف ، فلسفة الأنوار ، ترجمة: هنريت عبودي ، (ط 1 ، بيروت-لبنان- دار الطليعة للطباعة و النشر.
- (73) كانط إيمانويل ، ثلاثة نصوص:- تأملات في التربية، - ما الأنوار؟ - ما التوجيه الفكري؟ ، تعريب وتعليق محمد بن جماعة، دار محمد علي للنشر ، الطبعة الاولى ، صفاقس ، تونس ، 2005.
- (74) كرم يوسف ، تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط ، القاهرة . 1965.
- (75) _____ ، تاريخ الفلسفة الحديثة ، الطبعة الخامسة ، القاهرة دار المعارف . 1969.
- (76) _____ ، تاريخ الفلسفة الحديثة ، كلمات عربية للترجمة والنشر ، القاهرة ، 2012.
- (77) كروزيه موريس ، رولاند موسني ارنست لابروس ، تاريخ الحضارات العام ، القرن 18 ، ترجمة يوسف إسعد داغر ، فريد داغر ، المجلد الخامس ، منشورات عويدات ، لبنان ، الطبعة الثانية ، 1987.

- (78) كريسون أندري ، روسو حياته فلسفته منتخبات ، ترجمة نبيه صقر بيروت لبنان ط 4 ، 1988 .
- (79) لاسكي هارولا:- مدخل علم السياسة ، ترجمة: عز الدين حسين ، القاهرة، 1985.
- (80) لوك جون ، في الحكم المدني ترجمة: ماجد فخري (بيروت:اللجنة الدولية لترجمة الروائع، (1995).
- (81) لوك، هيوم، روسو: العقد الإجتماعي: ترجمة الدكتور عبد الكريم أحمد: الدار القومية للنشر. د.ت.ن، القاهرة، مصر.
- (82) مفيد الشباشي محمد ، الفلسفة السياسية ، دار الكشف للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، د.ت.ن.
- (83) محفوظ مهدي ، إتجاهات الفكر السياسي الغربي الحديث ، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر والتوزيع، الطبعة الاولى ،بيروت لبنان ،1990.
- (84) محمد إسماعيل فضل الله ، الأصول اليونانية للفكر السياسي الغربي الحديث، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، دار بستان المعرفة للطبع و النشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2001.
- (85) _____ ، رواد الفكر السياسي الغربي الحديث، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، مكتبة بستان المعرفة للطباعة للنشر وتوزيع الكتب، الطبعة الأولى، 2006.
- (86) _____ ، نظرية القانون الطبيعي في الفكر السياسي الغربي . الإسكندرية . 2006.
- (87) محمد الشيخ كامل ، محمد عويضة، الأعلام من الفلاسفة: الفلسفة السياسية، مراجعة محمد رجب البيتومي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1995.
- (88) محمد علي محمد، علي عبد المعطي ، السياسة بين النظرية و التطبيق ، دار المعرفة الجامعية، مصر، (1995).
- (89) محمد مؤنس،-الحضارة : دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها ، الكويت، 1978.

(90) محمود مؤيد جبير، الفكر السياسي الغربي الحديث والمعاصر، جامعة الأنبار، كلية القانون، قسم العلوم السياسية، العراق، 2019.

(91) المستكاوي نجيب، روسو : حياته ومؤلفاته غرامياته .دار الشر وق. ط 1. بيروت. 1989.

(92) مصطفى لبيب عبد الغني، في فلسفة الطبيعة عند الريفائيين، كلية الآداب، جامعة القاهرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع.

(93) موسيني رولان، ارنست لابروس، مارك بولوا زو، القرن الثامن عشر (عصر الأنوار)، ترجمة يوسف أسعد داغر، فريدم داغر، (بيروت-لبنان- منشورات عويدات، 1968).

(94) هوبز توماس، الليفيثان (التتين) :الأصول الطبيعية والسياسية لسلطة الدولة، ترجمة: ديانا حبيب حرب، وبشرى صعب، ط 1، أبو ضبي، هيئة أبو ضبي للثقافة والتراث كلمة، 2011.

ب- باللغة الفرنسية والانجليزية

1- A.P.O Enine : Natural law an introduction to legal Philosophy s.d.e, s,l, e.

2-BENOIT COTE, Philosophie des les lumières, Université Sherbrooke, faculté des lettres et sciences humaines, département de philosophie et d'éthique appliquée, 2018 ,Sherbrooke, canada.

3- Bydir .F: The History of Natural law. A. C .Gkayling : Philosophy of Further Thought oxford Up v : 1998

4- Daree Goriven: John Locke . s treatises' of government Cambridge. 1980.

5- Dunning : A history of political Theories : London. 1973

6- E. Barker : social contract : NEW.york.1962

7- Ecole. s. premier degré : articles sur le 18 siècle : siècle des lumières, paris. S.d.e.

- 8- Hobbes Thomas : The leviathan-.London .1998 .
- 9- _____ : Léviathan: Traité de la matière, de la forme et du pouvoir de la république ecclésiastique et civile, du chapitres 17a 31. traduit.de l'anglais par Philippe Foliot, Édition réalisée le 3 janvier 2004 , revue et corrigée le 12 juin 2012 à Chicoutimi, Québec canada
- 10- _____ : Léviathan: Traité de la matière, de la forme et du pouvoir de la république ecclésiastique et civile, traduit.de l'anglais par Philippe Foliot, Édition réalisée le 3 janvier 2004, revue et corrigée le 12 juin 2012 à Chicoutimi, Québec canada
- 11- Louis Guibaults :tolérance et consciences chez pierre bayle , Université du Québec Montréal ,canada, avril 2010.
- 12- Michel-Terechenko : les grand courants de la philosophie politique : Memo .S.D.E..
- 13- Ragna Mariuzza :siècle des lumière comme termes désignant le 18 siècle dans son évolution historique, Université Claude Bernard de Lyon 1. 1992,Lyon .-
- 14- William EBEN : Great Political Thinkers From Plato to Present. USA.1969.
- 15- Wright : Political Theories: s.d.e , s .l. e .

الأطروحات:

(1) خديجة. هني، من إنسان الطبيعة إلى إنسان المجتمع: إشكالية الوحدة في فلسفة روسو، (أطروحة دكتوراه إشراف الاستاذ عبد الرحمان بوقاف) ، الجزائر، بوزريعة، الجزائر: قسم الفلسفة، جامعة الجزائر 2، (2003).

(2) عثمانى، بلال ، إشراف الأستاذ :-أيت منصور كمال: أطراف العقد المدني : بين الحق في تحقيق المصلحة الشخصية و الالتزام بحسن النية . كلية الحقوق والعلوم السياسية . - جامعة مولود معمري تيزي وزو . تيزي وزو ، الجزائر . (2018).

(3) نجمة. بو صوار ، الثقافة ومشكلة الطبيعة الانسانية في الفلسفة:جون جاك روسو، وسيغموند فرويد نموذجان .(أطروحة دكتوراه). (كلية العلوم الاجتماعية، قسم الفلسفة.. المحرر) وهران، الجزائر: جامعة وهران 2. (2017).

- الموسوعات و المعاجم : ا- باللغة العربية :

(1) أحمد عزالدين عبد الله.-شوقي ضيف.-مجمع اللغة العربية المصرية : معجم القانون . (الهيئة العامة لشؤون المطابع الاميرية، المحرر) مجمع اللغة العربية المصرية. القاهرة، مصر، 1999.

(2) بدوي عبد الرحمان ، موسوعة الفلسفة ، الطبعة الأولى، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، (1984).

(3) روزنتال ليودين ، الموسوعة الفلسفية ، إشراف روزنتال ليودين، ترجمة : سمير كرم، مراجعة : صادق جلال العظم، جورج طرابيشي (ط 1 ، بيروت لبنان، دار الطليعة، 1974).

(4) لالاند أندريه ، موسوعة لالاند الفلسفية ، إشراف أحمد عويدات، ترجمة : خليل أحمد خليل، (ط2، بيروت باريس، منشورات عويدات 2001).

ب-بالغة الفرنسية :

1-Larousse , le petit Larousse , compact : édition entièrement nouvelle , paris cedex 6 , 1998.

2-universalis, Encyclopédia universalis, (Paris, T-14, 1990)

ملخص الدراسة:

قام روسو بدراسة نقدية للحضارة الغربية وعلى المجتمع الأوربي في القرن الثامن عشر: حيث أراد أن يعطي الحل للفساد وللاستغلال والتفاوت الاصطناعي الذي كان آنذاك وللفساد الأخلاقي الذي كانت تعيشه فرنسا خاصة وأوروبا عامة وأن يقوم بعملية نقد وتحليل للحضارة الأوروبية وللمجتمع الأوروبي وللتقدم والتطور الحاصل آنذاك حيث أفقد الإنسان إنسانيته وحرية وطيبته وأصبح الإنسان يعيش في عبودية وفي أغلال مصطنعة وفي اغتراب واستغلال كرسه الملكية الفردية والتفاوت الاصطناعي المبني على القوة والاحتكار بلا حدود وعلى الأنانية والتسلط والسيطرة على الآخرين وقهرهم. ويرى روسو: « أن الحضارة كما حدثت في أوروبا في القرن الثامن عشر رغم التقدم الصناعي والعلمي الذي حدث » إلا أنه لم تحقق السعادة للإنسان. ومن هنا وإن الشر الذي تحدث عنه روسو هو التفاوت والاستغلال، والشقاء والاستعباد والحروب التي حدثت بفعل ظهور الانسان التاريخي والملكية الفردية، والنتائج السلبية التي نجمت منها بفعل الصراعات على من يملك أكثر، ويستحوذ على كل شيء ومن ثمة يسيطر على الآخرين .

الكلمات المفتاحية : الحالة الطبيعية، الملكية الفردية، التطور ، الحضارة، العقد الاجتماعي.

Abstract of study:

Rousseau conducted a critical study of Western civilization and European society in the eighteenth century: he wanted to give a solution to corruption, exploitation, and the artificial disparity that was at the time, and to the moral corruption experienced by France in particular and Europe in general, and to carry out a process of

criticism and analysis of European civilization, European society, and the progress and development that occurred at the time, where it was lost Man is his humanity, his freedom, his goodness, and man has become living in slavery, in artificial shackles, in alienation and exploitation enshrined in individual ownership and artificial inequality based on power and monopoly without borders, selfishness, domination, domination and subjugation of others. Rousseau believes: "Civilization as it happened in Europe in the eighteenth century, despite the industrial and scientific progress that occurred," but it did not achieve human happiness. According to Jean-Jacques Rousseau.

Keywords:

state of nature, individual property, development, civilization, social contract.